

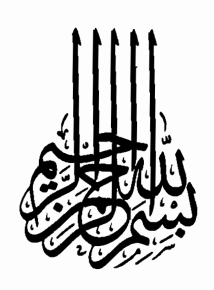
أوكار الشر

دراسة حول آل بوش ووكالة المخابرات المركزية والشكوك حول هجمات 9/11

كينيون غيبسون



أوكار الشر





كينيون غيبسون



الطبعة الأولى
1424 هـ ـ 2004 م

ISBN 9953-29-991-9



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

عين التينة، شارع ساقية الجنزير، بناية الريم
هاتف: 786233 - 860138 - 785108 - 785107 (1-961)
فاكس: 786230 (1-961) ص.ب: 5574-13 بيروت – لبنان
البريد الالكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الانترنت: http://www.asp.com.lb

تمت الطباعة في:
مطبعة المتوسط
هاتف: 860138 (1-961) – بيروت – لبنان

المحتويات



مقدمة

أنا أتهم.

لكنني أتهم من؟

بوش وشركاه؟

حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لتآمرها على قتل مواطنيها عام 1961 في كارثة شبيهة بما حدث في 9/11، حيث كانوا يخططون لإلقاء اللوم على الكوبيين؟

سماسرة الأسلحة، مثل «دوبونت»، «كيلوج براون آند روت»، أو مجموعة «كارلايل»؟

الكنيسة في أمريكا لأنها سمحت بتنصيب وتتويج المسوخ المنحرفين بحيث يستطيعون تهريب المخدرات والإتجار بها والقيام بألعاب السيطرة على العقول؟

أو، ربما، أنت وأنا. فبعد كل شيء، لم يكن الأمر ليتم دون بعض الدعم الشعبي الذي نجح العديد من المبرمجين الأشرار في حشده وتأمينه أولاً وقبل كل شيء.

هناك الكثير من الأمور الشاذة هذه الأيام، ونحن لا نستطيع تجاهلها والتغاضي عنها فحسب؛ قد لا يكون دورنا هو التالي في التعرض للإرهاب والغزو، لكننا، مثل الكاهن مارتن نيموللر من الكنيسة الألمانية الذي لم يفعل شيئاً لمساعدة الآخرين حتى جاء دوره على أيدي النازيين، سنكون أكثر حكمة إذا تحركنا الآن قبل الغد.

نظراً لازدياد التوتر في العالم وكثرة المشبوهين على نطاق العالم، أحد جوانب الحالة الراهنة يكمن في إلقاء اللوم على أمم ومجموعات عرقية أو دينية بأكملها والإساءة إليها. تفوح في الجو رائحة تعميم غير بريء؛ وفي عملي هذا أنا أفضل أن يكون قلمي مشرطاً بدلاً من أن يكون سيفاً عريضاً، مشيراً إلى الأفراد بدلاً من الإشارة إلى مجموعات واسعة من الناس. المبدأ القائل باتهام جميع الأمريكيين، جميع اليهود، جميع المسلمين، جميع المسيحيين، أو المجموع الكلي لأي جماعة أخرى، هو مبدأ باطل، وهذا النوع من الأفكار يخدم، بدرجة كبيرة، مصالح سماسرة الأسلحة الذين ينتظرون متأهبين لجمع الثروات الناجمة عن المآسي.

لا ينبغي لي، ولا أرغب، أن أخدم هؤلاء الأشرار؛ الكثيرون يفعلون ذلك، دافعين من يصغي إليهم ويتبعهم إلى ارتكاب أعمال عنف لا تجدي. هذه الظاهرة أصبحت عامة، وهي حيلة سهلة لتعبئة جماهير واسعة من الرعاع. فشخص مثل ريتشارد رايد، الشاب المضلَّل الذي حاول تفجير طائرة فوق المحيط الأطلسي، يعتبر ضحية لهذا النوع من التعابير، وفي معظم الأحيان يتضح أن هؤلاء الضحايا هم من النوع الاتكالي والكسول الذي لا يكلف نفسه عناء التدقيق في أي مطلب فعلي. رايد، على سبيل المثال، قد تكون له شكاوى ومطالب شرعية، لكنه لم يختر وسيلة التعبير الصحيحة عما يريد. الولايات المتحدة تصرفت على نحو صحيح باعتقاله وتوجيه الاتهام إليه.

ما أريد قوله هو أنه مع التعبير عن المشاعر الإيجابية نحو الأمريكيين الطيبين والصالحين، ينبغي أن أصارح القارئ بأنني سأفضح بلا هوادة كل الحماقات والفساد الذي يرتكبه الفاسدون من الأمريكيين، والعديد منهم موجود في مواقع القيادة في الولايات المتحدة. وأشعر أنه من الواجب والحق أن أضم إلى هؤلاء بعض المواطنين الصالحين ممن فشلوا في إطلاق التحذير والتنبيه من الفساد، مما أدى بالتالي إلى سقوط المبادئ والقيم الأساسية التي يزعم بلدهم أنه قام على أساسها.

عند هذه النقطة ينبغي أن أذكر شيئاً عن خلفيتي لكي أوفر للقارئ القدرة على التقييم والحكم المنطقي. أولاً وقبل كل شيء، أنا من عائلة لها روابط وثيقة مع المؤسسة العسكرية والعمل في مجال التنقيب عن النفط. أحد أجدادي كان جنرالاً قاتل في معركة إيو جيما

الشهيرة؛ وقد حصل على وسام البحرية تقديراً لأعماله، والآخر عمل لصالح شركـــة النفط «بريتش بتروليوم». اكتشف النفط في العراق وفي الكويت وفي الفلبين، وعاش سنوات عديدة في الشرق الأوسط وشارك في نشاطات الحياة اليومية والرياضة، مثل تدريب الصقور على الصيد. عاد إلى الغرب ليتقاعد، وكانت لديه وجهات نظر وآراء لا تتطابق مع تلك التي تنشرها وتروج لها غالبية الصحف ووسائل الإعلام.

في طفولتي وشبابي الأول، قضيت بعض الوقت بين شعوب مسلمة، والتحقت بالسنة الدراسية الأولى في مدرسة تركية وتعلمت لغة وعادات ذلك البلد. تعلّم اللغات أصبح ضمن اهتماماتي، وفي مرحلة ما تمت الاستفادة من ذلك في مجال جمع المعلومات الاستخبارية العسكرية والعمليات السرية ضد تجار المخدرات والنشاطات الإرهابية في مدينة نيويورك. عبر صفحات هذا الكتاب، قد أشير إلى بعض تلك الأعمال، وذلك بالرغم من أنني قد قيّدت أقوالي في هذا المجال وحددت منها التزاماً مني بالاتفاقات المتعلقة بالتفاصيل الحساسة.

ورغم أنني أكتب لجمهور واسع ومتنوع من القراء، إلا أنني مسيحي، وهو الأمر الذي قد يفاجئ البعض، باعتبار أن البعض يتوقع من كل مسيحي أن يدعم ويساند جورج بوش وغزوه للبلدان الأخرى. في الصحافة هناك بعض من يحاول تعميم هذه الصورة النمطية، والإيحاء بأن المتشددين والهيبيين أو المجرمين الخارجين عن القانون هم فقط من يعارض إدارة بوش. على العكس من ذلك، الكثير من المسيحيين يعارضون الغزو بشدة، والبعض منهم يعمل جاهداً لاتهام جورج بوش بارتكاب جرائم الحرب. وأنا كمسيحي، أمد يدي إلى العالم الإسلامي وأعبر عن رفضي لاستخدام الدين كذريعة من قبل من يحاولون سرقة النفط والاتجار بالمخدرات والأسلحة.

بوجود الإيمان أو عدمه، يوجد في كل شخص قيم وأخلاق ينبغي امتحانها. الأدميرال نيلسون حرك بحارته وقادهم إلى النصر بعبارته المشهورة: «إنجلترا تتوقع من كل رجل منكم أن يقوم بواجبه». سواء قام الإنسان بواجبه مرضاة لله، أو وطنه، أو من أجل معتقد أو غاية أخرى، هناك قيمة ومعنى مشترك في هذه المعادلة، وذلك هو ما اخترته عنواناً لهذا العمل.

الكثيرون تعلّموا كيفية التلاعب بالمشاعر الإنسانية لإثارة التعصب والحماس الأعمى والانقياد والاستحواذ، وغير ذلك من هذه الأنماط السلوكية، لكن الحس العام المشترك بين الناس هو الذي سيطغى ويسيطر. استناداً إلى القيم المشتركة والأخلاق العامة ازدهرت الأمم ونمت المصالح والأعمال، ومن دونها سينهار كل ذلك. العدو وحده يريد أن يحرفنا عن منهج تلك القيم والأخلاق، آملاً أن يبيعنا المخدرات والحرب وغير ذلك من البضائع والسلع المهلكة. حين يعتمد الناس على امتحان القيم المشتركة فسيشكلون تهديداً لأساس البنيان القائم على الشر والظلم. ويل لشخص أو أمة تتخلى عن القيم والأخلاق!

لكن بالنسبة للذين يؤمنون بالقيم والأخلاق، لا يزال هناك أمل؛ يجب أن يرفضوا دور ضحية التجسس والكذب والإثارة إلى درجة السعار الذي يمارسه عليهم القياصرة والمتطرفون الدينيون في هذا العالم.

دعونا إذاً، كما نصح سليمان النبي، نتمسك بهذه القيم البسيطة ونواجه بها الفاسدين في حياتنا وفي حكوماتنا. حين نفعل ذلك، سنرى الحقيقة وسنتحرر.

سلام

كينيون جيبسون

التعاطف مع الشيطان

اسمحوا لي أن أقدم لكم رجلاً من أهل الثروة والسلطة. عائلته موجودة منذ وقت طويل جداً، منذ أيام الحملات الصليبية ومنذ مؤامرة تفجير البرلمان البريطاني في بداية القرن السابع عشر ومنذ محاكمات السحرة في مدينة سالم بولاية ماساشوستس في نهاية القرن السابع عشر. وفي زمن أقرب من ذلك، استقل طائرة برفقة زميلين له من العسكريين أثناء انفجار القتال في الباسيفيك في العام 1944 [1]. وبناء على شهادة أحد المخضرمين، وهو جندي كان على متن طائرة أخرى قريبة، فإن ذلك الرجل الغامض كان مسئولاً عن موت الرجلين الموجودين برفقته على متن تلك الطائرة، حيث دفعه الجبن إلى الهرب والتخلي عنهما[2].

والد ذلك الضابط الأناني والجبان كان مطلوباً لحكومة الولايات المتحدة بناء على علاقته بالنازية — وهو شخص محتال تبيّن السجلات الحكومية أن إمبراطوريته المالية كانت تُدار في الواقع لصالح العدو. في العام 1942 تولى المدعي العام في الولايات المتحدة هذه القضية الخطيرة فحجز ممتلكاته لصالح الخزينة[3]. وهذا الأمر كان معروفاً على نطاق ضيق، بحيث أن الأعضاء الآخرين في هذه الأسرة لم يرغبوا في تحمل المزيد من المسئولية عن ذلك إذا علم الأميركيون الوطنيون شيئاً حول هذه المسألة.

بعد معرفة هذه الوقائع وما هو أسوأ منها، ألّف البعض كتباً عنه لتحذير الناس في وطنهم من هذا الخطر، لكنهم هم أنفسهم ماتوا في ظروف غامضة، وتم اتخاذ بعض الإجراءات والاحتياطات للتأكد من طمس هذه الوقائع. بعض شهود العيان الأحياء تحدثوا عن بعض

الجرائم ذات الطبيعة المنحرفة والسادية ضد الأطفال، بالإضافة إلى تجارة المخدرات والنشاطات الإرهابية المتصلة بهذا المخلوق وعائلته المباشرة[4].

الحزب الجمهوري يدين ويؤكد أنه ضد هذا النوع من الأعمال، وقد استخدم في أدبياته مصطلح «القيم العائلية» في العديد من المناسبات وأثناء المنافسات الانتخابية، لكن هذا الحزب لم يتحرك أبداً لمصلحة الأمة في مواجهة هذا الوحش، بل لا يزال يدعمه بحماس. آمل أنك قد توصلت بالتخمين إلى اسم هذا الشخص – جورج هربرت والكر بوش؛ لكن ما يدهش البعض هو طبيعة اللعبة التي يمارسها. من المؤسف القول أن ابنه، وهو واحد من أكثر الناس سوءاً، قد تسلّط على الخيار الديمقراطي لأكثر من ثمانين ومائتي مليون من الناس مما جعله يتخذ القرارات التي تتعلق بالشئون الوطنية وحماية الأطفال والحريات المدنية. أو يمكن القول أن عائلة بوش تتخذ تلك القرارات، وبالتالي فهي التي تحدد الأميركيين الذين سيكونون في مراكز المسئولية، أو الذين سيتم تلقيحهم ضد الأمراض، أو الذين سيتم عزلهم واعتقالهم، أو الإساءة إليهم عبر الكثير من الطرق المختلفة.

بعد أن سُمح لهذه الحالة المرضية بأن توجد وتتعزز، يعتبر التدقيق في الوقائع وتمحيصها خطوة لا بد منها، كما أن دراسة تاريخ هذه العائلة ذات الخلفية الإجرامية يعتبر جزءاً من البحث عن حلول للمشاكل التي يعاني منها العالم اليوم.

سياسة مدروسة جيداً

في السيرة الذاتية التي كتبها نيكولاس كينج في العام 1980 بعنوان «جورج بوش» قال الكاتب أن آل بوش كانوا «جميعاً من أصول بروتستانتية منحدرة من نيو إنغلاند، وقد أُعيدوا إلى نيو إنغلاند من أجل الالتحاق بمدارس تعليمية منتقاة متخصصة في تخريج القادة الأرستقراطيين»[5].

أحد هؤلاء المتعلمين جيداً كان بريسكوت بوش؛ المولود في مدينة كولومبوس بولاية أوهايو في العام 1896، وقد التحق بأكاديمية فيليبس في أندوفر بولاية ماساشوستس ثم التحق في العام 1913 بجامعة يال. بعد تخرجه من الجامعة، حصل على وظيفة في شركة «هب برودكتس كومباني». بعد قليل من انخراطه في العمل في تلك الشركة، حصلت مشاكل في الشركة وأُدين مالكها بتهمة الاحتيال. انتقل بريسكوت إلى بوسطن، وهنالك أبصر النور جورج

هربرت والكر بوش، وذلك بتاريخ 12 حزيران (يونيو) من العام 1924. ولم يمض وقت طويل حتى انتقلت العائلة إلى مدينة جرينويتش بولاية كونكتيكت.

كتب كينج أن بريسكوت «كان رجلاً وسيماً طويل القامة وذو مظهر مميز يوحي بوضوح بالانفتاح والحكمة»[6]. ويمضي كينج في قوله أبعد من ذلك، مقرراً أن معايير بريسكوت كانت «التفوق والتقدير في عالم الأعمال، خاصة على دوره في شركة براون برذرز وهاريمان كمدير إداري لتلك الشركة»[7]. هذه الوظيفة مُنحت له من قبل رولاند هاريمان زميل دراسته وزميله في عضوية نادي سكول آند بونز (الجمجمة والعظام) في جامعة يال.

ما لم يقله كينج في كتابه الوجداني وغير الموثّق، هو أن حكومة الولايات المتحدة اضطرت إلى إجراء تحقيق في تلك الشركة ومصادرة أسهمه في بعض الشركات مثل شركة هامبورغ-أمريكا للخطوط البحرية، وذلك لعلاقتها بالإرهابيين النازيين. الخلاصة التي يمكن التوصل إليها من خلال تلك التحقيقات المسجلة هي «أن قسماً كبيراً جداً من إمبراطورية بريسكوت بوش المالية كانت تُدار لصالح النازية الألمانية وقد أسهم بمساعدات كبيرة في جهود الحرب الألمانية»[8].

الدراسة المتأنية والأكثر دقة من تلك التي قدمها نيكولاس كينج ستكون مفتوحة على كثير من الوقائع مع قدر أقل من الإطراء، وستوفر للقارئ نظرة تاريخية دقيقة حول التعامل مع النازية كما كان سائداً في ذلك الوقت، بما في ذلك أعضاء نادي سكول آند بونز وغيرهم من متخرجي جامعة يال. الغش والخداع، من الناحية التاريخية، أدى في كثير من الأحيان إلى إثراء العديد من الرجال الغامضين، ومحاولة الانخراط في هذا النوع من التعامل المزدوج هو أمر ينبغي على المجتمع المتمدن أن يحمي نفسه منه.

أحد أعضاء البرلمان البريطاني لاحظ في العام 1930 وجود صفقات مالية مشبوهة، وقد أثار ذلك بعض الانتباه والشكوك حول رئيس الوزراء نيفيل شامبرلين. عضو البرلمان ذاك كان ونستون تشرشل الذي اشتم في هتلر رائحة كريهة ورفض لاحقاً أن يصدق شيئاً حول هذا الرجل سوى أنه كان مشكلة قادمة. الصفقات المالية التي أثار تشرشل حولها الضجة هي عمليات غسل أموال، وحين تم كشف النقاب عنها في مهدها من قبل البريطانيين، سرعان ما تبينت الخطوط التي تقود إلى الولايات المتحدة. هناك، في الولايات المتحدة، كان آل هاريمان وآل دو بونت وآل بوش قادرون على دعم ومساندة المجانين والمنحرفين دون أن يستطيع

عضو البرلمان البريطاني الشاب أن يرفع إصبعه في وجوههم. وبعيداً عن الرقابة والتدقيق حول هؤلاء الأشخاص وأمثالهم، لم يكتفوا بأخذ نقود النازية، بل نشروا أفكارهم أيضاً، وعملت شركات مثل «دوبونت» وجنرال موتورز على دعم ومساندة الجهود الحربية الألمانية، وهي الشركات التي استخدمها هؤلاء للإثراء على حساب دافعي الضرائب الأميركيين. البعض من قادة هؤلاء أحبوا هتلر بالفعل، وحين اجتاح الجيش الألماني فرنسا، ذهب مدير العمليات الأوروبية في شركة جنرال موتورز جايمس د. موني إلى فندق والدروف أستوريا في نيويورك لكي يحتفل علناً بالمناسبة[9].

ومن الجدير بالذكر أن ضيوف أمسية الشمبانيا والكافيار تلك لم يكونوا من الشعب الأميركي، فالحركة النازية كانت مرفوضة بأجمعها من قبل نخبة المجتمع وخاصة الوطنيين منهم، لكن المتسللين من النازيين، مثل آل بوش وآل دو بونت كانوا كالثعابين بين أوراق الشجر. آل ميللون، هاريمان، روكفلر، كارنيجي، فاريش، ستوكس، وغيرهم من العائلات التي دعمت النازية استفادت من الحرب أو حاولت تقديم المبادئ والأفكار النازية مثل الصفاء العرقي والسيطرة على العقول في الولايات المتحدة.

وحين زادت ثرواتهم ازداد نظراؤهم الأميركيين فقراً. وضمن الفجوة التي تزداد اتساعاً كان هناك مجال واسع للغطرسة، وقد كانوا قادرين على تقديم أنفسهم كمتفوقين. وليام إيرل دودج ستوكس، في كتابه الصادر عام 1917 بعنوان «الحق في المولد الجيد» كتب يقول أن 4000 أميركي فقط يستحقون إعادة الإنتاج (الاستنساخ). ستوكس هذا كان مستنسل ومربي خيول ثرياً وتاجر عقارات، وهو معروف بخيوله التي تحصل على جوائز السباقات، بالإضافة إلى ملكيته لفندق أنسونيا في الجانب الغربي المرتفع من مانهاتن. كان شخصاً محترماً جداً في المجتمع الأميركي وكانت أفكاره موضع تقدير من جانب الأثرياء والنخبة في تلك الحقبة.

لقد أثبت بريسكوت بوش نفسه كداعم مخلص لحركة الصفاء العرقي، مثله في ذلك مثل آل هاريمان، كارنيجي، وروكفلر. من هذه العصبة جاء التمويل والدعم لصالح «الخبير العنصري» المفضل لدى أدولف هتلر المدعو إرنست رودين الذي حصل نتيجة لذلك الدعم على طابق كامل في معهد كاسير فيلهيلم لعلوم السلالات والسكان في برلين. رودين كان وراء عمليات العقم القسري التي طبقها الرايخ النازي الثالث على بعض الأجناس البشرية.

إدوارد هنري هاريمان، وهو زميل دراسة لبوش وزميل عضوية في نادي سكول آند بونز، عمل بجد على تأسيس «المدرسة المتقدمة لتحسين النسل واستخلاص العوامل الوراثية» في مرفأ كولد سبرينغ في نيويورك؛ قامت أرملته لاحقاً بتأسيس دائرة «تحسين النسل». جون د. روكفلر أسس معهد روكفلر للأبحاث ومؤسسة روكفلر، والتي قال عنها ستوكس «معدّة لتكون أعظم إضافة خيرة يمكن تخيّلها بالنسبة لصحة وسعادة الأمة... إن امتنان الأمة وشكرها يجب أن يتوجها إلى السيد روكفلر»[10].

أندريو كارينجي أنفق مالاً أيضاً في مجالات البحث التافه هذه فأنشأ «معهد كارينجي للتحولات الاختبارية» في منطقة مرفأ كولد سبرينغ هاربور، حيث قام ستوكس أيضاً بإبداء الإعجاب والتقدير لذلك الشخص. وأثناء كتابته لهذه التفاهات في تقدير وإطراء المشاهير، كانت الولايات المتحدة تخوض الحرب ضد ألمانيا؛ وبالرغم من صعوبة تخيل ذلك، وفي الوقت الذي كان الجنود والمدنيون الأميركيون يعانون ويلات الحرب، كان ستوكس يدبج المديح لأعدائهم. وقد عبر عن رأيه قائلاً: «القيصر الألماني هو، دون أدنى شك، الأقدر والأذكى والقائد الأكثر حيوية الذي يجمع من الصفات التي قلّما اجتمعت في شخص واحد منذ بداية العالم؛ هو الذي جعل ألمانيا على ما هي عليه اليوم... ولا يوجد شخص عاقل واحد في كل العالم إلا ويتوجب عليه أن يرفع قبعته احتراماً لعبقريته»[11].

إذا بدا أن هذا القول يتعارض مع المشاعر الوطنية ضمن السياق الذي قيل فيه، خاصة وأنه صادر عن شخص أميركي أثناء الحرب العالمية الثانية، فإنه ليس كذلك بالنسبة لستوكس وغيره ممن يوافقونه الرأي. وهؤلاء، في الواقع، يستمدون الوطنية من ستوكس الذي أملى قيم عائلته على قيم بقية الأمة، وهي القيم التي عبّر عنها بالازدراء البارد والمتعمد، ملاحظاً «الانحطاط الراهن ضمن مواصفات المواطن الأميركي»[12]، منادياً بحكومة ينبغي أن تحدد من يحق له الزواج بحيث يمكن استنسال الأطفال المناسبين بناء على المواصفات المطلوبة، أو الذين يطابقون المعايير التي يريدها آل ستوكس وبوش وهاريمان وأمثالهم.

البعض يحاول تربية الأطفال؛ أما البعض الآخر، ممن يعرفون مهمتهم جيداً، فيستولدونهم.

دبليو إ. د. ستوكس 1917[13].

فكرة «الاستيلاد المحسّن للأطفال» هذه والحكومة التي تتحكم بالنسل هي من الأمور التي لاحظها كل من بوش الأب وبوش الابن وتبنياها؛ كاثي أوبرين أوردت في كتابها «تكوين

غيبوبة أميركا» الصادر عام 1995 كيف تم انتقاؤها بسبب تكوينها الفيزيائي وإثارتها لرغبة رجل يتحلى بالمواصفات الفيزيائية المطلوبة، بالرغم من افتقاره للصفات الأخلاقية، وذلك من أجل إنتاج النسل والذرية المطلوبة من السادة الأصفياء. بوش وشركاهم[14].

نفس الأشخاص الذين «يستولدون» الناس ضمن مشروع MK-Ultra التابع لوكالة المخابرات المركزية الأميركية CIA ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم من القادة المختارين، وطالما عبروا عن رغبتهم في أن يطبقوا مشروع النسل المحسّن على الخاصة من الناس أو حتى على أولئك الذين يعتقدون بعدم الحاجة إليهم. وعلى الرغم من حرصهم حالياً على إخفاء هذا الأمر، إلا أن ستوكس كان سعيداً بالتعبير عن نظرية الذكاء الجماعي على صفحات كتابه:

> دمنا الصافي تماماً المتحدر من نيو إنغلاند لن يختلط أبداً أو يتلوث بالدم الأجنبي غير النقي وغير السليم القادم مع أجيال المهاجرين من خلال البوابات المفتوحة على مصراعيها بقوانين الهجرة التي تسمح لهؤلاء بالتدفق والاختلاط بنا. ورحمة بـــ «طفلنا الأميركي» ومن أجل مستقبل الشعب الأميركي، ألا يتوجب على ممثلينا في الكونغرس عدم تمرير المزيد من القوانين المتساهلة في مجال الهجرة، وذلك لإيقاف هذا الطوفان من الدم الملوث؟[15]

وفي الوقت الذي كان ستوكس يجاهر باعتراضاته تلك، كان أتباعه «المخلصون» في أميركا غير قادرين على موافقته تماماً؛ وذلك ليس بسبب الرحمة والاعتراض الأخلاقي، بل بسبب الاستفادة المالية من العمال المهاجرين. ت. كوليمان دو بونت نصح في العام 1920: «تقبّل الهجرة بابتسامة. لاحقاً سنقدم لهم قليلاً من الحماية، إن لم يكن من أجل القليل من العطف، فمن أجل الغايات الأنانية التي تؤدي إلى إشاعة سمعة وطنية ستجذب أفضل المهاجرين». المدعو دو بونت هذا وضع جانباً فكرة «تشجيع الأمركة التي يمكن، بأساليب غير مباشرة، تنشيطها بهدوء وفعالية»[16].

شركة «دوبونت» قد تكون شجعت هذه السياسة، التي هي ألطف وأخف من تلك التي أعلنها ستوكس خلال السنوات الثلاث الماضية، حيث طالب الأميركيين بأن «نصون أنفسنا ونعلن للعالم بأن أميركا للأميركيين وليس للحثالة المستوردة من مختلف أنحاء الأرض»[17].

إذاً، من هم الأميركيون؟ هل المواطنين من أصول أفريقية هم أميركيون؟ على جدول أعمال «المجلس العالمي الثالث» المنعقد عام 1932 كانت «مشكلة» الأميركيين الأفارقة مطروحة والتي، بناء على المناقشات، أظهرت الحاجة إلى التعقيم من أجل «قطع الجذور السيئة»[18]. في ذلك الاجتماع حضر العديد من النازيين، بما في ذلك الدكتور إرنست رودين، الذي تمكن

من الحضور من خلال شركة هامبورغ-أميركا للخطوط البحرية التي تملكها عائلتا هاريمان وبوش.

ربما كان ستوكس فخوراً — حيث خطّ بأحرف سوداء بارزة: «بعض السلالات تتراجع وتنقرض»، ثم تابع بشكل منهجي الحط من شأن الأميركيين الأفارقة: «عقل الزنجي يصل إلى نموّه الكامل عند نهاية المرحلة التعليمية الثانية أو الثالثة أو الرابعة، كما هو واضح. ولا يوجد نظام تعليمي يمكنه أن يصحّحه»[19]. على أساس هذه الأفكار بنى ستوكس نظرياته الأولية ودعا إلى تطبيق التعقيم على معظم الأميركيين من أجل التطهير العرقي القسري، ناصحاً بأنه «ينبغي على حكومتنا أن تملك سجلات مدنية حسب الألوان، وإلا فإن أحفادنا سيتزوجون من الخلاسيين»[20].

وعلى الرغم من عدم اتباع هذه النظرة كخطة وسياسة، إلا أنه لم يتم التخلي عن هذه المسألة، حتى بعد الكشف عن الحقيقة المقززة لحركة الصفاء العرقي النازية. بوش الأب كان مهتماً بالاستماع إلى «المخاطر الناجمة عن الكثير جداً من الأطفال السود حديثي الولادة» وحين أصبح سفيراً في الأمم المتحدة في العام 1972، عمل على إعداد وإطلاق منظمة العمل التطوعي للحد من النسل (المعروفة سابقاً باسم جمعية تشجيع العقم) وذلك لتفعيل نشاطها وتأثيرها في الدول الفقيرة؛ وهو أمر ساهم في توسيعه وتنشيطه حين أصبح فيما بعد رئيساً في العام 1988[21].

العلاقة بين آل بوش وحركة الصفاء العرقي النازية ليست مجرد علاقة نزوة فلسفية، بل هي تتعدى الكلمات وتلعب دوراً من الناحية المالية والاقتصادية أيضاً. إذا نظر المرء بدقة وإمعان إلى الخيوط المتشابكة في هذا النسيج فسيجد علاماته الهامة وتأثيراته الخفية. روبرت ليدرمان كتب عن ذلك:

> أحد المؤمنين بنظرية الصفاء العرقي، مثل الدكتور جوزف منجيل استخدم المواضيع البشرية كحقل تجارب، وتلك هي البيانات التي تُستخدم اليوم كأساس للعديد من الأدوية التي يجري تسويقها في مجال الصناعة الدوائية. في نهاية الحرب، قام الحلفاء بتقسيم شركة الصناعات الدوائية الألمانية العملاقة IG Farben إلى شركات منفصلة هي اليوم الشركات المسيطرة على الصناعات الدوائية في العالم، مثل Bayer، Hoechst، BASF، Agfa-Gavaert Group و Caselle AG[22].

هل تبدو شركة «باير» شركة مشبوهة ضمن هذا السياق؟ هذه هي الشركة التي صنعت الدواء Cipro الذي اشترته الولايات المتحدة بعد الهلع الذي سببه نشر مسحوق الأنثراكس، وهو الأمر الذي سنبحثه في الفصل الثامن.

العلاقة بين آل بوش والأموال النازية لم تبدأ في الواقع حين استلم السيناتور تيم داشل (ديمقراطي – داكوتا الجنوبية) مغلفاً يحتوي على غبار مادة الأنثراكس في العام 2001؛ بل هي تمتد إلى جذور أعمق في التاريخ الأميركي وينبغي أن يتم تدريس هذه المسألة في كل مدرسة ثانوية كجزء مقرر من المنهاج الإلزامي. استناداً إلى جون لوفتوس المحقق في دائرة ملاحقة الجرائم النازية، فإن «ثروة آل بوش جاءت من الرايخ النازي الثالث»[23]. وذلك ينطبق أيضاً على آل روكفلر وشركة «دوبونت» وجنرال موتورز والبنوك وشركات النقل التي أغدقت مئات الملايين من الدولارات على شركة الصناعات الدوائية IG Farben وزودتها بالتقنيات اللازمة لإنتاج المواد الكيميائية الحيوية، مع الحصول على نفس التسجيل الصناعي والعلامات التجارية من الحكومة الأميركية.

الأميركيون كانوا في أرض الآباء والنازيون كانوا في أرض الأجداد؛ وهذا السيناريو كان ضرورياً من أجل الإعداد للحرب، أي خلق «العدو» وظروف التصادم ثم تزويد قادتهم بالمال لشراء الكثير من السلاح من شركة «دوبونت» وغيرها من شركات السلاح.

لكن الأمور لم تسر بسهولة تامة في هذا المجال بالنسبة لآل بوش، فقد كانت هناك قوانين ضد كل ما كانوا يفعلونه، وقد علمت الحكومة الأميركية بعمليات الخداع وبدأت بالتدقيق ومراقبة بريسكوت بوش وصفقاته المالية. وقد نجح المحققون بالوصول إليه في العام 1942. وضعوا أيديهم على أسهمه في الشركة المصرفية المتحدة، وهي شركة يديرها فريتز ثيسين وتضم في مجلس إدارتها إ. رولاند هاريمان بالإضافة إلى بعض النازيين المعروفين ممن لهم صلات وثيقة بحركة الصفاء العرقي النازية التي سبق ذكرها[24]. كانت لبوش أيد خفية في شركات أخرى وصل إليها المحققون، وقد كان ذلك بمثابة التحرك الوقائي الإستباقي استناداً إلى «قانون التعامل التجاري مع العدو» وهو القانون الذي ربما ساعد في حماية الكثير من الأرواح في دول التحالف، إن لم يكن قد ساعد في كسب الحرب. حين تم حل الشركة المصرفية المتحدة في العام 1951، حصل بريسكوت ووالده على مليون ونصف من الدولارات.

اشتدي أزمة تنفرجي

لا يبدو أن أياً من تلك الأمور قد أثر على جورج ابن بريسكوت بوش. تخرج من كلية أندوفر في العام 1941، وهي نفس السنة التي التقى فيها باربارا بيرس ابنة مارفين بيرس مالك داري النشر ردبوك وماك كالس، وذلك في نادي راي للرقص في نيويورك. بسبب الحرب انتقل إلى الباسيفيك حيث تم تعيينه في حاملة الطائرات الخفيفة التي تم استحداثها مؤخراً وتحمل اسم يو أس أس. انطلقت الحاملة يو أس أس من مرفأ بيرل هاربور في أيار (مايو) 1944 يقودها الكابتن هارولد مارتن وكانت مهمتها هي البحث عن سفن الأعداء وتدميرها. بوش قاد طائرة قاذفة وإلى جانبه اثنان من رماة المدافع؛ كان بوش برتبة ملازم وهي الرتبة الأدنى ضمن ضباط البحرية. في الثاني من أيلول (سبتمبر) 1944 أصيبت طائرته قرب جزيرة شي شي جيما. الطيار الشاب نجا هابطاً بالمظلة؛ أما الطائرة والرجلين الآخرين فقد فقدا[25].

ضمن التقاليد البحرية، تقول القاعدة أن «الكابتن يغرق مع السفينة». وحسب جميع المعايير، كان ينبغي أن يُسمح للمدفعيين أن يهبطا أولاً بالمظلات – وهذا الأمر كان شبه مستحيل ضمن طائرة غادرها الطيار. في وسائل الإعلام، ذرف بوش الدموع على الرجلين الذين فقدهما، لكن شاهد العيان على الحادثة، شيستر ميرزجيوسكي، الذي كان على المدفع الخلفي لطائرة أخرى متقدمة بمحاذاة طائرة بوش وكان يستطيع رؤية وجه بوش ضمن قمرة القيادة، قال لنا بأن بوش قفز على الفور، وهو الأمر الذي عجز عنه الرجلان الآخران[26]. وقد أزعجته الرواية التي سردها بوش فأتى ليروي الحقيقة؛ لقد شعر بمقدار من الازدراء والاحتقار لهذا الكذب، وخاصة بعد أن نال بوش وسام التفوق في الطيران، ومن جانب بعض الضباط الأصغر سناً من بوش، كانت تلك إهانة لكرامة الرجال الذي خدموا وطنهم بإخلاص. هناك بعض التفاصيل الأخرى التي تتعلق ببوش والتي تستحق الاهتمام، مثل فشله في محاولة الهبوط بالطائرة على سطح الماء. لقد زعم أن ذلك يشبه ما حدث سابقاً في ذلك العام حيث كانت الطائرة محمّلة بأربعة بطاريات ثقيلة وكان الأعداء يطلقون النار حوله. في الحادثة التي جرت قرب جزيرة شي شي جيما، لم تكن حمولة الطائرة ثقيلة ولم يكن ثمة حامية يابانية في الجزيرة لتعيق إنزال الطائرة، وهو الأمر الذي كان سيؤدي إلى إنقاذ حياة الرجلين الذين كانا برفقته على متن الطائرة. بالإضافة إلى ذلك، لقد تم تسجيله رسمياً كمفقود في المعركة، وهو الأمر الذي يقتضي اختفاءه لمدة ثماني وأربعين ساعة؛ صرح بوش

بأن العثور عليه قد تم بعد أربع ساعات فقط[27]، وأن سجل السفينة قد ختم منذ تلك الساعة.

الصدفة وحدها كانت وراء وجود الغواصة الحربية، الحوت المزعنف يو أس أس، بالقرب من المكان لكي تنقذ الطيار الشاب حيث استمتع طاقمها بصحبته لمدة شهر كامل. أعطي بوش إجازة راحة واستجمام في ميناء بيرل هاربور لمدة عشرين يوماً، ثم عاد للالتحاق بالسفينة يو أس أس في شهر تشرين الثاني (نوفمبر)[28]. في أوائل شهر كانون الأول (ديسمبر) أعيد بوش إلى الوطن، وقد وصل إلى مدينة جرينويتش بولاية كونكتيكت في عيد الميلاد. أعلن خطوبته على باربارا في ذلك الشهر وتزوجا في احتفال باذخ في السادس من كانون الثاني (يناير) 1945. بعد ذلك انتقل الزوجان إلى نورفولك بولاية فيرجينيا حيث التقيا بضباط آخرين وزوجاتهم، ذلك أن الحرب قد انتهت منذ عدة أشهر. في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من ذلك العام التحق بالجامعة المفضلة لدى عائلته، جامعة يال. تبعته باربارا واستأجرا شقة في الشارع القريب من السكن الجامعي. هنالك عاش بعيداً عن الحرب حيث فاتته معارك كبرى، مثل معركة أيو جيما الشهيرة التي فقدت فيها البحرية الأميركية أكثر من 2000 قتيل وأكثر من 10,000 جريح. تلك المعركة، التي بدأت في منتصف شهر شباط (فبراير) 1945، كانت معركة رهيبة وبقيت إحدى المحطات البارزة في التاريخ العسكري الأميركي. شهدت تلك المعركة اللحظة التاريخية لرفع العلم بعد خمسة أسابيع من القتال الضاري. أحد المشاركين البارزين في تلك المعركة كان بريفات بوش[29]؛ وهو لا يمت بأي صلة للعائلة السياسية التي نتحدث عنها.

كانت باربارا ذات فائدة في نجاحه، حيث أصبحت فيما بعد واحدة من أشهر زوجات الرؤساء في التاريخ. باميلا كيليان في كتابها الصادر عام 1992 بعنوان «باربارا بوش: الأم الحاكمة لسلالة من الحكام» وصفتها بأنها رياضية ممتازة وأنها من أروع الفتيات في سنوات مراهقتها؛ كما أنها وصفت بأن لديها موهبة التسبب بالأذى للناس، قاسية، كما أنها معروفة بالبطش والسيطرة على زملائها في حافلة المدرسة، حيث كانت تستهدف واحداً منهم كل يوم ليكون ضحيتها[30]. فيما بعد أصبحت باربارا من الأوصياء على جمعية أميركير الخيرية، ولو قرأ المرء في الفصل الثاني من سيرة تلك الجمعية، فإن سيرة طفولتها تلك ستفسّر الكثير من الأمور.

إذا كان من الطبيعي أن يحتل النصف الآخر من جورج، شريكة حياته باربارا، مقداراً من الأضواء والاهتمام في العديد من المناسبات، فهناك مكان واحد على الأقل لم يكن لها وجود فيه على الإطلاق؛ الزوايا المظلمة من المعبد، أو مقر نادي سكول آند بونز (الجمجمة والعظام)، وهي أخوية جامعة يال التي تأسست في العام 1832 والتي سنسلّط عليها المزيد من الضوء في الفصل الثالث. المنظـمة اخـتارت جورج للعضوية فانضم إليـها مسـتخدماً اسـم «ماغوغ»[31] وهو إيحاء بخبراته الجنسية المتقدمة. النساء، حتى الآن، لا يُعترف بهن في تلك المنظمة، ومن الصعب تخيّل وجود امرأة ترغب في الانضمام إلى عصابة من الفتيان الذين يقضون الوقت في مناقشة التفاصيل الدقيقة لمغامراتهم الجنسية خفية عن أولياء أمورهم.

جرائم وجنح

إن صدمة الخيانة والوحشية لم تكن أمراً مريحاً بعد سنوات من الكفاح؛ كان هؤلاء في الواقع يعملون ضد المصلحة العامة بالمقارنة مع الحالة الاقتصادية العامة بعد الإنفاق الهائل للموارد على الحرب، وهي حال وصلت إليها البلاد بتخطيط من آل بوش ودو بونت وثيسين وغيرهم، وهؤلاء بكل بساطة لا يأبهون و لم يفقدوا أحداً من أبنائهم في تلك الحرب. بل أنهم كسبوا الكثير من المال بسبب الحرب. بعض الودائع المصرفية العائدة لأصحاب الحظ السيئ من الناس اختفت كلياً من المصارف وتم تعطيل الكثير من التحقيقات في هذا المجال. وفي هذه الفوضى سُمح لأشخاص مثل الجنرال هانس كاملر المدير النازي للأسلحة السرية والمتهم بالكثير من جرائم التعذيب الوحشي ضد المدنيين، أن يفلت بأمان وينجو من المثول أمام محكمة جرائم الحرب في نورمبرغ، كما أن الملازم أول في منظمة أس أس النازية غونتر راينمر، المسئول عن جرائم القتل الجماعي في تريبلينكا، حمته وأنقذته وكالة المخابرات المركزية وساعدته على تلفيق تاريخه النازي فأصبح ضحية للنازية ومن الناجين من محرقة الهولوكوست؛ راينمر هذا ذهب إلى إسرائيل ودرس العبرية وتزوج من امرأة يهودية ثم عاشا معاً في جنوب أميركا. وبعد موته فقط علمت أرملته بالحقيقة، وهي أن زواجها كان عبارة عن «كذبة دقيقة حاكتها وكالة المخابرات المركزية»[32].

مهما كانت النتائج، لقد شبع الناس من ذلك، واستطاع أسوأ المجرمون والقتلة أن يفلتوا من العقاب. لقد استغل هؤلاء غفلة الناس واعتمدوا على النسيان فطواهم. وبدلاً من الاهتمام والتركيز على الحقائق المرة المتعلقة بالتضليل والتطهير العرقي الجماعي، كان من السهل على

الناس التركيز على الفرق الغنائية مثل إلفيس بريسلي والأخوة إيفرلي؛ وعلى التسلية والمتعة، خاصة التي تساعد على النسيان والهروب من الواقع، لذلك فقد امتلأت الشاشة الفضية بصور جيمس دين وهمفري بوغارت ومارلين مونرو.

يستطيع بريسكوت بوش أن يمسح حاجبيه. في الواقع، لقد قرر أن يذهب أبعد من ذلك فقرر أن يخدم وطنه؛ رشّح نفسه في العام 1950 ضد السيناتور وليام بينتون (ديمقراطي— كونكتيكت). خسر بوش الانتخابات، لكن وفاة السيناتور بريان ماكماهون (جمهوري— كونكتيكت) في العام 1952 أتاحت له الفرصة لكي يصبح سيناتوراً بالتعيين، وهو المركز الذي احتفظ به حتى العام 1962. تقاعد في تلك السنة في مترله في غرينويتش، ثم مات في العام 1972.

في تلك الفترة دخل جورج حلبة السياسة. في أوائل الستينات كان رئيساً لدائرة الحزب الجمهوري في هوستون بولاية تكساس. خاض الانتخابات لعضوية مجلس الشيوخ في العام 1964 ونادى في حملته بمعارضة قوانين الحقوق المدنية والمساعدات المالية للخارج، لكنه خسر في مواجهة الديمقراطي رالف ياربورو. ترشح بوش مرة أخرى لعضوية مجلس الشيوخ في العام 1966 واستطاع الفوز، وتكرر ذلك في العام 1968. في العام 1970 رشّح نفسه مرة أخرى لعضوية مجلس الشيوخ، لكنه لم يفلح. أحد المشاركين في حملته الانتخابية كان ريتشارد نيكسون الذي أصبح رئيساً فيما بعد، والذي أنقذ مستقبل بوش بعد خسارته الانتخابات عن طريق تعيينه ممثلاً دائماً للولايات المتحدة لدى هيئة الأمم المتحدة، وهو أمر أثار الكثير من التساؤلات باعتبار أن بوش لم يكن يملك أي خبرة سابقة في السلك الديبلوماسي، كما أن أطول فترة قضاها خارج الولايات المتحدة هي الفترة القصيرة التي قضاها في الباسيفيك أثناء خدمته العسكرية.

بعد الموافقة على ذلك التعيين، عاد هو وباربارا إلى الشرق، ثم أعدا لهما مترلاً في والدروف أستوريا في أفنيو بارك، غير بعيد عن مقر هيئة الأمم المتحدة. الانتقال إلى هذه الوظيفة لا يعني أنه قد قضى معظم وقته في نيويورك، بل في واشنطن أيضاً حيث تمكن من الوصول إلى كواليس البيت الأبيض.

الحدث الأهم في تلك الفترة من تاريخ الأمم المتحدة هو دخول جمهورية الصين الشعبية إلى هيئة الأمم المتحدة؛ بوش عارض ذلك، لكن جهوده فشلت. في العام 1971 قام هنري

كيسنجر برحلة سرية إلى بكين ومهّد الطريق للزيارة التي قام بها الرئيس نيكسون إلى الصين في العام 1972. دخلت الصين، وبعد ذلك مباشرة، خرج بوش؛ وربما كانت فترته، التي امتدت إلى أقل من سنتين، هي أقصر مدة يقضيها سفير للولايات المتحدة في هيئة الأمم. لقد اعتُبر تعيينه آنذاك كنقطة ضعف من جانب نيكسون، الذي كان مفرطاً في فترته الرئاسية الأخيرة بإحاطة نفسه بالمؤيدين، وخاصة غير المؤهلين. مجلة نيويورك عدّت بوش كأحد «أهم عشرة رجال في نيويورك»[33].

في حزيران (يونيو) 1972، قبيل الانتخابات الرئاسية، أُتّهم نيكسون في عملية تسلل كجزء من خطة تنصت على معارضيه السياسيين. المتهمون المباشرون في هذه القضية دخلوا السجن، والعديد من رجال الصف الثاني اضطروا للاستقالة، بما فيهم نائب الرئيس سبيرو أغنيو. كان وراء هذه الضجة اثنان من الصحفيين المزعجين. بدأت الفضيحة من خلال تعليق جانبي صغير في صحيفة الواشنطن بوست، ثم بدأ الناس يهتمون بالأمر على نطاق واسع حيث تم الكشف بالتفصيل عن الأكاذيب التي لفقها الحزب الجمهوري. أصبح نيكسون موضع سخرية واستهزاء في مختلف أنحاء العالم، وبدأ الكونجرس يعد العدة لإقالته.

في بادئ الأمر، اصطف بوش إلى جانب نيكسون؛ لم يكن ليسمح لعدد من الليبراليين بإفساد العرض. لم يكن مستطاعاً احتواء المشكلة، وحين ظهرت الوقائع جلية حول طلب الرئيس من وكالة المخابرات المركزية إخفاء الحقائق عن العدالة، كان الغبي جداً فقط قادراً على إيجاد الأعذار والمحافظة على صورته كسياسي نزيه. وُضعت الفأس في يد بوش، ولحماية الحزب الجمهوري من المزيد من المسئولية والخسائر، أطلق ضربته في 7 آب (أغسطس) 1974 حيث قدّم لنيكسون الرسالة التاريخية التي تطلب منه الاستقالة.

تم تعيين جيرالد فورد رئيساً، كما تم تعيين نيلسون روكفلر نائباً للرئيس. هذا التغيير في النظام كان مناسباً لبوش الذي تم تعيينه أولاً رئيساً لمكتب التعاون والتنسيق الأميركي في بكين، ثم رئيساً لوكالة المخابرات المركزية الأميركية. قد لا تكون هذه هي المرة الأولى التي يعمل فيها لصالح الوكالة كما تشير المذكرة الصادرة عام 1963 عن مدير مكتب التحقيقات الفدرالي ج. إدغار هوفر حيث ذكر «جورج بوش من وكالة المخابرات المركزية»[34]، وذلك في معرض الإشارة إلى علاقته بمحاولة اغتيال الزعيم الكوبي فيدل كاسترو. هناك ذكر له أيضاً بالتورط في اغتيال كينيدي، والتحقيق في اغتيال كينيدي قاد إلى أكثر من مجرد قصة المعتوه

المختل الذي أطلق رصاصة صائبة. اثنان آخران من عائلة كينيدي ماتا في حالات غامضة، وكانت الأصابع تشير كل مرة إلى بوش أو أطراف أخرى مرتبطة بهذه العائلة وبوكالة المخابرات المركزية. الجوانب الكاملة لهذه العلاقة الوثيقة بوكالة المخابرات المركزية الأميركية ستكون موضع مناقشة مستفيضة في الفصل 4؛ إنها قصة قصيرة وقذرة تتضمن اختطاف مواطنين أميركيين وشبكات دعارة أطفال وشخصيات نازية وتجارة مخدرات وتجسس على الكنيسة ومجموعات الحقوق المدنية.

فورد، الذي كان آنذاك الرئيس الأميركي الأول الذي وصل إلى البيت الأبيض دون انتخاب، خسر الانتخابات الرئاسية عام 1980 أمام جيمي كارتر. طُلب من كارتر الإبقاء على بوش في وكالة المخابرات المركزية، لكن كارتر كان حكيماً ورفض ذلك؛ كان كارتر قلقاً ومهتماً بكشف الأشخاص الذين اخترقوا وطنه، لذلك فقد أسس مكتب التحقيقات الخاصة — تم إنشاء مكتب التحقيقات الخاصة لملاحقة وكشف النازيين الذي اندسوا في الولايات المتحدة. كان تصرف كارتر حاسماً وضرورياً بالنسبة للوطن؛ قد يكون كارتر لاحظ هؤلاء المتطرفين العتاة الذين يسببون الكثير من المشاكل في أميركا اللاتينية والذين يقومون بخلخلة الكثير من الأنظمة. إن الاعتقاد بأنهم سيتركون أميركا وشأنها هو ضرب من البلاهة، لذلك جعل كارتر واجب ومهمة مكتب التحقيقات الخاصة القيام بهذه الخطوة الاحترازية. ومن غير المفاجئ أبداً أن هذا المكتب ألغي بعد خروج كارتر من البيت الأبيض ودخول بوش إليه.

في العام 1979 طلب من حزبه أن يعلنه مرشحاً للرئاسة، وأعلن نيته تلك في أيار (مايو) من ذلك العام. أنفق الكثير من المال والجهد من أجل هذا الهدف، لكنه لم ينل الثقة الكاملة من أقرانه الذين فضلوا عليه الشخصية الأكثر جاذبية رونالد ريغان، الممثل السينمائي السابق، ثم حاكم كاليفورنيا. ما حدث هو أنه عند المقارنة بين المرشحين، جاءت النتيجة لصالح الممثل، وذلك حين قبل ريغان بارتياح أن تكون المناظرة التي جرت في نوشوا، نيو هامبشاير مفتوحة لجميع المرشحين بدلاً من استثناء البعض منهم كما اقترح بوش[35]. بدا ريغان واضح العفوية والتلقائية وبدا مسيطراً على الوضع، وقد وفرت له مهارته المكتسبة من هوليوود قدرة على الظهور المقبول من الجمهور بالمقارنة مع الرئيس السابق لوكالة المخابرات المركزية. على كل حال، لم يكن ريغان بريئاً من بعض جرائمه الخاصة، وسنستكشف ذلك في الفصل 3.

كان السباق إلى الرئاسة حاداً والتقارب واضحاً بين المرشحين، وقبل التصويت العام بقليل، فاجأ الحزب الجمهوري الناس بالإعلان أن من بين المقترعين لكارتر نسبة معينة من المقترعين من ذوي الميول الجنسية المثلية؛ وهكذا أوحوا للناس بأن هذا الرجل سيُدخل ذوي الميول الجنسية المثلية إلى مراكز المسئولية إذا لم يتحرك المواطنون الأميركيون الشرفاء ويقترعوا لريغان وبوش. أحدث هذا الأمر ضجة، واستخدم الجمهوريون تأثيرهم في أوساط الجماعات الدينية المتشددة من أجل إقصاء كارتر، المعروف بورعه المسيحي وإخلاصه، بالإضافة إلى سجله النظيف في مجال الخدمة العسكرية والمتمسك بالقيم العائلية.

في كانون الثاني (يناير) 1981 انتقل جورج بوش إلى واشنطن نائباً للرئيس ريغان، وكانت إحدى المهام الأولى للنظام الجديد هي إجراء التغييرات في البيت الأبيض. بدأت نانسي ريغان بإعادة تأثيث البيت الأبيض وتغيير ديكوره، وأولى التغييرات كانت إزالة ألواح الطاقة الشمسية التي نصبها كارتر. نظام الطاقة الشمسية كان بمثابة المؤشر والرمز على تغيير عادة الأمة في استهلاك الطاقة، وكان يهدف إلى تحرير أميركا من الاعتماد غير المحدود على النفط وهو هدف بعيد المدى له أهمية بالغة بالنسبة للاقتصاد. إن إزالة الأمل بالحصول على مصدر محلي رخيص للطاقة هو أمر يسر أعداء أميركا فقط باعتباره سيؤدي إلى إضعاف الأمة ووضع مصادرها المالية في أيدي مجتمعات سرية ترغب في استخدام ذلك المال ضد الولايات المتحدة الأميركية. على كل حال، هذا الأمر لم يُضعف بوش؛ بل أسعده لأن أمواله كانت مستثمرة في النفط، وألواح الطاقة الشمسية لا تدفئ قلوب جمهوره ومريديه. العديد من موظفي البيت الأبيض الأساسيين في ذلك الوقت كانت لهم مصالح مشتركة في هذا المضمار، باعتبار أن للعديد منهم استثمارات مالية في شركة «تكسان» للنفط أو في الشرق الأوسط.

ضياع المدخرات

في العام 1980 حدثت في أمريكا بعض المشاكل المالية الناجمة عن اختفاء العديد من شركات الادخار والتسليف، ومعظمها في تكساس، فلوريدا، كولورادو، ونبراسكا. المراسلة بتي بريوتن الحائزة على جوائز تقدير نشرت تحقيقاً مكثفاً حول هذا الأمر بعنوان: «المافيا، السي أي إيه وجورج بوش». وقد ذكرت على وجه الخصوص شركة سيلفيرادو للادخار والتسليف؛ وهذه الشركة المصرفية المتعثرة «فقدت» الملايين تحت إدارة نيل بوش[36]. ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أنه لم تتم إدانته. هذا الجزء الكامل من التاريخ الأميركي كان

موضع دراسة من حيث الإعاقة الحكومية للتحقيقات التي مارستها أعلى المستويات الحكومية. السيناريو التالي قد يكون مثالاً حول عدم اتفاق الأمة على مواجهة هؤلاء المجرمين الذين غشوا المواطنين واحتالوا عليهم وضللوا العدالة:

القصة التي رواها رونالد بيركوفيتز، وهو مستشار تسليف، أكدها مصدر رسمي قريب من شركة صنرايز. شهد بيركوفيتز أن الرئيس التنفيذي لشركة صنرايز روبرت جاكوبي عام 1984 اجتمع مع بوش في مكتبه كنائب للرئيس حيث اشتكى جاكوبي من أن المدققين الفدراليين يضيقون الخناق على شركة صنرايز.

«بدأت حالة الإرباك حين استدعى السيد بوش، الذي أصبح في ذلك الوقت بوش نائب الرئيس، سيدة كانت تعمل تحت إمرة إدوين غراي الذي كان آنذاك رئيس الدائرة الفدرالية للتأمين على المدخرات والقروض، وأنّبها أمامه (جاكوبي)». من شهادة بيركوفيتز[37].

السيناتور جون دي كامب (جمهوري – نبراسكا) جاء أيضاً على ذكر اسم جورج بوش في عدة مناسبات أثناء التحقيق في قضية الاحتيال المالي التي حدث في أوكلاهوما والمتورط فيها لاري كينغ، والتي أدت إلى إفلاس شركة فرانكلين للادخار والتسليف. كينغ من الشخصيات المشهورة في الحزب الجمهوري ويحضر اجتماعات الرموز المهمة في الحزب لمناقشة السياسة والاقتصاد والأمور الأخرى من المتع التي يسعى إليها هؤلاء. حين تعمّقت التحقيقات، تقدم الكثير من القاصرين للشهادة ضد كينغ وشلته فيما يتعلق بالميول الجنسية المنحرفة مع قاصرين. السيناتور دي كامب استند إلى أقوال شيلا كالدر التي تعمل مضيفة في المربع الليلي المسمى «المقهى الفرنسي» والذي يملكه لاري كينغ:

«إذا طلب زبائن لاري كينغ المخدرات، الكحول الثقيلة، الأطفال أو العاهرات (إناث أو ذكور) فسنحضر لهم ذلك. وأثناء استمتاع ضيوف كينغ – مع الفتيان من الجنسين – كان كينغ يجلس ويراقب وهو يشرب أو يتناول الكوكايين مع مداعبة الأولاد... لو تم الكشف فعلاً عن هذه القضية وفضحها بالكامل فسيظهر فيها الكثير من الشخصيات المهمة. كينغ وجماعته أفسدوا حياة الكثير من الأطفال»[38].

في هذه القضية، كانت «الشخصيات المهمة» تتضمن بالفعل العديد من الأسماء المعروفة؛ بعضها كان في مراكز السلطة وفي الصحافة، وهذا ما جعل المضي قدماً في التحقيقات أمراً في غاية الصعوبة، حتى بالنسبة لسيناتور أميركي. إحدى العاملات في الحقل الاجتماعي، جولي والترز، سجلت حالة إحدى الضحايا على النحو التالي:

«نيللي رافقت أيضاً السيد والسيدة كينغ وبرينس (ابنهما) في رحلة إلى شيكاغو ونيويورك وواشنطن العاصمة، وقد بدأت الرحلة حين كانت في الخامسة عشرة من عمرها. خسرت

واحداً وعشرين يوماً دراسياً وهي المدة التي استغرقتها تلك الرحلات. الحجة المستخدمة لأخذ نيللي في هذه الجولة كانت الزعم بأنها حاضنة الطفل برينس. في السنة الماضية قابلت جورج بوش نائب الرئيس ثم رأته مرة أخرى في إحدى الحفلات التي نظّمها لاري كينغ أثناء تواجدهم في العاصمة واشنطن. في بعض الحفلات كان هناك رجال فقط (كما كان الحال في الحفلة التي حضرها جورج بوش) – رجال كبار وشبان في أوائل العشرينات من العمر. في الحفلات الأخرى التي أقيمت أثناء جولة لاري، أحضر لاري بعض الداعرين المحليين (الذين تتراوح أعمارهم بين العشرينات والثلاثينات) لتسلية وإمتاع ضيوفه الذكور...

في تلك الحفلات، قالت نيللي بأن كل ضيف من الضيوف كان برفقة حرسه الشخصي، وقالت أنها رأت بعض أولئك الرجال يحملون الأسلحة. جميع الضيوف كانوا يحملون بطاقة خاصة يتم إدخالها في آلة تدقيق للتأكد من هوية الضيف الحقيقية. بعد ذلك يتم تفتيش الضيف بدقة قبل دخوله إلى الحفلة»[39].

في اجتماع عقد عام 1990، نطقت بالأمر إحدى الشابات: «أعتقد أن جورج بوش متورط في قضية الانحراف المقزز هذه، وهذا هو السبب في موت كل أولئك الناس»[40].

بعد خمس سنوات ظهر كتاب مثير أيد ما قالته تلك الشابة. كاثي أوبرين التي كشفت أنماط السلوك المرتبطة بالاعتداء الجنسي على الأطفال من جانب بوش وغيره من الشخصيات الرسمية في الحكومة الأميركية، غاصت عميقاً في الموضوع كي تدعم وتؤيد ما ذهبت إليه، بما في ذلك تقديمها نسخاً عن شهادات ولادة وفحوصات طبية عائدة لابنتها. وبالرغم من أن الكتاب المذكور الذي يحمل عنوان «تكوين غيبوبة أميركا» يتضمن أسماء العديد من قادة أميركا، من الجمهوريين والديمقراطيين، إلا أن جهودها الهادفة إلى الوصول إلى العدالة تمت عرقلتها من قبل الرسميين المنحرفين. بدأت القصة بهروب عميلة سابقة لوكالة المخابرات المركزية الأميركية، وقد استطاعت الإفلات بسبب الدعم الذي تلقته، في بحثها عن العدالة، من الكنيسة وآخرين من ضحايا الانتهاكات الحكومية. لكن الذين ساندوها لم يتمكنوا على كل حال من التغلب على الخط الهاتفي الأحمر الذي وضع من أجل حماية المتهمين في تلك القضايا[41].

المدعي العام لولاية نبراسكا غاري كارادوري كان أيضاً ضحية لهذا النوع من المكالمات الهاتفية. حين داهم المحققون الفدراليون مكاتب شركة فرانكلين للادخار والتسليف، وضعوا أيديهم على مقدار كبير من مواد الممارسات الجنسية، بما في ذلك أشرطة الفيديو. أُخفيت الأدلة وتلقى موظفو شركة فرانكلين للادخار والتسليف تهديدات بفقدان وظائفهم إذا تحدثوا

عن هذا الأمر. أعيقت جهود كارادوري في الوصول لوائح الركاب على شركات الطيران التي تثبت تمويل الجمهوريين لرحلات سفر لاري كينغ بصحبة الأطفال. استخدموا ضده مكتب التحقيقات الفدرالي ومنع من الوصول إلى مبتغاه وتم تحذيره بضرورة التراجع عن هذه القضية[42].

لم يتراجع كارادوري؛ وقد وُجد ميتاً في أحد الحقول بتاريخ 11 تموز (يوليو) 1990 في حادث سقوط طائرة. مات معه أيضاً ابنه البالغ من العمر ثمانية سنوات. كان يحمل معه في تلك الرحلة قائمة بعناوين الكثير من السياسيين المهمين، لكن تلك القائمة اختفت أثناء التحقيق في الحادث[43].

شخص آخر وُجد ميتاً، الشخص الذي أشار بإصبعه إلى الشخصيات المهمة في الحزب الجمهوري، وهو كريغ سبنس. سبنس المذكور أدلى بتصريح في شهر حزيران (يونيو) 1989 مما أدى إلى ظهور سلسلة مقالات على الصفحة الأولى في صحيفة الواشنطن تايمز. أحد تلك المقالات، المؤرخ في 29 حزيران (يونيو)، حمل عنوان «المعلومات المتعلقة بدعارة اللواط تفضح شخصيات مهمة مرتبطة بريغان وبوش» سبنس كان معروفاً في أوساط واشنطن كشريك في أعمال الدعارة التي يديرها لاري كينغ. في وقت لاحق من ذلك العام، وضع موت سبنس في أحد غرف فندق بوسطن نهاية لهذا التركيز على كينغ وشلته من أصحاب المناصب الرفيعة[44].

هذان الشخصان لم يكونا الضحيتين الوحيدتين للموت المفاجئ المرتبط بهذا التحقيق. كاثلين سورنسين العاملة في الحقل الاجتماعي المسيحي تعرضت لتهديد متكرر لأنها تحدثت ضد هذا الانحراف. عملت مع الأطفال من ضحايا هذا الاعتداء الذي مارسه عليهم الأغنياء والمشاهير، وما قالته سبب إحباطاً للكثير من الناس. ومن المؤكد أن الأنباء التي أعلنت موتها في شهر تشرين الأول (أوكتوبر) 1989 كانت موضع ترحيب وارتياح لدى الصف الأول من قادة الحزب الجمهوري. ماتت في حادث سيارة غامض في نبراسكا، وبالنسبة للعاملين في هذه القضية، لم يكن موتها أمراً مفاجئاً[45].

جورج هربرت والكر بوش أبعد نفسه عن كينغ قبل أن يذهب الأخير إلى السجن. تم التخلص من كينغ وإبعاده، ومن المؤكد أنه سيكون قادراً من جديد على استرداد موقعه في الحزب الجمهوري.

هناك مشاكل أخرى مرتبطة بجورج بوش والبيت الأبيض خلال تلك السنوات، وفي بعض المناسبات كان الأمر يستدعي تذكيره بالحدود والقيود التي وضعها القانون فيما يتعلق بتشكيل جماعات الضغط التي تساند شركات صناعة الأدوية[46].

التناقضات

فضائح شركات الادخار والتسليف لها ارتباطات بالإخفاق المتكرر الذي منيت به وكالة المخابرات المركزية الأميركية على المستوى الدولي؛ مسألة إيران كونترا. من يستطيع أن ينسى الكولونيل أوليفر نورث ومحاكمته؟ إذا بحث المرء في هوليود فلن يستطيع العثور على ممثل أفضل أداءً منه. كانت الأسلحة والمخدرات تُنقل من مكان إلى آخر حول العالم تحت غطاء الأمن القومي، وكل شخص من الذين تم القبض عليهم كانت تظهر عليه هالة من البراءة ويضع على وجهه ابتسامة وكأنه يقول: «ماذا؟ أنا أكذب؟!». إن الذي ساعد الكثير من هؤلاء على النجاة هو التعقيد الشديد للمسألة، لذلك انطوت هذه المسألة بعيداً عن اهتمام الغالبية العامة من الناس، والمهتمون والمتابعون لهذه القضية، بما فيهم الرئيس ريغان، هم من ذوي الذاكرة المحدودة، ويكفيهم، إذا استطاعوا، أن يتذكروا أسماء المتورطين بهذه المسألة.

بعض المواطنين الأميركيين كانوا من ضمن المجموعات التي رعت ودعمت الجولات الخطابية التي قام بها أوليفر نورث وآخرون لإظهار «الحقيقة» كما يزعمون، وكان هناك على الدوام جمهور يرغب بالدفع لمن يكذب عليه ما دام ذلك يوفر له إثارة المشاعر والعواطف التي لا تتطلب منه جهد التفكير والتمحيص. لاري كينغ كان أحد الداعمين لهذه الجماعة التي تريد تزيين أهدافها البغيضة، لذلك تبرع بمبلغ 25350 دولاراً من أجل المساعدة في تسويق رؤيتهم «للحقيقة». أوليفر نورث حضر واحدة على الأقل من حفلات كينغ التي يكرم ضيوفه فيها بإحضار الأطفال لهم، وهذه حقيقة رواها أحد الحراس الأمنيين السابقين، حيث قال: «بدا الأمر أشبه بشيء لا يصدّق، المسألة برمتها»[47].

عندما انفجرت الفضيحة، ولم يكن الناس يستمعون «للحقيقة» التي دفع كينغ المال لإظهارها، شعر بوش أن الوقت قد حان للخروج من المسألة، لذلك أرسل طالباً الصابون ليغسل يديه من المسألة برمتها بشكل علني. على كل حال، كان باستطاعة أي شخص أن يشم رائحة الغدر. في كتابه المعنون «الابن المحظوظ» أورد الكاتب هاتفيلد ما يلي:

«المشكلة بالنسبة لبوش نائب الرئيس تجاوزت دوره كمشجع وفي ومخلص للرئيس ريغان وخليفة منتظر له. بوش كان مديراً سابقاً لوكالة المخابرات المركزية وعضواً في مجلس الأمن القومي؛ وأعضاء ذلك المجلس كانوا هم من دبر صفقات الأسلحة وكانوا هم المصفاة التي تصل من خلالها الأموال إلى جماعات الكونترا. السيناريو الأسوأ حدث حين أبلغ الرئيس ريغان الصحافة أن نائبه لم يبد أي اعتراض على شحنات الأسلحة إلى إيران، وهو التصريح الذي يعتبر مناقضاً كلياً لما صرح به بوش حول ما أبداه من «تحفظات معينة» حول «جوانب معينة» من الصفقة مع إيران. بالإضافة إلى ذلك، الجنرال المتقاعد من سلاح الجو ريتشارد سيكورد شهد أمام لجنة التحقيق المشتركة في الكونغرس التي كانت تحقق في فضيحة إيران– كونترا بأنه متأكد من أن بوش نائب الرئيس قد حضر أحد الاجتماعات المخصصة لمناقشة العملية السرية التي تهدف إلى نقل الأسلحة إلى جماعات الكونترا في نيكاراغوا. شهادة سيكورد استدعت تصريحاً بالنفي من مكتب نائب الرئيس، وجاء في النفي أن بوش لم يحضر أبداً اجتماعاً كهذا. أحد تقارير الكونغرس الذي ظهر لاحقاً تضمن أحد سجلات البيت الأبيض الذي يبيّن بشكل مؤكد بأن بوش قد حضر بالفعل الاجتماع المذكور المنعقد في 6 آب (أغسطس) 1985 [48]».

بالرغم من المشاكل الناجمة عن صفقات الأسلحة وتجارة المخدرات، استطاع الجمهوريون البقاء في البيت الأبيض لعشرات السنوات. جورج هـــ. دبليو بوش ترشح للرئاسة في العام 1988 مدعوماً من الرئيس السابق ومن غالبية النخبة في حزبه. ورغم فوزه بالانتخابات، إلا أن ذلك الفوز لم يتحقق دون خسائر في الطريق؛ ففي أيلول (سبتمبر) من ذلك العام ظهر مقال في مجلة «واشنطن جويش ويك» بيّن تماماً الجهة التي دعمت حملة بوش الانتخابية. أظهرت الوقائع أن عدداً من المسؤولين الكبار في الحملة كانوا من النازيين السابقين، بما في ذلك المدان بتهمة التعاون مع العدو أثناء الحرب المدعو لازلو بازتور الذي كان عضواً جمعية السهم الصليبي الهنغاري وهي جمعية ارتكبت جرائم كبرى ضد المدنيين. بازتور المذكور كان من الأعضاء الممولين للمجلس التراثي الجمهوري. ومن أعضاء الحملة أيضاً رودي سلافوف رئيس «البلغاريين من أجل بوش» وهو الذي دافع عن المدان بجرائم الحرب النازية فاليريان تريفان؛ نيكولاس نازارينكو وهو عميل سابق ضمن وحدة أس أس النازية؛ ميثود بالكو الناشط ضمن وحدة ج أو بي والذي عمل بنشاط لصالح النظام النازي؛ والتر ميديانوفيتش رئيس وحدة ج أو بي البيلاروسية والذي عمل بشكل لصيق مع المجموعات النازية أثناء الحرب؛ وبوهدين فيدوراك رئيس التجمع المعروف باسم «أوكرانيون من أجل بوش»، والذي أدار مجموعة نازية قامت بأعمال تصفية وتطهير عرقي [49].

صحيفة فيلادلفيا إنكويرر نشرت موضوعاً في العاشر من أيلول (سبتمبر) في ذلك العام أكدت من خلاله الحقيقة المرعبة؛ استخدم بوش سلطته لمساعدة بعض مناصريه على الإفلات، لكنه كان ذكياً بحيث لم يفعل ذلك دفعة واحدة، بل على دفعات، وذلك لتفادي انتشار القصة على نطاق واسع. لقد فاز بانتخابات 1988، ومن المعتقد أنه لو انتشرت تلك الأخبار على الفور فإن النتيجة ستكون مختلفة. لقد عمل بقوة على الحصول على حصة كبيرة من أصوات الناخبين اليهود في تلك الانتخابات.

وعندما دخل إلى مكتبه في البيت الأبيض، انفجرت حرب الخليج؛ العراق اجتاح الكويت في شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1990 وقد تم استخدام الجنود الأمريكيين لإخراج صدام حسين، الحليف السابق للولايات المتحدة والذي كانت وكالة المخابرات المركزية تدعمه. كان صدام حسين في ذلك الوقت مدججاً بأسلحة تشكل خطراً حقيقياً على جيرانه في المنطقة، وكانت هناك مخاوف من استخدام الأسلحة النووية أو البيولوجية أو الكيميائية؛ كانت المخاوف جدية باعتبار أنه كان مدعوماً من وكالة المخابرات المركزية وكانت لديه الاتصالات التي تمكنه من الحصول على تلك الأنواع من الأسلحة. قبل وقت قصير من اندلاع الحرب، عمل صدام حسين على تعزيز ترسانته الحربية، وكان يرغب بشكل خاص في الحصول على نوع من الغازات التي تستطيع التغلب على الأقنعة الواقية من الغازات التي يستخدمها الجنود البريطانيون والأمريكيون. لم يكن طلبه ذاك سهلاً، لكنه عثر على مورِّد يستطيع إنتاج الغاز المدمِّر في فلوريدا، ثم يستطيع بمنتهى الذكاء نقله عبر ولايات تكساس، إللينويز، ميريلاند، ثم عبر الأردن لكي يصل إلى العراق في الوقت المناسب. من هم هؤلاء الأذكياء الذين يستطيعون تنفيذ هذه العملية تحت أنف السلطات الأمريكية؟ بوش، بوش ورمسفيلد[50].

كان التدخل العسكري في الخليج أمراً يمتاز بالمستويات التقنية العالية، وقد تم اعتبار ذلك التدخل عملية سهلة، باستثناء بعض «النيران الصديقة» من جانب الأمريكيين مما أدى إلى مقتل بعض الجنود البريطانيين. وعلى الرغم من اعتبار ذلك العمل ناجحاً بشكل عام، إلا أنه لم تتم إعادة انتخاب بوش في انتخابات 1992 عندما رشّح نفسه ضد حاكم ولاية أركنساس، بيل كلينتون، الذي لم يكن معروفاً تقريباً. بعد انتهاء الحرب، تبيّن أن الجنود الأمريكيين قد تعرضوا لإشعاعات اليورانيوم المنضَّب وأن العديد من الصفقات السرية قد تمت

مما أدى إلى تعريض حياة الجنود الأمريكيين للخطر، وقد قام بهذه الصفقات بعض الأطراف التي تاجرت مع صدام حسين؛ وهذا الأمر يعتبر تكراراً لعملية بناء ودعم هتلر من قبل جنرال موتورز و«دوبونت» التي اغتنمت الفرصة لاكتساب فوائد هائلة من الحرب التي تعرف جيداً كيفية خلقها وتسويق مبرراتها للرأي العام.

من المعتقد أن الرئيس بوش خسر الانتخابات لأسباب متعددة ومتداخلة، بعضها يعود إلى صورته «الهزيلة» التي كونتها عنه الصحافة ووسائل الإعلام، وإلى حالة الاقتصاد أثناء فترته الرئاسية والشبهات التي دارت حوله فيما يتعلق بتزويد صدام حسين سراً بالأسلحة لكي تزداد ثروته ويصبح أغنى. لقد تحسّن وضع الاقتصاد أثناء رئاسة بيل كلينتون الذي كان من جميع النواحي ذو شخصية كاريزمية ولم يكن مستثمراً مباشراً في شركات الأسلحة. من المعروف أن الأسواق تزدهر وتنمو في الأوضاع المستقرة وانتشار روح الاستقامة في البلاد بشكل عام. الديكتاتوريات العسكرية والحكومات التي تتعرض للشبهات والتحقيقات لا تغري ولا تجذب الاستثمارات، وأمريكا ليست استثناء في هذه المعادلة.

لو استطاع الناس أن يكتشفوا ما فعلناه، فسيطاردوننا في الشوارع ويعدموننا. جورج بوش (الأب) في عدد حزيران (يونيو) 1992 من نشرة أخبار سيرتش ماكليندون[51]

الابن

جورج هربرت والكر بوش (الابن)، المولود بتاريخ 6 حزيران (يونيو) 1947 في نيو هافن بولاية كونكتيكت، كان الابن الأكبر بين ستة أطفال – باولين روبنسون (روبن)، نيل مالون، مارفين بيرس، جون إلليس (جب)، ودوروثي والكر. روبن كانت الوحيدة التي لم تكتب لها الحياة فماتت في العام 1953 في الرابعة من العمر.

«بوشتايل»[52] (الذيل الكثيف) كان اللقب الذي حمله جورج في طفولته لعدة سنوات وهو اللقب الذي يبرز مجدداً من وقت لآخر. في ميدلاند بولاية تكساس اكتسب ذلك الاسم من قبل العديدين من أمثاله ممن ولدوا أصلاً في الشرق لكنهم جاءوا إلى الغرب بحثاً عن الذهب الأسود. أقامت العائلة في شارع يسمى «إستر إيغ رو» والوالدان درّسا في مدرسة الأحد التابعة للكنيسة المشيخية. وبغض النظر عن المظهر المتدين للعائلة، «بوشتايل» كان ولداً شقياً؛ حاضنته، بوكي بوش، تتذكره كولد شرس وقد تم استدعاء والدته بربارا إلى المدرسة مرات

متكررة حين كان جورج الصغير يثير الفوضى في الصف أو يخوض قتالاً مع زملائه[53]. عرف عنه أيضاً القسوة الشديدة مع الحيوانات – أحد رفاق طفولته يتذكر مرة أن الجو كان ماطراً وكانت الضفادع منتشرة، وكان جورج يمسك الضفادع ويضع في أفواهها المفرقعات النارية ثم يراقبها بتلذذ وهي تنفجر[54]. في مرحلة لاحقة من حياته أدين بتهمة الصيد خارج الموسم، حيث قتل طائراً من طيور الزقزاق الأمريكي ثم حاول الادعاء بأنه حمامة[55]. عدم الاهتمام العام بالحياة البرية هو ما لاحظته عليه العديد جماعات حماية البيئة، وهو السلوك الذي قد يكون نشأ معه في وقت مبكر من حياته.

أُرسل جورج إلى أكاديمية فيليبس في أندوفر بولاية ماساشوستس، متتبعاً بذلك خطا والده، وهو المسار الذي حافظ عليه حين انتقل أيضاً إلى يال. في كلا المدرستين كان متميزاً في لعبة البيسبول، حيث أصبح قائد الفريق في يال، وقد اشتهر بقدرته على التقاط الكرة وهو يضع القفاز خلف ظهره. العلامات الدراسية لم تكن نقطة قوته؛ كان يجتاز امتحان اللغة الإنجليزية بصعوبة. في أحد الامتحانات، حاول استخدام كلمات قوية ومعبرة لوصف حالة عاطفية متحركة، فكتب «التجاعيد انهمرت على خدي». لكن الدموع انهمرت على خديه حين رأى العلامة «صفراً كبيراً بارزاً»[56].

الحياة الاجتماعية ربما كانت إيجابية؛ تم انتخابه «رئيس مشجعي» فريق كرة القدم الجامعي، وكوالده، انضم إلى نادي سكول آند بونز (الجمجمة والعظام) تحت اسم «تيمبوراري» (المؤقت)[57].

دوره كعضو في نادي سكول آند بونز يلعبه في الخفاء بطريقة ما، لكن دوره كرئيس لمشجعي فريق كرة القدم كان جهداً أكثر علانية – وأفضل ذكرياته حين حققت يال نصراً نادراً على الفريق الضيف برينستون. ذلك الفوز استدعى إقامة احتفال صاخب، مما استدعى بالتالي حملة اعتقالات؛ تم اعتقال بوش[58]، لكن لم تتم إدانته أبداً، كما لم يتم اعتقاله أبداً بعد ذلك. في ذلك العام أصبح والده عضواً في مجلس الشيوخ.

الوظائف لم تكن ضرورة اقتصادية ملحة في حياته، أتت وذهبت؛ كان معروفاً بسرعة الاستقالة من العمل، بما في ذلك وظيفة في أحد حقول النفط في لويزيانا، وهذه الحقيقة أحبطت والده. مشكلة أخرى أثارت اهتمام بوبي (وهو الاسم الذي كان يطلق على الأب جورج)، وهي انكباب ابنه على الشراب. أحد زملاء الدراسة بتذكر: «والد جورج (الابن)

كانت لديه شبكة تجسس ضمن مدرسي يال وضمن أعضاء الأخويات، وحتى ضمن زملاء الغرفة، وكان يستدعيه إلى هاوستون فيقرأ عليه تقارير مفصلة حول ما يقوم به في جميع الليالي وعطل نهايات الأسبوع وفيها أنه كان يأتي إلى الصف في حالة سكر ويقود السيارة بسرعة جنونية بعد تناول كميات كبيرة من الكحول»[59].

البطل يفر من الواجب

في الوقت الذي كان فيه جورج يقود المشجعين ويحتسي الجعة في يال، كان الآخرون من أقرانه إما أن يرسلوا إلى الحرب أو يتظاهرون ضد الحرب والمجازر الفظيعة التي كانت ترتكب بحق المدنيين باسم الأمن القومي؛ إلا أن بوش لم يفعل أي من الأمرين. في سيرة ذاتية منشورة في العام 1999 بعنوان «واجب المساعدة» سرد بعض المؤشرات حول تطوعه في «التخفيف عن طياري المهمات الثقيلة»[60]، لكن تمحيص الوقائع يبيّن أنه لم يتطوع أبداً للخدمة في فيتنام؛ قدم طلباً للخدمة كحارس في الحرس الجوي الوطني، وهي الخدمة التي كانت تستقبل قائمة طويلة جداً من الطلبات، معظمها مقدّم من قبل أبناء الأثرياء الذي يأملون في إبعاد أنفسهم عن جبهات القتال. بوش انتظر على هذه القائمة لمدة يوم واحد، ثم قال في ذلك الجزء من سيرته الذاتية: «يمكنهم القول أنني كنت سأصبح واحداً من الطيارين العظماء والخالدين»[61].

ما حدث بالفعل هو أن ما يقوله يناقض ما يقوله غيره، مثل الجنرال المتقاعد وليام تورنيبسيد الذي طُلب من بوش أن يقدم نفسه إليه. في شهر تشرين الأول (أكتوبر) 2000 عرضت مجموعتان مختلفتان من قدامى محاربي فيتنام جوائز مالية لمن يستطيع العثور على سنة خدمته المفقودة. حتى الآن لم يفز أحد بتلك النقود ولا تزال معروضة[62].

السيناتور إنويي (ديمقراطي—هاواي) بحث أيضاً عن الوقت المفقود في خدمة بوش العسكرية، قال: «أثناء خدمتي العسكرية، لو أنني أضعت من وقت التدريب سنتين، على الأقل، فسيتم تحويلي إلى محكمة عسكرية»[63].

عندما تم استدعاءه لإجراء الكشف الطبي السنوي، وهو الكشف الذي يُظهر استخدام المخدرات، لم يستجب مما أدى إلى إيقافه عن الخدمة في العام 1972. صحيفة بوسطن غلوب كتبت: «في الأشهر الثمانية عشر الأخيرة من خدمته العسكرية بين العامين 1972 و 1973، لم يقم بوش بأي طيران على الإطلاق. وفي أغلب الأوقات، لم يكن بوش موجوداً في

الخدمة... ومن شهر أيار (مايو) إلى شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1972، كان بوش موجوداً في ولاية ألباما منخرطاً في العمل ضمن الحملات الانتخابية لمجلس الشيوخ، وقد كان مطلوباً في ذلك الوقت لمتابعة التمارين والتدريبات العسكرية ضمن إحدى وحدات الحرس الجوي الوطني في مدينة مونتغمري... الجنرال المتقاعد وليام تورنيبسيد، الذي كان قائداً لوحدة ألباما في الحرس الجوي الوطني، قال في مقابلة معه أن بوش لم يظهر هناك أبداً لتأدية واجبه»(64).

في حملة بوش الانتخابية، في العام 2000، قُدمت قطعة مبعثرة وممزقة من سجل الحضور كدليل إثبات (ولم تتضمن ذكر الشهر أو السنة، أو الاسم الأخير)؛ وقد تبيّن أن تلك البقايا غير الواضحة ليست حتى من سجلات الحرس الجوي الوطني بل هي من وحدة السجن في احتياط السلاح الجوي(65).

في خريف العام 1973، وكعقوبة عسكرية تلقائية، تم نقل بوش الابن إلى قسم الاحتياط التأديبي في دنفر بسبب عدم إطاعته لأمر الحضور الإلزامي لتدريبات القتال الجسدي

بيل بوركيت، وهو ضابط سابق في الحرس الوطني في تكساس، قال أن معاوني بوش قاموا بتزوير السجل العسكري. وحسب قوله، قاموا بعدة رحلات إلى كامب مابري لكي يتأكدوا من جعل السجل مطابقاً للنسخة التي تم تقديمها في السيرة الذاتية لبوش(66).

لذلك، إذا لم يكن بوش في ذلك الوقت منخرطاً في القتال ضد الشيوعيين دفاعاً عن الديمقراطية وعن النموذج الأميركي، فأين كان؟ وماذا كان يفعل؟ السؤال حول شبهة تعاطي المخدرات في سني شبابه المبكر برز إلى العلن مرة أخرى أثناء حملته الانتخابية للرئاسة عام 2000. دار الحديث حول إدمانه على تعاطي الكوكايين أثناء وجوده في البيت الأبيض، وكان رده على أي سؤال متعلق بالمخدرات رداً غامضاً.

«هل تعاطيت أبداً الكوكايين؟» طُرح عليه هذا السؤال المباشر في الرابع من آب (أغسطس) من قبل صحيفة نيويورك دايلي نيوز(67). بوش ظل صامتاً ولم يجب. وكالة أسوشيتد برس طرحت عليه سؤالاً مماثلاً، ومرة أخرى ظل بوش صامتاً ولم يجب. غاري باور، وهو من مؤيدي الحزب الجمهوري، شجع على الرد بصدق على تلك التساؤلات(68). التهرب من الإجابة فُسّر من جانب البعض على أنه نوع من البراعة، لكنه في نهاية الأمر أزعج معظم الناس. الردود اللاحقة كانت عبارة عن أجوبة ملتوية وغير شافية ومشفوعة بتمسك متطرف

بالقانون مع إعادة تفكيك السؤال الأصلي المطروح. صحيفة يوأس توداي كتبت أن «بوش متورط في شيء ما... إذا كانت تهمته بسيطة، فلماذا يخفيها؟»[69].

مجلة «صالون ماغازين» أوردت تقريراً يزعم بأنه في نهاية الستينات أو بداية السبعينات تم الحكم على بوش من قبل قاضٍ في تكساس بتنفيذ عقوبة الخدمات الاجتماعية مقابل تنظيف سجله المتضمن استخداماً إجرامياً للمخدرات، وأن تنفيذ تلك الخدمة قد تم في مركز مارتن لوثر كينغ جي آر للخدمة الاجتماعية في هوستن[70].

من المفترض أن يؤدي التدقيق في رخصة قيادته إلى إثبات هذه القضية، لكن ذلك سيؤدي إلى جدل آخر؛ لقد تم تغيير وتعديل رخصة قيادته في العام 1975[71]. تم تبرير ذلك التغيير «لأسباب أمنية»، لكن رخصة قيادة والده لم يطرأ عليها أي تعديل، بالرغم من أن والده كان آنذاك في البيت الأبيض لثلاث فترات متتالية.

هاتفيلد أحس بوجود خطأ، فبدأ يحقق بالأمر. الخلاصة التي توصل إليها هي أن بوش قد أدى عقوبة الخدمة في أمكنة مختلفة، وأن القاضي، الذي يمت بصلة قرابة إلى آل بوش، هو في الواقع ديمقراطي وليس جمهورياً[72]. ذلك الانعطاف والدوران الحاد في مسار المسألة أدى مرة أخرى إلى إلقاء المزيد من الإبهام حول تفاصيلها، والوقت الذي انقضى في مناقشة الأمر ومقابلة من كانوا على علاقة بذلك الماضي البعيد، وربما عبر تقديم المعلومات الخاطئة من قبل الفريق الساعي إلى إعادة انتخاب بوش، كل ذلك أدى إلى ضياع المسألة الأساسية. هذه عينة فقط من العديد من الجرائم التي ارتكبها هؤلاء الذين يملكون الثروة والسلطة، وهذا هو السبب الذي سهّل للنازيين سبل الفرار من العقاب ومكّنهم من متابعة عملياتهم بعد الحرب العالمية الثانية.

الابن البار

لو أن جورج الابن ضاع أو فقد أثناء خدمته العسكرية، فإن قائده كان سيجده بسهولة تامة عن طريق إرسال فريق بحث وإنقاذ إلى المركز الرئيسي للحزب الجمهوري. بالنسبة لهذا الحزب، كان جورج الابن، مثل والده وجده، عظيم الفائدة: السياسة كانت في دمه، وكان الأفضل في هذا الحقل.

مع مرور السنوات تلقى نصيباً وافراً من الشتائم واللوم من هؤلاء الذين وصفوه بالرجل الغبي؛ صحيح أن حماقاته قد سببت أذى وإهانة لكثير من الأمريكيين، لكن السياسة لا

تتطلب نفس المجموعة من المهارات المطلوبة من الأمريكيين في العديد من مجالات العمل الأخرى. في السياسة ينبغي على المرء أن يعرف أعداءه وكيفية التعامل معهم؛ الكذب والابتزاز والخيانة والازدواجية هي المهارات المكتسبة والمطلوبة في هذه اللعبة؛ إجادة فن التضليل هو الذي أكسب العديد من السياسيين شهرة واسعة؛ القليل جداً فقط من الشرفاء المستقيمين استطاعوا الوصول إلى أول درجات السلم.

في العام 1978 أراد بوش الابن أن يشترك في هذه اللعبة فطلب من حزبه تسميته مرشحاً لمقعد في مجلس الشيوخ في ميدلاند بولاية تكساس. واجه حاكم أوديسا جيم ريز، وهو تكساسي حقيقي فضح خلفية بوش «اليانكية». في ذلك الوقت، إن لم يكن بوش من مواطني ميدلاند، إلا أنه كان مرتبطاً بعلاقة حميمة مع أحد مواطنيها؛ تزوج من جارته لورا ويلش التي كان لها تأثير إيجابي على نجاحه؛ كانت أمينة مكتبة ولم يعرف عنها التورط في أي مشكلة. ومع وجود هذه الرفيقة المحترمة، استطاع بوش الفوز بترشيح حزب والده، لكنه خسر الانتخابات أمام كِنت هانس، حتى مع نفقاته الانتخابية التي تزيد عن نفقات هانس بنسبة 33%[73].

مهارات بوش الابن وضعت موضع الاستخدام أثناء الحملات الانتخابية لريغان/بوش ثم بوش/كوايل التي عمل فيها كمستشار أول. في وظيفته تلك كان شديد الحماس والتعصب وكان شديد الحماية والرعاية لوالده. حين كتب آل هنت في صحيفة وول ستريت جورنال في العام 1988 أن جاك كيمب سيكون مرشح الحزب بدلاً من بوش (الأب)، أعلن بوش الابن الحرب؛ يروي هنت أنه كان وزوجته وابنهما البالغ من العمر أربع سنوات يتناولون الغداء في أحد مطاعم تكساس فجاء إليهم بوش الابن وشرع يصرخ بصوت مرتفع ويشتم «أنت يا (...) يا ابن العاهرة، قرأت ما كتبته، لن ننسى ذلك أبداً»[74].

تجاوزه للأدب والاحترام لم يتوقف عند إطلاق الشتائم والتجديف على مسمع من الناس؛ كاثي أوبرين سجلت أمثلة عن السادية واغتصاب طفل في العام 1980. مرة أخرى، تذوق الابن والأب هذه المتع، وحيث عملا معاً كفريق متماسك[75]، استطاعا إلحاق الأذى بعدد من الناس في الوقت الذي كانا فيه يؤكدان على القيم العائلية والإخلاص الوطني لأمريكا.

ولا بد من القول أن كلامي هنا، بصيغة الإدانة، يجب ألا ينصب على كل هؤلاء، وقد يكون الوقت قد حان لإعطاء البعض قيمتهم التي يستحقونها. هاتفيلد، على سبيل المثال، لا

يذكر فقط الحقائق القذرة حول هذا الموضوع، بل يسرد بكل أمانة النقاط القوية والإيجابية. إحدى النقاط الإيجابية التي ساقها كمثل كانت في مناسبة معينة حين أمر الطلاب المتقدمون في أخوية جامعة يال من طلبة المرحلة الأدنى التابعين لهم تسمية زملائهم من المبتدئين. معظم الطلاب استطاعوا ذكر ثلاثة أسماء أو نحو ذلك، لكن جورج بوش الابن ذكر أسماء الخمسين طالباً بالكامل.

مارك كريسبن ميللر، أثناء تأليفه لكتاب «معجم الأخطاء: رصد الركاكة الوطنية»، وهو كتاب يتضمن سرداً لأشهر الأخطاء التي يرتكبها القاطن الحالي في المكتب البيضوي، لاحظ كماً هائلاً من الأخطاء. كتب ميللر: «لا يجد صعوبة في الالتزام بالقواعد حين يتهدد ويتوعد وحين يتحدث عن العنف...حين يتبختر وينفخ صدره إلى الأمام تكون تعبيراته وقواعده مقبولة... لكن فقط حين يغوص في مسائل أخرى مثل الرحمة أو المثالية، حينئذ يرتكب تلك الأخطاء المشهورة»[76].

وحيث سرد بعضاً من زلات بوش المشهورة، مثل «أنا أعلم مدى صعوبة أن تضع الطعام على عائلتك»، أشار ميللر[77] إلى أن هذا الخطأ ليس ناجماً عن ضعف في التعبير، بل بسبب عدم الاهتمام بالناس الذين يعانون من صعوبة وضع الطعام على الطاولة.

وضع الطعام على الطاولة لم يكن صعباً أبداً بالنسبة لعائلة بوش؛ وينبغي القول أن ذلك لا يعني بالضرورة أنهم كانوا ناجحين باستقامة. أن التدقيق في الصفقات التي مرت بين أيديهم قد يبيّن ويفسر سبب حالة تراجع أمريكا في عهد إدارة بوش؛ لا تتوقع منه أن يضع طعاماً على عائلتك...

اللعب بالأسهم

كتب بول كروغمان «في العام 1986 كان على المرء أن يعتبر السيد بوش رجل أعمال فاشل. لقد تصرف بملايين الدولارات من أموال الناس و لم يكن لديه سوى شركة خاسرة تنوء تحت وطأة ديون ثقيلة»[78].

في العام 1989 كان بوش مسجلاً على كشف رواتب العاملين في شركة هاركين للطاقة. خسرت تلك الشركة 12 مليوناً، لكن بوش تسلّم مبلغ 120 ألفاً مع خيارات أسهم تساوي مبلغ 131.250 دولاراً. في العام 1990 خسرت الشركة 40 مليوناً من الدولارات وهبطت قيمة الأسهم إلى 3 ملايين بعد أن كانت 70 مليوناً في العام 1988. المحلل المالي في وول

ستريت باري ساهغال قال عن الشركة «فيها الكثير من الغش والمقامرة»[79]. الإفلاس بدا وشيكاً.

على كل حال، بعض الصفقات وجدت طريقها إلى شركة هاركين، وقد حصلت الشركة على حقوق التنقيب عن النفط في البحرين. لكن هناك مفاجأة صغيرة، حيث أن أصحاب هذه الشركة ليست لديهم الخبرة في تلك المنطقة، لكن معرفة المنطقة ليست مشكلة باعتبار أن أحد أعضاء مجلس إدارة هاركين ليس سوى الشيخ عبد الله بخش. بخش هذا هو نفسه بخش المرتبط ببنك الاعتماد والتجارة والدولي الذي أفلس[80].

رغم أن الأمر بدا جيداً، إلا أن المشاكل بدأت تبرز في الشرق الأوسط، وقبل أن تسوء الأمور، هبط على بوش شيء من الإلهام: في الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) 1990 باع معظم أسهمه في شركة هاركين، باع 212.140 سهماً بسعر 4 دولارات للسهم الواحد محققاً ربحاً مقداره 848.560 دولاراً. عملية البيع تتطلب من الناحية القانونية توجيه إخطار فوري إلى لجنة السندات والنقد، لكن مستندات بوش لم تصل إلى اللجنة إلا بعد ثمانية أشهر لاحقة. في شهر آب (أغسطس) 1990 بيَّن التقرير الفصلي لنشاط الشركة خسارة مقدارها 23.200.000 فهبطت أسهم الشركة هبوطاً حاداً[81]. بوش المحظوظ نجا في الوقت المناسب. لم يكن محظوظاً فقط في بيع الأسهم، بل «اقترض» من الشركة مبلغاً قدره 180.375[82] دولاراً و لم يُعد ذلك المبلغ إلى الشركة.

كل تلك الحركات والأعمال قد تجعل الحاجبين يرتفعان دهشة وربما أدت إلى دخول البعض إلى السجن، خاصة أن بوش قد اطلع سراً على التقرير الذي وضعته شركة التدقيق سميث بارني حول الوضع الحقيقي لشركة هاركين، وأن والده مطلع أيضاً على التقرير السري حول الخطة الموضوعة لغزو العراق. بعض تلك الحواجب التي ارتفعت، كما ذكرنا آنفاً باختصار، تعود لبعض معارف والده، السيد ريتشارد بريدن الذي صودف أن الرئيس بوش عيّنه رئيساً للجنة السندات والنقد. بريدن المذكور ساعد بوش الابن سابقاً حين كان أحد المحامين الذين تم تعيينهم لإجراء المفاوضات بشأن صفقة تكساس رانجرز، وهي الصفقة التي أكسبت بوش 15 مليون دولار[83].

عملية البيع التي تمت في 22 حزيران (يونيو) لم تكن العملية الوحيدة التي لم يبلغ عنها بوش في الوقت المناسب، كما يقول هاتفيلد «بوش تجاوز أيضاً الوقت المحدد للإبلاغ عن عمليات

تجارية داخلية أخرى تتعلق بشركـــة نفط دالاس، كمـــا هو مبين في سجلات لجنة الأمن والنقد»[84]. بول كروغمان يسخر من الأعذار التي قدمها بوش كما يلي: «المحامي أكل مستنداتي-أربع مرات»[85].

جامعة هارفارد كانت من الخاسرين في هذه اللعبة. ضمن سيناريو يصلح كأغنية يؤديها المغني الهجائي توم ليهرير، اشترت هارفارد للإدارة، التي تدير مداخيل الجامعة، عشرة ملايين سهم. «استثمار هارفارد في شركة هاركين التي تعمل في مجال النفط والغاز أدى في نهاية الأمر إلى خسائر بمقدار 200 مليون دولار تقريباً من مداخيل الجامعة»[86].

تعليق بوش على ذلك كان: «أستطيع بكل راحة أن أنظر في أعينكم وأقول لا ذنب لي في ذلك»[87].

في العام 1992 ساعد بوش والده في حملة إعادة انتخابه، وفي العام 1994 دخل بنفسه إلى الحلبة. تغلب على الحاكم الراهن لولاية تكساس، آن ريتشاردز، وقد تفوق عليها بمقدار الإنفاق على الحملة بنسبة كبيرة. حين غادرت ريتشاردز المكتب، تركت لخَلَفِها الاقتباس التالي من الإنجيل: «إكره الشر وأحب الخير، أقم الحساب على البوابة»[88].

من المهم جداً أن نلاحظ أنه عند أدائه لقَسم استلام المكتب في 20 كانون الثاني (يناير) 1995، انضم إليه بالصوت والدعم القس بيللي غراهام. غراهام هذا، وفي صَلاته العلنية أثناء حفل التسليم شكر الخالق على نعمة بريسكوت بوش (نفس الشخص الذي اتهمته الحكومة الأمريكية بدعم والتعامل مع النازية)، ووجّه الشكر إلى «جورج هـــ. دبليو بوش وباربارا بوش على المثال الأخلاقي الذي ضرباه لنا جميعاً»[89].

لو أن غراهام جال بعينيه على بعض الضيوف ذلك اليوم لكان رأى إشارة، بل عدداً كبيراً من الإشارات في الواقع، تذكّره وغيره من ذوي الأرواح المضلّلة بأن المثل الأخلاقي الذي تحدث عنه يفسّره البعض بأنه «فضيحة شركات الادخـــار والتسليف»، «فضائح بيدوفيل»، «القتل»، «الأعمال الشريرة لوكالة المخابرات المركزية»، إلخ...

أول مشاكل الحاكم بوش في المكتب كانت مع دائرة الشرطة. في العام 1993، تمكن بوش ومساعديه بنجاح من معارضة وعرقلة اقتراح قانون ضد حمل الأسلحة. مارك كلارك، الناطق باسم المنظمة المشتركة لفرض القانون في تكساس، بيّن مخاطر هذا الاقتراح، مؤكداً على

وجهة نظره القائلة «دعونا نضع بين أيدي الناس مزيداً من الأسلحة لنجرب ونحل مشكلة العنف»، وهي وجهة نظرة بالغة الغباء[90].

بوش لم يكتف بدعم مبدأ انتشار الأسلحة، بل «مارس الضغط» على عدد من المشرعين الأساسيين في تكساس لمعارضة أي نوع من شروط التأمين أو الاختبار التي ينبغي على حاملي السلاح الخضوع لها[91]. ذهب أبعد من ذلك بكثير فأنشأ حركة التحذير من ضبط السلاح. ثم استطاع أن يجعل المجموعات المحلية لمنظمة الآباء والمعلمين تعارض الاقتراح وتصفه بأنه غير أميركي.

قضية جو بيسارابا كانت سبباً من الأسباب التي جعلت البعض يسمي أفعال بوش بأنها أفعال جنونية. في الواقع، جو نفسه سمي مجنوناً؛ «جو المجنون» استحق بالفعل لقبه هذا، ذلك أنه هاجم أحد رجال الشرطة، وكان يقود سيارته في حالة سكر شديد وتطوّع لتلقي المخدرات على سبيل الاختبارات. وعلى الرغم من تلك الأفعال، رأت ولاية فلوريدا أنه مؤهل لحمل رخصة سلاح، هو وأكثر من 150.000 شخصاً آخر. بعد أن أصبح مسلحاً، استمر جو المجنون في ممارسة حياته المعتادة وتلميع اسمه وإثبات نفسه عبر إطلاق النار على الشرطي سيدني غرانجر في هوليود بولاية فلوريدا في شهر أيار (مايو) 1990. قتل في ذلك الحادث أحد المارة وأصيب آخر بإعاقة دائمة[92]. أثّر هذا الحاث في مشاعر الكثير من الناس وطالبوا بتحكيم العقل في أرض تعاني من ارتفاع مخيف في مستوى العنف.

تكساس حصلت على نصيبها الخاص من أمثلة الجنون، وحادث إطلاق النار الذي جرى في شهر نيسان (أبريل) 1995 على يد مسلح مختل في مدينة كوربس كريستي فجّر ردود أفعال عنيفة في أوساط المواطنين ورجال الشرطة. المعتدي، الذي جرح وقتل خمسة أشخاص قبل أن ينتحر، ترك بموته ما يشبه الوصية لإيقاظ أولئك المسؤولين في ولايته الذين يطالبون بتوزيع المزيد من أسلحة القتل وتركها بين أيدي من هبّ ودبّ. هنري غاريت، مدير الشرطة في كوربس كريستي، عبر بوضوح عن مشاعره حول هذه القضية أثناء مناقشة هذه المأساة في مدينته: «أعتقد أنه ينبغي إرسال نوع من الرسالة القوية جداً إلى المشرِّعين الذين دعموا بقوة هذا القانون السخيف».[93]

«العار على الحاكم جورج دبليو بوش» هو عنوان مقال بقلم سوزان غلاس في صحيفة هيوستن كرونيكل[94]. وقد أكدت في مقالها أن هذه المسألة يجب أن تكون من أول القضايا

التي ينبغي إجراء التصويت حولها. ومن المؤسف، بالنسبة لكثير من الناس، أن القوانين التي دعمها بوش قد مرّت وتم تطبيقها. وفي اليوم الذي تم فيه التصديق على تلك القوانين والتشريعات، انهمرت بعض الدموع في مجلس النواب، كما هو الحال بالنسبة للنائب كيفين برادلي (جمهوري) الذي صوّت ضد تلك القوانين ثم بكى بحرقة[95]. والد برادلي كان قد قتل في العام 1979 على يد رجل يحمل رخصة حمل سلاح. جرت تلك الحادثة في المحكمة، وقد نجح المعتدي بقتل والد زوجته السابقة ثم أطلق النار على القاضي فقتله أيضاً.

مع زيادة الخطر من المجرمين الذين يحملون الأسلحة غير المرخصة، تابع بوش جهوده في زيادة الخطر من خلال عدم العمل على اعتقال هؤلاء المجرمين ووضعهم في السجون. انتقد سلفه لأنها كانت رقيقة مع الجريمة، لكنه يقوم الآن «بفتح أبواب السجون وإطلاق سراح المجرمين». هذه الإجراءات ينبغي أن تكون موضع ترحيب البعض، وقد تكون موضع سرور شديد من طرف كورال أوجين واتس ولورانس روسل بريوير الابن.

تم القبض على واتس عام 1982 بتهمة الشروع بالقتل. رجال الشرطة اكتشفوا أنه مذنب بالعديد من الجرائم الأخرى، وفي نهاية الأمر تبيّن أنه قتل ما لا يقل عن ثلاثة عشر امرأة أخرى، لكن البعض يؤكد أن الرقم قد يصل إلى خمسين. سيتم إطلاق سراحه من السجن في العام 2004 وهو العام الذي يصادف الانتخابات الرئاسية القادمة، وقد يستطيع التعبير عن امتنانه وشكره بطريقة ما؟

بريوير شخص أبيض متطرف له سجل إجرامي طويل وقديم وقد استفاد كثيراً من القدرات القيادية للحاكم، وربما من انعدامها. وهو في الواقع حر طليق حالياً، وقد أعلن عن اختفاء أثره في أيلول (سبتمبر) 1979. بريوير المذكور، وبالاشتراك مع جون ويليام كينغ وشون ألن باري، تحرشوا بأمريكي أفريقي متوسط العمر كان عائداً إلى منزله من حفلة خطوبة. في البداية عرضوا على ضحيتهم، جيمس بيرد، أن يقلّوه إلى منزله. لكن ما حدث بدلاً من ذلك هو مظاهرات صاخبة أشعلت البلاد بأكملها. قام الثلاثة بتعرية بيرد من ملابسه وضربوه ثم قيّدوا ساقيه بسلسلة ربطوها بمؤخرة الشاحنة وسحلوه عدة أميال على الطرقات. التحقيقات بيّنت أن بيرد كان حياً أثناء تلك المحنة، ويمكن للمرء أن يتصور مقدار المعاناة التي مر بها على أيدي هؤلاء المنحرفين والمختلين.

تمت محاكمة بريوير وشريكيه في الجريمة وأدينوا، وقد تم تنفيذ حكم الإعدام بالشريكين. وفي حين أن عمليات الإعدام تلك تعتبر أمراً يمليه الواجب والعدالة، إلا أن البعض يشعر بالسرور لاستخدام الحقنة القاتلة معبراً عن موقفه هذا بأسلوب بغيض. الكثير من الناس رحبوا بذلك باعتباره تحقيقاً للعدالة وحماية للمجتمع، لكن يبدو أن بوش ذهب أبعد من ذلك للتعبير عن مزاجه ومشاعره، في الواقع «احتفل بموهم» كما لاحظ البروفسور في القانون في جامعة هيوستن دافيد دو[96].

بوش ضحك بصوت عال حول قضية كان فيها محامو الدفاع في تكساس يغطون في النوم أثناء مرافعتهم عن الموقوفين الذين حكم عليهم لاحقاً بعقوبة الموت[97].

آخرون لاحظوا أيضاً تلك الميول المرضية لدى بوش، وكلماته التي نطقها مع ابتسامة واسعة «خمّن ما الذي سيحدث لهذين الرجلين»[98] فُسّرت على أنها نوع من الخلل الأخلاقي. كانت بمثابة الإهانة والأذى لكثيرين ممن صوّتوا له. وهناك مثال آخر من هذه الميول لدى بوش سجّله غاري باور، وهو من أنصار الحزب الجمهوري، حين كان يراقب وقائع محاكمة سجينة أخرى من تكساس، كارلا فاي توكر، التي استأنفت عام 1998 الحكم بإعدامها. باور روى أن بوش بدا وكأنه يسخر من توكر ويستهزأ بها رافضاً أن يظهر الشفقة نحوها[99]. لارس نيلسون كتب في صحيفة نيويورك دايلي أنه رأى بوش يهزأ بتوكر قائلاً وهو يقلّد صوتها «أرجوك لا تقتلني»[100].

قضية توكر كانت إحدى القضايا الهامة على المستوى الوطني. أدينت توكر بجريمة قتل مزدوجة تمت في 13 حزيران (يونيو) 1983. اعتادت على تقطيع أوصال ضحاياها حتى الموت، وهو فعل كانت تستمتع بممارسته آنذاك، حتى أنها صرحت برغبتها في أن يُفعل بها الأمر نفسه. في السجن، تغيّرت حياتها تغييراً جذرياً ومؤثراً. وحيث تركت خلفها حياتها القديمة وما فيها من قيم ومبادئ، اعترفت بالمسئولية عن أفعالها وأعلنت توبتها واتباعها تعاليم المسيح. كرست نفسها للعناية بالسجناء والأحداث المنحرفين، وتلقت الدعم والمساندة حتى من عائلات الضحايا. حين رفضت المحكمة الأمريكية العليا استرحامها الأخير وحددت موعد الإعدام بتاريخ 3 شباط (فبراير) 1988، ارتفع عويل حاد وساد الناس وجوم شديد. عند هذه النقطة كان الحاكم وحده يستطيع إيقاف تنفيذ الحكم بالإعدام.

بيانكا جاغر، التي تعمل لصالح منظمة العفو الدولية، قابلت توكر قبل موتها مباشرة وقد أدهشها إيمانها. عضو الحزب الجمـــهوري والمذيع التلفزيوني بات روبرتسون ظهر في برنامج «60 دقيقة» لكي يعلن أن بوش «هو الذي سمح بموت هذه المرأة الصالحة، إنه رجل لا يعرف الرحمة»[101]. العديد من الوزراء شاركوا في الاحتجاج، لكن لا نصائحهم ولا أصوات الذين انتخبوه استطاعت ثني بوش عن غايته.

حل التاريخ المحدد والملايين راقبوا وانتظروا القرار. عقد بوش مؤتمراً صحفياً نقلته محطات التلفزيون العالمية لكي يعلن أن الإعدام سيتم في موعده. انسحب مباشرة ولم يرد على أي سؤال حول الموضوع. بعد دقائق نطقت توكر بكلماتها الأخيرة في هذا العالم، معتذرة لعائلات الضحايا ثم توجهت نحو مصيرها. في الساعة 6:45 بعد الظهر (بالتوقيت المعياري المركزي) أُعلن موت توكر. عند إعلان النبأ، كانت هنالك أصوات فرح وأصوات نحيب. كانت المرة الأولى التي يتم فيها إعدام امرأة في تكساس منذ الحرب الأهلية.

في وقت لاحق من ذلك العام تولى بوش قضية إعدام أخرى، لكن هذه المرة كان الأمر يتعلق برجل يدعى هنري لي لوكاس. لوكاس هذا تم تشخيصه نفسياً كمضطرب وسادي. قضى ما يقارب العقد من الزمن كشريك جريمة لأوتيس توول، وقد وصل به الإجرام إلى درجة أكل لحوم البشر والاعتداء الجنسي على الأموات. عندما تم القبض عليه، اعترف بمئات جرائم القتل. خمس وعشرون ولاية أميركية فقدت بعضاً من بناتها بسبب هذا المخلوق. قصته ذات أبعاد ملحمية، حتى أن تفاصيلها تبز بعض أسوأ التراجيديات الإغريقية. إحدى جرائمه المبكرة كانت قتل أمه ثم اغتصاب جثتها. لم يكن هناك صوت شعبي واحد يطلب الرحمة له في هذه القضية، لم يكن هناك وزراء يتقدمون الصفوف للدفاع عن هذا الوحش، ولا أفراد عائلات الضحايا يقترحون العفو[102].

لكن في بعض الأحيان يتصرف رجل واحد بمفرده، ورجل كهذا يخصص جزءاً من وقته الضيق وجدول أعماله المزدحم ثم يدعو لاجتماع لجنة العفو والإفراج المشروط في تكساس طالباً منها الشفقة على لوكاس، متجاهلاً احتجاجات المدعين العامين ومعارضاً حتى عقائد الحزب الجمهوري[103].

لو أن موازين العدالة قد انحرفت باتجاه طريف في قضية لوكاس، فربما لجأ بوش إلى حركة مضادة لكي يضمن التوازن. دع البريء يعاني، وإذا حدث وكان البريء أميركي أفريقي، فقد

تكون وجهة النظر أن «الأمر لا يستحق العناء». في أحد سجون تكساس حكم على أحد النجارين بقضاء أحد عشر عاماً من حياته. حكم عليه عام 1985 ظلماً بتهمة الاغتصاب، وقد أثبتت أدلة اختبارات الحمض النووي مؤخراً براءة كيفين بيرد. لجنة العفو بأكملها والقاضي والمدعي العام المحلي في هذه القضية جميعاً نصحوا بوش بالعفو عن بيرد. لكنه تجاهل هذا العدد الكبير من الناصحين والمستشارين. النائب روث جونز ماكليندون تساءلت علناً «إذاً ما هي المشكلة؟»[104]. وفي النهاية انتصر الإحساس بالعدل وتم إطلاق سراح بيرد.

قضية جيمس بيرد الابن السابقة (الذي لا يمت بصلة لكيفين) لم تشعل الاحتجاجات فقط، بل ألهمت أيضاً التشريع والمشرعين. قانون «منع جرائم الكراهية» تم سنّه استجابة ورداً على هذه الفظائع. حدثت جريمة أخرى من هذا النوع في ذلك العام، حيث قُتل ماثيو شيفارد على أيدي مجموعة من المراهقين المتهورين والمختلين، مما أدى إلى اندلاع احتجاجات عنيفة أخرى، وقد دعمت جميع الأحزاب السياسية الأمريكية هذا القانون من أجل حماية الناس من أخطار انتشار جرائم الكراهية والحقد، وذلك عن طريق توسيع صلاحيات السلطات الفدرالية ومنحها مزيداً من القدرة على التحرك.

مرة أخرى، وقف بوش ضد صوت المنطق والعقل. لم يرغب بتوقيع قانون كهذا، مما أدى بالتالي إلى ارتفاع أصوات التحذير من جميع الجهات، بما في ذلك المجموعات الدينية التي يدعي تمثيلها. المجموعات اليهودية-المسيحية، التي يزعم بوش الانتماء إليها، أوضحت بجلاء بأن العنف بغيض ومكروه ويقود ويناقض العدل. رينيه مولليتر، ابنة جيمس بيرد الابن، ضغطت وناشدت إدارة بوش في العام 1999 المساعدة على التصديق على هذا القانون، وقالت في مقابلة في تشربن الأول (أكتوبر) 2000 بأن بوش قال لها بوضوح أنه لن يتمنى تمرير القانون. فيما بعد، ومع كل ذلك الضغط، انحنى بوش أمام العاصفة وعبّر عن دعمه العلني للقانون، وهو أمر وصفته مولليتر بالنفاق[105].

رجل القانون المتميز ذلك العام

في تموز (يوليو) 1999 ظهر في صحيفة توليا سينتينيل المحلية (في بلدة توليا-تكساس) عنوان رئيسي يقول: «تم تنظيف شوارع توليا من القمامة»[106]. رجال الشرطة، الذين قاموا بالمهمة، طهروا المدينة من «الحثالة موزعي المخدرات». تشير تلك الإعلانات إلى حادثة جرت في 23 من ذلك الشهر حين تم اعتقال ستة وأربعين شخصاً من سكان المدينة من قبل رجال الشرطة

بتهمة توزيع المخدرات وجرائم أخرى ذات صلة. أربعين شخصاً من المعتقلين كانوا من الأمريكيين الأفارقة، وقد تم إدراج واحد من كل اثنين من البالغين الأمريكيين الأفارقة ضمن قوائم البحث والتحري عن المشبوهين.

ما هي الدلائل المثيرة التي وجدت في منازل هؤلاء الأوغاد المشبوهين؟ لا شيء. لا مخدرات، لا أسلحة، ولا حتى نقود.

إذاً، ما هي الدلائل التي كانت بحوزة رجال القانون بحيث يجتاحون منازل الناس ويعتقلونهم؟ أدلة غير كافية، يصعب على أي كان تصديقها. لهذه المأساة أبعاد هزلية، كما تبين لاحقاً بأن القضية بأكملها جعلت الولاية موضع تندر وسخرية ليس في أمريكا وحدها، بل في مختلف أنحاء العالم.

هذه المسألة المؤلمة بكاملها كانت مبنية على أقوال عميل واحد هو توم كوليمان. بالنسبة لكيزي وايت، وليام لوف، بيلي دون وافر، فريدي بروكيتر وعشرات غيرهم، كانت أقواله كافية لإفساد حياتهم وإدخالهم إلى السجن إلى جانب السجناء الإجراميين(107).

هل كانت لديه صور فوتوغرافية؟

لا.

أشرطة تسجيل صوتي؟

لا.

هل كان شرطياً سرياً متمرساً وخبيراً؟

لا.

هل كانت هناك أية بصمات للمتهمين على المخدرات التي قدمها كوليمان؟

لا.

لكن هل أثّرت أي من تلك الأمور على النظام الغبي والعنصري؟

لا على الإطلاق.

المتهمون كانوا إما من خلفية إثنية معينة، أو، وربما كان هذا هو الأسوأ بالنسبة للمحلفين، متزوجاً أو مرتبطاً بعلاقة ما مع أفراد من الطبقة الراقية؛ أفراد أبرياء تم إرسالهم إلى السجن، وأحدهم حكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة وأربعين عاماً(108).

حسناً، إذا كان المرء يستطيع تصديق إنرون أو أي من عصابة بوش، إذا فسيكون من العدل والمنطق انتقاد مواطني بلدة توليا لسذاجتهم. في قضية كوليمان، ظهرت العديد من إشارات التحذير، وبناء على المعايير والقيم المعتمدة من قبل غالبية المواطنين، لم يكن ليسمح لكوليمان بكتابة حتى إيصال في موقف للسيارات. في الواقع، رب عمله السابق اتهمه بالاستيلاء على بطاقة ائتمان، وفي الوقت الذي كان يقوم فيه بإجراء «التحقيقات»، كان هو نفسه موضع اتهام. أحد زملائه السابقين في العمل وصفه بأنه «كذاب بالفطرة» وأنه «مخبول يحمل ثلاثة مسدسات»؛ وقد استخدم أحد تلك المسدسات لإطلاق النار على النافذة الزجاجية لسيارة الشرطة التي يستخدمها. كان معتاداً على استخدام كلمة «زنجي» وكان يستخدمها ليس على سبيل الاحترام كما يفترض، بل على سبيل الاحتقار. جيف بلاكبورن، محامي الدفاع عن المتهمين، وصفه بأنه «نمرود خاسر... رهينة مريض في لعبة الآخرين». وفي مكان آخر، طردته ولاية أخرى بتهمة ممارسة العلاقة الجنسية غير السوية مع زميلة له[109].

بالرغم من ذلك كله، بعض الناس صدقوه وآمنوا بأقواله. حتى دون امتلاك أي مستندات وأدلة ملموسة، انضموا إلى جوقة الغالبية في تلك الولاية. في تلك الولاية، في تلك البلدة، يوجد حي صغير ناء ومهمل في الأطراف الغربية للولاية، وهناك تعامت الأعين عن الحقيقة، ربما اقتداء بالحاكم. مسألة الغياب الكلي للأدلة تم التعامل معها بكلمة واحدة، حين أخبرهم كوليمان بأن «السكرتيرة ألقت التسجيلات في القمامة»[110].

ذوو الرائحة الكريهة أرسلوا ستة وأربعين بريئاً إلى السجن ووضعوا أموال دافعي الضرائب بين يدي فاسد اشترى بها المخدرات.

بالتأكيد تم إجراء تحقيق حول التحقيق. كان ذلك مطلباً ملحاً وصل إلى المدعي العام للولاية جون كونرين، ثم تم تجاهل الأمر. كونرين ارتقى في المناصب حتى أصبح فيما بعد عضواً في مجلس الشيوخ عن ولاية تكساس، والمسألة كلها ضاعت من خلال الخطوط الهاتفية الحمراء التي استخدمتها إدارة بوش بين أوستن وواشنطن.

وما تقدم لا يعني القول أن إدارة بوش لم تلق نظرة على الأقل على هذا التعدي الفاضح على العدالة — لم يلقوا نظرة فقط على المسألة، بل أثنوا على ذلك الخلل وأخذوا علماً باسم توم كوليمان؛ سمّوه رجل القانون المتميز لذلك العام. حسناً، هذا هو «وطن بوش»، وأنا الآن

أعلم تماماً ما الذي دفع أحدهم ليكتب أغنية بعنوان «السعادة في تكساس من خلال المرآة الخلفية».

...والبيت الأمريكي النظيف

إحدى المرايا الخلفية تلك تعود لجورج بوش؛ مع أن عيناه اللتان تنظران من أعلى لن تتوقفا للحظة كي تريا الانعكاسات. إن التدقيق في وضع الولاية كما تركها يكشف عن مآس ورعب حقيقي. تحتل هذه الولاية المرتبة 50 من 50 من حيث الإنفاق على البرامج الحكومية، لكنها قادت البلاد إلى مستوى هائل من التلوث الجوي. هاوستن، على سبيل المثال، احتلت المرتبة العليا على مقياس طبقة الأوزون عام 1979، ومدن تكساس الأخرى تأتي خلفها مباشرة[111].

الأطفال لا يحصلون على كفايتهم من الغذاء والرعاية، وتكساس تتفوق مرة أخرى في هذا المجال — خاصة فيما يتعلق بوفيات الأطفال الناجمة عن الإساءة والإهمال، لكن الولاية تتراجع إلى الخلف في مجال رعاية الأطفال المعرضين للخطر وفي مجال التحقيق في التقارير المتعلقة بالإساءة للأطفال[112].

أحد المحققين استطاع أن يجد له موضعاً في ولاية النجم الفريد (تكساس) فخرج برواية تتجاوز أي من أفلام الرعب المشهورة. أحد عمال البريد في مينيسوتا لاحظ أمراً طريفاً، وملاحظته الحدسية قادت إلى تحقيق دولي احتل مركز الوسط فيه مترل توماس وجانيس ريدي في فورت وورث. هذين الزوجين الأنيقين والثريين المناصرين للحزب الجمهوري كانا في الواقع يحظيان باحترام شديد في الجوار، حيث كانا يعملان على توفير المتعة لزبائنهما الأثرياء بتقديم الشمبانيا والكافيار والموسيقى الكلاسيكية[113].

عملهما كان ناجحاً ويدر عليهما مبلغ 1.4 مليون دولار في الشهر[114]. ما الذي كانا يفعلانه حتى يحصلا على هذا المقدار الرائع من الدخل؟ كانا يتاجران بصور الأطفال الإباحية التي تتضمن صوراً لعلاقات بين المحارم وصوراً لعمليات اغتصاب. جاء المحققون من خارج الولاية يحملون معهم أوامر فدرالية تخولهم تخطي السلطات القضائية في تكساس، التي كان معظم أعضائها متورطين ومشبوهين من وجهة نظر الجهات الأكثر نزاهة. تم تفتيش المترل بمذكرات تفتيش فدرالية وتم العثور على أدلة مريعة، بما في ذلك قائمة زبائن تضم 300.000 اسماً[115] — تبين أن بعضهم من رجال القانون والقضاة والسياسيين. تم إغلاق شركة

لاندسلايد برودكشن التي كانا يديرانها من منزلهما، لكن التحقيقات التي انبثقت من تلك الحملة لا تزال مستمرة في مناطق مختلفة من العالم. بواسطة الإنترنت، استطاع الزوجان ريدي تصدير قذارتهما إلى عشرات البلدان الأخرى. بعد الانتهاء من هذه القضية، تبين أن حكومة تكساس برئاسة بوش لم تقم بصرف الأموال التي تلقتها من الحكومة الفدرالية لإجراء هذا النوع من التحقيقات، وأحد رجال القانون من العارفين ببواطن هذه المسألة طلب إجراء تحقيق في دوائر الشرطة والحكومة حول الحماية التي تم توفيرها للزوجين ريدي لكي يديرا عملهما بحرية وراحة. السؤال المتعلق بإعاقة عمل العدالة في هذه القضية لم تتم الإجابة عليه من قبل بوش؛ غادر المدينة والسؤال ظل معلقاً.

تدل السجلات أن الأموال التي تلقتها تكساس من واشنطن لم يتم إنفاقها من أجل الحد من الجريمة كما هو مفترض. المسائل الأخرى التي ينبغي إنفاق المال عليها أهملت أيضاً، خاصة فيما يتعلق بتخفيف الأعباء عن الفقراء والمحتاجين. في العام 1998 أظهر تقرير دائرة الإسكان والتطوير العمراني أن الولاية، بكل بساطة، لم تنفق الأموال على المساعدات كما هو مطلوب منها؛ وكان على العائلات الفقيرة، بكل بساطة، أن تنظر وتعاني. النائب هارييت إرهاردت من دالاس صرحت بأن هذا التلكؤ يعني «بؤساً إنسانياً للعائلات في تكساس بأكملها»[116].

التلوث كان سبباً آخر من أسباب البؤس. قد يكون بوش قد قرأ كلمات جرميا في الإنجيل حيث يصرخ «الأرض مملوءة بالبقايا النتنة وكل ما هو بغيض»[117]. هل كان ذلك التحذير المتشائم رؤية نبوية لمحطات الطاقة النووية التي تنفث مخلفاتها في الجو؟ أعمال هذا الجيل الحالي تبدو وكأنها تحقق الأشد سوءاً في أي نبوءة إنجيلية، وبوش أظهر نفسه وكأنه غير مبال بهذه الصورة الكالحة، حتى في فناء بيته.

أثناء توليه مهامه كحاكم للولاية، اقترح إنشاء موقع للتخلص من النفايات النووية، وقد اختار بلدة سييرا بلانكا كمقر لهذا المشروع. سكان المنطقة عارضوا ذلك بضراوة، كما فعل ذلك جيرانهم في مكسيكو؛ النائب نورما شافيز من إلباسو درست الوضع وحذّرت: «يوجد عشرة مواقع منخفضة المستوى للتخلص من البقايا النووية في هذه الولاية وكلٍ منها تحدث فيه تسربات»[118].

شافيز اقمت الحاكم «بالعنصرية البيئية»، وهو أمر كرره السيناتور بول ولستون (ديمقراطي-مينيسوتا)، فقال أن مواقع التخلص من النفايات هذه «هي تقريباً موجودة جميعاً في مناطق اجتماعية من لون معين»[119].

نهر ريو غراندي، الذي ينبع من مسافة 1000 ميل بين تكساس ومكسيكو، يوفر المياه لملايين الناس؛ وهو يمر على مسافة غير بعيدة من سييرا بلانكا، مما أدى إلى ازدياد الاهتمام بالمسألة حتى في أوساط البارزين من الجمهوريين في الولاية. لجنة المحافظة على المصادر الطبيعية في تكساس كان لديها الحس المناسب لكي تقف على النقيض من ذلك، فأشارت إلى «فشل جميع الأطراف المهتمة بالأمر في التقييم الدقيق لموضوع الصدوع الموجودة تحت الموقع»[120].

تصاعد الجدل حين حاول الحاكم تعديل القوانين الراهنة بما يسمح للشركات الخاصة الدخول في الصفقة؛ ومن غير المفاجئ أن المستفيد الأول من ذلك كان أحد المساهمين الأساسيين في حملة بوش الانتخابية، وهو البليونير من دالاس هوارد سيمونز، وهو أحد المالكين الأساسيين لشركة وست كنترول سبيسياليست، التي تعمل في مجال التخلص من النفايات النووية.

بوش قال في إحدى المرات: «أقسم أنني لم أدخل السياسة كي أغطي موقعي أو مواقع أي من أصدقائي»[121]. المسئولون الرسميون في شركة إنرون للطاقة ربما فاقم ذلك حين عبروا عن موقف مناقض تماماً؛ ففي شريط فيديو عام 1997 يصوّر حفلاً في مكتب يضم النخبة من المسئولين في الشركة، يظهر الحاكم ووالده، ويبدو بوش الأكبر وهو يقول لريش كيندر (الذي أصبح فيما بعد رئيساً لشركة إنرون): «لا أعتقد أن أحداً آخر فعل أكثر مما فعلت لدعم جورج»[122]. مدراء كبار آخرون لعبوا أدواراً في ذلك الشريط المصوّر، بما في ذلك جيف سكيلنغ، الذي أبدى ملاحظات حول كيف يمكنه «إضافة بلايين الدولارات إلى الأرباح»[123]، ثم المدير الأول للحسابات ريش كاوسي هو يمزح «حتى أنني لا أستطيع أن أعدّ بسرعة كافية الأرباح المتدفقة»[124].

وفيما كانت «الأرباح» تتدفق، لم تتحرك أبداً الأموال المخصصة لتحسين أوضاع دور المسنين، والجمهور الذي صوّت بأريحية لبوش، لكنه لم يتبرع بالأموال لصالح نكات بوش، لم يهتم به أحد. باتريس لاسي كانت إحدى ضحايا إدارة بوش الجشعة، وهي أرملة تبلغ من

العمر 89 عاماً عاشت في البيت نفسه لأكثر من خمسين عاماً. بعد أن أجبرت على إخلاء مترلها حين عجزت عن الحصول على المساعدة المالية لإصلاح المترل، قالت:

هذا البيت يعني لي الكثير. إنه أول شيء نشتريه أنا وزوجي. هذا هو المكان الذي ربينا فيه أطفالنا فكيف فقدته. منحت صوتي لجورج بوش كحاكم لأنني اعتقدت أنه رجل مستقيم وشريف، لكنني أنا أراه الآن على حقيقته. الفقراء مثلي فقدوا مساكنهم في حين أن زبانيته من تجار العقارات الأثرياء يستفيدون كثيراً من تخفيض الضرائب على الأملاك العقارية. يوجد خطأ في الأمور[125].

وقت التغيير

في كانون الأول (ديسمبر) من عام 2000، حين كان لا يزال حاكماً، أعلن بوش: «إذا كانت هذه ديكتاتورية، فستكون الأمور غاية في السهولة، طالما كنت أنا الدكتاتور»[126].

ولكي نكون منصفين، كانت الأمور دائماً سهلة بالنسبة للمسئولين المنتخبين. الناس يطرحون الأسئلة، وينبغي التحدث إلى الصحافة، ويجب بحث الموازنات، ولا بد أن تكون هناك أمور أخرى يتوجب فعلها في الحياة. إذا كان هذا كله ليس صعباً وشاقاً كفاية، فإن نشر كتاب «الابن المحظوظ» للكاتب جيمس هاتفيلد في العام 2000 جعل حياة بوش أقل متعة بالتأكيد. زميله الكاتب مارك كريسبن أثنى على الكتاب قائلاً: «إن كتاب «الابن المحظوظ» كتاب مهم ينبغي جعله في متناول اليد خلال السنوات الأربع القادمة»[127]، وديفيد كوغسويل من مجلة أميركان بوك ريفيو قال: «ج. هـــ. هاتفيلد أدى خدمة تعتبر أمراً حيوياً في الديمقراطية»[128].

هاتفيلد كشف ما حاول الآخرون تغطيته؛ وشلة بوش لم تكن سعيدة بذلك. في بلد تحكمه الدكتاتورية لا شك أن هاتفيلد كان سيفقد رأسه على المقصلة، أو على الأقل ستتم محاسبته على ذلك. حسناً، الطبعة الأولى من «الابن المحظوظ» أصبحت نسخها الآن نادرة الوجود وقد تم إتلاف معظمها من قبل الناشر. والمؤلف؟ انتحر في غرفته في أحد الفنادق في صيف 2001.

في ذلك الوقت أصبح الحاكم سيد المكتب البيضوي. لم يفز، كسلفه، بغالبية أصوات الناخبين، والطريقة التي تمكن فيها من الوصول إلى البيت الأبيض أصبحت مدار سخرية ومناقشات حادة.

مايكل موور أصبح وتداً آخر في خاصرة بوش و زمرته، حيث بدأ عام 2001 العمل على كتابه الذي يحمل عنوان «رجال بيض أغبياء» (صدرت الترجمة العربية عن الدار العربية للعلوم) والذي يتضمن تمحيصاً دقيقاً وموثقاً لما حدث بالفعل في الانتخابات. الخلاصة التي توصل إليها هي الإخفاق التام لبوش؛ السلطات الرسمية في فلوريدا قامت بخطوات غير معتادة فحذفت 94.000 اسماً من صناديق الاقتراع[129]. يستطيع المرء أن يخمّن أن تلك الأصوات المحذوفة كانت أصواتاً لناخبين ديمقراطيين، والكثير منهم من الأمريكيين الأفارقة الذي يحق لهم التصويت. الأمريكيين الأفارقة الذين خرجوا من بيوتهم للإدلاء بأصواتهم واجهوا بعض العراقيل لإعاقة وصولهم إلى صناديق الاقتراع، وذلك على أيدي رجال الشرطة والمشرفين على صناديق الاقتراع، وقد طردوا مرة واحدة على الأقل حين حاولوا المشاركة في العملية الديمقراطية التي جُلب إليها أسلافهم رغماً عنهم.

فلوريدا، التي يحكمها «جب» بوش كانت هي الولاية التي حسمت نتيجة الانتخابات. وهي عادة ولاية صعبة لكلا الحزبين، حيث يتقاسمان تقريباً النفوذ فيها، وطالما شكلت نتيجة الانتخابات فيها مفاجأة لأحد الحزبين.

في العام 1928، كانت لدى آل دو بونت استراتيجية لجعل نتيجة الانتخابات في الولاية نصراً كاسحاً لهربرت هوفر؛ وقد استخدم ألفريد آي. دو بونت عصابات الكو كلكس كلان لتحقيق غايته. على كل حال، «نجاح هوفر» لم يجعل الشمس تشرق على هذه الولاية أو شبه الجزيرة؛ فلم يحل شهر نيسان (أبريل) 1929 حتى أقفلت أكثر من ثمانية بنوك أبوابها نتيجة للأوضاع الصعبة التي تلت ذلك. وفي حين لم يكن لدى معظم سكان فلوريدا سبب للابتهاج، كانت فرحة دو بونت الغامرة بفوز الحزب الجمهوري علامة بارزة في حياته؛ عبّر علناً عن سروره مؤكداً بفخر وثقة أنه «جعل فلوريدا جمهورية... أنا غطيت (آل) غور بالغبار والدخان»[130].

بعض الكلمات تعود لتجرح بطريقة مؤلمة، وبالنسبة لآل غور، المرشح الذي فاز فعلاً بغالبية أصوات الناخبين في انتخابات عام 2000، فلن يتمكن أبداً من الشفاء من تلك الطعنة. ولكي تزداد صدمته، تبين أن الكثير ممن أرادوا التصويت له، صوّتوا عن غير قصد للمرشح بات بوكانان، وهو مرشّح يميني شديد التطرف. الجمهوريون عملوا على انتقاء الأصوات التي

يريدون عدّها، والعديد من الأصوات غير الصحيحة من الناحية القانونية تمت إضافتها إلى رصيد بوش، والبعض من تلك الأصوات كانت لمقترعين صوّتوا مرتين.

جورج والكر بوش تم تعيينه بواسطة المحكمة العليا التي يسيطر عليها الجمهوريون، وذلك بعد أن قامت بإيقاف التصويت في مرحلته الوسطى والذي كان يتجه لصالح غور؛ كل صوت تم عدّه، إذا تم عدّه، من قبل جماعة «اليمين»... وهذا هو التطبيق للديمقراطية.

إذاً، كان هناك رجل في مواجهة رجل آخر له سجل حافل في مجال الاعتداء على الأطفال وتجارة المخدرات وغير ذلك من الجرائم، وقد استطاع الأخير أن يؤدي قسم استلام المكتب في 20 كانون الثاني (يناير) 2001.

كان يوماً بارداً وماطراً في واشنطن، وكانت عملية تنصيب وتسلم وتسليم مختلفة تماماً عما جرت عليه العادة من قبل. مايكل موور كتب ملاحظاً أن السيارة الرئاسية انبثقت فجأة ثم اندفعت في الشارع في حركة رعناء لا تليق بالتحركات الرصينة للمسئولين الرسميين. موور يصف ذلك بعفوية ودون تحفظ: «مدّع احتل عرش أمريكا اضطر إلى لفّ ذنبه هارباً من آلاف المواطنين الأمريكيين... مسكين هذا الولد الصغير الغني الذي حل في المرتبة الثانية وجاء لاستلام جائزته»[131].

المؤلف ديفيد كوغسويل شاهد أيضاً هذا الحدث، كتب:

«كنا واقفين تحت المطر، فمرت بعض سيارات الليموزين السوداء عبر الشارع بيننا وبين البيت الأبيض. حين قال أحدهم أن إحدى السيارات هي سيارة بوش، أطلق الجمهور المحتشد صوت استهجان هادر... بووو! ... انطلق الصوت منا جميعاً نحن الناس الذين كنا نشاهد ما يحدث ذلك اليوم، بدا الجميع وكأنهم غير آبهين ببوش ولم يبد أحد أي مشاعر عدائية ضد المتظاهرين. حتى رجال الشرطة تصرفوا بأدب واحترام مع الجمهور»[132].

هكذا تسلّم السلطة ومركز القرار، وتم إعداد إدارة بوش، تماماً كما لو أن عهد بوش السابق قد قام من بين الأموات. بعض الناس انتظروا أن يسقط الحذاء الآخر، أن يحدث شيء ما، وحدث ذلك؛ بعد 234 يوماً تعرضت البلاد لهجوم، حينما كان بوش يقرأ رواية حول معزاة. أولئك الذين عيّنهم لقيادة البلاد في حالات طارئة كهذه ظهروا أيضاً كالمشلولين، وأحدهم كان في الواقع يعقد اجتماعاً لمناقشة كيفية تسويق نفسه. الطائرات المقاتلة لم تنطلق في الوقت المناسب، الأوامر التحذيرية صدرت في وقت متأخر، وقد تبين أن التحذيرات من الهجوم تم تجاهلها في وقت حرج، مما أتاح المجال وسهّل حدوث تلك الكوارث.

لكن، كما يرى ذلك الكثيرون بوضوح تام، تلك «الهجمات» كانت عملاً داخلياً. بوش وشلته، يعرفون عن تلك الهجمات أكثر بكثير مما يعترفون به. بعد ستين سنة من تحرك الحكومة الأمريكية لإيقاف بريسكوت بوش عن المزيد من دعم ومساندة الإرهابيين، جاء بوش آخر، حفيده الذي له صلات مع «العدو» أشد وأوثق من الصلات التي كانت بين بريسكوت وهتلر، جاء طالباً منا عدم التحقيق والتدقيق فيما هو شديد الوضوح.

آه، لم لا؟

هل يخفي، هو أو أي من زمرته، خيانة؟

لنتحقق من الأمر.

---

(1) King, Nicholas. *George Bush: A biography.* NY, Dodd, Mead & Co., 1980. Pp. 25-35.
(2) Hatfield, James. *Fortunate Son.* NY, St. Martin's Press, 1999. p. 5
(3) *The Village Voice,* 16 July, 2002.
(4) O'Brien, Cathy and Mark Phillips. *Trance-Formation of America.* Las Vegas, Reality Marketing, 1995.
(5) King, p. 10.
(6) Ib, p.11
(7) Ib.
(8) *The Village Voice,* 16 July, 2002
(9) Gibson, Kenyon, Cindy Mackintosh and Nick Mackintosh. *Hemp for Victory.* Manuscript in publication, London, The Eryr Press.
(10) Stokes, W.E.D. *The Right to be Well Born.* NY, p.p., 1917. p. 49
(11) Ib, p. 24
(12) Ib, p. 246
(13) Ib, p. 46
(14) O'Brien and Phillips, pp. 103-110.
(15) Stokes, p.48
(16) Zilg, Gerard. *Du Pont: Behind the Nylon Curtain.* Englewood Cliffs , N.J., Prentice-Hall, 1974. p. 193
(17) Stokes, p. 49
(18) http://www.trunkerton.fsnet.co.uk/Eugenics.htm
(19) Ib.
(20) Stokes, p. 103
(21) http://www.citypaper.net/articles/011801/sl/slant.shtm
(22) Ib.
(23) Ib.
(24) http://www.disinfo.com/pages/article/id170.pg1.htm
(25) King, p. 30
(26) Hatfield, p. 5
(27) King, p. 32
(28) Ib, p.32
(29) Newcomb, Richard E. *Iwo Jima.* NY, Holt, Rinehart & Winston. 1965. p. 278
(30) Killian, Pamela. *Barbara Bush: Matriarch of a Dynasty.* NY, St. Martin's Press, 1992
(31) http://www.theatlantic.com/issues/2000/robbins.htm
(32) *The Times,* 3 August, 2001
(33) King, p.78
(34) http://www.meta-religion.com/Secret_societies/Order_of_Skull/part_7.htm
(35) King, 116
(36) Brewton, Pete. *The Mafia, the CIA and George Bush.* NY, s.p.i. books, 1992. pp. 70-230.
(37) Ib, pp. 324-325

(38) De Camp, John. *The Franklin Cover-up: Child abuse, Satanism and Murder in Nebraska.* Lincoln, Nebraska, AWT, Inc., 1996 (2nd ed.) p. 131
(39) Ib, p. 176
(40) Ib, p. 175
(41) Pers. comm. from Mark and Cathy Phillips
(42) De Camp, p. 197
(43) Ib, pp. 250-311.
(44) Ib, p. 326
(45) Ib, p. 251
(46) Herer, Jack. *The Emperor Wears no Clothes.* Van Nuys, California, 2002 (12th ed.) p. 96
(47) De Camp, p. 174
(48) Hatfield, (3rd ed., Vision Books, London, 2001) p. 211
(49) *Philadelphia Enquirer,* 10 September 1988.
(50) *Wall Street Journal,* quoted in an article by *Tom Flocco* and found at http://www.rense.com/US%20Deleted%20run%20Fl%20Chem%2020Plt.htm
(51) *Susan McClendon Newsletter,* June 1992.
(52) Hatfield, (3rd ed.) p. 11
(53) Ib, p.15
(54) http://www.commondreams.org/views02/1215-03.htm
(55) Hatfield (3rd ed.) p. 226
(56) Ib, p. 19
(57) http://www.directoryupdate.net/societies.html
(58) Hatfield (3rd ed.) p. 23
(59) Ib, pp. 23-24
(60) Bush, George W. *A Charge to Keep.* NY, Harper Trade, 2001
(61) *Houston Chronicle.* 19 August 1988
(62) http://libertyforum.org/showflat.php?Cat=&Board=news_cri&Number =254684&.htm
(63) Ib.
(64) Ib.
(65) Ib
(66) Ib.
(67) New York Daily News, 4 August 1998
(68) Hatfield (3rd ed.) p. 199
(69) Ib, p. 201
(70) Ib, p. 201
(71) Ib, p. 201
(72) Hatfield, (2nd ed, NY, SoftSkull Press, 2000), introduction
(73) Hatfield, (3rd ed) p. 41
(74) Ib, p. 48
(75) O'Brien and Phillips.
(76) *Toronto Star,* 28 November 2002
(77) Ib.
(78) *New York Times,* 7 July 2002
(79) Hatfield, (3rd ed.) p. 64
(80) Ib, p.65
(81) Ib, p.68
(82) http://www.nationalreview.com/york/york/071202.asp
(83) http://www.cooperativeresearch.org/elitepolitics/bushandharken.htm
(84) *New York Times,* 7 July 2002
(85) Ib.
(86) *Niagara Falls Reader,* 15 October 2002, quoting Charles Lewis
(87) Hatfield, (3rd ed.) p. 68
(88) *Amos* 5:15
(89) Hatfield, (3rd ed.), p. 95
(90) Ib, p. 98

(91) Ib, p. 98
(92) Ib, p. 100
(93) Ib, p. 101
(94) Ib, p. 102
(95) Ib, p. 104
(96) *New York Times,* 13 Oct. 2000
(97) Ib.
(98) Ib.
(99) *New York Daily News,* 26 August 1999
(100) Hatfield (3rd ed.) p. 129
(101) Ib, pp. 131-133
(102) Ib, p. 133
(103) Ib, p. 142
(104) *New York Times,* 13 October 2000
(105) www.elendayempire.com/movabletype/mullinsstory_arhives/005291.html
(106) *Independent,* 20 August 2002
(107) Ib.
(108) Ib
(109) Ib
(110) Ib
(111) Hatfield (3rd ed.) pp. 138-145
(112) Ib.
(113) *The Times,* 18 December 2002
(114) *Daily Express,* 17 January 2003
(115) *The Times,* 18 December 2002
(116) Hatfield, (3rd ed.) p.139
(117) *Isaiah* 24:5
(118) Hatfield, (3rd ed.) p. 145
(119) Ib, p.146
(120) Ib, p. 146
(121) http://www.bushcartoon.com/bushisms.htm
(122) *New York Post,* 18 December 2002
(123) Ib.
(124) Ib.
(125) Hatfield, (3rd ed.) p. 139
(126) http://www.konformist.com/2000/bush-dictator.htm
(127) Hatfield, (3rd ed.) p.ii
(128) Ib, p.ii
(129) Moore, Michael. *Stupid White Men.* NY, Regan Books, 2001. pp. 3-5
(130) Carr, William. *The du Ponts of Delaware.* London, Frederick Muller Lmt., 1965. p. 306
(131) Moore, p. 15
(132) Hatfield, (3rd ed.) p. 279

أصدقاء ومناصرون

قل لي من تصادق أقل لك من أنت، لذلك دعونا نعمّق معرفتنا بعائلة بوش عبر تفحص أصدقائها وشركائها. سأذكر هنا الأصدقاء من الأخيار ومن الأشرار ومن المزعجين، وهنا تجدر الإشارة إلى أنه لا يوجد الكثيرين من الصنف الأول. «كن مع الحكماء تكن حكيماً، كن مع الحمقى تصبح أحمقاً[1]» هذه هي الحكمة الخالدة التي أطلقها النبي سليمان. وقد يتساءل المرء ما الذي سيقوله حول الشخصيات التالية.

إليوت أبرامز – المدير الأول للديمقراطية وحقوق الإنسان والعمليات في مجلس الأمن القومي. في عهد ريغان كان مسؤولاً عن مكتب الشؤون الدولية/الأمريكية. أثناء تلك المسؤولية، كان مؤتمناً على مبلغ 300 مليون دولار. لم يستطع آنذاك تقديم تقرير بكيفية صرف معظم ذلك المبلغ، تمكن في الواقع من تبرير كيفية صرف 27 مليوناً فقط. أما 91% من ذلك المال فقد تبخر في الهواء كما انصهرت وتبخرت العوارض المعدنية من برجي مركز التجارة العالمي؛ حين شرع الكونغرس في طرح الأسئلة عليه حول هذا الأمر ومسائل أخرى، كذب، وقد أدين مرتين بالكذب. المحرر في صحيفة «نيشن» ديفيد كورن نعته بالكذاب في أحد المقالات[2]، وقد سرد بعض أكاذيبه حول عمليات القتل الجماعي في أمريكا اللاتينية. بيل كاسي، الذي أصبح لاحقاً مدير وكالة المخابرات المركزية، وصفه بالثعبان، كما أن زميله في الحزب الجمهوري ديف دورنبرغر عبر عن ذلك ببلاغة: «لا أستطيع الوثوق بإليوت، إلا بمقدار استطاعتي مفاجأة أوليفر نورث»[3].

السفر إلى لنـــدن باسم مستعـــار ربما يوحي بمستوى الثقة والاحترام الذي يتمـــتع به هذا الرجل[4]. بوش وضع هذا الشخص الآن إلى جانبه على كلفة وحساب دافعي الضرائب، وهو يعتقد أنه سيفلت هذه المرة. وكما قال وليام ج. كروي عام 1989: «من الصعب قتل هذا الثعبان».[5]

هارولد أندرسن – رئيس تحرير صحيفة أوماها وورلد هيرالد في الثمانينات، وقد كان داعماً أساسياً للمشبوه وفاقد الاحترام لاري كينغ. لقد هاجم بشدة جميع الذين حاولوا إجراء التحقيقات المناسبة في الحزب الجمهوري فيما يتعلق بحلقات[6] الاعتداء على الأطفال؛ في الواقع أن العديد من الأطفال ذكروا اسم أندرسن كمتهم في هذه القضية، بالإضافة إلى بيتر سيترون الكاتب الصحفي في الشؤون الاجتماعية والذي أُرسل إلى السجن بعد إدانته بتلك الجرائم[7].

الكولونيل مايكل أكوينو – وهو اسم ينبثق في العديد من الأمكنة، وقد لوحظ حضوره في البيت الأبيض في عهد ريغان/بوش[8]. وفي أحيان كثيرة كان موضوع نقاش فيما يتعلق بالأطفال المفقودين أو المعتدى عليهم (قضية داي كير سنتر في قاعدة بريسيديو العسكرية، اختفاء الطفل جوني غوش، شهادة بول بوناتشي). وهذا الشخص المرتبط بالعمليات النفسية (بسي-أوبس) في الجيش الأمريكي، والعضو السابق معبد إبليس (تيمبل أوف ساتان)، يعتبر من المنخرطين في حقل عمليات وأبحاث السيطرة على العقول. ترك معبد إبليس لإنشاء كنيسته الخاصة معبد ست (أو سيث، وهو من آلهة الفراعنة)[9]. بالرغم من تلك الارتباطات والاهتمامات التي تبدو غريبة، إلا أنه يقدم نفسه بطريقة جيدة، حتى أنه فصيح وبليغ. في أحد مواقع المساجلات على شبكة الإنترنت، دافع عن نفسه بمهارة فيما يتعلق بالتهم المرتبطة بقضية داي كير التي حدثت في قاعدة بريسيديو العسكرية.

ديك أرمي – الزعيم الحالي للأغلبية في مجلس النواب، وهو جمهوري من تكساس. وهو رجل يجب أن تحسب له حساباً، خاصة إذا كنت أيضاً جمهورياً من تكساس. الفصل التشريعي الحالي أظهر ولاءه بوضوح تام أثناء مناقشة موازنة الأمن الوطني. العديد من أعضاء المجلس أرادوا إجراء تعديلات على الموازنة بحيث تستثني من العقود الشركات التي جعلت نشاطها في الخارج بحيث تتفادى الضرائب الأمريكية.

النائب روزا دي لاورو (ديمقراطية — كونكتيكت) أوضحت الأمر بجلاء شديد: «تلك الشركات تخلت عن وطنها وهجرته، ويجب عدم مكافأتها بعقود مقاولات صادرة عن الدائرة المسؤولة عن أمننا وسلامتنا الوطنية»[10]. حسناً، لم يكن أرمي ليسمح لبراهين كهذه بالوقوف في طريق تأدية الواجب، لذلك دافع عن حق تلك الشركات في الحصول على العقود المنشودة[11].

وهو ليس موالياً ووفياً فحسب، بل يستطيع أن يكون حامياً، كما في قضية التعديل التشريعي الذي يمنع إقامة الدعاوى القضائية ضد استخدام مادة ثيميروسال في نوع من اللقاح الذي قيل أنه يسبب أنواعاً من الإعاقة لدى الأطفال. تفاخر بذلك قائلاً: «نعم فعلت ذلك، وأنا فخور بذلك... الأمر يتعلق بالأمن الوطني».[12]

من المفيد معرفة هذا الأمر، حيث أن البعض من الناس يعتقد أن ما فعله كان لحماية شركة الأدوية «إيلي ليللي» وزملاءه من الجمهوريين المساهمين في تلك الشركة.

جون أشكروفت — عيّنه بوش في منصب المدعي العام في شهر كانون الثاني (يناير) 2001. أشكروفت كان متشدداً جداً في العديد من القضايا، خاصة في التحقيقات المربكة والمعقدّة. على سبيل المثال، في قضية الستة وأربعين شخصاً الذين اعتقلوا في توليا بولاية تكساس بناء على أقوال رجل شرطة واحد هو نفسه مشبوه، قرر أشكروفت عدم المضي في التحقيقات التي شككت في صحة وقانونية تلك القضية. ربما لم يتوفر ما يكفي من نقود الضرائب، وذلك بعد أن استطاعت الشركات الوطنية جداً المرتبطة بدوائر القانون والدفاع أن تجد طرقاً لتدفع حالياً قدراً أقل من الضرائب.

جيمس أ. بيكر الثالث — محام متخرج من جامعة يال وشريك في مكتب المحاماة بيكر و بوت. كان وزيراً للخارجية في عهد جورج هـ. دبليو بوش (الأب)، والآن يعمل كمستشار ممتاز لمجموعة كارلايل. كان زميل صف ودراسة لدونالد رمسفيلد في جامعة يال.

جيم بات — رجل أعمال من تكساس، وهو من أقرب أصدقاء جورج دبليو بوش. بعد أن تم تجنيده في وكالة المخابرات المركزية بواسطة جورج هـ. دبليو بوش، عمل في شركة النقل أتلانتيك أفياشن التي يملكها إدوارد دوبونت. كان أيضاً وكيلاً لبعض أفراد العائلات الثرية في المملكة العربية السعودية ، بما في ذلك الشيخ سالم بن لادن، حيث تولى إدارة استثمارات بن

لادن في أمريكا الشمالية. فيما بعد، أمسك حسابات الشيخ خالد بن محفوظ، نسيب أسامة بن لادن. كان دور بات في وكالة المخابرات المركزية، بناء على أقوال شريكه السابق شارلز وايت، هو مراقبة نشاطات مستثمريه السعوديين.

في مرحلة ما، أصبح من غير المريح الاعتراف بعلاقاته بآل بوش، وقد أنكر من جهته بعض جوانب تلك العلاقة. بتي بريوتن لاحظت هذا الانقطاع في العلاقة، ونشرت سجلات الاستثمار بين الطرفين[13].

بن لادن – اسم العائلة التي يعرفها آل بوش أكثر من أي أميركي آخر. كانوا ضيوفاً وشركاء عمل لدى آل بوش، وينبغي إجراء تحقيق شامل حول مدى الفعالية الخفية لأموالهم في أوساط الحزب الجمهوري.

يقدّر دخلهم السنوي بمبلغ 3.5 بليون دولار[14]. أشيع أنهم منغمسون أيضاً في مجموعة كارلايل. بعد الهجوم الذي حدث في نيويورك مباشرة، وفر مكتب التحقيقات الفدرالي الحماية للعديد من أعضاء هذه الشلة وتم اصطحابهم بأمان خارج البلاد.

الشيخ خالد بن محفوظ – نسيب أسامة بن لادن وأحد المستثمرين الأصليين في شركة جورج دبليو بوش الأولى، أربستو للطاقة.

طوني بلير – في شهر أيار (مايو) 1995 أتذكر صيحات البهجة التي انطلقت من نادي بريتش أوبن الواقع في الشارع 59 في مانهاتن. المناسبة كانت هي الاحتفال بفوز حزب العمال، وهو الفوز الذي وضع زعيم الحزب طوني بلير في المكتب الواقع في 10 داوننغ ستريت (مقر رئاسة الحكومة البريطانية). شعرت آنذاك بأن هذا الفوز سيؤدي إلى متاعب جمة، لكنني اتصفت وقتها بالحكمة وأبقيت فمي مطبقاً. أما اليوم، فجميع الذين ساندوه وأوصلوه إلى مركزه مصدومون بهذا الدعم الذي يقدمه لإدارة بوش في أمريكا، ويتساءلون هل هو، رئيس الوزراء البريطاني، الشخص الوحيد في الجزر البريطانية الذي سيستمر في السير على خطى آل بوش. في إحدى خطبه عكست كلماته افتقاده للمساندة والدعم: «حتى لو بقيتُ الشخص الوحيد الذي يقولها، سأستمر في قولها». وهو معروف بالنسبة للبعض بأنه «متملق وينتمي إلى شمال تكساس».

لادن في أمريكا الشمالية. فيما بعد، أمسك حسابات الشيخ خالد بن محفوظ، نسيب أسامة بن لادن. كان دور بات في وكالة المخابرات المركزية، بناء على أقوال شريكه السابق شارلز وايت، هو مراقبة نشاطات مستثمريه السعوديين.

في مرحلة ما، أصبح من غير المريح الاعتراف بعلاقاته بآل بوش، وقد أنكر من جهته بعض جوانب تلك العلاقة. بتي بريوتن لاحظت هذا الانقطاع في العلاقة، ونشرت سجلات الاستثمار بين الطرفين[13].

بن لادن — اسم العائلة التي يعرفها آل بوش أكثر من أي أميركي آخر. كانوا ضيوفاً وشركاء عمل لدى آل بوش، وينبغي إجراء تحقيق شامل حول مدى الفعالية الخفية لأموالهم في أوساط الحزب الجمهوري.

يقدّر دخلهم السنوي بمبلغ 3.5 بليون دولار[14]. أشيع أنهم منغمسون أيضاً في مجموعة كارلايل. بعد الهجوم الذي حدث في نيويورك مباشرة، وفر مكتب التحقيقات الفدرالي الحماية للعديد من أعضاء هذه الشلة وتم اصطحابهم بأمان خارج البلاد.

الشيخ خالد بن محفوظ — نسيب أسامة بن لادن وأحد المستثمرين الأصليين في شركة جورج دبليو بوش الأولى، أربستو للطاقة.

طوني بلير — في شهر أيار (مايو) 1995 أتذكر صيحات البهجة التي انطلقت من نادي بريتش أوبن الواقع في الشارع 59 في مانهاتن. المناسبة كانت هي الاحتفال بفوز حزب العمال، وهو الفوز الذي وضع زعيم الحزب طوني بلير في المكتب الواقع في 10 داوننغ ستريت (مقر رئاسة الحكومة البريطانية). شعرت آنذاك بأن هذا الفوز سيؤدي إلى متاعب جمة، لكنني اتصفت وقتها بالحكمة وأبقيت فمي مطبقاً. أما اليوم، فجميع الذين ساندوه وأوصلوه إلى مركزه مصدومون بهذا الدعم الذي يقدمه لإدارة بوش في أمريكا، ويتساءلون هل هو، رئيس الوزراء البريطاني، الشخص الوحيد في الجزر البريطانية الذي سيستمر في السير على خطى آل بوش. في إحدى خطبه عكست كلماته افتقاده للمساندة والدعم: «حتى لو بقيتُ الشخص الوحيد الذي يقولها، سأستمر في قولها». وهو معروف بالنسبة للبعض بأنه «متملق وينتمي إلى شمال تكساس».

أسئلة جدية برزت حول السبب في دعمه للحرب على العراق وعدم تدقيقه في قضية9/11 التي خططت لها وأعدتها إدارة بوش. في شهر شباط (فبراير) 2033 ظهر «الدليل» على شكل عملية نصب واضح، كما تبين من «التقرير الاستخباري» الذي اتضح أنه مليء باقتباسات من مادة مكتوبة قبل عقد من الزمن ومأخوذة من الإنترنت.

دليل؟

قد يكون معتوهاً أو واقعاً تحت ابتزاز نفس الأشخاص من الإدارة الجمهورية الذين خططوا لاختطاف الطائرات الأمريكية واتهام كوبا وإلقاء اللوم عليها.

الدكتور أمريكو أساني من موزمبيق وصفه على النحو التالي: «في بلادي يوجد أشخاص مثل السيد بلير، وهم يكذبون»[15].

الدكتور إيرل براين – في عهد ريغان كان رئيساً لفريق العمل المسؤول عن تخفيض تكاليف الرعاية الطبية. أدين بتهمة الاحتيال، وفي قضية أخرى مشابهة اتهمه رجل الأعمال وليام هاميلتون بمحاولة سرقة برنامج كمبيوتر يملكه الأخير[16].

براين كان منخرطاً بشدة في مجال التقنيات والخدمات الإخبارية، وقد امتلك شركة «يو بي أي» وجزءاً من فايننشال نيوز نتوورك. أحد ضباط الاستخبارات الإسرائيلية ذكر اسم براين باعتباره المصدر في قضية سرقة البرنامج «بروميس»، وهو تطبيق برمجي يستخدم لتتبع وملاحقة الأسرار التجارية والاقتصادية[17].

اندريو كارد – رئيس موظفي البيت الأبيض، والرئيس السابق لمجموعة اللوبي في شركة جنرال موتورز.

الجنرال ب. سي. كارنز – عضو في وكالة الأمن القومي وعضو مجلس إدارة شركة «دينكورب». هذه الشركة هي التي تدير برنامج «بروميس» السالف الذكر، ولكنها قد تكون معروفة أكثر باعتبارها الشركة المتورطة في الفضائح الجنسية في البوسنة.

ديك تشيني – تشيني الموجود حالياً في المكتب البيضوي قد يكون في الواقع أكثر قوة من شريكه الرئاسي. كاثي أوبرين تروي بعضاً من أعماله في البنتاغون وفي البيت الأبيض حيث كان يتواجد فيهما في عهد ريغان. في ذلك الوقت قال لها أن سلسلة القيادة لا تبدأ من الرئيس ريغان، بل من جورج دبليو بوش، ثم منه شخصياً باعتباره الرجل الثاني في القيادة[18].

تروي أوبرين أن تشيني، بالتواطؤ مع الكولونيل مايكل أكوينو وآل بوش كانوا يعتدون على الأطفال في البيت الأبيض، وأنه كسر فكّها حين اغتصبها في واشنطن. وَصفُها لبنيته الجسدية وسلوكياته يوحي بالكثير، ومن خلال تجربتها التي ترويها، يمكن للمرء أن يجزم بضرورة اتخاذ إجراء حازم ضد هذا الشخص[19].

وهي ليست الصوت الوحيد الذي ينادي بضرورة مواجهة تشيني. تحركاته المالية استدعت فتح دعوى قضائية فيما يتعلق بالهبوط الحاد للأسعار الناجم عن الموجات الهائلة من الخراب الاقتصادي الذي أدى إلى إفلاس ملايين المستثمرين في مختلف أنحاء البلاد. تشيني كان، من 1995 إلى 2000، رئيساً لشركة هاليبرتون، وهي شركة جبارة تعمل في مجال النفط والدفاع. في العام 2001 أعلنت الشركة أنها خسرت 498 مليون دولار نتيجة لانخفاض أسعار الأسهم بنسبة 75% بسبب الأوضـــاع الاقتصـــادية المترديـــة. شيرمان سكولنيك كتب حول ذلك: «البعض ذكر في الصحافة أن تشيني كان يعلم أن شركته تورِّد بطريقة غير شرعية معدات التنقيب عن النفط إلى الزعيم العراقي صدام حسين لكسر الحظر المفروض على العراق، وأن تشيني علم وقبِل بهذا التآمر واستفاد منه استفادة هائلة»[20].

هذا ليس سوى مثال حول صفقات تشيني التي تدور حولها التساؤلات. في العام 1975، في السنة التي سيطر فيها على شركة هاليبرتون، وُجدت الشركة مذنبة في قضية بيع ستة مولدات نووية إلى الزعيم الليبي معمر القذافي. تلك المولدات يمكن استخدامها في مجال الحصول على السلاح النووي، والآن، شكراً لتجاهل هاليبرتون لقوانين الأمن الوطني الأمريكي، فقد يكون ذلك السلاح جاهزاً[21].

في بورما، هاليبرتون كانت وراء خط أنابيب النفط «يادانا» السيئ السمعة. إحدى المحاكم الفدرالية الأمريكية استنتجت أن اتحاد الشركات المنفذ لمشروع خط الأنابيب استفاد من فرض العمل الإجباري على العمال وقبل بجرائم ضد حقوق الإنسان ارتكبها الجيش لصالح تنفيذ المشروع[22].

منظمة حقوق الأرض (إرثرايتس) أدانت هاليبرتون لدورها في هذا المشروع وفي مشروع آخر في بورما أدى إلى عمليات تهجير واغتصاب وقتل وجرائم أخرى. منظمات أخرى وجهت تهماً مماثلة تتعلق بصفقات وأعمال الشركة في الجزائر، أنغولا، البوسنة، كرواتيا، هايتي، راوندا، الصومال وإندونيسيا[23].

يروي سكولنيك أن تشيني حصل على 36 مليون دولار من هاليبرتون عندما تركها[24]. عندما كانت تحت سيطرة تشيني، كانت من أكبر مستخدِم، غير متّحد، للموظفين في أمريكا مع دخل مقداره 1.5 بليون دولار عام 1999. عندما تعاقدت مع الحكومة الأمريكية، دارت حولها الاتهامات، حيث تبين للبنتاغون عام 1998 أثناء عمليات الإصلاح والترميم التي جرت في قاعدة فورت أورد أن الشركة تقاضت مبلغ 750 ألف دولار على أعمال قيمتها الحقيقة هي 125 ألف دولار. الجيش الأمريكي لا يستسيغ دائماً هذا النوع من الألاعيب التي تمارس عليه، مما أدى بالتالي إلى أن تدفع شركة هاليبرتون مبلغ 2 مليون دولار كغرامة[25].

العديد من عمليات الاستغلال التي مارستها هاليبرتون لا تزال تطفو على السطح، مثل خسارة 498 مليون دولار التي ذكرناها آنفاً. وربما كان الأكثر بروزاً في تلك الخسارة هو توقيت تشيني في بيع أسهمه، وذلك في شهر آب (أغسطس) 2002، قبل وقت قصير فقط من اطلاع الرأي العام على الوقائع[26].

التأثير السلبي لإعلان الوقائع المتعلقة بخسائر الشركة استدعت إجراء تحقيقات قضائية حول الطريقة التي اتبعها آرثر أندرسون، المدقق المالي للشركة، في «التلاعب» بدفاتر حسابات الشركة.

تشيني كان داعماً متحمساً لمكتب أندرسون لتدقيق الحسابات؛ وكل شيء قد يحاول الآخرون قوله، كانت لتشيني كلماته الخاصة في مدح عملهم: «فوق وأعلى من المستوى المعتاد لتدقيق الحسابات»[27]. حين بدا أن شركة هاليبرتون تتجه نحو مستقبل مثقل بدين يقارب 2.2 بليون دولار وليس لديها الضمانات الكافية لتغطية ذلك العجز، فإن المستثمرين كانوا على وشك بيع قمصانهم، إلا إذا خرجوا مسرعين في شهر آب (أغسطس) 2002.

وتجدر الإشارة إلى أنه، قبل أن يشرع المرء في الكتابة عن هذه الشركة باعتبارها ضحية أخرى من ضحايا «المخطئين» في تدقيق الحسابات، ينبغي النظر إلى الأمر على المستوى العالمي. فمع كل هذا القدر من العدوانية المنتشرة في العالم، يمكن اعتبارها أحد الرابحين الكبار. ألكسندر كوكبورن كتب في صحيفة فيليج فويس: «شركة هاليبرتون، الشركة التكساسية التي تعمل في مجال خدمات النفط والتي تسببت مؤخراً في إثارة العديد من المسائل الإشكالية في مجال الأعمال وتدقيق الحسابات، تستفيد بشكل مباشر جداً من جهود الولايات المتحدة في مجال مكافحة الإرهاب»[28].

أحد مشاريع هاليبرتون المربحة هو تشييد السجون المستحدثة في غوانتانامو حيث يتم حجز «المقاتلين الأعداء». لذلك، كلما طالت فترة بقاءهم هناك دون رعاية إنسانية ودون توجيه تهم محددة ضدهم، كلما ازدادت أرباح هاليبرتون. المواطنون الأفغان المسنون الذين كانوا مرضى على أسرتهم في أفغانستان لهم قيمة مادية كبيرة بالنسبة لهاليبرتون باعتبار أنهم يقبعون الآن في زنازين في كوبا، وكلفة سجنهم وحراستهم يدفعها دافع الضرائب الأمريكي.

على الرغم من ذلك كله، لم تكن الحياة سهلة على الدوام بالنسبة لتشيني. في حزيران (يونيو) 2002 قدمت مؤسسة الرقابة القضائية «جوديشال ووتش» التي تعمل في مجال كشف الفساد الإداري والحكومي مستندات إلى البيت الأبيض ضده؛ رُفضت تلك المستندات؛ وتم تهديد مقدمي تلك الأوراق والمستندات بالاعتقال[29]. وحيث أنه كثير المشاغل في هذه الأيام، فإن تنقلاته تكون شديدة الغموض والغرابة في بعض الأحيان، وفي ظهور له في شهر آب (أغسطس)، تحتم على الصحافة ووسائل الإعلام أن تلاحظ أن ذلك كان ظهوراً عاماً نادراً.

شركة رأسمال الثقة العمياء

(المعروفة سابقاً باسم تشيني للتمويل). أنت تعطينا نقودك. نحن نأخذها إلى مكان سري. لن تراها مرة أخرى أبداً. هل يبدو الأمر بسيطاً؟ لقد أصبت. ثق بنا: قد تصبح معدماً. لكن ديك (تشيني) وأصدقاءه يحققون «نجاحاً عظيماً». بروس فينشتاين في صحيفة نيويورك أوبزرفر[30]

بيت العهد (كوفينانت هاوس) – يعتبر هذا المركز المشهور بمثابة الجمعية الخيرية المفضلة لدى بوش. كم هو عدد الأغنياء الذين يقدم لهم العون سراً، في حين يفترض به مساعدة الأيتام، لكن الأمر لا يبدو غريباً أبداً نظراً إلى نوعية الأشخاص المشرفين والمهتمين على هذا المركز.

الدكتور جوزيه ديلغادو – سنتحدث بالتفصيل عن دراساته على الحيوانات والبشر، وذلك في الفصل الرابع. جيء به إلى جامعة يال عام 1960 وموّلت أعماله البحرية الأمريكية ووكالة المخابرات المركزية. بعض اختباراته اعتبرت إجرامية، حيث أن بعضها يتضمن استعمال الأطفال في اختبارات شاذة لها جذور مستمدة من أبحاث النازيين في مجال السيطرة على العقول.

مانويل سي. دياز – أحد شركاء جب بوش وأحد شركاء شارلز كياتينغ. دياز حالفه الحظ حين باعه كياتينغ قطعة أرض كبيرة من عقارات مدينة فينيكس عاصمة ولاية أريزونا بمبلغ دولار أمريكي واحد. هذا الكرم الذي لا يضاهى تبعه تحويل مترل كياتينغ في «كات كاي» الذي يساوي 2 مليون دولار إلى دياز. في الواقع، كان ذلك توقيتاً جيداً بالفعل، ذلك أن السلطات الفدرالية كانت على وشك الوصول إلى كياتينغ وحجز تلك الممتلكات لصالح دافعي الضرائب الأمريكيين[31].

جب بوش كان أيضاً لطيفاً جداً وكريماً مع دياز الذي كان يعمل آنذاك في قطاع الزراعة. بوش من جهته كان شهماً بحيث رتّب اجتماعاً خاصاً بين دياز وحاكم ولاية فلوريدا بوب مارتينيز (جمهوري). بعد ذلك مباشرة حصلت مزارع دياز على عقد تزيين وتجميل زراعي للطرقات السريعة بمبلغ 1.750.000 دولار[32]. قيل أن ذلك كان ضرورياً وملحاً استعداداً لوصول البابا.

جيمس دوتي – المستشار القضائي العام للجنة السندات والنقد أثناء توجيه الاتهامات بسوء العمل التجاري الداخلي ضد شركة هاركين للطاقة، ومن الصدف أيضاً أنه كان المحامي الذي مثّل جورج دبليو بوش في قضية تملك شركة تكساس رانجرز.

دوبونت – ليس مفاجئاً أن نجد اسم شركة دوبونت مذكوراً بالاقتران مع اسم بوش. هذه الشركة والسيناتور بريسكوت بوش كلاهما دعم الجهود الحربية للنازية، وكلاهما لا يخجل من ذكر ذلك (سُلّط الضوء عام 1970 على علاقة شركة دوبونت بالنازية)، وكلاهما عمل أو لا يزال يعمل في مجال النفط والأسلحة. كلاهما لاعب أساسي في السياسة الأمريكية، وكلاهما له تمثيل جيد في ولايتي فلوريدا وتكساس.

تاريخ دوبونت هو تاريخ أمريكا في صناعة التسلح والبلاستيك ومواد مكافحة الحشرات. عائلة دو بونت جاءت إلى الولايات المتحدة بعد أن اضطرت لمغادرة فرنسا[33]. بعد وصولهم أسّسوا مصنعاً لصناعة الأسلحة ومستلزماتها في ديلاوار، ثم شرعوا في الشراء والسيطرة على مصانع الأسلحة الأخرى. لعبة السيطرة والاحتكار هذه التي مارسوها لم تكن دائماً موضع تقدير، كما أن الحكومة الأمريكية وضعت قانون شيرمان لمناهضة الاحتكار كي تحمي مواطنيها من ذوي الجشع الشديد.

أحد المواطنين الذين عانوا بشدة من ممارساتهم كان روبرت وادل صاحب مصنع بوكايي للمساحيق، والذي واجههم بقوة وكتب عام 1907 رسالة مفتوحة إلى رئيس الولايات المتحدة قائلاً: «هنا تدور لعبة احتكار وسيطرة محكمة وشديدة، على مرأى ومسمع من الحكومة... مصالح الناس وحاجاتهم في الميزان مقابل احتكارات دوبونت». قدم وادل شكاوى واتهامات ضد «نهب الناس لإتخام أصحاب الملايين». وهكذا تحركت الحكومة فوجدت دوبونت مذنبة في التهم التي وجهها إليها وادل.

الحرب كانت دائماً استثماراً مربحاً لدوبونت. ربما كانوا دائماً موضع تقدير من قبل العصبة النازية، باعتبار أنهم كانوا يأملون بإلغاء اتفاقية فرساي عام 1930 وتزويد هتلر بالأسلحة والمعدات كي يتمكن من إعداد وتسليح الجيش الألماني[34]. هذه المساندة لرجل مجنون أصبحت اليوم سلوكاً عاماً، فكم عدد الزعماء الإرهابيين الحاليين الذين لم يتلقوا الدعم والإسناد من وكالة المخابرات المركزية أو غيرها من المنظمات الحكومية الأمريكية أو شركات التسليح؟

حين اندلعت الحرب، «دوبونت» مدّت وسلّحت الطرفين، ولكن، في حالة واحدة على الأقل، قدمت أفضل العتاد إلى النازيين[35]. حين تقدم مسار الحرب، تصاعدت أرباح دوبونت بشكل مذهل. وحين اجتاح هتلر فرنسا، احتفلت شركة جنرال موتورز، المتحالفة معها والمنضمة إليها، بتلك المناسبة بشرب الشمبانيا في فندق والدورف أستوريا في مدينة نيويورك[36]. حين سئل عن دعمه ومساندته للحرب، رد إريني دو بونت بفخر وتكبر أن ما فعله ليس شيئاً يذكر لدعم الحرب. بالطبع، باستثناء كسب الكثير من المال منها.

في كتاب «دوبونت: خلف الستارة الشفافة» الصادر عام 1974 ظهرت إلى الضوء العلاقة التي تربط جورج دبليو بوش بهذه الشركة وبعض الأفراد البارزين في هذه العائلة. بوش حرص على أن يكسب بيّ دو بونت إلى جانبه كمساند له في نجاحه. هذا الكتاب ليس متوفراً للقراء، خاصة بعد أن قامت شركة دوبونت بطمس وإخفاء الطبعة الأولى عام 1974[37].

ريتشارد دايك – أحد أبرز المروجين لحملة بوش والذي أصبح فيما بعد موضع مساءلة قانونية بعد مقاضاة شركته، شركة بوشماستر للأسلحة النارية، من قبل أحد رجال شرطة لوس أنجلس الذي جرح نتيجة استخدامه لأحد تلك الأسلحة[38]. إصابة رجل الشرطة أثارت الاهتمام على المستوى الوطني – بعد أن ساد الاعتقاد بأنها سلّحت عصابات السطو والسلب

بأسلحة أفضل من تلك التي زودت بها رجال الشرطة، مما أدى إلى جرح عشرة من رجال الشرطة واثنين من المدنيين نتيجة استخدام تلك الأسلحة. وقد تبين فيما بعد أن الأسلحة التي استخدمها القاتل المدعو «تاروت كارد» في منطقة واشنطن العاصمة في شهر تشرين الأول (أكتوبر) 2002 ربما بيعت بطريقة غير قانونية من قبل هذه الشركة، وهكذا عاد اسم ريتشارد دايك للظهور مرة أخرى مسبباً الإزعاج والحرج للحزب الجمهوري[39].

دينكورب – شركة معروفة بتزوير الوثائق والانخراط في تجارة الجنس[40]. الجنرال ب. سي. كايرنز هو المسؤول عن هذه الشركة، وهذا وحده كاف لإيضاح طبيعتها. المدعوان بن جونسون وكاثرين بولكوفاك رفعا دعوى قضائية ضد الشركة وربحاها، وقد كشفا في مجريات الدعوى الإرهاب الذي كانت تمارسه الشركة ضد المدنيين[41]. ريتشارد مونك رئيس عمليات حفظ الأمن التابعة للأمم المتحدة في أواخر 1990 قال:

> لقد وجدت أنه من المريع أن أشكل وحدة شؤون داخلية للتحقيق في المزاعم المتعلقة بممارسة الضباط الجنس مع قاصرين. الضباط البريطانيون كانوا بشكل عام جيدين ومحترفين، ضاربين بسلوكهم المثال الحسن. لكن يوجد بعض رجال الشرطة من بلدان أخرى ممن يجب ألا يرتدوا أبداً الزي الرسمي[42].

إنرون – شركة أخرى لا يحب المواطنون الأميركيون سماع اسمها دائماً، ذلك أنها تركت بين أيديهم سندات أسهم لا قيمة لها حين ساءت الأمور في هذه الشركة التكساسية التي تعمل في مجال الطاقة. رئيس الشركة كين لاي كان مقرباً جداً من عائلة بوش، وكانوا يسمونه تحبباً «الفتى كيني». ومن عجائب الصدف أن يخرج مسرعاً من الشركة قبل أن تحل الكارثة مباشرة. الذي لم يلحقوا ذبحتهم شفرات مروحة الانهيار الاقتصادي. حتى الموظفين لم يهربوا، حيث أن إنرون استمرت في بيع الأسهم، وبعد العمل على رفع قيمة الأسهم لفترة وجيزة تمكنوا من بيع جميع أسهمهم[43].

العناوين البارزة في الصحف التي تحدثت عن التلفيق والتزوير في حسابات الشركة أثارت هلعاً وردود أفعال عنيفة في كافة أنحاء أمريكا، ثم تبع ذلك مزيد من الكشف حول قيام إنرون برفع أسعار الطاقة بطريقة غير طبيعية في كاليفورنيا، مما أدى إلى إجراء تحقيق قضائي في تلك الولاية[44]. ماذا فعل البيت الأبيض حول كل ذلك؟ بناء على أقوال النائب هنري

واكسمان (ديمقراطي – كولومبيا) فإن «إدارة بوش والأعضاء الجمهوريين في الكونغرس اصطفوا إلى جانب شركات الطاقة و لم يفعلوا شيئاً للمساعدة».[45]

ربما لجأ الجانب الألطف والأرق في إدارة بوش إلى إيجاد الأعذار لكين لاي وفيل غراهام وغيرهما من أصدقاء بوش من المتورطين في هذه القضية، وذلك بعد إلقاء اللوم على عدد قليل من المتورطين وتقديمهم كقرابين تضحية للرأي العام الغاضب.

وليام فاريش الثالث – مقيم حالياً في لندن كسفير أمريكي لدى بلاط سانت جيمس. مثله مثل جورج دبليو بوش، جده جمع ثروة من العمل في مجال النفط؛ مثل بريسكوت بوش الذي كان لدى الحكومة الأمريكية ما يكفي من الأسباب لمراقبة نشاطاته بدقة. جواسيس النازية الذين كانوا يعملون خفية في دول الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية كانوا من الذكاء بحيث يلتقطون العملاء والمناصرين من ذوي الأسماء ذات الطابع الإنجليزي أكثر من ذوي الأسماء ذات الأصل الألماني، لذلك كان اللورد آمري وبريسكوت بوش ووليام فاريش الأول هم الأنسب لهذه الغاية. وهؤلاء كغيرهم من هذا النمط، عملوا لفترة حتى تم القبض على أحدهم. حينئذٍ، تدحرجت الرؤوس وانكشفت الوجوه التي تختفي خلف مظاهر النبل والاحترام. في حالة فاريش الأول، تصرف شركاءه بسرعة وقسوة من خلال العمل على التعجيل بتدهور صحته وتسريع موته، وهو الأمر الذي ظل خفياً لمدة ستة أشهر، حتى تم كشف الحقيقة وإعلانها على الأمة. أنطوني سامبسون في كتابه الصادر بعنوان «الشقيقات السبع» قال أن فاريش كان كتوماً ومتهوراً وقد خالف قوانين مكافحة الاحتكار[46]. كان فاريش رئيساً لشركة إسّو، وصفقات هذه الشركة ربما تكون قد أطالت أمد الحرب وتسببت في موت الآلاف من الضحايا. حين سأله أحد المراسلين عما إذا كانت صفقات إسّو تقع في خانة الخيانة، حينئذ أجاب السيناتور هاري ترومان، رئيس لجنة مجلس الشيوخ المكلفة بالتحقيق،: «...وهلً هي غير ذلك؟»[47].

وليام فاريش الثاني مات بعد ستة أشهر من موت والده، ووليام فاريش الثالث نما وترعرع تحت هذه الغيمة. مصدر دخله الحالي ليس واضحاً، على الرغم من أن الميراث الذي وصل إليه قد يكون كبيراً جداً. فاريش وضع عام 1980 ثقته العمياء في عائلة بوش.

آري فليشر – الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض. ليس لديه الكثير من الخبرة السياسية، وربما كانت تلك من مزاياه الإيجابية، حتى أنه قد يكون رجلاً صادقاً وشريفاً. قال مرة أنه

ارتكب خطأً حين أصبح محامياً. الكثيرون يرون فيه مجرد حجر صغير في لعبة كبيرة، ليس أكثر.

الجنرال تومي فرانكس – قائد غزو أفغانستان، وقد خضع لتحقيق في العام 2002 بتهمة سوء استعمال السلطة. حسب قول رمسفيلد، هو «رجل شديد الاستقامة»[48]. فرانكس ترعرع في نفس البلدة التي نشأ فيها بوش. عالم صغير، وكثير من الاستقامة.

الدكتور بيل فريست – «ما فعلتُه كان أمراً شنيعاً»[49]. هكذا وصف فريست كذبه على محميات الحيوان لكي يستطيع الحصول على الحيوانات وإجراء الاختبارات عليها. أصبح عام 2003 زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ بعد أن تغلب على سيئ السمعة ترينت لوت الذي أدت تعليقاته حول دعمه لسياسات الفصل العنصري في العام 2002 إلى استقالته.

كينيث غوود – ابن أحد قساوسة الكنيسة الميثودية، وفي فترة من الزمن كان يدعم ويساند نيل بوش في مجال الأعمال. لسبب من الأسباب، بوش هذا أخفى وأنكر علاقته الوثيقة مع غوود بالذات من بين الأعضاء الآخرين المتورطين في قضية شركة سيلفيرادو للإدخار والتسليف[50]. ستيف ويلمسن المحرر الاقتصادي لصحيفة دنفر بوست وصف أحد أعمال غوود قائلاً: «غوود استحصل على جزء كبير من أمواله بطريقة سحرية وعبر صفقات معقدة أثرته من لا شيء – وذلك بمساعدة بسيطة وكريمة من شركات الادخار والتسليف مثل شركة سيلفيرادو. على سبيل المثال، تاجر غوود وعدد من شركائه بقطعتي أرض ثلاث مرات في ستة أشهر مع زيادة السعر كل مرة حتى باعوهما أخيراً لشركة سيلفيرادو بمبلغ 3.2 مليون دولار».[51]

كل ذلك لم يكن أمراً سيئاً بالنسبة لبوش المذكور الذي يقبض 120.000 دولار كراتب سنوي من غوود في شركة «جي أن بي إكسبلوراشن» التي يملكها الأخير، بالإضافة إلى مبلغ 100.000 دولار سنوياً كمدير في شركة جولف ستيرم هولدينغ كوربوراشن في فلوريدا. لم يكن ذلك كرماً وشهامة من جانب واحد، حيث تسلّم غوود بطاقة دعوة لحضور احتفال نصر جورج بوش عام 1988 بعد أن فاز الأخير بالانتخابات الرئاسية[52].

جي أو بي – أو «الحزب العظيم القديم» كما يسمي الجمهوريون أنفسهم، والذي تأسس في العام 1850. في العام 1856 دعموا مرشحهم الأول للانتخابات الرئاسية، جون سي.

فريمونت. مرشحهم التالي، أبراهام لينكولن، كان الأول الذي نجح في الوصول إلى البيت الأبيض.

هذا الواقع أعطاهم الحق في أن يسموا أنفسهم «حزب لينكولن». الحاضر الراهن ربما يكذّب تلك العبارة، والحقيقة الواقعة أنهم حزب يضم الكثير من أصحاب الميول الجنسية المنحرفة نحو الأطفال والقاصرين. هل ينبغي أن أذكر أيضاً أن بعض أعضاء هذا الحزب خططوا مرة لقتل المواطنين الأمريكيين وأرادوا جعل الأمر يبدو وكأنه هجوم إرهابي آتٍ من كوبا بحيث يستطيعون إعلان الحرب على الإرهاب واجتياح كوبا؟

مشكلة أخرى تجددت مؤخراً مع هذه الجماعة، وهي التدخل القسري في حق المواطنين الأمريكيين في الاقتراع، وهذا الأمر لم يبدأ أبداً في العام 2000؛ بل يعود إلى جذورهم ومنبتهم، كما هو مبين في الاقتباس المقتطف من الرسالة التالية التي كتبها أحد جنود الحرب الأهلية كشهادة:

> حسناً، نحن، أو بالأحرى هم، في «الدائرة» صوّتوا للرئيس التالي. تبين لاحقاً ما أخشاه وهو أن – الرجال لم تتوفر لهم فرصة الاقتراع الحر.
>
> حاول الجمهوريون الاحتفاظ ببطاقات اقتراع الديمقراطيين والحؤول دون فرزها واحتسابها، وتحقيق الفوز جزئياً. في مدينة بن ريجنت التي انضمت إلينا، طلب رجل من ماك كليلان بطاقة اقتراع فأخبروه بعدم وجود بطاقات؛ لكنه أصر على ذلك بأسلوب مدني.
>
> قائد ذلك الجندي وضعه في الحجز. الجمهوريون الثمانية أو العشرة الموجودين بيننا ذهبوا إلى حيث تم حجزه ولقبوه بالخائن ابن الع...ة. خرج مسرعاً وألقى اثنين منهم أرضاً، ثم عمل قائده على تكبيل يديه ورجليه ووضع خرقة في فمه. وهذه ليست الحالة الوحيدة من هذا النوع. هناك الكثير من الحالات المشابهة.
>
> آه، أيها المواطنون الأمريكيون، أين هي الآن حريتكم التي تتفاخرون بها؟ أنا هو الذي صوّت للديمقراطيين والذي أكتب عنه. نقلت الأمر إلى المحكمة وطُلب مني أن أقسم اليمين. أحدهم أطلق ملاحظة بطريقة أشبه بالشخير قائلاً أنني لا أروق له. عندئذ اغتنمت الفرصة لأقول لجمهور المحتشدين أنه بناء على القوانين المرعية فإن للناس حقوقاً متساوية في الاقتراع والتصويت لمن يشاءون، وأنا كجندي وكمواطن أمريكي أتمسك بذلك الحق، وأنا مستعد للدفاع عن ذلك الحق[53].

في العام 1917 واجهت عائلة دو بونت أوقاتاً عصيبة في ديلاوار، حيث وُجّهت إليها تهمة شراء الأصوات والتلاعب بصناديق الاقتراع. ثم حصل الانتخاب المشهور لهوبرت همبري ضد

ريتشارد نيكسون، والتلاعب في ذلك الانتخاب تبعته المشاكل التي حدثت في فيرمونت فيما يتعلق بلجان جدولة واحتساب الأصوات أثناء انتخاب جون سنونو.

حالياً يتحكم الجمهوريون باللعبة تماماً فيسمحون بالدخول لمن يريدون، وذلك ما فعلوه حين انتخبوا دوغلاس بويندكستر في مرتبة الجمهوري المتميز للعام الحالي، ومن الجدير بالذكر أنه يواجه تهماً بالاعتداء على الجنسي على الأطفال(54). وهو ليس من أسوأ الأسماء الأخرى المرشحة فحسب، كما حاول أن يثبت العمدة فيليب جيوردانو من واتربوري في ولاية كونكتيكت. جيوردانو نفسه يحمل على عاتقه عدداً من التهم المماثلة وهو الآن يقضي فترة عقوبته في السجن بسبب تلك الجرائم(55)(56)، والتي تتضمن إجبار الأطفال على النظر والمراقبة أثناء مداعبته الجنسية لوالدهم. جيوردانو كان داعماً راسخاً ووفياً لإدارة بوش، وكان قد وضع لنفسه هدفاً هو أن يصل هو نفسه إلى المكتب البيضوي. النصير الشره الآخر لهذه العصبة هو لاري كينغ، وهو الآن خارج السجن بعد أن دخله لدوره في فضائح شركات الادخار والتسليف؛ اسم كينغ وارد أيضاً ضمن المتورطين في جرائم الاعتداء على الأطفال، وبعض شركائه الجمهوريين دخل السجن بهذه التهم(57). الكثير من جوانب الحزب العظيم القديم (الجمهوري) هذه موثّقة جيداً من مصادر نزيهة، بما في ذلك السيناتور الجمهوري جون دي كامب من نبراسكا. التقارير الأولية، والتي تتضمن سجلات معاينة طبية، تم نشرها عام 1995(58)؛ ومنذ ذلك الوقت جرت عدة محاكمات لعدد من أعضاء الحزب. ولو أن أحداً وضع النقاط على الحروف وربط بين أجزاء الصورة فستظهر تلك الصورة كاملة بكل بشاعتها.

على الرغم من كل هذا الانحراف، يحب الكثيرون منهم الذهاب إلى الكنائس وإلقاء الخطب حول الوطنية. إنهم يرفعون الراية ويقدمون أنفسهم كقادة، وذلك أثناء ارتكابهم لأسوأ أفعالهم، ثم يذهبون إلى الكنيسة لإخفاء شخصياتهم الحقيقية.

واحد من أصحاب الصور الزاهية ضمن هذه العصابة هو دومينيك كريسبينو وهو محامٍ رشّح نفسه لمنصب المدعي العام المحلي في مانهاتن عام 1994 وخسر أمام الديمقراطي روبرت مورجينتاو. لم تكن لدى كريسبينو الخبرة الكافية لخوض مضمار الترشيح، لكن كان لديه الكثير من أعلام أمريكا التي علّقها على جميع أعمدة إنارة الشوارع في مانهاتن، طالباً من الناس التصويت له. لم يخسر بطريقة ملتبسة ومشكوك فيها فحسب، بل مُنع منذ ذلك الوقت

من الترافع في القضايا القانونية التي تتعلق بتهم إساءة استخدام أموال الزبائن. وحيث أن لي احتكاك شخصي مباشر مع هذا الشخص، يمكنني فقط أن أؤكد ضرورة حل الحزب الجمهوري. خبرتي الشخصية معه تنبع من أنني كنت شاهداً للحكومة في قضية كان المدّعون فيها يحاولون تلفيق الأدلة ضد بعض ضباط وعناصر الشرطة الأمريكية. وكما حدث في خوضه معركة منصب المدعي العام، خسر القضية أيضاً. وفي الواقع، ألا يمكن لحزب سياسي أساسي في العالم الحر أن يقدِّم أشخاصاً أفضل من فيليب جيوردانو، دومينيك كريسبينو، لاري كينغ، ديك تشيني، وجورج بوش؟

للإجابة على ذلك السؤال، وبالتالي منح الحزب الجمهوري شيئاً من الإنصاف، يمكن القول أنه كان لديهم في بعض الأحيان أفضل من هؤلاء؛ جورج هانسن كان أحد نجوم الحزب. ومن الجدير بالذكر أنه تحدث ضد بعض القوانين والتشريعات الحكومية عام 1970 فقضى في السجن أكثر من عقد من الزمن بتهم ملفقة. خلال مدة سجنه تعرض بشكل دوري للتعذيب، وقد فقد نتيجة لذلك جميع أسنانه وأظافر قدميه[59]. فضحه لنظام السجون الأمريكي أثار غضب أحدهم، لكن الكثير من الناس لا يستطيعون تقبل الواقع الشنيع لما يحدث في وطنهم، وحتى ما يحدث بالنسبة للقادة منهم، وهم ينكرون ذلك.

هانسن مثال واحد عن السياسي النزيه والملتزم والمواطن الأمريكي. كما أنه يعتبر مثالاً لما يحدث للكثيرين الذين يرفعون صوتهم دفاعاً عن وطنهم ضد العناصر الإجرامية في واشنطن.

القس بيلي غراهام – هذا اسم أدرجه هنا مع كثير من الأسف. غراهام كان محل احترام عميق، وأنا أعتقد أن ارتباطاته بآل بوش وغيرهم من السياسيين الأمريكيين كانت عن نية حسنة من جانبه، لكنهم استغلوه. غراهام نفسه شعر بأنه هؤلاء قد تلاعبوا به، وأن من الأفضل له الابتعاد عن هذه الشلة، مع المخاطرة باتهامه بالغلظة والسماجة. ربما كان ذلك أسوأ الشرين، كما أن التعامل مع أصحاب السلطة والنفوذ قاد إلى ما هو أسوأ بكثير من مجرد الظهور في صور المناسبات التي تقام في حديقة البيت الأبيض، حيث أن فترة المسؤولية الوزارية لغراهام ارتبطت بعمليات غسيل أموال.

بالرغم من ذلك، أعتقد أن غراهام يظل وزيراً شريفاً وأميناً. كتب العديد من الكتب التي لاقت رواجاً كبيراً. وهو الآن يعيش على راتب متوسط محاطاً بعائلته وأصدقائه، مكرساً

جهوده لخدمة الكنيسة. في مناسبات مختلفة اجتمعت ببعض ممن كانوا على علاقة واتصال به، وكلهم أشاد بصدقه ونزاهته والتزامه بعمله.

هذه بالضبط الخصائص والمواصفات التي جعلته هدفاً ثميناً للسياسيين الذين يمتازون بمهارات تمكنهم من غشنا وخداعنا وإيهامنا، نحن المواطنين العاديين، بأنهم يستحقون الثقة. بالنسبة لقضية غراهام، مع الافتراض بأنه فعلاً قد سمح بما حدث، فإنهم تصرفوا معه بأفضل ما لديهم من سلوك. هناك أيضاً احتمال بأن غراهام كان يعلم ويرى بعضاً من تلك الأعمال، لكنه كان يأمل، من خلال الصبر والقدوة الحسنة، التأثير عليهم وجرهم إلى حياة أكثر صدقاً ونزاهة. مهما كانت نواياه الخاصة، كان مخطئاً بالتأكيد بتوفيره الدعم لأناس لهم تاريخ حافل في مجال الاستغلال والمصالح الأنانية التي تتعارض مع المصلحة الوطنية، وأنه لم يتصرف حسب تعاليم الإنجيل فيما يتعلق بالاتهامات الموجهة إلى بعض أفراد هذه العائلة والتي تتضمن جرائم شائنة ضد الأطفال. مع كل الاحتمالات، غراهام لم يرغب في التركيز كثيراً على تلك المسائل، لذلك فأنا أتوخى الحذر هنا، لكنني أتمسك بالقول جازماً بوضوح أن الوزراء يتسلمون مهامهم وهم يعلمون أن هؤلاء الذين لا يردعهم وازع معروفون بمحاولة استغلال الكنيسة، هذا أمر معروف وموجود في تعاليم المسيح، كما أن التاريخ غير الديني يحفل بكثير من الشواهد في هذا المجال.

روبرت غراي — بناء على شهادة خطية محفوظة في سجلات محكمة المقاطعة الشمالية في فلوريدا عام 1986، حين كان مدير وكالة المخابرات المركزية بيل كايسي والكولونيل أوليفر نورث يحاولان استنباط طريقة ما لإيصال الأسلحة خفية إلى ثوار الكونترا، عثرا على ضالتهما في شركة غراي، التي كان الموظف فيها روب أوين يجمع الأموال وينظم عملية نقلها إلى ثوار الكونترا[60]. كما أن غراي أسس في واشنطن سلسلة مكاتب مؤسسة هيل ونولتون، وهي مؤسسة تشرف على إدارة العلاقات العامة لبيت العهد (كوفينانت هاوس).

كاثلين هاريس — مايكل موور يسميها «رجل أبيض غبي مبجل»[61]. وهو، كما أعتقد، لم يكن دقيقاً تماماً، ذلك أنها قد لا تكون غبية. لاحظ: في العام 1992 استلمت مبلغ 20.000 دولار نتيجة حملة جمع تبرعات قامت بها شركة ريسكورب، وهي شركة تأمين في فلوريدا. وليام د. غريفين، مؤسس الشركة، أُتهم وأدين فدرالياً بالتآمر في هذه المسألة، في حين أن هاريس نجت بجلدها[62]. بعد عدة سنوات، حين كانت مسؤولة عن الشؤون الخارجية لولاية

فلوريدا والمسؤولة عن الانتخابات (وفي نفس الوقت المدير المساعد في حملة جورج دبليو بوش الرئاسية)، دفعت مبلغ 4 ملايين دولار لشركة داتابيس تكنولوجي كي تتفحص جميع سجلات الناخبين في فلوريدا وتزيل من السجلات جميع «المشتبه» بهم من ذوي السوابق الإجرامية. بطريقة ما، كان المشتبه بهم من الديمقراطيين والأمريكيين الأفارقة[63].

ريتشارد هيلمز — مدير وكالة المخابرات المركزية في الستينات وسفير الرئيس فورد في إيران في السبعينات. ابنة أخيه، ليلي، كانت سفيرة حكومة طالبان في أمريكا. لا تسأل، مرة أخرى، عالم صغير جداً.

آسا هاتشينسون — مدير دائرة مكافحة المخدرات، واسمه الأول معناه باللغة اليابانية القنّب. ومن الجدير بالذكر أن القنّب مستهدف تماماً من هذه الدائرة التي تريد، من ضمن أهدافها، القضاء على هذه البذور الغنية بالمواد الطبيعية المغذية والتخلص من تداولها نهائياً. الأمريكيون الأوائل، الآباء المؤسسون، زرعوا بذور هذه النبتة ورعوها، لكن ذلك لا قيمة له ولا وزن بالنسبة لهاتشينسون. وحيث أن الأجزاء الأخرى من هذه النبتة تنتج الطاقة أو الورق أو النسيج، فمن المفيد لمن يهتم بهذه المسألة أن يتتبع الأكاذيب التي أطلقتها الصحف التي تصدر عن مجموعة هيرست في الموضوع الذي سمته « 30 ضد زراعة القنّب». القراءة الدقيقة والمتأنية لسجلات الحكومة الأمريكية تبين القيمة الفائقة لهذه النبتة، وهو الأمر الذي قد يوضح السبب الحقيقي في وقوف هؤلاء ضد زراعتها؛ سائل الإثانول وخيوط النسيج الطبيعية المستخرجان من هذه النبتة يمكنهما القضاء على أعمال العديد من الجمهوريين. لماذا تصنع الإثانول في ولاية إلينويس إذا كنت تستطيع سرقة النفط من العراق؟

مايكل جاكسون — نائب وزير النقل والنائب السابق لرئيس شركة لوكهيد مارتن، أكبر شركات صناعة السلاح في أميركا.

روبرت جوردان — السفير الحالي في المملكة العربية السعودية. لم تكن له خبرات سابقة في العمل الدبلوماسي، لكن لديه خبرة كافية في حماية زبائنه من لجنة السندات والنقد؛ أحد زبائنه كان جورج دبليو بوش. قد يكون ذلك باعثاً للثقة والطمأنينة لدى المستثمرين السعوديين، وربما لا، حيث أنهم سحبوا 200 بليون دولار من السوق في شهر آب (أغسطس) 2002[64].

توماس كين – حاكم سابق لولاية نيو جرسي، وقد عُيّن مسؤولاً عن التحقيق في أحداث 9/11 بعد أن استقال كيسنجر من تلك المهمة. عند قبوله بتولي هذا الدور البالغ الحساسية، صرح بأن جمهوره الانتخابي هو فقط جامعة دريو، التي كان رئيساً لها؛ لكن ما لم يصرح به هو أنه أحد أعضاء مجلس إدارة شركة أميرادا هس[65]، وهي شركة نفط وغاز متحالفة مع شركة دلتا للنفط، وهي شركة سعودية. هذه الشراكة، دلتا–هس، أثمرت تعاوناً في التنقيب عن النفط في أذربيجان واستخراجه من بحر قزوين.

بالتالي، من يملك شركة دلتا؟ نسيب أسامة بن لادن الشيخ خالد بن محفوظ. لذلك، لماذا لم يقل كين الحقيقة كاملة هنا؟ ربما كان يسير على خطى النخبة في حزبه، وهم على كل حال ليسوا أفضل الناس في العالم.

لاري كينغ – كينغ كان مسؤولاً عن جمع مبالغ هائلة من المال كتبرعات للحزب الجمهوري في الثمانينات والتسعينات. المتبرعون له كانوا من المشاهير، لكن شهرقم لا تعود فقط إلى الأموال التي تبرعوا بها ولا إلى الجمهوريين البارزين الذين دعموهم، بما في ذلك ريغان وبوش، بل أن شهرقم ترجع إلى الأطفال الذين شهدوا ضدهم وذكروا أسماء بعض هؤلاء السياسيين كوحوش مفترسة جنسياً[66]. هذه التهم، مضافاً إليها ما هو ثابت ضده في مجال الاحتيال المالي، استدعت إجراء تحقيق قضائي معه في ولاية نبراسكا. في البداية، بدا كينغ كمن لا يمكن المساس به. الشهود والمحققون ربما تعرضوا للتهديد أو القتل، أو ربما تمت ملاحقتهم من قِبل الشرطة أو مكتب التحقيقات الفدرالي.

في نهاية الأمر، دخل كينغ إلى السجن. أحد ضحاياه، وهو شاب يدعى بول بوناتشي، كسب تعويضاً بمبلغ مليون دولار من كينغ. جاء في تفاصيل القضية التي رفعها بوناتشي ضد كينغ وصف لممارسة طقوس شيطانية، بالإضافة إلى خطف أطفال وعمليات قتل[67]. في مرحلة ما من جميع تلك التحقيقات، تم الاستناد إلى مصطلح «الأمن القومي»[68] لمنع الحقيقة من الوصول إلى الرأي العام الأمريكي، وفي حين أصبح واضحاً أن للضحايا كامل الحق في قول الحقيقة والإبلاغ عما تعرضوا له، إلا أن البعض ارتأى ضرورة عدم التشكيك في صدقية جورج بوش لدى الرأي العام. هذا الحرص الذي لم يكن في محله انسحب تحت الضغط المعاكس، وربما أدت فرضيات هؤلاء واقتراحاهم إلى اقتراف جرائم أعظم.

مؤخراً تم إطلاق سراح لاري كينغ، وهو الآن يحاول متابعة نشاطاته في جمع التبرعات لصالح الحزب الجمهوري.

هنري كيسنجر – عُيّن رئيساً للجنة التحقيق في أحداث 9/11 بدلاً من رئيسها السابق، ثم استقال هو نفسه من هذا المهمة. قد يكون المحققون الأرجنتينيون أرادوا استجوابه حول «كوندور بلان»، وهي عملية قمع واسعة حدثت في السبعينات والثمانينات، وربما كان لدى التشيليون أسئلة أيضاً حول دوره في دعم الجنرال بينوشيه.

ما قاله عام 1992 حول مسألة الحقوق المدنية الأمريكية قد يكون مشكلة أخرى صغيرة، هذا إن لم تكن خيانة. كل مدرسة ثانوية يتوجب عليها أن تضم هذا إلى منهاجها التعليمي.

> اليوم، قد يغضب الأمريكيون ويثورون إذا دخلت قوات الأمم المتحدة إلى لوس أنجلوس لحفظ النظام؛ أما غداً فسيكونون ممتنين وشاكرين. وهذا الأمر صحيح بشكل خاص إذا علموا بوجود تهديد خارجي آتٍ من بعيد، سواء كان تهديداً مادياً أو معنوياً يهدد وجودنا. ما سيحدث حينئذٍ هو أن جميع شعوب العالم ستتسامح مع قادة العالم ليخلّصوها من هذا الشر. الأمر الوحيد الذي يخشاه كل إنسان هو المجهول. عند النظر إلى الحقوق المدنية ضمن هذا السيناريو، فإن الأفراد سيقبلون طوعاً بتعليق حقوقهم الفردية لكي يضمنوا سلامتهم التي ستوفرها لهم حكومتهم العالمية[69].

تشارلز وديفيد كوش – يدير هذان الأخوان شركة كوش للصناعات، وهي أكبر شركة نفط مملوكة عائلياً في أمريكا. في أيلول (سبتمبر) 2000 وجهت الحكومة الفدرالية سبع وتسعون تهمة إلى هذه الشركة. في وقت سابق من ذلك العام تم تغريم الشركة بمبلغ 35 مليون دولار بسبب التلوث البيئي الذي أحدثته في ست ولايات[70]. بحلول كانون الثاني (يناير) 2001، ومع وصول «الأخيار» إلى السلطة، انتشرت في الجو رائحة العفو والتسامح. حسناً، رد الجميل قد يكون هو المصطلح الصحيح، ذلك أن الأخوين كوش كانا قد تبرعا بمبلغ 800.000 دولار لحملة بوش. تم تخفيض الاتهامات من سبع وتسعين مخالفة وتهمة إلى تسع فقط، لكن مسألة الغرامة بمبلغ 352 مليون دولار ظلت عالقة، ولكن في الإدارة الجديدة اختفت هذه الغرامة في غيمة الخطوط الهاتفية الحمراء. في النهاية، لا أحد يود الذهاب إلى السجن[71]. تشارلز وديفيد حصلا مرة أخرى على إشارة العبور والنجاة واحتفلا بذلك.

كين لاي – هنالك أصدقاء وهنالك أصدقاء مخلصون، وكين لاي أحدهم، وربما كان أحد أفضل الأصدقاء المخلصين. من الطريف كيف يمكنك في بعض الأحيان أن تفقد الصلات،

كما حدث حين كانت البلاد بأكملها في حالة إحباط بسبب فقدان الناس لمدخرات تقاعدهم ويكون اسمك مذكوراً بطريقة ما في الصحف.

في كانون الثاني (يناير) 2001 بدا وكأن البيت الأبيض قد أظهر إخلاصاً شديداً لكين لاي، وذلك بعد أن تبيّن أن لاي قد أجرى في ذلك الوقت مكالمات متكررة مع حكومة بوش، بما في ذلك مكالمات مع وزير الخزانة بول أونيل ووزير الاقتصاد دون إيفانز[72]. اليوم لا تظهر بصورة جلية هذه الصداقة الحميمة والراسخة، لكن المرء يتساءل لماذا لم ينضم لاي إلى صف مدراء الشركات الآخرين الذين تم إرسالهم إلى السجن.

جون ليندساي – قاضي مقاطعة هاريس كونتي (تكساس) هذا كان صديقاً مقرباً من جورج بوش الأب، وترأس حملته في هاريس كونتي عام 1988. بتي بريوتن كتبت أن قصته هي «رواية كلاسيكية حول فساد السياسي – ساذج أصابه حظ النصر في الانتخابات ثم بدأ يفسد تدريجياً بسبب الامتيازات وإغراء السلطة»[73]. في العام 1984 تعرض لضغط قاسٍ بعد أن اعترف بأنه وظّف أصدقاءه والمساهمين في الحملة الانتخابية لأداء بعض الأعمال لصالح الحكومة المحلية. وقد تبيّن أنه كان يدفع لهم أكثر مما يجب، كما في الحالة التي دفع فيها مبلغ 3.800.000 دولار للمدعو هـ. آر. برايت، وهو جمهوري بارز من دالاس[74].

لورنس ليندساي – مدير ومستشار اقتصادي، وكان سابقاً مستشاراً في شركة إنرون.

أندريو لندكويست – مساعد سابق لديك تشيني في مجموعة العمل من أجل الطاقة. مجلس حماية المصادر الطبيعية أصدر بحقه مذكرة جلب، فقط لكي تقول وزارة العدل أن سلوك المجلس المذكور «غير ملائم كلياً»[75]. كيف يمكنهم أن يحاسبوا أحد مؤيدي تشيني؟ قد يتم اعتقالهم بتهمة عدم الوطنية أو ما شابه، ومع وجود جون أشكروفت على رأس وزارة العدل، لن يفاجئني هذا الأمر أبداً.

روبرت ماكاولي – مؤسس منظمة أمريكيرز الخيرية، وصاحب الابتسامة المحترمة التي تزين الكثير من أدبيات منظمته، كما فعل ذلك من قبل بريسكوت بوش الإبن وباربارا بوش. السيناتور جون دي كامب لاحظ أن أمريكيرز قد أُدخلت في شبكة تسريب التمويل إلى ثوار الكونترا[76]، والأب ريتر كان نائب رئيس هذه المنظمة. العلاقة بين ماكاولي وآل بوش لم تبدأ ضمن هذه المنظمة، بل هم زملاء دراسة في أندوفر وجامعة يال.

فريدريك في. مالك – عندما كان مديراً للموظفين في إدارة نيكسون، أحصى مالك، بناء لطلب نيكسون، عدد اليهود في الإدارات الحكومية؛ وبالتالي تم إبعاد عدد منهم عن المراكز العليا. في العام 1988 عيّنه جورج بوش الأب في منصب رئيس اللجنة الوطنية الجمهورية، وعمل مديراً لحملة بوش-كوايل الرئاسية عام 1992[77].

عائلة ميللون – اسم هذه العائلة معروف بالنسبة لمعظم الناس باعتبارها تضم أفراداً محترمين من ذوي التعليم العالي. الأكثر شهرة من أفرادها هو أندريو ميللون الذي كان وزيراً للخزانة الأمريكية من 1921 إلى 1932. حمى ودافع عن شركتي جنرال موتورز و«دوبونت»، وهما الشركتان اللتان ساعدتا هتلر على التسلح وإشعال الحرب. أصل ثروته ينبع من النفط، وكان قادراً على إفشال كل محاولة لاستخدام بدائل الطاقة الرخيصة والآمنة. في فترة الكساد الاقتصادي، ازدادت ثروته على حساب الناس الذين كانوا يعانون بشدة[78].

الأمر المشترك بين اسم ميللون وآل بوش هو جامعة يال، وكلا العائلتين كان لهما أعضاء في نادي سكول آند بونز في تلك الجامعة. في جامعة يال توجد مجموعة بول ميللون الفنية المشهورة، وهو الأمر الذي يعطي انطباعاً عن هذه العائلة أفضل بكثير مما هي عليه بالفعل. جون كاري، وهو أستاذ في جامعة أوكسفورد، كتب في الإندبيندنت أن «العديد من النتنين في التاريخ» أحبوا الفن[79]؛ هتلر، فون ثيسين، إيفان الرهيب، جميعهم أحبوا الصورة الجميلة، بالرغم من عجزهم عن خلق مثل تلك الصورة.

اليوم لا تزال عائلة ميللون تجمع القطع الفنية، ولا تزال تمارس تأثيرها على أمريكا. ريتشارد ميللون سكايفي، وهو صحفي يميني، قد يكون قائد الجماعة هذه الأيام. كاثي أوبرين تحدثت عن تورطهم في مسائل البغاء الإجباري، حيث يتم، بشكل نظامي ومنهجي، اغتصاب المواطنين الأمريكيين الأقل حظاً من الثروة[80].

نورمان مينيتا - وزير النقل والنائب السابق لرئيس شركة لوكهيد مارتن، أكبر شركات صناعة السلاح في أميركا.

صن مايونغ موون – أحد الشركاء القدامى لآل بوش، والقائد الديني النخبوي القادم أصلاً من كوريا الشمالية. في بلده الأصلي أدين بتهمة الاغتصاب الجنسي، لكنه حين وصل إلى أمريكا تمكن من تأسيس شبه مملكة. امتلك صحيفة واشنطن تايمز التي أصبحت شديدة الدعم

والتأييد لبوش. موون لم يطالب فقط بتعيينه وزيراً، بل زعم في 4 تموز (يوليو) 2002 في صحيفته وفي صحف أخرى بأن المسيح وبوذا ومحمد (ص) جاءوه وأبلغوه بأنه هو ملك الملوك، أي المسيح المخلّص. في وقت سابق من ذلك العام كان قد أو لم لبوش وأعضاء إدارته وحضر الوليمة 1700 من أعضاء السلك الديني، بالإضافة إلى وزير العدل جون أشكروفت. قد لا يهتم أشكروفت بالأدلة التي تربط بين موون ووكالة المخابرات المركزية ومشاكله القضائية السابقة المتعلقة بالاعتداءات الجنسية[81].

ظهر اسم أشكروفت في كتيب دعائي لبوش/موون ظهر ربيع عام 2003 [82] وفيه تشجيع للأمريكيين بعدم قراءة صحف معينة وتشجيع غيرهم من الأمريكيين على ذلك، مثل الأمريكيين المتحدرين من أصول فرنسية، وذلك حفاظاً على «الأمن القومي»[83]. الكثير من الأمريكيين يريدون من هذا الشخص مغادرة بلدهم، ويعتبرونه مجرماً منحطاً، لكن اتصالاته مع البيت الأبيض توفر له مقداراً من القوة لا يتوفر للمواطنين العاديين. أحد المواطنين الأمريكيين المدافعين عن موون هو القس فريدريك سونتاغ من الكنيسة الأمريكية؛ سونتاغ قضى بعض الوقت مع عائلة موون وألّف كتاباً يدحض فيه الانتقادات الموجهة لموون[84]. بعض التصرفات المقرفة لموون أزعجت مشاعر الناس، مثل ملاحظاته حول عادته بالعبث بأنفه، وسؤاله للناس إن كانوا يشاطرونه هذه الهواية؛ وكان هذا هو موضوعه المفضل أثناء جولته مع بوش الأب، وهو الأمر الذي دفع بالكثير من الأمريكيين للتساؤل عما يجري بين رئيسهم السابق وبين هذا المجرم السابق.

وفي حين أن العديد من الأمريكيين يتمنون خروجه من بلدهم، بادرت بعض الدول الأخرى إلى منعه من الدخول إلى أراضيها. البرازيليون لديهم شبهات حول اهتمامه المفاجئ ببلدهم وفتحوا تحقيقاً حوله فيما يتعلق بعمليات غسيل أموال[85] واعتبروه تهديداً لسيادتهم الوطنية[86]. قد لا تكون هذه المسألة ضمن اهتمامات الأمريكيين، لكن تصريحاته خلال السنوات الماضية تضمنت ملاحظات حول تعديل الدستور، كما أن الكتيب المشار إليه سابقاً يتضمن عدداً من الإشارات حول الإعداد لحقبة جديدة في الولايات المتحدة مع آل بوش، تحت وصاية ورعاية موون[87].

غروفر نوركويست — ناشط جمهوري يحتل مقعداً في المعهد الإسلامي الذي أسسته جمعية صفاء ترست[88] — وهي جمعية خيرية إسلامية كانت هدفاً لحملات مداهمة قام بها مكتب

التحقيقات الفدرالي في نطاق الحرب على الإرهاب. نوركويست هذا عضو في مجلس أمناء المعهد المذكور.

تد أولسون – المستشار القانوني العام للحكومة، وزوجته هي تلك التي قتلت في الرحلة رقم 93 ضمن أحداث 9/11 وقد زعم أنها اتصلت به من الطائرة، رغم أن العديد من التفاصيل اللاحقة شككت في حصول تلك المكالمة المزعومة.

بول أونيل – وزير الخزانة. صرح بأن التقديمات الاجتماعية والرعاية الطبية لا ضرورة لهما[89]. ذلك من وجهة نظره، وهو محق، لأنه يقبض راتباً تقاعدياً سنوياً مقداره 962 ألف دولار، ومن يدري ماذا غير ذلك. وهو لا يعترض أبداً على مئات البلايين التي أنفقت على غزو أفغانستان، وربما غيرها من البلدان، لكن المرء يستطيع وضع النقاط على الحروف كي يصل إلى حقيقة أن رب العمل السابق هذا ستكون لديه، في أوضاع الحرب، المزيد من فرص بيع الألومنيوم لوزارة الدفاع. وإذا كانت شركة ألكوا لصناعة الألومنيوم قد استطاعت كسب الكثير من المال وإشعال الكثير من الحروب، فلا ينبغي عليها أن تدفع أية ضرائب، كما صرح أونيل بذلك حين قال بأن الشركات الكبرى يجب ألا تدفع أية ضرائب.

كاميلو بادريدا – أدين عام 1982 بجريمة اختلاس أموال مؤسسة جيفرسون للادخار. جب بوش كان شريكاً له خلال العام 1986، وبعد سنتين تم إرسال بادريدا إلى واشنطن باعتباره «معيّناً رئاسياً متميزاً». لا شيء مريب في هذا الأمر بحد ذاته، وبادريدا نفسه ذهب أبعد من ذلك حين صرّح قائلاً: «صدقني، صدقني، لن تستطيع العثور على أي شيء سيئ»[90]. جب بوش أوضح ذلك جيداً، قائلاً أنه «لا يصدّق» وأنه دعا المسؤولين الفدراليين إلى إعادة أموال الحكومة إلى بادريدا: «أنا رجل شديد النزاهة، أنا أكره أن أقول أو أؤكد أشياء لا أذكر أنها حدثت»[91]. الأمر يبدو وكأنه مسألة أخرى من مسائل العقيدة والإيمان.

هارفي بيت – البيت الأبيض زعم أن هارفي بيت يقوم بعمل جيد في مجال القضاء على الفساد في إدارة الشركات. هل هم تحت تأثير المخدر؟ كان هذا رد المحررة الاقتصادية أريانا هوفينغتون على ذلك التصريح[92].

بالنسبة لغير الواقعين تحت تأثير المخدر، تلك لم تكن مجرد نكتة، ذلك أن الاقتصاد الأمريكي قد عانى كثيراً جداً من الصعوبات بسبب سوء الإدارة والفساد في الشركات الذي

سُمح له بأن يحدث في مكاتب إدارات الشركات الكبرى في مختلف أنحاء البلاد. ولتقديم تحليل تفصيلي، لا بد من القول أن عدداً صغيراً من رؤساء الشركات الذين تملؤهم الثقة بالنفس نظروا جيداً وتصرفوا بطريقة محترمة جداً جداً، استولوا وأخذوا الكثير من المال. في بعض المواضع يمكن لهذه المسألة أن تقود إلى السجن أو غير ذلك من العقوبات، ولكن في بعض الأحيان يكون الحظ إلى جانب الفاسدين، كما حدث على ما يبدو من خلال التوقيت الجيد لتعيين هارفي بيت. أريانا كتبت في عمودها الصحفي أن الحديث مع بيت حول جشع وفساد مدراء الشركات يشبه الحديث مع الكاردينال لاو حول الميول الجنسية نحو الأطفال لدى القساوسة[93]، وربما كان هذا هو السبب في اختياره ضمن إدارة بوش.

الأدميرال جون بويندكستر – ممنوع مدى الحياة من دخول كوستا ريكا بسبب علاقاته بتجار المخدرات[94]؛ وهذه نقطة إيجابية في كل هذا الركام – حكومة مخلصة اتخذت إجراءات حازمة ضد كل من هو مشبوه أو متورط في تلك الأعمال. والهدف من تلك الخطوة هو حماية أمن ذلك البلد، وهي إشارة واضحة له ولأشباهه بضرورة الابتعاد.

بالتوازي مع ذلك، وبعد العثور على هذه النقطة الإيجابية، اسمحوا لي أن أذكر أن كوستاريكا وجارتها باناما، واللتان تربط بينهما اتفاقات حسن جوار وعدم اعتداء، هما من أفضل الأماكن التي يمكن للإنسان أن يزورها على الأرض. وكلاهما حريصتان على إبعاد تجار المخدرات وتعملان على حماية البيئة وتشجيع صناعة السياحة التي تدر عليهما دخلاً جيداً. وبعد أن رأتا ما فعلته وكالة المخابرات المركزية في دول أمريكا اللاتينية الأخرى، لم يكن لهما بد من اتخاذ هذا الإجراء الفعّال، وأنا آمل أن تعمل جميع دول أمريكا اللاتينية على إبعاد وكالة المخابرات المركزية وأي بويندكستر آخر قد يأتيها مستقبلاً.

كولن باول – هو من البعض الذي لا ينتمي بالفعل إلى هذه القائمة، باستثناء حقيقة أن اختياره قد تم من قبل جورج بوش. بلغة بسيطة وواضحة، قد نعثر هنا على بعض الأشخاص المستقيمين الشرفاء، وربما كان كولن باول واحداً منهم. الصحفي برنارد واينر ينقل عن مصدر موثوق في البيت الأبيض قوله: «إنه غطاءهم الأخلاقي الجزئي»[95]. بين باول وبيلي غراهام، قد يكون الغطاء بنسبة 100%. حالياً قرر أن يستقيل، نعم، أنا أعتقد أنه جلس على الخازوق لمدة أطول مما فعل غيره من الشلة. وهذا لا يفسر بوضوح لم اختار أن يقتبس من تقرير استخباري منحول حين نصح الأمم المتحدة بضرورة شن الحرب على العراق[96]، في

الواقع، لم يجعل ذلك منه كاذباً فحسب، بل غبياً جداً أيضاً. كولن باول هو الذي اقترح على جورج بوش أن تحصل الولايات المتحدة على مساندة الأمم المتحدة في الحرب على العراق، وقد تعرض باول لمحنة حين بدأت الأمم المتحدة بطرح أسئلة دقيقة حول مسألة الحرب. قد يضطر القس غراهام إلى العمل وقتاً مضاعفاً لتأمين الغطاء الأخلاقي في المستقبل.

رونالد ريغان – بالرغم من كونه شخص مقرّب، أو كان، إلى آل بوش، إلا أن العلاقة بينهم أشبه بالحب/الكراهية. بوش الأب أراد الترشح للرئاسة عام 1980، لكن الحزب الجمهوري لم يوافق عليه، لذلك قبل أن يكون نائباً للرئيس. بالقدر الذي كان فيه ريغان فاتناً كممثل، إلا أنه لم يكن الرجل المناسب لقيادة بلد. كاثي أوبرين تروي أنها عندما كانت ضيفة في البيت الأبيض، أوضح لها تشيني بجلاء أن ريغان يعتقد فقط أنه صاحب السلطة، إلا أنه في الواقع يأتي في المرتبة الرابعة، بعد بوش (الأب)، ثم تشيني، ثم فيليب حبيب. وهي تنقل اقتباساً عن ريغان ما يلي:

> جورج مثل المخرج. مهمته أن يتأكد من إعداد خشبة المسرح بحيث تلائم ترتيب العالم الجديد كما تخيلته. ثم يتأكد من حصول كل شخص على النص الخاص به، ثم حفظه لذلك النص. وهو يحدد لهم كيف ومتى يتكلمون. كيف وماذا يرتدون (يمسح يده على شعري) وكيف يضع كل منهم شعره المستعار. بعد الانتهاء من إعداد كل شيء وكل شخص، يصرخ «أكشن»[97].

ربما أراد المخرج إعطاء إشارة خروج لممثله، وذلك في شهر آذار (مارس) 1981 حين أُطلقت النار على ريغان فأصابه القناص في معدته. تابعت الحياة مسيرتها المعتادة في المكتب البيضوي، وتفاصيل العلاقة بين القناص، جون هنكلي جي آر، وعائلة بوش تم التطرق إليها باختصار شديد في الصحافة. جون شانسيلور من أن بي سي نيوز لاحظ أن شقيق المهاجم، سكوت هنكلي، كان على موعد في المساء التالي لتناول الغداء مع نيل بوش، ابن نائب الرئيس. تبيّن أيضاً أن شركة الطاقة، فاندربيلت إنرجي، التي يملكها والد جون قد تعرضت للضغط والملاحقة من قبل وزارة الطاقة بتهمة التلاعب بالأسعار عام 1970. الاجتماع مع الوزارة حدث في نفس اليوم وقبل محاولة الاغتيال، وقد انتهى الاجتماع تاركاً شركة الطاقة «كي تخرج بشيء ما»، وذلك قبل ساعة تقريباً من إطلاق النار. بعد محاولة الاغتيال، اختفت الغرامات المطلوبة من الشركة، لذلك فإن الشركة قد تكون «خرجت بشيء ما»[98].

جون هنكلي جي آر شاب غير سوي كان خاضعاً للعلاج النفسي المستمر؛ طبيبه قال أن جزءاً من مشكلته يكمن في المساندة والرعاية الزائدة التي يتلقاها من أسرته، وهو بحاجة إلى

الحصول على وظيفة حقيقية. هنكلي أهدر قسماً كبيراً من حياته، لكنه تمكن من الدخول إلى جامعة يال. كان طالباً في جامعة يال حينما حاول اغتيال الرئيس. ومن الجدير بالملاحظة أن هذا الميل الإجرامي كان مدوناً في سجله، ذلك أنه أراد سابقاً قتل الرئيس كارتر، وقد اعتُقل من قبل رجال الأمن في المطار. لم يُعرف السبب في رغبته في قتل كارتر، مع ذلك سمح له بالاقتراب من الرئيس التالي. ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن الفريق الأمني المكلف بحراسة الرئيس ذلك اليوم لم يكن ضمن التشكيل المعتاد، وأن بوش الأب، نائب الرئيس آنذاك، كان في طريقه للاجتماع مع «اللجنة الثلاثية» في ذلك الوقت. بوش كان مفضلاً جداً لدى تلك المجموعة القوية، في حين أن ريغان، الذي عبّر علناً عن عدم ثقته بالمنظمات السرية ولا يعتقد أنها مناسبة في عمل الحكومة، لم يكن كذلك.

مع كامل التقدير والاحترام، ريغان لم يكن مناسباً وملائماً لآل بوش. لم تكن لديه الصلات المطلوبة في عالم صناعة النفط أو صناعة السلاح، ولم يتخرج من جامعة يال. كما أنه بدأ حياته السياسية كديمقراطي، لكنه تحول إلى جمهوري في منتصف الرحلة. الأمر المشترك بينه وبين نائبه هو العلاقة مع وكالة المخابرات المركزية. في الخمسينات كان ريغان يكتب التقارير للحكومة عن زملائه الممثلين متهماً إياهم بأنهم «معادين لأمريكا»[99]. العديد منهم سيقوا إلى مقر «لجنة محاربة النشاطات المعادية لأمريكا» ووضعوا على اللائحة السوداء في هوليود. ريغان كان مرة رئيساً لنقابة الممثلين السينمائيين، وكان تأثيره بالغ السوء على الممثلين الآخرين إلى درجة تشكّل معارضة شديدة جداً لسلوكه الدنيء. في العام 1967 أصبح حاكماً لولاية كاليفورنيا، وأثناء فترة حكمه تلك أوصى بإجراء اختبارات السيطرة على العقول وتطبيقها على السجناء، وهذا الميل يظهر جلياً في شهادة كاثي أوبرين. عام 1969 أرسل الحرس الوطني لقمع تظاهرات الطلاب في جامعة بيركلي، وقد احتلت قوات الحرس حرم الجامعة لمدة سبعة عشر يوماً[100].

أُعيد انتخاب ريغان عام 1970، لكنه خسر انتخابات 1974 أمام الديمقراطي جيري براون. جزء من السبب في خسارته قد يرجع إلى دفاعه عن ريتشارد نيكسون، الرئيس السيئ السمعة.

غونداليزا رايس – مستشارة الأمن القومي، والعضو السابق في مجلس إدارة شركة شيفرون للنفط، التي أطلقت اسمها على إحدى ناقلات النفط. زعمت أن خطط الحرب لا علاقة لها بالنفط في العراق. حسناً، دعونا نصدق هذه أيضاً، فهي امرأة لطيفة جداً.

بات روبرتسون – سياسي ومصرفي، لكنه يفضل ن يُعرف كمبشِّر. تدريبه المبكر كان موجهاً أكثر نحو الحرفة الأولى، ذلك أن روبرتسون، واسمه الحقيقي ماريون غوردون روبرتسون، هو ابن السيناتور أ. ويليس روبرتسون. التحق بجامعة يال عام 1950 ويُعتقد أنه مؤسس نادي سكول آند بونز في تلك الجامعة. في كتابه «النظام العالمي الجديد» الصادر عام 1975، بحث روبرتسون وتحدث عن بنك إنجلترا وبنك اسكوتلندا، ثم خلص إلى أن المدعو روب باترسون هو شخص معادٍ للمسيح. بات روبرتسون مرتبط الآن بصفقات مثمرة جداً مع بنك اسكوتلندا، بالرغم من إعلانه سابقاً بأن موطن هذه الأمة التي تسكن المرتفعات هو «مكان مظلم، مليء باللوطيين والسحاقيات»[101]. من السهل الخلط بين بات وروب...

رونالد روسكيتر – عيّنه بوش الأب عام 1990 رئيساً لوكالة التنمية الدولية؛ وفي السنة التي سبقتها طُرد روسكيتر من وظيفته السابقة كرئيس لجامعة نبراسكا بعد ضبط بعض الشبان حول مسكنه بناء على مواعيد جنسية[102].

دونالد رمسفيلد – عُيّن وزيراً للدفاع عام 2001، وكان قد عمل مع الإدارة الجمهورية السابقة. يتحدث عن أميركا بمصطلحات الحرب على العديد من الجبهات، وقد تكون هذه هي الوطنية الجديدة. أفغانستان، العراق، الصين، البوسنة وكوسوفو.. ها، لماذا نتوقف هناك ما دام هناك شبان لم يرتدوا بعد اللباس العسكري؟ ومن المثير والملفت أن رمسفيلد نفسه لم يرتد أبداً اللباس العسكري؛ تمكن من الإفلات من التجنيد في حرب فيتنام، لكنه الآن قادر على إعلان الحروب واعتماد الاستراتيجية المبنية على المحاكاة بواسطة الكمبيوتر. بعد أن قُتل الجنود الأمريكيون في ساحة المعركة بسبب افتقاده للخبرة القتالية، وبعد أن قُتل المدنيون العراقيون نتيجة لعدم اهتمامه باتفاقية جنيف، فقد حان وقت السؤال عن السبب في توليه هذا المنصب.

جوي روسو – بتسي باريش من صحيفة هوستون بوست استرقت النظر إلى بوش الأب وجوي روسو على هامش اجتماع قمة اقتصادية عام 1990 وقد رأتهما في وضع مريب. قبل

أسابيع من ذلك الاجتماع انهارت شركة الادخار أميريواي سيفينغ التي تملكها روسو، حيث دوّن المحققون تهماً جنائية ضد روسو ورفعوها إلى وزارة العدل. المحققون في القضية لم يتمكنوا من الاستمرار في ملاحقة روسو، أما الناس البسطاء العاديّون فقد كانت الخسارة من نصيبهم[103].

الجنرال ريتشارد سيكورد – أنظر الملاحظات حول بويندكستر؛ سيكورد ممنوع أيضاً مدى الحياة من دخول بعض البلدان الأخرى. ومن سوء الحظ أنه مسموح له البقاء في أمريكا، لكن أين يستطيع أن يذهب؟

روبرت سيمونز – عضو الكونغرس عن ولاية كونكتيكت وكان ضابطاً في وكالة المخابرات المركزية من الذين عملوا في مشروع فينيكس في فيتنام؛ وقد أدار مركز استجواب مقاطعة «فو ين» السيئ السمعة في فيتنام في السبعينات، كما أشرف على عمليات شن الحرب النفسية[104].

بيل سيمون الابن – ابن وزير الخزانة السابق، وقد سار على خطى والده فتوجه نحو العمل في قطاع الخدمات المالية. مؤسسته، وليام إي. سيمون وولده الكائنة في كاليفورنيا تجري مقاضاتها حالياً من قبل أحد عملائها السابقين، ب. إدوارد هينديلونغ من سانتا باربارا في كاليفورنيا. أحد قضاة لوس أنجلس أصدر حكمه ضد مؤسسة سيمون في هذه القضية، متفقاً في الرأي مع محامي هينديلونغ بأن «جشع وغطرسة مجموعة سيمون للاستثمار أديا إلى القضاء على شركة باسيفيك كوين التي أسسها وبناها هينديلونغ خلال أربعة عشر عاماً»[105].

حكم على مؤسسة سيمون وولده بدفع مبلغ 78 مليون دولار، لكن الأمور قد لا تكون بهذا القدر من السوء بالنسبة لسيمون. قال أن جورج بوش يقف خلفة بنسبة 100% وفي شهر نيسان (أبريل) 2002 تمكن أن يثبت ذلك من خلال صعوده على متن الطائرة إير فورس ون (الرئاسية) مع حاميه وراعيه. في شهر آب (أغسطس) استطاع بوش إيجاد الوقت لزيارته شخصياً وإبداء الدعم له في حملته لمنصب حاكم كاليفورنيا ضد الحاكم الراهن آنذاك الديمقراطي غراي دافيس. الديمقراطيون احتجوا بشـدة على ذلك وأطلقوا على جولـة بوش «جولة الخداع والغش». بوش قال عن سيمون بأنه رجل أعمال موثوق يستطيع المحافظة على الميزانية. وقد ورد في مقال في صحيفة التايمس بأن بوش كان سيقف بكل فخر إلى

جانب سيمون، لكن تشيني لم يبد أي مساندة لسيمون، بل أنه ألغى أي مناسبة علنية قد يظهر فيها هذا المرشح السيئ السمعة. هذا الخيار الذي اتخذه تشيني ربما سبب لبوش كثيراً من الإزعاج[106].

سكول آند بونز – المقر الرئيسي لهذه المنظمة، أو النادي، الذي يعتبر بمثابة «المعبد»، تأسس عام 1876 وهو فرع من سلسلة نوادي في جامعة ألمانية. بدأ مع وليام هنتينغتون روسل، وذلك بعد التحاق روسل بجامعة ألمانية. في ذلك الوقت، كانت تعاليم جورج فيلهيلم هيغل هي الموجة السائدة. هيغل يؤمن بدولة هي «خطا الله على الأرض»، ولها «الحق المطلق مقابل حقوق الأفراد الذين يعتبر واجبهم المطلق هو أن يكونوا مواطنين في تلك الدولة»[107]. منذ ذلك الوقت، أصبح للعديد من الأعضاء في ذلك النادي تعصب من نوع ما للتعاليم النازية.

في كل عام «يُلتقط» خمسة عشر عضواً جديداً من الطلاب المبتدئين بناء على توصية وتزكية من الطلاب المتقدمين. إذا قبلوا العرض، يؤخذون إلى طقوس التلقين ويؤدون قَسم السرية والكتمان. رون روزنباوم المحرر في صحيفة نيويورك أوبزرفر كشف عن التفاصيل السرية لطقوس التلقين التي يمارسونها، وكتب: «يمكن التدليل على الموقف البشع وغير الأخلاقي لدى الأعضاء من ذوي الامتيازات من خلال طريقتهم في ابتداع نكتة من حادث الهجوم العنصري الذي تعرض له المهاجر الهاييتي أبنر لويما»[108].

أعضاء نادي بونز حاولوا التهرب من الأضواء التي سُلّطت عليهم عبر ادعائهم بأن ذلك لم يكن إلا على سبيل الهزل والمزاح، لكن روزنباوم تمسك بموقفه. اضطرهم الأمر إلى الإيعاز بتأليف كتاب صدر عن دار ليتل، براون وشركاه، وجاء فيه تأكيد ما زعمه أعضاء النادي ودحض ما قاله روزنباوم، لكن حين عاند روزنباوم ووصل إلى الناشر مبيناً له زيف مزاعم أعضاء البونز وأن ما أورده في مقالته يكذّب ما أورده مؤلفهم، أجرى الناشر التعديلات المناسبة على الكتاب بناء على شهادة روزنباوم[109].

ما يستحق الاهتمام بالفعل ليس الطقوس الغريبة أو الثقة التي يدعونها حين يكشفون عن تفاصيل اللقاءات الرومانسية مع شركائهم الجنسيين بحيث يمكنهم تبادل تلك التفاصيل والقصص مع أعضاء البونز الآخرين، بل هي الأمانة والاستقامة التي يدعيها هؤلاء القلة من الأثرياء المميزين حين يصل أحدهم إلى وظيفة عامة ثم يُعرِّض العامة لخطر اعتداءات هذه

الجمعية التي وُضع أعضاؤها تحت مراقبة الحكومة الأمريكية بسبب تعاطفهم وتأييدهم للنازية. روزنباوم كتب أن «التخطيط لعملية خليج الخنازير، على سبيل المثال — وهي الفشل الأبرز في التاريخ فيما يتعلق بالعمليات السرية المشبوهة التي حاولت هذه البلاد تنفيذها — كان على يد أربعة أشخاص، ثلاثة منهم من أعضاء نادي سكول آند بونز. هنا قد نتعرف، على المستوى العالمي، على تقاليد انعدام الكفاءة والعمل الخفي والامتيازات غير المحدودة»[110]. في الأصل، كان مخططاً لتلك العملية أن تكون هجوماً مزيفاً على سفينة أمريكية، بما في ذلك قتل الموجودين على متنها لتهييج الرأي العام الأمريكي الذي يمكن عندئذ التلاعب به بواسطة وكالة المخابرات المركزية والصحافة. في مذكرة لمدير مكتب التحقيقات الفدرالي هوفر آنذاك حول هذه العملية، ورد ذكر «جورج بوش من وكالة المخابرات المركزية».

روزنباوم نفسه من خريجي جامعة يال، وقد روى أنه في عام 1977 كان أعضاء نادي البونز «منبوذين على نطاق واسع في نشاطات الجامعة لأن معظم مرشحيهم من المتأنقين الأغبياء الوارثين»[111].

الكثير من الحلفاء المقربين من بوش الأب هم من البونزيين (أعضاء نادي سكول آند بونز)، والطيور على أشكالها تقع، فأبيه وجده كانا أيضاً من البونزيين. في حرم جامعة يال، موطن نشأتهم التعليمية، يوجد تمثال للجاسوس الأميركي ناثان هال؛ وهناك نسخ أخرى عن ذلك التمثال في كلية أندوفر وفي المقر الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية في لانغلي بولاية فرجينيا.

جورج تينيت — تينيت الذي تم تعيينه مديراً لوكالة المخابرات المركزية عام 2001، تربطه علاقات قوية مع بوش الابن، بالإضافة إلى علاقات جيدة مع رئيس الاستخبارات الباكستانية الجنرال محمود أحمد الذي كان مسؤولاً عن القناة السرية التي نقلت مبلغ 100 ألف دولار إلى محمد عطا الذي يُعتقد أنه قائد مجموعة الهجوم على نيويورك. هذه المصادفة العجيبة هي مجرد «نقطة عشوائية» أخرى لا يفترض بنا فعلاً توصيلها بغيرها من النقط.

ديك ثورنبورغ — لا يمكن تعداد انحرافاته هنا، لأنه من غير اللائق سردها في كتاب مطبوع، خاصة تلك التي تتعلق بالأطفال. كاثي أوبرين روت شيئاً من تعاطيه المكثّف للكوكايين وبعضاً من انغماسه مع وكالة المخابرات المركزية في العام 1980[112].

جيم ترافيكانت – عضو الكونغرس الحالي والسيئ السمعة الذي يزعم أنه ديمقراطي، لكن سجل انتخابه يشير أكثر إلى كونه من الجمهوريين؛ كتب كريستوفر كالدويل: «انتهى الديمقراطيون إلى منعه من حضور اجتماعاتهم».[113] أوبرين تحدثت عن اختلاطه الدائم بالعديد من الجمهوريين المتورطين في حقل الجريمة المنظمة وذكرت لقبه «المتذبذب»[114].

آن فينينان – موالية دائمة وقديمة لريغان/بوش عملت في مجلس إدارة شركة كولجن – وهي الشركة الأولى التي روّجت الأغذية المعدّلة وراثياً في الأسواق. بعد ذلك بيعت شركة كولجن إلى شركة مونسانتو. وقد حاولوا إخفاء علامة المواد الغذائية المعدّلة وراثياً عن المنتجات[115].

فلتشر فريدنبوغ – هذا المدير السابق لمركز نشاطات العُمد (نيويورك) والمساند لبوش الذي أعطاه منصب عمدة بلومبرغ، كان صادقاً في تصريحاته، أو لنقل صادقاً نوعاً ما. كتب رسالة بلا توقيع يصف فيها النيويوركيين بأنهم «أغبياء» و«ينبحون». وصرّح «أخذت منوّماً ونمت طويلاً وفكرت في قتل كل مواطن ومستخدَم في مدينة نيويورك كلما كنت مستيقظاً»، وأن وقته الثمين يستهلكه «السفلة المعتوهون من العامة والأشد منهم سفالة وعتهاً الذين يعملون لخدمة هذه المدينة». إدارة بلومبرغ أُرغمت على التخلص منه، لكن من يدري، قد يكون الآن في طريقه لتسلم منصب رفيع في واشنطن. سيكون مناسباً جداً هناك، ربما إلى جانب صن مايونغ موون وفيليب جيوردانو في البيت الأبيض. ومن هناك قد يستطيع معالجة أمر مدينة نيويورك، المعروفة تقليدياً على كل حال بنفورها من الجمهوريين.

توماس وايت – عُيّن وزيراً للجيش، وهو موظف سابق في شركة إنرون للطاقة حيث استطاع بيع أسهمه بمبلغ 12 مليون دولار قبل أن يُترك الجميع وفي أيديهم سندات أسهم لا تساوي قيمة الورق الذي طبعت عليه[116] [117].

جامعة يال – تأسست عام 1701 تحت اسم كولليغيات سكول في برتدفورد بولاية كونكتيكت، ثم انتقلت عام 1716 إلى المدينة الساحلية في نيو هافن، ثم تغيّر اسمها عام 1718 إلى يال تخليداً لاسم المتبرع الكريم إليهو يال. حرمها الجامعي البالغة مساحته 260 فداناً عبارة عن صف رائع المنظر من المباني الدراسية والمكتبات ومراكز البحث المشيدة على الطراز الأمريكي القديم.

أحد خريجيها، ناثان هال، كان جاسوساً أثناء الحرب الأهلية؛ تمثاله، الذي نحته بعد موته جيمس إيرل فريزر، يقف حارساً على حرم الجامعة. يمكن العثور على نسخ من هذا التمثال في أكاديمية أندوفر بولاية ماساتشوستس وفي المقر الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية في لانغلي بولاية فرجينيا.

جامعة يال معروفة بأنها واحدة من سبع جامعات نخبوية راقية على الساحل الشرقي، وهي المجموعة التي تسمى «آيفي ليبغ» أو اتحاد الجامعات، وهي ترسل متخرجيها إلى المرتبة العليا في الأعمال والسياسة الأمريكية. آل بوش، ديك تشيني، جيمس بيكر الثالث، آل ميلون، لويس دوبونت، روبرت ماكاولي وبات روبرتسون جميعهم التحقوا بهذه الجامعة.

ومن الجدير بالذكر أن معظم الوزراء في جميع المجالات قد يكونون من نتاج اختبارات السيطرة على العقول التي أجراها الدكتور جوزيه دلغادو الذي عمل طويلاً على مشروع السيطرة عن بعد على الأطفال الأمريكيين، وهو من الأبحاث الخارقة التي استنبطها النازيون في مدارسهم الخاصة.

في هذه البيئة، أزهرت جمعية سكول آند بونز.

روبرت زيللك – المفاوض التجاري الرئيسي والمستشار السابق لشركة إنرون.

---

(1) *Proverbs,* 13:20
(2) *The Nation,* 27 November 2002
(3) http://www.almartinraw.com/column23.html
(4) http://thirdworltrader.com/2enes/Elliot_Abrams.html
(5) ib
(6) De Camp, John. *The Franklin Cover-up: Child abuse, Satanism and Murder in Nebraska.* Lincoln, Nebraska, AWT Inc., 1992
(7) Ib, pp. 94, 124, 301.
(8) O'Brien, Cathy and Mark Phillips. *Trance-Formation of America.* Las Vegas, Reality Marketing, 1995. p. 129
(9) Burns, Alex. *Temple of Set.* Essay published in August, 2001
(10) Ferraro, Thomas. *House Passes Homeland Security Bill.* Essay published July, 2002
(11) http://www. Rense.com/general32.na.htm
(12) ib
(13) Brewton. Pete. *The Mafia, the CIA & George Bush.* NY, s.p.i. books, 1992
(14) *The Times*
(15) *Daily Mail,* 5 October 2002
(16) Brewton, p. 232
(17) Ib, p. 233
(18) O'Brien and Phillips, p. 159
(19) Ib, p. 138
(20) http://www.rense.com/general27/rock.htm
(21) *The Toronto Star,* 30 July 2002
(22) *Earth Rights International Report,* October 2000

(23) *San Fransisco Bay Guardian,* 13 November 2000
(24) *http://www.rense.com/general27/rock.htm*
(25) *The Toronto Star,* 30 July 2002
(26) Ib.
(27) *Independent,* 11 July 2002
(28) *http://counterpunch.org/0717htm*
(29) *http://www.judicialwatch.org/2221.shtm*
(30) *New York Observer,* June 2002
(31) *http://www.motherjones.com/news_wire/bushboys.htm*
(32) Ib
(33) Zilg, Gerard. *Du Pont: Behind the Nylon Curtain.* Englewood Cliffs,NJ, Prentice-Hall, 1974. p. *xi*
(34) Gibson, Kenyon , Cindy Mackintosh and Nick Mackintosh. *Hemp for Victory.* Manuscript in publication, London, The Eryr Press.
(35) Ib
(36) Ib
(37) Colby, Gerard. *Du Pont: Behind the Nylon Curtain.* Secaucus, New Jersey, 1984. Introductory pages.
(38) *New York Times,* 25 October 2002
(39) *http://www.buzzflash.com/analysis/2002/10/24_Bushmaster.htm*
(40) *Insight Magazine,* 12 August 2002
(41) Ib
(42) *The Guardian,* 29 July 2001
(43) *http://www.worspy.com/words/stocklock.asp*
(44) *Sacramento Bee,* 13 August 2002
(45) *North County Times,* 10 May 2002
(46) Sampson, Anthony. *The Seven Sisters.* London, Hodder & Stoughton, 1975. p. 79
(47) Ib, p. 80
(48) *The Guardian,* 23 February 2002
(49) *The Observer,* 27 May 2000
(50) Brewton, 264
(51) Ib, 264
(52) Ib, 264
(53) *http://www.rense.com/general31/reub.htm*
(54) *News of the Weird,* 6 March 2002
(55) *New York Times,* 14 March, 2003
(56) *http://www.davidicke.net/newsroom/america/com0805020.html*
(57) De Camp, pp. 123-289
(58) O'Brien and Phillips
(59) http://www.constitution.org/ghansen.conghansen.htm
(60) De Camp, pp. 178-180
(61) Moore Michael. *Stupid White Men.* NY, Regan Books, 2001. p.3
(62) http://www.infoplease.com/cgiabin/id/SPOT_KATHERINEHARRIS1.htm
(63) Moore, p.4
(64) *The Times,* 14 August 2002
(65) *http://www.rense.com/general33/chair.htm*
(66) De Camp, pp. 128-240
(67) Ib, pp. 100-321
(68) Ib, pp. 120-240
(69) Kissinger, Henry. Secretly taped transcript of a Bilderberger meeting, 21 May 1992
(70) Moore, pp. 198-199
(71) Ib, pp. 198-199
(72) http://news.bbc.co.uk/1/law/business.1759033.stm
(73) Brewton, p. 123
(74) Ib, p.127
(75) http://www.truthout.org/dues_02/05.14G.Stonewall.80.htm
(76) De Camp, p. 180

(77) Brewton, p. 167
(78) Gibson et al.
(79) *Independent,* 27 December 2002
(80) O'Brien and Phillips
(81) *Executive Intelligence Review,* November 2002. The author, Jeffery Steinberg, makes this assertion from details of a report by Robert Paryy who obtained his information from an FBI file
(82) Anon. Pro-Bush/Moon tract, ca. April 2003.
(83) Ib
(84) Sontag, Frederick. *Sun Myung Moon and the Unification Church.* Nashville, Tennessee, Abingdon Press, 1977.
(85) *The Times,* 17 August 2002
(86) Ib
(87) Anon.
(88) *The Guardian,* 25 March 2002
(89) Moore, p. 18
(90) Brewton, p. 185
(91) Ib, p. 186
(92) *Arianna Online,* 13 May 2002
(93) Ib
(94) Kick, Russ, (ed.) *You are being lied to.* NY, The Disinformation Co., 2001. p.132
(95) Weiner, Bernard. *Shallow Throat.* Essay published 2002 on rense.com
(96) http://www.indybay.org/news/2003/02/1571514.php
(97) O'Brien and Phillips, p. 158
(98) Kick, Russ p. 98
(99) *USA Today,* 8 June 2002
(100) *http://www.pbs.org/wgbh/amex/reagan/timeline/index_2.htm*
(101) http://www.deism.com/patspage.htm
(102) De Camp, p. 177
(103) Brewton, p. 147
(104) Kick, Russ (ed.) *Everything you know is wrong.* NY, The Disinformation Co., 2002. p. 40
(105) *LA Times,* 1 August 2002
(106) *The Times,* 24 August 2002
(107) *http://parascope.com/articles/1997/skullbones01.htm*
(108) *The New York Observer,* 15 July 2002
(109) Ib.
(110) Ib.
(111) Ib.
(112) O'Brien and Phillips, p. 116
(113) *The Village Voice,* 10 July 2002
(114) O'Brien and Phillips, p. 115
(115) Moore, p. 18
(116) *The Times* 27 February 2003
(117) http://www.political/amazon.com/enron-white.htm

الكنيسة والدولة

المسيحيون الأوائل كانت علاقتهم صعبة مع الحكومة الرومانية؛ والعديد منهم صُلبوا، كما صلب المسيح. أحد قادة الكنيسة، يوحنا الرسول، نُفي إلى جزيرة بطمس لأنه تجرأ وقال الحقيقة. السلطة الرومانية لم تستطع المحافظة على مصداقيتها طويلاً، فسقطت نتيجة صراعاتها الداخلية. عُرف القادة الرومان بأنهم أغبياء وأنانيون يجيدون حيل العلاقات العامة، والتقدم والرخاء الذي شهده العصر الروماني لم يكن أبداً بجهود أولئك القادة، بل نتيجة للعبودية والتعذيب الذي مورس على الأمم الأخرى. وفي حين أن التاريخ لا يذكر العديد من هؤلاء الرومان إلا كهوامش جانبية، بقيت أقوال يوحنا خالدة على مر العصور. إنجيله هو المصدر الأكبر للاقتباسات في العالم، وافتتاحيته تشكّل اليوم الأساس الإيماني للملايين في مختلف أنحاء العالم. كتب يقول:

في البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت عند الله، وكانت الكلمة الله... [1].

في نهاية سِفره ودعوته، وبعد أن تنبأ وأتى بالمعجزات، تم اعتقاله. الكهنة لم يعجبهم ما كان يقول ويدعو إليه، لذلك تآمروا عليه ودفعوا الرومان لتنفيذ العمل القذر والحكم عليه بالموت. ويمكن للمرء أن يستخلص من هذه الحادثة أمرين في وقت واحد، بداية تشكّل الكنيسة ومثال عن التداخل بين السياسة والدين.

وعند العودة إلى التاريخ، يمكن العثور على شواهد كثيرة حول اليهود الذين حذرهم أنبياءهم قبل العصر الروماني. بنو إسرائيل لم يعصوا ويصموا آذاهم فقط، بل كذّبوا هؤلاء الأنبياء وقتلوا بعضاً منهم، وبالتالي تمت معاقبتهم بوضعهم تحت نير العبودية الرومانية. في ظل ذلك الوضع، وجد الكهنة الكبار منهم، الحاخامات، أن من مصلحتهم أن يُرضوا الإنسان بدلاً من نيل رضا الله. المسيح تحدى ذلك الوضع السائد، وأعماله تحدثنا اليوم حول المسألة نفسها. وحيث أن الكنيسة قد رفضت الخضوع، قرر الرومان أهم بحاجة إلى إقامة علاقات مع أتباع الكنيسة من المؤمنين، وفي القرن الرابع بعد الميلاد أعلن الإمبراطور قسطنطين اعتناقه المسيحية.

تحوّله إلى المسيحية قد يكون خطوة عبقرية باعتبار أن ذلك التحول أدى منذ ذلك اليوم، كما يبدو، إلى تغييرات مفيدة في شؤون العالم. الكثير من الحكام لم يكونوا عباقرة بالتأكيد، وهدفهم الواضح من الذهاب إلى الكنائس هو كسب تأييد الناس، مع ممارستهم لحياة حافلة بالإثم خلف الأبواب المغلقة. في العصور الوسطى، كانت قراءة الإنجيل ممنوعة على العامة من الناس، ولو فعلوا فإنهم كانوا سيرون النفاق والرياء الذي يمارسه السادة. العمال يتعرضون للاستغلال نتيجة لطغيان الجهل، وتجار الأسلحة يمكنهم استخدام الكنيسة لدفع الحشود من الأطفال في أتون الحملات الصليبية الطويلة والمضنية. التطرف الديني، التعصب الوطني، الجشع، والغرائز الجنسية كلها تمت إثارتها واستخدامها كأدوات للسيطرة على الرأي العام. المسيحيون الذي عارضوا ذلك تعرضوا في بعض الأحيان إلى العزل أو القتل. قد يكون الكثير من العداء للمسلمين ولليهود في تلك الحقبة عائداً إلى أن تعاليم هاتين الديانتين قد شجعت التعليم، وهو الأمر الذي هدد مصالح الزعماء. بعض أولئك الزعماء كانوا أوغاداً، وهنا يمكن النظر إلى الأميرة الهنغارية إليزابيث باثوري (1560-1614) وهي ذاهبة إلى الكنيسة كمثال عن النوع المنحرف من المسؤولين الذين استخدموا الكنيسة لإخفاء شخصياتهم الحقيقية. الكنيسة أمّنت لهؤلاء الغطاء الذي يخفي زيفهم، والناس رأوا في قادتهم التقوى والورع بسبب قربهم من رجال الدين، والذين كانوا بدورهم منافقين ومنحرفين. ظهرت مؤخراً على غلاف مجلة نيوزويك صورة لجورج دبليو بوش وهو في حالة صلاة وخشوع، وتحتها كتبت عبارة Alter

Boy[2]. هذه العبارة تعني، عند تهجئتها بالطريقة التي كتبت بها، محاولة استحضار الشخصية، التي يتم إضفاؤها على شخص ما عبر نوع من الإيحاء والسيطرة على العقول. وتلك الصورة، إذا لم توضع تحت الاختبار والتدقيق، يمكن أن تؤخذ كحقيقة مقبولة، تماماً كما كان العديد من حكام القرون الوسطى البشعين يُعتبرون مسيحيين حقيقيين بالرغم من اضطهادهم الشديد لشعوبهم. ومن حسن الحظ أن مارتن لوثر وجون ويسلي قد تحدثا بوضوح حول الكنيسة السلطوية والإنجيل المطبوع بلغة ومفردات اليوم.

التغيير لا يحدث على الفور، ففي عام 1840 انفجرت مسألة عمال المناجم في شمال إنجلترا الذين كانوا مجبرين من قبل عائلة روبرت كلارك الثرية على العيش في الفاقة وفي ظروف غير إنسانية[3]. قد يعتقد الإنسان أن الكنيسة، وهي ترى الاعتداء على الأطفال وانتشار الأوبئة والاضطهاد، ستكون، بموجب السلطة الإلهية المعطاة لها، في الخطوط الأولى من جبهة التصدي للسلطات، وذلك من أجل حماية العباد البلاد الواقعة تحت رعايتها.

الأمر ليس كذلك؛ كانت الكنيسة السلطوية بدلاً من ذلك مؤيدة للوضع القائم، وهو الأمر الذي سبب للبلاد أضراراً فادحة على المستويين الروحي والمادي. هذا الأمر لم يكن عادلاً بالنسبة للمسيحيين الحقيقيين الذين فعلوا ما بوسعهم للتصدي للوضع محاولين تصحيح الخلل في الصورة العامة عن المسيحيين، فظهر منهم العديد من أصحاب الأرواح النقية الذين قرءوا كلمة الله وتصرفوا خيراً مع جيرانهم. سلطة عائلة كلارك كانت شديدة وراسخة، مما استدعى ظهور أكثر من ثائر وخارج عليهم. كان لدى عائلة كلارك فريق إداري لا يمكن التغلب عليه، وكانوا قادرين على إغراق العمال في الاستدانة من مخازن الشركة، وفي معظم الأحيان كان يخلطون الماء بالحليب ويغشّون الطعام الذي يبيعونه للعمال[4].

بعد قرن من الزمان ظهر رجل آخر استفاد من دعم الكنيسة له، أو على الأقل الكنيسة السلطوية، وهو أدولف هتلر. صعوده إلى السلطة، بالرغم من الشبهات الواضحة فيه، لم يتم التدقيق فيه آنذاك، وقد حدث مباشرة بعد حريق الرايخستاغ، كما أن العديد من القادة الدينيين في ألمانيا وافقوا على سياساته. تحت غطاء من الاحترام، قصف الأمة الألمانية بخطب مستمرة حول فضائل الوطن والحاجة إلى الأمن، حتى تمكن أخيراً من إشعال الحروب والهيمنة

على حقوق الألمان. الاستراتيجية النازية كانت تعتمد نظرية فرق تسد، وهنا نقتبس ما يلي من المقولة الشهيرة للقس مارتن نيموللر من الكنيسة المشيخية الألمانية:

جاءوا أول الأمر بحثاً عن الشيوعيين، ولم أقل شيئاً ولم أحتج، لأنني لم أكن شيوعياً. ثم جاءوا بحثاً عن الاشتراكيين، ولم أحتج لأنني لست اشتراكياً. ثم جاءوا بحثاً عن قادة العمال، ولم أعترض لأنني لم أكن قائداً عمالياً. ثم أتوا بحثاً عن اليهود ولم أحتج لأنني لم أكن يهودياً. وأخيراً جاءوا بحثاً عني، ولم يكن قد بقي من يحتج دفاعاً عني.

نيموللر قضى سبع سنوات في أحد مخيمات الاعتقال. لو لم تكن لديه ثقة في غير موضعها بالنسبة للسلطة، لبقي ليس حراً فحسب، بل لكان قد أثر في التاريخ بطريقة إيجابية. كثير من المتعلمين والمتدينين الألمان ينظرون بازدراء إلى أفكار الذين يناقشون أو يعارضون السلطة ويعتبرونها نظريات تآمرية أو هرطقات، وهو سلوك شجعته النازية. السلطات النازية وضعت في العقل الألماني حسّاً خاطئاً بالأمن والانتماء، وقد تجلى ذلك من خلال الاستعداد البديهي للقتال والحرب. جاء في الكتاب المقدس أن الشيطان يظهر بصورة ملاك من نور، وحين ينجح ويعم هذا الضلال يرفض الناس الاستماع إلى الحقيقة ويتصرفون بغوغائية إذا تم التعرض لمصداقية السلطات التي يكنون لها الولاء والاحترام. وهم يعتقدون أن ما يفعله المعارضون للسلطة يعتبر خروجاً عن القيم والنوايا الحسنة، لكن المسألة هي في واقع الأمر مسألة تضليل بالغ الإتقان والذكاء، مصمم خصيصاً لهذه الغاية ومترع في عقولهم. في تلك الدولة، تغلب التضليل على الحكمة والمنطق وسيطر إبليس على الناس ودفعهم للقيام بأفعال سيندمون عليها لاحقاً. وفي هذه الفوضى ووسط هذا الالتباس استُبدلت القيم الحقيقية بالغرائز فتحوّل المواطنون المهذبون والأذكياء إلى متعصبين أغبياء وانقادوا بسهولة وطواعية لحكامهم، واستمر ذلك حتى تم الكشف عن الأشرار الذين ضللوهم. يمكن تفادي ذلك كله عبر الإصغاء إلى «كل كلمة تصدر عن الله»[5]، كما قال المسيح.

دراسة العوامل النفسية الإنسانية والتلاعب بالمشاعر والعقول كانت من أهم مزايا ونقاط قوة الرايخ الثالث، وهذا الهاجس الذي سيطر على الزعماء النازيين دفعهم إلى دراسة وبحث العديد من أشكال السيطرة على العقول والتحكم بالجماهير. يتم خلق اختلالات متعددة في شخصية الضحية، وغالباً ما يتم ذلك من خلال الصدمات النفسية والطقوس الشيطانية

المتكررة. ينجم عن ذلك استمتاع شيطاني بالظهور بمظهر الشخص الموثوق الذي يستميل ويخدع الشرفاء والمخلصين من الناس ويغريهم بموالاة السلطة، وبالتالي إفسادهم، وقد جعلوا من ذلك هدفاً للسيطرة على الكنيسة. ومن خلال التغلغل في أوساط الكنيسة وإسكات المؤمنين الحقيقيين، استطاعوا تحقيق الكثير من المكاسب وتمكنوا من تحقيق رغباتهم. في الواقع كان العديد من رجال الدين عملاء منضوين في هذا النظام، واستطاعوا في فترة حرجة تضليل الكنيسة وجرها إلى تأييد السلطة الزائفة. الكثير من تلك الأبحاث والمعارف تبعثر بعد الحرب العالمية الثانية، وبعضه وجد طريقه إلى الولايات المتحدة الأمريكية حين قام ألن دالاس بسحب عملاء الاستخبارات النازية من ألمانيا وإحضارهم إلى وكالة المخابرات المركزية وغيرها من الوكالات الحكومية. بعد ذلك بوقت قصير، حدثت أمور غريبة في الكنيسة في أمريكا.

قضيتُ قسماً كبيراً من شبابي في الكنيسة في هذا البلد، وأنا أعتبر نفسي في الواقع مسيحياً. ربما لم أكن من أفضل الشباب، وقد أكون فعلت أشياء لا ينبغي لي أن أفعلها، والكثير منها كان مزعجاً لمن هم في موقع السلطة أو المسؤولية. في إحدى المناسبات، طفح الكيل بأحد الأساتذة من سلوكي فأرسلني إلى البيت كي أحصل على توقيع والدتي على رسالة تنبيه وتعهد أرسلها معي. حين أعدت الرسالة، لم تكن موقّعة فحسب، بل تحتوي على بعض الإشارات؛ جعلتني والدتي أصحح الأخطاء اللغوية للأستاذ. ربما كان ذلك العام من أصعب سنوات دراستي، لكنني في الواقع تعلمت بعض الأشياء المفيدة. وتلك كانت، بالمناسبة، سنتي الثانية في المدرسة؛ أما سنتي الدراسية الأولى فكانت في تركيا، حيث أدت عمليات التحديث التي أطلقها أتاتورك إلى جعل الناس يقدّرون العلم ويستخدمون المثقفين من أساتذة التعليم. كانت نظرية الإصلاحيين هناك هي أن «الأستاذ هو العمود الفقري للبلاد». نظرية والدتي كانت مماثلة، لذلك فقد نشأت مثابراً وقوي الملاحظة، وهو أمر كان مزعجاً للبعض ممن توقعوا مني، كمسيحي، أن أكون لطيفاً وأن أصدق كل ما يقولونه. لكن هل كان المسيح رجلاً لطيفاً؟ في الحقيقة هو حذرنا من أنه ليس مجرد «رجل لطيف»[6]، وأمرنا بأن نكون «حكماء كالأفاعي»[7].

حين درست الإنجيل، كنت أستطيع الشعور بحقيقة وصدق الكلمات، وحين درست التاريخ، كنت قادراً على أن أرى بوضوح قوة النبوءات. في العديد من الكنائس توجد نبرة خاطئة، كما لو أن أحداً ما يحاول تأويل تلك النبوءات وأن يخمّن هو ما يريده الله. الأمر يشبه الاستماع إلى محطتين إذاعيتين مختلفتين، وينبغي إسكات إحداهما. النبرات الخاطئة وُضعت هناك بمنتهى الدقة والبراعة، ولكن ليس عشوائياً، وهناك قوى تقف خلفها، وهي قوى تشبه الأفعى في الجنة، والتي لا تغري الناس بأمور شريرة، بل بأمور خيّرة.

هذا النوع من الضلال والشر هو الأسوأ، ذلك أن أتباعه لا يمكنهم أن يروا أن ما يفعلونه خطأ وضلال. وغالباً ما يكون هؤلاء من المتحمسين، لكنهم لا يعلمون أن طاقاتهم تذهب في اتجاهات خاطئة. يتحدثون عن فعل الخير وقضاء الكثير من الوقت في «بيت الرب»، وحيث أنهم لم يحسنوا الإصغاء بدقة، فهم يتسببون بالأذى. أولئك يروقون لصانعي الإعلان والسياسات والعلاقات العامة بسبب «تفكيرهم الإيجابي»، لكن ليس هذا بالضبط ما جاء في الإنجيل. قد يكون خطأ هؤلاء المضلّين بسيطاً، لكن أخطاءهم قد تكون الأكثر خطورة. هؤلاء العامة يروقون أيضاً للسلطة ولتجار الأسلحة؛ كما أن الكثير من الحاخامات والقسيسين والأئمة يقودون ويتحكمون بهذه الحشود. في الولايات المتحدة، أرادت إدارة بوش في مرحلة ما استخدام دولارات الضرائب في الأنشطة الدينية؛ وهو أمر يعتبر من جهة إهانة للمبدأ القائل بالقوة الكلية لله الذي يقدم العون لكنيسته، ومن جهة أخرى خرقاً للدستور الأمريكي. لم تقبل جميع الكنائس الأمريكية هذا الإغراء، كما جاء في تقرير الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية لعام 2001:

> في ردها على الاقتراح الذي تقدمت به الإدارة، عبرت المنظمات الدينية عن تأييد بسيط لخطة بوش المتعلقة بدعم المنظمات والمجموعات الدينية، وهو تطوّر اعتبره الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية بمثابة المزيد من التشكيك في الجهود الحالية الرامية إلى توسيع وتقوية الاتجاهات الدينية المدعومة من الحكومة.
>
> «استجابة المجموعات الدينية وردها السلبي على الاقتراح هو نكران مدهش وتبرؤ من مبادرة بوش»، قال كريستوفر إي. أندرز المستشار القانوني للاتحاد الأمريكي للحريات المدنية. وفي تحوّل غير معتاد لاتجاه الأحداث، توجّهت «أسلحة» الموالين نحو الإدارة[8].

الواعظ التلفزيوني بات روبرتسون انتقد في البداية هذا التوجه، لكن حين بدأ توزيع المساعدات، أخذ دوره في الصف واستلم مبلغ 500 ألف دولار[9]. مبدأ محاولة الحكومة الدخول إلى الكنائس ليس أمراً مفاجئاً، حيث أن العديد من الأفكار الأمريكية ترتكز في مصداقيتها إلى اسم الرب؛ العبارة المطبوعة على النقد «بالرب نحن نثق»، المارينز الذين يصلّون من أجل الحرب، وصناديق الاقتراع التي توضع أحياناً في الكنائس في انتهاك لحرمة الكنيسة. في المعبد عبّر المسيح عن غضبه طارداً من كانوا بداخله لأسباب آثمة لا علاقة لها بالعبادة. سلام باكس من بغداد تحدث أيضاً عن محاولة نظام صدام حسين الجمع بين الدين والسياسة، وذلك ضمن ما سمّوه،

> «الحملة الإيمانية». بالطبع كانت مدعومة من الحكومة، وكانوا ينهالون على الناس بعبارات مثل «الفقراء في هذه الدنيا، أغنياء في الآخرة»، مما يدفع الناس إلى التزام الهدوء والسكينة والصبر [10].

يحتار المرء في التمييز بين بوش وصدام حسين. الشيطان له أتباعه في العالم المسيحي وفي العالم الإسلامي؛ وفي كل منهما يفعل ما بوسعه لإحلال العذاب والشقاء على الأرواح الطاهرة التي تحاول جاهدة إرضاء الله. في إحدى المناسبات في نيويورك، طلب مني أحد أصدقائي المسلمين، الذي يعلم أنني مسيحي، أن أصلي من أجل الخلاص من وضع صعب كان هو وآخرين يعانونه. أحد القساوسة كان يستغل شاباً يعرفونه، وقد وجدوا أنهم بحاجة للبحث عن شخص مسيحي يمكنه مساعدتهم، لذلك فقد أخبروني بالقصة.استمعت إليهم، وكنت ميالاً أن أقول لهم أن ذلك «القس» هو أكثر من مجرم بقليل، وأن أمراً كهذا ينبغي أن تتدخل فيه الشرطة، لكنني من الداخل كنت أسمع صوتاً قوياً يقول لي أنه ينبغي ألا أترك هذه المسألة دون حل، باعتبار أنهم كانوا محقين في طلب العون من الكنيسة. في الحقيقة أنا لا أعرف «القس» المذكور، ومن غير المحتمل أن يكون واحداً من أتباع مذهبي، لكن المسألة تتعلق باسم المسيح، والذي يُستغل بطريقة إجرامية، وروح المسيح الساكنة فيّ هي التي قوّتني ودفعتني إلى التصرف. أخبرتهم، أولاً وقبل كل شيء، ما أعتقده حول ذلك «القس»، وأنه، نظراً لما فعل، لا يمكن اعتباره مسيحياً، ولكن باعتبار أن سلطة المسيح تشمل الكنيسة كلها، وكل أولئك الذي يسمون أنفسهم مسيحيين، سواء أكانوا محقين أم مخطئين، فإن سلطته

تشملهم أيضاً. قلت لهم أنه «هو» من يحلّ مشكلة كهذه، وأن لهم كامل الحق في أن يطلبوا منه أن يفعل ذلك، بأن يطلب من أتباعه أن يكونوا مسؤولين، وأخبرتهم أين يتوجب عليهم أن يذهبوا ويستخدموا اسمه لكي يرتدع ذلك «القس» ويرجع إلى الصواب والحق.

ذلك ما فعلوه، وتم العثور على «القس» والتعامل معه. لقد بحثوا عن المسيح لأن غبياً ما استخدم اسمه لكي يتصرف بتفاهة مع الآخرين، وقد صدقوا أن المسيح نبي وله سلطة كاملة في مملكته. من المستحيل في بعض الأحيان أن تطلب من رواد الكنيسة أن يتصرفوا بهذا المستوى من المسؤولية، وفي الكنيسة توجد حلقات ممن يريدون للأشياء أن تجري كما يريدون، كما فعل القس المجرم، وهم يستخدمون اسم المسيح لغاياتهم فقط، ويستخدمون الكنيسة كمركز للنميمة والسياسة. إذاً، من هم «القساوسة» الذين يساندون ويغطّون جرائم الحرب في العراق؟ الأمر نفسه ينطبق عليهم، وينبغي على كل شخص لديه قضية ضد هؤلاء المسيحيين، سواء أكانوا مسيحيين حقاً أم يدّعون المسيحية نفاقاً، أن ينتبه ويذهب إلى المسيح ويطلب منه العدل والإنصاف. هل سينكر الحق في العدالة على أي إنسان؟ لا، ولا تتيحوا الفرصة لبعض المتعصبين كي يصرفوكم عن ذلك بالقول أن الذين يذهبون إلى الكنيسة فقط هم الذين يصلّون. أولئك الأغبياء يرتكبون آثاماً كبيرة، وهم يحبون أن يظهروا، هم والقساوسة الذين يعيّنونهم، وكأن لديهم تفويضاً بالعدالة، وهذا هراء. وهم، كالصيارفة في الهيكل، حمقى يستحقون جلد ظهورهم بالسياط، وليأخذ السياسيون حذرهم. وبهذه المناسبة، أروي التجربة الشخصية الصغيرة التالية حول واحد من المفضلين لديهم.

حين كان بوش الأب يروّج لحملة إعادة انتخابه في العام 1992، طلب مني «المسيحيون الأمريكيون» أن أتنبأ لهم عمن سيفوز في الانتخابات. السؤال لامس وتراً في نفسي، وشعرت بالإجابة وأنا أصلي، وكنت أعلم سلفاً أن تلك الإجابة لن تروق لهم. بوش، الذي كانوا يفضّلونه، سيخسر، لكنه سيخسر بفارق ضئيل، وحيث أن المرشح الآخر ليس مطيعاً للرب أيضاً، فلن يكون فخوراً بنصره.

لذلك، ولمدة ثماني سنوات، قضت المجموعات الدينية الأمريكية وقتاً طويلاً في التذمر من بيل كلينتون. كان لذلك الرئيس أخطاؤه، لكن ماذا كان بوش برأيهم، ملاك؟ بالتأكيد لم يكن

كذلك، وإقبال الكنيسة عليه بالرضا قد يكون من أكبر الإهانات التي لحقت بها في التاريخ. زعماء المجموعات الدينية كانوا راضين جداً عن شلة اليمينيين المنافقين دينياً، بما في ذلك صن مايونغ موون، وكان بوش خيارهم الإلهي، وخرقوا بذلك الوصايا العشر من خلال دعمهم وتأييدهم لهذا المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية ولعائلته. حتى تورطه مع لاري كينغ، جامع التبرعات الجمهوري والسجين السابق، لم يثنهم عن ذلك. حين نشر السيناتور جون دي كامب (جمهوري-نبراسكا) تقريره عام 1992 والذي بيّن فيه الروابط بين كينغ وبوش والاعتداءات الشيطانية على الأطفال[11]، لم يبدوا أي اهتمام بالأطفال المعنيين، بل رفضوا تصديق الوقائع. هؤلاء الرعاع يحبون أنفسهم فقط، ومن غير المجدي تذكيرهم بالوصايا العشر، لأن لديهم مصالحهم الخاصة التي تملي عليهم تجاهل الحقائق التي يقولها من لا يحبون وقبول الباطل ممن خدعهم فاحترموه. إذا أخبرتهم أن بولس الرسول قال أن القائد المسيحي يجب أن يكون إنساناً نقياً، ذو سمعة حسنة حتى بين غير المؤمنين، فستكون كمن يتحدث إلى جدار، وسيعتبرون ذلك وكأنه حقنة لا فائدة منها ويمكنهم تجاهلها. حتى حين صدر كتاب مروّع عام 1995[12] نشرته امرأة مسيحية كانت هي نفسها ضحية الاعتداء على الأطفال، وأكثر من ذلك تم إجبارها على السماح لهم بالاعتداء على طفلتها، قليلون فقط هم الذين جاءوا من الكنيسة لمساندتها.

تلك المرأة هي كاثي أوبرين، وكتابها الموثّق جيداً عنوانه «تكوين غيبوبة أميركا»، وفيه تروي مأساة طفولتها حين أُرسلت إلى مدرسة لها ارتباطات بالمسؤولين الحكوميين وبوكالة المخابرات المركزية والمافيا. كانت تلك المدرسة تدار خصيصاً لاستغلال الأطفال الذين تم اصطيادهم وإدراجهم في هذا النظام الديني/الزائف، وتهديدهم إذا تجرؤا على البوح. والأمر كما وصفته إحدى زميلاتها، جاكي هيرسي من بوسطن، «منذ كنت في التاسعة من عمري، اكتشفت أنني كنت في مكان جنوني»[13].

مكان آخر ينبغي التحذير منه هو جامعة يال، حيث كان أحد الأساتذة، أنتونيو لاساجا، يحتفظ في مسكنه بأكثر من 150 ألف صورة فاضحة للأطفال. لاساجا المذكور كان يعتبر رجلاً محترماً ورب عائلة، وزوجته تشارك في نشاطات الكنيسة. فُضح حين تجرأت أسرة أحد

الأطفال على الظهور ومواجهة الأمر[14]. رجل آخر و«رب عائلة» مشارك في نشاطات الكنيسة هو العمدة الجمهوري فيليب جيوردانو والذي ضُبط وهو يستعمل المكاتب الحكومية الرسمية كجحر للفساد[15]. العديد من المسيحيين دعموا هذا الانحراف أيضاً، وفي الواقع أن جيوردانو تزوج في كاتدرائية القديس باتريك في مانهاتن، وصور تلك المناسب مع أكاذيب الحزب الجمهوري جعلته يبدو كقديس بالنسبة للأغبياء الذين يبحثون عن بطل.

اللائحة قد تطول، فهناك الآلاف من حالات الاعتقال لقساوسة أمريكيين بتهم الاعتداء والتحرش الجنسي، فأين كان الجميع ممن شارك في طقوس ترسيمهم كقساوسة و لم يتحركوا احتجاجاً على هذا الخرق لتعاليم الله؟ لكن إن لم يستطع الإنسان محاسبتهم، فذلك لا يعني أن الله قد نسي ما فعلوه.

أوبرين تتحدث عن التواطؤ بين هؤلاء الرسميين والدولة أثناء تطبيقهم لاختبارات السيطرة على العقول واستخدام المواطنين الأمريكيين في تلك الاختبارات، وذلك تحت قناع زائف من السلوك المحترم:

شخصيتي المصطنعة «كمتعصبة دينياً» نُمّيت في «الكنيسة اللامذهبية» (بنتيكوستال، وهي مجموعة لها تأويلاتها الخاصة التي تؤكد على العمل من أجل المثل العليا)، في برينتوود، بنسلفانيا على يد عميل وكالة المخابرات المركزية الواعظ «الموقر» بيلي روي موور (الذي لجأ منذ ذلك الوقت إلى أركنساس هرباً من فضيحة قتل محلية).

موور كان ينقل الكوكايين من دول الكاريبي لصالح وكالة المخابرات المركزية، على الأقل في عهد إدارة ريغان، وذلك تحت غطاء ما يسمى الرحلات «الإرسالية» أو ما شابه، وهي الرحلات التي يقوم بها إلى بعثاتهم التبشيرية المتواجدة في دول الكاريبي والتي يستخدمها موور ووكالة المخابرات المركزية لتهريب المخدرات إلى بلادنا. حتى عملاء وكالة المخابرات المركزية المشتركين في تلك الأعمال على مستويات أدنى والذين «يحتاجون إلى معرفة» معلومات جزئية، يُمنعون من معرفة الغاية الكلية لما هم مساهمون فيه. العديد ممن يبدون مشاركين طواعية في تلك الأعمال هم في الواقع مغرّر بهم وقُدِّمت لهم «التبريرات» وتم تضليلهم عمداً بحيث صدّقوا بأنهم إنما يؤدون خدمة لوطنهم وليس تدميره من الداخل إلى الخارج.

«الراعي» موور جمع بين معرفته بكيلي (ابنة كاثي) ومعرفته بمفاتيح برمجتي والشيفرات والمثيرات مع استخدامه للغة المجازية لكي يضبط/أو يوجّه أسلوب ونمط عملياتنا. «أتباع» موور يتألفون أساساً من العبيد الذين تسيطر الحكومة على عقولهم ومن الذين يقودونهم... وهو يوجّهنا كيف نقترع، وما هي المسائل السياسية التي ينبغي علينا أن نؤيدها، وأن نتبع القادة السياسيين «الدينيين» الآخرين، مثل صديقه وصديق مانويل نورييغا المبشِّر جيمي سواغارت. «الفتاوى الدينية» الصادرة عن موور استُخدمت من أجل الاستمرار في برمجة السيطرة العقلية، وذلك من خلال «أوامر الله». و«أوامر الله» تأتي غالباً عبر خطوط الهــاتف[16].

تتابع سردها وتتحدث عن حالات محددة قام فيها جورج بوش الأب وجورج بوش الابن باغتصابها مع طفلتها، مؤيدة أقوالها بوثائق ولادة وتقارير طبية، بالإضافة إلى كتابات بخط يدها تصف فيها ملاحظاتها حول السياسيين الأمريكيين الذين عاشروها مع التفاصيل الدقيقة للتكوين الجسماني الحميم لهم، بالإضافة إلى التفاصيل الداخلية للمكاتب في البنتاغون وفي البيت الأبيض. وبالرغم مما شهدت به وروته، ظل بعض رجال الدين على دعمهم ومساندتهم لهؤلاء السياسيين، وأحدهم عمل على إيجاد الأعذار والمبررات لخرقهم تعاليم الإنجيل وتوصل إلى استنباطاته واجتهاداته بناء على كون الضحية هي كاثوليكية وأن معظم سكان أمريكا ليسوا من الكاثوليك. ولكن ماذا يعني ذلك؟ أليس لديهم وازع يدفعهم إلى احترام الوصية التي تقول «يجب أن تحب جارك كما تحب نفسك»؟ هذه الوصية بالذات هي التي تميّز بين المؤمن الحقيقي وبين المنافق، وتميّز النعجة من الماعز. يوحنا يلحّ على أن أولئك الذين لا يلتزمون بهذه الوصية سيكونون منبوذين. هل يوجد في الكنيسة الأمريكية من يهتم بالالتزام بهذه الوصية؟ إذا فليتصرفوا تصرفاً مناسباً مع أولئك الذين يسدون أبواب المعبد عبر عدم الالتزام بتلك الوصية.

التصرف الكامل وبالطريقة المناسبة هو أيضاً من المبادئ الأساسية للمسيحية؛ الكثيرون يودون، كما فعل حنانيا، أن يقدموا قرباناً غير خالصٍ من قلوبهم، أو أن يقدموا قرباناً غير مقبول، كما فعل قابيل. النية الخالصة صفة لازمة للمؤمن، وليس المطلوب هو الدين المتلفز أو عبادة الأصنام. أعظم الوصايا هي التي تقول «أحب الله من كل قلبك وعقلك وروحك

وبكل قوتك»، وهي تبيّن هذه المسألة بإيجاز ووضوح. والتقيد بهذا السلوك يجعل الإنسان متوازناً، لا فاتراً ولا شديد الحماس، والناس حين يحبون الخالق، فهم يحبون كونهم مخلوقين على صورته، بغض النظر عن العرق أو الحالة المادية أو المذهب.

رسائل

يقال أنه من الصعب إيقاظ من يدعي النوم. كثيرون ممن في الكنيسة هم على هذا النحو، وتقديمهم الود والولاء لآل بوش وأعوانهم بحيث يستطيعون تجاهل الحقائق، قد يتطلب إشعال حرب عالمية كي يستيقظوا من غفلتهم، تماماً كما فعلوا بالنسبة للنازيين. العلاقة بين الحزب الجمهوري والدين هي علاقة عميقة الجذور، وفي بعض المناسبات قد يقوم بعض أعضاء السلك الكنسي بانتقاد المسيحيين الآخرين إذا كان ذلك يخدم مصالح الحزب. أحد هؤلاء القساوسة هو الدكتور توماس باغبي من كنيسة القديس مارتن المطرانية في هوستون، وفي الواقع، في هذه المطرانية بالذات تم انتسابي إلى الكنيسة الإنجيلية؛ وحين اكتشفت ما هو جارٍ هناك، قررت الانتقال إلى مكان آخر. الرسالة التالية، التي تهاجم الرئيس جيمي كارتر، كُتبت تأييداً لفريق ريغان/ بوش. وهذا ما جاء فيها:

«أعزائي وإخوتي وأخواتي في الديانة المسيحية،

هذه رسالة شخصية جداً من الموجِّه الديني لجورج بوش. وقد يهمكم معرفة الحقائق التالية:

1. جورج بوش كان متواصلاً مع كنيسة القديس مارتن منذ العام 1964.
2. جورج كان عضواً في مجلس الكنيسة.
3. باربارا، زوجة جورج، أعطت دروساً في مدرسة الأحد لعدة سنوات.
4. جورج وباربارا كلاهما يؤدي واجبات العبادة كل يوم أحد في كنيسة القديس مارتن عندما يتواجدان في المدينة.
5. جورج خدم لسنوات في «مؤسسة الكنيسة الأسقفية».
6. آل بوش وآل باغبي تربط بينهم صداقة شخصية وثيقة.
7. جورج مسيحي مكرّس. وهو لا يفعل ولن يفعل أبداً أي أمر يعتقد أنه يغضب الرب والسيد.

... جورج بوش ليس مسيحياً متساهلاً مثل جيمي كارتر، الذي لا ينفك يثرثر حول المسيح...[17]

في العام 1984، ألقى السيناتور بول لاكسالت (جمهوري-نيفادا)، والذي كان الرئيس الوطني العام للحزب الجمهوري ورئيس لجنة إعادة انتخاب الرئيس ريغان، ألقى بثقله الشخصي عبر مراسلة ثمانية آلاف رعية مسيحية محاولاً جذب أصوات الناخبين.

عزيزي الزعيم المسيحي،

كرئيس للجنة ريغان-بوش 84، اللجنة الرسمية لحملة الرئيس، أكتب لكم طالباً منكم أن تلعبوا دوراً حيوياً فيما يعتقد أنه سيكون الاقتراع الأشد في هذا القرن. الرئيس ريغان، كما تعلمون، قد أبدى التزاماً لا يتزعزع بالقيم التقليدية، وهي القيم التي أعلم أنكم تقدرونها. بالإضافة إلى ذلك، عبّر بوضوح، في عدة مناسبات، عن تمسكه بمبادئه الروحية الخاصة. ونحن، كقادة نعمل تحت سلطة الرب، لا يمكننا تحمل الركون إلى الحياد السلبي في عملية انتخاب قد ترفع أو تطيح بالرئيس الذي عمل بجد لصالحكم[18].

الرسالة انتهت بطلب تنظيم قيود الناخبين في الكنيسة. أولاً، كيف جاء هؤلاء الناس إلى الكنيسة؟ يهوذا، في العهد الجديد، كتب عن «بعض الناس الذين تسللوا خلسة، والذين كانوا موجودين قبل أن تنزل هذه الإدانة، هم من العصاة الذين يحوّلون نِعَم ربنا إلى دعارة وفساد... أولئك الرجال كالوصمة في أعيادكم الخيرية، وحين يحتفلون معكم بالعيد، يأكلون بشراهة وبلا خوف». يهوذا نبّه من الميل إلى تقدير «أصحاب المزايا»، ونقطة الضعف هذه هي التي سمحت ببروز غير المرغوب فيهم.

أرواح تذهب إلى الهلاك

أحد أصحاب الامتيازات والتقدير في أمريكا هو صن مايونغ موون. غادر كوريا الشمالية بعد قضاء بعض الوقت في السجن، ثم أتجه إلى كوريا الجنوبية حيث قضى وقتاً أطول في السجن، ثم انتقل إلى أمريكا في بداية الستينات ليتمكن من قضاء وقت أطول في السجون. وحين يكون خارج السجن، الذي يدخله في غالب الأحيان بجرائم اعتداءات جنسية أو بسبب تصريحات كاذبة عن الحكومة، فهو يعمل بالتعاون مع البعض من الناس مثل جورج بوش الذي يسانده ويدعمه بلا تحفظ. أنا مصرّ على عدم تأييد موون، لكن توجد في أمريكا

العديد من الكنائس التي تؤيده بشدة، وأحد القساوسة، المحترم فريدريك سونتاغ، ذهب في ذلك بعيداً إلى درجة قضاء الوقت مع آل موون وتأليف كتاب يشيد بأعمالهم، بل يدحض الانتقادات الموجهة إليهم[19]. ارتباطات موون مع الكنائس الأمريكية تعززت خلال الثمانينات حين أعطى الكولونيل بو هي باك، وهو «المحرك الفعلي لموون ومؤسس وكالة المخابرات المركزية الكورية»، مالاً للمدعو ريتشارد فيغوري، المعروف بأنه «ساحر إغراء البريد المباشر»[20].

أحد الجوانب التي أعجبت الكنيسة في عمل موون هو موقفه المعادي للشيوعية، وهو الأمر الذي راق أيضاً لتجار الأسلحة. كلاهما يمكنه الاتفاق مع ملاحظاته ودعم الحرب في فيتنام واعتبارها حملة صليبية وأخلاقية، وبالتالي غض الطرف عن الأدلة على ارتكاب جرائم الحرب والفظائع، وبعضها أشد فظاعة مما ارتكبه النازيون في حملاتهم الإرهابية. ومع وجود الكنيسة التي تقدم التبرير الأخلاقي، السعيدة بشن الحرب على ما تعتقد أنهم «الوثنيون الكفرة»، تم توفير الغطاء الرسمي لارتكاب كل أنواع الشرور. وكالة المخابرات المركزية لم تنشب مخالبها في فيتنام فقط، بل توجهت إلى عدد آخر من الدول وتركت هناك آثارها البغيضة. في هايتي أسّسوا هناك وكالة .S.I.N التي تعمل في تجارة المخدرات وارتكاب مختلف أنواع الجرائم المريعة وعملت على المحافظة على اسمها كما فعلت الكنيسة الأمريكية باحتفالها بزعماء الحزب الجمهوري الذي يساندون ويؤيدون السخافات. قادة وكالة .S.I.N، الذين يتزعمهم اللواء راوول سيدراس ومايكل فرانسوا، تخلّصوا من جان-بيرتراند أريسترايد الرئيس المنتخب شرعياً، والذي كان في الواقع رجل دين دخل السياسة وهدفه هو التخلص من الفساد[21]. ماذا فعل المسيحيون الأمريكيون لإيقاف .S.I.N؟

هذا يعيد إلى الأذهان ما فعله، أو ما لم يفعله، المسيحيون الألمان حين تبوأ هتلر السلطة ووعد بإصلاحات رائعة، لم يحاولوا التحقق من أي دليل، أبداً، بل أن هؤلاء وأمثالهم يعاندون الحقائق في كل جيل وعصر. ومن بين هؤلاء كانت جماعة «فراولايتر» السذّج الذين كانوا يصرون على القول أن هتلر وغورنغ كانا «رجلين حقيقيين»، وكانوا يتجاهلون كل من يحاول مجادلتهم في ذلك ويتهمونه بأنه ليبرالي لا فائدة منه. بالنسبة لهؤلاء، كل من لا يدعم

الفوهرر من كل قلبه فهو متخاذل و«منحط»، ولا يحترمون من يشير إلى شرور «الغالبية الأخلاقية». ومن الجدير بالذكر أنه كانت توجد مجموعات من المسيحيين ذوي الإيمان الحقيقي، لكن انتهى بهم الأمر بأن أصبحوا مدانين من قبل المتحمسين المجانين. كوري تن بووم، على سبيل المثال، تم اعتقالها بتهمة إيواء بعض اليهود في منزلها في هولندا، وفقدت بعض أفراد عائلتها في معسكرات الاعتقال. ذلك كان هو الثمن الذي دفعه المسيحيون الحقيقيون، في حين أن الموالين للوضع القائم آنذاك كانوا مرتاحين ويتفرجون عليهم دون أن يتحركوا.

إن الرغبة في الاندماج مع الوضع القائم ومماشاته هي ديانة بحد ذاتها، ومن الصعب أن يكون إيمان أصحاب هذا المذهب مقبولاً، وهم حريصون على أن يكونوا لطيفين وأن يشعروا بأنهم «منسجمون مع عامة الناس». وهم يستشعرون ما يحس به الآخرون، ثم يندمجون في الحشد. القساوسة ذوي المناصب الرفيعة هم أولئك الذين يأتون بفكرة سخيفة من نوع ما، ويمكن لأي شخص أن يقبلها على الفور، سواء سببت تلك الفكرة شرخاً بين الناس، أم كانت تعبيراً عن موقف يميني متعجرف. ومن حين إلى آخر، يعاني هذا الحشد من الناس مقداراً من القلق الذاتي، وهو الأمر الذي يحوّله إلى أفراد، وعند هذه النقطة، يقوم كل واحد ببذل كل ما يستطيع لكي يصبح فرداً، مثل كل فرد آخر.

مجموعة من الذئاب

بعض عبدة الوضع القائم يجدون طريقهم إلى الكنيسة، مصحوبين ببعض أصحاب الأرواح التي لا تنتمي من قريب أو بعيد إلى الكنيسة. كل أولئك المنافقين يشكّلون داخل الكنيسة كنيسة مخالفة. القساوسة السذّج الذي يسمحون بحدوث ذلك يخالفون كلمة الله، ولكن هل يعنيهم الأمر؟ الكنيسة المخالفة تشبه طائر الوقواق الذي يتغذى وينمو تحت رعاية طيور أخرى أصغر منه لكنها لا تتصف بالحكمة الكافية كي ترى حقيقة الفراخ الكبيرة الحجم. طائر الوقواق يدفع البيوض الأخرى خارج العش، فيأتي صاحبا العش التعيسين ويقضيا وقتهما في العناية ببيوض غيرهما. هكذا تفعل الكنيسة المخالفة حين تضع نفسها في مواجهة الكنيسة الحقيقة، وهذه الاستراتيجية تنجح في عالم السياسة. المسيحيون المنافقون ينالون

الاحترام عبر إقامة الصلوات الطويلة والقيام ببعض الأعمال الخيرية، وفي النهاية يحصلون على المال أو السلطة وكل ما يمكنهم الحصول عليه نتيجة لهذا الوضع. والمسيح حذّر من ذلك، لكن الأغبياء لا يسمعون.

بطرس الرسول، بالمناسبة، معروف باعتماده على إيمانه ومنع مثل هؤلاء من التسلل إلى أتباع الكنيسة الأولى. قُدّمت له هدية مالية من رجل اسمه حنانيا، لكنه علم أن في الأمر سوءاً. حين استجوب حنانيا، كذب عليه حنانيا؛ عنّفه بطرس، فأسلم حنانيا روحه ومات. جاءت زوجته بعد ذلك وروت الكذبة نفسها فماتت أيضاً[22]. في بعض الكنائس، مثل هؤلاء لا يُقبلون فقط، بل ينالون الاحترام والتقدير.

ينبغي على المرء أن يسأل عن الجدوى مما يحدث؛ أين هو خادم الله الذي سيتكلم ويعظ ويؤنِّب أتباعه؟ أليس هناك نهاية لهذا العار المتمثل في تقدير وتأييد أمثال فيليب جيوردانو وطمس التقارير التي تتحدث عن سوء أعمالهم؟ ما مدى الصِحة في أن تقبل الكنيسة شخصاً مثل جورج بوش، متجاهلة سجله المليء بالحماقات والجرائم الدنيئة؟

إذا سمحت للشر بأن يدخل بيوت الله، فسيدخل الشر إلى بيتك. في شبابي، ألهمني الله هذا المبدأ وبيّنه لي، وقد لفت نظري أن الخبثاء من الناس ينالون ثقة رجال الدين في بلدتي. تحدثت إليهم لأحذرهم، لكن ردة الفعل كانت هي أنهم أكبر مني وأكثر حكمة وأن ما أقوله لا يمكن أن يكون صادراً عن الله. كثيرون من هم كذلك، وفي تلك الحال كنت أتمنى أن أكون المخطئ والدجال. ولو أنني كنت على خطأ، لكانوا هم من سيضحك أخيراً، لكن باعتبار أنهم كانوا هم المخطئين، فليس ثمة من يضحك، وقد بدوا مرتبكين أمام رعيتهم بسبب غبائهم وعانوا في بيوتهم. العدالة تبدأ من بيت الله، وقد كانوا حمقى باحترامهم بعض الناس بدلاً من احترام الله. في بعض الأحيان يتكلم الله عبر من هم فقراء غير بارزين في المجتمع، وفي مثال النبي الدجال الذي كان متعجرفاً إلى درجة شتم عباد الله.

أياً كانت الطريقة التي يتخذها الله لكلامه، فينبغي على أولئك الذين يدخلون بيته أن يستمعوا. أما الآن فهناك من يتجاهل الحقائق، ويتجاهل آيات الكتاب المقدس فيسمح بوجود جورج بوش في المكان المقدس. من حقهم أن يتحدثوا عن دجلي إذا شاءوا، فلو كنت

أتحدث من عندي لتبيّن خطأ ما قلته، أما إذا كان ما قلته من عند الله، فستتبين حقيقة ما أقول. لم أخش يومئذٍ توبيخهم أو تسفيههم لي واعتباري مجرد طفل، وكنت أعلم تماماً السلطة التي يملكها من تحدثت إليهم، وأنا أعرفها الآن وأنا أتحدث.

هنا، إذاً، سأحدثكم عما في قلبي، أنتم الذين تسمون أنفسكم مسيحيين. أمريكا، التي تسمي نفسها أمة مسيحية، ينبغي أن يقودها رجال الله الذين يتمتعون بالبصيرة والالتزام، والذين سيقبلون هذا التحدي ويستمعون ليس إلى فرضياتهم، بل إلى ما يقوله الله. إذا فعلوا ذلك، فهناك أمل؛ أما إذا لم يفعلوا، فستصبح أمريكا مثلاً بائساً، وذلك لعدد من الأسباب، منها عدم احترام السياسيين لبيت الله، الفجور في الملاهي، الاعتداء على الأطفال، استغلال البلدان الأخرى، السيطرة والبطش، وتغييب الحقائق في وسائل الإعلام.

طالما ظل بيننا جورج بوش، وغيره من أشباهه، فستكون أمريكا كالسفينة التي صعد إليها يونس، النبي العاصي. البحارة يحاولون النجاة بالسفينة ويونس نائم يطلب منهم التضرع إلى الله، وهو ما فعله كل منهم. اكتُشف ذنبه فألقوه في البحر ونجوا بالسفينة.

الله، يرى ويعلم، ولا يلح فقط على إلقاء البعض في البحر، بل بربط أحجار كبيرة حول أعناقهم قبل إلقائهم في البحر، خاصة أولئك الذين آذوا الأطفال وسببوا المعاناة والألم للآخرين.

كلماتي ليست سارة، لكنها دقيقة. وأرجو ألا تعتبروني عدوكم، ومع ذلك، فمن يستطيع أن ينكر أنني أصفع الكثير من الوجوه؟ أفعل ذلك على أمل أن يتصرف القادة الروحيون لأمريكا كما ينبغي، فإن فعلوا ذلك فسيضعون وطنهم على طريق الله القويم قبل أن يفوت الأوان.

---

(1) *John* 1:1,14
(2) *Newsweek,* 10 March 2003
(3) *Daily Mail,* 7 March 2003
(4) Ib.
(5) *Matthew* 4:4
(6) *Matthew* 25:24
(7) *Matthew* 10:16
(8) ACLU Press Release 7 August 2001
(9) *Washington Post* 11 October 2002
(10) Pax, Salaam. Internet letter, Spring 2002

(11) De Camp, John. *The Franklin Cover-up: Child Abuse, Satanism and Murder in Nebraska.* Lincoln, Nebraska, AWT Inc., 1992

(12) O'Brien, Cathy and Mark Phillips. *Trance-Formation of America.* Reality Marketing, Las Vegas, 1995.

وحيث أنني كنت على اتصال بهذين المؤلفين، استطعت التحقق والتأكد من التفاصيل التي أورداها. وأكثر ما فاجأني أثناء الحديث معهما هو مدى الدقة والتركيز الذي يتصفان به، وبالرغم من الحالة النفسية التي كانت تعانيها كاثي، كانا شديدي الرقة وكلاهما كان يرغب في حدوث تغييرات إيجابية في أمريكا.

(13) *The Guardian,* 19 July 2002

(14) *Yale Daily News,* 19 August 1999

(15) *New York Times,* 4 March 2003

(16) O'Brien and Phillips, p. 168

(17) King, Nicholas. *George Bush: A Biography.* NY, Dodd, Mead & Co,, 1980. pp. 139-140

(18) Straub, Gerard Thomas. *Salvation for Sale.* Buffalo, NY, Promtheus Books, 1988. rev. ed., p. 291

(19) Sontag, Frederick. *Sun Myung Moon.* Nashville, Abingdon Press, 1977.

(20) *Executive Intelligence Review,* 1 November 2002

(21) *New York Times,* 14 November 1990

(22) *Acts* 5: 1-11

وكالة المخابرات المركزية

الجاسوسية قديمة قدم الحضارة الإنسانية. أحد جوانب هذه المهنة، الذي يكمن في تلفيق الأدلة من أجل إلقاء التهم الباطلة، ظهر للمرة الأولى ضمن سفر التكوين في التوراة. عشرة أشخاص من بني إسرائيل (أخوة يوسف) قصدوا مصر هرباً من الجوع والقحط فدسّ رجال العزيز دليلاً في أمتعتهم بغية اتهامهم بالسرقة والتجسس. تم ذلك بتحريض من أخيهم (يوسف) الذي كان قبل سنوات مضت ضحية المؤامرة التي نصبوها له بدافع الغيرة، حيث ألقوه في البئر ثم باعوه عبداً. ولكي يغطوا جريمتهم وضعوا دم شاةٍ على قميصه ثم جاءوا بالقميص إلى أبيهم وألقوه بين يديه كدليل يدعم زعمهم بأن الذئب أكله. القميص المغطى بالدم وبكاء الإخوة جعلا الأب يعقوب يصدق بسهولة رواية أبنائه المزعومة مما برّأهم من الجريمة لعدة سنوات[1]. ومن شدة حزنه وأساه، لم يفكر الأب بالتحقق من القصة المزعومة، وهذا الجانب من الأعمال المخابراتية، أي استخدام العوامل النفسية، وخاصة التلاعب بمشاعر القبول والتسليم النفسي، تم استخدامه من قبل العديد من الأنظمة والحكومات.

بعد وقت قصير من قصة الغيرة بين الإخوة هذه، ظهر اثنان آخران من بني إسرائيل في التوراة كعلامتين بارزتين في عالم الجاسوسية والمخابرات، وهما "جوشوا" و"كاليب". هذان الشخصان كانا معروفين في بني إسرائيل بنبوءاتهما وكانا يُظهران المعجزات لشعب بني

إسرائيل الذي لا يريد، من شدة خوفه من الكنعانيين، أن يصدّق بأن الله يوحي إليهما ويمدهما بالمعجزات. لكن الدليل الذي قدماه والذي لا يمكن دحضه، وهو الفاكهة الشهية التي تم جمعها وإحضارها من الأرض الموعودة، تغلّب أخيراً على الإشاعات والتقارير الكاذبة التي كان يبثها عشرة من الجواسيس المندسين الذين أرادوا الإبقاء على حالة الخوف في بني إسرائيل[2]. ولن أن بني إسرائيل صدّقوا هؤلاء العشرة، لكانت تلك هي نهاية بني إسرائيل.

بالنسبة للبعض، يُعتبر عالم الاستخبارات عالماً مغرياً، جذاباً بطريقة غامضة ويتضمن مقداراً من التحدي والمغامرة. أما البعض الآخر، الذي بقي بعيداً عن الأضواء بسبب الضرورات، مثل بيتر رايت المدير العلمي للوحدة M15 أثناء الحرب العالمية الثانية، فقد انخرط في هذا العمل حين احتاج وطنه إلى قدراته العقلية والعلمية من أجل مكافحة الرايخ الثالث (حكومة هتلر النازية) وفرقه المخابراتية ذات التدريب العالي من العلماء والجواسيس. عمل رايت ورفاقه ليل نهار ضد دول المحور، حيث قاموا بفك رموز الرسائل المشفرة وكشف الجواسيس، وأخيراً تمكنوا من تحقيق النصر على نظرائهم في فرقة الاستخبارات النازية المعروفة باسم «أبفهير». حتى ذلك الوقت، أدت الخبرة التي تعود إلى آلاف السنين، إلى رفع مستوى الحيل والمهارات من مجرد إخفاء الأدوات إلى عكس الحقول المغناطيسية في السفن بحيث تستطيع المرور ضمن خطوط الأعداء. الخدعة الأخيرة هذه تم استعمالها بطريقة مدهشة في العام 1940 من قبل البريطانيين مما سمح لسفنهم بدخول مرفأ دنكيرك الفرنسي دون أن يفقدوا سفينة واحدة[3]. كما أن القدرات التقنية العالية في تلك الحرب كانت الأساس في نجاح طائرات الحلفاء في تدمير السفينة الحربية الألمانية تربيتز؛ وقد نال منفذو تلك المهمة ثلاثة أوسمة من نوع فكتوريا، وذلك في العام 1944[4].

هذا النوع من الجرأة والإقدام لم يكن موضع اهتمامٍ من قبل هتلر فقط، بل من جانب الولايات المتحدة أيضاً؛ حينئذٍ أصبحت لندن المقر المؤقت للخدمات السرية الأمريكية، المعروفة باسم OSS والتي اشتهرت باعتبارها دائرة مقاومة التجسس، والتي اتخذت لها مقراً في شارع ريدر في مبنى مشترك مع جهاز الاستخبارات SIS البريطاني. الروائي البريطاني غراهام غرين كتب ملاحظة حول المنافسة الحميمة في هذه العلاقة: «الأمن كان لعبة

مارسناها ضد الأعداء بدرجة أقل مما لعبناها ضد الحلفاء القاطنين في الطابق العلوي»[5]. وربما استمرت العلاقات الإنغلو-أمريكية باستخدام هذه اللعبة المرحة التي تقوم على أساس جاسوس ضد جاسوس ضد جاسوس، لكن الرئيس ترومان ألغى الجهاز OSS في أيلول (سبتمبر) 1945. وقد أبطل بذلك لعبة الشطرنج التي كانت دائرة في لندن، لكن قراره ذاك لم يتم الالتزام به تماماً. الرد على قرار الإغلاق تم في داخل الولايات المتحدة، وذلك باستخدام هوليوود كأداة دعائية. الممثل ألن لاد جسّد ببراعة النموذج الساحر لشخصية اليانكي الذي يهزم الألمان في أوروبا في فيلم يحمل العنوان OSS، وقد تبعته أفلام أخرى مشابهة. الشاشة الفضية لم تكن الوسيلة الوحيدة التي تم استغلالها، بل تمت كتابة العديد من المقالات والبرامج الإذاعية التي تُضفي المجد على عمل ومكتب العميل السري.

الجدل حول النشاط الاستخباري الذي يشمل العالم كان خلفه رجال مثل ج. إدغار هوفر، الذي أصبح فيما بعد مديراً لمكتب التحقيقات الفدرالي FBI، ووليام ج. دونوفان الرئيس السابق لجهاز OSS. في العام 1947 انتهى ذلك الجدل بإنشاء وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA. كانت مهمتها جمع المعلومات الاستخبارية، وتم إنشاء وكالة أخرى منفصلة هي مكتب تنسيق السياسات، ومهمته هي إدارة العمليات السرية. ألن دالاس، المصرفي والدبلوماسي الأميركي، وقف بقوة منذ البداية ضد هذا الفصل بين الوكالتين: «الاستخبارات السرية والعمليات السرية يجب وضعهما تحت إدارة عمليات واحدة»[6]. تم ضم الوكالتين في العام 1950، وذلك في نفس العام الذي تشكّلت فيه وكالة الأمن القومي NSA. وفي ذلك الوقت كانت وكالة الأمن القومي تضم 10 آلاف موظف، ولم تكن مقراتها الرئيسية معروفة كما لم يكن اسم رئيسها أو اسم أي من موظفيها معروفاً — كانت في الواقع أكثر سرية من وكالة المخابرات المركزية؛ وقد قيل حينها أن الأحرف NSA التي هي اختصار اسم الوكالة، تعني «لا يوجد مثل هذه الوكالة No Such Agency». المقرات الرئيسية لوكالة المخابرات المركزية تم تأسيسها في لانغلي بولاية فيرجينيا، وفي ذلك الموضع تم نصب تمثال للجاسوس الأميركي ناثان هال. كان التمثال نسخة طبق الأصل عن التمثال الأصلي الموجود في حرم جامعة يال. ومع مرور السنوات تم ملء الكثير من دوائر الوكالة

بمتخرجي الجامعات، والكثير منهم كانوا من خريجي مدرسة أندوفر، التي يوجد فيها أيضاً نسخة عن تمثال الجاسوس ناثان هال.

بعد هزيمة دول المحور في العام 1945، كان هناك عدد كبير جداً من العملاء السابقين في وحدة المخابرات الألمانية «أبفهير» من ذوي المهارات العالية والعلماء الذين يمكن شراءهم أو استخدامهم. وكونهم من الأعداء السابقين، ونظراً إلى بشاعة الجرائم التي ارتكبتها النازية ضد الإنسانية، لم ترغب فيهم الكثير من الدول. بريطانيا العظمى وفرنسا، وهما الدولتان اللتان عانتا كثيراً من الحرب، لم ترغبا فيمن يذكّر شعبيهما لسنوات قادمة بالأضرار والمآسي التي تسببت بها النازية، وكانت رغبتهما أقل في استضافة هؤلاء العملاء والعلماء. عملاء وحـــدة «أبفهير» العاطلين عن العمل، بالإضافة إلى شخصيات نازية رئيسية أخرى، توجهوا نحو الولايات المتحدة الأمريكية حيث لقي الكثير منهم خالص الترحيب فجاءوا كالقطيع، خاصة علماء الصواريخ والأطباء والخبراء في مجال تعديل السلوك الإنساني. ولكي أكون موضوعياً، وعلى سبيل الدقة، ينبغي القول أنهم تسربوا إلى صفوف المواطنين الأمريكيين بمساعدةٍ من قادة الأمريكيين، كما تجب الإشارة أيضاً إلى أن القادة الأمريكيين لم يكونوا جميعاً متواطئين في هذه العملية الخفية. المتعاطفين مع النازية كانوا موجودين من قبل في أمريكا، أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، وبعض هؤلاء المتعاطفين مع النازية كانوا في مواقع السلطة العليا؛ وقد خانوا وطنهم عبر جلبهم إليه مرتكبي أفظع أنواع الجرائم، مثل هانس كاملر، المتخصص الشهير في الأسلحة السرية والذي سُمح له بالاختفاء قبل أن تتمكن محكمة نورمبرغ من جلبه وتسليط الضوء على أعماله.

ألن دالاس، المحامي الذي دافع عن بريسكوت بوش بعد اتهامه بالعمل لصالح النازية، ربما كان الشخص الذي يتحمل أعظم المسؤوليات عن جلب واستخدام هؤلاء العملاء. بالنسبة له، كانوا يمثلون قوة عقلية جديدة، وقد رحّب بخبراتهم؛ الولايات المتحدة وضعت يدها، عبر هؤلاء، على الشيفرات، أساليب التعذيب، الاستجواب، وربما كان الأهم من ذلك كله السيطرة العقلية. بالنسبة للأمر المهم الأخير، ذهب الدكتور أوين كاميرون إلى نورمبرغ لاستجواب العديد من العلماء النازيين السابقين، وتمكن من رؤية نتائج أعمالهم على أرض

الواقع. العديد من هؤلاء العلماء النازيين السابقين كان قد أجرى اختبارات دقيقة على السجناء، وإذا أمكن تجنيبهم المحاكمة وجلبهم إلى أمريكا، فيمكن عندئذٍ وضع اليد على البيانات المتعلقة باستخدامات الأقطاب الكهربائية وأدوية التعديل العقلي واختبارات إسقاطات الحقول المغناطيسية، بالإضافة إلى اختبارات تطوير الشخصيات المتعددة. أحد الباحثين البارزين والذي أنقذ زملاءه من المثول أمام محكمة نورمبرغ، هو الدكتور ألبرتوس ستروبخولد. كان متخصصاً في دراسة تأثيرات الضغط على الضحايا الأحياء، وفي غالب الأحيان عبر محاكاة شروط قمرة قيادة الطائرة من أجل اختبار قوة الجاذبية. كان ضحاياه يعانون آلاماً شديدة أو يموتون؛ وفي حالات الاختبار الأخيرة كان يقطع رؤوس الضحايا ويفتحها لدراسة تأثير التغييرات السريعة للضغط على الشرايين. معارفه المتفوقة كانت موضع تقدير خاص لدى القوات الجوية الأمريكية، التي أطلقت اسمه على المكتبة في قاعدة لاكلاند في سان أنتونيو، وذلك تخليداً لذكرى هذا السافل[7].

بعد عدة سنوات على قبولهم ضمن الدائرة العلمية الأمريكية، عانى الأمريكيون من ارتفاع حاد في عدد الجرائم المرتكبة ضد الأطفال وفي نسب الأمراض العقلية. في أواخر الثمانينات أصبح الاعتداء على الأطفال بمثابة الوباء، وقد اكتُشف برنامج يسمى «مونارك» وكان مسؤولاً عن العديد من حالات الجنون التي سُجلت على كثير من المواطنين الأمريكيين. السيناتور جون دي كامب (جمهوري-نبراسكا) كتب عنه عام 1992:

> يوجد تقرير حول مصدر مشروع «مونارك» وضعه أولئك الذين استجوبوا الضحايا في قضية الاعتداء على الأطفال فيما يتعلق باضطرابات نمو النخاع الشوكي. ويقال أن الاختبارات النازية في مخيمات الاعتقال أثناء الحرب العالمية الثانية قد تجاوزت مجرد التعذيب الجسدي الجنوني. قاموا بعمليات غسل لأدمغة الناس، لغايات عسكرية واستراتيجية. بعد الحرب، قام ألن دالاس، وغيره من مسئولي الاستخبارات الغربية، بجلب الأطباء النازيين لاستخدامهم في الولايات المتحدة. جاء أيضاً إلى أمريكا مراهق اسمه غرينباوم كان نزيلاً في أحد مخيمات الاعتقال وتعاون مع النازيين لينجو بنفسه، عُرف لاحقاً باسم «الدكتور غرين»، وأصبح ذا شأنٍ عالٍ في مجال غسل الأدمغة، وله حضور بارز في برامج غسل الأدمغة التي تعتمد على أساليب نفسية سحرية ومحددة[8].

لإحضار العديد من النازيين إلى أمريكا، تم وضع برنامج سري يحمل اسم مشروع «مشبك الورق». لم يعلم بذلك البرنامج سوى النخبة داخل الوكالة وأولئك المنخرطين فيه. ومن الجدير بالذكر أن تنفيذ هذا البرنامج السري عُرقل على بعض المستويات، كانت هناك دائماً مشكلة التمويل التي لا يمكن حلّها بسهولة دائماً، خاصة في مرحلة السلم التي أعقبت الحرب. من الضروري كسب تأييد المواطنين في نظام ديمقراطي لهذا المشروع، وحسب خبرة النازيين، ينبغي أن يشعر هؤلاء المواطنون بالخوف. وباعتبار أن الرايخ الثالث لم يعد موجوداً، فينبغي أن تتجه أصابع الخوف والاتهام إلى مكان آخر، وكم كان من السهل جعلها تتجه نحو العدو السابق للرايخ. الاتحاد السوفياتي، الحليف السابق للولايات المتحدة، تحوّل إلى فزّاعة مخيفة لعدة عقود من الزمن، وقد أصبحت تلك الأمة هاجساً بالنسبة للأمريكيين بفضل جهود شخص كان مغموراً هو السيناتور جوي ماكارثي (جمهوري-ويسكونسن) القادم من مدينة صغيرة اسمها أبلتون ليمثل قيم العديد من المدن الأمريكية الصغيرة التي تقول أن «أمريكا في كل مكان»، في ذلك الوقت. في حياته العملية كان مدمن مورفين وكان يحصل على المخدرات من المدعو هنري جيمس أنسلنغر(9)، ثم أصبح رئيساً للمكتب الفدرالي للمخدرات. المكتب الفدرالي للمخدرات كانت وكالة أسسها أندريو ميللون؛ وكانت تابعة لوزارة الخزانة التي رئسها ميللون حتى العام 1932.

السيناتور القادم من أبلتون حقق نجاحاً باهراً في حملته الصليبية؛ حيث أُطلقت حملة ملاحقة شرسة ضد المعارضين، ووُضع الكثير من الممثلين والفنانين على اللوائح السوداء، والمواطنين المتورطين في «أعمال معادية لأمريكا»، مثل دراسة اللغة الروسية أو اللغة الصينية، قامت الجامعات والمعاهد بالتبليغ عن أسمائهم لوضعها على اللوائح السرية. وسط كل هذا الحماس والتعصب الأعمى وأثناء المطاردات، لاحظ البعض كيف تُصرف نقودهم، واكتشفوا أن مبالغ طائلة قد تم تحويلها لصالح برامج السيطرة على العقول التي تم تطبيقها على مواطنين طبيعيين ووطنيين.

تحت غطاء القانون

في العام 1953 لفت انتباه الأمة موت أحد العلماء الحكوميين. الدكتور فرانك أولسون سقط من نافذة أثناء وجوده كضيف في فندق ستاتلر-هيلتون في مدينة نيويورك. أُعتبر موت أولسون آنذاك انتحاراً، لكن في العام 1975 اكتشفت عائلته أن وكالة المخابرات المركزية قد دسّت في شرابه عقار LSD قبل موته. الرئيس فورد اعتذر شخصياً للعائلة في البيت الأبيض ذلك العام، كما طالب السيناتور فرانك شيرش (ديمقراطي-مينيسوتا) عام 1977 وكالة المخابرات المركزية بتقديم تقرير حول هذه الجريمة وغيرها من الجرائم المرعبة[10].

تبيّن أن القصة التي رُويت عام 1975 لم تكن «الحقيقة كاملة، ولا شيء سوى الحقيقة». إريك أولسون، ابن الدكتور أولسون، صرّح عام 2002: «لمدة اثنين وعشرين عاماً كان هناك تعتيم على القضية. ثم، وبحجة الأمن القومي، أصبح هناك تعتيم جديد»[11]. تمكنت العائلة مؤخراً من الاطلاع على وثائق تبيّن أن ديك تشيني ودونالد رمسفيلد، الذين أصبحا لاحقاً من طاقم البيت الأبيض، كانا مسؤولين عن إخفاء الحقيقة، وأن إدارة فورد أخفت دور أولسون في أبحاث تطوير مادة الأنثراكس وغيرها من الأسلحة البيولوجية[12].

الدكتور أولسون لم يكن أبداً الضحية الوحيدة لوكالة المخابرات المركزية. القاتل ثيودور كازينسكي (المفجّر) استخدمته وكالة المخابرات المركزية في الخمسينات والستينات في اختبارات كان يشرف عليها الدكتور هنري موراي[13]. تم تجنيد هذا الدكتور في وكالة الخدمات السرية الأمريكية «أو أس أس» في بداية الحرب العالمية الثانية، وخدم برتبة ملازم أول وعمل تحت إمرة سيدني غوتليب رئيس قسم الخدمات التقنية في وكالة المخابرات المركزية، وهو نفس القسم الذي ذكره السيناتور دي كامب والذي كان الوسيلة للإيقاع بالسياسيين الأمريكيين وتوريطهم في مغامرات جنسية يتم تصويرها سراً لابتزازهم لاحقاً[14]. غوتليب كان متورطاً بحادثة أولسون التي ذكرناها سابقاً، وورد اسمه ضمن المدعى عليهم في القضية التي رفعتها إلى القضاء عائلة أولسون. كان مدعى عليه أيضاً في القضية التي رفعتها إلى القضاء شقيقة ستانلي ميلتون غليكمان، وهو شخص آخر أُستخدم في الاختبارات[15].

عملت وكالة المخابرات المركزية على مشاركة بعض أسرار أبحاث السيطرة العقلية مع جيرانها الشماليين. الدكتور جورج سكوت، وهو طبيب نفسي من دائرة الإصلاح الكندية، استخدم السجناء في اختبارات رهيبة وضعتها وكالة المخابرات المركزية ووزارة الدفاع الكندية. وقد تم تجريده من رخصة ممارسة الطب منذ ذلك الوقت، وتبيّن أيضاً انغماسه الشديد في اختبارات وتحاليل مفاعيل الأدوية المخدّرة. وفي الواقع هذا تعبير مهذب عن الاغتصاب التقني المتقدم الذي يتضمن استخدام أنواع معقدة من أدوية التلاعب بالذهن والأعصاب، وقد طبّق ذلك على أحد المرضى لمدة خمس سنوات[16].

أربع وعشرون امرأة تقدمن بشكوى موحدة ضد سكوت، وادعين أنهن كن ضحايا تجاربه الدوائية. دوروثي بروكتور، إحدى المدعيات، زعمت أنه عالجها بالصدمات الكهربائية وأعطاها عقار LSD الذي يسبب الخدر والهذيان وحالات تشبه الجنون. وفي مقابلة مع صحيفة «أوتاوا سيتيزن»، تنصل سكوت من أية مسئولية، بل عبّر عن الرضا الذاتي لما قام به من ألعاب السيطرة العقلية وصرح بمنتهى الوقاحة: «أنا سعيد بنفسي. ولا أعترف بشيء»[17].

مصالح على مستوى العالم

الميول المرضية لم تكن الدافع الوحيد وراء ذلك، كانت هناك مصالح مالية عميقة وراسخة. السيطرة العقلية كانت لها تطبيقاتها في عالم تحكمه المصالح المادية، والتحكم بالكتل السكانية كان من ضمن رغبات العديد التكتلات الرأسمالية. وكالة المخابرات المركزية لم تكن ببساطة مجموعة من الوطنيين المحبين للعمل، بل لها روابط وصلات شديدة مع الشركات الرأسمالية الكبرى. الكثير من تلك الشركات تمارس أعمالها في أمريكا، وينظر إليها باعتبارها العمود الفقري للمجتمع الأمريكي، ويمكنها أن تتلو قسم الولاء والإخلاص للوطن والدمع يترقرق في عيونها. وغني عن القول أنها لم تكن قلقة حول استغلال الوطن أثناء إلقاء الخطب الوطنية. كما أنهم لم يكونوا أبداً مبالين فيما يتعلّق باستغلال غير الأمريكيين. هنا ليسوا مضطرين للظهور بمظهر المحترم، وليس سراً أن هذا الأمر يمتد على نطاق العالم. شركة هاليبرتون قد تكون المثال الأوضح، وإذا كنت قد اقترعت لصالح ديك تشيني، الذي كان مؤخراً الرئيس التنفيذي لهذه الشركة، فقد يتوجب عليك أن تفكّر جيداً قبل أن تخرج مرة أخرى للإدلاء

بصوتك. هاليبرتون لم تكن الشركة الأمريكية الأولى التي تربطها بوكالة المخابرات المركزية أواصر علاقات ومصالح وثيقة. جيرالد كولبي زيلغ، في بحثه الصادر عام 1974 حول شركة «دوبونت»، كتب حول واقعة تتعلق بمطالبة الغواتيماليين باسترجاع مساحة 400 ألف فدان من الأرض من شركة الفواكه المتحدة، وهي شركة أمريكية كانت تعمل في غواتيمالا. ألن دالاس كان رئيس شركة الفواكه المتحدة في ذلك الوقت، وكانت لديه صلات وثيقة مع وكالة المخابرات المركزية التي أمّنت الغطاء للغزو الأمريكي لذلك البلد وأرسلت القاذفات ف-47 المرابطة في هندوراس. احتجّت الأمم المتحدة، لكن بوجود المندوب الأمريكي الذي كان الرئيس الدوري المؤقت لمجلس الأمن، ذهبت الاحتجاجات أدراج الرياح. أُجبر الغواتماليين على السماح للأمريكيين بإنجاز أعمالهم على الطريقة الأمريكية، وانضم رئيس وكالة المخابرات المركزية والتر بيدل سميث إلى أعضاء مجلس إدارة شركة الفواكه المتحدة، وأصبح ألن دالاس، رئيس شركة الفواكه المتحدة، رئيساً لوكالة المخابرات المركزية[18].

أعمال مماثلة أخرى في أمريكا اللاتينية جعلت الولايات المتحدة البلد الوحيد في العالم الذي تتم إدانته من قبل محكمة دولية بجرائم الإرهاب الداخلي. عندما قتل 50 ألف شخص من نيكاراغوا نتيجة لعملية سرية لوكالة المخابرات المركزية، توجهت نيكاراغوا إلى محكمة العدل الدولية التي تعمل دون قيود من أحد عليها، فردت المزاعم الأمريكية بالدفاع عن النفس وفرضت عليها دفع تكاليف الأضرار التي أصابت نيكاراغوا. ردت أمريكا على ذلك برفضها قرار المحكمة واستمرت بهجماتها[19].

في العام 1950 تعرّض أرسطوطاليس أوناسيس لحملات تشويه من قبل وسائل الإعلام؛ وقد تبيّن أنه تعرض لعمليات تجسس على مكالماته الهاتفية، مما أدى إلى عقد «اتفاق جدة» المثير للجدل، والذي نجم عنه خسائر لأوناسيس ومزيد من الرسوخ لوكالة المخابرات المركزية في الشرق الأوسط[20]. في نفس ذلك العقد من الزمن انفجرت أزمة السويس، والتي ينظر إليها الكثيرون اليوم باعتبارها من صنع وكالة المخابرات المركزية التي أرادت وضع البريطانيين في موقف حرج ثم تبتعد دون أن تقدم لبريطانيا أي دعم في تلك الأزمة، مما أدى إلى خسارة البريطانيين للقناة واكتساب وكالة المخابرات المركزية مزيداً من القوة في العالم العربي.

في البلدان العربية وبعض البلدان الأخرى، تحوّلت الاستخبارات الأمريكية إلى أداة سياسية لشركة متعددة الجنسيات «عاكسة النظام الطبيعي للأشياء»[21].

التدخل في شؤون الحكومات الأجنبية لا ينحصر ضمن نطاق التنصّت على المكالمات الهاتفية والسيطرة العقلية، بل أن الاغتيالات كانت أيضاً من أهداف وكالة المخابرات المركزية. الصحفية بتي بريوتن كتبت عام 1988: «من المعروف أن بعض أعضاء المافيا ووكالة المخابرات المركزية تآمروا على اغتيال فيدل كاسترو»[22]. حتى أنهم خططوا للشروع في خطف مزيف للطائرات والقيام بموجة من أعمال الإرهاب المزيف التي تتضمن قتلاً فعلياً لمواطنين أمريكيين، وذلك لتبرير الهجوم على كوبا وإزالة كاسترو الذي أرادوا إظهاره كديكتاتور شرير يشكل تهديداً للديمقراطية. هذا المخطط الذي وُضع عام 1961، والذي حمل اسم «عملية نورثوودز»، يعتبر، من عدة نواحي، المخطط الأولي لما حدث في 9/11، وهو يتضمن تفاصيل ملتوية وفاسدة تم إخفاؤها عن الرأي العام لعدة عقود من الزمن[23]. جاء في مذكرة كُتبت عام 1963: «جورج بوش من وكالة المخابرات المركزية»[24]، وذلك فيما يتعلق بمخطط اغتيال كاسترو، وهو المخطط الذي جُمّد بعد اعتراض الرئيس كينيدي على تلك المؤامرة. في دول الكاريبي، قصص تدخُّل الولايات المتحدة الأمريكية شائعة ومأثورة، وجزء من عملية «نورثوودز» كان يتضمن تدمير حقول السكر في الدومينيكان بحيث يمكن جعل ذلك البلد حليفاً للولايات المتحدة في تنفيذ المخطط التآمري، مما يؤدي بالتالي إلى إشعال الفتنة بين الدول الناطقة بالإسبانية ووضعها كل في مواجهة الأخرى[25]. في الطرف الآخر من الجزيرة المشتركة مع جمهورية الدومينيكان، في هاييتي، ورد في تقرير لهربرت أتكين، وهو عميل اتصال لوكالة المخابرات المركزية، أنه في عام 1963 تم إرسال مندوب اسمه دي موهرندشيلدت للإشراف على مخطط يهدف للإطاحة بالرئيس دوفاليه. دوروثي ماتلاك، التي أصبحت فيما بعد المدير المساعد لمكتب الاستخبارات العسكرية، كانت من ضمن الفريق الذي عمل في الظلام لتنفيذ الغاية الحقيقية من زيارة موهرندشيلدت. ماتلاك لم تكن ساذجة تماماً، ذلك أنها قالت: «علمتُ أن ذلك التكساسي (دي موهرندشيلدت) لم يكن هناك من أجل بيع القنّب»[26]. أتكين وماتلاك، المراقبين المباشرين لوكالة المخابرات المركزية وعملياتها،

لم يكونا غبيين بحيث تخدعهما الحركات المشبوهة، لكن ليس كل المواطنين الأمريكيين لديه المعرفة والقدرة التي يملكانها، وهم متروكون ليعتمدوا على ما تقوله التقارير الصحفية، على غرار القصص التي كانت تنشرها صحف مجموعة هيرست حول الإرهاب الكوبي المزعوم عام 1898، وبالتالي فهم لا يملكون إلا معلومات جزئية يحصلون عليها من «الصحافة الحرة».

أدولف يزحف إلى الأمام

ليس مفاجئاً أن يؤدي تدفق عملاء الاستخبارات النازية نحو وكالة المخابرات المركزية إلى الحصول على موطئ قدم ضمن دول التحالف. حاولت النازية أن تفعل ذلك سابقاً، ونجحت في السيطرة على بعض المواقع في كل دولة من تلك الدول. في فرنسا، كان لها مناصروها؛ في أمريكا، ظهر النازيون كوطنيين يلوحون بالأعلام الأمريكية ويدعمون شركتي «دوبونت» وجنرال موتورز؛ في إيرلندا، حاولوا تحريك النعرات ضد البريطانيين، وفي بريطانيا كانت لديهم شبكة جواسيس استطاعت الوصول في مرحلة ما حتى إلى القصر الملكي. تعرضت تلك الشبكة إلى هزة عنيفة حين وجد رئيس الوزراء نيفيل شامبرلين نفسه أمام مساءلة صعبة من قِبل وزير شاب اسمه ونستون تشرشل، كما أن العديد من الشخصيات العامة الأخرى اضطرت إلى لخضوع للمساءلة بعد أن تبيّن أن الكثير من أفعالها يندرج تحت باب التآمر على المملكة. تم كشف وليم جويس («لورد هاو-هاو») وجون أمري[27]، وسيق البريطانيون الذين تعاملوا مع المخابرات النازية زمراً إلى المحاكم العسكرية وحكم على العديد منهم بالسجن المؤبد. بعد الحرب، نُزعت الشرعية عن الحزب النازي في العديد من الدول، بما في ذلك ألمانيا نفسها. لم تكن تلك نهايتهم، ذلك أنهم وجدوا طريقهم، إما إلى العمل السري، أو، بكل بساطة، عبر العمل الشرعي حيثما توفر لهم ذلك. في المملكة المتحدة، حيث كان الحزب ممنوعاً ومحتقراً، حاولوا الحصول على مرتكزٍ لهم عبر أدولف فون تيسين المشهور (الفوهرر الثاني) وقاموا بعدة رحلات إلى إنجلترا للحصول على الدعم. بعد وفاة فون تيسين في العام 2000، نُقل عن شقيقته قولها أنه كان مغرماً ببريطانيا. ويمكن القول أن ذلك الشعور لم يكن متبادلاً، وحتى الحركات اليمينية الأشد تطرفاً أبدت انزعاجها من تصرفاته.

إذا لم تستطع الانضمام إليهم، اضربهم. هذا هو الشعار الجديد للنازية الجديدة المعدّلة، أو النيو-نازية كما تسمى أحياناً. وبعد حصولهم على القبول في العديد من الوكالات الحكومية الأمريكية، ربما استطاعوا بالفعل زيادة تأثيرهم في مختلف أنحاء العالم، وذلك بعد أن تخلصوا من الأعضاء المفضوحين والمعروفين كنازيين بشعين وطردوهم من صفوفهم، استطاعوا التقدم مع مواجهة قدر أقل من المقاومة قياساً على ما واجهوه سابقاً. بعد هذا الاستعداد، أصبحوا قادرين على التغلب على الضيم القديم الذي تعرضوا له وتوجهوا نحو المستعمرات الفرنسية ودول الكومنولث البريطاني. الرئيس فرانكلين روزفلت أبلغ البريطانيين بعد الحرب أن أمريكا لا تستطيع أن تفعل شيئاً فيما يتعلق بدول الكومنولث، ومن المؤكد أن كلماته تلك كانت أخباراً طيبة بالنسبة للعديد من عملاء الغستابو السابقين. ولم يمر وقت طويل على انخراطهم في وكالة المخابرات المركزية حتى لوحظ أن العمليات الاستخباراتية الأمريكية قد بدأت تسير بطريقة خفية وغامضة عبر تأسيس حلقات تجسس في لندن[28]. أدى ضم وكالة المخابرات المركزية لعملاء النازية إلى إلباس هذه الوكالة شخصية وسلوك هؤلاء الرجال، الذين وُكّلت إليهم مهام تحسين علوم الصواريخ والسيطرة العقلية في الولايات المتحدة، وهم الذين لم ينسوا أبداً اعتقادهم بصفاء العرق الآري وضرورة السيطرة على العالم، بل أنهم استمروا في تحقيق خططهم ومشاريعهم الخاصة وعاشوا كالطفيليات في الحضن الجديد الذي عثروا عليه. استطاعوا تسويق العديد من أفكارهم في الولايات الأمريكية، وليس مفاجئاً أن أموال الحكومة كانت تُصرف على زعزعة الأوضاع في الدول غير الآرية وعلى قمع الأقليات العرقية في أمريكا نفسها. والسؤال الذي يبرز هنا هو كم من هؤلاء الطارئين استطاع التسلل إلى الدول والأمم الأخرى مستخدماً أمريكا كقاعدة انطلاق؟ علاقتهم الجديدة مع وكالة المخابرات المركزية أمّنت لهم الغطاء المناسب للتسلل إلى فرنسا وإنجلترا، وربما إلى ألمانيا نفسها. ويجدر بالمرء أن يتساءل عن المصلحة في تعيين وليام فاريش الثالث سفيراً لدى بلاط سان جيمس، مع العلم أن جده، وليام فاريش الأول، أُدين في أمريكا بجريمة القيام بنشاطات مؤيدة للنازية. من الملاحظ أن تعيينه في ذلك المناصب قد تم من قِبل رجلٍ لعائلته تاريخ مماثل، ذلك أن بريسكوت بوش، جدّ جورج دبليو بوش، عُرف عنه أيضاً تأييده للنازية. من المهم

أن نلاحظ الصلة بين هاتين العائلتين وبين العرش البريطاني، وبهذه المناسبة أود أن أروي الحكاية التالية عن اجتماعي شخصياً بأحد أفراد «العائلة الملكية» الأمريكية.

في حزيران (يونيو) 2000، كنت أجلس بقرب الآنسة كورنيليا دبليو بوش في حفل الغداء الذي يقام سنوياً في لندن بمناسبة ذكرى معركة واترلو. وحين أبديت بعض الملاحظات العابرة حول العلاقة السياسية الماضية بين عائلتي وعائلة بوش، أعلمتني أنها من الأقرباء المباشرين لـــ«دوبيا» (لقب جورج دبليو بوش)، حينئذٍ توقفت عن التطرق بالحديث إلى هذا الموضوع. بعد أيام، حين كانت ضيفة في حفل غداء مماثل في مقر مجلس اللوردات، مرّت بجانب أحد مقاعد العرش وأشارت إليه قائلة أن أسلافها تعودوا الجلوس هنا، وهي ملاحظة لا تساعد كثيراً على إجراء محادثة مفيدة. في الواقع، حال ذلك دون رغبتي في أن كون مشاكساً لها عبر طرح الأسئلة حول دور عائلتها في مؤامرة «نورثوودز» أو في التحقيقات التي لا تزال جارية فيما يتعلق بمحاولات وكالة المخابرات المركزية سرقة أسرار الشركات في أوروبا. المسألة الأخيرة كانت بمثابة الكارثة بالنسبة للعديد من الشركات آنذاك، ويعتقد الكثيرون جازمين أن تلك العمليات قد تمت من خلال سفارتي الولايات المتحدة في باريس ولندن. تحدثت نوريينا هيرتز في كتابها الصادر عام 2001 بعنوان «الاستيلاء الصامت» عن الأعمال التجسسية الأمريكية: «في شهر شباط من عام 2000، برزت مزاعم مروّعة... التقدم الهائل الذي حدث في مجال التقنيات في فترة التسعينات يعني أن النظام التجسسي أصبح من القوة بحيث يستطيع التقاط كل كلمة تقال على الهاتف أو ترسل عبر الفاكس أو البريد الإلكتروني، وذلك عبر لاقطات تعتمد على الأقمار الصناعية في أي مكان من العالم. والمرعب في الأمر أنه ينطبق علينا جميعاً»[29].

هيرتز تتعمّق في هذه المسألة وتسميها اعتداء تجسسياً شنيعاً يقوم به مسؤولون أمريكيون بارزون عبر التجسس على الأفراد ونقل الأسرار التجارية إلى قطاع الأعمال الأمريكي. البرلمان الأوروبي ردّ سريعاً على هذا الاكتشاف ووضع تقارير حول مزاعم جدية عن سرقة مواد من شركات أوروبية وآسيوية قامت بها شركات أمريكية عبر وكالة الأمن القومي التي عملت على اعتراض البيانات ثم تمريرها إلى وزارة التجـــارة. الأيرباص السعودية وشـــركة

«تومسون سي أس أف» الفرنسية ذُكرتا كضحيتين، كذلك شركة «أن سي آر» اليابانية التي فقدت عقداً تجارياً مع «أ تي آند تي» الأمريكية. الشركات الألمانية اكتشفت أيضاً تسرباً في أسرارها؛ هورست تيلتشك، وهو عضو سابق في مجلس إدارة «أي بي أم» ومستشار أمني لدى الحكومة الألمانية، صرّح: «اكتشفنا أن الأسرار الصناعية تُسحب بدرجة لم تحدث من قبل أبداً»[30]. أحد الأعضاء البلجيكيين في البرلمان الأوروبي تحدث عن العديد من تلك الأعمال وسمّاها «هجوماً مفرطاً لا يطاق على حقوق الإنسان»[31].

وفي الوقت الذي يعتبر البعض أن هذه الأمور لا تطاق، ومن ضمنها لعب الدور السخيف بتحويل الشركات ذات الماضي الوثيق الصلة بالنازية إلى شركات صديقة ومقربة من مراكز القرار والتشريع والأوساط الصناعية، يعتبر البعض الآخر أنها أمور ذات فائدة عظيمة: مثل «بوينغ»، «ماكدونيل دوغلاس»، «ريثيون»، «كينيتيك»، «أ تي آند تي» وغيرها من الشركات الأمريكية. البعض يربح، والبعض يخسر.

المطلعون على بواطن الأمور

قدرة وكالة المخابرات المركزية وغيرها من العاملين في هذا الحقل على التلاعب بفعالية الشركات والأسواق يقود إلى سؤال آخر: هل وكالة المخابرات المركزية مهتمة بجمع المعلومات الداخلية بحيث تستطيع التحكم بالفرص التجارية في السوق؟ في الواقع تُعتبر الحكومة الأمريكية لاعباً أساسياً في هذا الحقل. لا شيء يمنعهم من وضع القوانين التي تساعد أحد مجالات العمل وإعاقة آخر، العديد من الحكومات فعلت ذلك، وعملاء الحكومة يمكنهم عندئذ استخدام تلك المعلومات لمعرفة اتجاهات العمل والأرباح في السوق. المبدأ بسيط جداً، على الرغم من أن البعض قد يحاول دحض هذه المزاعم عن طريق مناقشة بعض التعقيدات التي تنطوي عليها. بعضها معقّد بالفعل، لكن الجشع لا يعيقه التعقيد. هذه الفرضية تؤكد فقط أن هؤلاء الذين يخونون ثقة الرأي العام هم أكثر ذكاء ودهاء من المجرمين العاديين، حتى أنه في بعض الأحيان يتوجب على المرء أن يثني على الجرأة التي يتحلون بها عبر اقترافهم العلني لجرائمهم. ربما اكتشفوا أن مستوى التعقيد الشديد في ممارساتهم هو الذي يؤمن لهم النجاح، وهو ما يؤدي بالتالي إلى صعوبة كشفهم. في ثلاثينات القرن الماضي قام عدد من المضاربين

المزروعين في مراكز إدارية واقتصادية عالية بإيقاع أمريكا بفخ أخرجها كلياً من أحد المجالات الصناعية، وذلك في الوقت الذي كانت البلاد تحتاج فيه إلى مزيد من فرص العمل والصناعات المحلية من أجل إنعاش اقتصادها. تلك كانت صناعة القنّب التي شن عليها أنسلنغر هجوماً ضارياً، وهو الذي لفّق الأكاذيب التي كانت تنشرها صحف هيرست لإيهام الرأي العام بأنه يتعرض لهجوم خطر من قبل مزارعي الحشيشة، وبناء عليه ينبغي شن حرب شعواء على زراعة القنّب. ذلك ما فعلوه، مستخدمين كلمة «ماريجوانا» للإشارة إلى القنّب الذي كانت البحرية الأمريكية تستخدمه على سفنها حتى ذلك التاريخ. هنالك تفادٍ متعمد لاستخدام المصطلح المحدد أو الاسم اللاتيني لهذا النبات، والذين ناقشوا القانون فيما بعد ينكرون أنهم خُدعوا من قبل المشرعين. الشركات المنافسة لآلاف المنتجات المستخلصة من نبات القنّب وقفت مستعدة للاستفادة من القوانين الجديدة، ومن الجدير بالملاحظة أن الشخص الذي كافح بشراسة لسن هذا القانون، هنري جيمس أنسلنغر، هو نسيب أندريو ميللون والذي تتضمن استثماراته ومصالحه الاقتصادية النفط والبلاستيك. استخدموا السلطات التنفيذية والتشريعية بما يعود عليهم بالنفع، والمكتب الذي كان أنسلنغر يرأسه لم يتم استغلاله من قبل ميللون فقط، بل أن ميللون هو الذي أنشأه وأتبعه بوزارة الخزانة التي كان يرأسها آنذاك[32]. كانت تلك هي الحرب على زراعة القنّب، وهي مثل الحرب على العراق من أجل النفط.

إشعال الحروب وخلق أجواء التوتر وعدم الاستقرار يعتبر من الأدوات التي يستخدمها هؤلاء لتحقيق مصالحهم، وكلما كان نفوذهم كبيراً ضمن وكالات الاستخبارات، كلما استطاعوا التحكم بمبيعات وأسعار النفط والسلاح، وفي الوقت عينه زيادة ثرواتهم من خلال الخيارات المرتبطة بتلك الصناعات. هذا كله يبيّن بوضوح سلسلة من السلوكيات التي تتجاوز القوانين المتعلقة بالصناعة والاقتصاد، لكن أفعال وكالة المخابرات المركزية لا تتوقف عند التجسس على الشركات وسرقة الأسرار الصناعية. أحد الأمريكيين، الملازم أول «بو» غريتز، حاول إنقاذ بعض الجنود الذين فُقدوا في جنوب شرق آسيا بعد حرب فيتنام. أذهلته الأمور التي اكتشفها، وقد شعر بالإحباط والحرج من وكالة المخابرات المركزية التي كانت تدير

شبكة مخدرات ودعارة[33]. مواطن أمريكي آخر اتهم وكالة المخابرات المركزية بتجارة المخدرات، وهو مايك رابّرت الضابط السابق في مكتب مكافحة المخدرات في لوس أنجلوس. رابّرت رفض التعاون مع الفساد، مثل الكثيرين من رجال القانون الذين اكتشفوا أن الحكومة هي التي ترتكب الجرائم[34]. تجارة المخدرات مربحة جداً، وفي كل عام يلجأ البعض إلى تضليل الرأي العام عبر استخدام الصلاحيات الممنوحة لهم كي يحصلوا على نصيبهم من الكعكة. رجال الشرطة، المعلمون، وحتى القساوسة انحنوا لتمرير هذه الجريمة تحت كل غطاء ممكن. وفي الوقت الذي يتم تخصيص المزيد من المال لإيقاف تدفق المخدرات، يستمر انتشار واستخدام المخدرات وتتوسع وتنمو تجارتها. إذا أخذنا في الاعتبار مدى تأثير الصفقات والعمليات الداخلية في هذه المسألة، فسيبدو الأمر أكثر وضوحاً. ببساطة شديدة، من الأسهل الحصول على المخدرات تحت سمع وبصر الحكومة بدلاً من تهريبها من الخارج. ومن الأسهل أيضاً استخدام المنظمات والجمعية الخيرية والسفارات في عمليات غسل الأموال، بدلاً من اللجوء إلى أشخاص من العالم السفلي يقومون بتحويل الأموال بين الحسابات والبنوك، وهو أمر قد يثير فضول الصحفيين والمحققين.

تجارة المخدرات ليست النشاط الوحيد الذي تمارسه وكالة المخابرات المركزية في العالم السفلي. وكما ذكرنا سابقاً، هناك اهتمام غير صحي بالأطفال، وهذه صناعة قائمة بذاتها، وهي أكبر من صناعة ديزني. مرة أخرى، إذا تفحصنا إحصاءات الأطفال المفقودين في الولايات المتحدة، فمن المؤكد أن السبب في ذلك ليسوا الانعزاليين المرضى نفسياً الذين يرتدون المعاطف الشتوية. سمعنا مثل هذه القصص حين تم حل بعض القضايا، لكن في واقع الأمر، الغالبية العظمى من هذه القضايا لا تزال غامضة و لم تُحل. هناك، لسوء الحظ، تجارة واسعة تجري تحت الأرض وتُجنى فيها الأموال الطائلة، والأطفال هم السلعة المتداولة في هذه التجارة التي تقودها شبكات إجرامية شديدة التنظيم؛ وهذا الوباء المنتشر، مثل تجارة المخدرات، يجد طريقة ما للتوسع الشديد.

نورين غوش، والدة الطفل المخطوف جوني غوش، جاءها زائر غامض لديه معلومات تامة عنها ويملك تفاصيل دقيقة عن عائلتها. استطاع أن يحوز ثقتها التامة مدعياً أنه محقق، لكنه لم

يظهر لها أية أوراق ثبوتية تثبت عمله في أي وكالة. أكثر من ذلك، نطاق أسئلته كان يتجه نحو استخلاص مقدار المعلومات التي تعرفها هي، أكثر مما تهدف إلى توفير معلومات مفيدة في القضية[35]. هذه مشكلة مستعصية ضمن الوكالات الحكومية التي تمارس نشاطاتها ضد المواطنين، باعتبار أن العاملين في تلك الوكالات يستطيعون الاطلاع على التحقيقات، ويمكنهم وضع إشارات تحت بعض التفاصيل والاحتفاظ بها بحجة المساعدة في التحقيقات الجارية. من الواضح تماماً أن قضية خطف الطفل غوش لها صلة بأشخاص رسميين في الحكومة الأمريكية، وهذه المراقبة الدقيقة للضحايا والشهود أمر يبعث على الصدمة[36]. وهذا الأمر يبيّن فقط كم يمكن للعالم أن يكون فاسداً حين يتحوّل الذين يفترض بنا الثقة بهم إلى معتدين، وحين يتوجب على المواطنين أن يحرسوا أنفسهم ويحموها من الحكومة التي يفترض بها حمايتهم.

جني أكبر قدر من الأموال دون التورط أو الوقع في الفخ هما هدفان أساسيان من أهدف أي منظمة إجرامية. والهدف الأخير سهل التحقيق باعتبار أن الخيط الفاصل بين العضو في منظمة إجرامية والعميل السري في إحدى الوكالات هو خيط رفيع جداً، وفي أحيان كثيرة لا يكاد يُرى. أثناء الكشف عن فضائح شركات الادخار والتسليف خلال العام 1980، تبيّن أن ذلك الخط قد تم تجاوزه بشكل روتيني. الأموال التي تُجنى من المخدرات والدعارة تحتاج إلى إدخال في الحسابات البنكية، وهي كثيرة جداً إلى درجة يصبح معها من المستحيل الاحتفاظ بها تحت الفراش. إن اتباع مسار النقود مسألة معقدة جداً، لكن عملية المتابعة هذه تتحول أحياناً إلى مصدر ممتاز للكسب. أحد المحققين تتبع تلك المسارات ووصل إلى سدود وعوائق وضعتها أمامه مراكز عليا في العام 1990، والسيناتور دي كامب سجّل معاناته على النحو التالي:

> في الحادي عشر من شهر أيلول (سبتمبر) 1996، وفي فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا، النائب هارولد جيمس، رئيس مؤتمر السود التشريعي، وهو نفسه كان شرطياً سرياً في وكالة مكافحة المخدرات، طلب أيضاً إجراء تحقيق. أثناء مجريات ذلك المؤتمر الصحفي، انبثق اسم آخر، وهو اسم أعرفه جيداً منذ تحقيقات فرانكلين: جورج بوش.

بعد محاصرته من قبل القادة السياسيين في المدينة وفي الولاية، أعلن جيمس: «باعتباري ضابطاً سرياً متقاعداً من شرطة فيلادلفيا وعملت سابقاً في قضايا مكافحة المخدرات، أعلم تماماً أن باستطاعتنا التأثير بقوة على تدفق المخدرات إلى هذه البلاد، وذلك باعتقال أولئك الموجودين في مراكز السلطة العليا، وإنزال العقاب بمروجي المسحوق الأبيض الذين يحاولون المحافظة على نظافة أيديهم، بالرغم من أنهم يقومون بإدارة العملية بأكملها. وبهذه المناسبة، يجب ألا نسمح لأي كان باستخدام ذريعة الأمن القومي كي يحقق غايات سرية أخرى. نحن بحاجة إلى إجراء تحقيق يتجه إلى الأعلى مباشرة».

وفيما يتعلق بالتساؤل إلى أين يقود الاتجاه إلى الأعلى، اتهم جيمس في بيانه الصحفي: «التحقيقات السابقة بفضيحة إيران-كونترا، خاصة تلك التي جرت في الولايات المتحدة. لجان الاستماع المشتركة بين مجلسي الشيوخ والنواب كشفت عام 1987 الدور المركزي الذي لعبه نائب الرئيس جورج بوش في العمليات السرية للمخابرات... وأحد أركان جورج بوش في تلك العمليات كان أوليفر نورث. عُين بوش أيضاً، من قبل ريغان، مسؤولاً عن النظام الوطني لمنع تهريب المخدرات عبر الحدود، والذي يفترض أن يكون عبارة عن جهود مشتركة بين جميع وكالات مكافحة المخدرات التي تعمل على مستوى الولاية أو المستوى المحلي أو الفدرالي، وخاصة عبر شاطئ جنوب فلوريدا. بوش كان مسؤولاً عن جهود البيت الأبيض في مجال مكافحة المخدرات، وفي الوقت نفسه، بناء على ما جاء مؤخراً في التقارير الصحفية، يُزعم أنه تم تسليم أطنان المخدرات إلى عصابات الشوارع من قبل الشبكات المرتبطة بوكالة المخابرات المركزية. تنبعث من هذه الصورة رائحة عفنة»[37].

تعبير آخر عن خيبة الأمل بالوكالات الحكومية جاء على لسان المحققة في ولاية نبراسكا كارين ج. أورميستون:

...الغاية والهدف الحقيقي من هذه التحقيقات هو تحديد الأسباب التي جعلت مكتب التحقيقات الفدرالي ودائرة شرطة أوكلاهوما وشرطة ولاية نبراسكا يصرون جميعاً على أنهم أجروا تحقيقات دورية متتالية حول هذه الادعاءات وأنهم توصلوا إلى خلاصة مفادها أن لا أساس من الصحة لهذه المزاعم. كما أنني أشرت إلى أن النتيجة النهائية لهذه القضية يجب أن تكون تحديد الوجهة التي سلكتها الأموال التي جُنيت من تجارة صور الأطفال الإباحية ودعارة الأطفال وتجارة المخدرات. إن فشل مختلف وكالات الأمن وأجهزة فرض القانون المكلفة بالتحقيق في هذه المزاعم والادعاءات هو أيضاً مسألة تحتاج إلى نقاش[38].

دي كامب ومساعديه من المحققين واجهوا عمليات اعتداء مؤسساتية على الأطفال، وذلك في الوقت الذي تصاعدت فيه الشكاوى من هذه المسألة. والآن هناك أكثر من مليوني قضية اعتداء سنوياً، بالإضافة إلى ما يقارب مائتي ألف قضية خطف واختفاء أطفال في الولايات المتحدة الأمريكية. المؤلف وكاتب التحقيقات غوردون توماس قال أن تجارة صور الأطفال الإباحية عام 1990 درّت أرباحاً سنوية تقدّر بثلاثة بلايين دولار وهي على ازدياد. يضيف غوردون معتقداً أن ذلك «جزء من الجزء الأكبر من صناعة السينما في أمريكا»[39].

استعراض تاريخ القوانين المتعلقة بهذه الأنواع من النشاطات في الولايات المتحدة يبيّن وجود العديد من الثغرات أو الفجوات التي سمحت بجعل تلك الاعتداءات قانونية. أي نقص في وضوح القوانين يتم استغلاله من قبل الجماعات والأفراد الذين يشكلون رأس الحربة في هذا الهجوم على الأطفال والقاصرين. إجراءات وقوانين المحاكم تبدو وكأنها أصبحت ضبابية يعوزها الحسم والوضوح ويتم تجاوزها ووضعها جانباً في بعض القضايا، وهناك شكاوى شديدة من عدد المعتدين الذين يسمح لهم بإعادة الاعتداء مرات متعددة. بعض تلك الاعتداءات ناجم عن مصالح خفية بعيدة المدى، وبعضها ترتكبه المؤسسات. فيما يتعلق بالقضية الراهنة، والمتهم فيها المدير التنفيذي في شركة ديزني باتريك ج. ناوفتون، والذي أدين بتاريخ 16 كانون الأول (ديسمبر) 2001 بجريمة حيازة وإنتاج مواد إباحية عن الأطفال، تم إطلاق سراح المتهم «حتى يتم التوصل إلى فرز التهم والاتفاق على إجراءات المحاكمة»[40]. وأثناء عملية «الفرز»، كان ناوفتون حراً طليقاً يزور المدارس وأماكن العبادة. إن اقترابه من أطفال أولئك الذين يعلمون بنشاطاته قد يشكّل صدمة مريعة لهم، لكن قد لا يحدث ذلك لديزني حيث سُمح له هناك بالإشراف على موقع مخصص للأطفال على شبكة الوب. وهو ليس الوحيد المشبوه من بين أصحاب المراتب العالية الذين يحظون بالحرية والاحترام في أمريكا؛ مايكل جاكسون، نجم البوب، سُمح له بالاحتفاظ بالأطفال في مترله الكائن في نيفرلاند بولاية كاليفورنيا، حتى بعد تصريحه علناً بشغفه بالنوم معهم وإقامة الحفلات للصغار الذين يُلبسهم الأقنعة والقلائد ويرتدي هو ثيابه المترلية. من الصعب جداً إجراء تحقيق فعلي مع الذين يملكون المال في الولايات المتحدة، وقدرة جاكسون على تجاوز وتحدي القانون

يمكن فهمها فقط حين يعلم المرء عدد القادة الذين يفعلون الأمر نفسه، أو ما هو أسوأ منه. بعض هؤلاء كان في أماكن توحي، أو يفترض أن توحي، بالثقة، مثل «مدينة الأولاد» و«بيت العهد»، الذي تربطه صلات وثيقة برسميين من إدارة بوش ومن وكالة المخابرات المركزية. كاثي أوبرين تقدم لنا في كتابها عدداً من الأمثلة حول إدارة وكالة المخابرات المركزية لبرامج الاعتداء على الأطفال، وبعضها تتم إدارته من خلال الكنيسة لتوفير غطاء أفضل وللوصول إلى الرضع من الأطفال. سمّت عدداً من الأشخاص المتورطين بهذه القضايا مثل جيرالد فورد وديك تشيني وآرلين سبيكتور والبوشين، الأب والابن[41]. بوجود هكذا غطاء لتلك الأعمال، لا يحتاج الأمر إلى كثير شرح كي نفهم السبب في عدم القدرة على إيقاف تلك الأعمال. أوبرين تقدم صوراً واضحة جداً لكثير من تلك النشاطات وغيرها من الجرائم المربحة مثل تجارة المخدرات باعتبارها مصدراً لجمع الأموال لصالح وكالة المخابرات المركزية والسياسيين من الطبقة العليا. عزّز شهادتها الكثيرون، مثل المحقق تيد غندرسون، نورين غوش، ديفيد ماكغوان، وبول بوناتشي، وهو الضحية الأخيرة لهذا النوع من الاعتداءات. الصحيفة الشعبية الناطقة بالإسبانية «برونتو» أجرت تحقيقها الخاص فقالت: «يبدو أن الفضيحة تشمل سياسيين من ولاية نبراسكا وسياسيين من العاصمة واشنطن مقربين من البيت الأبيض ومن جورج بوش... وقد رفض مكتب التحقيقات الفدرالي المساعدة في التحقيق وعرقل أي جهد قد يبذله الغير للمساعدة في هذا التحقيق»[42].

في العديد من التحقيقات، تعتبر العرقلة كلمة مألوفة وأساسية. إذا ظهرت بعض الأسماء، مثل جورج بوش أو وارن بوفيه، المستثمر الثري، في الصحف والمطبوعات، فإن المعنيين بذلك إما أن يتعرضوا للتهديد أو الموت، والحوادث قد تحدث وتضيع المسألة في هيئة المحلفين وأروقة المحاكم. قضية الاعتداء على الشاب بول بوناتشي، على سبيل المثال، كان أحد المحلفين فيها متورطاً في قضية تحرش جنسي في شركة باسيفيك يونيون حيث كان يعمل مراقباً آنذاك. أحد زملائه الموظفين اتصل بالسيناتور دي كامب ليبلغه بذلك، وقد أيد الكثيرون هذه القصة، وتبيّن أيضاً أن هذا المراقب، مايك فلانغان، استطاع تسريب تفاصيل سرية عن التحقيق إلى آخرين في الشركة التي يعمل فيها، وأنه تلقى نصيحة حول كيفية التصرف ضمن

هيئة المحلفين، تلقاها من بعض المحامين الذين يتابعون ويتدخلون في القضية بطريقة غير مشروعة[43]. أمر لا يصدّق أن يحدث ذلك في نظام ديمقراطي. قد يتوقع المرء أن يحدث هذا النوع من الأعمال في دول متخلفة تحكمها أنظمة عسكرية تسيطر على السوق السوداء. من المستحيل تقريباً أن يصدّق الإنسان حدوث ذلك في أمة لها هذا المقدار من التأثير على العالم ولديها تلك القيم التي تريد تسويقها للآخرين.

أثناء كتابة هذه الكلمات، تعاني المملكة المتحدة مأساة وطنية. في الرابع من شهر آب (أغسطس) من عام 2002 طفلتان في العاشرة من عمرهما اختفتا من قرية ريفية في كامبريدجشير ولحقتا بعدد آخر من المخطوفين ذلك العام. حادثة اختفاء الطفلتين في كامبريدجشير أدت إلى إطلاق أكبر حملة بحث وإنقاذ في التاريخ البريطاني، حيث تم البحث في كل بوصة من المناطق الريفية المجاورة، واشترك في عملية البحث رجال الشرطة والكلاب والمتطوعون. مضى أسبوعان على اختفائهما و لم يظهر أي أثر لأي منهما، وفجأة تعاظمت الصدمة حين أُعيدت معلمتهما السابقة وخطيبها، ناظر المدرسة، إلى الحجز لدى دائرة الشرطة. عُثر على جثتي الطفلتين خارج القاعدة الجوية الأمريكية في ليكنهيث. المتهمان أثارا بالفعل المنسوب إليهما شعوراً عاماً بالنقمة والفزع المتبوع بأعمال شغب وتظاهر قام بها بعض الناس، إلى درجة أن بعض الصحفيين قال عن تلك الأعمال أنها نموذج حي للوحشية والاعتداء. بعد جهد كبير، تمكن رجال الشرطة من نقل معلمة المدرسة وحدها إلى قاعة المحكمة، أما جلسة الاستماع الثانية فقد تطلبت المزيد من الاحتياطات إلى درجة الاضطرار إلى إجراء الاستجواب عبر الفيديو. ربما كان الصحفيون على حق في اعتراضهم على الطبيعة الغوغائية لبعض المتظاهرين، فالتعبير المتطرف عن الكراهية ومهاجمة رجال الشرطة ليست الطريقة المناسبة لمواجهة هذا الشر. وحيث أنني عشت في كلا البلدين، كنت أفضل لو أن غضب الجمهور ونقمته اتجها نحو فقدان العواطف والأحاسيس. التعبير عن القليل جداً من الغيظ ربما كان أسوأ بكثير، لكن الغيظ الكثير والنقمة العارمة المتجهة إلى غير محلها الصحيح قد تكون أكثر سوءاً، ذلك أن السلطات اعتقلت البريء لإخفاء أمر ما يتعلق بآخرين تربطهم علاقات صداقة بتلك السلطات. التساؤل عما إذا كان هذا ما حدث بالفعل في جريمة

كامبريدجشير هو تساؤل مشروع، ذلك أنه بعد اعتقال المعلمة وخطيبها بفترة وجيزة، تم أيضاً اعتقال بعض المحققين الذين يعملون على هذه القضية. أحدهم، الشرطي غودريدج، أدين من حينها بتهمة النظر إلى صور أطفال إباحية في أحد مواقع الإنترنت الأمريكية، وهو موقع، كما أشار أحد القضاة، يُظهر الأطفال وهم «يذهبون إلى الجحيم[44]»، ويحتوي على مشاهد سادية وبهيمية. وتجدر الإشارة إلى أن المعتقلين، المعلمة وخطيبها، لا يزالان يصران على براءتهما ولا يوجد حتى الآن دليل ملموس يدينهما في هذه الجريمة.

وبالرغم من أن دي كامب وغندرسون، أو كارادوري عثروا على وقائع شنيعة حول خطف الأطفال وشبكات الصور الإباحية التي تصل في منتهاها البعيد إلى البيت الأبيض، إلا أنهم لم يبحثوا أبداً في رفوف جامعة يال. لو أنهم فعلوا ذلك لشعروا بالإحباط لأنهم كانوا سيجدون أن أموال الضرائب تُصرف على نشاطات مقززة تتعلق بالأطفال مدعومة من مجموعات عالية التعليم وتحظى باحترام شديد في أرفع المراكز التعليمية.

اسم الدكتور جوزيه دلغادو معروف جيداً على نطاق ضيق ضمن دائرة الاهتمام ببرامج السيطرة العقلية، لكنه ليس معروفاً تماماً لدى الرأي العام. ما يفعله قد يكون الأكثر بشاعة من بين أشكال الاعتداء. دلغادو أخذ صبياً طبيعياً في الحادية عشرة من عمره واستخدمه في اختبارات تعتبر علامات فارقة في مجال دراسة السيطرة على الإنسان عن بعد. حين يضغط دلغادو على أحد الأزرار، يعاني الصبي من حالة تحّول في طبيعته الجنسية ويتساءل عما إذا كان أنثى، ويتحدث عن رغبته في الزواج من الدكتور. وفي اختبار آخر مماثل، استخدم الصدمات الكهربائية لتغيير سلوك صبية في السادسة عشرة من عمرها عن طريق الضغط على المفاتيح. كلا الصبيين يحملان موصلات كهربائية في الدماغ، والبحرية الأمريكية أنفقت دولارات الضرائب على هذه الألعاب المقرفة[45]. هذه المهارات، التي تعتبر، حسب التعاليم المسيحية، أعمالاً شريرة، هي المحصلة لما يدفعه المواطنون الأمريكيون من أموال الضرائب، وذلك بموافقة حكومتهم؛ وقد حان الوقت لتقويم اعوجاج تلك الحكومة. لقد تم الاعتداء على حقوق المواطنين عبر اغتصاب أطفالهم وقتلهم واستخدامهم في اختبارات بشعة. أليس ثمة أحد في ولاية كونكتيكت يستطيع النهوض والمواجهة للدفاع عن مجتمع طبيعي ويضع أولئك

الناس حيث يجب أن يوضعوا، أم أن الجميع واقع تحت تأثير من هم على شاكلة العمدة فيليب جيوردانو، مطارد الأطفال في وارتبوري[46]، أو حاكمهم روبرت سيمونز الذي كان في وكالة المخابرات المركزية في فيتنام[47]؟ اختبارات دلغادو ظلت مستمرة لفترة من الزمن؛ وفي العام 1969 نشر كتاباً بعنوان «السيطرة الملموسة على العقل: نحو مجتمع متمدن نفسياً»[48]. وما أورده في ذلك الكتاب يبدو متقدماً حتى في هذه الأيام، كما أن صور القرود التي تبدو فيها الموصلات الكهربائية الخارجة من أدمغتها تثير القرف والاشمئزاز. لقد عبث كثيراً بتلك الحيوانات، وفي بعض الأحيان جعل نظامها الاجتماعي مقلوباً. وقد أجرى اختبارات مماثلة على القطط مسمياً تلك الضحايا «الألعاب»، وهذا كله يبدو غريباً وعصياً على التصديق، وربما كان هذا من الأسباب التي سهّلت طمس تلك الأعمال. من الأقوال المأثورة عن منظّري الرايخ النازي الثالث قولهم أن إطلاق كذبة كبيرة أسهل بكثير من إطلاق كذبة صغيرة، وهم على كل حال الأعلم والأقدر في هذا المجال. أولئك عرفوا أيضاً نقاط الضعف الإنسانية، مثل الجبن، وأنه حين تكون الأمور سيئة بالفعل، فمن الأفضل ألا يعلم بها الناس. حين كنت طفلاً، رأيت جانباً من هذه العمليات، واكتشفت منذ ذلك الوقت عدم وجود وكالة أو هيئة إنسانية تبادر إلى التحرك التلقائي حين تصبح الأمور سيئة وخاطئة. جانب من فترة شبابي انقضى في مساكن جماعية تشرف عليها الحكومة، وكان هناك عدد وافر من المسؤولين الجاهزين للاختباء خلف قناع السلطة والمسؤولية أثناء اعتدائهم على النظام والقانون. كنتُ صارماً بشكل خاص في الدفاع عن النظام، و«موقفي» هذا سبب إزعاجاً لهؤلاء الناس. في بعض الدوائر هناك فكرة تحبذ الاستفادة من المنعزلين، وهذه الفكرة تتسع إلى الحد الذي يشمل الاعتداء الجنسي على القاصرين. دي كامب لاحظ الجهر بهذا الموقف كتابة من قِبل أحد كبار القضاة في نبراسكا حيث صرّح: «من حق الأطفال أن يتوقعوا، إذا أبدوا سلوكاً حسناً، ألا يتعرضوا للاعتداء»[49].

لكن إن لم يفعلوا؟ نرسلهم إلى جامعة يال.

كهرباء الجسم

ليس سراً أن الجسم البشري يعمل بمقدار معيّن من التيار الكهربائي، وأن الحقول المغناطيسية الخفيفة تلعب دوراً بارزاً في هذه العملية. أفكارنا، أمزجتنا وكلماتنا يمكن التعبير عنها على شكل موجات. إن دراسة العلاقة بين تلك الموجات تقع ضمن دائرة الاهتمام العلمي الشديد. في الواقع، نحن نستشعر الموجات والذبذبات الجيدة في الكلمات أو في الموسيقى التي نعزفها أو نسمعها. وفي عالم يسوده السلام، تكون تلك الموجات في حالة انسجام وتناغم، داخل كل شخص، وبين النـــاس أثناء تفاعلهم. هل خطرت هذه الأفكار في أذهـــان فريق «بيتش بويز» أثناء تأليفهم وعزفهم للموسيقى؟ إذا كان الأمر كذلك، ليسوا إذاً بحاجة إلى لصق الموصلات الكهربائية على أدمغتهم لكي يتمكنوا من صنع الموجات على نمطهم الخاص.

أحد أسرار الفنان المبدع هو معرفته متى يتوقف، وهذا الأمر ينطبق على العلماء أيضاً. العلماء المنحرفون، الذين يتصرفون على هواهم، هم الذين يعملون على إنتاج الموجات المصطنعة، وهم الذين يخونون الثقة الممنوحة لهم، والحكومة المنحرفة هي التي توافق على ذلك فتسمح بجعل مواطنيها ضحايا لانحراف وفضول هؤلاء الأفراد والشركات التي تريد التدخل فيما هو روحي ومقدس وتحاول السيطرة عليه. الكثير من الناس متورطون في تلك العمليات، وبعضهم رغماً عنه. ما هي الغاية من ذلك؟ أليس من الأفضل أن نُترك لنحيا حياة طبيعية؟

بالطبع سيكون ذلك أفضل لنا، لكن يوجد البعض ممن يحب أن يعبث بالسلوك النفسي للآخرين. أموال الضرائب تُصرف لإرضاء أولئك الفاسدين الذين تفوح منهم رائحة السلطة ويهمسون بكلمات رائعة عن العلم والتقدم حتى يتحول كل ذلك إلى حالة من الخوف والفزع. أحد أسباب الخوف والفزع، بل الشعور بالإساءة والانتهاك، هو اكتشاف الرقائق الكمبيوترية الدقيقة التي زُرعت في جماجم المواطنين الأمريكيين[50]. عُثر على تلك الرقائق بالصدفة حين قصد بعض النـــاس المستشفيات وأجريت لهم عمليات تصوير شعاعي. تبيّن أن «برمجتهم» تمت بعد الولادة مباشرة، وسُمح للعلماء بالتسلل إلى الأجزاء العميقة من تكوينهم الجسدي. في السويد، يتعرض مرضى المستشفيات لعمليات زرع دون معرفتهم منذ العام 1970[51]. الجنود الأمريكيون في فيتنام زُرعت فيهم رقائق مصممة بحيث تزيد من تدفق

الأدريالين باستخدام إشارات رادوية عن بعد، وذلك من أجل تحفيز الغدد في أجسامهم[52]. الصحفي برادلي سميث روى قصة جندي سابق يزعم أن الولايات المتحدة زرعت في جسمه رقاقة كمبيوترية دقيقة[53]، كما أن أحد الأطباء يحذّر من أن المرضى يتعرضون لعمليات زرع الآن أثناء وجودهم في غرف العمليات الجراحية. لا يستطيع المرء أن يتأكد من المدى الذي وصلت إليه تلك الممارسات، لكن هذه الممارسات قد تهدف إلى تطبيقات أكثر تعقيداً وأسوأ بكثير من مجرد السيطرة على تدفق الأدريالين في الجسم.

السيطرة العقلية وزرع الأجهزة في البشر كانا ضمن أهداف العلماء منذ الرايخ الثالث؛ وإذا عدنا إلى التاريخ فيمكننا القول أن الأمر يعود إلى الماضي البعيد وصولاً إلى القرن الثامن عشر، حيث قام الباحثون آنذاك بتحفيز الجهاز العصبي لضفدع بواسطة الشحنات الكهربائية. حدث تقدم تدريجي في هذا النوع من المعارف، وصولاً إلى العام 1930 حيث وصلت هذه العلوم، تحت حثٍّ وتشجيعٍ من النازيين، إلى آفاق جديدة. بالنسبة لتلك المجموعة الباحثين غير الأخلاقيين، لم تكن الضفادع هي الهدف، بل الأحياء من البشر. بعد انتقالهم إلى الولايات المتحدة، توصل هؤلاء إلى مزيد من المعرفة في هذا المجال، وبحلول العام 1950 نجحوا في تصميم رقاقة كمبيوترية لزرعها ضمن جلد الإنسان. كانت تلك الرقائق مصنوعة من السيليكون، حتى تم لاحقاً اكتشاف مادة الغاليوم الزرنيخي الذي شكّل مادة مناسبة أكثر لهذه الغاية. معظم هذه الأمور أُعدّ سراً، بالرغم من ظهورها في بعض السجلات الحكومية، كما حصل في تقرير الدولة الذي أصدرته الحكومة السويدية عام 1972[54].

الحكومات لم تكن الجهة الوحيدة المهتمة بهذه الاختبارات والأبحاث الغريبة. الأوساط الصناعية أنفقت أيضاً أموالاً طائلة عليها؛ وقد تكون شركة «أي بي أم» الشركة الأطول باعاً في مجال الأبحاث حتى الآن. ضمن مقال موضوع على شبكة الإنترنت حول «مشروع الحرية» وردت بعض الإشارات إلى اهتمام الشركة المذكورة بتلك الأبحاث:

> نجحت شركة أي بي أم في تطوير نظام غير مرئي من علامات التشفير [بار كود] يتألف من ثلاثة مجموعات من الأرقام السداسية، وهو نظام غير مؤلم يمكن «تثبيته» بسهولة على الجلد بواسطة الليزر خلال جزء من الثانية، ودون أن ينتبه الشخص إلى وجوده وهو مستخدم حالياً على الماشية. راقبوا الإصرار التدريجي على الربط بين الأشخاص والكمبيوترات والأجهزة

الكهربائية التي يمكن استخدامها للسيطرة علينا جميعاً. تذكروا، إنهم يصنعون المشاكل، ثم يعرضون علينا الحلول.

الدكتور كارل دبليو ساندرز هو مهندس إلكترونيات ومخترع ومؤلف ومستشار للعديد من المنظمات الحكومية، بالإضافة إلى شركتي أي بي أم وجنرال إلكتريك. قضى أكثر من اثنين وثلاثين عاماً في تطوير تقنيات الرقائق الكمبيوترية الدقيقة لاستخدامها في المجالات الطبية، وقد أدت جهوده إلى الحصول على الرقاقة التي وصفها بأنها «علامة البهيمة». وهي عبارة عن رقاقة دقيقة جداً يتم شحنها بالطاقة عن طريق حرارة الجسم، وبالتالي، يمكن زرعها في مناطق رئيسية من الجسم، مثل مقدمة الرأس، تحت حافة الشعر مباشرة، أو في ظاهر اليد كخيار بديل. تم اختبار هذه الرقاقة كجهاز لمنع الحمل في الهند وكأداة لتعديل سلوك المقاتلين في فيتنام، وهذا على سبيل الذكر لا الحصر. تم أيضاً تطوير رقاقة تعريف محدد تحتوي على تفاصيل تتضمن اسم الشخص وصورة وجهه، رقم الضمان الاجتماعي، بصمات الأصابع، وصف بنيته الجسدية، تاريخ عائلته، مهنته، ضرائب الدخل، والسجل الإجرامي.

حصل الدكتور ساندرز على الإذن بحضور العديد من اجتماعات ما يسمى «عالم واحد» إلى جانب هنري كيسنجر وآخرين من وكالة المخابرات المركزية حيث جرت مناقشة «كيف يمكنك التحكم بالناس إذا لم تستطع التعرف إليهم»؟. كانت الإجابة بسيطة، «لنجعلهم قلقين على الأطفال الضائعين، وما شابه من أمور». ثم خرجت وكالة المخابرات المركزية بفكرة وضع صور الأطفال المفقودين على علب الحليب، وهو إجراء تم إلغاءه بعد أن حازت الرقائق الكمبيوترية على القبول. قُدمت إلى مجلس الشيوخ الأمريكي مشاريع قرارات تسمح للحكومة بزرع الرقائق الكمبيوترية الدقيقة في الأطفال منذ ولادتهم. رئيس الولايات المتحدة، بالاستناد إلى «قانون ضبط الهجرة لعام 1986»، الفقرة 100، يملك السلطة التي تخوله تطبيق أي نوع يراه مناسباً من أنواع أنظمة التعريف. كل تلك الحيل الشريرة تنتظر على أهبة الاستعداد كي تنطلق، وقد تم تحضيرها ضمن سياق خطط المشكلة/الحل التي كانت مستخدمة منذ قرون طويلة للتحكم بسكان العالم[55].

إن تسويق كل هذه التقنيات والوسائل قد لا يكون أمراً سهلاً، خاصة مع وجود تحذير محدد وواضح ضدها في «سفر الرؤيا». نبوءات القرن الأول الميلادي تلك كانت غاية في الدقة بحيث تحدثت عن إدخال العلامة في اليد. الاسم اليوناني المستخدم في النص يعني بالتحديد اللصق أو الدمغ. وحرف الجر المستخدم كان دقيقاً أيضاً، وهو لا يعني مجرد الوضع على، كما هي الحال بالنسبة للوشم، بل الإدخال في الشيء.

الجماعات المسيحية لم تكن المعارِض الوحيد. فالعديد من الديانات الأخرى، بما في ذلك اليهودية والإسلام، أعلنت بوضوح معارضتها الشديدة لهذه الممارسات، وكذلك فعلت حركات الحقوق المدنية والمنظمات الوطنية وقدامى المحاربين والفوضويون. هناك إجماع بين مواطني مختلف دول العالم المهتمين بهذه المسألة على قول لا لهذه الممارسات.

عباقرة التسويق ليسوا غافلين عن كل ذلك، وجماعة «ماديسون أفينيو» ليسوا في عجلة من أمرهم كي يحاولوا، بين عشية وضحاها، تسويق واستثمار هذه التطبيقات. لدي أدلة قوية تستند إلى تجارب شخصية وتتعلق ببذل جهود طويلة الأمد في حقل العلاقات العامة من أجل تطويع وتسكين المعارضة الصادرة عن المتعصبين دينياً أو المجرمين الذين لديهم ما يودون إخفاءه. كما أن تلك الجهود قد وُجِّهت حتى نحو الأطفال؛ ففي عدد العام 1973 من مجلة «سينيور سكولاستيك»، وهي مجلة توزّع على طلاب المدارس العليا في الولايات المتحدة، يوجد مقال بعنوان «من يراقبك؟»، وجاء في ذلك المقال:

> جميع عمليات البيع والشراء في هذا البرنامج ستتم عبر الكمبيوتر. لا نقود، ولا صرافة، ولا شيكات. في هذا البرنامج سيتسلم الناس رقماً عُيّن لهم وسيُدمغ كوشم غير منظور على معاصمهم أو جبهاتهم. سيتم وضع الرقم بواسطة الليزر دون شعور بالألم. وذلك الرقم المزروع في الجسم لا يمكن رؤيته بالعين المجردة وهو دائم مثل بصمات الأصابع. جميع مواد الاستهلاك ستحمل علامة كمبيوترية. أجهزة الكمبيوتر الموجودة في المخزن والتي تلتقط أرقام المواد عند نقطة التدقيق والمحاسبة، ستلتقط أيضاً رقم جسم الشخص المشتري وتقوم تلقائياً بحساب المبلغ الإجمالي وخصمه من مقدار «الحقوق الخاصة المكتسبة» العائدة لذلك الشخص[56].

الكاتب تشارلز فرانكل أدان في العام 1972 فكرة لينوس باولينغ الحائز على جائزة نوبل والقائلة بوجوب وضع وشم على قدم أو جبهة كل شاب[57]. وقد احتج بأن ذلك يذكر المرء بالقصص التي تعود إلى معسكر الاعتقال «أوشفيتز». وفي مقال ظهر في صحيفة دنفر بوست عام 1981 نوقشت مسألة الرقائق الدقيقة التي ستحل محل بطاقات الهوية، وجاء في ذلك المقال «يتم وضع الرقاقة في إبرة مثبتة بجهاز حقن بسيط يحتوي على محلول مضاد للطفيليات. الإبرة تكون معبأة وجاهزة عندما تبرز الحاجة إلى تعريف أي شيء — أو أي أحد» [58].

صحيفة شيكاغو تريبيون ناقشت هذه التقنية عام 1996 وتساءلت عما إذا كنا نستطيع الوثوق «بالأخ الأكبر» الموجود تحت جلودنا. مجلة تايم شاركت أيضاً في مناقشة الأمر عام 1998 واحتوت على تحقيق يزعم أن «ابنتك تستطيع الاحتفاظ بنقودها بالطريقة التي تريدها – ضمن الكمبيوتر النقال، في بطاقة الاعتماد، وحتى (في المستقبل غير البعيد) ضمن رقاقة مزروعة تحت جلدها»[59]. في شهر آب (أغسطس) من نفس العام غطّت هيئة الإذاعة البريطانية عملية زرع لرقاقة دقيقة في جسم بشري، في حين أن صحيفة صنداي أوريغونيان حذّرت من انتهاك الخصوصيات، وذلك ضمن مقال مرفق برسم كاريكاتوري يُظهر أناساً يحملون علامات تشفير على جباههم[60]. ومن الجدير بالذكر أن الصحافة وبعض المشاهير حاولوا جعل الأمر لطيفاً ومقبولاً، إلا أن الناس لا يزالون يصرون على الرفض؛ والكثيرات من بناتهم لا يرغبن بحمل علامات غريبة على جباههن أو أيديهن، مع العلم أن الجهود المستمرة لجعل هذا الأمر مقبولاً تبدو وكأنها بدأت تثمر. ومن غرائب الأمور أن يتم إفساح المجال لتسويق فكرة زرع الرقائق في البشر عبر شبكة بث دينية يديرها بات روبرتسون، وذلك حين استضافت تلك الشبكة عائلة جُهِّزت برقائق كمبيوترية دقيقة في بوكا راتون بولاية فلوريدا. لم تظهر من الجمهور إشارات قبول لهذه العملية إلا في بعض الحالات النادرة من بعض الأفراد الذين يريدون حماية أنفسهم من عمليات الخطف. إن الرغبة في حمل «الأخ الأكبر» تحت الجلد تبدو محدودة للغاية، والمستثمرون في هذه التقنية فقدوا مبالغ طائلة من المال. بالنسبة لإحدى الشركات، هذه المقاومة لفكرة تتبع الناس على المستوى الكوني كانت بمثابة الكارثة المالية. شركة «تطبيقات الحلول الرقمية» (ADS)، وهي شركة صغيرة مدرجة على قائمة أسهم الشركات في بورصة «نازداك»، توصلت إلى تطوير ما سمّته تقنية «الملاك الرقمي» وسجّلتها كعلامة تجارية في العاشر من كانون الأول (ديسمبر) 1999، ومنذ ذلك الوقت سمّاها الكثيرون «ملاك الموت». «تطبيقات الحلول الرقمية» صرّحت بأن تلك التقـــنية تقـــوم «بإرسال واستقبال البيانات دون توقف من خلال تقنية نظام تحديد المواقع كونياً عبر الأقمار الاصطناعية (والمعروف اختصاراً باسم GPS). نظام التغذية بالطاقة والسيطرة عن بعد الذي يتبعه جهاز الاستقبال والإرسال لا يشبه أي شيء تم اختراعه من قبل. عند زرع الجهاز

الدقيق في جسم الإنسان، يتم تغذية الجهاز بالطاقة إلكتروميكانيكياً من خلال حركة العضلات، ويمكن تنشيطه إما من قبل «مرتديه» أو عبر محطات مراقبة»[61].

مثل العديد من الشركات المدرجة على قوائم بورصة «نازداك»، عانت شركة «تطبيقات الحلول الرقمية» من تقلبات في أسعار أسهمها؛ شهدت، مثل إنرون، انحداراً حاداً حيث انخفض سعر السهم من 8 دولارات في العام 2000 إلى أقل من دولار واحد عام 2001[62]، وتلقت تهديداً من البورصة بإزالتها من قائمة الشركات المدرجة على لائحة التداول. ثم جاء الثلاثاء الثاني من شهر أيلول (سبتمبر) 2001. صرّح ناطق باسم شركة «تطبيقات الحلول الرقمية» قائلاً «غيّرنا تفكيرنا منذ 11 أيلول (سبتمبر)، وقد برزت الآن حاجة متزايدة لمراقبة النشاطات الشريرة»[63]. إذاً، أصبحت الفرصة متاحة الآن للاستفادة من حالة الهلع السائدة. إذا حدث المزيد من الهجمات، أو إذا فُقد المزيد من الأطفال، فلن يتلقوا أبداً الملاحظات من إدارة البورصة باحتمال إزالتهم من لائحة التدوال. ظهر تصريح لرئيس شركة «تطبيقات الحلول الرقمية» مرسيدس والتون يقول «نحن جادون في طرح «الملاك الرقمي» في الأسواق في أسرع وقت ممكن»[64]. وربما كان يعني أن ذلك لن يحدث بعد الهجمات مباشرة، ذلك أن الشركة استطاعت زرع الأجهزة في ثمانية أشخاص في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 2001.

انعدام الأمن القومي

قد تكون بعض الحكومات جاهزة لسوق مواطنيها إلى أقرب «مكتب أمن قومي» لزرع الرقائق في أجسادهم مدى الحياة. بهذه الطريقة يمكن مراقبتهم على مدار الساعة. لكن الأمر لا يتوقف عند اهتمامات ومخاوف الحكومات ومصالحها التجارية. فموجات الدماغ ودقات القلب وحرارة الجسم وغير ذلك من البيانات الحاسمة، كلها يلعب دوراً في هذه المسألة. تستطيع الحكومة إعاقة أي مقاومة ضدها إذا تمكنت من الحصول على هذا القدر من السيطرة، كما أن هذا المشروع موجّه نحو آفاق أبعد من ذلك، حيث أن الغاية من تلك الدراسات تتجه نحو قراءة أفكار الأفراد ثم إدخالها إلى كمبيوتر «غولياث» يستطيع «قراءة» كلمات أو أحاسيس محددة عن طريق مقارنة موجات الدماغ المعروفة بكونها جزء من

المفاهيم الأكثر تحرراً. الدكتور راوني كيلد كتب حول إمكانية قيام الكمبيوتر بمراقبة جميع المعلومات المارة عبر دماغ شخص زُرع فيه جهاز مراقبة. كتب كيلد:

الكمبيوترات العملاقة الموجودة في ميريلاند وفي إسرائيل وفي أماكن أخرى والتي تبلغ سرعتها 20 بليون بت/ثانية يمكنها مراقبة الناس دون انقطاع. في الواقع، يمكن السيطرة كلياً على جميع سكان العالم بواسطة ذلك التفاعل السري بين الكمبيوتر والدماغ، بالرغم من أن الأمر يبدو غير معقول بالنسبة لغير المطلعين.

ومن الجدير بالذكر أن سرعة أفكار الإنسان تبلغ 5000 بت/ثانية، والجميع يعلم أن أدمغتنا لا تستطيع منافسة الكمبيوترات العملاقة التي تتصرف عبر الأقمار الصناعية والرقائق الدقيقة المزروعة في أجساد البشر، ومن خلال المحطات الأرضية المحلية، وعبر مختلف أنواع أنظمة التحكم عن بعد.

لكل دماغ مجموعة فريدة الخصائص من الطاقة البيولوجية-الكهربائية والتي تُحدث الرنين الذي يتبعه فعل على شكل سلسلة من الأحداث المتوالية. نظام التحكم العصبي عن بعد المرتبط بالكمبيوترات العملاقة يستطيع إرسال الرسائل عبر الجهاز العصبي للإنسان والذي يحتوي على رقاقة كمبيوترية دقيقة مزروعة فيه، مما يؤدي إلى التأثير على فعالية وطريقة عمل الشخص المقصود بالطريقة المرغوبة. يمكن بالطبع متابعة تحركات ذلك الشخص وتحديد موضعه في أي مكان من العالم.

الاختبارات في المجال العصبي-الإلكترو-مغناطيسي اللاإرادي للإنسان كانت جارية بالتزامن مع ما سمي «الضعف السكاني»، وذلك منذ خمسين عاماً وتحت غطاء «العلم» أو «الأمن القومي» وعبر أسوأ أنواع الاختبارات النازية، وذلك ضد جميع حقوق الإنسان. قصص ضحايا التعذيب الجسدي والنفسي أو السيطرة العقلية هذه الأيام تشبه أسوأ أفلام الرعب[65].

لقد تم الاتكاء على كلمتي الأمن القومي لتبرير أي شيء تقريباً — كاثي أوبرين قالت أن القضاة استخدموا هاتين الكلمتين لمنعها من مساعدة ابنتها التي اعتدي عليها وتأمين العلاج لها بعد الاعتداءات التي تعرضت لها من قبل عائلة بوش[66].

إخفاء سجلات عملية «نورثوودز»، مؤامرة خطف طائرات أمريكية وقتل مدنيين أمريكيين من أجل الحصول على الدعم المطلوب لغزو كوبا، تم أيضاً تحت هذا المبدأ[67].

بول بوناتشي، ضحية خبراء العمليات النفسية في الجيش الأمريكي، أُخبر أن الاعتداءات الجنسية السادية التي خضع لها كانت من أجل المساعدة في تحقيق هذا المبدأ[68].

68 ألف صفحة تتضمن تفاصيل ما كان يجري في إدارة ريغان وُضعت حالياً في صناديق مقفلة بعيداً عن أعين المحققين ودافعي الضرائب، وذلك بحجة «الأمن القومي»[69].

في بعض الأحيان (كما حدث حين تحوّلت شركة إنرون إلى قضية)، تصبح تنقلات وأماكن وجود ديك تشيني مسألة تتعلق «بالأمن القومي».

لذلك، دعونا لا نتساءل حول الخيارات التي أتيحت في 11/9، أو لماذا «رأى» بوش الهجوم قبل أن يتم تصويره تلفزيونياً، أو أي من الأسئلة اللعينة الأخرى — صحيح، لقد فهمتم ذلك، حتى لو لم ترغبوا فيه، مثل الجنود الذين تم استخدامهم في فيتنام لإلقاء الغازات الحارقة والسامة على الشعب الذي كان يناضل لنيل حريته[70]. حتى الآن، جميع الحقائق والوقائع المتعلقة بفيتنام وأمريكا، التي مارست أسوأ أنواع الحروب الكيميائية، مخفاة بذريعة قوانين الأمن القومي، مما يؤدي إلى إخفاء الحقائق حول أمة أصبحت بكاملها مصابة بكارثة الولادات المشوّهة والسرطان نتيجة لرغبة أمريكا في السيطرة على تلك الأمة.

صه! لا تقرأ هذا بصوت عال، قد تخرق بذلك قوانين «الأمن القومي»!

---

(1) *Genesis* 37
(2) *Numbers* 13
(3) Wright, Peter. *Spycatcher: The Candid Autobiography of a Senior Intelligence Officer.* NY, Viking, 1987. p. 16
(4) Ib, p. 16
(5) Aldrich, Richard J. *The Hidden Hand: Britain, America and Cold War Secret Intelligence.* London, John Murray, 2001. p.81
(6) Ib, pp. 86-87
(7) Ross, Colin. *Mind Control: The CIA and Military Mind Control Reseach: Building the Manchurian Candidate.* Published in *Global Intelligence News,* 1997
(8) De Camp, John. *The Franklin Cover-up: Child Abuse, Satanism and Murder in Nebraska.* Lincoln, Nebraska, AWT Inc., 1992. (2nd ed.) p. 331
(9) Herer, Jack. *The Emperor Wears no Clothes.* Van Nuys, AH-HA Publishing, 2001. (12th prtg.) p. 96
(10) *The Mercury News.* 8 August 2002
(11) Ib.
(12) Ib.
(13) http://www.counterpunch.org/ciashrinks.html
(14) De Camp
(15) http://www.counterpunch.org/ciashrinks.html
(16) Ib.
(17) Ib.
(18) Zilg, Gerard. *Du Pont: Behind the Nylon Curtain.* Secaucus, New Jersey, Prentice-Hall, 1974. pp. 388-389
(19) International Court of Justice ruling, 27 June 1986
(20) Hougan, Jim. *Spooks: The Private Use of Secret Agents.* London, W.H. Allen, 1979. p. 357-359
(21) Ib, pp. 22
(22) Brewton, Peter. *The Mafia, the CIA and George Bush.* NY, s.p.i. books, 1992. p. 279
(23) Bamford, James. *Body of Secrets.* NY, Dodd, Mead & Co., 2001. pp. 82-92

(24) http://www.meta-religion.com/Secret_societies/order_of_Skull/part_7.htm
(25) Bamford, pp. 82-92
(26) Brewton, p. 194
(27) Walters, Guy. *The Traitor.* London, Headline Press, 2001.
(28) Wright, p. 56
(29) Hertz, Noreena. *The Silent Takeover.* London, William Heinemann, 2001. pp. 62-67
(30) Ib, pp. 63-65
(31) Ib, pp. 64-66
(32) Gibson, Kenyon, Cindy Mackintosh and Nick Mackintosh. *Hemp for Victory.* Manuscript in preparation, The Eryr Press.
(33) Icke, David. *Alice in Wonderland and the World Trade Center Disaster: Why the official story is a lie.* Wildwood, Wyoming, Bridge of Love Publications, 2001. pp. 126-127
(34) Ib. 119-122
(35) De Camp, p. 227
(36) McGowan, David. *The Pedophacracy Part II.* Essay posted on the web
(37) De Camp, p. 321
(38) Ib, pp. 227-228
(39) McGowan
(40) CNET News.com 21 January 2000
(41) O'Brien and Phillips
(42) De Camp, p. 241
(43) Ib, pp. 116-230
(44) K Criminal Court records, 2003, Crown vs. Goodridge
(45) Ross
(46) He is also known is derision as the "Bushite Paedophile"
(47) Kick, Russ. (ed.) *You are being lied to.* NY, The Disinformation Co., 2001. p. 132
(48) Delgado. Dr. Jose. *Physical Control of the Mind: Towards a Psychocivilized Society.* NY, Harper & Row, 1969
(49) De Camp, p. 109
(50) http://www.rense.com/general17/imp.htm
(51) Ib.
(52) http://www.codoh.org/revisionist/comment/tr11wire.html
(53) http://www.newswithviews.com/NOW/newworld23.htm
(54) Gov. of Sweden. *Statens Oficiella Ultradniger.* 1972:47
(55) http://www.rense.com/general17/imp.htm
(56) *Senior Scholastics,* 20 September 1973
(57) http://www.raidernewsupdate.com/opinion.htm
(58) *Denver Post,* 21 June 1981
(59) *Chicago Tribune,* 7 May 1996
(60) *TIME,* 27 April 1998
(61) http://www.raidernewsupdate.com/opinion.htm
(62) NASDAQ charts for ADSX
(63) http://www.raidernewsupdate.com/opinion.htm
(64) Ib.
(65) Kilde, Dr. Rauni Leena. *Microwave Mind Control: Modern Torture and Control Mechanisms eliminating Human Rights and Privacy.* Essay posted 25 September, 1999
(66) O'Brien and Phillips. Pp. 241-243
(67) Bamford, pp. 82-92
(68) De Camp, p. 328
(69) *Evening Standard,* 27 November 2001
(70) *Guardian,* 29 March 2003

في هذا المقال، يتبيّن أن حرب فيتنام كانت كارثة أكبر بكثير مما هو معروف؛ وهي، في الواقع، أكبر حملة عسكرية كيميائية في التاريخ، وهذا الأمر تم الكشف عنه في مؤتمر انعقد في جامعة يال. الحكومة الفيتنامية قدّرت عدد الذين أصيبوا بإعاقات بمليون شخص نتيجة الحرب الكيميائية التي شنتها حكومة الولايات المتحدة لإثراء البعض مثل شركة براون آند روت. وكالة المخابرات المركزية ساعدت وبررت استخدام أشد السموم التي عرفها العلم فتكاً. الكثير من الأمريكيين لا يعرفون ذلك، ولا يريدون أن يعرفوا، إذا كان الأمر يعني استخدام الخشونة والعنف لإخفاء الحقيقة. قوانين الأمن

القومي يمكن استخدامها عند الحاجة للتعتيم على أمور كهذه، والغالبية من سكان هذا البلد يمكنهم الاستمرار في حياة رغيدة وهانئة إذا لم يعلموا بعمليات الإبادة التي سمحوا للحكومة والجيش ووكالات الأمن بممارستها على الأمم الأخرى. حين يعبر المقترعون عن احترامهم لهذه العصبة من السفاحين، فمن الصعب جداً أن يُظهروا أي قدر من الاهتمام بهذه المسائل.



الهدوء قبل العاصفة

ربيع العام 2001 لن يُنظر إليه باعتباره فترة أحداث بارزة في التاريخ، باستثناء الأسبوعين الأخيرين منه. مرّ ذلك الربيع بهدوء نسبي، ولم يكن العالم يتوقع أن ينتهي ذلك الربيع بأية طريقة مختلفة. الهدوء كانت مقدمة لطوفان من الرعب، بالرغم من احتواء ذلك الهدوء على بعض الأحداث التي تستوجب الملاحظة، بعضها كان على شكل إشارات وبعضها الآخر على شكل حوادث تثير السخرية. استعراض ذلك الفصل من تلك السنة يوفر نوعاً من السياق لما يبدو بمثابة الأحداث التافهة التي قد تكون الخطوات الضرورية لحدوث كل ما حدث. إذا عدنا إلى يوم 11 حزيران (يونيو) من عام 2001، سنجد أنه كان هناك شعور بانتهاء الجدل في أمريكا حين تم إعدام تيم ماكفاي، وهو جندي سابق شارك في حرب الخليج وأحد المشاركين في تفجير مبنى مورّا في مدينة أوكلاهوما، والذي لاقى حتفه بواسطة الحقنة القاتلة. واجه الموت دون أن يُبدي أي ارتباك أو تأثر مؤكداً حتى النهاية أنه لم يفعل ذلك بمفرده. ماكفاي مضى بسرعة إلى العتمة والظلام فيما انطوت ذكرى التفجير من ذاكرة الرأي العام. في ذلك اليوم نفسه، اجتمع عملاء من وكالة المخابرات المركزية ومن مكتب التحقيقات الفدرالي في مدينة نيويورك لمناقشة مواضيع تتعلق بالإرهابيين المعروفين. حين سأل رجال مكتب التحقيقات الفدرالي رجال وكالة المخابرات المركزية عن خالد المحضار، كان ردهم

هو الصمت[1]. في الرابع من تموز (يوليو) طار المحضار إلى الولايات المتحدة الأمريكية على الرحلة رقم 53 على متن الخطوط الجوية العربية السعودية، وذلك بعد تمديد صلاحية تأشيرة دخوله[2].

في شهر آب (أغسطس)، لم تأخذ إدارة بوش عطلة الصيف، بل توجه الرئيس بوش وبعض مساعديه المقربين نحو الغرب إلى كراوفورد بولاية تكساس من أجل الراحة في مزرعته التي تبلغ مساحتها 5000 فدان[3]. في نيويورك، تولى جون بيكارد مهام مدير مكتب التحقيقات الفدرالي[4]. في السادس من ذلك الشهر، أُعطي بوش تقريراً يتألف من إحدى عشرة صفحة ونصف حول هجوم سيتم بواسطة طائرات[5]. تم توزيع مذكرات بهذا الشأن على ديك تشيني، أندريو كارد، غوندوليزا رايس، السيناتور ريتشارد شيلبي، السيناتور بوب غراهام، النائب بيتر غوس، والنائب نانسي بيلوسي. في اليوم الثاني والعشرين، حاولت العميلة في مكتب التحقيقات الفدرالي كولين راولي الاتصال بوحدة القانون في وكالة الأمن القومي بعد تجاهل مذكرتها حول زكريا الموسوي من قِبل السلطات العليا في مكتب التحقيقات الفدرالي. في اليوم التالي، أُرسلت إشارة عاجلة تحمل صفة الفورية من وكالة المخابرات المركزية إلى وزارة الخارجية، وفيها أن مكتب التحقيقات الفدرالي ودائرة الهجرة يطلبان وضع بعض الأفراد على قوائم مراقبة الإرهابيين؛ وفي اليوم الثامن والعشرين، وبعد سلسلة من رسائل البريد الإلكتروني بين راولي والمقر الرئيسي لمكتب التحقيقات الفدرالي، استسلمت للشعور بالخيبة والإحباط[6].

أثناء فترة الصيف، قامت دار النشر «دوبلداي» بالترويج لكتاب جيمس بامفورد الذي يحمل عنوان «جسد الأسرار»، والذي روى فيه تفاصيل مؤامرة تقوم بها وكالة الأمن القومي عبر خطف طائرة أمريكية ونشر الرعب والإرهاب في مدن أمريكية لتبرير غزو كوبا[7]، وهو مخطط كان يهدف إلى إقناع الأمريكيين بأن كوبا هي مركز الإرهاب، وأن الغزو اللاحق سيكون أمراً مبرراً جداً. حصل بامفورد على معلوماته من السجلات الحكومية، وهنا لا يمكن التشكيك بصحة ذلك المخطط، وقد حصل عليها في السنة السابقة فقط حيث كان

باستطاعته الوصول إلى تلك المعلومات، حين كان كلينتون لا يزال في مكتبه في البيت الأبيض، وقبل أن تعمل إدارة بوش على منع الوصول إلى السجلات الحكومية.

في السابع من أيلول (سبتمبر)، أعدّ الحاكم جون إليس (جب) بوش لوضع فلوريدا تحت الأحكام العسكرية[8]. بعد يومين، اغتيل أحمد شاه مسعود، قائد تحالف الشمال في أفغانستان، والمعروف بعدائه لأمريكا، ومهّد ذلك الاغتيال الطريق لصعود زعيم أكثر موالاة لأمريكا، هو حامد قرضاي.

الوكالة الفدرالية لحالات الطوارئ، لسبب ما، قررت إرسال فرقها إلى مدينة نيويورك، كما لو أن شيئاً كارثياً على وشك الحدوث، وذلك في ليلة العاشر من أيلول (سبتمبر)[9]. في ذلك اليوم، جون أونيل، المعيّن حديثاً مديراً للأمن في مركز التجارة العالمي، ذهب برفقة جيري هاور وروبرت توكر إلى نادي «شينا كلوب» في مانهاتن للاحتفال بوظيفة أونيل الجديدة[10]. في واشنطن، ظهرت مقالة في صحيفة الواشنطن بوست، أيضاً في اليوم العاشر[11]، اتهمت فيه إسرائيل بنيتها الإعداد لهجمات إرهابية واسعة النطاق وجعلها تبدو من صنع المسلمين. بعض القواعد العسكرية الأمريكية، مثل قاعدة رايت/باترسون، كانت على درجة عالية من الاستعداد[12]. بعض السياسيين الأمريكيين، مثل عمدة سان فرانسيسكو ويلي براون، تم تحذيرهم من السفر في الطائرات في الصباح التالي[13]. كانت وزارة الدفاع موضوعة أيضاً ضمن حالة الاستعداد القصوى[14]، وفي المكتب الوطني للاستطلاع في شانتلي بولاية فرجينيا كانت الخطط شبه منجزة فيما يتعلق بتمرين يتضمن اصطدام طائرة بأحد برجين يبعدان أربعة أميال من مطار دالاس الدولي في واشنطن العاصمة، وهو المطار الذي غادرته الرحلة رقم 77. في ذلك اليوم تم أيضاً تجهيز الطائرات للتوجه إلى مدرسة ابتدائية في ساراسوتا بولاية فلوريدا، حيث تم إعداد تلاميذ الصف السادس لاستقبال وزير التعليم، وبرفقته جورج دبليو بوش.

حتى الساعة الثامنة صباحاً بتوقيت الساحل الشرقي من يوم الحادي عشر، كانت أمريكا تعيش يوماً معتاداً، و لم يتساءل أحد عن سبب وجود فرق الوكالة الفدرالية لحالات الطوارئ في مدينة نيويورك، أو عن حالة الاستعداد القصوى في القواعد العسكرية، أو إعلان القوانين العسكرية في فلوريدا. لم يكن هناك أدنى ضجة أو اهتمام بالتحذيرات التي أعطيت؛ لم يتم

تجاهلها فقط، بل يستطيع المرء أن يقول أنه تم التغاضي عنها عمداً بحيث تحدث الهجمات دون عراقيل. بالنسبة للعديدين ممن قرؤوا في كتاب بامفورد حول الوقائع المتعلقة بتخطيط زعمائهم الجمهوريين لهجمات على الولايات المتحدة بغية التمكن من غزو بلد آخر وتحقيق مزيد من السلطة، يبدو من المحتمل أن تلك الخطط قد تم تعديلها واستبدالها فيما يبدو وكأنه سيطرة عن بعد. صيف العام 2001 مر بسلام تام بالنسبة لهؤلاء وللأمريكيين الأقل تشككاً.

---

(1) ABC News, 16 August 2002
(2) Congressional Intelligence Committee, 20 September 2002
(3) Haupt, Nico. *The Anthrax Timeline-Connect the Dots.* Posted on www.rense.com, June 2002
(4) Ib
(5) Ib
(6) Ib
(7) Bamford, James. *Body of Secrets.* NY, Doubleday, 2001.

نشر هذا الكتاب في نيسان (أبريل)؛ وكان بامفورد قد نشر من قبل «قصر الألغاز»، وهو الكتاب الأول على الإطلاق حول وكـالة الأمن القومي. «جسد الأسرار» نال ثناء كبيراً من النقاد، وهو عمل فذ كشف كثيراً مما تتمنى الحكومة إبقاءه مستوراً. وهو يعمل حالياً على كتاب جديد حول الأعمال الاستخباراتية المتعلقة بأحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر).

(8) Haupt
(9) http://www.halturnshow.com/FEMA.htm
(10) Haupt
(11) *Washington Post,* 10 September 2001
(12) Haupt
(13) Ib
(14) Ib

الهجمات

يشهد مطار لوغان في بوسطن ازدحاماً يومياً على مدار الأسبوع، حيث يتوجه المسافرون على الرحلات الداخلية نحو أعمالهم في مختلف أنحاء الولايات المتحدة. ينهضون باكراً كي يحجزوا مقاعدهم من خلال صالات الانتظار، والعديدون منهم يكونون قد بدؤوا العمل بالفعل، حتى قبل أن يصلوا إلى مقرات أعمالهم؛ يضعون خطط وتفاصيل العمل اليومي من خلال كمبيوتراتهم النقالة وهواتفهم الجوالة، وحين يصبحون على متون الطائرات، يستمر العمل على هذا النحو. بالنسبة لكثير من هؤلاء، تصبح المسألة كلها جزءاً متكاملاً مع برنامج حركتهم وعملهم، وبعد عدة رحلات بالطائرة من مطار لوغان، يصبح الواحد منهم خبيراً متمرساً، وتصبح الرحلة أمراً روتينياً يمكنه أن يقوم بها وهو نائم. بعد عدة رحلات ممتعة على هذا النحو، يصبح الكثير من الطيارين وطواقم الرحلات على معرفة تامة بزبائنهم، يعرفونهم بالاسم ويرى بعضهم بعضاً في مواعيد محددة لا تتغيّر. صباح 11 أيلول (سبتمبر) 2001 بدأ بالطريقة نفسها حيث بدأ الركاب المعتادون بقراءة رسائل بريدهم الإلكتروني أثناء وقوفهم في الصف واحتسائهم أكواب القهوة. قبل دقيقة واحدة من الساعة الثامنة من صباح ذلك الثلاثاء غادرت مجموعة نموذجية من المسافرين غير المنتظمين المطار على متن رحلة خطوط أمريكان آيرلاينز رقم 11، متوجهين نحو لوس أنجلوس[1].

في الثامنة والربع، تغيّر الروتين اليومي، وبالنسبة لأولئك الذين أصبحت تفاصيل ومجريات الرحلة أمراً مألوفاً جداً، لا بد وأنهم علموا على الفور أن أمراً غير معتاد قد حدث. بعد المرور فوق وورسيستر، ماساتشوستس، انحرفت طائرة البوينغ 767 بحدة نحو الشمال بدلاً من انحرافها التدريجي السلسل والمعتاد[2]. بعد خمس دقائق، لم تستجب للتعليمات التي توجب ارتفاعها إلى مسار طيرانها على ارتفاع 31 ألف قدم[3]. عند هذه اللحظة اشتبه مراقبو حركة الطيران بحدوث أمر غير طبيعي. في ذلك الوقت أيضاً انفصل عن الطائرة جهاز الرد والإجابة، وهو آلة صغيرة تبث إحداثيات موقع الطائرة[4].

في الساعة 8:46 صباحاً، اصطدمت الطائرة بالواجهة الشمالية لأحد برجي مركز التجارة العالمي (البرج الشمالي) في مانهاتن، وذلك على بعد مئات الأميال من وجهتها الأصلية وفي منطقة شديدة الحراسة لا يسمح بالطيران فوقها. ضربت البرج بين الطابقين 94 و 98[5]، وتحوّلت إلى كتلة من اللهب لحظة الاصطدام. بانطلاقها بسرعة 752 كيلومتراً في الساعة وحملها 10 آلاف غالون من الوقود، تناثرت وأحرقت كل شيء في طريقها، ودمّرت على الفور مكاتب شركة مارش آند ماكلينان[6].

وسط هذا الجحيم، قتل الكثيرون على الفور. بالنسبة للموجودين في الطابق 92 أو أسفل منه، كان لديهم بعض الوقت للعثور على مخرج والهرب من ذلك الجحيم. غاي شارك، وهو مهندس في «المكتب الأمريكي للشحن» ومهندس مدني، توصل إلى الفكرة الصحيحة: «ينبغي أن نغادر هذا الجحيم». بادر هو وجيرانه، ستيف ماكنتير ودامیان میهان وعدد من الأشخاص الآخرين، إلى تنفيذ هذه الفكرة دون تردد. عثروا على مدخل السلالم المسدود بجزء من جدار منهار وماء ينهمر من الأنابيب المتكسرة، وقد بدا لهم للحظة أن ذلك الخيار كان سيئاً، لكنه أفضل من الخيارات الأخرى التي تفحصوها. تمسكوا بذلك الخيار ونجوا من الموت[7]. 1344 شخصاً من الموجودين في الطوابق العليا، والكثيرون منهم كانوا يتناولون وجبة فطـــورهم في «نوافذ العالم»، المطعم الواقع في الطابق 107، لم يفلحوا. أحد الذين قضوا نحبهم في ذلك المطعم هو مايكل نيستور المفتش العام لسلطة الموانئ في نيويورك ونيوجرسي، بالإضافة إلى ريتشارد تيريني، وهو أحد المحققين الذين يعملون تحت إمرته[8].

حين انطلقت صافرات الإنذار عبر المبنى، تحوّل ريك ريسكولا إلى أحد مصادر النجاة، وهو المسؤول عن الأمن في شركة «دين ويتّر مورغان ستانلي»، وهي شركة استثمارات تحتل 22 طابقاً من البرج. لم يهلك موظف واحد من الذين اتبعوا إرشاداته، وقد ساهم بنفسه في إنقاذ المئات من الناس حين كان يغني أغانٍ شعبية من موطنه الأصلي في كورنوول، جنوب شرق أنجلترا، وذلك كي يبث روحاً من العزيمة والثبات والسرعة في متتبعيه عبر مسالك الهرب. بعد أن نجح في إنقاذ موظفي شركته، عاد ريسكولا لمساعدة الآخرين، وذلك كان آخر العهد به[9]. قبل أن يفارق الحياة بقليل، اتصل بزوجته ليخبرها كم تعني بالنسبة له. بسالته، بالنسبة لمن يعرفه، ليست أمراً مفاجئاً، ذلك أنه أبدى شجاعة مماثلة في فيتنام أدت إلى إنقاذ حياة عدد من زملائه الجنود.

في الوقت الذي اصطدمت فيه الطائرة الأولى بالبرج تقريباً، خرجت طائرتان أخريان عن مسارهما[10]. إذا كان خروجهما عن مسارهما المستقيم، مضافاً إليه اصطدام الطائرة الأولى بالبرج الشمالي لم يوحِ بعمل إرهابي، فإن التحام طائرة الرحلة 175 من خطوط يونايتد آيرلايتز بالبرج الجنوبي في الساعة 9:03 صباحاً[11] قد أزال كل شك. هذه الطائرة، وهي من نوع بوينغ 767، غادرت أيضاً من مطار لوغان وحلقت في الجو في الساعة 8:14 صباحاً، وكانت متوجهة في رحلة عادية نحو لوس أنجلوس[12]. في الساعة 8:37 سُئل قائد الطائرة فيكتور ج. ساراسينو والضابط الأول مايكل ر. هارّاكس من قِبل مراقبة الطيران عما إذا كانا يشاهدان طائرة خطوط أمريكان آيرلايتز الرحلة 11 أمامهما، والتي انحرفت عن مسارها في ذلك الوقت. أجابا بأنها أمامهما على ارتفاع يتراوح بين 28 و 29 ألف قدم. تلقيا حينئذ نصيحة بأن يتجها نحو اليمين قليلاً كي يبتعدا عن مجال طيرانها[13]. في الساعة 8:41 صباحاً عاد أحد الطيارين للاتصال قائلاً: «نشعر بحركة مشبوهة على رحلتنا... يبدو وكأن أحداً ما استولى على المذياع ويقول ليجلس الجميع في مقاعدهم»[14]. حوالي الساعة 8:43 صباحاً، خرجت أيضاً طائرة الرحلة 175 عن مسارها المحدد واتجهت نحو الجنوب بعد التفافها على شكل نصف دائرة نحو مدينة نيويورك[15]. بيتر هانسون، أحد الركاب، اتصل بوالديه في كونكتيكت عند الساعة 9:00 صباحاً قائلاً أن خاطفين مسلحين بسكاكين يهددون إحدى

المضيفات وقد خطفوا الطائرة[16]. ضربت الطائرة هدفها، البرج الجنوبي، بعد وقت قصير من تلك المكالمة. تهشمت على الواجهة الجنوبية ضاربة البرج بين الطابقين 78 و 84[17]. لم تكن ضربتها مركزة مثل ضربة طائرة الرحلة 11، حيث أنها ضربت قريباً من زاوية المبنى الجنوبية الشرقية مما جعل معظم وقودها يتناثر متبخراً في الجو[18].

إذا كان الإخلاء هو التصرف المناسب، نظراً لما حدث في الصباح، فذلك ليس ما حدث بالفعل، بل أن أطرافاً غير محددة الهوية أبلغت الناس بعكس ذلك عبر بلاغات رسمية الطابع تطلب من الناس البقاء في المبنى[19]. أحد المصادر يروي ما يلي تحديداً: ستانلي باريمنات، الذي لجأ إلى المدخل، طلب منه أحد الحراس العودة إلى الأعلى. عاد إلى وظيفته في «فوجي بنك» في الطابق 81، ومن هناك اتصل بأحد أصدقائه في شيكاغو قائلاً أن كل شيء على ما يرام. وأثناء حديثه بالضبط، رأى تمثال الحرية عبر النافذة، ومن خلفه طائرة تطير بسرعة؛ بدت أول الأمر كشكل رمادي، ثم على شكل شريط أحمر متجه نحوه مباشرة، ثم تهشمت في الطابق الذي يقف عليه، على بعد 130 قدماً تقريباً من الطاولة التي يجلس إليها، جاعلة المبنى يتأرجح ثم يعود إلى وضعيته. باريمنات تكوّم تحت طاولة المكتب على الفور. موظفو «يورو بروكرز» كانوا يترلون من الطابق 84، وفي اللحظة التي كانوا يفكرون فيها بالطريق الأسلم للهرب، سمعوا صراخه طالباً المساعدة. براين كلارك، ملاحظ الحريق في الطابق، ورونالد دي فرانسيسكو توجها نحوه مستخدمين المصابيح اليدوية لإنارة الطريق المليء بالركام. بوصولهما إلى جدار متهدم، حاولا فتح ثغرة عبره كي يتمكنا من سحبه وإنقاذه، في الوقت الذي بدأ الناس يتساقطون على الأرض من حولهما بسبب تنشق الدخان الكثيف. دي فرانسيسكو نفسه يذكر أن قواه بدأت تخور، لكنه تجلّد حين تذكر زوجته وأطفاله. على مسافة ثلاثة طوابق إلى الأسفل، دارت الخواطر نفسها في أذهان الجرحى والمختنقين من قلة الأوكسجين وحاولوا الصمود، وفجأة ظهر رجل غير معروف يضع على وجهه منديلاً أحمر وأمر الجميع بالتحرك أو العثور على من يقدم لهم للمساعدة، وقادهم نحو السلالم[20]. بالنسبة للكثيرين، كانت اللحظات القليلة التي قضوها تائهين بسبب الإعلان الذي سمعوه أو بسبب حراس الأمن، كانت تلك اللحظات كافية ليموتوا. موت ليندساي هاركينس كان حالة أخرى من

حالات الموت التي نجمت عن الثقة الموضوعة في غير محلها الصحيح، ذلك أنه قرر البقاء والصمود، حتى أنه اتصل بأحد أقاربه ليقول له بأن المبنيين راسخين ويمكنهما الصمود أمام قوة اصطدام طائرة بهما[21]؛ وربما كانا سيصمدان كما قال، وهذا ما سنستكشفه لاحقاً.

في الساعة 9:59 صباحاً، انهار البرج الجنوبي، وذلك بعد ساعة تقريباً من الصدمة[22]. خلال تسع ثوان انهارت ناطحة سحاب تتألف من 200 ألف طن من مواد البناء وابتلعتها الأرض، مما أزال كل شك بأن إخلاء المباني والمنطقة كان هو الأمر الصواب. حين انهار البرج، غطّت سحابة كثيفة من الغبار منطقة وول ستريت وخلّف وراءه صوتاً قد يكون الأكثر تأثيراً وبثاً للرعب في النفوس؛ صوت الصمت في منطقة مانهاتن[23]. فرق الإنقاذ سابقت الوقت وكافحت لعلمها أن فردة الحذاء الأخرى ستسقط قريباً، وهو ما حصل، بنفس طريقة سقوط البرج الأول تقريباً، حيث سقط البرج الشمالي إلى الأسفل بشكل مستقيم، وذلك عند الساعة 10:28 صباحاً[24]. مدة سقوطه زادت ثانية واحدة عن مدة سقوط البرج الجنوبي، واختفى بذلك عن النظر إلى الأبد. خلال ساعة واثنتين وأربعين دقيقة من الزمن اختفى المبنيان اللذان كانا يشكلان علامة بارزة امتدت شاهقة في سماء المدينة لأكثر من ثلاثين عاماً. وباعتبار أن ما حدث أمر لا يمكن تخيّله، أدى إلى خلق موجات من الصدمة والرعب ستتسبب لاحقاً بمزيد من الحروب والموت في مختلف أنحاء المعمورة. الطابق الأرضي رقم صفر أصبح رمزاً للخسارة والحداد واليأس والأسى. الحرائق التي اشتعلت في الطوابق السفلى تحت المجمع استمرت مشتعلة لعدة أشهر، وكأنها نذير مخيف بسعير الجحيم، ينبعث منها الديوكسين الذي ينفث دخاناً كثيفاً سمّم حياة سكان المنطقة لشهور عديدة، إن لم يكن لسنوات قادمة.

محلياً، الصدمة كانت مدمرة. في ذلك اليوم أصبحت مسألة الوصول إلى البيت هماً بالنسبة لنصف مليون من البشر، لكن الاستجابة الفورية والآمنة لوسائل النقل في المدينة خففت من وطأة ذلك الكابوس. بيل مانجر، وهو موظف في وزارة النقل ومن سكان نيويورك الأصليين، كتب التالي حول كيفية مجيئهم لتقديم المساعدة ذلك اليوم:

حين تصاعدت النيران والدخان الأسود الكثيف من الطابق 110 في البرج الشمالي من مركز التجارة العالمي، غيّرت مراكب سَحب السفن والبواخر الصغيرة مسارها متجهة إلى أقرب رصيف إلى مركز التجارة العالمي في مانهاتن. كل قارب وسفينة ومركب صغير ترك ما كان يُشغله واتجه نحو منطقة الحدث، وقد أدرك الجميع على الفور أن كارثة هائلة قد حلّت وأن الواجب يدعوهم للتصرف بسرعة.

مستجيبة استجابة فورية بعد ضرب البرج الأول عند الساعة 8:46 تقريباً، انتقلت بواخر الركاب الصغيرة من جلب الركاب إلى مانهاتن إلى إخلاء الركاب والسكان من الجزيرة.

آرثر إمبيراتور، رئيس شركة «المسالك المائية في نيويورك»، وهي أكبر شركة خاصة في أمريكا للنقل بواسطة البواخر الصغيرة، يروي أن القوارب لم تكن تلتقط الركاب من صالات الانتظار فقط، بل تقدمت إلى الأمام نحو أرصفة البحر سامحة للركاب بالقفز من فوق الحواجز إلى القوارب. أضاف أنها «كانت أشبه بمعركة دنكيرك».

الجسور والأنفاق كانت مغلقة بأمر من عمدة المدينة جولياني، ووسائل النقل الأرضية كانت متوقفة، ولجعل الاستجابة والنجدة أكثر صعوبة، معظم أنظمة الاتصال التي تعتمد على المحطات الأرضية توقفت عن العمل، مما جعل من أجهزة الراديو في القوارب والبواخر الصغيرة أدوات فائقة القيمة والأهمية[25].

بعض القوارب نقلت الجرحى إلى المستشفيات ومراكز الإسعاف في نيوجرسي، في حين قامت مراكب النقل العائدة لمقاطعة ستاتن آيلاند برحلات متلاحقة وسريعة مخفّضة مدة الرحلة من خمس وعشرين إلى سبع دقائق[26]. الحالة الطارئة وحّدت بين جميع طبقات سكان المدينة، غنيّهم وفقيرهم، المتدينون والمتهتكون، جميعهم تعاونوا لمواجهة نتائج أفعال الفاسدين. في قلب ذلك كله كانت دائرة مكافحة الحرائق في نيويورك، التي فقدت ذلك اليوم 343 رجلاً من رجالها، وهو رقم يعادل تقريباً جميع الرجال الذين خسرهم طوال مائة واثنين وثلاثين عاماً منذ تأسيسها؛ وفي بعض الحالات هلك جميع أفراد بعض مراكز الإطفاء. معاناة أولئك الرجال تعني الكثير بالنسبة للمدينة وللأفراد الذين نجوا من تلك الكارثة. بين دائرة مكافحة الحرائق والمدينة علاقة تعتبر جزءاً من روح نيويورك، ومن دون تلك العلاقة لم تكن المدينة لتصمد على الإطلاق. لا دائرة مكافحة الحرائق ولا المدينة سيعودان مرة أخرى كما كانا من قبل.

الموت على متن الريح

نيويورك لم تكن وحدها التي تعرضت للهجوم: كانت هناك طائرتان أخريان في قبضة الشيطان، وكان على متنهما الكثير من الأرواح. رحلة أميركان آيرلاينز رقم 77، وهي طائرة من نوع بوينغ 757، غادرت مطار دوليس في واشنطن عند الساعة 8:20 صباحاً، متجهة نحو لوس أنجلوس[27]. عند الساعة 8:50 تقريباً، لاحظ أحد مراقبي حركة الطيران أن شيئاً ما ليس على ما يرام، وبعد لحظات تلت ذلك لاحظ أن جهاز الرد والاستجابة قد نُزع من مكانه[28]. عند الساعة 9:02، تقريباً لحظة اصطدام طائرة الرحلة 175 بالبرج الشمالي، أبلغ أحد المراقبين شركة أمريكان آيرلاينز: «فقدنا أثره، يطير بمحاذاة الشاطئ [بلا جهاز رد واستجابة] لكننا لم نستطع – نحن لا نعرف فعلاً أين يتجه ولا نستطيع الإمساك به»[29].هناك أيضاً قصة باربارا أولسون من شبكة سي أن أن والتي اتصلت من الطائرة بزوجها، المدعي العام الأمريكي تيد أولسون، وذلك عند الساعة 9:25 صباحاً. ورد أكثر من تقرير واحد حول تلك المكالمة. من حيث الأساس، زعم زوجها أنها أخبرته عن عملية خطف[30]، ولم يرد ذكر لأي مكالمة هاتفية أخرى صادرة من تلك الرحلة. كما رُويت أيضاً عدة مزاعم حول مسار الطائرة، ونشرت صحيفة يو أس توداي رسماً يبيّن مساراً على شكل حلقة، حيث اتجهت الطائرة إلى الشمال، ثم إلى الغرب، ثم إلى الجنوب، قبل أن تتابع مسارها نحو الغرب إلى حافة ولاية فرجينيا تقريباً، ومن هناك عادت إلى الوراء نحو الشرق متجهة نحو واشنطن العاصمة[31]. عند الساعة 9:43 انقضّت على مبنى البنتاغون[32]، وقيل أنها اصطدمت أولاً بالأرض، مستهلكة الجزء الأعظم من طاقتها ووقودها مما قلل من تأثير انقضاضها على الجانب الغربي من المجمّع[33]. سُجِّل موت مائة وتسعين شخصاً في ذلك الهجوم، بما فيهم العاملين في البنتاغون، وهم الغالبية بين القتلى[34].

تحطم تلك الطائرة فوق المجمّع يتضمن مفارقة مرت دون أن يلاحظها أحد تقريباً، ذلك أن الطيار، تشارلز بورلنغيم، كان طياراً حربياً سابقاً في البحرية الأمريكية وهو الذي وضع خطة الرد الطارئ للبنتاغون في حالة تعرضه لهجوم من طائرة مدنية[35]. هل كانت مجرد صدفة، أم أن السبب هو خلفيته تلك المعروفة بالنسبة للذين خططوا للهجمات؟ ذلك الصباح، كان

طالب الطب مات روزنبرغ موجوداً داخل مبنى البنتاغون في عيادة طبية في الممر رقم 8 وكان «يأمل أن يسعفه الحظ بساعة متواصلة يتمكن خلالها من دراسة مخطط جديد لكارثة طبية طارئة مبنية على أساس احتمال تحطم طائرة فوق مبنى البنتاغون»[36].

طائرة الرعب الرابعة ذلك اليوم كانت طائرة الرحلة 93 التابعة لخطوط يونايتد آيرلاينز، وهي من نوع بوينغ 757 والتي غادرت مطار نيوآرك أنترناشيونال في نيوجرسي عند الساعة 8:42 صباحاً، وكانت وجهتها المقررة هي سان فرانسيسكو. في الأصل، كان من المقرر أن تغادر بعد الساعة 8 مباشرة؛ وهي في الواقع تحركت من أمام بوابة المغادرة عند الساعة 8:01، لكن حدث أمر ما أخرها وجعلها تنتظر على المدرج[37]. من المعتقد أنها خُطفت عند الساعة 9:10 صباحاً[38]، في الوقت الذي كان معلوماً على نطاق العالم تقريباً ما هو جارٍ من أحداث ناتجة عن خروج الطائرات عن مسارها، وذلك بعد ضرب البرجين. مراقبو حركة الطيران قالوا أنهم تلقوا إشارتي راديو في ذلك الوقت، وفي إحدى الإشارتين يقول الطيار «أخرجوا من هناك»[39]. مصدر مجهول أخبر وسائل الإعلام بورود إشارة راديو تتضمن عبارة «قنبلة على متن الطائرة» وعبارة «حافظوا على الهدوء»، لكن أحداً لم يؤكد ذلك[40]. وردت تقارير عن إجراء العديد من الركاب مكالمات هاتفية عبر الهواتف الجوالة الموجودة على متن تلك الطائرة، وهي المكالمات التي وفّرت صورة أكثر وضوحاً للخاطفين من تلك المتعلقة بما حدث في الطائرات الأخرى. الراكب تود بيمر سُمع يقول أن أحد الخاطفين يحرس سبعاً وعشرين راكباً في مؤخرة الطائرة، وأنه يحمل قنبلة[41]. بيمر المذكور هو الذي نُسب إليه تحلّيه بالشجاعة والمبادرة عبر تحريض الركاب على التحرك والسيطرة على الخاطفين. أخبار ذلك اليوم استندت إلى مكالمة هاتفية بين الراكب جيرمي غليك وزوجته حيث روى لها قصة الركاب الذين أجروا اقتراعاً حول جدوى فكرة اجتياح قمرة القيادة. زوجته، ليز، شجّعتهم على ذلك، وعند هذه النقطة اتصل غليك بحماته مرة أخرى مؤكداً لها أنباء عمليات الخطف السابقة؛ ثم أخبرها أن «الرجال أجروا اقتراعاً حول مهاجمة الإرهابيين»[42].

فيما يتعلق بما حدث على متن تلك الطائرة، يستطيع المرء أن يؤلف كتاباً يعتمد على الاحتمالات والخيال والتخمين، وفي الواقع هذا ما فعله مراسل صحيفة نيويورك تايمز جيري

لونغمان؛ لكنني لن أضيف إلى ما حدث أي تخمين أو استنباط، وأختصر ذلك بالقول أنها تحطمت فوق حقل في شانكسفيل بولاية بنسلفانيا، وأن وقت تحطمها حُدّد بين الساعة 10:03 و 10:06 صباحاً[43]. عثر على بعض حطام الطائرة على بعد أميال، وأكد شهود العيان رؤيتهم لطائرة غامضة بيضاء اللون بمحاذاة طائرة البوينغ التي تقل الركاب قبل لحظات من تحطمها، مما يقود إلى فرضية إسقاطها. إذا كان ذلك هو ما حدث بالفعل، فقد يكون السبب هو منع بيمر ورفاقه من اكتشاف حقيقة أن الطائرة كانت تُقاد عن بعد، وهي الخلاصة التي ربما توصلوا إليها لو دخلوا إلى قمرة القيادة.

عند الظهر، تغيّرت حالة الأمة. تم إلغاء رحلات الطيران وتُرك المسافرون واقفين ينتظرون في المطارات في مختلف أنحاء أمريكا؛ عُطّلت خطوط الاتصال، وفي بعض الحالات لعدة أيام، وجرت العديد من التغييرات في الأوضاع واتخذت تلك التغييرات طابعاً طويل الأمد، مما أدى إلى خسارة الناس لجزء كبير من حرياتهم وسعيهم إلى العيش بسعادة. تم الهجوم على الأسس، لكن على العكس من الهجوم على البنية المادية والذي انتهى بسرعة بعد الساعة العاشرة صباحاً، لا تزال هجماتهم مستمرة. البعض يقول أن القراصنة ربحوا المعركة.

---

(1) http://www.standdown.net/index.htm
(2) http://professor2222.tripod.com/Flight.92/Flight93.htm
(3) http://www.standdown.net/index.htm
(4) *New York Times,* 26 May 2002
(5) Ib
(6) Ib

لحظة الاصطدام تتراوح بين الساعة 8:45 و 8:46. هناك أيضاً بعض الشكوك حول موضع اصطدام الطائرة بالبرج. استندت هنا إلى صحيفة نيويورك تايمز باعتبارها المصدر المحلي. السفارة الأمريكية في تل أبيب، على سبيل المثال، قالت أن الاصطدام حدث بين الطابقين 69 و 103. مثل هذا الاختلاف في التحديد هو أمر متوقع، وهو لا يغيّب المسألة الحقيقية المتعلقة بتحديد المسؤول عن ذلك.

(7) Ib
(8) Ib
(9) *Daily Mail,* 1 March 2002
(10) http://standdown.net/index.htm
(11) *New York Times,* 26 May 2002.

الوقت المعطى للهجوم الثاني يتراوح بين 9:02 و 9:05؛ ومعظم المصادر تجعله عند الساعة 9:03، وهو التوقيت الذي سنعتمده في هذا الكتاب.

(12) http://standdown.net/index.htm
(13) *Boston Globe,* September 2001
(14) Ib.
(15) *New York Times,* 26 May 2002
(16) Icke, David. *Alice in Wonderland and the World Trade Disaster: Why the Official Story of 9/11 is a Monumental Lie.* Wildwood, Montana, Bridge of Love Publications, 2002. p. 174.
(17) *The New York Times,* 26 May 2002.

هناك مرة أخرى اختلاف في التحديد الدقيق للطوابق التي ضربتها الطائرة؛ السفارة الأمريكية في تل أبيب صرّحت بأنها ضربت الطوابق 93-87

(18) Icke, p. 174.
(19) *New York Times*, 26 May 2002
(20) Ib
(21) Pers. Comm. from Wilhelm Konigsland
(22) *New York Times*
(23) *Pers. Comm.* from Gene Philcox, NYC fireman
(24) *New York Times*, 26 May 2002
(25) Manger Bill. *Lessons Learned: Maritime Response During Crisis.* Posted at http://www.marad.dot.gov/Headlines/newsletters/w03_manger.htm
(26) Ib
(27) http://www.standdown.net/index.htm
(28) Ib
(29) Transcript of communications obtained by the *New York Times* re AA Flight 77
(30) *Washington Post*, 12 September 2001
(31) *USA Today*, as quoted by Icke, p. 175
(32) http://standdown.net/index.htm
(33) هذا ما تم الإجماع عليه؛ والكثير من المصادر مدرجة في الفصل الثامن.
(34) Icke, p. 175
(35) http://www.911pi.com/honneger.htm
(36) Ib
(37) http://standdown.net/index.htm
(38) Icke, p. 177
(39) *Boston Globe*, 23 September 2001
(40) Ib
(41) Icke, p. 178
(42) Ib, p. 178
(43) http://standdown.net/index.htm

الأنثراكس

الهجمات لم تنهِ في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر). ومنذ ذلك اليوم، تم اتباع منتهى الحيطة والحذر في جميع المسائل المتعلقة بسلامة الطيران، و لم تحدث منذ ذلك الوقت أي عملية خطف. الاقتراح الذي قدّمه كلينتون تم اعتماده، وهو يقضي باتباع مقاييس متشددة تتضمن وضع العاملين في حقل الطيران ومسئولي الأمن في حالة استنفار أمني دائم ومتشدد. لم ينفرد المتخصصون في الأمن بحمل هذه المسؤولية، بل تدرّب المدنيون أيضاً على تقنيات التغلب على المشتبه بهم، وقد وصل هذا الأمر إلى حد فتح «متجر 9/11» في هوليود بولاية فلوريدا، والمتخصص في تدريب الراغبين في إجادة تلك التقنيات[1].

أصبحت الطائرات أكثر أمناً من قبل، لكن الخطر برز مجدداً من خلال مغلف تافه أبيض اللون. ولزيادة الطين بلة، بدت تلك المغلفات في بعض الأحيان وكأنها مرسلة من طفل. مغلفـــات الموت تلك كانت تحتوي على نوع من البكتيريا العضويـــة المعروفـــة رسمياً باسم «باسيللوس أنثراسيس». أصابت تلك الجرثومة الماشية منذ عصور خلت، وكانت موضع دراسة من قبل العالم الفرنسي العظيم لويس باستور. من النادر أن تصيب البشر، وإذا أصابتهم يكون ذلك نتيجة الاحتكاك بالماشية. الجرح أو الخدش على سطح الجلد قد يشكل موضعاً مناسباً للعدوى، وهذا النوع من الإصابة يعرف باسم الأنثراكس المتكافئ، وهو الأقل

تسبباً بالوفاة حيث إلى يؤدي إلى وفاة ما نسبته 20% أو أقل من المصابين به. تنشّق الأنثراكس أكثر وأشد خطورة ويؤدي إلى وفاة 90% من المصابين[2]. الكثير من الحكومات عملت على إنتاج مادة الأنثراكس بغية استخدامها كسلاح من أسلحة التدمير البيولوجي. مثل تلك الاختبارات قد تكون السبب في هيجان حدث في الاتحاد السوفييتي عام 1979[3]، ومحاولة أتباع ديانة «آوم شيريكيو» اليابانية استخدام هذه المادة كسلاح، لكنهم وجدوا أن استخدامها ليس مسألة عملية[4].

في الثامن عشر من أيلول (سبتمبر) وقع حادث لم يحظ باهتمام كثير، وذلك حين استجابت دائرة الشرطة في ميلووكي لاتصال من رجل زعم أن لديه في قبو المترل نظاماً ومعدات لتوزيع مادة الأنثراكس[5]. بدأ هاجس الهجوم بمادة الأنثراكس؛ الدكتور ليونارد هورويتز، مؤلف كتاب «موت في الهواء»، أرسل مذكرة إلى مكتب التحقيقات الفدرالي في الأول من تشرين الأول (أكتوبر) محذراً من إمكانية وقوع هجوم بيولوجي إرهابي[6]. في اليوم نفسه، حذّر جيري هاور عبر شبكة «آي ويتنس نيوز» من الاحتمال نفسه[7]. في بداية شهر تشرين الأول (أكتوبر) عُقد اجتماع سري وغير قانوني بين مسئولين من جمعية الباحثين ومصنعي مواد الصيدلة الأمريكيين وبين أعضاء في حكومة بوش[8]، في الوقت الذي شرعت فيه شركة «باير» للأدوية بزيادة إنتاجها من اللقاحات المضادة[9]. في الرابع من ذلك الشهر، اكتشف روبرت ستيفتر البالغ من العمر ثلاثة وستين عاماً والذي يعمل في صحيفة «سينيتيال صن» أثناء وجوده في المستشفى أنه مصاب بجرثومة الأنثراكس؛ مات في اليوم التالي، وذلك في اليوم الذي عُثر فيه على المغلف القاتل، حينئذٍ، تم الربط بين ذلك الوباء وبين المغلف[10]. في وقت سابق جرت محاولات لإرجاع السبب في إصابته إلى رحلة قام بها خارج الولاية ذلك الصيف. كما أُخذ في الاعتبار اقترابه من مسكن محمد عطا، حيث ثارت بعض الشكوك والتخمينات حول علاقة الخاطفين بهجمات الأنثراكس. لم يتم أبداً العثور على رابط ملموس، وقد يكون ذلك كله من باب الاستنباط، أو أن الجهة التي تقف وراء هجمات الأنثراكس أرادت استخدام وجود محمد عطا لتضليل التحقيقات. صُمّمت الهجمات بحيث

تبدو وكأنها من فعل إرهابيين مسلمين، وكل ربط لهذه المسألة بمحمد عطا سيخدم تلك الغاية.

في الثامن من الشهر نفسه، أصبح إرنستو بلانكو، زميل ستيفنز في العمل والبالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً، هو حالة الإصابة الثانية بجرثومة الأنثراكس في الولايات المتحدة[11]. الوصفة القاتلة أُرسلت إلى السيناتور تيم داشل (ديمقراطي-داكوتا الجنوبية) والسيناتور باتريك ليهي (ديمقراطي-فرجينيا)، وذلك في التاسع من ذلك الشهر[12]، وفي الثاني عشر منه استلمت جوديث ميلر، الخبيرة في مجال الإرهاب البيولوجي، رسالة أنثراكس زائفة في مكتبها في مبنى صحيفة نيويورك تايمز الواقع في الشارع 43 في مانهاتن، مما أدى إلى إغلاق المبنى لفترة من الوقت من أجل عمليات البحث والتفتيش[13]. في اليوم التالي، أعلن بوش للرأي العام المرتعب اعتقاده أن الهجمات من فعل بن لادن[14]. وفي الخامس عشر منه، تم فتح الرسالة المرسلة إلى السيناتور تيم داشل، بالإضافة إلى الرسالة الموجهة إلى توم بروكاو من شبكة «أن بي سي» في نيويورك[15]. في السابع عشر من الشهر، تبين أن أكثر من عشرين شخصاً من موظفي الحكومة مصابون بجرثومة الأنثراكس[16]، وفي اليوم الذي تلاه بيّنت الاختبارات أن أحد مساعدي دان راثر من شبكة «سي بي أس نيوز» مصاب أيضاً بالجرثومة الخبيثة[17].

في هذه الأثناء، تبيّن بوضوح أن الهجمات تتطابق تماماً مع ما ورد في تقرير حول احتمال وقوع هجمات بمادة الأنثراكس يقوم بها الدكتور ستيفن هاتفيل. شيء واحد لم يؤخذ بالاعتبار أثناء عمليات الملاحقة والتحقيق، وهو ثقوب المغلفات الناجمة عن آلات الفرز في مراكز البريد[18]، وهذا ما يفسر السبب في إصابة العديد من عمال البريد. في التاسع عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، سوزان ريشموند، زوجة أحد عمال البريد في منطقة واشنطن، أبلغت دائرة خدمات البريد الأمريكية أن زوجها مريض وأنها تشتبه بإصابته بجرثومة الأنثراكس[19]. لم يتحرك أحد لإغلاق المركز المشتبه به حتى يوم 21، وذلك بعد أن تم تأكيد إصابة العامل المشار إليه. في هذا الوقت، بدت أعراض الإصابة على عدد آخر من الناس وخسرت دائرة خدمات البريد الأمريكية اثنين آخرين من عمالها بسبب الإصابة بالأنثراكس. في ذلك اليوم رحل توماس موريس[20]، وتبعه زميله في العمل جوزف كرسين في اليوم التالي

الثاني والعشرين من ذلك الشهر[21]. موت هذين العاملين ألقى الكرة في ملعب مجلس الشيوخ، لكن لم يتم اعتقال الدكتور هاتفيل. أطباء آخرون بدءوا بالضغط على الحكومة لاستجوابه، وبالتالي أصبحوا في مرمى النيران لأنهم لم يتماشوا مع الوضع السائد. الرأي العام بدأ يتساءل عما إذا كانت هذه الهجمات مرتبطة بالإرهاب الإسلامي، لكن البيت الأبيض أصدر تصريحاً يعترف فيه بأن الأنثراكس قد يكون صادراً عن «مختبر متطور في الولايات المتحدة»[22]. نُسب إلى مصدر استخباراتي قوله أن «إصبع الاتهام لا يشير إلى بن لادن — هذا ليس من نمط أعماله على الإطلاق»[23].

الهلع الذي سببه الأنثراكس كشف النقاب في الوقت نفسه عن شبهات وعن خدع وعمليات احتيال. مكتب التحقيقات الفدرالي استلم تقريراً من امرأة تقول أن لوحة مفاتيح كمبيوترها مغطاة بمسحوق أبيض؛ تحققوا من الأمر، فتبين لهم أنها كانت تأكل الكعك المحلّى. وحين رشّ أحد الأشخاص مسحوق البودرة الملطّفة للجلد في وزارة الخارجية، تم إخلاء مكاتب الوزارة[24]. في نيويورك، كتب أحد موظفي شركة «أ بي سي للسجاد» عبارة «الأنثراكس موجود هنا» على قطعة ورق مما أدى إلى حالة من الفزع الشديد في المكان. انتشرت هذه الخدع على نطاق واسع، وفي ولاية تينيسي حيث تقطّعت الدراسة في مدارس الولاية، أعلن الحاكم عن جائزة مقدارها 10 آلاف دولار لمن يدلي بمعلومات تؤدي إلى اعتقال أولئك العابثين[25].

الضحية الرابعة، كاثي نغوين التي تعمل في «عيادة العين والأنف والأذن والحنجرة» في نيويورك، لم تكن حالتها مماثلة لحالات إصابة عضوي مجلس الشيوخ الديمقراطيين أو العاملين في وسائل الإعلام أو البريد. وفاتها، في الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر)، إضافت مزيداً من الكآبة على جو المدينة[26]. في الحادي والعشرين من ذلك الشهر، الضحية الخامسة والأخيرة، أوتيلي لندغرن وهي امرأة في الرابعة والتسعين من العمر تعيش وحيدة في منزل منعزل في كونكتيكت، لم تكن إصابتها منسجمة أيضاً مع حالات الإصابة الأخرى. موتها قد يكون بسبب تلوث البريد أثناء نقله.

رسائل الأنثراكس الحقيقية توقف عن الورود بعد التصديق على «قانون الوطنية». الخدع استمرت لبعض الوقت، مما ساعد على استمرار حالة القلق لدى الرأي العام، وربما كان السبب الحقيقي من وراء الرسائل هو زيادة مبيعات دواء Cipro، وهو اعتقاد له ما يبرره، حيث أن الشركة المنتجة لذلك الدواء هي من مخلفات الجماعات النازية؛ وبعض الأعشاب الضارة تكون هامدة لسنوات ثم تنبت من جديد. بالطبع، كان هناك من يصر على أن هذا كله من أفعال بن لادن، وهكذا أصبحت شركة «باير» هي المنقذ، وشركة «باير» لا ترغب في أن يبدو ظهورها على المسرح مرتبطاً بتوقيت الهجمات أو بالقانون الجديد أو بمن سيستفيد من هذه المسألة. لكن الكثير من الأمريكيين بدءوا يتساءلون، وحين بدءوا بالتساؤل، ماتت مسألة الأنثراكس.

ربما كان ذلك هو الترياق للمسألة برمتها.

سلطة التحقق والمعرفة.

تلك السلطة التي هي من حقوق كل أمريكي، وهي الاختبار والواجب الذي قد ينقذ الأرواح.

من المأمول أن يتم استخدام ذلك الحق وأن أولئك الذين يتسببون بالرعب المختلق لن يُسمح لهم بمصادرة ذلك الحق أو غيره من الحقوق والحريات من الأمريكيين. عش حراً أو مت.

---

(1) *TIME,* 22 October 2001
(2) http://www.pollutionbusters.com/bioterrorism.htm
(3) http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/plague/sverdlosk.htm
(4) *Chemical & Engineering News,* 5 July 1999
(5) Haupt, Nico. *The Anthrax Timeline.*
(6) Ib.
(7) Ib.
(8) Ib.
(9) Ib.
(10) http://biblia.com/terrorism/anthrax/htm
(11) Haupt
(12) Ib.
(13) http://www.gyre.org/news/author/Judith+Miller.htm
(14) http://www.freefromterror.net
(15) Ib.
(16) Ib.
(17) Ib.

(18) Doyle, Dr. Patricia. *On the trail of the Anthrax Conspirators.* Posted on www.rense.com, 7 July 2002
(19) http://www.sunspot.net/bal-to.anthraxboxbaug26,0,5483070.story
(20) http://www.cnn.com/2001/HEALTH/conditions/11/07/911.anthrax.htm
(21) Ib.
(22) *The Mirror*, 30 October 2001
(23) Ib.
(24) *TIME,*, 22 October 2001
(25) Ib.
(26) Haupt

تصاعد الشبهات

قبل أن ينقشع دخان الهجمات، كان هناك من لم يصدق الرواية الرسمية. لكن أصوات أولئك المشككين ضاعت ضمن الصوت الجماعي المتصاعد من الجوقة المؤلفة من ملايين الناس الذين كانوا يعبرون عن الحزن والأسى والصدمة والغضب، مع اعتبار تلك الخسارة سبباً كافياً لإجراء تغيير جوهري ينبغي أن يحدث. بدأت تتصاعد أسئلة متنوعة، بغض النظر عن اعتماد الصحافة على النسخة الرسمية من الأحداث، لكن لم يتم النظر والتدقيق جيداً في عدم الترابط والانسجام في الرواية الرسمية. ضمن هذا السياق المحكم الذي سيطر على الأجواء، المدعوم والمؤيد من كثير من الأقوياء والمشاهير والذي بدا مقبولاً جداً، ضمن هذه البيئة، بدا التشكيك نوعاً من الغباء. والذين شككوا في صحة الرواية الرسمية وُصفوا بأنهم مسكونين بهاجس نظرية المؤامرة، وهم مستعدون لاتهام الحكومة بالتآمر على تنفيذ مأساة وطنية وتزييف الصور وإفساد العملية الديمقراطية؛ وهؤلاء تمت معاملتهم بازدراء واعتبروا سخفاء يحاولون العبث بمشاعر غالبية المواطنين. حتى أنه شاع بين الناس الميل لتصديق التلفيقات، بدلاً من التدقيق في الأدلة بطريقة نقدية منهجية وتسليط الضوء على بعض القياديين القذرين والمنحرفين. أُسبغ الكثير من مظاهر الاحترام على أولئك المجرمين الفاسدين إلى درجة أنهم تحولوا إلى مُثل ورموز مبجلة، أصبحوا رجالاً فوق الشبهات لا يستطيع المرء أن ينبس ببنت

شفة ضدهم. تم اعتقال عدد من الأشخاص لمجرد أنهم أبدوا مقداراً بسيطاً من المعارضة، حتى التندر والتنكيت على الفاشيستيين الأغبياء أُعتبر نوعاً سلوكاً معيباً. أما البلدان الأخرى، مثل فرنسا التي تجرأت على التدقيق والبحث في الوقائع والأدلة، أُعتبرت دولاً معادية ووضعت على لائحة الدول والأمم التي ينبغي مهاجمتها. الحقيقة الضائعة، أو المضيّعة، انبثقت كالحمم المتناثرة من بركان وأحرقت بحرارتها الشديدة جميع أولئك المغرورين السذّج الذين صدقوا التصريحات والرواية الرسمية للأحداث وتجاهلوا التحذيرات وانقادوا نحو الحرب مستسلمين لمشاعر البغض والكراهية. الكثير من المواطنين هلكوا، بعضهم قتل في الحرب وبعضهم أهلكه الجوع والحاجة. وحيث أن هذه الأمة هي من أنجح الأمم وأكثرها تقدماً وازدهاراً وعلماً، فمن الصعب أن يصدّق المرء كيف سُمح للأكاذيب أن تمر دون مساءلة. لو أن الناس دققوا وتساءلوا فسيصل بهم الأمر إلى اعتقال الخونة الذي دبروا هذه المأساة، لكن موقف الأمة ورأيها تلاعبت به الصحافة ووسائل الإعلام بمهارة فائقة فلم يتحرك أحد. وبدلاً من يتحرك الناس، سمحوا لقادتهم سرد المزيد من الأكاذيب وشن المزيد من الحروب، وإضافة المزيد من الثراء إلى الشركات الثرية. وا أسفاه، لقد احتاجت ألمانيا إلى عقود من الزمن كي تتعافى من محنتها.

الحدث الذي أشعل شرارة الكارثة كان «حريق الرايخ»، وهو الحدث الذي قذف بهتلر إلى قمة السلطة في 27 شباط (فبراير) 1933. إن مراجعة يوميات جوزيف غوبلز يبيّن أن الأمر لم يكن مجرد حادث، بل كان حادثاً مدبراً أدى إلى تقدم النازيين إلى الواجهة باعتبارهم المنقذين. كتب في يومياته: «الآن سنتحرك»[1]. جاء الإيعاز وبدأ التحرك، كما حصل بالنسبة لإدارة بوش في الولايات المتحدة الأمريكية، وكانوا مهيئين وعلى أتم الاستعداد للعب أدوارهم. هتلر سهر الليل بطوله يتحدث للصحافة كي يتأكد من أن أحداً لن يشكك في ادعائهم الجازم بأن كبش المحرقة الذي قدموه، الشاب الألماني المتعصب «مارينوس فان دير لوبه»، هو الذي أشعل الحريق في كامل المبنى. لم تكن هناك تحقيقات مستقلة، و لم تظهر أسئلة حول الممرات السرية بين الغستابو وهذا المبنى، و لم يتساءل أحد حول حضور رجال الغستابو

إلى مكان الحريق كما لو كانوا على علم به، ولم يسأل أحد أبداً عن العلاقة بين الغستابو والشاب المتهم بإشعال الحريق والذي تتبعه رجال الغستابو في برلين قبل أسبوع من الحادث.

النازيون ضيّقوا نطاق التحقيق، وكان أحد مطالب حكومة بوش أن يعمل المشرعون على تضييق، إن لم يكن إلغاء، التحقيق فيما حدث في 9/11. في تفاصيل المأساة الأخيرة، توجد أرضية كافية لإبداء الريبة والشك، نظراً لوجود الكثير من أوجه التناقض في الرواية الرسمية، وهي تناقضات تتطلب مقداراً من الإيمان الأعمى كي يستطيع المرء تصديق بعض التفسيرات التي قُدمت. إن الاشمئزاز من فكرة أن الحكومة مجرمة إلى درجة أن تدبّر مقتل الآلاف من مواطنيها هو أمر مفهوم ومقبول، لكنه موقف خاطئ تماماً في ضوء الواقع الذي يؤكد أن الحكومة الأمريكية فعلت ذلك بالضبط في بداية الستينات[2]، وكانت خططها آنذاك تتضمن خطف طائرات مدنية وجعل الأمر يبدو وكأنه من فعل عدو. كما أن ذلك لم يكن المثل الوحيد في تاريخ أمريكا أو في تاريخ العالم. وكما ذكرنا في الفصل 4، كان هناك الدليل الملفق الذي استخدمه إخوة يوسف، ثم استخدمه يوسف نفسه ضدهم لاحقاً. لو كان اخوة يوسف رجالاً شريرين فعلاً، لكان طالبوا لنفسهم بحق توجيه الضربات الاستباقية لجيرانهم، وهو فعل كانوا سيستفيدون منهم. في النهاية، روايتهم، مثل زعم هتلر باعتداء البولنديين على الجنود الألمان، تبيّن أنها مؤامرة مدبّرة.

في شهر شباط (فبراير) 1898 عمت النقمة والغضب في أمريكا بعد أن أدى تفجير البارجة الحربية «يو أس أس مارين» في كوبا إلى مقتل وجرح جنود أمريكيين؛ الهياج والغضب أعميا بصيرة قائد البارجة عن الحقيقة، وازداد الضغط والغضب بسبب التقارير الملفقة التي كانت تنشرها وسائل إعلام مجموعة «هيرست» التي هدفت إلى جعل الانفجار أساساً للحرب الأمريكية-الإسبانية[3]. في تلك الحرب، استولت الولايات المتحدة على الفيلبين التي كانت آنذاك مستعمرة إسبانية. كانت تلك حركة مفيدة من جانب أمريكا، وهي تساوي في فائدتها الاستيلاء على حقول النفط اليوم، ذلك أن تلك الجزر كانت موطن زراعة قنّب مانيلا، وهو خيوط تُستخلص من أوراق شجيرات تسمى «نسيج موسا» ولا تنبت إلا في ذلك الجزء من العالم. خيوط القنّب تلك كانت، ولا تزال، تُستخدم على نطاق واسع في صنع الحبال التي

تحتاجها السفن البحرية. لهذا السبب وغيره، مثل الموقع الاستراتيجي لمجموعة جزر الفيلبين، كان الاستيلاء على ذلك البلد موضع ترحيب وفائدة عظيمة لأمريكا التي بادرت إلى تنصيب حكومة تابعة لها في ذلك البلد. الأميركي الذي نال حصة الأسد من عملية السطو تلك لم يكن سوى وليام راندولف هيرست مالك مجموعة الصحف التي صبّت الكثير من الزيت على نار الحرب. هيرست حرص على تأكيد إدانة اللاتينيين، الذين أُتهموا زوراً بالمسئولية عن الانفجار، حيث قال في إحدى خطبه:

> بودي لو أستطيع أن أبين لك ما تفعله سيجارة صغيرة من الماريجوانا بأحد أولئك السكان المتخلفين الناطقين بالإسبانية. هذا هو السبب في تعاظم مشاكلنا؛ النسبة العظمى من مدمني المخدرات تتكون من أشخاص ناطقين بالإسبانية، ومعظمهم من ذوي الأخلاق السيئة الذين يعيشون في أوضاع وبيئة منحرفة[4].

تم انتقاء كوبا لاحقاً لتكون مسرحاً لمزيد من الحوادث الهادفة تكرار ما حدث عام 1898، والتي كانت ستؤدي، لو تم تنفيذها بنجاح، إلى إزهاق أرواح الكثير من المدنيين والعسكريين الأمريكيين. عرفت تلك الخطة باسم «عملية نورثوودز»، وكانت من تصميم الجنرال ليمان ل. ليمنتزر، الذي أصبح لاحقاً رئيس هيئة الأركان المشتركة تحت قيادة الرئيس دوايت د. إيزنهاور[5]. عندما قُدمت الخطة للرئيس المذكور، رحب بها، لكن لم يكن هناك ما يكفي من الوقت لاعتمادها قبل تنصيب الرئيس الجديد جون ف. كينيدي الذي تم في شهر كانون الثاني (يناير) 1961. أوقف ليمنتزر الخطط ثم عرضها لاحقاً على الرئيس كينيدي. تفاصيل تلك الخطط تتضمن نشر موجة من الرعب على الساحل الشرقي واستخدام طائرات تحمل إشارات كوبية لتدمير حقول السكر في الدومينيكان لزرع الشقاق والعداء بين الدول الناطقة بالإسبانية. ليمنتزر كان دقيقاً وشاملاً في خطته، حتى أنه فكر في استخدام كوبيين حقيقيين في شن الهجمات على الأمريكيين، مما سيؤدي عندئذٍ إلى توفير شهود عيان لا يمكن تكذيبهم، وإصابات حقيقية، وسيكون من الصعب التشكيك في الأمر[6]. الرأي العام، بعد أن يشاهد تفاصيل وأحداث هذه الخطة المحكمة، سيضطر إلى قبولها كحقيقة واقعة، ولن يبدي أي ريبة أو تشكك.

حتى بعد أن فقد ليمنتزر منصبه، استمرت هيئة الأركان بوضع الخطط على شكل «نصوص أولية»، على الأقل حتى العام 1963. ومن بين اقتراحاتهم التخطيط لافتعال حرب بين كوبا وأي من جيرانها المتعددين في أمريكا اللاتينية... ومن الدول التي اقترحوا أن تهاجمها أمريكا سراً جامايكا وترينيداد–توباغو. وكلاهما عضو في الكومنولث البريطاني؛ وهكذا، بمهاجمتهما سراً وإلقاء اللوم على كوبا، تستطيع الولايات المتحدة توريط إنجلترا في حرب ضد كاسترو. جيمس بامفورد[7].

ومن حسن الحظ أن كينيدي لم يكتف فقط بإلغاء هذه المؤامرة الدنيئة، بل عزل ليمنتزر من منصبه في ربيع العام 1962. ربما خاف كينيدي من افتضاح الأمر برمته، لكنه لم يعش كفاية كي يتابع ما بدأه؛ كما أنه لم يعش طويلاً ليرى حادث «خليج تونكين» في آب (أغسطس) 1964، والذي استخدمه خلفه ليندون ب. جونسون كذريعة لشن حرب فيتنام، وذلك بالرغم من شهادة قائد القوة الأمريكية الخاصة في ذلك الخليج جون ج. هيريك والذي أوضح أن التقرير كان ناتجاً عن تهور وخطأ ارتكبه عامل رادار الغواصة، بالإضافة إلى تجاهل ما قاله طيار البحرية جيمس ستوكدال: «لم يكن هناك ثمة شيء سوى الماء المظلم وقوة النيران الأمريكية»[8]. وقد كشف لاحقاً دانييل إلزبرغ، الرجل الذي حاولت إدارة نيكسون جاهدة تلطيخ سمعته، أن المسألة برمتها ليست سوى خدعة استخدمها البنتاغون الذي أخفى التفاصيل حتى جاء إلزبرغ وكشف أكاذيبهم[9]. حول هذا الاستخدام التضليلي للحوادث لإنشاء حرب ناجحة ومثمرة، كتب اللورد روجرز من ريفرسايد:

> بالنسبة للولايات المتحدة، لديها سجل ملحوظ وموثّق في افتعال الحوادث وتلفيق الأدلة لتبرير الأعمال العسكرية – ودعونا لا ننسى التلفيق المتعمد الذي قام به الرئيس جونسون فيما يتعلق بأحداث «خليج تونكين» مما أدى إلى شن حرب طاحنة على فيتنام الشمالية[10].

قد يكون استخدام اللورد روجرز لمصطلح «الولايات المتحدة» عاماً وغير دقيق، وربما أدى ذلك إلى الإيحاء بأن سكان ومواطني الولايات المتحدة، بمجموعهم، مشتركون في تدبير وتخطيط تلك الحوادث الإرهابية الملفقة من أجل إشعال الحروب التي تعود عليهم بالنفع. مجموعة قليلة ونخبة إجرامية هي التي اشتركت في تلك الأعمال، وقد نجحوا في إخفاء أعمالهم عن بقية الناس. من الصعب جداً عدم ملاحظة المفارقة الهزلية حين يتحدث جورج دبليو

بوش عن الأمم التي ترعى وتصدّر الإرهابيين، حين يكون أولئك الناس، أسوأ أنواع الإرهابيين، قد وضعوا في المكاتب الحكومية في الولايات المتحدة الأمريكية. أولئك لم يخططوا لهذا الجنون فقط، بل أخفوا السجلات بحيث لا يتمكن الرأي العام من الاطلاع على مقدار الخيانة والرعب الذي ينتظرهم، والموضوع في الأدراج بانتظار الوقت المناسب كي ينطلق.

بعد أن أصبح ذلك كله جزءاً من التاريخ، لا تزال هناك الكثير من الشبهات حول أسباب ونتائج حرب فيتنام؛ في بعض الدوائر هناك اعتقاد بأن الاستخبارات البريطانية كانت تعلم تماماً بما يحدث، لذلك رفضت بريطانيا الانضمام إلى الولايات المتحدة في تلك الحرب. في ذلك الوقت أصبح من المؤكد أن بعض الشركات الأمريكية كانت نشطة في نطاق التعجيل بإشعال الحرب العالمية الثانية[11]، وأن شركة «دوبونت»، إحدى الشركات التي سلّحت هتلر، قد استعدت للاستفادة من حرب فيتنام، وهو أمر يجعل «دواننغ ستريت» أكثر تشككاً حول كل ما يجري الإعداد له. السفير الأمريكي لدى بلاط سانت جيمس لم يكن سوى روبرت مكنمارا، وهو الشخص نفسه الذي قدّم لكينيدي مؤامرة «نورثوودز»[12]. وهو الذي طالب المملكة المتحدة «بدفع ضريبة الدم»، وهو الذي تلقى كلمة «لا» البريطانية. القرار بالابتعاد عن تلك الحرب لم يندم عليه البريطانيون قط، خـــاصة على ضـــوء استخدام أمريكا لسلاح «العميل البرتقالي»، وهو نوع من أعمال الحرب الكيميائية التي أدت إلى القضاء على كل من النازيين وصدام حسين[13].

تخطيط وتدبير الإرهاب المزيف لم يقتصر على الجانب العسكري، بل تم استخدام هذا الأسلوب في قطاع الأعمال أيضاً. المراسل الأمريكي وكاتب التحقيقات الصحفية شيرمان سكولنيك كتب الآتي: «العجوز روكفلر استخدم الأساليب العنيفة. في بعض الأحيان، ربما لجأ إلى تفجير ممتلكاته الخاصة وإلقاء اللوم على منافسيه»[14]. ما تسلكه الحكومة يسلكه رجال الأعمال أيضاً، لكن الحكومة تستطيع بسهولة الإفلات من المساءلة عما فعلته، حتى أنها تستطيع سن القوانين التي تمنع مساءلتها.

الولايات المتحدة ليست وحيدة في هذا الاتجاه، وإخفاء الوقائع والأدلة المتعلقة بعملاء الكي جي بي الذين سقطوا أثناء تفجير شقة في أحد المباني في الاتحاد السوفييتي[15]، وألقيت المسئولية

عن ذلك العمل على عاتق الثوار الشيشانيين، يُظهر أن على جميع الأمم أن تحترس من هكذا ممارسات. وقد يكون التحذير الأشد في هذا المجال هو المؤامرة الراهنة التي دبرها الجناح اليميني المتطرف في جنوب أفريقيا والذي كان يخطط لشن سلسلة من عمليات الإرهاب ضد الدولة، وهو مخطط يتضمن بعض الأعمال التي تُلقى مسئولية القيام بها على المسلمين في ذلك البلد. تم القبض على أولئك الخونة، المعروفين باسم «بويرماغ تن»، قبل قليل فقط من شروعهم في تنفيذ مؤامرة 9/11 الخاصة بهم في جنوب أفريقيا، وهي مؤامرة كانت تتضمن قتل بعض البيض لجعل الأمر مسألة عرقية وكسب التعاطف. وجزء من أهدافهم كان يرمي إلى تقوية علاقاتهم بالولايات المتحدة[16].

منذ متى كانت هذه الأمور تجري على المستوى الحكومي؟ ربما يستطيع الإمبراطور الروماني نيرون الإجابة على هذا السؤال؛ في أيامه اتجه غضب عامة الناس ونقمتهم نحو مجموعة أخرى من الناس كانوا يعتنقون ديناً يناقض مزاج ومعتقدات الإمبراطور «العظيم والنبيل». بالنسبة لتلك المجموعة، المسيحيين، كانت الاتهامات التي تلت ما حدث هي البداية فقط لكثير من أعمال الاضطهاد التي مورست ضدهم، وحكومة روما لم تكن الحكومة الوحيدة التي عزلتهم واستهدفتهم بالأذى. والمسيحيون لم ينفردوا بكونهم ضحايا الاتهامات، ذلك أن المتعصبين والمتطرفين تم استغلالهم واستخدامهم من قبل الأثرياء والمتمولين من أجل إثارة المشاكل.

أحداث 9/11 شوّهت صورة العالم الإسلامي، وأعلنت واحداً من أشد المتطرفين والأثرياء والملتزمين المسلمين، أسامة بن لادن، باعتباره العدو رقم واحد للأمة. لم يكن من الصعب تصديق هذا الإعلان، فأعماله وسيرته لا يمكن الدفاع عنها وكانت له عيوبه ونقائصه الشديدة التي تجعله موضع الاتهام، إن لم يكن مشاركاً بدرجة ما فيما حدث في 9/11، نظراً لعدد من أعمال الإرهاب المماثلة التي قام بها وخطبه المليئة بالكراهية التي تحض على الإرهاب. صورته الشخصية من صنعه الخاص، وقد جعل من نفسه كبش المحرقة المثالي. إن فكرة جعل العالم أكثر أمناً من خلال التخلص منه ليست فكرة مرفوضة، حتى أنه يوجد الكثيرون في العالم الإسلامي ممن يرحبون بتقديمه إلى العدالة ومساءلته عن جرائمه. لكن، هل كان هو العقل المدبر والمخطط للهجمات التي شُنّت على نيويورك وواشنطن؟

قبل قليل فقط من إعلان اتهام بن لادن، سُجِّل حدوث عدد من الانفجارات في البرجين، وهذا الأمر فتح خط تحقيق كامل في المسألة، وبدا وكأن ذلك التحقيق قد حُجب وتم التعتيم عليه منذ ذلك الوقت، وتضمن ذلك إخافة وتهديد عناصر دائرة مكافحة الحرائق في نيويورك الذين كانوا شهود عيان لتلك الحوادث وكانت شهاداتهم مناقضة للرواية الرسمية. إحدى الشهادات الفورية جاءت من الإطفائي لويس كاكشيولي من مركز «إنجين 47» في مانهاتن، وهو المركز الذي كان عناصره أول الداخلين إلى البرج الجنوبي. قام بعدة جولات إلى الأعلى بواسطة المصاعد وأجلى بعض الناس في اللحظات الأخيرة، ومن موقعه داخل البرج يتذكر حدوث انفجار؛ أدلى بتصريحه هذا إلى مجلة «بيبول» وجاء فيه: «اعتقدنا بوجود قنابل مزروعة في المبنى»[17]. هذه الخلاصة توصل إليها إطفائيون آخرون، مثل ألبرت بيري، رئيس وحدة السلامة من الحرائق في دائرة مكافحة الحرائق في نيويورك، والذي تحدث إلى بات داوسون من محطة أن بي سي نيوز بعد عدة دقائق من مساء يوم المأساة. وجاء في أقواله:

> أخبرني بيري أنه بعد الساعة التاسعة بقليل تلقى عشرة إنذارات، وكان هناك ما يقارب مائتي رجل في المبنى يحاولون جاهدين إنقاذ المدنيين الذين كانوا هناك. ومن حيث الأساس، تلقى كلمة هي بمثابة نصيحة ثانوية تقول أن هناك انفجاراً آخراً على وشك الحدوث. حاول إخراج رجاله بالسرعة القصوى الممكنة، لكنه قال أن انفجاراً قد حدث. وبعد ساعة من الضربة الأولى، الاصطدام الأول الذي حدث، حدث انفجار آخر في أحد البرجين... اعتقد فعلاً بوجود أجهزة مزروعة في المبنى. قد يكون أحد الأجهزة موجوداً على الطائرة. وجهاز ثان، حسب استنتاجه، قد يكون مزروعاً في المبنى... ظللنا نسمع الانفجارات هنا وسط المدينة... وهو، ألبرت بيري، قال أنه ربما فقد عدداً كبيراً من رجاله في الانفجار الثانوي[18].

وحيث أن المبنيين سقطا بشكل مستقيم نحو الأسفل، ساد شعور بأن ذلك حدث نتيجة لانفجارات محكمة ومسيطر عليها، ولم يكن هذا الشعور سائداً لدى الرأي العام، بل لدى خبراء التفجيرات أيضاً. الإنهيارين درسهما فان روميرو، وهو خبير متفجرات كان رئيساً لمركز الأبحاث في معهد نيو مكسيكو للتعدين والتكنولوجيا، وكان مديراً لمركز أبحاث واختبارات المواد النشطة في نيو مكسيكو، وهي مؤسسة تقدم التقارير حول تأثير التفجيرات في المباني، روميرو هذا قال أن الإنهيارين «كانا نموذجيين جداً» وأنه «كانت هناك بعض

أجهزة التفجير المزروعة داخل المبنيين مما أدى إلى انهيار البرجين... من الصعب جداً أن يستطيع شيء مثل الطائرة التسبب بحدث كهذا»[19].

نصائح روميرو وخبرته لم تكن موضع تقدير من قبل المعاهد ومراكز البحث فقط، بل من جانب البنتاغون، وفي الواقع لم يكن روميرو بعيداً جداً عن مجمّع البنتاغون عندما حدث الهجوم، كان يبحث مع الحكومة مسألة إجراء أبحاث ذات علاقة بهذا الموضوع. والملفت للنظر أنه حين تعمقت المناقشات حول عقود إجراء الأبحاث، تراجع روميرو عن تصريحاته السابقة، وذلك بعد عشرة أيام لاحقة تقريباً. هل كانت انطباعاته الأولى خاطئة؟ رجال الإطفاء والإنقاذ الموجودين في مسرح الأحداث والذين لم تكن لديهم عقود مربحة مع الحكومة تحتاج إلى بحث ومناقشة قبل توقيعها لم يتراجعوا عن أقوالهم. وفي حالة واحدة، على الأقل، لم يكن هذا الخيار متاحاً لأولئك الرجال، ذلك أن رجال الإطفاء أنفسهم كانوا ضحايا حرائق الانفجارات التي ارتفعت إلى الأعلى حتى الطابق 78، تقريباً إلى مستوى حدوث الاصطدام بالبرج. كلماتهم سُجـّلت، للأجيال القادمة ولغايات أمنية، على شريط «ضائع»، وهو أمر لا يبدو أن سلطة الموانئ في نيويورك ونيو جرسي ترغب في إطلاع الرأي العام عليه. قائد الكتيبة أوريو ج. بالمر ومارشال الحرائق رونالد ب. بوكا سُمعا على هذا الشريط بوضوح وهما ينظمان بصرامة عمليات الإخلاء ويحددان بوضوح جيبين فقط من النيران التي يمكنهما رؤيتها[20]. أخفي الشريط عن الرأي العام حتى الرابع من آب (أغسطس) 2002 حيث أصبح موضوعاً للجدل بين الوكالات، وصولاً إلى طلب سلطة الموانئ إصدار أمر غريب يحدّ من نطاق مناقشة محتويات الشريط. من المفترض أن يؤدي إصدار ذلك الأمر إلى حماية حقوق زكريا الموسوي، المتهم بكونه الخاطف رقم 20. آه؟ ما هي الصلة بين هذا وذاك، حتى في أكثر النظم القانونية تعقيداً، وما هو السبب في الاهتمام المفاجئ به؟

تيد غندرسون، المتقاعد من وظيفة العميل الخاص المتقدم في مكتب التحقيقات الفدرالي، يزعم أن لديه شهود عيان سمعوا سلسلة انفجارات منتظمة ومتتابعة في الطوابق العليا من البرجين قبل أن ينهارا[21]. شهود غندرسون لم يؤيدهم شهود عيان آخرون، بل ساند أقوالهم فيلم تم تصويره من طائرة مروحية، وهو الفيلم الذي التقط مشهد البرجين وهما «يقفزان» إلى

الأعلى قبل أن ينهارا إلى الأسفل[22]. إذا أصر المرء على تصديق النسخة الرسمية من الرواية، فهل كان رجال الإطفاء والشهود المدنيون والفيلم جميعاً يكذبون؟ هناك أيضاً براهين أخرى ينبغي على الأطراف النزيهة أن تأخذها بالحسبان، وهي سجلات رصد حركة الزلازل، وهي براهين محايدة، وهي تُظهر انطلاق مقدار هائل من الطاقة أدى إلى إحداث هزة أرضية بمقدار يتراوح بين 2.1 و 2.3 قبل أن يصل أي حطام متناثر إلى الأرض. تأثير الحطام، الذي استقر على الأرض بعد ثوان من ذلك، جعل مؤشرات آلة الرصد ترسم اهتزازاً أقل من ذلك بكثير. الرسوم البيانية تلك سجّلها مركز «لامونت-دوهرتي لمراقبة الأرض» في باليسادز بولاية نيويورك والتابع لجامعة كولومبيا[23]، وهو يقع على بعد واحد وعشرين ميلاً إلى الشمال من البرجين، لكن تلك البيانات لم تحظ بتغطية واهتمام أخباري ملحوظ.

سرعة سقوط البرجين تعتبر أيضاً جزءاً أساسياً من البراهين. البرج الجنوبي انهار تماماً خلال تسع ثواني، في حين أن البرج الشمالي انهار خلال عشر ثواني[24][25]. لو أن العوارض والقواعد الحديدية الواقعة عند مستوى الصدمة قد التوت وانحنت بالفعل فستتسبب فعلاً بإخلال توازن الطوابق السفلى، لكن ليس بهذه السرعة والاتجاه المستقيم. سيكون هناك مقدار من التأرجح والميلان، حيث ستنهار بعض المناطق باتجاهات مختلفة باعتبار أن مقاومة بعض الطوابق ستكون مختلفة عن الأخرى، إلا إذا تم إضعاف قواعد المبنى مما يؤدي إلى منع هكذا نوع من المقاومة. الطوابق السفلى تعتمد على قواعد وأساسات أسمك وستعيق هكذا انهيار بدرجة ما، إلا إذا بدأ الانهيار من الأسفل. أن يسير هذا الأمر بدقة تامة كالساعة، ليس مرة واحدة بل مرتين، فهو أمر غريب بالفعل؛ لقد وُصف ذلك بأنه تدمير محكم ومسيطر عليه. الإنهيارين لم يستغرقا وقتاً يذكر أطول من الوقت الذي كانت ستستغرقه العوارض الحديدية نفسها لو أنها سقطت مباشرة من حافة أحد الطوابق التي تعرضت للصدمة. معظمنا يعرف قوانين الجاذبية، ويمكن التحقق من ذلك عبر دفع وإسقاط عنصر من ارتفاع كهذا وحساب الوقت اللازم لسقوطه على الأرض. ومن الجدير بالذكر أن البعض يرى أن الوزن الهائل لهيكل المبنى جعله يسقط بهذه السرعة. الأمر ليس كذلك. هناك معدل قياسي للتسارع، والحجر الذي يزن رطلاً واحداً يسقط على الأرض بسرعة سقوط عارضة وزنها طن. سرعة انهيار كلا البرجين

كانت بمعدل تسعة طوابق في الثانية، وهذا يعادل ما يزيد عن ارتفاع مائة قدم في الثانية. ولكي يحدث ذلك على هذا النحو، ينبغي وجود مقدار ضئيل جداً من المقاومة من جانب آلاف الأطنان من الحديد والإسمنت.

بالإضافة إلى ذلك، هل ينبغي أن نصدق ما قيل عن أن الحرارة قد أذابت العوارض الحديدية؟ مرة أخرى، هناك قوانين علمية ينبغي مراعاتها. في موقع uscrusade.com على شبكة الإنترنت ظهر مقال يشرح أن المسألة لا يمكن أن تكون قد جرت على النحو المذكور، وأن هذه من الاختبارات التي ينبغي أن تكون بديهية ومعروفة. في ذلك المقال يفترض الكاتب أن 10 آلاف غالون من وقود الطيران قد تركزت على طابق واحد من المبنى، وأن الاحتراق كان عند الحد الأقصى من فعاليته. تم تشريح وبيان المعادلة خطوة خطوة لكل من له عقل ويريد أن يقرأ ويفهم، وكانت الخلاصة الواضحة تقول «بأنه من المستحيل على وقود الطائرات، بحد ذاته، أن يرفع حرارة الطابق إلى معدل يفوق الدرجة الحرارية 280 C (الدرجة 536 فهرنهايت). وحيث أن الحديد يحتاج إلى درجة حرارة مقدارها 600 C (الدرجة 1000 فهرنهايت) كي يفقد نصف قدرته على المقاومة، فمن غير المحتمل أن الحرارة قد وصلت إلى هذه الدراجة»[26].

المقال المذكور يعتمد أيضاً على دراسة بريطانية تؤكد استحالة ما قيل حول انهيار برجي مركز التجارة العالمي:

> في منتصف التسعينات، أجرت الشركة البريطانية للحديد «بريتش ستيل» ومؤسسة أبحاث المباني سلسة من ست اختبارات في كاردينغتون للتحقق من أوضاع المباني المؤلفة من عوارض وقواعد حديدية. تم إجراء تلك الأبحاث على مبنى افتراضي مؤلف من ثمانية أدوار. العوارض الحديدية الثانوية لم تتم حمايتها في ذلك الاختبار. وعلى الرغم من وصول درجة حرارة العوارض الحديدية إلى 800-900 C (1500-1700 C) في ثلاث من الاختبارات، وهي درجة حرارة تفوق بكثير الافتراض التقليدي بوصول الحرارة إلى درجة عالية مقدارها 600 C (1100 C)، إلا أنه لم يلحظ انهيار في أي من الاختبارات الست[27].

في أوساط مهندسي البناء وخبراء السلامة من الحرائق يوجد استياء ملحوظ من القبول الواسع النطاق للرواية الرسمية للأحداث[28]. لي روبرتسون، وهو المهندس الإنشائي الذي

صمم البرجين، قال «صممتهما بحيث تصطدم بهما طائرة 707. طائرة البوينغ 707 تحمل مقداراً من الوقود يعادل ما تحمله الطائرة 767» [29]. من الصعب جداً التصديق بأن وقود الطائرات قد أذاب العوارض الحديدية في هاتين القلعتين؛ وقود الطائرات يحترق بدرجات حرارية منخفضة، في حين أن الحديد يذوب عند درجة الحرارة البالغة 2800 درجة فهرنهايت (1588 C). كما أن البرج الجنوبي ضُرب عند زاوية أدت إلى انتشار الوقود في الجو وتناثره كما ينبغي له أن يفعل؛ وقد عُثر على أثاره على بعد أميال. البرجين، بعد أن استُهدفا بعملية تفجير عام 1993، أصبحا موضوعاً لطلبات متزايدة من حيث السلامة العامة، وقد زوِّدا بنظام ضخ مائي متقدم، بدلاً من النظام القديم الذي وجد غير فعّال في حادث عام 1993. ومع وجود هذا النظام الفعّال من الضخ المائي المضاد للحرائق، كانت الحرارة، واندلاع الحرائق، محدودة في هذا الهجوم. حتى لو أخذنا بالاعتبار المواد القابلة للاشتعال الموجودة في المبنى، مثل الأثاث والسجاد والملفات الورقية، فسيظل من غير الممكن إيصال الوقود إلى درجة الاشتعال التي قد تذيب الحديد. لكن الاستنتاج الأخير يجب ألا يقوم على أساس الاستنباط والتخمين، بل اعتماداً على البراهين القاطعة، وهي وفيرة وغزيرة، وبواسطتها يمكن دحض أي نظرية خاطئة يتم تقديمها.

أو يمكن القول أن البراهين التي قُدّمت ذهبت أدراج الرياح. بمعنى آخر، العوارض الحديدية التي تحمل الرواية الرسمية وكأنها ذابت مما أدى إلى انهيار منهجي لتلك الرواية.

الأدلة والبراهين، والتي تحمل أرقاماً متسلسلة خاصة تساعد المحققين على معرفة موضع كل دليل، اختفت من مسرح الجريمة في مدينة نيويورك، وبالطبع لم يسرقها الكناسون لبيعها في أحد مواقع المزادات على شبكة الإنترنت. المدينة، الولاية، والاتحاد الفدرالي للولايات المعروف بالولايات المتحدة الأمريكية، جميعها لديها قوانين صارمة ضد تدمير أو العبث بأدلة الجريمة. إذاً، من الذي سيجرؤ على الاستهزاء بقيمة الأدلة، خاصة في مسرح جريمة هائلة كهذه؟ هل هناك من يحرص على طمس أدلة هذه الجريمة؟

نعم، ومرة أخرى، الذي فعل ذلك ليس وحشاً معادياً لأمريكا مسكون بنظرية المؤامرة، بل هم رسميون من دائرة مكافحة الحرائق في نيويورك ممن فقدوا الكثير من عناصرهم في خضم

تلك الجريمة، وقد كتب فرانسيس ل. برانيغان وغلين ب. كوربيت والمدير المسئول (متقاعد) فنسنت دان مقالة مطالبين بتحقيق مناسب، وهي مقالة نشرت في مجالة «فاير إنجينيرينغ ماغازين»، وجاء فيها «كنا تقريباً نعامل الحديد المرفوع من الموقع كما نتعامل مع القمامة، وليس كأدلة حاسمة في موقع محترق»[30]. وفي مجلة أخرى مشابهة، «فاير فايتنغ ماغازين»، تساءل المحرر بيل مانينغ حول السبب في إفساد الأدلة، واستشهد بالسابقة القانونية الحديثة وبالتحقيقات الأمينة التي جرت سابقاً في مدينته. جاء في مقالته «هل رموا الأبواب المغلقة التي رفعوها من موقع حريق «تريانغل شيرتويست»؟ هل رموا وأضاعوا قارورة الغاز التي تسببت بحريق «هابي لاند سوشيال كلوب»؟ هذا ما فعلوه في مركز التجارة العالمي. إفساد وإزالة الأدلة يجب أن يتوقف على الفور»[31].

الشركة التي تعهدت إزالة الحطام في مدينة نيويورك، شركة «كنترولليد ديموليشن»، هي نفس الشركة التي قامت بإزالة الحطام الذي نجم عن تفجير مبنى مورّا في أوكلاهوما عام 1995؛ وهناك ظهرت أيضاً العديد من التساؤلات المعترضة في وجه رواية الحكومة، حيث شهد جميع الخبراء ضد أن يكون الخط الذي ظهر حول المبنى ناتجاً عن التفجير الذي قام به تيم ماكفاي الذي، رغم إدانته بذلك العمل، بدا وكأنه لم يكن وحده من قام بذلك العمل. عملية التنظيف تلك استدعت التساؤل، ذلك أن عملية إزالة الأدلة هدفت إلى تحقيق الغاية نفسها التي كانت خلف عملية التنظيف التي جرت في موقع البرجين في نيويورك، وهي عملية تركت خلفها العديد من الأسئلة التي لم تجد أجوبة لها ولم تترك تلك العملية للخبراء المؤهلين فرصة التدقيق في الأدلة المهمة. تلك الحوادث وعملية إطلاق النار التي حدثت في واكو أشعلت موجة من الاحتجاجات ضد الرواية الرسمية للأحداث والوقائع، وبعد حادث واكو مباشرة، طلب السيناتور تشارلز شومر (ديمقراطي-نيويورك) إصدار قانون يعاقب على أشكال الحديث الذي يكذب ويعارض الرواية الرسمية للأحداث[32]، وطلب أن يكون ذلك بمثابة الجريمة الفدرالية يعاقب عليها بالحبس لمدة خمس سنوات. يحدث هذا، في بلد يشن حرباً من أجل تثبيت حق مواطنيه في مساءلة الحكومة؟ يحدث هذا، في بلد يمارس فيه الناس حقهم ذاك عبر شتم خالقهم وكتابة المواد الجنسية الإباحية وتأليف النكات حول الأطفال الذين

يموتون جوعاً في أثيوبيا أو تمجيد فضائل الأسلحة الآلية؟ ومن حسن الحظ أن هذا القانون، الذي اقترحه «ديمقراطي»، لم يُصادق عليه في هذا النظام الديمقراطي في ذلك الوقت. هل كان سيتم عندئذٍ اعتقال أشخاص فريدريك دبليو ماورر، البروفيسور في دائرة هندسة الحماية من الحرائق في جامعة ميريلاند، وإرساله إلى معتقل «غولاغ» حين صرح لصحيفة نيويورك تايمز في كانون الأول (ديسمبر) 2001 بأنه وجد أن «السرعة التي اتُبعت في إزالة والتخلص من الأدلة المهمة جداً «تدعو للعجب»[33]. حين أجرت صحيفة نيويورك تايمز مقابلات مع المحققين، لم تجد لديهم سوى الشكوى من أن التحقيقات «تصطدم بالقيود البيروقراطية»، التي تحول بينهم وبين تفحّص اتصالات طلب النجدة ومقابلة الشهود أو التحقق من الموقع. أحد المحققين كشف أنهم تعرضوا للتهديد والمنع من التحدث إلى الصحافة، مشيراً إلى أن الوكالة الفدرالية لحالات الطوارئ «تتحكم بكل شيء»، وقال أن «هذا تقريباً هو فريق المهندسين المثالي في البلد الذي يعمل على هذه القضية، وأيدينا مقيدة»[34].

لقد كان ثمناً زهيداً بالفعل ما دفعناه لتوحيد البلد. الملازم الأول جوزيف روشيفورت، ضابط في استخبارات البحرية في محطة هاواي أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان يعلّق على حادث بيرل هاربور[35].

تلاشي الأدلة

لو لم يتم عرض العوارض والدعامات الحديدية على الجمهور بعد كل الدمار الذي حدث، مفترضين أنها ذابت من شدة الحرارة، فهناك شاهد آخر استطاع أن يطل برأسه من بين الأنقاض. بعد خمسة أيام من الهجمات، أعلن المدير المساعد لمكتب التحقيقات الفدرالي باري ماون العثور على جواز سفر سطام السقامي، وهو أحد الخاطفين المزعومين، وقد صُنّف الجواز باعتباره من ضمن مواد الأدلة. عُثر على جواز السفر ضمن الركام في شارع «فيسي» الممتد على الجانب الشمالي لمركز التجارة العالمي (الشارع الذي يستطيع المرء أن يصعد منه، عبر مجموعة من السلالم، كي يصل إلى المستوى الأرضي من مركز التجارة العالمي)، وينبغي أن يكون ذلك الجواز قد سلك مساراً عجيباً كي يهرب من جيب حامله، ثم يخرج من الطائرة، ثم يخرج من المبنى، ثم يحط سليماً تقريباً على الرصيف كي يأتي المحققون ويعثروا

عليه. ومن حيث كونه دليلاً جرمياً، ليس لهذه الوثيقة أي قيمة حاسمة، وهو لا يثبت ولا ينفي أن حامله اشترك في العملية أو تربطه بالخاطفين أي صلة. حتى أنه قد لا يؤكد وجود صاحبه على متن الطائرة، إذ ربما يكون شخص ما موجود على متن الطائرة قد استخدمه كوثيقة مزيفة أو مسروقة. جواز السفر المذكور يصلُح فقط كمادة إخبارية تساعد استمرار إثارة مشاعر الرأي العام، مع التشديد والجزم بأن هذا العمل من أفعال إرهابيين من الشرق الأوسط. إذا كان هذا الدليل قد استطاع أن يصمد وينجو، وهو عبارة عن مجموعة أوراق بحجم الجيب مغلّفة بغلاف بلاستيكي، فماذا بشأن الأجهزة الأكثر حماية، الصناديق السود وأجهزة التسجيل الصوتي في غرف قيادة الطائرات، وهي المصنوعة خصيصاً كي تقاوم الصدمات والنار والانفجارات وحتى الغرق تحت الماء؟

مثلها مثل العوارض الحديدية، لم يظهر لها أثر أيضاً، وهكذا غابت عن أذهان ملايين الناس الذين لهم الحق في أن يعرفوا وأن يحصلوا على الحماية من الحيل والخدع الملتوية. أجهزة التسجيل الصوتي في قمرة قيادة الطائرة تم انتشالها من أعماق المحيط ووُجدت صالحة بعد بقائها تحت الماء لمدة تزيد عن شهر، كما حصل في قضية الرحلة 800 التابعة لخطوط مصر للطيران، كما تم استعادة تلك الأجهزة من مكوك الفضاء كولومبيا بعد سقوطه على الأرض في شباط (فبراير) 2003. ولا مفاجأة في ذلك باعتبار أن تلك الأجهزة مصممة لتقاوم درجة حرارة تصل إلى 2000 درجة فهرنهايت (1093 C)[36]، وقوة تصادم مقدارها 3400 بمقياس السرعة الأرضية. لكن، ألا ينطبق ذلك على الطائرتين اللتان اصطدمتا ببرجي مركز التجارة العالمي؟ اختفاء تلك الأجهزة ينبغي أن يُبحث على ضوء الوقائع؛ لو عثرنا عليها فستصبح بين أيدينا أدلة ملموسة، وليس صوراً عاطفية ونظريات حول حقيقة ما نفترض أنه حدث. أمر واحد يمكن لتلك الأجهزة أن تؤكده أو تنفيه، وهو الاشتباه بأن الطائرات كانت تُقاد بواسطة السيطرة عن بعد، وكنا سنعلم كيف استطاعت مجموعة من المتهورين التي لا يستطيع أفرادها قيادة طائرة شراعية صغيرة أن يناوروا بمهارة عالية بطائرات الجامبو وهم تحت الضغط العصبي والنفسي. العثور على تلك المعدات كان سيشرح مسألة بالغة الأهمية وهي كيف نجح الخاطفون في منع الطيار من إرسال شيفرة الخطف[37]؛ على متن طائرة الرحلة 11 التابعة

لخطوط أميركان آيرلايتز، على سبيل المثال، اتصلت المسافرة مادلين آمي سويني بمدير خدمات الطيران مايكل وودوارد ووصفت له الاضطرابات الجارية وذلك حتى قبل أن يصل الخاطفون إلى غرفة القيادة[38]. بالتأكيد، لو تبيّن وجود مشكلة جدية في تلك اللحظة، فسيقوم الطيارون بالإبلاغ عنها، لو كانوا يستطيعون ذلك. لم تنعدم الاتصالات من الطيارين فقط، بل أن الشيفرة الرباعية الأرقام، والتي يمكن بمنتهى السهولة إدخالها وهي من المهارات الروتينية التي يتدرب عليها ويجيدها جميع الطيارين، لم يتم إدخالها في أي من الطائرات المخطوفة[39]. المحامي في مجال النقل الجوي هوارد دملاج، وهو نفسه طيار، صرّح لصحيفة بوسطن غلوب في شهر أيلول (سبتمبر) 2001 قائلاً: «يمكن الاعتقاد بأن واحداً من تلك الأطقم قد فعل ذلك أربع مرات في صبيحة واحدة[40].

الكولونيل دون دي غراند بري، المتقاعد من الجيش الأمريكي، لم يعبر عن شكوكه الخاصة فقط، بل شكوك غيره من المحترفين، وأحدهم ضابط سابق في سلاح الجو في حرب فيتنام، حيث نقل عنه قوله «كان يقود تلك الطائرات إما طيار حربي محترف يجلس على المقعد الأيسر، أو أنها كانت تقاد بالسيطرة عن بعد»[41]. الكولونيل يستشهد بقول طيار آخر جاء في أقواله: «من الأفضل أن نفكر فيما إذا تم استخدام أسلحة تعمل بالنبض الإلكترو-مغناطيسي أو بترددات الراديو وتنطلق من منصة مشتركة ومركزية تحوّم فوق الساحل الشرقي محمولة جواً على متن طائرة تسمى نظام التحذير والسيطرة الجوية المحمول»[42].

في تقريره، ذكر دي غراند بري أن الصينيين والروس والإسرائيليين قادرون تقنياً على تنفيذ هكذا عمل، وقال أن هناك ثلاث وثلاثين طائرة من هذا النوع في الولايات المتحدة، ثمان وعشرون منها موجودة في أوكلاهوما[43]. مصدر آخر ذُكر كخبير ضمن هذا التقرير هو الكابتن كنت هيل (متقاعد من سلاح الجو الأمريكي)، والذي طرح أيضاً أسئلة في هذا السياق مؤكداً «أن أي من الطائرات لم تُنذر السيطرة الأرضية بأنها خُطفت»[44]. الكابتن هيل أشار إلى تفصيل من السهل نسيانه، وأشار إلى حقيقة أن أجهزة الرد والاستجابة في تلك الطائرات قد تم تعطيلها على التوالي تقريباً. تعطيل تلك الأجهزة يجعل الطائرات تختفي عن شاشة الرادار تلقائياً، كما يؤدي أيضاً استحالة إرسال شيفرة الخطف الرباعية الأرقام. عند

حدوث أول أمر غير معتاد، من المفترض، كأمر روتيني، أن يحدث إنذار، واختفاء الطائرة عن شاشة الرادار يعتبر تطوراً جدياً، خاصة حول مناطق مزدحمة بالسكان والمراكز الحكومية والمجمّعات العسكرية. وحقيقة كون تلك الأجهزة قد عُطّلت قبل الدخول الفعلي للخاطفين إلى غرفة القيادة يثير سؤالاً جوهرياً، فهل يفترض بنا أن نقبل بالإجابات والتفسيرات البلهاء؟ هناك ما هو أكثر بكثير مما ورد في التقارير الصحفية، وللرأي العام كل الحق في معرفة السبب.

الطيار مايكل غويلاوم يشرح ما يفترض أن يحدث عند توقف أحد تلك الأجهزة عن العمل «يقوم فريق المساندة في مركز التحكم بتنبيهه (الطيار) بأنه لم يعد يملك شيفرة جهاز الرد والاستجابة وتحديد الارتفاع... وهذا يضعه في مواجه قدر كبير من المشاكل، وقد واجهتني منذ وقت قريب مشاكل من هذا النوع. أتلقى عادة التعليمات بالبقاء تحت ارتفاع 3500 قدم والعودة إلى المطار»[45]. غويلاوم يؤكد أنه عند توقف جهاز الرد والاستجابة عن العمل، تصبح الملاحة بالطائرة مجازفة. إذاً، في 11 أيلول (سبتمبر) من عام 2001، هل كان هناك أربع مجازفات ملاحية كبيرة و لم يكن الرأي العام موضع اهتمام؟ لَم لم يتخذ أحد الاحتياطات المعتادة للمحافظة على سلامة الأجواء فوق أمريكا؟ تم خرق البروتوكول مرة، مرتين، ثلاث، ثم مرة رابعة على التوالي لكي يتم الأمر كما هو مخطط له، وهي إشارة إلى كونه عمل داخلي.

في شهر كانون الثاني (يناير) 2002، نُقل عن الوزير الألماني فون بيولاو إشارته إلى احتمال أن يكون الخطف بواسطة التحكم والسيطرة عن بعد هو السبب الحقيقي في أحداث 9/11. الوزير المذكور قال: «طوّر الأمريكيون أسلوباً عام 1970 يستطيعون بواسطته إنقاذ طائرة مخطوفة من خلال الدخول إلى نظام الطيران الكمبيوتري»[46]. جو فيالس، وهو مهندس طيران بريطاني، تحدث أيضاً عن نظام مماثل تقريباً يمكنه أن،

«... يتيح لمتخصصي التحكم الأرضي القدرة على الاستماع إلى المحادثات الجارية في غرفة القيادة في الطائرة المستهدفة، ثم السيطرة التامة على نظام القيادة والطيران الآلي، بمعنى السيطرة عن بعد... يمكن استعادة السيطرة على الطائرة المخطوفة والهبوط بها آلياً

في المطار المطلوب، بصعوبة لا تزيد عن صعوبة التحكم بنموذج طائرة مصغرة بواسطة موجات الراديو».

ثم يضيف فيالس:

«باعتبار أن موجة جهاز الرد والاستجابة قد تمت السيطرة عليها من قبل «التشغيل البيتي» (تسمية فيالس الخاصة لهذا النظام، وليست التسمية الرسمية)، فإن إرسال الشيفرة الخاصة بإعلان خطف الطائرة أصبح مستحيلاً. هذا هو الدليل الواضح الأول بأن الطائرة قد خُطفت إليكترونياً من الأرض، وليس من قِبل مجموعة غير متجانسة من العرب الذين يحملون سكاكين الجيب»[47].

ورداً على التساؤل حول عدم وجود أي بيانات في أجهزة التسجيل الصوتي في غرفة القيادة، التي تُعرف أيضاً باسم «الصناديق السوداء»، يقول فيالس:

... بعد السيطرة على الطائرة، يتم تجاوز أجهزة التسجيل ويتوقف تسجيل الصوت على الشريط المستمر البالغة مدته 30 دقيقة. إذا استمر الشريط نشطاً لمدة تزيد عن ثلاثين دقيقة، لن تكون هناك بيانات صوتية على الشريط. في هذا الوقت، استطاع محققو الحوادث العثور على أجهزة التسجيل الصوتي من طائرتي البنتاغون وبترسبرغ، وقد أعلن على الملأ أن أشرطة التسجيل في الحادثين فارغة تماماً[48].

في شهر آذار (مارس) 2002، صدر كتاب للمؤلف الفرنسي تيري ماسن[49]، وقد زعم المؤلف أن أي طائرة لم تصطدم بمبنى البنتاغون. بالنسبة للكثيرين، يبدو ذلك نوعاً من الاختلاق وأقرب إلى الخيال الفرنسي منه إلى الحقيقة. ومع أن مزاعمه قد تم تجاهلها باعتبارها تهريجاً، إلا أن ما أوردته الصحافة الأمريكية حول هذه المسألة برمتها فيه بعض الطرافة أيضاً. السيد ماسن ظل يدافع عن معظم، أو كل، مزاعمه وفقدان الأدلة الواضحة أو أشرطة التصوير المتعلقة بحدث هائل كهذا يبدو أمراً غريباً. لماذا يوجد القليل جداً من الحطام؟

موقع geocities على شبكة الإنترنت نشر مقالة مصورة في شهر أيلول (سبتمبر) 2002 يتضمن تبياناً مصوراً للحائط المتضرر في مبنى البنتاغون، وأمام ذلك الجدار مباشرة، تظهر بقعة مرج أخضر سليمة تماماً لم يمس عشبها النضر أي سوء. التنافر الشديد بين الجدار المتضرر وبقعة العشب الخضراء لا يمكن إغفاله، مما يدعو للشك والريبة الشديدة حول ما أوردته التقارير عن الطائرة التي تدحرجت فوق ذلك العشب، وهو يفسر، بالتالي، الحد الأدنى

من الأضرار التي أصابت مبنى البنتاغون[50]. العديد من الجهات المعروفة الواردة أدناه شرحت ذلك الأمر على النحو التالي:

«بعض شهود العيان يعتقد أن الطائرة ضربت أولاً الأرض على مستوى الدور السفلي لمبنى البنتاغون، ثم تدحرجت نحو المبنى». – شبكة سي بي أس[51]

«كما وصف شهود العيان وأوضحت الصور، انخفضت الطائرة المخطوفة انخفاضاً شديداً عند وصولها إلى البنتاغون مما جعلها في الواقع تصطدم بالأرض أولاً، وبالتالي أفرغت معظم وقودها الذي كان سيتسبب في بأضرار أشد في المبنى». – موقع Snops.com[52]

«لكنني أعتقد أن الرحمة هنا هي أن الطائرة اصطدمت قبل أن تضرب المبنى، ضربت الأرض، وربما ذهب مقدار كبير من طاقتها. هذا ما يبدو أنه حصل». – سي أن أن[53]

«مراسل شبكة أن بي سي جيم مكلاسزوسكي يشرح أن تتابع الصور الفوتوغرافية الخمس التي التقطتها كاميرا المراقبة الأمنية في وزارة الدفاع، تبيّن طائرة البوينغ 757 وهي تصطدم بالأرض قبل برهة من اندفاعها نحو المبنى وانفجارها متحولة إلى كتلة مشتعلة من اللهب». – أم سي أن بي سي[54]

«ثم اصطدمت حافة جناحه بالأرض. يوجد مهبط للطائرات المروحية أمام الجهة الجانبية لمبنى البنتاغون. الجناح لامس تلك البقعة، ثم تزحلقت الطائرة نحو المبنى». – التايمز[55]

«حسب أحد الشهود، «ما يبدو وكأنه طائرة 757» اندفع نحو الجانب الجنوبي من مبنى البنتاغون، وربما تزحلق فوق مهبط للطائرات المروحية قبل أن يضرب المبنى». – موقع Stars and Strips[56]

من الواضح وجود مشكلة هنا، وأي مراهق يمكنه رؤية المشكلة هنا، إلا إذا كانت عيناه محشوتان بشرائح الحرية المقلية وكانت لديه الرغبة في تصديق أشياء سخيفة. قد لا يكون هذا هو عدم الترابط الوحيد، وعلى الرغم من عدم تأكدي من القدرة على الموافقة على جميع أفكار السيد ماسن، إلا أنني أرى بوضوح وجود أمر ملتبس. على سبيل المثال، هل انطوى الجناحان إلى الأعلى وانزلقت الطائرة بسهولة إلى المبنى؟ ثم، بعد كل ذلك التخطيط الدقيق والطيران المحترف، لماذا اختار الخاطفون أن يضربوا جانب المبنى الذي يحتوى على العدد الأقل من الضباط، وهل كانوا ناقمين فقط على العسكريين الأمريكيين واختاروهم بدلاً من الهدف الأكبر المتمثل برمسفيلد وضباط الرتب العليا؟

لا يوجد رد

في الوقت الذي ضربت فيه طائرة البوينغ 757 مبنى البنتاغون، هناك أدلة واضحة على وجود مشاكل في الجو منذ ساعة من الوقت تقريباً. حتى بعد أن ضربت الطائرة المزعومة المبنى، ألم يفكر رمسفيلد أو أي من أبطال العمليات بتأمين الأجواء الصديقة؟ الأمر محيّر وغامض نظراً لحدوث ذلك كله فوق مناطق حساسة ومحمية جيداً. كم هو العدد المطلوب من طائرات الجامبو النفاثة الخارجة عن مسارها كي يتم إضاءة مصباح تحذير؟ هناك الكثير جداً من القواعد العسكرية الموجودة هنا وهناك على الساحل الشرقي من بوسطن إلى واشنطن، ومن قاعدة أندروز العسكرية الجوية، التي تبعد حوالي عشرة أميال إلى الجنوب الشرقي من مبنى البنتاغون، يستطيع راكب الدراجة الهوائية الوصول إلى البنتاغون في وقت أقل من الوقت الذي احتاجته خمسة فرق عسكرية أمريكية كي ترسل طائرة إلى الجو فوق مسرح الأحداث. في قاعدة أندروز، يفاخرون بجهوزيتهم واستعدادهم، كما هو وارد في موقع على شبكة الوب:

> الرجال والنساء الموجودين في قاعدة الحرس الجوي الوطني في مقاطعة كولومبيا، منذ تأسيسها، كانوا وسيستمرون في كونهم جزءاً حيوياً من المجتمع ومن القوة الكلية. القاعدة مستعدة دوماً للاستجابة لحاجات مقاطعة كولومبيا – وحاجات الوطن – كلما برزت تلك الحاجة[57].

كانوا يسمون أنفسهم «حراس الكابيتول»، ومع امتلاكهم لسرب من طائرات أف 16 من طراز فايتنغ فالكونز (الصقور المقاتلة)، لم يكونوا بالتأكيد مجموعة من الهواة. إذاً، لماذا لم تستخدم تلك الصقور أجنحتها عند الحاجة؟ شكسبير قال في مسرحية «ماكبث» دع العالم يرى مشهد طير كاسر لا فائدة منه:

> هاجمت بومة تقتات على الفئران
> صقراً وهو منجّم في قمة تحليقه، وقَتَلته.
>
> – ماكبث، الفصل الثاني، المشهد الرابع

استُخدم هذا الوصف في الشعر القديم للتعبير عن الحس بوجود أمر بالغ الفظاعة والسوء في الوطن، وانتصار البومة ينقل لنا الإحساس بحدوث أمر مشؤوم وغير متوقع. أن تستطيع البومة

احتلال المسرح كمنتصرة على الصقر الذي يحظى بتقدير فائق، وهو أكثر المخلوقات سرعة ورشاقة، فذلك أمر يستحق الاهتمام، لكن كيف عجز سرب الساحل الشرقي كاملاً عن الصعود إلى الجو فذلك مأساة كبيرة من الأخطاء. من المؤكد أن ذلك الكاتب المسرحي لن يستطيع تخيّل سرباً بالغ الرشاقة مرتبكاً تماماً والوطن يتعرض لمحنة. هذا المشهد يتطلب بعض الشرح والتفسير. حين سُئل عن انعدام التصرف المناسب في ذلك اليوم، قدّم لنا نائب الرئيس ديك تشيني نوعاً من الإجابة غير المباشرة، قائلاً أن الرئيس لم يرغب في إسقاط الركاب المدنيين. هذا تصرف نبيل بحد ذاته، لكنه فقط ليس إجابة على السؤال المطروح. سئل من قبل أحد المراسلين عن عدم وجود اعتراض جوي للطائرات المخطوفة، فراوغ تشيني بالحديث حول الإسقاط. كما أن إجابات من هذا النوع توحي وكأن التصرف في تلك الأحوال كان يحتاج إلى تحريض من الرئيس[58]. كلا الانطباعين خاطئ. إجراءات الاعتراض الجوي قائمة ولها قواعد وأسس ثابتة، وهناك أمثلة مسجلة عنها، مثل قضية الطيار باين ستيوارت في شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1999 حين تجاوز ذلك الطيار المسار الروتيني من فلوريدا إلى تكساس، وانتهى الأمر إلى اعتراضه فوقه ميدويست. بين ذلك الحادث وأحداث 11//9 جرت أكثر من سبع وستين عملية اعتراض في الأجواء الأمريكية[59]. وفي قضية أحدث استطاعت الطائرة المقاتلة اعتراض طائرة كوبية وأجبرتها على الهبوط في مطار كي ويست إنترناشيونال خلال خمس عشرة دقيقة من ظهور تلك الطائرة، وهي من نوع دوغلاس دي سي 3، على شاشات الرادار الأمريكي حيث علِم العاملون في مراكز المراقبة والتحكم بوجود مشلكة. حدث ذلك فوق الماء، وأرسلت طائرات الاعتراض من قاعدة هوملاند الجوية[60]، أما الآن ومع وجود العديد من القواعد العسكرية المهمة المنتشرة حول مناطق مأهولة بالسكان، فلم لم تستطع تلك القواعد الاستجابة في الوقت المناسب؟

يبدو أنه كانت هناك بعض الأسباب والمعاذير الكونية التي لن نجرؤ على التحقيق والتدقيق فيها، وربما كان المقصود من بعض أنماط الاعتذار مثل «رعب، صدمة، لقد أخفقنا» هو الظهور بمظهر البراعة. الطياران «دوف» و«ناستي» من القوات الجوية الأمريكية أعطيا الأمة مقداراً عظيماً من الفعالية من خلال تعليقاتهم ذلك اليوم، وربما، إذا سألناهما بمنتهى اللطف

والتهذيب، فقد نحصل على إجابة حول السبب في أن الطائرات التي تمكنت من الصعود إلى الأجواء طارت بسرعة لا تتجاوز 14 إلى 28%[61] من سرعتها القصوى في تلك اللحظات الحرجة. مارك إلسيس، بعد تحليله لتصريحات قيادة الدفاع الجوي في أمريكا الشمالية، أجرى تحليلاً تفصيلياً للأعذار المقدمة، وقد قدّم في الواقع سرداً للهجمات، دقيقة بدقيقة، وهذا ما توصل إليه:

هناك مقاتلات وطيارون مستنفرون على مدار الساعة.

كانت هناك ثمان وعشرون قاعدة من قواعد سلاح الجو الأمريكي ضمن نطاق الطائرات المخطوفة.

متحدث من قاعدة «أوتيس» الجوية صرح أن الطائرات المخطوفة كانت تستطيع الوصول إلى مركز التجارة العالمي خلال 10 إلى 12 دقيقة. وحيث أنه كان من المعلوم أن طائرة الرحلة 11 التابعة لخطوط أمريكان آيرلاينز قد خرجت عن مسارها في الساعة 8:15 صباحاً وقد علم مراقبو حركة الطيران أنها قد خُطفت، لذلك، كانت الفرصة متوفرة لاعتراضها. أكثر من هذا، حيث أن هذه الطائرة واثنتان من الطائرات المخطوفة كانت تطير فوق محطة «إنديان بوينت» للطاقة النووية، فمن المفترض أن يصدر رد فوري وسريع.

عند الساعة 8:40 صباحاً، ارتدى طياران من قاعدة «أوتيس» الجوية في ماساتشوستس لباسهما القتالي حين أُبلغا بوجود عملية خطف. في الساعة 8:42 صباحاً لوحظ أن طائرة الرحلة 175 التابعة لخطوط يونايتد آيرلاينز قد خرجت عن مسارها ولا وجود لإشارة صادرة عن جهاز الرد والاستجابة؛ وعند الساعة 8:43 علمت قيادة الدفاع الجوي في أمريكا الشمالية بخطف الطائرتين على التوالي، ثم انتظرت حتى الساعة 8:46 لإصدار الأمر بانطلاق الطائرات من قاعدة «أوتيس» الجوية. لم يتم إنذار وتجهيز الطائرات المقاتلة في قاعدة «لانغلي» الجوية حتى الساعة 9:24. حتى لو أنهم تصرفوا أبكر من ذلك بدقائق معدودة لتمكنت طائرة مقاتلة بسهولة من اعتراض طائرة الرحلة 77 التابعة لخطوط أمريكان آيرلاينز التي ضربت مبنى البنتاغون.

الطائرات التي اندفعت من قاعدة «أوتيس» الجوية طارت بسرعة 447.3 ميل في الساعة؛ أما الطائرة المخطوفة التي ضربت البرج الشمالي فقد كانت تطير بسرعة تتراوح بين 470 إلى 490 ميل في الساعة. ضمن سرعته القصوى، تستطيع الطائرة المقاتلة «ف-15 إس» أن تطير بسرعة 1875 ميل في الساعة[62].

والتهذيب، فقد نحصل على إجابة حول السبب في أن الطائرات التي تمكنت من الصعود إلى الأجواء طارت بسرعة لا تتجاوز 14 إلى 28%[61] من سرعتها القصوى في تلك اللحظات الحرجة. مارك إلسيس، بعد تحليله لتصريحات قيادة الدفاع الجوي في أمريكا الشمالية، أجرى تحليلاً تفصيلياً للأعذار المقدمة، وقد قدّم في الواقع سرداً للهجمات، دقيقة بدقيقة، وهذا ما توصل إليه:

هناك مقاتلات وطيارون مستنفرون على مدار الساعة.

كانت هناك ثمان وعشرون قاعدة من قواعد سلاح الجو الأمريكي ضمن نطاق الطائرات المخطوفة.

متحدث من قاعدة «أوتيس» الجوية صرح أن الطائرات المخطوفة كانت تستطيع الوصول إلى مركز التجارة العالمي خلال 10 إلى 12 دقيقة. وحيث أنه كان من المعلوم أن طائرة الرحلة 11 التابعة لخطوط أمريكان آيرلاينز قد خرجت عن مسارها في الساعة 8:15 صباحاً وقد علم مراقبو حركة الطيران أنها قد خُطفت، لذلك، كانت الفرصة متوفرة لاعتراضها. أكثر من هذا، حيث أن هذه الطائرة واثنتان من الطائرات المخطوفة كانت تطير فوق محطة «إنديان بوينت» للطاقة النووية، فمن المفترض أن يصدر رد فوري وسريع.

عند الساعة 8:40 صباحاً، ارتدى طياران من قاعدة «أوتيس» الجوية في ماساتشوستس لباسهما القتالي حين أُبلغا بوجود عملية خطف. في الساعة 8:42 صباحاً لوحظ أن طائرة الرحلة 175 التابعة لخطوط يونايتد آيرلاينز قد خرجت عن مسارها ولا وجود لإشارة صادرة عن جهاز الرد والاستجابة؛ وعند الساعة 8:43 علمت قيادة الدفاع الجوي في أمريكا الشمالية بخطف الطائرتين على التوالي، ثم انتظرت حتى الساعة 8:46 لإصدار الأمر بانطلاق الطائرات من قاعدة «أوتيس» الجوية. لم يتم إنذار وتجهيز الطائرات المقاتلة في قاعدة «لانغلي» الجوية حتى الساعة 9:24. حتى لو أنهم تصرفوا أبكر من ذلك بدقائق معدودة لتمكنت طائرة مقاتلة بسهولة من اعتراض طائرة الرحلة 77 التابعة لخطوط أمريكان آيرلاينز التي ضربت مبنى البنتاغون.

الطائرات التي اندفعت من قاعدة «أوتيس» الجوية طارت بسرعة 447.3 ميل في الساعة؛ أما الطائرة المخطوفة التي ضربت البرج الشمالي فقد كانت تطير بسرعة تتراوح بين 470 إلى 490 ميل في الساعة. ضمن سرعته القصوى، تستطيع الطائرة المقاتلة «ف-15 إس» أن تطير بسرعة 1875 ميل في الساعة[62].

نُقل عن «دوف» قوله: «لا أدري ما الذي كان بإمكاننا فعله لنكون موجودين هناك بسرعة أكبر»[63]. إذا كان «دوف» قد صُعق و لم يحر جواباً، فمن الأحرى أن يكون الطيارون الآخرون كذلك حيث لم يفعلوا شيئاً. استنتج إلسيس أن الجميع كانوا يطيرون ذلك اليوم بسرعة أبطأ من المتوقع وأنهم «أخفقوا». لاحظ أن «دوف» و«ناسيتي» الذين نجحا في الوصول إلى نيويورك في الوقت المناسب ليشاهدا البرج الشمالي وهو يُضرب، لم يفعلا شيئاً لمنع ضرب البرج الجنوبي، حتى عند الساعة 8:46 مع وجود طائرة أخرى تتعرض لمشكلة. كما أنهما لم يحولا دون ضرب مبنى البنتاغون الذي كان باستطاعتهما الوصول إليه في وقت كافٍ يحول دون ضربه. لم يفعلا ذلك. وماذا بشأن الرحلة رقم 93؟ ما هو عذرهما في الإخفاق للمرة الرابعة على التوالي؟ التصريح المتعلق بالمهمة الموكلة بقاعدتهما يقول:

طائراتنا وأطقمهما في حالة استنفار 24 ساعة في اليوم، 365 يوماً في السنة، لحماية أجوائنا. السرب المقاتل 102 يتحمل مسؤولية حماية 500 ألف ميل مربع و90 مليون إنسان، بالإضافة إلى المراكز الصناعية الرئيسية في بوسطن، نيويورك، فيلادلفيا، وواشنطن العاصمة[64].

هذا أمر كان ينبغي على هذين الطيارين قراءته.

وهما ليسا الشخصين الوحيدين الذين يتوجب التحقيق في سلوكهما ذلك اليوم، ذلك أن إلسيس يقول في تحليله:

مركز مراقبة الطيران في ويست فيرجينيا لاحظ أن طائرة قادمة من الساحل الشرقي قد دخلت شاشة الرادار دون وجود اتصال معها عبر أجهزة الراديو ولا يمكن تحديد هويتها. لم يكونوا متأكدين من أنها طائرة الرحلة 77 التابعة لخطوط أمريكان آيرلاينز. ومن المفترض أنهم انتظروا 19 دقيقة أخرى قبل إبلاغ قيادة الدفاع الجوي في أمريكا الشمالية بشأنها[65].

طائرتان كانتا قد ضربتا البرجين وهؤلاء لم يكونوا في عجلة من أمرهم كي يبلغوا قيادة الدفاع الجوي في أمريكا الشمالية حول جسم طائر مجهول يتجه نحو البنتاغون؟ وهم، رغم ذلك، كانوا سريعين بالمقارنة مع الإدارة الفدرالية للنقل الجوي التي فقدت الاتصال بطائرة الرحلة 77 التابعة لخطوط أمريكان آيرلايتر عند الساعة 8:56 صباحاً وقررت إبلاغ قيادة الدفاع الجوي في أمريكا الشمالية بذلك عند الساعة 9:24 صباحاً[66]. في ذلك الوقت كانت الطائرات المقاتلة تتدافع من قاعدة «لانغلي» الجوية، وذلك بعد ثمان وثلاثين دقيقة كاملة من

الهجوم الأول ووصول فرق الإطفاء إلى موقع الحدث، وبعد معرفة الغاية الكاملة والهدف الفعلي لتلك الطائرة المتمثل في كونه عمل إرهابي. جاء في تقرير لصحيفة نيويورك تايمس أن طائرة الرحلة 77 التابعة لخطوط أمريكان آيرلاينز قد فُقدت من الساعة 8:56 صباحاً حتى الساعة 9:33 صباحاً[67]. هل كانت الرادارات الحديثة متوقفة عن العمل لمدة ثلاثين دقيقة؟

عندما ضربت مبنى البنتاغون عند الساعة 9:37 صباحاً، كانت الطائرات المقاتلة أف-16 التي انطلقت من قاعدة «لانغلي» لا تزال على بعد 105 أميال، مما يعني أنها قطعت خمس وعشرين ميلاً في سبع دقائق، بمعدل سرعة مقداره 214.3 ميل في الساعة[68]. طائرات الحرب العالمية الأولى كان أداؤها أفضل من ذلك. الأمر كله يبدو كما هو، وقد حان الوقت للتحقيق والمساءلة.

شخص واحد لديه، أو يفترض أن يكون لديه، الأجوبة هو الجنرال ريتشارد مايرز من سلاح الجو الأمريكي، وهو الذي كان يحمل مسؤولية منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة في ذلك اليوم. يتوقع المرء أن يصدر تصرف مهم من ذلك الضابط، لكن كانت لديه ذريعة، بالضبط قبل حصول الهجمات مباشرة، حيث كان يعقد اجتماعاً لمناقشة تفاصيل الحملة الدعائية القادمة التي تهدف إلى تسويق وتحسين صورته. فيما بعد، حين رُقي فعلياً إلى منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة، استجوبه الكونغرس حول هذه السهولة في مهاجمة أمريكا. معظم أجوبته كانت قصيرة ومحددة، وكان يحب الإجابة بعبارة مقتضبة مثل «لا أدري»، وهي عبارة استطاع استخدامها عشر مرات كما جاء في السجلات. على سبيل المثال، حين سأله السيناتور كارل ليفين (ديمقراطي-ميتشيغان) من لجنة القوات المسلحة في الكونغرس عما إذا كانت وزارة الدفاع قد اتصلت بالإدارة الفدرالية للنقل الجوي أو مكتب التحقيقات الفدرالي أو أي وكالة أخرى بعد أن ضربت أول طائرتان مخطوفتان البرجين وقبل أن يُضرب البنتاغون، استخدم تلك العبارة نفسها. حينئذٍ سأل ليفين «من الذي يدري؟»[69].

إذا كان مايرز لا يعرف الأجوبة على تلك الأسئلة، فذلك يعني بالتالي، وبنفس المقدار، أنه تم تجاهل استخدام «شيفرة الرد رقم واحد في سلاح الجو»، وهي قصة صغيرة أخرى مثل كثير من المؤشرات الأخرى التي اختفت من الأنباء قبل أن تتسبب في مزيد من الإزعاج

والانزعاج. كيف يمكن لأمر مثل هذا أن يتسرب؟ عدد قليل جداً فقط من الناس يستطيعون الوصول إلى معرفة تلك الشيفرة؛ هل خان أحدهم الولايات المتحدة بتسريبها فاستخدمها الخاطفون كي يحصلوا على إذن بالتحليق فوق واشنطن حين كانوا يحلقون قبل أن يقرروا الهدف الذي يريدون ضربه؟ هذا قد يفسر أمراً واحداً، لكنه سيفتح الباب على تحقيق آخر. في كلا الحالين، هناك تساؤلات لم تتم الإجابة عليها بصدق.

أوراق الآص الطائرة

قيادة طائرة ركاب والسيطرة عليها، بناء على بعض الافتراضات، ليس لعبة سهلة يمكن تعلّمها بعد ساعة من التمرين على لعبة فيديو تحاكي قيادة الطائرة. الطائرات التي ضربت أهدافها، زُعم أنها كانت بقيادة مجموعة من الأغبياء. كانوا يبدون حمقى على طريقتهم الخاصة، هذا ما لاحظه مدربهم على الطيران ريك غارزا الذي لاحظ أن خالد المحضار ونواف الحمزة، وهما اثنان من خاطفي طائرة الرحلة 77 التابعة لخطوط أمريكان آيرلاينز، «كانا مثل «دمب آند دمبر». أعني أنهما كانا فاقدي البراعة وكان واضحاً بالنسبة لي أنهما لن ينجحا في أن يصبحا طيارين»[70].

شبكة سي بي أس نيوز أجرت تقييمها الخاص حول طائرة الرحلة 77، وهذا ما أُخبرنا به يوم 26 تشرين الأول (أكتوبر) 2001:

> الطيارون الخاطفون اضطروا مراراً للقيام بدوران على ارتفاع منخفض وبسرعة عالية. شاشات الرادار تبيّن أن طائرة الرحلة 77 قامت بحركات حلزونية الشكل متجهة نحو الأسفل راسمة شكل دائرة تامة تقريباً وقاطعة مسافة 7 آلاف قدم في دقيقتين ونصف تقريباً. الانعطافات الحادة كانت سلسة، قالت المصادر، ومن الواضح تماماً عدم وجود قتال جارٍ للسيطرة على الطائرة، والمناورات المعقدة التي قامت بها الطائرة تشير إلى أنه كانت لدى الخاطفين مهارات طيران أفضل مما ظن المحققون في بداية الأمر. اختفت الطائرة عن شاشة الرادار عند الساعة 9:37 وفي أقل من دقيقة تلت ذلك حصدت الأطراف العليا لأعمدة إنارة الشارع واندفعت إلى مبنى البنتاغون بسرعة 460 ميل في الساعة[71].

والآن، هناك الخاطف الثالث المزعوم على متن تلك الطائرة، وهو هاني حنجور، صاحب السمعة السيئة في مطار «فريواي» الواقع في «بوبي» بولاية ميريلاند، حيث منعه المسؤولون

هناك بكل بساطة من استئجار طائرة في صيف عام 2001. الطائرة التي انقضت على البنتاغون كانت تُقاد بمستوى معين من الخبرة، وفي الحقيقة أن الخاطفين لم يكن لديهم ذلك المستوى من الخبرة. من الصعب على المرء أن يتقبل فكرة أن هؤلاء الطيارين كانوا راغبين فعلاً بالقيام بهذا الطيران الانتحاري، وهذا أمر لا يمكن تصديقه. من الواضح أن هؤلاء الحمقى والأغبياء لم يفعلوا ذلك، بل فعلته وكالة ما لديها نظام سيطرة وتحكم عن بعد، ولإخفاء الوقائع، قام المخططون بالتعامل مع الأدلة التي قد تُظهر هذه الحقيقة. يمكن نقض هذه الفرضية بسهولة إذا استطاع المرء الاستماع إلى أشرطة التسجيل الموجودة في الصناديق السوداء.

بعد الهجمات، وبعد الإعلان عن أسماء الخاطفين المزعومين، حدث أن معظم الأشخاص الذين أعلنت أسماؤهم أحياء يرزقون، وأن العديد منهم تعرضوا لسرقة وثائقهم الشخصية. في كتابه الذي يحمل عنوان «بين الأبطال»، كتب جيري لونغمان أن زياد الجراح كان يقطن عام 1995 في الشارع الشرقي الثالث في بروكلين، حيث كان أبناء صاحبة المسكن الذي استأجره يتندرون قائلين أنه إرهابي[72]، في حين أن زياد الجراح الفعلي كان في لندن في ذلك الوقت ولم يغادر ذلك البلد إلا عام 1996[73]. المدعو «زياد الجراح» استُجوب في مطار دبي الدولي في 30 كانون الثاني (يناير) 2001، لكن سُمح له بمتابعة رحلته إلى فلوريدا. أما زياد الجراح الحقيقي فقد كان بين أسرته في ذلك الوقت[74]. هل كانت تلك عبارة عن قضية أشباه وبدائل المقصود منها إرباك الوقائع التحقيقات؟ سعيد الغامدي وسالم الحزمي كانا شخصان آخران لا يزالان على قيد الحياة، لكن اسميهما ظهرا ضمن قوائم الركاب.

عبد العزيز العمري، بعد ورود اسمه كأحد الخاطفين، ذهب بنفسه إلى السفارة الأمريكية في جدة في المملكة العربية السعودية، ليسأل لماذا تتم الإساءة إلى اسمه؛ وهو في الواقع طيار ذو سجل نظيف لدى الخطوط الجوية العربية السعودية[75].

وليد الشيهاني هو طيار محترف آخر تم استخدام اسمه؛ الشيهاني يعمل في الخطوط الجوية المغربية وليس مرتبطاً بالإرهاب بأي صورة من الصور[76].

عامر بخاري قتل في وقت سابق في حادث تحطم طائرة. عدنان بخاري على قيد الحياة، وهو يقيم في فلوريدا في وقت حدوث الهجمات؛ أحمد النعمي أيضاً حي يرزق، مثله مثل عامر كمفر والعديدين ممن أُطلق عليهم اسم الخاطفين[77].

الاسم الوحيد في القائمة يسبب القشعريرة في الجسم هو محمد عطا. هذا هو الاسم الذي استخدمه الشخص الذي التحق بمدرسة «هوفمان أفياشن»، وهي مدرسة للتدريب على الطيران يملكها رودي ديكرز ووالاس ج. هيليارد. أثناء وجوده في تلك المدرسة، لم يعش عطا حياة رجل متطرف من تنظيم القاعدة؛ في الواقع كان معروفاً بتحرره وتعاطيه الكوكايين. والمرأة التي كان على علاقة بها، أماندا كيللر، تروي أنه لم يكن وحده متحرراً، بل أنه ورفاقه المقربين في «فينايس» بولاية فلوريدا كانوا يقيمون حفلات صاخبة يتعاطون فيها المخدرات. وصفت منزلاً آمناً يملكه رودي ديكرز ويقع في الشارع القريب من مطـــار «فينايس» حيث كانوا يقيمون فيه حفلات ماجنة[78]، لذلك من غير المستغرب أن يحاول ديكرز التستر على علاقته بعطا، لكن كيللر ليست الشخص الوحيد الذي كشف عن العلاقة الوثيقة بينه وبين عطا. سائق سيارة الأجرة بوب سيمبسون من «فينايس» يتذكر أنه نقلهما في سيارته عدة مرات، وقال: «يعرف كل منهم الآخر معرفة جيدة — كانا صديقين... كانا ذاهبين إلى نادٍ ليلي في ساراسوتا وكانا يتحدثان وكان كل منهما يجامل الآخر. هو وعطا كانا صديقين، يمكنك أن تقول ذلك»[79].

قصة العلاقة بين زعيم الحلقة الإرهابية وذو الشعر الأحمر الناشط في مجال صناعة الجنس بدت وكأنها أمر لا يرغب مكتب التحقيقات الفدرالي في كشفه وإعلانه، وصحيفة نيويورك تايمس لم تبدُ أيضاً متلهفة لنشر جميع الأنباء المتعلقة بهذه المسألة. ستيفاني فريدريكسون من سكان «فينايس»، والتي كانت جارة لهذين الشخصين الغريبين، تتحدث حول إصرار المكتب عليها بأن لا تقول «أي شيء لأي شخص»[80]. فيما بعد، ألح عليها أحد مراسلي نيويورك تايمس بضرورة التوقف عن الحديث حول ذلك. فريدريكسون، رغم ذلك، لم تخش النظرات القاسية من رجال الأمن الفدراليين أو من المراسلين المحليين؛ لقد رأت الكثير من الأمور المتعلقة بعطا، وفي إحدى المناسبات، حين طردته كيللر، رأته وهو في حالة نفسية بائسة. وهي

التي عرضت على عطا أن تقله بسيارتها فكان رده عليها بأن صرخ «يجب ألا تتحدثي إلي إلا إذا تحدثت إليك أنا أولاً».

حينئذٍ قالت له فريدريكسون «يا رجل، أنت في أمريكا»[81].

تلك الكلمات تعتبر بمثابة الأدعية التي ينبغي تردادها على مسامع أولئك الأفظاظ من رجال مكتب التحقيقات الفدرالي والمراسلين الذين يطلبون من نظرائهم المواطنين ما ينبغي وما لا ينبغي قوله.

في هذه الأثناء، أماندا اللطيفة اختفت و لم يظهر لها أثر. وهذا الاختفاء يبدو وكأنه نزعة سائدة في هذه المسألة، فقد حدث لآخرين ممن قد يعرفون أشياء يعتقد مكتب التحقيقات الفدرالي وبعض المراسلين أن من الأفضل عدم تكرار الحديث حولها.

أما بالنسبة لمحمد عطا، فربما أُعيد بعثه بسرعة فائقة، حيث تمكن من الاتصال هاتفياً بوالده من ألمانيا في اليوم التالي للهجمات[82].

بلاد الفرص

أمريكا هي موطن المهاجرين، ويدور كثير من الجدل حول من وصل أولاً، بعد «الهنود الأصليين»، إلى تلك البلاد. هناك دلائل قوية حول عمليات عبور للمحيط الأطلسي جرت في القرن الثاني بعد الميلاد، مما يجعل كولومبوس ضمن الواصلين في وقت متأخر. بحلول العام 1900، أصبح لكل أمة على وجه الأرض من يمثلها في هذه البلاد، وفي العام 1960 غنت فرقة «سيمون آند غارفنكل» حول ظاهرة الهجرة إلى أمريكا، وكان طابع تلك الأغنية شعبياً ولحنها جميلاً وكلماتها لم تذكر شيئاً عن أمكنة العمل الشاق أو الإرهابيين الذي يتدربون في مدارس تعليم الطيران. أمريكا، بحلول العام 2000، اتخذت موقفاً من المهاجرين أقل نضجاً من موقف المغنين الشعبين، وأصبح من الصعب، ليس على مواطني العالم الثالث فقط، بل حتى على السائحين البريطانيين أن يعبروا دوائر الهجرة. العديد من الوكالات تولت إبعاد غير المرغوب فيهم، بما في ذلك وكالة المخابرات المركزية، مكتب التحقيقات الفدرالي، دائرة مكافحة المخدرات، وكالة الاستخبارات الدفاعية، بالإضافة إلى كلمة «ميغرا» المرعبة، وهي

كلمة رمزية تشير إلى إمكانية جعل الكثير من عمال المطاعم يفرون عبر الأبواب الخلفية خلال ثوانٍ هرباً من رجال دائرة الهجرة.

بالرغم من القيود الموضوعة على من يُسمح له بالدخول ومن لا يسمح له، علم العالم بأجمعه بأن الرجال الذين كانوا على متن الطائرات لم يتمكنوا من الدخول فقط، بل كانوا موضوعين على لوائح المراقبة التي لم تتم مراقبتها. عطا، على سبيل المثال، صدرت بحقه مذكرة اعتقال مضافة إلى حقيقة كونه قد تجاوز مدة الإقامة الممنوحة له بالتأشيرة التي يحملها، لكن لم يفعل أحد شيئاً. وفي الحقيقة كان قادراً على دخول الأراضي الأمريكية حتى بعد أن تجاوز مدة الإقامة الممنوحة له في التأشيرة الأولى التي مُنحت له من قبل القنصلية الأمريكية في برلين في شهر أيار (مايو) 2000[83]. وتجدر الإشارة إلى أن الخلل الأمني المتعلق بزيارة عطا لم يكن حدثاً منفصلاً، وهناك بعض الشكاوى المسجلة من تصرفات أخرى مشبوهة ترتكب عمداً وبشكل مستمر. علمت هيئة الإذاعة البريطانية، بي بي سي، من مايكل سبرنغمان الذي كان رئيساً لمكتب التأشيرات في القنصلية الأمريكية في جدة من العام 1987 إلى العام 1989، بأنه لم يكن قادراً على وقف المشكلة بسبب الإصرار الآتي من فوق. وقد جاء في أقواله:

> في المملكة العربية السعودية أُمرت مراراً من قبل مسؤولين ذوي مناصب عليا في وزارة الخارجية بإعطاء تأشيرات لمتقدمين لا تنطبق عليهم الشروط المطلوبة. كان هناك، من حيث الأساس، أشخاص لا تربطهم علاقات لا بالسعودية ولا بأوطانهم الأصلية. لقد اشتكيت بمرارة من ذلك آنذاك. تمت إعادتي إلى الولايات المتحدة وقدمت شكوى لدى وزارة الخارجية هنا، في مكتب الأمن الدبلوماسي ولدى مكتب المفتش العام. لقد وُجهت بالصمت[84].

حين سئل عن وجود علاقة بين وكالة المخابرات المركزية وبن لادن ترجع إلى العام 1987، أبلغ سبرينغمان إذاعة «سي بي سي راديو ون» بأن «ذلك صحيح، وكما تذكرون، من المعتقد أن الشيخ عمر عبد الرحمن الذي ارتبط بمحاولة التفجير الأولى لمركز التجارة العالمي في نيويورك قد حصل على تأشيرة دخوله إلى الولايات المتحدة بمساعدة ضابط من وكالة المخابرات المركزية في السودان»[85]. وأضاف بأن خمسة عشر أو أكثر من الأشخاص الذي جاءوا من السعودية للاشتراك في الهجمات التي حدثت في 9/11 حصلوا على تأشيرات دخول

من القنصلية الأمريكية في جدة. سألته إذاعة «سي بي سي» أيضاً عما إذا كان يعتقد أن وكالة المخابرات المركزية متورطة بطريقة ما، فكانت إجابة سبرنغمان «نعم»[86].

يمكن تصديق ذلك بسهولة، فقبل أحداث 9/11 بأربعة أشهر فقط أعلنت الولايات المتحدة عن برنامج اسمه «فيزا إكسبرس» يتيح للسعوديين الحصول على تأشيرات الدخول حتى دون مقابلة القنصلية، حيث يمكنهم الحصول على التأشيرات من خلال إحدى وكالات السفر المحلية. أكثر من ذلك، في عهد إدارة بوش الجديدة كانت هناك بعض التحفظات على إجراء التحقيقات حول السعوديين[87].

3، 2، 1، انطلق!

الطريقة التي كانت متبعة للتلاعب بالهجرة قبل الهجمات هي مسألة تستحق الاهتمام، على الرغم من أن هذا الموضوع يعتبر من المحرمات. ومن وجهة نظر معينة، يبدو أن شيئاً ما كان يجري، وهو أبعد وأعقد من أن يستطيع الوصول إليه بن لادن وجماعته في كهوف أفغانستان. هل كان بن لادن قادراً على إجبار الحكومة الأمريكية على ذلك، أم أنها مجرد مصادفة ينبغي علينا تجاهلها؟ دعونا نتساءل لماذا كانت فرق الوكالة الفدرالية لحالات الطوارئ موجودة في نيويورك قبل يوم من الهجمات، وذلك على سبيل المثال. توم كينيدي، وهو مسؤول في الوكالة الفدرالية لحالات الطوارئ، أخبر دان راثر من شبكة سي بي أس نيوز أن الوكالة الفدرالية لحالات الطوارئ هي «إحدى أول الفرق التي استُخدمت لتقديم الدعم لمدينة نيويورك في هذه الكارثة. وصلنا في وقت متأخر من ليل الإثنين ثم توجهنا إلى العمل مباشرة صباح يوم الثلاثاء»[88].

ما هذا التوقيت الممتاز، ولو أن جميع العاملين في سيارات الإسعاف الطبي كان لديهم هذا الحس الاستباقي بوقوع الخطر لما اتصل أحد برقم الطوارئ 911 بعد الآن. وحيث أن أجزاء الصورة قد بدأت تتلاصق ببعضها، فهذا الجزء من الصورة ليس الجزء الوحيد الذي يشير إلى تخطيط مسبق للأحداث، وذلك إذا أخذنا بالاعتبار التخطيط المسبق لعمليات الغزو، حتى قبل أن تحدث هجمات 9/11 التي تبرر مثل ذلك التخطيط. نيل ماكاي كشف التالي في صحيفة صنداي هيرالد:

في مخطط أولي سري لسيطرة الولايات المتحدة على العالم يتبيّن أن الرئيس بوش وأعضاء إدارته كانوا يخططون لهجوم متعمد على العراق من أجل «تغيير النظام»، وذلك حتى قبل أن يصل إلى السلطة في كانون الثاني (يناير) 2001.

صحيفة صنداي هيرالد كشفت ونشرت المخطط الذي يهدف إلى إنشاء «الإمبراطورية الأمريكية الكونية»، وقد وُزّع هذا المخطط كتقرير على ديك تشيني، دونالد رمسفيلد، بول وولفويتز، وعلى الأخ الأصغر لجورج دبليو بوش جب بوش ولويس ليبّي. المستند المذكور الذي يحمل عنوان «إعادة بناء السياسة الدفاعية الأمريكية: الاستراتيجيات والقوات والمصادر للقرن الجديد» كتبه في شهر أيلول (سبتمبر) 2000 منظرو المحافظين الجدد ضمن ما سمّوه «مشروع القرن الأمريكي الجديد»[89].

عام 1995 كتبت كاثي أوبرين حول اهتمام آل بوش بأفغانستان:

أُعطيت كتاباً مطبوعاً يحمل عنوان «أفغانستان»، ومنه استطعت أن أستشف التاريخ والأحداث السياسية الراهنة، وقوة «مقاتلي الحرية الأفغان». وقد علمت منذ ذلك الوقت أن الكتاب المذكور الذي قرأته لم ينشر أبداً بنصه الذي سُلّم إلي. وحسب التعليمات، أُعيد الكتاب بسرعة بعد مراجعتي له إلى بوش. وحين أتذكر ذلك، أتساءل إن كان أي جزء من ذلك الكتاب يتضمن أية حقائق تتعدى ما يفترض بي رؤيته وتصديقه[90].

في شهر آذار (مارس) 2001، جاء في تقارير الصحافة أن الولايات المتحدة تخطط لغزو أفغانستان في شهر تشرين الأول (أكتوبر) من ذلك العام، ومن عجائب الصدف أنهم لم يفعلوا سوى ذلك بالضبط! جزء من هذا الإنجاز المتكامل يتضمن وضع المساجين في زنازين انفرادية، على حساب دافعي الضرائب الأمريكيين، وفي هذه الأثناء تزداد أرباح شركة «براون آند روت» التابعة للشركة الأم هاليبرتون، والتي وقعت في شهر حزيران (يونيو) اتفاقاً مع البنتاغون يتضمن إنشاء مخيم اعتقال «يضم 408 زنازين انفرادية في منطقة «راديو رانج» التابعة للبحرية الأمريكية وفي خليج غوانتانامو في كوبا»[91].

الجزء الدقيق من الترتيب المسبق في ذلك الثلاثاء الثاني من شهر أيلول (سبتمبر) يتضمن أن يكون أربعة من المسؤولين الكبار في المجال الدفاعي الأمريكي، جميعهم، وفي اللحظات الحرجة بالضبط، مشغولين بأمر ما سيكون لاحقاً بمثابة العذر الذي ينفي الاتهام بالوقوف وراء الهجمات. دونالد رمسفيلد، وزير الدفاع، كان في الواقع موجوداً في البنتاغون يحضر اجتماعاً

وكان لديه عذر مناسب. زعم أنه لم يعلم أن البنتاغون مستهدف إلا بعد أن أصبح البنتاغون هدفاً، وقد كان رمسفيلد محظوظاً، فأثناء وجوده في البنتاغون لم يكن هو الهدف، ولا أي من أركانه من كبار الضباط الذي يتخذون من المجمّع بيتاً لهم. لذلك، وبعد موت بعض المجندين الموجودين في جزء من المجمّع غير مستخدم بشكل مكثّف، أطل برأسه إلى الخارج مستطلعاً تاركاً كل ما قد يكون مهماً وخطيراً من الأمور التي لم تُشغله عن ذلك. الجنرال ريتشارد مايرز، الذي كان يتحمل ذلك اليوم مسؤولية رئاسة هيئة الأركان المشتركة، كان لديه اجتماع مهم بالفعل، اجتماع يتقرر فيه الرئيس المقبل لهيئة الأركان المشتركة، والذي تبيّن أنه ريتشارد مايرز. ذهب إلى الاجتماع تقريباً في الوقت الذي ضربت فيه الطائرة الأولى أحد البرجين، وغادر في الوقت المناسب كي لا يفعل شيئاً قد يتسبب في تغيير بسيط في المسار الدقيق لأحداث ذلك اليوم. نائب الرئيس ديك تشيني، حسناً، على كل حال لا يستطيع المرء أن يعرف مكانه، فلماذا نسأل، وربما كان مشغولاً بأمر ما من أمور «الأمن القومي»، وأشياء تافهة مثل الهجمات الإرهابية لا تستحق منه أن يظهر علناً ويتحمل المسؤولية حين كان الرجل الأول مشغولاً بقراءة قصة للأطفال. قالت التقارير أنه حُمل من ساعديه وسُحب إلى ملجأ آمن تحت البيت الأبيض. لذلك، أولئك هم القادة الكبار، الذين لم يصبحوا في المقدمة وفي وسط المشهد إلا بعد انتهاء كل شيء وبعد أن شعروا بالأمان وأن بإمكانهم الخروج والقول أن الحرب قد بدأت.

القصة التي كان يقرأها بوش عنوانها «العنزة الأليفة». وصل إلى مدرسة «إمّا إ. بوكر» الابتدائية في ساراسوتا بولاية فلوريدا بعد وقت قصير من الضربة الأولى وبرفقته مدير موظفيه أندريو كارد. في الحقيقة، وقبل أن يباشر مهمته الخطيرة، أبلغه كارد بالتفاصيل الأولية للهجوم[92]. وقيل أيضاً أنه تلقى اتصالاً يتعلق بالهجمات من مستشارته لشؤون الأمن القومي غوندوليزا رايس[93]. فيما بعد ظهر كارد، في الساعة 9:04 وبعد الهجوم الثاني، وهو يهمس في أذن بوش وكان يخبره بآخر التطورات[94]. في هذه الأثناء، ظهرت على شاشات الرادارات طائرتان إضافيتان خارجتان عن مسارهما، وكل من لديه مقدار بسيط من البصيرة علم فوراً أن كل تلك الأمور لم تكن تجري بمحض الصدفة. برجان تهشما وطائرتان تحومان على

هواهما فوق البلاد، في الواقع اتجهتا نحو مبنى الكابيتول، وكل ذلك لم يثنِ بوش عن متابعة المهمة التي اضطلع بها ذلك الصباح، وبدلاً من اتباع قواعد التصرف المتعارف عليها في حالة طوارئ وطنية كهذه، وجد لنفسه ذريعة وتابع قصة العنزة الأليفة. عند الساعة 9:30 صباحاً اضطر أخيراً لمواجهة الأمة وانطلق عبر الأثير ليعلن: «سيداتي سادتي، هذه لحظة صعبة بالنسبة لأمريكا. اصطدمت طائرتان ببرجي مركز التجارة العالمي فيما يبدو أنه هجوم إرهابي على بلادنا. سأطلب إجراء تحقيق واسع والقبض على أولئك الذين نفذوا هذا العمل»[95].

بناء على ما جاء في الرواية الرسمية للأحداث، لم يتصل هاتفياً بديك تشيني حتى الساعة 10 صباحاً، حين بادر فيها إلى إغلاق باب السياج الخارجي للمزرعة عبر وضع القوات المسلحة الأمريكية في حالة الاستنفار القصوى[96]، لكن في تلك الأثناء كانت الأبقار قد ذُبحت و لم يكن بوش أو تشيني أو رمسفيلد أو مايرز موجوداً للدفاع عنها. الطريقة التي أُتبِّعت لتعيين هؤلاء الرجال الأربعة تكتنفها الشبهات، وبغض النظر عن مقدار الوطنية التي يحاول أولئك الرجال استثارتها في الناس كي ينظروا إلى الأمور بطريقة أخرى ويقبلوا التفسيرات المقدمة لهم، رغم ذلك لا تزال هناك الكثير من الأسئلة التي لا يمكن التغاضي عنها. تحركاتهم في ذلك اليوم كانت نتيجة لقرارات أتخِذت مسبقاً قبل أسابيع، إن لم يكن أشهر. والحقيقة التي تقول أن الرئيس ظل في الصف مع التلاميذ مع علمه أن البلاد تتعرض لهجوم تنبئ بغباء محض. كيف علم أنه لم يكن مستهدفاً؟ هل كان ينوي فعلاً أن يجعل من نفسه، باعتباره هدفاً حيوياً، سبباً في وقوع ضحايا مدنيين؟ ماذا كان يفعل رجال الخدمات السرية بحيث سمحوا للوقت بأن يمضي على هذا النحو، تدخين المخدرات؟

ليس ترتيب الأحداث وحده مشبوهاً، بل أيضاً الكلمات التي خرجت من فم بوش والتي قد تكون دليل إثبات أولي يُشير إلى علم مسبق بالأمور، حيث صرح في الساعة 9:01 [97][98] بأنه رأى الهجوم على شاشة التلفزيون، وذلك قبل أن تصل الصور إلى محطات الأخبار. إن لم يكن قد رآها، فلم يكذب؟ إن كان قد رآها، فما هي تلك المحطة وما هي تلك الكاميرا الخاصة التي التقطت تلك الصور الفورية الخام وقدمتها له وحده؟

تلك القصة تعرضت للتدقيق والنقد، ثم اختفت من الصحافة. بعد ذلك بوقت قصير، وُزِّعت صورتين له وهو يشاهد الحدث على شاشة التلفزيون، وذلك لدعم تلك القصة وتأييدها، لكن الصورتين أدتا إلى طرح مزيد من الأسئلة، وهي أسئلة تجاهلها البلهاء من الصحفيين. لكن شديدي الملاحظة من الناس رأوا أن الصورتين، واللتين تم تحليلهما بدقة في موقع www.propagandamatrix.com على شبكة الإنترنت، تُظهران الرئيس بربطات عنق وقمصان مختلفة الألوان، بالرغم من لباسه الظاهر في الصورتين كان قريباً جداً مما كان يلبسه ذلك اليوم. كما أن المشهد يبدو سوريالياً بعض الشيء، ففي حين تظهر على الشاشة أحداث مأساوية، لا تظهر على قسمات وجوه أي من الرسميين أو رجال الخدمات السرية الظاهرين في الصورة أدنى علامات الاهتمام بذلك. في أمكنة أخرى كان الناس يتركون كل شيء ويديرون وجوههم نحو الشاشة لمتابعة الصور المريعة، أما الأشخاص الظاهرين في صور بوش فلم تبد عليهم إمارات الاهتمام. وبعد مزيد من التدقيق في الصور، أظهرت الساعة المعلقة على الجدار توقيتاً مختلفاً عن التوقيت الفعلي لوجود الرئيس هناك، كما أن المشهد الذي يفترض أن يكون مأخوذاً في ردهة أشبه بالممر، يتضمن سبورة كما لو كان المشهد ملتقطاً في صف مدرسي[99]. مسألة لقطة الفيديو المركبة على شاشة التلفزيون ليست أمراً جديداً، وفي هذا المجال تتكشف المزيد من الحقائق المتعلقة بالتقارير الإخبارية الحربية الملفقة، كما حدث في بداية آذار (مارس) 2003 حين طردت صحيفة لوس أنجلس تايمز المصور الحائز على عدة جوائز بريان والسكي بعد قيامه بتركيب صورة جندي بريطاني مع صورة بعض المدنيين العراقيين موحياً بإشارة لم يفعلها ذلك الجندي في الواقع[100]. في شهر أيار (مايو) من العام نفسه أدى اكتشاف المزيد من القصص الإخبارية الملفقة إلى إرباك وانزعاج في صحيفة نيويورك تايمز أيضاً.

الرسميون الأمريكيون والجنود البريطانيون والمدنيون العراقيون قد لا يكونون الوحيدين الذين تم استخدام صورهم لتضليل الرأي العام الأمريكي؛ أشرطة «بن لادن» المسجلة قد تكون أكبر وأشهر عملية تزييف في العالم، وربما تم صنعها في استوديوهات هوليود. في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 2002 أعلن «معهد دال مول للذكاء الإدراكي الصناعي» في لوزان

بسويسرا نتيجة بحثه حول أشرطة «بن لادن» الصوتية المسجلة التي كانت تبثها قناة الجزيرة الفضائية في ذلك الوقت؛ وكانت الخلاصة أن تلك التسجيلات ليست أصلية، حتى المسؤولين الأمريكيين، الذي بثوا تلك الأشرطة للرأي العام، اضطروا للتنويه بأن تلك الأشرطة قد لا تكون أصلية تماماً نظراً لرداءة تسجيلها[101]. من الذي قد يفعل أمراً كهذا؟ قد تكون وكالة المخابرات المركزية، ربما الموساد؛ في الحقيقة تم اكتشاف المحاولة الأخيرة لإنشاء خلية مزيفة تابعة لتنظيم القاعدة. الخطة، التي كُشفت في 6 كانون الأول (ديسمبر) 2002، تبيّن أن عمليات التضليل النفسي التي يقوم بها الجيش الأمريكي لا تقتصر على أمريكا، وربما كانت تلك العمليات منتشرة على نطاق واسع، أكثر بكثير مما نحب أن نعتقد ونصدق. في النموذج الإسرائيلي من تلك العمليات، خططوا لاستخدام فلسطينيين كأعضاء في تنظيم القاعدة[102]. كم واحداً يحتاجون من ذوي اللحى الطويلة؟ لن ينقضي الليل حتى يتمكن السيد «إرهاب»، الذي يقضي الوقت في محادثات هامة وحيوية، حتى يظهر هؤلاء في الوقت المناسب من أجل المحافظة على تكتل الرأي العام الأمريكي خلف بوش، ويصبح الأمريكيون أكثر استعداداً لتزويده بمزيد من المال كي يشن الحروب التي تؤدي في نهاية المطاف إلى إثراء العصبة القابعة البيت الأبيض. شخصية السيد غولدشتاين الشريرة التي اخترعها الكاتب جورج أورويل اختلطت وتداخلت بشخصية بن لادن، وبواسطة المال الكافي مع استخدام المتخصصين المهرة في مجال التجميل، أعتقد أن معظم الممثلين يستطيعون تأدية هذا الدور. بعد جعل صور الفيديو مشوشة قليلاً، يستطيع أي شخص أن يتحول بسرعة إلى بن لادن، أو السيد غولدشتاين، ويثير في الناس موجة من الهياج والسعار باعتبار أن «الشرقآسيويين» أصبحوا الآن هم الأعداء.

تصيّد الطريدة الثانوية

قادة أمريكا عملوا فوراً على حشد الرأي العام وإطلاقه لاصطياد بن لادن، وهو رجل كانوا هم أنفسهم قد تعاملوا معه بشكل مكثف، وزعموا أنه مختبئ في كهف في أفغانستان. واحد من ردود الفعل الأولى لكثير من الناس كان يقول بأنهم لن يعثروا عليه أبداً. بعد سنة ونصف تلت ذلك، وبعد التدقيق في كل شخص ذو لحية في ذلك البلد ثم قتل الكثير من

هؤلاء، بالإضافة إلى قتل البعض منهم مع زوجاتهم وأطفالهم، يبدو أن بن لادن لا يزال يستمتع بوقته.

الموقف المتبصر والعقلاني الذي اتخذه أولـئك الذين سبق لهم وأن شـاهدوا نمط الـحرب ضد «غولدشتاين» لم يكن موقفاً عبقرياً وفذاً؛ فالأمر واضح تماماً، فإذا ما تم القبض عليه، فسينتهي الأمر وسيضطر بوش إلى الانشغال بأمور ومسائل أخرى مثل الاقتصاد. بالإضافة إلى ذلك، الكثيرون لا يصدقون أن بن لادن كان مؤلف وملحن الهجمات؛ ربما قدّم لأصدقائه القدامى بعض الانتحاريين الأغبياء ولعب هو أدواراً أخرى كما طُلب منه، لكن تم تصوير الأمر كله وكأنه هو الفاعل والمسؤول عن تلك الأعمال. بعد الهجمات مباشرة أنكر مسئوليته عنها[103]، وفي تشرين الأول (أكتوبر) 2001 جاءه زوّار يطلبون مقابلة شخصية معه في غرفة جانبية. كانوا مجهزين بآخر ما وصلت إليه التقنيات كي يعثروا عليه ويستجوبوه، ثم تحولت المسألة برمتها إلى عملية بحث باهظة الكلفة ومهمة تدمير شاملة. زعموا أنهم بحثوا، لكنهم لم يعثروا عليه، ثم تحوّل اهتمام الجمهور بعيداً عن هذه المسألة. منتج الأفلام سبايك لي لاحظ ذلك وعلّق عليه: «في 12 أيلول (سبتمبر) كان الرجل المطارد رقم واحد في مواجهة الكرة الأرضية برمتها. والآن طواه ضباب المجهول»[104].

ضباب المجهول هو الفضاء الذي يبدو أن بن لادن قد اعتاد العيش فيه، والمحاولات السابقة للقبض عليه، حسناً، لم تكن هناك محاولات سابقة للقبض عليه، كما حدث في ثلاث مناسبات حين حدد بعض الجواسيس موضعه ووافق الرئيس كلينتون على مهاجمته، لكن رئيس وكالة المخابرات المركزية قال بكل بساطة أنه لا يستطيع مباشرة الهجوم[105]. في الرابع من تموز (يوليو) 2001، حُدّد مكان تواجد بن لادن في دبي، حيث توقف هناك لإجراء بعض الفحوصات الطبية لكليتيه في «المستشفى الأمريكي»[106][107][108] وهو أمر يمكن تهجئته كما يلي: «لم يكن الهدف أبداً القبض على بن لادن»[109].

ربما تم إيضاح هذا الأمر إيضاحاً تاماً للسائحين البريطانيين آلان وسيندي تومبسون، الذين انتهى بهما المطاف في مدينة «زوب» الباكستانية، وذلك بعد قيامهما بجولة سياحية اتفاقية غير متوقعة عام 1998. قضيا الليل هناك، لكنهما غادرا بسرعة حين علما أن بن لادن في

المدينة. خشيا من ذلك وناقشا تلك المفاجأة مع بعض عمال الإغاثة الأمريكيين الذين أخبروهم بدورهم عن تجربة مماثلة مروا بها في مدينة قندهار الأفغانية، حيث اضطروا إلى نقل مكاتبهم حين اكتشفوا أن بن لادن يقيم بجوارهم مباشرة. الزوجين تومبسون كتبا تقريراً حول اكتشافهما، لكن مكتب التحقيقات الفدرالي تجاهل ذلك التقرير، ومكتب التحقيقات الفدرالي هو الوكالة نفسها التي تجاهلت ورفضت التعاون مع مخبريها في أمريكا(110). تقول سيندي:

> لقد ذهلنا. وجدنا أن الأمر لا يصدق حين عرضنا تقديم معلومات حقيقية ومباشرة حول الرجل المطلوب رقم واحد في العالم لكن السفارة الأمريكية لم تهتم ولم تحرك ساكناً... لقد حان الوقت لإخبار العالم بهذه القصة كي يعرفوا الحقيقة... ما يحكى عن مطاردة بن لادن مجرد مهزلة(111).

الخلاصة المفيدة، رغم ذلك، هي أن بن لادن لا يزال حراً طليقاً والذين عرفوه وكانوا على اتصال به ودعموه يستخدمون الآن اسمه لجني النقود. حين يشعرون بالحاجة إلى القبض عليه وجلبه، ربما حين يأتي موعد الانتخابات، فقد تتم التضحية به واستخدامه ككبش محرقة، لكن ما دام يؤدي الغرض المطلوب منه كغول مثير للرعب، فقد يظل حاملاً هاتفاً نقالاً للاتصال برفاقه القدامى، وربما كانوا مستغرقين جميعاً في الضحك من سير هذه اللعبة الصغيرة، مسرورين يهنـــئون أنفسهم على الطريقة التي استطاعوا أخيراً من خلالها تنفيذ مخطط مؤامرة «نورثوودز» التي يدفع الناس ثمن تنفيذها.

بعُد الشر عن سامعيك

إحدى الفواتير التي ينبغي على المجتمع أن يدفعها هي فاتورة المزيد من التجسس والجواسيس. رغم أن شفافية الحكومة كانت هدفاً منذ الأيام الأولى للتاريخ الأمريكي، إلا أن بعض القادة لفّوا الوكالات واحدة بعد الأخرى بأكفان من السرّية. كلفة هذا السلوك الملتبس تقدّر بحوالي 30 بليون دولار سنوياً. وقد ازدادت هذه الكلفة بعد أحداث 9/11 انطلاقاً من منطق يقول أنه إذا كانت وكالة الأمن القومي ووكالة المخابرات المركزية ووكالة الاستخبارات الدفاعية ودائرة مكافحة المخدرات ومكتب التحقيقات الفدرالي والمكتب

الفدرالي للمخدرات وعدد آخر من الوكالات، إذا كانت جميعاً عاجزة عن ردع «الأشرار» وإيقافهم، فقد يكون إنفاق المزيد من الأموال على تلك الوكالات فكرة حسنة.

ربما لا.

جون ج. لوفتوس، المدعي العام الأمريكي السابق، ليس متأكداً من أن الضرائب التي يدفعها هو وغيره من الأمريكيين تذهب إلى أيد أمينة. الوقائع التي تفيد بأن العديد من التحذيرات قد تم تجاهلها قبل 9/11 قد تجعل البعض يعتقد أن وكالة الأمن القومي ووكالة المخابرات المركزية ليستا سوى مثالاً للغباء والأغبياء. هل كانتا، أو هل كانوا يمثلون هذا الدور؟ لوفتوس كتب حول ذلك:

> العديد من الكتاب البريطانيين والفرنسيين استنتجوا، نظراً إلى أن المعلومات التي قدمتها مصادر استخباراتية أوروبية قبيل 9/11 كانت شديدة الكثافة، أنه لم يعد بإمكان وكالة المخابرات المركزية أو مكتب التحقيقات الفدرالي إنكار عدم كفاءتهما[112].

وكالة الاستخبارات الألمانية «بي أن دي»، على سبيل المثال، أرسلت تحذيراً في شهر حزيران (يونيو) 2001 بأن إرهابيين «يخططون لخطف طائرات تجارية لاستخدامها كأسلحة في الهجوم على رموز عمرانية أمريكية وإسرائيلية مهمة»[113]. أرسلت تلك الوكالة تنبيهاً لكل من الحكومتين الأمريكية والإسرائيلية بهذا الخصوص. واحدة من الدولتين المذكورتين لم تستمع للتحذير، أو أنها لم ترغب في الاستماع. وقد تردد أيضاً أن الروس قد حذروا الولايات المتحدة «بأشد العبارات الممكنة»[114]. قبل ساعات من الهجوم، حاول رجل في التاسعة والعشرين من العمر في ألمانيا إرسال رسالة بالفاكس إلى بوش، لكنه مُنع من ذلك. محاولاته السابقة الرامية للوصول عبر قنوات أدنى باءت أيضاً بالفشل[115]. من داخل سجن أمريكي حذّر السجين وليد أركه من وقوع هجمات وشيكة على مدينة نيويورك، وقد تحدث عن ذلك في شهري آب (أغسطس) وتموز (يوليو) 2001، لكن تم أيضاً تجاهله[116].

كان الإخفاق مدوياً. كدسنا إخفاقاً فوق إخفاق. السيناتور كارل ليفين (ديمقراطي–ميتشيغان)[117]

الأجانب والسجناء ليسوا وحدهم من حاول الاتصال وتحذير السلطات الأمريكية؛ جاءت تحذيرات عاجلة من مواطنين أمريكيين من مواقع رسمية مختلفة، وبعضهم عملاء في مكتب

التحقيقات الفدرالي، لكن تم تجاهل هؤلاء أيضاً. في 17 آب (أغسطس) 2001 اتصل مسؤول عن رحلة طيران في مينيسوتا بمكتب التحقيقات الفدرالي للإبلاغ عن ملاحظاته على زكريا موسوي، الرجل معتقل الآن باعتباره «الخاطف العشرون» المزعوم [118]. كولين راولي، وهي عميلة لمكتب التحقيقات الفدرالي في تلك الولاية وأمضت في الخدمة أكثر من واحد وعشرين عاماً، حاولت متابعة التحقيق في الأمر لكنها مُنعت. كولين سببت الكثير من الحرج لجون آشكروفت ومدير مكتب التحقيقات الفدرالي روبرت موللر لأنها أعلنت قصّتها، كتابة:

في اليوم الأول أو الثاني الذي تلا الحادي عشر أيلول (سبتمبر) التالي، أنت، أيها المدير موللر، صرحت لوسائل الإعلام قائلاً لو أن مكتب التحقيقات الفدرالي تلقى أيّ إنذار مبكّر حول الهجمات، فربما استطعنا (يعني مكتب التحقيقات الفدرالي) اتخاذ بعض الإجراءات لمنع المأساة. وما أخشاه هو أن يصبح هذا التصريح وسيلة سهلة لمطاردة مكتب التحقيقات الفدرالي من خلال الكشف عن المعلومات التي كانت متوفرة قبل الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) حول موسوي، أنا وآخرون في مكتب مينيابوليس، أردنا فورا أن نصل إلى مكتبك من خلال الاتصال بالمستوى الأعلى في المركز الرئيسي لمكتب التحقيقات الفدرالي، وذلك كي نحذرك بسرعة حول خلفية التحقيق مع الموسوي بحيث تقوم بتعديل بياناتك العامة وفقا لذلك[119].

لخّصت كولين تقييمها مستنتجة أن: «كلّ شيء رأيته وسمعته عن مواقف المسؤولين في مكتب التحقيقات الفدرالي وتحضيرات مكتب التحقيقات الفدرالي الداخلية تحسّبا لتحقيق موسّع في الكونغرس، كانت، لسوء الحظ، تؤكّد شكوكي الأسوأ بهذا الخصوص»[120].

عميل مكتب التحقيقات الفدرالي الآخر الذي واجه إعاقات غريبة صادرة من مستويات عليا تعرقل مسار التحقيق هو روبرت رايت، الذي ذهب إلى المحامي اليميني والناشط ديفيد شيبرز، والذي بادر بدوره بالاتصال بجون آشكروفت، ناقلاً له فحوى رسالة رايت بأن هجوماً ارهابياً يخطّط لمدينة نيويورك. شيبرز يروي التالي:

كنت أحاول جعل الناس يفهمون أن حركة حماس اخترقت الولايات المتحدة. حاولت ذلك مع البيت الأبيض، حاولت مع مجلس الشيوخ، حاولت مع وزارة العدل، لكنني كنت دائماً أجد أولئك الذين وضعوا الحواجز والعراقيل أمام الهجمات ضد الإرهابيين في عهد كلينتون ما

زالوا هم أنفسهم هناك. ما زالوا يشكّلون ما يشبه الخندق المائي بين من يملكون المعلومات وبين من يجب أن يسمعوا بتلك المعلومات.

استخدمت أناساً ممن كانوا أصدقاء شخصيين لجون آشكروفت في محاولة الوصول إليه. أحدهم اتّصل ثانية بي وقال لقد تكلّمت معه فعلاً، وسيدعوك صباح الغد... في اليوم التالي تلقيت اتصالاً من مسؤول أدنى رتبة في وزارة العدل وقال لي بأنهم لا يبدؤون تحقيقاتهم انطلاقاً من القمة. وقال أنه سينظر في هذه المعلومات وسيراجع آشكروفت بشأنها. ولم يفعل ذلك أبداً"[121].

رايت تكلّم، وفي بعض الأحيان باكياً حول الأداء الكئيب، ومما ذكره في حديثه: «أعتقد حقا بأنني سأكون مقصراً في واجبي كأمريكي إذا لم أفعل كل ما أستطيع لإبراز إهمال مكتب التحقيقات الفدرالي لواجباته ولفت انتباه الآخرين إلى ذلك الإهمال» [122][123].

رغم الإخفاقات الكثيرة لهؤلاء المسؤولين في تأدية واجباتهم نحو الأمريكيين الذين يدفعون رواتبهم، إلا أنهم وجدوا أن من الأنسب ألا يركب سلمان رشدي الطائرة بدون حراسة أمنية إضافية، وذلك قبل أسبوع واحد من الهجمات[124]؛ لماذا ينصب القلق والاهتمام الشديد على مؤلف بريطاني في الوقت الذي يعجز فيه أمريكيون عن الحصول على كلمة من المسؤولين لحماية الأمريكيين الآخرين؟ وماذا علموا عنه حتى يتركز عليه هذا الاهتمام الشديد؟ سكّان نيويورك تُركوا للقفز من النوافذ ذلك الصباح، والمحظوظ منهم استطاع إجراء اتصال أخير بزوجته وأطفاله، أحدث ذلك لأن مجموعة من الأغبياء هل كانت تدير مكتب التحقيقات الفدرالي؟ هذه الوكالة نفسها التي اشتُهرت بحماية الشواذ جنسيا تحت غطاء الأمن القومي، ثم يفترض بنا أن نعتقد ونصدق بأن أولئك الذين يطرحون الأسئلة مخطئون؟ وهل نعتبر العضو الجمهوري السابق في مجلس الشيوخ جون دي كامب من ضمن المخطئين، وهو الذي قضّى سنوات محاولاً إجبارهم على احترام التحذيرات المتعلقة بجورج بوش الأب وأعضاء بارزين في الحزب الجمهوري فيما يتعلق بالاعتداء على الأطفال في أوماها؟[125].

حبل حول أحمق

جورج بوش والعديد من شركائه يدّعون السير على خطى السيد المسيح، يحملون الإنجيل في يد وعلم أمريكا في اليد الأخرى. لكن ما الذي يدخل جيوبهم؟ مصروفهم اليومي؟ يهوذا لم يخدع السيد المسيح، ولا الحزب الجمهوري فعل ذلك. مشعلو الحرب يستطيعون خدع الكثير من الناس، ونشوة الحرب تجعل عقول الناس بليدة أكثر بينما ينشغل اللصوص بسرقة أموالهم. أحيانا، في الأمم الأكثر ذكاء، يُقبض على اللصوص. وكما تبيّن من مجريات الأحداث، كان هناك أثر للمال يمكن تتبعه وملاحقته، حتى قبل أن يتمكن رمسفيلد وبيرل من تحويل دولارات الضرائب إلى أيدي مقاولي الدفاع. الإشارة الأولى إلى أن المال كان حافزاً في الهجمات خرجت فوراً، بعد أن ظهر إلى الضوء الارتفاع المثير في مستوى الخيارات والفوائد التجارية التي وُضعت على الشركات التي تأثرت بالهجمات، مثل شركتي الطيران أمريكان آيرلاينز ويونايتد آيرلاينز. في بادئ الأمر، ساد افتراض بأن بن لادن هو الذي دبّر تلك الهجمات، لكن الذي تبيّن سريعاً هو أن ذلك التخمين كان خاطئاً. «بن لادن لم يضرب، هكذا تقول لجنة رقابة المدينة»[126]، هذا هو العنوان البارز لمقال ظهر في صحيفة التايمس في 15 تشرين الأول (أكتوبر) 2001. حسناً، من فعل ذلك إذاً؟

الاهتمام بملاحقة من كانت لديهم معرفة مسبقة بالهجمات يبدو وكأنه اختفى بكل بساطة، وحتى «شبكة بلومبرغ للأخبار المالية»، الواقعة في نيويورك، لم تكرّس مساحة وافية، هذا إن فعلت، للاهتمام بهذه المسألة. لا حاجة أن يكون المرء عبقرياً لاكتشاف الصلة بين هذه الشركة وعمدة مدينة نيويورك مايكل بلومبرغ، صديق آل بوش. وكأن الجميع أصبحوا على قلب واحد، فشبكات الأخبار الرئيسية تركت القصة تنزلق جانباً. على أية حال، موضوع بهذا الحجم لن ينطوي بهذه البساطة، والتحقيق لن يتوقّف لمجرد أن بلومبرغ غير مهتم بمتابعته. جزء من الصعوبة قد يكمن في ضرورة فهم حركة السوق المالية، وحيث أن أكثر الناس لا يتاجرون بالأسهم، ليس هناك الكثير من الزخم لدى الرأي العام لمراقبة حركة هذه السوق واستكشاف الحقيقة من خلال تلك الحركة، كما أن عامل الرضى الفوري المتأتي من معرفة

الحقيقة بسرعة ليس عاملاً متوفراً في هذه المسألة؛ فمتابعة الأمر واستنتاج الحقائق يحتاج هنا إلى صبر وفهم ومتابعة.

من الضروري هنا تفسير وشرح كيفية استخدام الخيارات والمتاجرة بها، وقد تكون أفضل طريقة لفهم ذلك استخدام وثيقة التأمين على المخزونات الحقيقية كمثال. إذاً، لنتخيل شخصاً لديه استثمار كبير في شركة ما، «باسيفيك بيل» على سبيل المثال، ويريد ذلك الشخص أن يشعر بالأمـــان من مخاطر الهبوط في الأسعار، قد يشتري الخـــيار لبيع أســـهم «باسيفيك بيل» بسعر ثابت. إذا كان سعر السوق 100 دولار لكل سهم وقت الشراء، فيمكن شراء خيار البيع لجزء من تلك الأسهم. بهذه الطريقة، إذا هبطت أسعار الأسهم، لنقُل إلى 90 دولار لكل سهم، والخيار لكل سهم، الذي تم شراؤه بالجملة بمقدار 100 سهم في كل مرة، وهي كمية معروفة إجمالاً في أسواق الخيارات الأمريكية باسم العقد، فإن مالك الخيارات سيصبح في وضع آمن وقادراً على بيع أسهم «باسيفيك بيل» بسعر 100 دولار للسهم بالرغم من انخفاض القيمة. إذا كان سعر الخيار محسوباً على أساس 1 دولار لكل سهم، فهو يساوي إذاً ما يعادل عشر مرات من سعره الأصلي. بعد أخذ هذه المعادلة بالاعتبار، هناك من يستعمل هذا الأسلوب كشكل شرعي من أشكال الحماية التجارية، أحياناً تحت إشراف ورقابة من المؤسسات المالية لتأمين الحماية لاستثماراتهم الواسعة؛ التجّار يُصدرون، في أغلب الأحيان، الأوامر لوكلائهم لشراء هذه الأنواع من الخيارات بنسبة توازي مقدار الأسهم التي يشترونها، وذلك كاحتراس معقول.

بالنسبة للبعض، هناك جاذبية تكمن في استثمار خطر جداً يتضمن إمكانية الحصول على عائدات بمعدلات عالية. ليس من الضروري أن يمتلك الشخص الأسهم التي يشتري خياراتها، وهذا أحد الفوارق بين المتاجرة بالخيارات وامتلاك سندات التأمين. لذلك، إذا توقع شخص ما خسارة كبيرة في أسهم شركة محددة، يمكنه بكل بساطة أن يبادر إلى شراء الخيارات التي يستطيع أن يبيعها بسعر يوازي أو يقارب الفرق في السعر. شرحت الأمر وبسّطته، لكن ذلك لا يعني أن أي شخص يستطيع الخروج إلى الشارع ويباشر فوراً بشراء الخيارات؛ ينبغي تقديم رقم الضمان الاجتماعي، رقم الحساب المصرفي وبطاقة التعريف، بالإضافة إلى بعض التاريخ

التجاري السابق. هذه تجارة خطرة جداً، وهذا القول الأخير هو على سبيل الاحتراس ولتثبيط عزيمة البعض كي لا يقفزوا في هذا الخضم ويخسروا مدخراتهم. حين تنتهي مدة صلاحية الخيارات، فإن المال المدفوع ثمناً لها يضيع بالكامل، وهذا هو الفارق بين الخيارات والأسهم الحقيقية. الأسهم يمكن أن تباع في أي وقت، بينما الخيارات لها تاريخ انتهاء صلاحية محدد بأجل معيّن. في الولايات المتحدة، تاريخ انتهاء الصلاحية هذا يُحدد بتسمية الشهر والسنة، وفي يوم الجمعة الثالث من ذلك الشهر تنتهي صلاحية الخيار. وهكذا، الخيار الصالح حتى أيلول (سبتمبر) 2001 سينتهي في 21 أيلول (سبتمبر) 2001. الخيارات يمكن أن تُشترى لآجال قريبة، أو آجال بعيدة، وفي بعض الأحيان بتاريخ انتهاء صلاحية يمتد لعدّة سنوات قادمة.

يتم تعقّب ومتابعة الخيارات يومياً، مع إعلان الأسعار كي يستطيع عموم الناس الاطلاع عليها، بالإضافة إلى إعلان الكميات المتاحة منها أيضا. في العديد من الحالات، توجد خيارات معيّنة لا تشهد أي نشاط. أما بالنسبة لخيارات الشركات الكبرى، مثل يونايتد آيرلايتز، أمريكان آيرلايتز، ومورجان ستانلي دين ويتير، (إم إس دي دبليو)، هناك مقدار معين من التغيّر في السعر، عموماً، بنسبة 10% ارتفاعاً أو انخفاضاً. إن أي تغيّر حاد ورئيسي في كمية المتاجرة بالخيارات قد يشير إلى أن شخصاً ما يمتلك معرفة مؤكدة حول حركة أسعار الأسهم صعوداً أو هبوطاً، وهذا التغير في حجم المتاجرة يتم تعقّبه من قبل «خدمة المدراء التنفيذيين» (إس إي سي) ووكالات أخرى. وهم لا يراقبون هذه التغييرات الكبيرة في النشاط كإشارة على وجود مطلّع على الأمور من الداخل فقط، وفي هذه الحالة يمكنهم بمنتهى السهولة فحص مصدر كل عملية متاجرة وتعقّب الأفراد واستجوابهم، لكنهم توصلوا، حتى قبل 9/11، إلى معرفة مفادها أن بعض أنماط تلك التجارة قد يساعد على التنبؤ بحلول كارثة وشيكة، ولهذا السبب تم اختراع وتطوير أنظمة وبرامج، مثل برنامج «بروميس» لتعقّب حجم التعاملات التجارية، بشكل فوري وفي الوقت الحقيقي. إن تتبع حجم التعاملات التجارية مفهوم أساسي في صناعة الخدمات المالية، وهو جزء من المبدأ الاقتصادي «إيكونوميكس 101»، وتتم مناقشته يومياً على شاشات التلفزيون. في الأيام الصاخبة لبورصة

«ناسداك»، وقد أصبح هذا نوعاً من الهوس الوطني تقريباً، والارتفاع في حجم التعاملات التجارية المصحوبة بارتفاع في أسعار الأسهم يندفع الناس لشراء الأسهم العائدة لشركات كانت مجهولة سابقاً، وهي الشركات التي يُشار إليها بمصطلح «دوت كوم»، أو، إذا كان حجم التعاملات التجارية كثيفاً، لكن باتجاه هابط، فقد يؤدي ذلك إلى عمليات بيع كثيف مصحوب بموجة من الهلع. حجم التعامل بالخيارات التجارية له مغزى أيضاً، وبالرغم من أنها سوق ثانوية، إلا أنها تعتبر حقلاً خصباً تُجنى فيه الثروات الطائلة التي تتأتى من الاطلاع على بواطن الأمور، وأحيانا بالاستثمار بمبالغ زهيدة إلى حدّ ما.

للتعمّق أكثر في هذا الموضوع، أوصي بقراءة كتاب فرانك بارتنوي المعنون F.I.A.S.C.O (الإخفاق التام)[127]. والكاتب تاجَر من قبل بالخيارات وعمل في الثمانينات لصالح بعض الشركات الأمريكية الرئيسية. وفي كتابه المذكور يوضّح هذا العالم الغامض والخفي ويتحدث عن أخطاره والضغوط الكامنة فيه، كما يتحدث عن تدهور الاقتصاد الياباني بسبب كمية الخيارات الغير واقعية التي كانت قد بيعت باستخدام تقنيات البيع التي تعتمد الضغط العالي في الثمانينات لتمويل المدراء الذين نقلوا تلك الحسابات إلى الأجيال القادمة التي ورثت كارثة.

إذا تفحصنا تجارة الخيارات المتعلّقة بهجمات 9/11، فسنجد نمطاً واضحاً من المعرفة المسبقة ببواطن الأمور والرغبة في الربح من خسائر الآخرين. كريس بلاكهورست كتب الملاحظات التالية في صحيفة الإندبندنت:

> إضافة إلى ما يعانيه المحقّقون من حرج وانزعاج، تبيّن أيضا أن الشركة التي استُعملت لشراء العديد من خيارات «المراهنة» على هبوط أسهم اليونايتد آيرلاينز - حيث يقوم التاجر، في الواقع، بالمراهنة على سقوط سعر سهم معيّن - ترأسها حتى العام 1998 «الثرثار» كرونغارد، الذي أصبح الآن المدير التنفيذي لوكالة المخابرات المركزية.
>
> حتى العام 1997، كان السّيد كرونغارد رئيساً لشركة «أليكس براون» المحدودة، وهي الشركة الأمريكية الأقدم في مجال البنوك والاستثمار. «أليكس براون» اشترتها «بانكرز ترست»، التي أصبحت بدورها ملكاً للبنك الألماني «دويتش بانك». وظيفته الأخيرة، قبل استقالته للعب دوره الكبير في وكالة المخابرات المركزية، كانت رئيساً لشركة «بانكرز ترست» - وهي

زبون خاص لدى شركة «أليكس براون» ، وتتعامل مع حسابات واستثمارات الزبائن الأكثر ثراء حول العالم[128].

المحقّق الأمريكي مايكل ربّيرت يتابع الحديث على نفس الموضوع، وفيما يلي خلاصة ما توصل إليه:

خيارات يونايتد آيرلاينز شُريت بين السادس والسابع من أيلول (سبتمبر) من بورصة خيارات شيكاغو وحُدّد عددها برقم 4744 عقد رهان مقابل 396 نداء (الرهانات هي خيارات تباع بسعر مؤكد، بينما النداءات هي خيارات تُشترى بسعر معيّن). عكس هذا التعامل ارتفاعاً مفاجئاً في الرغبة في البيع، وقيمة الرهانات خُمّنت بقيمة 5 ملايين دولار.

في نفس البورصة، تم شراء 4510 عقد رهان في العاشر أيلول (سبتمبر)، مقابل 748 نداء. تبيّن هذه المقارنة ربحاً محققاً قيمته 4.5 مليون دولار.

شركة مورجان ستانلي دين ويتير وشركائهم، التي فقدت اثنان وعشرون طابقاً من مكاتبها في برجي مركز التجارة العالمي، جذبت الانتباه أيضاً، والسجلات تبيّن أن 2175 عقد رهان شُريت مع تعيين تاريخ انتهاء الصلاحية في تشرين الأول (أكتوبر)، بالمقارنة مع معدل 27 عقد في الخامس من أيلول (سبتمبر). الأجل القصير لانتهاء الصلاحية مثير للاهتمام، كما أن عمليات شراء العقود الأخرى تميّزت بقصر آجال انتهاء الصلاحية، وبمعنى آخر، كان هناك سبب للاعتقاد بأن شيئاً سلبياً سيحدث ضمن أجل قريب؛ مشترو الخيارات الأكثر قدرة على التخمين يعطون أنفسهم وقتاً أطول من ذلك.

من المستحيل أيضاً إهمال حجم عقود الرهان في ميريل لينش وشركائهم، حيث تم شراء حوالي 21215 عقد رهان من عقود تشرين الأول (أكتوبر) قيمتها 45 مليون دولار، وذلك قبل أربعة أيام من الهجمات، في مقابل معدّل يومي مقداره 252 عقداً.

في أوروبا، لاحظ المراقبون الرسميون أنماطاً كثيفة ونشطة من التعامل التجاري في شـــركة «ميونخ لإعادة التأمين» وشركة «السويسرية لإعادة التأمين» وشركة «أي إكس أي»، وجميعها تضررت من الهجمات - «أي إكس أي» كان هدفاً مضاعفاً في الهجمات، ذلك أنها ليست شركة تأمين فقط، بل تملك 25% من أسهم خطوط أمريكان آيرلاينز.

ليس كل تغيير في حجم التداول يعكس بالضرورة أخباراً سيئة، فشركة «في آي إس جي» وشركة «آي إن في إن»، وهما شركتان تعملان في مجال أمن الإنترنت، شهدتا ارتفاعاً في حجم التداول المتاجرة بأسهمهما، كما حدث بالنسبة لشركة «باير»، المنتج الألماني لعقار

السايبرو، والتي شهدت ارتفاعاً بنسبة 1000% في حجم التعاملات التجارية بأسهمها في آب (أغسطس) 2001 بالمقارنة مع معدّل الشهر السابق[129].

يشير ربّيرت إلى أن وكالة المخابرات المركزية كانت في أغلب الأحيان متورطة في الأعمال المصرفية، ويسرد نشاطات مؤسسي الوكالة في هذا المضمار، جون فوستر وألن دالاس، الذين كانا شريكين في بعض شركات وول ستريت مثل «سوليفان» و«كروموبل»، أو بيل كايسي رئيس وكالة المخابرات المركزية في الثمانينات الذي كان سمساراً في وول ستريت. حالياً، نائب رئيس القسم التنفيذي لسوق نيويورك للأوراق المالية هو ديفيد دوهرتي، المستشار العام (المتقاعد) لوكالة المخابرات المركزية. شركة «بانكرز ترست أي. بي. براون» كان موضع تحرّيات من قبل السيناتور ليفين في التسعينيات الذي استنتج بأنها على علاقة بعمليات غسل الأموال[130].

هناك، في مكان ما في العالم خائن، أو عدد من الخونة، الذين تلطخت أيديهم بالدماء. والحقيقة أن سوق نيويورك للأوراق المالية التي أغلقت لمدّة أسبوع بعد الهجمات لربما جعلت تعاملات أولئك الخونة واضحة للعيان، وإلا لكانوا أغلقوا مواقعهم في الحادي عشر[131]. الصحافة التزمت الصمت حول هذه القضية، ومن الغريب أنه، حتى بعد توقيف ثلاثة رجال من مكتب التحقيقات الفدرالي في أيار (مايو) 2002 بتهمة الاستغلال التجاري للمعلومات الداخلية فيما يتعلق بأحداث 9/11[132]، كان هناك القليل من الاهتمام بهذه المسألة في وسائل الإعلام. هل كان لدى هؤلاء الرجال أسراراً حكومية يحملونها في أيديهم كدرع يحميهم من أن يحاكموا؟ التاريخ يكرّر نفسه في هذا الاتجاه، وبناء على هذه الملاحظة يمكننا أن ننتظر نهاية هؤلاء التجّار المخادعين وهي النهاية التي ستكون شبيهة بنهاية يهوذا.

فطور الخاسرين

بينما كان نهر المال يتدفق باتجاه، كان هناك جدول ينساب باتجاه آخر، وهو أيضا، بحاجة إلى تحقيقات مكثّفة. ذلك الجدول هو مبلغ 100 ألف دولار الذي وصل إلى محمد عطا من مسانديه. وهو المبلغ المتصل تالياً، حسب صحيفة تايمز أوف إنديا في عددها الصادر بتاريخ 9 تشرين الأول (أكتوبر) 2001، برئيس الاستخبارات الباكستاني الجنرال محمود أحمد. تقول

الصحيفة: «أرادت السلطات الأمريكية إزاحته من منصبه بعد تأكيد الحقيقة القائلة بأن المائة ألف دولار وصلت إلى محمد عطا، وهو أحد الخاطفين الذين هاجموا مركز التجارة العالمي، من باكستان من طرف [عمر سعيد] حسب طلب الجنرال محمود [أحمد»][133]. أين كان الجنرال محمود في صباح 9/11؟ كان يجلس إلى طاولة مشتركة مع عضو مجلس النواب بورتر غوس (جمهوري-فلوريدا) والسيناتور بوب غراهام (جمهوري-فلوريدا) في واشنطن؛ وكلاهما تولى لاحقاً رئاسة اللجنة التابعة للكونغرس والتي تشكّلت للتحقيق في هجمات 9/11. مايكل شوسودوفسكي كتب في حزيران (يونيو) 2002 حول هذه الحادثة الغريبة والحقيقيةفي آن معاً، مستشهداً بالسؤال الذي طرحه أحد المراسلين في 16 أيار (مايو) 2002 على غوندوليزا رايس:

> المراسل: هل أنت على علم بالتقارير التي تحدثت في ذلك الوقت حول رئيس الاستخبارات الباكستانية الذي كان في واشنطن في الحادي عشر في أيلول (سبتمبر)، وفي العاشر من أيلول (سبتمبر) وصل مبلغ 100 ألف دولار من باكستان إلى تلك المجموعات، هنا في هذه المنطقة؟ ولماذا كان هو هنا؟ هل اجتمع بك أو مع أي شخص في الإدارة؟
>
> رايـس: أنا لم أر تلك التقارير، وهو بالتأكيد لم يجتمع بي[134].

نظراً لمنصب الآنسة رايس كمستشارة للأمن القومي، فمن الغريب وغير المنطقي، في الحقيقة، أنها لم تجتمع به، خصوصاً وأنه قطع كل هذه المسافة في رحلته؛ الجنرال أحمد كان في مبنى الكابيتول في الأسبوع السابق للهجمات، وبقي بضعة أيام بعدها. مصادر رسمية قالت بأنه كان «متألماً ومتعاطفاً جداً مع الشعب الأمريكي»[135]. وما يود المرء أن يعرفه هو ما الذي كان يفعله بشكل غير رسمي، والشخص الوحيد الذي يمكن، أو كان بالإمكان، طرح هذا السؤال عليه، هو عمر سعيد، الذي أُعدم منذ ذلك الحين بعد إدانته بجريمة خطف وقتل المراسل الأمريكي دانيال بيرل.

يكفي عائلة بوش سوءاً أنها ساعدت على جمع المال وإعطائه لتيسين كي تتوفر لهتلر القدرة على انطلاقته في العشرينات، لكن تقديم المساعدة والدعم للعدو وقت الحرب يعتبر خيانة. مصرف بوش ساعد آل تيسين في صناعة الفولاذ النازي الذي قتل جنود الحلفاء. وبقدر ما يبدو تمويل آلة الحرب النازية عملاً شائناً، إلا أن المساعدة والتحريض على جرائم المحرقة كان أسوأ. مناجم

فحم آل تيسين استخدمت العبيد اليهود كما لو كانوا مواداً كيميائية غير مفيدة بعد الاستعمال. هناك ستّة ملايين هيكل عظمي في حجرة آل تيسين العائلية، بالإضافة إلى عدد كبير من الأسئلة الإجرامية والتاريخية التي تحتاج إلى إجابة حول تواطؤ آل بوش. - جون ج. لوفتوس، مدّعي أمريكي سابق[136].

جاسوس أمريكي وأكاذيب حكومته في محكمة كندية

شخص آخر ينبغي استجوابه هو ديلمارت «مايك» فريلاند. قبل فترة قصيرة من الهجمات، كان معتقلاً في سجن في تورنتو بكندا. قضيته لغز مبهم تماماً. وكان قد سجن منذ السادس كانون الأول (ديسمبر) 2000، وفي منتصف شهر آب (أغسطس) 2001، بعد محاولته التحدث مع سجّانيه حول الهجمات القادمة، كتب بعض المعلومات ووضعها في ظرف مختوم ثم سلّمه إلى إدارة السجن، وهذه حقيقة تكفلت بها السلطات الكندية. تتضمن الرسالة سرداً لعدد من الأهداف من ضمنها وزارة الدفاع الأمريكية، مركز التجارة العالمي، البيت الأبيض، البنك الدولي، مبنى البرلمان الكندي ورويال بنك في تورنتو. وقد جاء في الرسالة أيضاً «دعوا واحداً من الهجمات يحدث، وأوقفوا البقية»[137]. وثيقته قُرأت في الرابع عشر من أيلول (سبتمبر) 2001، ومنذ ذلك الحين أحدثت ضجّة كبرى. يدّعي فريلاند بأنه أُرسل كمبعوث غير رسمي إلى الاتحاد السوفيتي وكان يحمل معلومات حول الهجمات حين كانت في مرحلة التخطيط، في حين أن الولايات المتحدة تدّعي بأنها تريده بناء على مذكرة اعتقال بتهمة الاختلاس بواسطة بطاقة إئتمان، لكن فريلاند ينفي ذلك زاعماً أنها مجرد حيلة لوضع اليد عليه وتحطيم مصداقيته. يقول أنه ضابط مخابرات بحري أمريكي، والكنديون لديهم سبب للاعتقاد بصحة مزاعمه، على العكس من الولايات المتحدة. مدّعيان كنديان سابقان، روكو غالاتي وبول سلانسكي، وافقا على ما جاء دعواه، وكلاهما تعرضا للمضايقات التي تضمّنت تعليق القطط الميتة على أبواب المنازل وتحطيم زجاج نوافذ السيارات[138].

ذهبت الحكومة الأمريكية بعيداً لإثبات أن فريلاند كان مجرد أداة، وقدّمت تقريراً يتألف من 1200 صفحة، وهو التقرير الذي يفترض أن يكون سيرته الكاملة كمجنّد في البحرية تم تسريحه بعد بضعة شهور في 1986. لنتساءل كبداية، لتفنيد هذه المهزلة النتنة؛ هل يخصصون

حقاً ما يقارب عشر صفحات كتقرير عن النشاط اليومي لكل مجند في البحرية؟ من المشكوك فيه أن يقوم أحد بمثل هذا العمل المرهق، كما أن الكنديين تفحصوا التقرير ووجدوا فيه تضارباً وتناقضاً شديداً، خاصة فيما يتعلق بالتواريخ العائدة للتسعينيات، بالرغم من أن ذلك التقرير أقرب إلى كونه يتحدث عن رجل سُرّح من الخدمة في العام 1986. تم استخلاص ملاحظات حول التفاصيل الواردة في التقرير والتي تبدو وكأنها كُتبت بنيّة اختلاق الأكاذيب، مما جعل كندا تتوصل إلى اعتقاد بأن جارتها مخادعة. الكاتب ربّيرت يتذكّر تلك الحادثة المحرجة في كتابه الصادر بتاريخ كانون الثاني (يناير) 2002 بعنوان «من البريّة»:

في 10 كانون الثاني (يناير) 2002، وباتباع تكتيك على طريقة بيري مايسون (محامي أمريكي شهير)، ومع المخاطرة بأشد الضرر على موكله إذا فشل، حصل المحامي سلانسكي على إذن من القاضي يسمح له بالاتصال المفتوح بوزارة الدفاع الأمريكية من داخل قاعة المحكمة. وباستخدام هاتف موصول بمذياع، وأمام ستّة شهود على الأقل، اتصل سلانسكي أولا باستعلامات الهاتف وحصل على رقم هاتف مقسم وزارة الدفاع الأمريكية. ثم، وبعد أن اتصل بذلك الرقم، طلب من عامل مقسم وزارة الدفاع تحديد مكان مكتب الملازم أول ديلمارت فريلاند. خلال لحظات أكد عامل المقسم وظيفة فريلاند ورتبته كملازم من الدرجة 3-0، ثم رقم غرفته وأعطى سلانسكي رقم الاتصال المباشر به[139].

الناس يكذبون، رجال الأعمال والتجار يكذبون، والحكومات تكذب، والكل يحاول أن يقول شيئاً يجافي الحقيقة. بعض الأطراف إذا ضُبط وانكشفت أكاذيبه يصبح عدوانياً فيتصرف بشكل عدائي؛ في قضية فريلاند، ضُبطت الحكومة وهي تكذب، لكنها ما كانت لتُسلّم بالأمر، وواصلت الولايات المتحدة معركتها للحصول عليه واسترداده إلى الأراضي الأمريكية. أُعطي حق اللجوء في كندا وسمح له بالعيش هناك وأُسكِن في مكان لم يُعلن عنه. في منتصف شهر آب (أغسطس) ظهرت على شبكة الإنترنت شهادة وفاة له صادرة من ميتشيغان[140]، وزُعم أن جرحاً في الرأس ناجماً عن رصاصة كان هو السبب الرئيس لموته. تبيّن لاحقاً أن شهادة الوفاة كانت مزيفة، ونُشر على شبكة الإنترنت ما يناقض ذلك الزعم. بعد فترة قصيرة من تلك الخدعة، وضع المغني الأمريكي تيري ويمز عنوان بريده الإلكتروني في موقع unansweredquestions.org على شبكة الوب، مبدياً استعداده لتكذيب فريلاند،

مدعياً أنه شقيقه. إتصلتُ بويمز، فجاءني منه رد مليء بالاتهامات المشتتة وغير المؤكّدة[141]. فحوى ما قاله هو أن فريلاند لم يسبق أن ذهب أبداً إلى روسيا. أدهشني الرد العاطفي والسريع من شخص غريب كليّاً، وكان راغباً في التقليل من مصداقية أقوال فريلاند. شنّ ويمز هجومه، لكنه لم يقدم أية براهين. ليس مستحيلاً أن تكون بعض أو كلّ أقوال ويمز صحيحة، ففي أغلب الأحيان لا يتم انتقاء العاملين في مجال الاستخبارات بناء على مواصفاتهم الشخصية الأكثر صدقاً نزاهة، والعديد من الأشباح لديهم، كجزء من شخصيتهم، الاستعداد ليكونوا أدوات يتم تحريكها، ويسمحون لمن يحركهم بالتلاعب بهم، وتكذيبهم، إذا دعت الحاجة. تبعت ذلك مناقشات كثيرة في غرف الدردشة على شبكة الإنترنت وكان موضوع معظم تلك المناقشات يدور حول من هو فريلاند، واستنتج الكثيرون عدم وجود ما يكفي من البراهين لتصديق قصّة ويمز. لذلك، من هو ويمز؟ هل كان يعمل لصالح الحكومة الأمريكية؟ التخمين مسألة سهلة والكثير من الحمقى يجهدون أنفسهم فيه؛ وللوصول إلى خلاصة مفيدة، ينبغي أن يتمسّك المرء بالحقائق، والحقائق في حالة فريلاند هي أن الحكومة الأمريكية تكذب، وعلى نحو جدّي جداً.

دكتور الحب الغريب

في 23 آذار (مارس) 2003 تعرقل العمل في مطار لا غوارديا في مدينة نيويورك بسبب إنذار جمرة خبيثة. طبقا للتقارير، زعمت مسافرة قادمة من إسرائيل أن لديها في حقيبة يدها بويضات الجمرة الخبيثة. لسبب ما، سُمح لها بمتابعة رحلتها متجهة إلى تكساس[142]. في أمة حتى ضبّاط الجيش الأمريكي يُعتقلون فيها إذا ارتكبوا خطأً، يتوقع المرء أن يتم الترحيب بتلك المرأة وقطع رحلتها في مطار لا غوارديا. هل اهتم أحد بالسؤال ما إذا كانت ذاهبة لنشر تلك الجرثومة وإلقاء اللوم على المسلمين، باعتبار أن غزو العراق واحتلاله كان وشيكاً، وكانت الحاجة ماسة للزخم اللازم لمحاربة المتظاهرين من أجل السلام؟ إذا دقق المرء النظر في الواقعة، فربما تبيّن له أن تركها تمضي في سبيلها لم يكن سابقة فريدة، إذا علمنا أن الدكتور ستيفن هاتفيل حر طليق يجوب أنحاء البلاد كيف شاء، وهو الذي قال أنه يحبّ[143]. هذا التصريح،

الذي أعلنه لعملاء مكتب التحقيقات الفدرالي في آب (أغسطس) 2002، قد يكون البيان الأكثر سخافة على الإطلاق.

محادثة هاتفيل الإنفرادية بمكتب التحقيقات الفدرالي جاءت بعد الضغط الكثير على تلك الوكالة لاعتقاله، خصوصا من الدكتورة باربارة هاتش روزينبيرغ من جامعة ولاية نيويورك؛ صادف أيضا أن روزينبيرغ كانت رئيسة لجنة الحدّ من الأسلحة البيولوجية لعلماء الإتحاد. أشارت بإصبع الاتهام إلى هاتفيل، وهو نفسه خبير إرهاب بيولوجي، لكن الحكومة لم تفعل شيئاً[144]. تكلّمت علناً في جامعة برينستون في نيو جيرسي، غير بعيد عن المكان الذي أُرسلت منه أولى رسائل الجمرة الخبيثة ، وفي خطابها مارست ضغطاً على مكتب التحقيقات الفدرالي لإستجواب هاتفيل. مرّ وقت طويل قبل أن يبادروا أخيراً إلى تفتيش بيته، وسألوها ما إذا كان أحد ما يحاول ضبط هاتفيل والإحاطة به[145]. الدكتورة باتريسيا دويل من معهد «بوتوماك» اشتبهت بهاتفيل أيضا، وفي رسالتها المؤرخة في 7 حزيران (يونيو) 2002، والمنشورة في موقع rense.com على شبكة الوب، أوردت عدّة أسباب قوية تعزز اعتقادها هذا[146]. بين الأسباب التي ساقتها أن هاتفيل كُلّف فعلياً في العام 1999 بدراسة احتمال استخدام الجمرة الخبيثة كسلاح إرهاب بيولوجي. في تلك الدراسة، مُلئت الرسائل بمقدار 2.5 ملغ من مادة مصفوفة ثم وضعت داخل من مغلفات من النوع المستخدم في الأعمال التجارية وختمت بشريط في طرفها العلوي. هكذا رُزمت رسائل الجمرة الخبيثة عام 2001[147]. مرّت تلك التجارب بمراحل الإرسال والفتح داخل مختبر، لكن الأمر الوحيد الذي لم يؤخذ في الحسبان في دراسة هاتفيل كان الثقوب الصغيرة في المغلفات التي تُحدثها آلات فرز الرسائل في مراكز البريد. في هجمات جمرة الخبيثة الفعلية، تسببت تلك الثقوب في تسرب الجمرة الخبيثة وأصابت عمال البريد فمات اثنان منهم في تشرين الأول (أكتوبر) 2001.

جماعة الجمرة الخبيثة وهاتفيل لم يكونوا مقيّدين بهذه الدراسة التي أجريت في العام 1999، ذلك أنه لفت الانتباه عام 1997 حين وصل مغلف ملوّث بالجمرة الخبيثة إلى مكاتب منظمة «بناي بريث» اليهودية في واشنطن[148]. في آب (أغسطس) 2000، غادر هاتفيل المركز الأمريكي للأبحاث الطبية العسكرية وبحوزته صندوق لحفظ المواد البيولوجية، وقد اختفى

الصندوقان بكل بساطة، أو هكذا ادعى[149]. في العام 1977، كان هاتفيل في وسط حادثة تفشي الجمرة الخبيثة في روديسيا والتي قتلت مائتي شخص وأصابت عشرة آلاف، معظمهم من الأفارقة المحليين[150]. في ذلك الوقت كان هاتفيل يعمل لصالح معهد الجيش الأمريكي للمساعدة العسكرية، ومن المحتمل أن يكون قد عالج الجمرة الخبيثة كجزء من عمله في ذلك المعهد، بالرغم من إنكاره لذلك. مسكنه كان في ضاحية غنية من ضواحي هراري، وفي تلك الضاحية كانت هناك مدرسة ابتدائية اسمها «غرينفيلد»، بينما ليس هناك مدرسة بذلك الاسم في نيو جيرسي. كان هذا هو الاسم الذي استُعمل كعنوان المرسِل على مغلفات رسائل الجمرة الخبيثة.

الدكتورتان دويل وروزينبيرغ تابعتا الضغط، وفي منتصف شهر آب (أغسطس) من عام 2000 داهم عناصر مكتب التحقيقات الفدرالي بيت الدكتور هاتفيل. وبينما كانوا يعملون، بدأت الكلاب بالنباح؛ نفس الكلاب التي كانت قد أحاطت ببيوت المشتبه بهم الآخرين، لكنها لم تفعل ذلك[151]. في سكن الدكتور هاتفيل، تعرفت الكلاب على رائحته فوراً من خلال المغلفات التي كانت قد تشمّمتها. بعد التثبّت من هذه الوصلة، دخل عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي إلى البيت، وهناك اكتشفوا على حاسوبه تفاصيل مؤامرة لنشر الإرهاب البيولوجي. وجدوا أيضاً وصفة لعقار «سايبرو»[152]. وحين أجروا تحقيقاً حول هوية هاتفيل ودققوا في سجله، وجدوا أن لديه عادة سرد الأكاذيب، وكان يدعي الانتماء إلى جمعيات خيالية. الجمعية الملكية للعلماء، على سبيل المثال، والتي ادعى عضويتها، لم يسبق لها أن سمعت به عندما تم الاتصال بمكتبها في لندن للتأكد من عضويته فيها[153].

ماذا يحتاج الأمر لاعتقاله؟ لا شيء مهم إذا كنت أمريكياً-أفريقياً من سكان توليا بولاية تكساس، حيث أن تدبّر عملك الخاص هناك قد يكون في الحقيقة مسألة خطرة. في هذه الأيام، حتى المتظاهرين من أجل السلام يمكن أن يُعتقلوا لأسباب أقل بكثير من امتلاك مخطط أسلحة الإرهاب البيولوجي المحفوظ على الأقراص الصلبة في حواسيبهم، وفي الحقيقة، في بلد الحريات يقومون الآن «باعتقالات وقائية». هذا ما حدث لعدد من الأمريكيين الملتزمين بالقانون الذين أعتُبروا من المحتجين على قمة مونساتو، وكانت المهزلـــة أشبه بمشهد من فيلم

«تقرير الأقلية» السينمائي. لم تكن لأي منهم علاقة بمواضيع الإرهاب البيولوجي، بل كانوا، في الحقيقة، مثل سكّان توليا، يتدبرون أعمالهم الخاصة عندما امتدت إليهم يد السلطة القانونية الطويلة ومسّهم.

في المجتمع الطبي، هناك صوت واحد فقط الذي يدافع عن هاتفيل ويعتقد ببراءته، وهذا الصوت ليس سوى صوت الدكتور ليونارد هورويتز، الفيزيائي المعروف والخبير في الإرهاب البيولوجي. في مقابلة لي مع الدكتور هورويتز سألته لماذا يعتقد أن الدكتور هاتفيل يمكن أن يكون بريئاً، فرد الدكتور هورويتز مشيراً إلى أن كين أليبك (الهارب الروسي، المولود باسم كانتاجان أليبكوف) كان المشتبه به الأكبر، وأن أليبك كان في أغلب الأحيان في شركة وليام باتريك الثّالث[154]، والذي يشك الدكتور هورويتز بتورطه. الدافع المالي ربما كان السبب الرئيسي لهجمات الجمرة الخبيثة، ومن الجدير بالذكر أن شخصاً ما حاول أن يخفي مسئوليته عن هذا العمل بجعله يبدو وكأنه هجوم إرهابي قام به مسلمون. لفت الدكتور هورويتز إنتباه الناس إلى الصلة بين دواء «السايبرو» وشركة «باير»، الشركة المصنّعة لدواء «السايبرو»، وشركات أخرى. ويشير أيضاً بإصبع الاتهام إلى شركات أخرى مثل «أورافاكس»، «أكامبيس»، «بيوبورت»، و«باتيلي»، كجهات مشتبه بها[155]. شركة «بيوبورت» هي التي تعرضت للتفتيش في منتصف شهر تشرين الأول (أكتوبر) 2001 ولم يُسمح لها بإنتاج أي لقاحات مخصصة للإستعمال البشري. المستثمرين الرئيسيين في تلك الشركة هما رجل الأعمال السعودي فؤاد الهبري[156] ومجموعة كارليل. «أورافاكس/أكامبيس» كانت قد مُنحت عام 1999 عقداً بقيمة 343 مليون دولار لإنتاج لقاح ضد الجدري الذي يُحتمل استخدامه كتهديد إرهابي بيولوجي[157]. كان لديهم مخزون احتياطي مقداره 40 مليون جرعة، وقد ازداد ذلك المخزون بشكل مثير منذ الهجمات، مما سبب ارتفاعاً مثيراً في أسعار أسهم هذه الشركة التي كانت تعاني سابقاً من الخسائر. حالة الخوف الراهنة وفرت دعماً لكل هذه الشركات، كما أن شركة «باتيلي»، التي تعمل مباشرة مع وكالات الاستخبارات الأمريكية، هي التي سُمح لها بمباشرة العمل على جعل الجمرة الخبيثة نوعاً من الأسلحة[158]. بمنتهى الحكمة، يلفت الدكتور هورويتز الانتباه إلى أولئك المستفيدين من الجريمة، وربما كانت

الشركة التي يعمل فيها الدكتور ألبيك هي المستهدفة أكثر من غيرها ضمن هذا السياق التحليلي، لكن الذي لا يمكن استثناءه من ذلك هو الدكتور هاتفيل، ومن المحتمل أن يكون كلاهما ضالع في المسألة. بعد التدقيق الشديد، تبيّن أن هناك اختلاف في الإجراءات التي أتبعت لإرسال رسائل الجمرة الخبيثة، وقد تبيّن أيضاً بأن شخصين على الأقل اشتركا في تغليف الرسائل[159]. لم لا يكونان المشتبه بهما الأكثر وضوحاً؟ قد يكون السبب هو أن ذلك سيؤدي إلى الاعتراف بأن إرهاب 9/11 وما تلاه من أفعال ذات علاقة هي خدعة كبرى مما سيفتح الباب على حقيقة ما يجري وما هو مستمر الحدوث.

صُنع في أمريكا

حين تعزز الإدراك العام بأن الإرهابيين المسلمين ليسوا هم المتهمين الحقيقيين في الهجمات الإرهابية البيولوجية، أظهر الكثير من الناس التعقّل وباشروا البحث عن الحقيقة داخل البيت. ظهرت إشارة أخرى توحي بأن هذا العمل كان مشروعاً محلياً حين تبيّن بأن نوع الجمرة الخبيثة كان أمريكي المصدر، شبيه بالنوع الذي أُنتج في جامعة ولاية أيوا للعلوم والتكنولوجيا في أميس والذي استخدمه الجيش الأمريكي[160]. ومن غرائب الأمور أن الدفعة الأصلية من هذه المادة أتلفت في تشرين الأول (أكتوبر) 2001 بإذن من مكتب التحقيقات الفدرالي[161]. لم يكن مصدر الفيروس أمريكياً فحسب، بل أن مواد الطحن المستعملة في إنتاج الجمرة تتألف من معجونة «البنتونايت» و«السيليكا»[162]، المستعملة عموماً من قبل الباحثين الأمريكيين.

بالتأكيد كان هناك مستوى من البراعة في المسألة، والاعتقاد بأن أجانب يديرون مختبراً للإرهاب البيولوجي في الولايات المتحدة بعد 9//11 يبدو اعتقاداً واهياً. بالنسبة لمجموعة من الأمريكيين، على أية حال تبدو مسألة محتملة، إذا كانت هذه العملية هي عملية سرية من صنع الحكومة الأمريكية، فمن المعقول والمنطقي إذاً أن تمر هكذا دون أن تنكشف. إن توقيت الرسائل مشكوك فيه أيضاً، ويبدو أن له مفاعيل في السياسة الأمريكية أكثر مما له علاقة بالجهاد. في الحقيقة، كان المستهدفون بتلك الرسائل من الديمقراطيين، وليس الجمهوريين

الذين هم موضع الكراهية الأشد من قبل أي مثير حقيقي للشغب ينتمي لتنظيم القاعدة. وإذا دققنا النظر في توقيت الإرسال، فسيصبح الاستنتاج سهلاً والغاية من ذلك واضحة.

إرسال رسالتين تحتويان على الجمرة الخبيثة في 18 أيلول (سبتمبر)، واحدة إلى صحيفة نيويورك بوست والأخرى إلى توم بروكاو من شبكة إن بي سي نيوز جاء بعد اقتراح قانون مكافحة الإرهاب، الذي قُدّم في 16 أيلول (سبتمبر)[163]. قُدم هذا القانون في الكونغرس في الثاني من أيلول (سبتمبر)، في ذلك الوقت كانت وسائل الإعلام، التي أُرسل الفيروس إلى العاملين فيها، كانت مدركة للمخاطر تمام الإدراك وتقوم بتأدية واجبها المطلوب في لفت الانتباه الوطني إلى تلك المخاطر، ومن تلك المخاطر زيادة دعم الإجراءات الحاسمة التي تحد من الحريات المدنية. في الثالث تشرين الأول (أكتوبر)، أُدخل المراسل بوب ستيفنز، المحرر في صحيفة «صن» في بوكا راتون بولاية فلوريدا، إلى المستشفى بعد إصابته بالجمرة الخبيثة، ومات في الخامس منه. بعد ذلك بوقت قصير، بدأ الناس يطرحون الأسئلة حول دوافع الجمهوريين وحول التناقضات فيما ظهر وأعلن من تفاصيل ما جرى في 9/11. في الثامن من ذلك الشهر، ذكرت صحيفة الواشنطن بوست «فقد الكونغرس بعضاً من الوحدة في الموقف التي نجمت عن الصدمة والتي رد بها في البداية على الهجمات[164]. في اليوم التالي مَنعت السيناتور ديان فينغولد (ديمقراطية-كاليفورنيا) محاولة الإسراع في تمرير «قانون الوطنية» دون مناقشته وتعديله حسب الضرورة؛ كما أنها انتقدته أيضاً واعتبرته تهديداً للحرّية[165]. في ذلك اليوم نفسه، أُرسلت رسالتان إضافيتان من ترينتن بولاية نيو جيرسي، واحدة إلى السيناتور توم داشيل (ديمقراطي-داكوتا الجنوبية)، زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ آنذاك، وواحدة إلى السيناتور باتريك ليهي (ديمقراطي-فيرمونت)[166]، وكلاهما كانا يصرّان على ضرورة العناية الفائقة في مناقشة ومراجعة «قانون الوطنية». في السادس عشر من ذلك الشهر تم إغلاق مباني مجلس الشيوخ، وذلك مباشرة بعد بيان بوش الذي قال فيه أن هجمات الجمرة الخبيثة قد تكون مرتبطة بأسامة بن لادن وتنظيم القاعدة[167].

إذا كان الأمر كذلك، هل تريد القاعدة فعلاً أن تقتل بضعة «كفار» فقط، وهل يريدون الإبقاء على الجمهوريين وهم يرفلون بالصحة ويسيطرون على المقدرات الهائلة كي يبدءوا

بشن الحروب الصليبية؟ وحين أصبح الديمقراطيون هدفاً للهجوم من قبل «الإرهابيين»، مرّر الكونغرس «قانون الوطنية»، ومما زاد كثيراً في بهجة الجمهوريين الذين سلموا من «الهجمات» أنه تمت المصادقة أيضاً على قانون للتنقيب عن النفط في ألاسكا وعلى تخفيضات في ميزانيات التعليم وتخفيضات في مصاريف الضمان الاجتماعي، بالإضافة إلى 25 بليون دولار كتخفيضات في الضرائب على الشركات[168]. إذا كان بن لادن وراء ذلك، فلا بدّ وأن يكون قد حدث لديه تحوّل إلى العقيدة «البوشية».

رسالة أخرى «أرسلتها السماء» تسبّبت في إغلاق مبنى المحكمة العليا في السابع والعشرين من الشهر[169]، بعد يوم واحد من توقيع بوش على «قانون الوطنية»، وهو القانون الذي يعادل نظرياً قانون هتلر «من أجل الوطن والرايخ». هل ينسجم هذا القانون مع الدستور؟ إن لم يكن كذلك، فعلى المحكمة العليا أن تقرر، لكن، اصبر وانظر، فالجمرة الخبيثة هي المنقذ المنتظر! لم تكن المحكمة العليا قادرة على التصرّف، وحالما شق بوش طريقه، توقّفت رسائل الجمرة الخبيثة[170].

لم يكن كل شخص في الولايات المتحدة موافقاً على قوانين «الأمن الداخلي» كما كان النازيون موافقين على الهراء الذي سمّوه «من أجل الوطن والرايخ». وليام سافير علّق على ذلك في النيويورك تايمز قائلاً أن «بوش يعترف بتجاوز مبادئ القانون والقواعد الواضحة التي بُني على أساسها نظام العدالة في أمريكا» لم يكن سافير وحده من أبدى تلك الملاحظة، وبدأت الشبهات تتصاعد. بعد فترة، حتى مكتب التحقيقات الفدرالي أدرك بأنه لا يستطيع إجبار الناس على تصديق القصة الخرافية حول المسلمين والجمرة الخبيثة، والتي قُصد منها خلق الانطباع المطلوب لدى الناس؛ وحيث أن عبارات «مثل الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، الله أكبر»[171] كانت قد كتبت في رسائل الجمرة الخبيثة. كالدّكاترة. وحين حثّت الدكتورتان دويل وروزينبيرغ مكتب التحقيقات الفدرالي على التحرك والتصرف بناء على الأدلة وليس على الأفكار الخاطئة، أُهملت أقوالهما، بينما كان الغرض الحقيقي من رسائل الجمرة الخبيثة قد أنجز. في منتصف شهر آذار (مارس) 2002، ورد في تقرير إخباري لشبكة بي بي سي نيوز أن «الدكتورة روزينبيرغ، التي تملك سلطة معترف بها في مجال أبحاث الدفاع الحيوي-البيولوجي

الأمريكي، تدعي بأن مكتب التحقيقات الفدرالي يتلكّأ لأن التوقيفات قد تسبب الحرج للسلطات الأمريكية»[172]. في الشهر السابق، كـانت الدكـتورة روزينبيرغ قـد كتبت أن «مرتكب ذلك العمل واثق تماماً بأنه يستطيع الإفلات بفعلته. هل كان على علم بشيء يدرك مقدار الضرر الذي قد يسببه للولايات المتحدة مما يجعله محصّناً فلا يستطيع مكتب التحقيقات الفدرالي اعتقاله؟»[173].

في الوقت الذي اكتسب فيه بوش مزيداً من القوّة بسبب توقيت الهجمات التي أدت إلى عزل الديمقراطيين ورموز الإعلام، (وأحدهم بوب ستيفنز الذي أصبح مستهدفاً شخصياً بهجمات من بوش لأنه هو الذي نشر صورة ابنته جينا وهي ملقاة على أرضية إحدى الحانات مذهولة من السكر)، كسبت شركة «باير» الألمانية مالاً كثيراً من تلك الحوادث؛ ولا يوجد درجة كبيرة من الفرق بين بوش و«باير»، باعتبار أن «باير» مملوكة جزئياً من قبل مجموعة كارليل. في الماضي، كانت «باير» جزءاً من شركة «آي. جي. فاربن» الألمانية قبل أن يتم حل الأخيرة بعد الحرب العالمية الثانية. كما أن تلك الشركة شهدت ارتفاعاً في أسعار أسهمها بنسبة 1000% نتيجة الارتفاع في حجم التعاملات التجارية في الشهر السابق للهجمات[174]. وبينما كانت «باير» وغيرها من شركات الأدوية ضالعة في عمليات القتل من خلال اختلاق الأخطار التي تتهدد الصحة العامة، كانت هناك أشكال أخرى عمليات القتل المستمر دون توقف والذي طال بعض العلماء الذين يعملون في مجال الحرب البيولوجية.

لوحظ هذا التوجه أولاً بموت فلاديمير باسيشنيك، وهو خبير في الذي الأسلحة البيولوجية السوفيتية، ومن ضمنها الجمرة الخبيثة؛ مات من ضربة تلقاها في 21 تشرين الثاني (نوفمبر) 2001،[175] وذلك بعد فترة قليلة من تحدثه مع السلطات حول حالة أسلحة الجمرة الخبيثة قبل أحداث 9/11. قبل ذلك، وفي 4 تشرين الأول (أكتوبر) 2001، أُسقطت طائرة تابعة للخطوط الجوية السيبيرية كانت في طريقها من إسرائيل إلى روسيا بصاروخ أوكراني؛ كان على متن تلك الطائرة ثلاثة من علماء البيولوجيا الدقيقة الإسرائيليين هم أفيشاي بيركمان، عميرامب إلدور، ويافوك ماتزنر[176].

في ليلة 19 تشرين الثاني (نوفمبر)، دون سي. ويلي، وهو مرجع أمريكي بارز في هذا الحقل وكان أستاذاً في جامعة هارفارد وعمل على أبحاث الجمرة الخبيثة، إتش آي في (مرض نقص المناعة المكتسبة)، الجدري، الأعشاب الطبية، جرثومة الإيبيولا، والإنفلونزا، غادر احتفالاً تكريمياً في ممفيس بولاية تينيسي، وتوجّه إلى بيت والده في تلك المدينة. لم يظهر له أثر، لكن سيارته وجدت على جسر هيرناندو دي سوتو الذي يمر فوق نهر الميسيسيبي على حدود تينيسي وآركانساس، وكانت السيارة متجهة باتجاه آخر غير اتجاه ممفيس. ما الذي جعله يغيّر خططه حوالي منتصف الليل، هذا ما لم يُعرف أبداً. وجدت جثته في لويزيانا، في 20 كانون الأول (ديسمبر)، وقد غسلها النهر هناك[177]. يمكن للمرء، ربما، أن يعتبر الأمر مجرد حادث. لكن المسألة كانت غريبة بالفعل، فالقاضي الذي كشف على جثة ويلي، القاضي أو. سي. سميث، لاقى حتفه أيضاً في ظروف غريبة. موت سميث، على أية حال، لم يكن من السهل جداً تجاوزه واعتباره حادثاً عادياً؛ ذلك أنه لُفّ بسلكٍ شائكٍ وتُرك ملقى في ردهة سلالم مبنى الطب الشرعي، بعد ربط قنبلة حيّة إلى صدره[178].

في ليلة 19 تشرين الثّاني (نوفمبر) أيضاً، حدث هجوم غير متوقع وغير مفسر من قبل مجموعة من المجرمين في ميامي، وكانت نتيجته أن أودى بحياة بنيتو كوي الذي كان يعمل في مركز سيلفيستر للسرطان بجامعة ميامي[179].

في ليسبيرغ بولاية فرجينيا، خبير الحمض النووي (دي إن أي) روبرت شوارتز وجد ميتاً في بيته، وقد اعتبر المحققون موته اغتيالاً مدبراً، وذلك في 10 كانون الأول (ديسمبر). طعن حتى الموت، والمشتبه بهم كانوا أصدقاء ابنته. عملية القتل أثارت ذعراً في المجتمع، خصوصاً وأن بعض تفاصيل الجريمة كانت بشعة؛ كانت هناك علامة «إكس» محفورة على رقبته، ويبدو أن المشتبه بهم أرادوا الإشارة إلى عبادة الشيطان[180]. هنري لي لوكاس، القاتل الذي تحدثنا عنه في الفصل الأول، تحدث عن عقود للقتل بينه وبين وكالة المخابرات المركزية حيث كان يرتكب جرائم ذات طبيعة غريبة بقصد تضليل المحققين[181].

سيت فان نغوين، هو باحث في مركز الكومنولث للأبحاث العلمية والصناعية في أستراليا، وجد ميتاً في حادث مختبر حين أُقفلت عليه غرفة مفرغة من الهواء، أيضاً بتاريخ 10 كانون الأول (ديسمبر)[182].

فيكتور كورشونوف، وهو روسي متخصص في البيولوجيا الحيوية الدقيقة سوفيتي، وجد ميتاً في 8 شباط (فبراير) 2002، بعد أن ضُرب على رأسه في مكان غير بعيد عن مسكنه في موسكو، اثنان من مواطنيه، إيفان غليبوف وأليكسي بروشلنسكي، وجدا ميتين أيضاً بين ذلك التاريخ وتاريخ 9/11[183].

في بريطانيا، إيان لانجفورد، وهو خبير بالأخطار والأمراض البيئية، وُجد في نورويش، عارياً من الخصر إلى الأسفل ومربوطاً تحت كرسي في بيته في 12 شباط (فبراير)[184].

تانيا هولزناغر، عالمة بيولوجيا حيوية دقيقة تعمل في شمال كاليفورنيا، قتلت بعدّة طلقات على يد زميلٍ سابق لها، غويانا هوانغ، الذي أطلق النار على نفسه بعد ذلك على عتبة منزلها في 28 شباط (فبراير) 2003[185].

ديفيد وين وليامز، الذي درس الجراثيم في القطب الشمالي، كاد أن يلاقي حتفه في 24 آذار (مارس)؛ صدمته سيارة بينما خارجاً يمارس الرياضة[186]. في اليوم التالي ستيفن موستو، إختصاصي إنفلونزا، كاد أيضاً أن يلاقي حتفه بينما كان يستقل طائرة خاصّة فوق كولورادو[187].

حالة الحصار توقعنا في حالة من الخوف، وهذا مرض مجهّز للتعامل مع ألعاب الوطنية، ألعاب الخداع العقلي، الألعاب الحربية. – عضو مجلس النواب دنيس كوشينيش، (ديمقراطي– أوهايو) خريف 2001[188].

شاهد أفعى في العين

شرطي بدون حدس كطباخ بدون حاسة تذوّق؛ الحاجة للحدس لا تنحصر في مهنة محددة بعينها، إنها ضرورية في العديد من المجالات. من أجل العيش في بيئة عالمية، يتوجب على المرء بين حين وآخر أن يحسِّن حواسه وقدرته على الاستشعار. في إحدى المناسبات، أتيحت لي

الفرصة أن أفعل ذلك بالضبط، وذلك حين دُعيت للشهادة في جلسة استجواب للتحقيق في أعمال أحد رجال الشرطة، الضابط فاليز، الذي كان يعمل في الدائرة الإنتخابية الثالثة عشرة في مانهاتن. بعد فترة قصيرة من قيام الحكومة الإتحادية بالحجز على فندق كينمور في العام 1994، والذي فيه لعب هذا الضابط دوراً رئيسياً، أخبرني مصدر موثوق بأن فاليز كان يأخذ الرشاوى من التجّار. أنا كوّنت استنتاجاتي الخاصة حول ذلك الضابط، وكنت متأكداً بأنه لم يكن شرطياً فاسداً؛ كان أحد أفضل رجال الشرطة في تلك القوة، وكان يبدى اهتماماً نبيلاً بمن حوله، بزملائه الضبّاط وبالجمهور. ما أُخبرتُ به من معلومات حول ذلك الضابط، على أية حال، جاءني عبر مصدر نزيه يعمل في مجال جمع المعلومات الاستخباراتية، وهو، علاوة على ذلك، شخص تجمعني به العديد من سنوات العمل في هذا الحقل. كان هناك المزيد من التقارير السلبية حول فاليز حتى أنه ظهرت تقارير في الصحافة تقول أنه كان في الحقيقة يتلقى رشاوى كبيرة من تجّار المخدرات في متنزه «يونيون سكواير بارك».

ثبتت صحة الاتهامات، لكنه مثلي؛ كان عميلاً سرّياً، وكان يجلب ما حصل عليه، بشكل خفي، كلّ يوم إلى القسم. مهارته في التخفي خدعت كلاً من التجار وأفضل العملاء السريين في هذا الحقل. في هذه الحالة، كان أشد المخدوعين هم الأشرار، لكن غالباً ما كانت الجهة الأخرى تنخدع أيضاً. الأمر يحتاج إلى حدس فقط، وليس كتاباً تقرأه كي تربح في هذه اللعبة، وكان المحتالون الذين يتعامل معم أذكياء، لكنهم لم يستطيعوا تفادي الفخّ. موزعي المخدرات قد يُعذرون على كونهم أغبياء، لكنّنا لا نتوقّع من رجال الشرطة أن يكونوا سذجاً. أحياناً، على أية حال، يخدعون، كما يحدث حين يكون المذنبون في مواقع السلطة والمسئولية. وهؤلاء لديهم أحياناً ميل للتصرّف بغضب في حالات الشك بهمّ. من الذي، على سبيل المثال، تجاسر على مواجهة هتلر، وسط الشعبية الهائلة التي كان يتمتع بها، وتجرأ على التحقيق الفعلي في تفاصيل الرواية الرسمية لحادثة حريق الرايخستاغ؟ إن المشتبه به الأول في أيّ جريمة هو دائماً المستفيد الأكبر منها، لكن هذه القاعدة ليست معصومة؛ الشخصية هي الاختبار الأفضل، والشرطي الفطن هو الذي يعرف الناس ويمكنه أن يجاريهم حتى يصل إلى الجريمة.

في حالة الجرائم التي ارتُكبت ضدّ نيويورك وواشنطن، أُخبرنا سلفاً بأن بن لادن هو الفاعل، لماذا إذن نشك في شخصيات أولئك الموجودين في الحكم والذين لديهم الدافع والفرصة الحقيقية لارتكاب الجرم؟ المريب في الأمر هو محاولة إخراس كل صوت المنطق، والواقعة المريبة الأخرى هي أن بوش بالتحديد طلب من السيناتور داشل حصر نطاق التحقيق مباشرة بعد الهجمات[189][190]. في العام 2003 تم تخصيص مبلغ 11 مليون دولار كميزانية للتحقيقات، وذلك من ضمن 75 بليون دولار هي ميزانية الحرب، ومع ذلك تم إلغاء ذلك المبلغ[191]؛ والمبلغ المذكور بحد ذاته لا يشكل سوى 0.15% من المبلغ الكلي، وهو رقم تافه بالمقارنة مع المبالغ الطائلة التي صُرفت على الأسلحة. ألم يكن التحقيق الأكثر أهمية في التاريخ الأمريكي يساوي أربعة سنتات بالنسبة لكل مواطن الأمريكي؟ كل محاولة جرت لتشكيل لجنة استقصاء وتحقيق بدت فاترة، وكل من تم تعيينه لرئاستها استقال، كما حدث باستقالة هنري كيسنجر من تلك المهمة عام 2002. في الحقيقة، كيسنجر شخص مريب من البداية، كما أنه هو نفسه مطلوب بجرائم حرب[192]. السياسيون الآخرون الذين انضموا إلى اللجنة العتيدة كان من بينهم السيناتور بورتر غوس وعضو مجلس النواب بوب غراهام. تعيين توماس كين وانضمامه إلى لجنة التحقيق في العام 2002 كان علماً أحمراً آخر، خصوصاً فيما يتعلق بالتضارب المحتمل للمصالح، نظراً لروابطه الوثيقة مع شركة «أميرادا هس»[193]، وهي شركة تعمل في مجال الطاقة. حسب رأيي، هؤلاء جميعاً مشتبه بهم ويجب ألا يُسمح لأي منهم بالاقتراب من مسرح الجريمة، ويبدو أن «التحقيق» برمته أشبه بعملية سرية أخرى، أو فخاً لاصطياد أولئك الذين لديهم معلومات حقيقية.

الآخرون جميعاً يدفعون نقداً

إذا سرد الأكاذيب يستوجب الثقة، فإن إدارة بوش ربما تكون جديرة بالثقة؛ وكما صرّح بوش مرّة، «إذا وعدتُ بعمل شيء ما، ثم لم أفِ بما وعدت، فأنا جدير بالثقة»[194].

حسناً، هنا بعض الأسباب التي توحي بالثقة: الوثائق التي تزعم بأن العراق اشترى مواداً نووية من نيجيريا تبيّن أنها مزوّرة[195]، وعندما احتاجت الولايات المتحدة لإثارة التعاطف والتأييد لاحتلال العراق، قُدّمت للأمم المتحدة بعض التقارير التي سُرقت من الإنترنت، وقد

انتزعت تلك المعلومات من سياقها الذي يعود إلى عشر سنوات سابقة[196]. حين سُئل في 28 آذار (مارس) ما إذا كانت الولايات المتحدة تضلّل الجمهور بشأن الهجوم على العراق، أجاب رمسفيلد، بعد أن مثّل دور الساخط، قائلاً: «هذا اقتراح فظيع»[197].

لذلك، ربما يتوجب علينا أن نثق بهم فقط، كما اقترح ريتشارد نيكسون حين ضُبط. نيكسون أطلق ريحاً تؤذي الكرامة، والناس شعروا بالسخط والندم لأنهم وثقوا به. في بعض الأحيان يشعر المرء بالتردّد في أن يكون سلبياً نحو زعيم ما، وأنا لا أشجّع إبداء الأحكام الطائشة، لكن بالمقابل، حين يرى المرء إدارة تعيّن المتهمين بجرائم الكذب في المناصب الرسمية الرفيعة، ثم تحصل على الدعم في حفل تنصيبها من كذاب آخر، ذلك الذي قضى بعض الوقت في سجن اتحادي، حينئذٍ ينبغي النظر إلى الحقائق فقط. حتى النازيون كان لديهم سجل نجاحات أفضل من ذلك، بالرغم من الإشارات الواضحة والوقائع الدامغة حول أخطائهم. يمكنني القول بأن شخصيات إدارة بوش ذاتها هي السبب الرئيس الذي يدعو للشكّ؛ في الفصل الثاني بحثنا بتمعّن في مواصفات هؤلاء الأشخاص والعديد من مؤيدي الحزب الجمهوري الذين وضعوا هؤلاء في مراكز السلطة الحكم. يتألف هؤلاء من كذابين، لصوص، جواسيس، شواذ جنسياً، وآخرين عديمي الكفاءة. كم من الوقت سيمر قبل أن يسطع الضوء؟ لا تدع أيّاً منهم يخدعك.

طبيعة اللعبة

قد يكون من الأنسب جعل التحذير «لا تدعهم يقتلونك أيضاً». إذا درسنا سيرة بوش السياسية، فربما ظهر على السطح عدد من الجثث، والعديد من أصحابها غادر هذه الحياة بينما كان يستقل طائرة، مثل:

- سالم بن لادن، الذي قاد طائرته نحو أسلاك الكهرباء بعد الإقلاع من مهبط «إيرل ماي فيلد» في العام 1979. مالك هذا المهبط في تكساس ذكر أنه «كان طياراً ماهراً جداً. نحن فقط لا نستطيع أن نفهم لماذا قرّر الاتجاه يميناً بدلاً من اليسار»[198].
- نيك بيغيش، ديموقراطي هلك برفقة هال بوغز، أنظر الفقرة التالية.

- هال بوغز، عضو الكونغرس الذي عمل في «لجنة وارن» والذي صرّح بأن مكتب التحقيقات الفدرالي كان يكذب حول موت كينيدي. طائرته إختفت في ألاسكا في 16 تشرين الأول (أكتوبر) 1972؛ وكالة المخابرات المركزية قالت بأنه لا يمكن العثور عليها، وهو الزعم الذي ثبت لاحقاً زيفه. هل كان المقصود عدم العثور عليها؟
- رون براون، وزير التّجارة في العام 1996، وظل في منصبه حتى قتل في تحطم طائرة في الثالث من نيسان (أبريل) من تلك السنة. كان سابقاً يعمل تطوير الارتباطات بشركة «إنرون». هل عرف أكثر مما ينبغي؟

غاري كارادوري، محقّق حكومي من نبراسكا وكان يحاول وضع النقاط فوق الحروف وكشف الخطوط الواصلة بين آل بوش ولاري كينغ والاعتداء على الأطفال في المستويات الحكومية العليا. تحطمت طائرته، وعلى متنها ابنه البالغ من العمر ثماني سنوات، في 11 تموز (يوليو) 1990، والملاحظات التي كانت بحوزته في تلك الأثناء اختفت. لذلك، قد يكون بوش جاداً حين يتساءل إن كنت تضع النقاط فوق الحروف.

- ميل كارناهان؛ مات في تحطّم طائرة حين كان مرشحاً ضد جون آشكروفت لمقعد مجلس الشيوخ في ميسسوري، وذلك في 16 تشرين الأول (أكتوبر) 2000. الولاية رشحت أرملته فهزمت آشكروفت.
- جورج دبليو. كوليتز، نائب ديمقراطي من إلينويز، مات في 8 كانون الأول (ديسمبر) 1972 في تحطّم طائرة في مطار «شيكاغو ميدواي».
- أمورا دا كوستا، وزير دفاع البرتغال، كان ينوي كشف الوثائق المتعلقة بصفقات الأسلحة الإيرانية التي جرت عام 1980. لكنه لم يتمكن من ذلك، حيث طائرته هوت في 4 كانون الأول (ديسمبر)، 1980. كان برفقته سا كانيرو، رئيس وزراء البرتغال.
- جايك هورتن دخل طائرة شركته في 10 نيسان (أبريل) من عام 1989 لمناقشة المساهمات غير الشرعية التي قدّمها مسؤولون في شركة «إنرون» في الحملة الانتخابية في فلوريدا. دامت سفرته عشرة دقائق فقط.

- جون هاينز، عضو جمهوري في مجلس الشيوخ من بنسلفانيا، كان مشاركاً في التحقيق في فضيحة إيران-كونترا، وظل في منصبه حتى واجهت طائرته مشكلة وتحطّمت فوق طائرة أخرى مروحية في 4 نيسان أبريل) 1991. أرملته التي تزوجت بعد ذلك من جون كيري، الذي قد يكون مرشّحاً رئاسياً في انتخابات العام 2004.
- السيدة دوروثي هنت ماتت في تحطّم طائرة تابعة لخطوط يونايتد آيرلاينز في 8 كانون الأول (ديسمبر) 1972. كان برفقتها عدد من الأشخاص الآخرين الذين ربما كانوا قد أحرجوا نيكسون وآل بوش. كانت نشطة في وكالة المخابرات المركزية وزوجة هاوارد هنت، المشتبه به في عملية اغتيال كينيدي.
- طائرة جون إف. كينيدي الإبن تحطّمت في السادس عشر من تموز (يوليو) 1996، وبرفقته أفراد عائلته على متن تلك الطائرة. ويُعتقد بأنه كان في ذلك الوقت على وشك الإعلان عن انطلاقته السياسية.
- ميكي ليلند مات في 7 آب (أغسطس) 1989 في تحطّم طائرة في إثيوبيا. كان عضواً جريئاً وصريحاً في مجلس الشيوخ عن ولاية تكساس، وإذا نقص ديموقراطي واحد في تلك الولاية فقد يصبح آل بوش أكثر قوة.
- جيري ليتون كان نائباً عن ولاية ميسوري، وكان في طريقه للاحتفال بفوزه بترشيح الديمقراطيين له عندما طائرته تحطّمت في الثالث من آب (أغسطس) 1976.
- تشارلز ماكي كان على متن طائرة «بان أم»، الرحلة رقم 103، التي انفجرت فوق لوكيربي في إسكوتلندا، في 4 كانون الأول (ديسمبر) 1998. كان عضواً في فريق التحقيق الذي استطاع كشف بعض الخيوط بين وكالة المخابرات المركزية وبين وحدة خطرة تسمى «كورية» كان لها صلات بالإرهابيين. والدته قالت لمجلة «تايم»: «أنا أعتقد بأنه لو لم يكن «تشوك» على متن تلك الطائرة لما أُسقِطت». كان معه محقّقين آخرين أوشكوا أن يكشفوا عن النتائج التي توصلوا إليها[199].

- ستين مولين كان طيار الرحلة رقم 587 التابعة لشركة طيران أمريكان آيرلاينز، وهي الطائرة التي تحطّمت في 12 تشرين الثاني (نوفمبر) 2001 فوق لونغ آيلاند، والتي حطّمت بسقوطها بيوت رجال إطفاء مدينة نيويورك. كان في برج مراقبة الملاحة الجوّية في 9/11 وأبدى شكوكاً حول الرواية الرسمية لتلك الأحداث. بالتأكيد كان هناك من لا يريد يسمع ما كان سيقوله.
- ستيفن موستو، كما ذكرنا سابقاً، لاقى حتفه بينما في الجو فوق كولورادو في 24 آذار (مارس)، 2022. كان عالماً في البيولوجيا الدقيقة.
- لاركين سميث جمهوري من ميسيسيبي، مات في 5 آب (أغسطس) 1989 عندما تحطّمت طائرته في تلك الولاية. حقق في مقتل خمسة من عقداء «القلنسوة الخضراء» كانوا متورطين في تجارة المخدرات لصالح وكالة المخابرات المركزية.
- جون تاور كان جمهورياً من تكساس مات بعد مشاركته في التحقيق في قضية إيران-كونترا ثم ترأس «لجنة تاور». لا بدّ وأن موته في 5 نيسان (أبريل) 1991 قد أسعد بضعة أشخاص.
- الجنرال عمر تاريّجوس كان الرئيس الشعبي لدولة بنما، وكان رجلاً صاحب رؤية ومتفهماً لشعبه، والذي كتب عنه جراهام جرين بعد موته في 31 تموز (يوليو) 1981. موته أتاح للولايات المتحدة أن تضع في السلطة خلفاً له مانويل نورييغا، تاجر المخدّرات والمنحرف وسيئ السمعة. نورييغا حوّل وسط مدينة بنما إلى فوضى، ودمّر الإصلاحات التي كان تاريّجوس قد شرع في تطبيقها، لكنه كان مفضّلاً لدى الحزب الجمهوري. عندما خرج عن السيطرة، أصبحت نشاطاته ذريعة لاحتلال بنما. كانت تلك البلاد قد تعافت تماماً، ومع خروج القناة من اليد الأمريكية المهيمنة وغياب الوجود العسكري الأمريكي، استفاد البنميون، كما تصوّر تاريّجوس.
- بول ويلستون، عضو مجلس الشيوخ الديمقراطي الذ يتمتع بالشعبية في مينيسوتا، مات في تحطّم طائرة في 25 تشرين الأول (أكتوبر) 2002، قبل أحد عشر يوماً من الإنتخابات؛ لكن هذه المرة لم تكن له أرملة لتضعها الولاية على قائمة المرشحين، ذلك أن زوجته

وابنته ومساعديه كانوا على نفس الطائرة. منافسه الجمهوري فاز. كان ذلك نصراً حاسماً جداً للحزب الجمهوري، ذلك أنهم سيطروا على مجلس الشيوخ. المرأة التي حققت في حادث التحطّم، كارول كارمودي، عملت سابقاً لوكالة المخابرات المركزية واشتركت في التحقيق حول تحطّم طائرة السيناتور كارناهان. لم يفز الحزب الجمهوري فوزاً حاسماً بموته فحسب، لكنّهم أيضاً تخلصوا من مطالبته بإجراء تحقيق مستقل في أحداث 9/11 وبياناته ضدّ الحرب. هل كان موته مريباً؟ حتى قبل أن يحدث، نُشرت مقالة في موقع VoxFux على شبكة الإنترنت في أيار (مايو) من عام 2001 تتوقّع موته، جاء في تلك المقالة: خلال شهور، أحد المنتخبين من مجموعة أعضاء مجلس الشيوخ الديمقراطيين، ومن المحتمل أن يكون من ولاية حاكمها جمهوري، سيلاقي حتفه قبل الأوان... بعد التخلص من أحد أعضاء مجلس الشيوخ هؤلاء، تكتمل المهمّة، تصبح الحقيقة ضائعة والدليل سيختفي بسرعة...[200].

أربعة من الذين قُتلوا لم يقتلوا في تحطّم طائرة، لكن كان للبعض منهم ارتباطات بآل بوش، وكان البعض يكتب عن آل بوش، ولم يكن لدى هؤلاء أموراً لطيفة ليكتبوا عنها.

- الصحفي داني كاسولارو، اعتُبر موته في 10 آب (أغسطس) 1991 إنتحاراً.
- الكاتب جيمس هاتفيلد، اعتُبر موته في تموز (يوليو) 2002 انتحاراً أيضا.
- ستيف كانجاس أدار موقعاً على شبكة الوب سمّاه Liberalism Resurgent (نهوض الليبرالية). موته، خارج مكتب اليميني ريتشارد سكايفي، أُبلغ عنه أيضا كانتحار في 8 شباط (فبراير) 1999.
- مارك لومباردي، الذي مات في 22 آذار (مارس) 2000، اعتُبر، مثل زملائه الباحثين، منتحراً، كان يُجري أبحاثاً حول آل بوش وفضائح شركات الادخار والتسليف، وقد جمع 12 ألف بطاقة ملاحظات بالمعلومات التي توصل إليها.

ثلاث وفيّات مريبة بين أفراد الجيش أثارت التساؤلات أيضاً، وهم جميعاً كانوا مطلعين بشكل خاص على سجلات خدمة جورج دبليو بوش. هم الجنرال جيمس روز، المقدّم وليام هاريس الإبن، والمقدّم جيري بي. كيليان.

يبدو أن عدداً من الوفيّات حدثت في شركة «إنرون» أيضاً، إحداها موت رون براون المذكور سابقاً، بالإضافة إلى حالتي «إنتحار»: جي. كلفورد باكستر وتشارلز دانا رايس.

كريج سبينس، الرجل الذي كان يدير خدمة توفير الشبان للمتعة والترفيه لمن يرغب وحسب الطلب، والذي ورّط البيت الأبيض عام 1989 انتهى ميتاً أيضاً وزُعم أنه انتحر.

على أية حال، موت سوزان جوفين في 4 كانون الأول (ديسمبر) 1998 لم يكن انتحاراً، كما أنه لم يكن بدافع السرقة. إنه بكل بساطة جريمة قتل لا تزال غامضة بالنسبة لقسم شرطة «نيو هافن». كانت تعمل على أطروحتها حول بن لادن في جامعة يال.

موت كاثرين سميث في حادث سيارة في 13 شباط (فبراير) 2002، قبل يوم واحد من شهادتها المنتظرة أمام المحققين، ترك المحققين في أحداث 9/11 في حيرة وارتباك؛ فهي المرأة التي زوّدت بعض الخاطفين بوثائق تعريف مزورة. جسمها احترق بشكل غامض في ذلك الحادث[201].

الموت، ابتداءاً، هو الذي أتاح لآل بوش إمكانية الولوج إلى عالم السياسة، وذلك في العام 1952 حين رحل السيناتور براين ماكماهون (ديمقراطي-كونكتيكت)، مما أتاح الفرصة لبريسكوت بوش أن يُعيّن في ذلك المناصب، بدلاً من انتخابه؛ انطلاقة هذه العائلة منذ البداية لم تكن عبر الفوز بالانتخابات، بل عبر موت أحد الديموقراطيين، وظلوا يستفيدون من وفيّات الديمقراطيين لستّة عقود متوالية. بعض الأسماء الواردة في القائمة أعلاه هي لأشخاص جمهوريين، وليس مستبعداً أنهم كانوا وراء موت البعض ممن هم في صفهم أيضاً.

حقبة ما بعد الرايخستاغ

الكتيب الذي حثّ الناس على انتظار صن مايونغ موون وآل بوش ليكشفوا عن أعمالهم تحدّث عن أيضاً «حقبة جديدة»[202]. بالتأكيد هنالك تغيير، وفي أغلبه لمصلحة بعض الأطراف، لكنه أكثر ضرراً على معظم سكان الأرض. إلقاء نظرة فاحصة على الجمهوريين يمكن أن يسبب الخوف، خصوصاً حين كانوا يخطّطون لأحداث 9/11 ويضعون نوعاً من السيناريوهات التي تشبه ما فعلوه في الستّينات[203]. ما الذي كان يعدّه أعضاء الحزب

الجمهوري الحاليين؟ شيء واحد الذي خرج إلى العلن فأحرجهم وهو أنهم كانوا وراء نشر الكتب الدراسية الأصولية العنيفة في أفغانستان! مقالة الواشنطن بوست تحدثت عن ذلك:

> كتب مبادئ القراءة، التي مُلئت بالكلام عن الجهاد واحتوت على رسوم الأسلحة والرصاص والجنود والألغام، أصبحت منذ ذلك الحين المنهاج الدراسي الإلزامي في المدارس الأفغانية. حتى طالبان استخدمت الأمريكيين لإنتاج الكتب ...[204]

ليس مفاجئاً أن طالبان أحبّت تلك الكتب؛ فهم يعتقدون أنها «شرّبت جيلاً كاملاً من الأفغانيين بالعنف»[205]. تم وضع تلك الكتب وتطويرها في الثمانينات والتسعينيات عبر تقديم منحة مساعدة لجامعة نبراسكا في أوماها[206]. الشخص الذي عُيّن لتقديم المساعدة في تلك فترة من الوقت كان رونالد روسكيتر، الرجل الذي اضطرت الجامعة لصرفه بسبب علاقاته الجنسية الغير ملائمة مع بعض الشباب[207]. في ذلك الوقت، كـــان بوش الأب يقول لكاثي أوبرين وابنتها «أنت حصيلة ما تقرئين»[208]. لذلك، من الطريف أن نلاحظ أن بوش الإبن اعترف في حديث إذاعي بتاريخ 16 آذار (مارس) بأن الكتب الدراسية لقّنت الطلاب مبادئ التعصّب والتطرف[209].

لذلك، عندما دعت الحاجة إلى عدو عنيف، غُذّيت الأصوليّة الدينية للأفغان من قبل أعضاء الحزب الجمهوري متظاهرين بالاهتمام بتعليم الأطفال. النازيون لجئوا إلى نفس الأعمال المثيرة، والناس سلّموهم عقول أطفالهم. ما هي المفاجئات الأخرى التي تنتظرنا في «الحقبة الجديدة؟».

مفهوم آخر نوقش في كتيب الدعاية لمون/بوش وكان يهدف إلى تفادي المؤمنين بنظرية المؤامرة؛ وذلك المفهوم يؤكد بوضوح وجلاء بأن الوطن يجب أن يحمى من شر هؤلاء! جاء فيه: «فيما يلي الطريقة لتكون وطنياً»[210]، والمقصود من ذلك، حثّ الناس على كسب واحتواء كل من هو ليس نازياً، وجعله إما تابعاً لكنيسة التوحيد (كنيسة صن مايونغ موون) أو حاملاً لبطاقة عضوية في الحزب الجمهوري، حتى أنه يقترح مراقبة ذوي الأصول الفرنسية.

هذا الكتيب ليس المصدر الوحيد للازدراء والاستعلاء على كل من يلاحق ويسأل عن متآمري «نورثوودز» وينظر إلى 9/11 باعتبارها نسخة مجدّدة من أعمالهم، ظهر ذلك الاحتقار

والازدراء في الصحافة، ومعظمها مملوك من قبل أعضاء الحزب الجمهوري أو جماعة كنيسة التوحيد أو غيرهم من الأشخاص السيئين الذين لا تريد لطفل أن يقترب منهم. امنحهم مزيداً من الوقت ومن المحتمل أن يُعيّن مايكل جاكسون رئيساً لجمعية «سلامة الأطفال» في هذا الوطن، أنظر فقط إلى كل أولئك المهرجين الذين استطاع الرايخ الثالث، في «حقبته الجديدة»، أن يضعهم في مكاتب السلطة. جون بويندكستر، الذي قد يصبح قريباً قادراً على مراقبة جميع الاتصالات في الولايات المتحدة ، متهم بارتكاب جريمة الكذب خمس مرات[211]. ألا تضع ولاية كاليفورنيا الناس في السجن مدى الحياة إذا اتهموا بارتكاب ثلاث جرائم؟ مرحباً بكم في الحقبة الجديدة من الشجاعة، ولا تطرحوا الأسئلة حول 9/11، وإلا فإن شرطة الفكر قد تأتي لاعتقالكم. في موقع unansweredquestions.org على شبكة الوب، حيث الناس أحرار في مناقشة هذا الموضوع، كانت هناك بعض التعليقات البائسة التي تهاجم حرية التعبير. أحدهم يقول: «هل هذه جهود إرهابية لتقويض الولايات المتحدة؟ هناك أسئلة لا تنسجم مطلقاً مع النغمة الصحيحة. . ومما يزعج الوطنيين أن يسمعوا هذه الأسئلة وهي تُطرح»[212].

بالتأكيد لا يوافق كل الأمريكيين على وجهة النظر تلك؛ وذلك ربما يزعج جماعة كنيسة التوحيد، أو من هم حقاً وراء أحداث 9/11 ويريدون منا أن نقبل أكاذيبهم فقط، كالنازيين وبعض حاملي بطاقة الحزب الجمهوري وبعض من حلموا بمثل هذه المؤامرة، لكنه لا يزعج بالتأكيد كل شخص في أمريكا. قد يكون ذلك ما توقعوا منا اعتقاده كي نتوقّف عن طرح الأسئلة ويتوقف زخم المطالبة بالتحقيق، كما يريد «الوطنيون الأمريكيون الجدد»، لكن الوطنيين الأمريكيين القدامى يؤمنون بحرية الكلام ولا ينحنون لموون وبوش. أولئك تقلقهم محاولات تقويض الدستور ومنع تلك الحقائق من الظهور، وإلى جانب الدليل الملموس بأن أحداث 9/11 ما هي إلا عمل داخلي بحت، من المؤكد أن أحداث 9/11 أفادت بوش كما أفاد حريق الرايخستاغ هتلر وأن كلتا الإدارتين عمدت إلى تضييق نطاق التحقيق وهو بحد ذاته أمر مريب.

مشتبه بهم غير عاديين

في سياق النقاش حول من الذي دبر فعلاً أحداث 9/11، يتبين أن المشتبه بهم الرئيسيون هم فريق بوش. قليلون هم الذين يصدّقون بوش الإبن ويثقون به، بما فيهم الاستخبارات، لكن إذا افترضنا أن الفريق متورط، فهناك مقدار وافر ومنتشر من المعرفة حول إجراءات الأمن الأمريكي، النقل الجوي، تجارة الخيارات، ومجالات أخرى ذات علاقة. وهناك القليلون ممن يوافقون بأن الهجمات كانت عملاً داخلياً، لكنهم يُسمّون ساكني البيت الأبيض السابقين كمشتبه بهما، استناداً إلى وقائع لا تزيد عن أن كلاهما كان خارج البلاد آنذاك. آه ها. وما الدافع؟ يقولون بأن «بوبا» أراد استعادة وظيفته السابقة؛ و لم قد يرغب كلينتون وشركاه بالعودة إلى البيت الأبيض ما داموا يجمعون مالاً أكثر عبر إلقاء الخطب والطيران حول العالم في مقاعد الدرجة الأولى، أحرار في أن يفعلوا ما شاءوا ومع وجود كل أولئك الأطباء الشبان اللطيفين الذين يمكنهم الوصول إليهم متى شاءوا؟ ربما يرغب غور جدياً في العودة للسكن في «بنسلفانيا أفينيو»، لكنّه، على الأقل في رأيي، ليس مشتبهاً به بشكل جدي.

وحيث أن كلينتون وغور ليسا من المشتبه بهم جدياً، هناك مجموعة تمت تسميتها كمستفيدة من الهجمات، وهم اليهود. القول المأثور القديم «ضع اللوم على اليهود» مألوف جداً، إذاً، ألم يستغل أحد ذلك؟ هناك حقيقة مؤكدة وهي أن جعل أي كارثة تبدو وكأنها من أفعال المسلمين المتطرفين يفيد إسرائيل، كما أن الإسرائيليين الذين سجّلوا الهجمات على شريط فيديو من فوق سطح في نيو جيرسي، والذين ظهر لاحقاً أنهم مرتبطين بالموساد، أعطى هذه الأفكار بعض المصداقية، خصوصاً وأن الرجال الذين كانوا على السطح سُمح بكل بساطة بالعودة إلى إسرائيل والقصة قُلّل من أهميتها في الصحافة[213].

ينبغي على المرء أن يكون دقيقاً جداً قبل توجيه الاتهامات، وعند محاولة إلقاء اللوم على ثلاثة عشر مليون شخص دفعة واحدة، يحتاج المرء للتفكير أكثر من مرتين. في البداية، لا يفعل كل اليهود ما يفعله يهود آخرون؛ وهناك نكتة تقول أن ثلاثة يهود في غرفة يعني جدلاً بأربعة آراء مختلفة، وهي توضح هذه المسألة، و في نيويورك هناك نكتة أخرى تشبهها، وهي حول حاخام متشدد يتحدث إلى جاره الحاخام المتحرر. الحاخام المتشدد يسأله ما هي

الهوندا، وهي الهدية التي طلبها ابنه في عيد بار-ميتزفاه (عيد بلوغه). يجيبه الحاخام المتحرر بأنها دراجة نارية، فيسأله وما هو بار-ميتزفاه.

التخطيط للهجمات احتاج إلى مجموعة متماسكة جداً، وربما إلى بضع مئات من الأشخاص الذين عرفوا فعلاً ما كان يجري، وليس إلى ثلاثة عشر مليون مختلفي الآراء ومبعثرين في شتى أنحاء الأرض. أكثر من هذا، وعلى عكس التقارير التي زعمت بأنه لم يقتل أي يهودي في الهجمات، الكثير من اليهود قُتلوا، والأمر لا يحتاج أكثر من قراءة الوفيات للتأكد من ذلك. أحدهم، أبراهام زلمانوفيتز، كان قادراً على النجاة بنفسه، لكنه تخلّف كي يبقى مع رجل معاق لا يستطيع الهرب. وهم كجماعة، على أية حال، كان من الممكن أن يصبحوا كبش فداء من قبل الجناة الحقيقيين، الذين يدركون جيداً قيمة الالتباس والتشويش وكانوا أذكياء بخلقهم أكبر قدر ممكن من الإشارات المضللة. المقالة التي ظهرت في الواشنطن تايمز[214] في اليوم السابق للهجمات وزعمت أن اليهود كانوا قادرين على إحداث كارثة وجعلها تبدو وكأنها هجوم شنّه المسلمون كان توقيتها غريباً جداً؛ هل كتبها ذلك الذي زرعته وكالة المخابرات المركزية التي تجاهر بأن لديها روابط مع الصحافة؟ ظهرت تلك المقالة في صحيفة يملكها موون، وسنتحدث عنه أكثر بعد قليل.

في أمريكا، الجالية اليهودية هي مجموعة وطنية قدمت الكثير للأمة. وهم ككل ضد الحرب، حتى أن البعض منهم يتظاهر احتجاجاً على النظام الإسرائيلي الحالي، ويحرق العلم الإسرائيلي في المظاهرات، وهو أمر قد لا يلقى تغطية واسعة في الصحافة السائدة، لكنها حركة قوية بين اليهود ليس في أمريكا فقط، بل في مختلف أنحاء العالم. معظم ما يجري في إسرائيل منكر من قبل أحبار اليهود، والبعض منهم يزعم أن أفعال الحكومة تناقض التعليمات التوراتية وبأن ما تقوم به قد يكون ممولاً، يا للسخرية، من المجموعات الدينية الأمريكية اليمينية التي تتمنّى تحويل إسرائيل إلى طريقة تفكيرهم الخاصة.

هل شارك بعض عملاء الموساد في الأحداث؟ يبدو هذا محتملاً، والكثيرون يشعرون بأن هذا العمل هو نتيجة جهد دولي قاسمه المشترك الطمع والتمييز العنصري. والطريقة المثلى لإثبات أو نفي التدخّل اليهودي في تدبير تلك الأحداث تكمن في إجراء تحقيق حقيقي.

شخص آخر من المؤمنين بنظرية المؤامرة هو صاحبة الجلالة إليزابيث الثانية، ملكة إنجلترا. وحسب أقوال الصحفي الأمريكي شيرمان سكولنيك، لديها حساب مصرفي مشترك مع آل بوش وفيه 100 بليون دولار. هذا في الحقيقة ثراء شديد؛ وممتلكاتها، كما هو معروف على نطاق واسع، أقل من 1% من ذلك المبلغ، والعديد من ممتلكاتها عبارة عن عقارات وغير ذلك من الممتلكات الأخرى غير النقدية. كاتب آخر، هنري ماكو، استطاع، مثل سكولنيك، كتابة بعض المقالات القيّمة، يملك إحدى تلك الصور الفوتوغرافية لحفيدها الأمير وليام ويبدو في الصورة وهو يشير بيده بإشارة من تلك الإشارات التي يقوم بها الشبان، ويلمح إلى إن تلك الإشارة هي إشارة من إشارات عبدة الشيطان. ومن المعتقد أنها تشبه أو هي نفس الإشارة اليدوية التي يقوم بها الممثل الكوميدي البذيء علي ج.، وهي حركة مضحكة، بالرغم من أنني متأكّد من أنها ليست كذلك بالنسبة لوليام وعائلته. المؤامرات حول أفراد العائلة المالكة لا يمكن حصرها، وهناك قصّة واحدة على الإنترنت حول الملكة التي تجبر فرقة «الرولينغ ستونز» الغنائية على الاستمرار في القيام بالجولات الغنائية، ويزعم كاتب تلك القصة بأنها هي التي كتبت أغانيهم، لذلك فهي ستتمكن من بيع المزيد من المخدرات.

إن الدوافع وراء هذا الاعتقاد تقوم على أساس أن هناك مملكة سرية خلف الكواليس، أو تحالف إنجلو-أمريكي يحكم العالم. لكن من حيث التقييم الأكثر صدقاً وواقعية، يبدو أن ذلك كله من غير المحتمل والمعقول، وفكرة التحالف السري الإنجلو-أمريكي، بعد أن وثب النازيون على وكالة المخابرات المركزية، تبدو ساذجة ومضحكة. رفض البريطانيين للمشاركة والتورط في مهزلة فيتنام يناقض نظرية المؤامرة هذه، والرفض الآخر الذي أعلنته تلك الأمة لمواصلة النزاع مع الأرجنتين حول جزر الفوكلاند يبيّن أن بريطانيا اتخذت موقفاً مضاداً لخطط تجار الأسلحة الذين كانوا يودون جلبها إلى مثل هذا التحالف طالما كان يخدم مصالحهم. التعاطف القائم بين الأمتين له أسبابه الواضحة، كما أن هناك روابط بين أولئك الذين يريدون إجراء تحقيق فعلي في أحداث 9/11 وفي الاحتلال غير القانوني للمناصب في كلتا الأمتين، وهي روابط أقوى من تلك الموجودة بين أولئك المستفيدين من الحروب والأعمال الوحشية في كلتا الأمتين.

أما بالنسبة إلى مهزلة الملكة التي تدير عصابة سرية، فلا يحتاج المرء سوى إلى إلقاء نظرة على كيفية قضائها لوقتها، هي وابنها الأكبر وزوجها، كي يتبيّن له الاتجاه الذي يصرفون فيه طاقاتهم. كل منهم يظهر في مناسبات عامة بمعدل 550 مرة في السنة، وأمكنة تواجدهم، بخلاف السيد تشيني في أمريكا والذي «نادراً ما يظهر في مناسبات عامة»، ليست مسألة أمن قومي. منذ تتويجها امتلك 30% آخرين من الرعايا البريطانيين البيوت التي يقطنونها، كما أن الاقتصاد تحسّن، وجعلت عهدها عهد سلام في غالبه. تعرض ذلك السلام لهزات من حين لآخر، كما حدث عند غزو جزر الفوكلاند، أو عندما قرّرت أمريكا غزو غرينادا، وهي إحدى دول الكومنولث.

بالمقارنة مع هذا العهد الطويل من السلام والازدهار، وبعد وقت طويل من ذلك، أصبح بوش في المكتب البيضوي فبرز نزاع عالمي أدى إلى معاناة شديدة في الاقتصادين البريطاني والأمريكي، لكن لأسباب واضحة، نجح آل بوش وبعض الحثالة من المجرمين في الاستفادة من ذلك. كمشتبه بهما في كلّ مؤامرة، الملكة والاستخبارات العسكرية البريطانية «إم6» يُعتبران موضوعان ممتازان للقراءة، لكن في القصص الخيالية فقط؛ أما في الحياة الحقيقية، فالجرائم تُرتكب في أغلب الأحيان بسبب الحب أو المال.

الصينيون كانوا موضع شبهات أيضاً، حيث أن اثنان من ضبّاطهم الكبار وضعا كتاباً يلخّص هذه الحادثة تقريباً كسيناريو محتمل[215]، وهذا ليس محض اختلاق وتكلّف. فإذا اتهمنا الصينيين، فينبغي أن يكونوا قد جنّدوا العشرات من الشرق الأوسطيين لمساعدتهم في ذلك، وبعد ذلك حصلوا على بعض المساعدة من الداخل كي ينجح هذا العمل بشكل كامل، ورغم الصعوبة في ذلك، لكنه ليس خارج عالم الإمكانية. ومن حيث الدافع، ما الذي استفادوه فعلاً، هل أرادوا إعطاء الولايات المتحدة عذراً للعدوان؟

المجموعات الشبه عسكرية اليمينية في الولايات المتحدة فُحصت بدقّة أيضاً كمشتبه بها، على اعتبار أنه ربما يكون فيها بعض العناصر المتعصّبة والحاقدة على الحكومة وعلى سكّان نيويورك. وهذه نظرية أكثر تكلّفاً وبعداً عن المعقول، وقد سادت لفترة قصيرة فقط بعد

الهجمات. أنا متأكّد بأنهم ليسوا من كان وراء هجمات 9/11 أو هجمات الجمرة الخبيثة، لكنّهم يستحقون المراقبة.

الشخص الوحيد الذي يبدو من غير المحتمل الاشتباه به هو القس موون؛ كيف يمكن لرجل دين لطيف جداً كهذا الذي يقيم حفل تنصيب لدبليو (بوش) أن تكون لديه القوة للوقوف وراء هذا العمل الشرّير؟ الشيطان نفسه يستطيع التلطي بالبيت الأبيض، وهو يبدو محترماً جداً حتى تدقق النظر فيه. موون، على الرغم من صلواته، مجرم يتلطى بالحشد المحيط ببوش. هل نظّم وأدار كل ذلك؟ أشك في ذلك، لكنه قد يكون شارك فيه. في العام 1963 كان قادراً على مقابلة آيزنهاور شخصياً[216]، الرئيس الذي أراد ارتكاب جرائم على نمط 9/11، ومنذ ذلك الحين أصبح قوة لا يستهان بها في دوائر الحزب الجمهوري. لماذا؟ ألأنهم جميعاً قديسين ويحبّون أمريكا؟ لا تكن غبياً. موون محتال، مثل العديد من شركائه في الحزب الجمهوري، الذين كان البعض منهم في الخارج لدفع ما حدث في 9/11. موون ينشر إمبراطوريته حول العالم، وتلك الأحداث ساعدته وجماعته. الهجمات تطلبت فريقاً كاملاً، فريقاً دولياً، كل عضو فيه له مكاسبه الخاصة. مواصفات موون مطابقة للشروط، والحديث عنه بأنه «سيقود أمريكا إلى ذروة جديدة»[217] بالتعاون مع آل بوش ينبغي أن يرفع درجة الضيق والتذمر لدى أي أمريكي. أمنية جميع المرتابين بالنظام الحالي هي أن تتم محاكمة هذا النظام، بالإضافة إلى كلّ شخص كان يعلم بوجود أمر خاطئ جداً، حتى لو لم يكن لديهم علم بالهجمات نفسها. فالكثيرون خانوا أمريكا من خلال تجاهل التحذيرات. وحين يستطيع شخص مثل موون العمل بحرية تحت أنف وبصر السلطات، فهناك شيء خاطئ جداً، وهو ليس مجرد غباء. ما تم ارتكابه يندرج تحت أفعال الخيانة والفتنة المتعمّدة.

... عندما نستلم السلطة في أمريكا سنعدّل الدستور وتصبح ممارسة الناس للجنس مع أي شخص عدا أولئك المخصصين لكل منهم مخالفة كبيرة ... – صن مايونج مون[218]

درجة فهرنهايت 451

بالتأكيد مثل هذا الموضوع ليس موضع ترحيب بين حشود الأغنياء، ولن يكون الترحيب به أكبر من ترحيب معظم الناس في الرايخ الثالث بمساءلة هتلر، الذي بدا كشخص محترم أحبّ وطنه بعاطفة عظيمة. أولئك، على أية حال، لم تكن الإنترنت متوفرة لهم ليستغلوها؛ أما اليوم، فهناك على الشبكة الكثير الأعمال المكتوبة بشكل جيد والتي تشير إلى أحداث 9/11 باعتبارها من الأفعال الحكومية الداخلية. ومن الجدير بالذكر أن العديد من الكتابات المنشورة على الشبكة ليست دقيقة جداً، وقد تكون مكتوبة مصبوغة بنوايا وأهداف أخرى، وهي كتابات أدت إلى إرباك وإبطاء البحث عن الحقائق. بعض النظريات لا يستطيع الصمود، ومعظمها كتب على عجل ودون التدقيق في الوقائع. بوش قال: «دعونا لا نستند أبداً إلى نظريات المؤامرة الشنيعة»[219]. حسناً، دعونا لا نفعل ذلك. دعونا نفصل القمح عن الزوان ونتقدّم إلى الأمام متسلحين بالحقائق، ندرسها بعناية ولا ندع الصحافة الرسمية توضّح وتفسر لنا ما جرى.

أكثر من ذلك، دعونا نشترك في امتلاك المعلومات وندعم إجراء تحقيق فعلي. الحاجة إلى التعاون هي حاجة ملحة، في بعض الأحيان يبدو وكأن كل مُنظّر يتصرف وكأنه هو القاعدة والأصل، وهذا الشرط سيسمح بظهور مزيد من المؤامرات ويفسح المجال لمجموعة منظّمة كي تستولي أكثر فأكثر على السلطة وتخطط بمنتهى العجرفة لمآس أخرى كي تبقي عامة الناس تحت وطأة الأحداث. والسياسة تلعب أيضاً دوراً مجافياً للمنطق، وحيث أن الكثيرين ممن ينتقدون الحكومة محسوبون على «اليسار المغامر»، فإن الرأي العام يتجاهلهم. تلك مجرد طبيعة بشرية. ولكي تزداد الأمور سوءاً وإثارة، يلجأ بعض المحسوبين على أقصى اليسار إلى تحويل النقد إلى تشهير وإساءات، وأنا شخصياً أتمنّى أن يقلعوا عن ذلك. وهناك آخرون ممن يتحدثون انطلاقاً من قاعدة الحقد على أمريكا، حكومة ومواطنين، وهذا ليس دافعاً يساعد على البحث والتدقيق في الحقائق. أمنيتي هي أن يتم جلب مخطّطي «عملية نورثوودز» وأحداث 9/11 إلى العدالة؛ ومن الواضح أن أمراً كهذا سيكون صعباً، ولن أتصرف مثل العقائديين اليساريين أو مثل المعادين لأمريكا. إن التصرف على هذا النحو لن يكون أمراً

سهلاً، وهذا قد يكون من أساليب أولئك الذين يستخدمون أجهزة الإعلام لصرف انتباه الناس وإغراقهم في مزاج من الكسل أو السخافة، بحيث يصبحون غير قادرين على إدراك الخطر الداهم. هل يستطيع شخص ما أن يكون متآمراً وخائناً عبر الإسراف في مشاهدة التلفزيون أم يصبح مجرد أحمق؟ نعم، أنا أقول أنه سيصبح أحمقاً. وأي أمة تسمح بجعلها حمقاء عبر الاستغراق في السخافات التي تشتت انتباهها هي أمة تدعو من يشاء لاستغلالها. نصيحة الآباء المؤسسين كانت أن الديمقراطية تتطلب اليقظة. وقد كانوا محقين تماماً.

إن التحقيق والمساءلة هما حاجة حقيقية، والمساءلة ستجعل الكل يتصرّفون حسب الدوافع الملائمة لفرز الناس وتصنيفهم إلى رجال حقيقيين ونساء حقيقيات سيستردون بلادهم. فيما يلي قائمة بالعديد من مواقع الوب التي تحتوي على معلومات حول التضارب والتناقض في الرواية الرسمية للأحداث وستكون تلك المواقع بما فيها من معلومات ذات فائدة لأولئك الذين يتمنون الوصول إلى الحقيقة. ذكر هذه المواقع لا يعني بالضرورة أنني أوافق على كل ما قيل فيها، لكن الجزء الأكبر منها يقدم معلومات حاسمة يمكن أن تؤدي إلى توقيف جورج بوش وعصابته.

www.rense.com
www.copvcia.com
www.cooperativeresearch.com
www.whatreallyhappened.com
www.americanfreepress.com
www.unansweredquestions.org
www.911-strike.com
www.questionsquestions.net
www.truthout.com
www.globalresearch.ca
www.thewaronfreedom.com
www.911pi.com
www.madcowprod.com
www.falloutshelternews.com
www.deceptiondollar.com
www.onlinejournal.com
www.earthlink.net
www.tetrahedron.com
www.trance-formation.com

سهلاً، وهذا قد يكون من أساليب أولئك الذين يستخدمون أجهزة الإعلام لصرف انتباه الناس وإغراقهم في مزاج من الكسل أو السخافة، بحيث يصبحون غير قادرين على إدراك الخطر الداهم. هل يستطيع شخص ما أن يكون متآمراً وخائناً عبر الإسراف في مشاهدة التلفزيون أم يصبح مجرد أحمق؟ نعم، أنا أقول أنه سيصبح أحمقاً. وأي أمة تسمح بجعلها حمقاء عبر الاستغراق في السخافات التي تشتت انتباهها هي أمة تدعو من يشاء لاستغلالها. نصيحة الآباء المؤسسين كانت أن الديمقراطية تتطلب اليقظة. وقد كانوا محقين تماماً.

إن التحقيق والمساءلة هما حاجة حقيقية، والمساءلة ستجعل الكل يتصرّفون حسب الدوافع الملائمة لفرز الناس وتصنيفهم إلى رجال حقيقيين ونساء حقيقيات سيستردون بلادهم. فيما يلي قائمة بالعديد من مواقع الوب التي تحتوي على معلومات حول التضارب والتناقض في الرواية الرسمية للأحداث وستكون تلك المواقع بما فيها من معلومات ذات فائدة لأولئك الذين يتمنون الوصول إلى الحقيقة. ذكر هذه المواقع لا يعني بالضرورة أنني أوافق على كل ما قيل فيها، لكن الجزء الأكبر منها يقدم معلومات حاسمة يمكن أن تؤدي إلى توقيف جورج بوش وعصابته.

www.rense.com
www.copvcia.com
www.cooperativeresearch.com
www.whatreallyhappened.com
www.americanfreepress.com
www.unansweredquestions.org
www.911-strike.com
www.questionsquestions.net
www.truthout.com
www.globalresearch.ca
www.thewaronfreedom.com
www.911pi.com
www.madcowprod.com
www.falloutshelternews.com
www.deceptiondollar.com
www.onlinejournal.com
www.earthlink.net
www.tetrahedron.com
www.trance-formation.com

(1) Dullfer, Jost. *Nazi Germany 1933-1945: Faith and Annihilation.* London, Arnold, 1996. p.33
(2) Bamford, James. *Body of Secrets.* NY, Doubleday, 2001. pp. 82-92
(3) http://arlingtoncemetery.com/ussmaine.htm
(4) http://www.taima.org/en/quotes.htm
(5) Bamford, pp. 82-92
(6) Ib. pp. 82-92
(7) Ib. p. 89
(8) Cohen, Jeff and Norman Solomon. *30-Year Anniversary: Tonkin Gulf Beat Lie Started Vietnam War.* Essay posted 27 July, 1997 on Media Beat
(9) http://ellsberg.net/weblog/1_23_03.htm
(10) *Mail on Sunday,* 16 February 2002
(11) Gibson, Kenyon, Cindy Mackinstosh and Nick Mackintosh. *Hemp for Victory.* Manuscript in preparation, Eryr Press.
(12) Bamford, pp. 82-92
(13) *The Guardian,* 29 March 2002
(14) http://www.rense.com/general27/rockf.htm
(15) http://www.foreigncorrespondant.com/archive/911_deja-vu.html
(16) *Independent,* 7 November 2002
(17) *People Magazine,* 12 September 2001
(18) Dawson, Ted. Live coverage on NBC News, 11 September 2001
(19) http://www.abqjournal.com/news/aquan09/11-01.htm
(20) http://www.rense.com/general27/losttapesheds.htm
(21) http://www.rense.com/general28/phoney.htm
(22) http://www.rense.com/general28/allsdrop.htm
(23)
بالنسبة للانفجارات التي حدثت قبل الانهيار، ستيف إيفانز من هيئة الإذاعة البريطانية قال ذلك اليوم: «كنت عند أسفل البرج الثاني، البرج الثاني الذي ضُرب. كان هناك انفجار – لا أعتقد أنه كان انفجاراً – لكن قاعدة المبنى اهتزت. شعرت بارتجاجها – وحين أصبحنا خارجاً، حدث الانفجار الثاني ثم حدثت سلسلة من الانفجارات».
(24) www.standdown.net/index.htm
(25) http://serendipity.magnet/ch/note.html
(26) http://www.uscrusade.com/forum/config.pl/read/1064/ (also posted on www. rense.com)
(27) Ib.
(28) Eric Hufschmid, author of *Time for Painful Questions,* points out that fire has never caused a steel building to collapse.
(29) http://whatreallyhappened.com/
(30) *Fire Engineering Magazine,* January 2002, also posted on http://www.ericdarton.net/afterwords/fireandair.html
(31) *Firefighers Magazine,* January 2002
(32) *H.R.* 2580
(33) *New York Times,* quoted on http://www.heartbone.com/nine11/report.html
(34) Ib.
(35) http://www.tetrahedron.com/articles/apocalypse/backlash_bush.html
(36) Icke, David. *Alice in Wonderland and the World Trade Disaster: Why the official story is a monumental lie.* Wildwood, Montana, Bridge of Love Publishing, 2001. p. 269
(37) http://www.rangeguide.net/homerun.htm
(38) *Boston Globe,* 23 November 2001
(39) http://www.rangeguide.net/homerun.htm
(40) Ib.
(41) de Grand Pre, Col. Donn. *The Enemy is inside the Gates.* Posted on www.rense.com in July 2002
(42) Ib.
(43) Ib.
(44) Ib.
(45) Mitchell, Bill. *A Pilot answers 911 Questions JCS Myers wouldn't.* Posted on www.rense.com in June 2002
(46) *Tagespiel,* 13 January 2002

(47) http://geocities.com/mknemesis.homerun.html
(48) Ib.
(49) Massen, Thierry.
(50) http://www.geocities.com/pentalawn2000/ (posted on rense.com)
(51) http://www.cbsnews-com/stories/2001/09/11/national/main310721.shtml
(52) http://www.milkandcookies.com/link/5429
(53) http://sweetliberty.org/issues/war/pentagon.htm
(54) http://www.msnbc.com/news/720851.asp
(55) http://www.time.cim/time/world/article/0,8599,174655-4,00.html
(56) http://www.pstrips.com/01/sopol/ed091201:htm
(57) Langley AFB website
(58) http://www.rense.emperors-clothes.com/indict/-2.htm
(59) http://www.rense.com/general28/Usscrambledjets67.htm
(60) http://www.rense.com/escort.htm
(61) http://www.standdown.net/index.htm
(62) Ib.
(63) http://www.standdown.net/index.htm
(64) Otis AFB website
(65) http://www.standdown.net/index.htm
(66) Ib.
(67) Ib.
(68) Ib.
(69) Senate Armed Services Committee Hearing 13 November 2001
(70) *Washington Post,* 24 September 2001
(71) CBS News, 26 October 2001
(72) Longman, Jere. *Among the Heroes.* NY, Harper Collins, 2002
(73) http://cooperativeresearchorg/completetimeline/Aajaurah.html
(74) Ib.
(75) http://www.libertyforum.org/showflat.php
(76) Ib.
(77) http://www.the-movement.com/Hijackers/bukhari.htm
(78) http://madcowprod.com/index30.html
(79) Ib.
(80) Ib.
(81) Ib.
(82) *The Guardian,* 2 September 2002
(83) *Kansas City Star,* 18 September 2001
(84) *Icke,* p. 304
(85) http://www.apfn.org/apfn/9-11_activist.htm
(86) Ib.
(87) Ib.
(88) *Frankfurter Allgemeine Zeitung,* 14 September 2001
(89) *Sunday Herald,* 15 September 2002
(90) O'Brien, Cathy and Mark Phillips. *Trance-Formation of America.* Reality Marketing, Las Vegas, Nevada, 1995
(91) http://www.lightwater.com/culturejam/anthrax_timeline.htm
(92) http://www.standdown.net/index.htm
(93) Ib.
(94) http://www.september11news.com/main.html
(95) *Orlando Sentinel,* 11 September 2001
(96) http://www.standdown.net/index.htm
(97) CNN, 4 December 2001.
(98)

حول هذا الأمر، علّقت صحيفة بوسطن هيرالد في عددها الصادر بتاريخ 22 تشرين الأول (أكتوبر) 2002، وجاء في المقال: «فكّر في ملاحظة بوش التي تفيد بأنه رأى الطائرة الأولى وهي تضرب البرج. ونحن جميعاً نعلم أن صور الفيديو للطائرة الأولى وهي تضرب البرج لم تظهر حتى اليوم التالي... كيف استطاع القائد العام أن يشاهد الطائرة وهي تطير متجهة إلى المبنى لحظة حدوث ذلك؟»

(99) http://www.propagandamatrix.com/bush_school_photos.htm
(100) *Independent,* 3 April 2003
(101) *Toronto Star,* 28 November 2002
(102) *The Federal Observer,* 14 February 2003
(103) http://islamonline.net/English/News/2001-09/12article17.shtml
(104) *Independent,* 21 April 2003
(105) *New York Times,* 30 December 2001
(106) *UPI,* 1 November 2001
(107) *The Times,* 1 November 2001
(1`08) *The Guardian,* 1 November 2001
(109) US Department of Defense, quoted by CNN, 6 April 2002
(110) Icke, p. 402
(111) Pers. Comm.from Cindy Thompson
(112) http://www.scoop.co.nz/mason/stories/HL0206/500029.htm
(113) MSNBC Interview, 15 September 2001 chechk
(114) Ib.
(115) Icke, pp. 321-322, quoting *Neue Presse*
(116) *Orlando Sentinel,* 6 January 2002
(117) George, Curry E. *Bureaucratic Bunglers Hamper Anti-Terrorism Plans.* Posted on http://blackpressusa.com/Op-Ed/Speaker.asp
(118) Icke, p. 319
(119) http://www.cnsnews.com/ViewNation.asp
(120) Ib.
(121) CNN, 8 October 2001
(122) Icke, p. 322.
(123) قيل أن رايت هُدّد بسبب إصراره على سرد الحقيقة للرأي العام (Fox News, 30 May 2000)
(124) *The Times,* 27 September 2001
(125) De Camp, John. *The Frankin Cover-Up: Child Abuse, Satanism and Murder in Nebraska.* Lincoln, Nebraska, AWT Inc., 1992.
(126) *The Times,* 15 October 2001
(127) Partnoy, Frank. *F.I.A.S.C.O.: Blood in the water on Wall Street.* NY, W.W. Norton & Co., 1997
(128) *Independent,* 14 October 2001
(129) http://hereinreality.com/insidertrading.html
(130) Ib.
(131)

في الولايات المتحدة، يمكن استلام قيمة بيع الخيارات في أي وقت؛ أما الخيارات الأوروبية، والتي تسمى في بريطانيا الرهانات المنتشرة، فلا يمكن استلامها إلا بتاريخ محدد. معظم أو جميع تلك الاحتياطات الأمنية هي على النمط الأمريكي.

(132) http://www.rense.com/general38/guilty.htm
(133) *Times of India,* 9 October 2001
(134) Chossudovsky, Michel. *Political Deception: The Missing Link behind 911,* article published in *Global Outlook #2,* Summer 2002
(135) Ib.
(136) http://wsws.org/articles/2003/jun2003/bush _j05.shtml
(137) Ruppert, Michael C. *Canada Case Reveals US Naval Officer had advance Knowledge of 911 Attacks.* Posted on www.rense.com January 2002
(138) Ib.
(139) Ib.
(140) http://www.rense.com/general28/vree.htm
(141) Pers. comm. from Terry Weems
(142) http://www.rense.com/general36/la.htm
(143) http://www.rense.com/general27/blameusd.htm

(144) Doyle, Dr. Patricia. Letter posted on www.rense.com 7 June 2002.
(145) *On the trail of the anthrax conspirators.* Posted on www.rense.com June 2002
(146) Ib.
(147) http://www.bIb.lia.com/terrorism/anthrax.htm
(148) Doyle, *On the trail...*
(149) Ib.
(150) http://www.ctnow.com/news/nationworld/hc.anthrax0627.artjun27.htm
(151) *The Guardian,* 13 August 2002
(152) Ib.
(153) *The Guardian,* 12 August 2002
(154) Pers. comm. from Dr. Leonard Horowitz
(155) Haupt, Nico. *The Anthrax Timeline – Connect the Dots.* Essay pubished on the internet in June of 2002
(156) Haupt
(157) http://www.stimson.org/cbw/pdf/dec00chron.pdf
(158) Mairesse, Michelle. *Did the Government Okay Anthrax?* Posted on the net, ca. June 2002
(159) Doyle, *On the Trail...*
(160) Ochs, Richard J. *Government by Anthrax.* Essay and timeline posted on www.freefromterror website
(161) Haupt
(162) http://abcnews.go.com/sections/us/DailyNews/WTC_Investigations.htm
(163) Haupt
(164) *Washington Post,* 8 October 2001
(165) *Baltimore Sun,* 10 October 2001
(166) Ochs
(167) Haupt
(168) Ib.
(169) Ib.
(170) *New York Times,* 15 November 2001
(171) BBC News
(172) *Pravda,* 8 October 2002
(173) Ib.
(174) NYSE trading records for summer 2001
(175) http://www.rense.com/general31/scont.htm
(176) http://questionsquestions.net/documents/rarey_anthraxbio34.htm
(177) *The Times,* 16 August 2002
(178) Ib.
(179) Ib.
(180) Ib.
(181) Rosiere, Matthew C. article posted on www.rense.com
(182) *The Times,* 16 August 2002
(183) *Pravda,* 9 February 2002
(184) *The Times,* 16 August 2002
(185) *San Jose Mercury News,* 28 February 2002
(186) *The Times,* 16 August 2002
(187) Ib.
(188) Ochs
(189) *New York Times,* 20 May 2002
(190) http://mikehersh.com.demand.pdf
(191) http://www.rense.com/general36/makow.htm
(192) http://www.thirdworldtrader.com/International_War_Crimes/International_War_Crimes.html
(193) أنظر الملاحظات حوله في الفصل الثاني
(194) http://www.brainyquote.com/quotes/quotes/g/q/24895.htm
(195) CNN.com 14 March 2001
(196) http://www.indybay.org/news/2003/02/1571314.php
(197) http://www.rense.com/general36/makow.htm
(198) http://www.rense.com/general31/scont.htm

(199) *TIME,* 27 April 1992
(200) http://www.voxnyc.com/archives/senator-assassination.html
(201) http://www.rense.com/general31/scont.htm
(202) Anon. Tract, ca. Spring of 2003, a pro-Moon/Bush circular.
(203) Bamford, pp. 82-92
(204) *Washington Post,* 23 March 2002
(205) Ib.
(206) Ib.
(207) De Camp, p. 199
(208) O'Brien and Phillips.
(209) *Washington Post,* 23 March 2003
(210) Anon.
(211) *Los Angeles Times,* 17 November 2002
(212) http://www.unansweredquestions.org
(213) Raimondo, Justin. *Evidence for the Israeli Connection to 911.* Essay posted on rense.com, July 2002
(214) *Washington Times,* 10 September 2001
(215) Liang, Sen. Col. Qiao and Sen. Col. Wang Xiangsui. *Unrestricted Warfare.* Peking, China's People's LIb.eration Army, 1999.
(216) http://www.cesnor.org/2003/vi/2003_chryssides.htm
(217) Anon.
(218) http://www.ex-wayworld.com/interviews/Steve%20 Hassan%20r.htm
(219) George W. Bush, speaking at the UN General Assembly, 10 November 2001



العاقبة

في الستّينات، طاف بول سايمون وفرقة «آرت غارفنكل» في مختلف أنحاء أمريكا لتقديم أغانيهم. كانت أغانيهم في أغلب الأحيان ناجحة شعبياً، والكثير منها لا زال يعتبر من الأغاني الكلاسيكية إلى يومنا هذا. وقد تميزت تلك الأغاني بجودة خاصة من حيث الكلمات التي تتضمن قصصاً على شكل قصائد غنائية، كما أن ألحانها التي تجمع بين الحلاوة والمرارة كانت من الإبداع بحيث نجحت في تصوير الحياة في مجتمع حر. استعرت حرب فيتنام حين كانوا يشعلون أحاسيس الجمهور بأغانيهم، لكن تلك الحرب بدت وكأنها بعيدة عن أمريكا بمقدار 10000 سنة ضوئية حيث لم يكن المرء يشاهد سوى «العيون المتعاطفة». حتى الملاكم كان زميلاً ودوداً وعاطفياً، وانعكس ذلك حتى على اللكمات التي مزقته في غضبه وخزيه. وحين كان الناس لا «يشعرون بأنهم رائعين»، كانت «عيونهم الحائرة» تتجه إلى نجم البيسبول جو ديماجيو.

بحلول العام 2001، عكست عيون الأمة مشـــكلة أعظم بكثير من مجرد الحيرة والوحـــدة، و«جو المتقافز» لم يعد موجوداً. صدمة الإرهاب والخيانة عُزفت جيداً على الأوتار المنخفضة وعلى أوتار النغمات المتلاشية، لكن التعديل والتغيير لم يبدأ فقط في صباح الثلاثاء من شهر أيلول (سبتمبر). لفهم التغيير الذي حدث، ينبغي على المرء أن يعود إلى التاريخ الأمريكي كي

يرى قوة تجار الأسلحة في مجال التلاعب بالصحافة وإشعال الحروب، حروب طويلة ومطوّلة إذا استطاعوا تحمّل الاحتجاج والاعتراض. شركة دو بونت قد تكون أفضل مثال تاريخي. حين وصلوا إلى الشواطئ الأمريكية أول مرة في العام 1800، عبروا علناً عن مقتهم لمواطني الأرض الجديدة[1]. على أية حال، وبعد ذلك مباشرة، بدءوا العمل بجهد وكد وشرعوا باستغلال أولئك المواطنين، متحمّلين أحياناً احتاج وسخط الأمة[2].

دو بونت لم تكن الوحيدة التي سلكت هذا السلوك؛ تجّار الأسلحة الآخرون ومنتجو المواد الكيميائية شقوا طريقهم على نفس المنوال. في فترة من الزمن، كانت دو بونت اللاعب الأكبر في هذا الحقل، إلى درجة أن هذا الأمر أصبح مثار اهتمام الرأي العام الذي أزعجه أن يسيطر محتكر صناعي على الصناعات الدفاعية للأمة. أما اليوم فقد أصبح اللاعبون الرئيسيون هم شركات لوكهيد مارتن، مجموعة كارليل، كيلوج براون آند روت، وهاليبرتون. كل منها ممثلة في إدارة بوش عبر تعيين المستخدمين السابقين في تلك الشركات ضمن الحكومة.

عديمو الضمير لهم جدول أعمالهم، وهو ملتبس في أغلب الأحيان مع الوطنية. وكما أن وليام إيرل دودج ستوكس كان يعظ ويبشر بالوطنية في الوقت الذي كان يمدح فيه عدو أمريكا، كذلك الأمر فإن بعض الجماعات ترفع العلم وتقود حشود الهاتفين تأييداً للحرب، كما يوقّعون، في الوقت عينه، عقوداً مربحة مع مستخدميهم السابقين، المؤتمنين الآن على أموال الضرائب التي تدفعها الأمة.

أحد أهدافهم هو أن يسيطروا على قوانين وسلطات الولاية، أي ولاية قد تقاوم تقاسمهم لحصص المبيعات. لكن أليست هذه إحدى نظريات المؤامرة التي تطفو على سطح شبكة الإنترنت؟ بالتأكيد، فهؤلاء الناس يبدون لطفاء جداً. ستجدهم في الكنيسة، لسوء الحظ، وبعض الولايات أديرت بالكامل من قبل هؤلاء التجّار المنافقين الذين يتظاهرون بالصلوات الطويلة ويستغلون اسم الله لتحريك الجنود وجمع المزيد من المال. إن الخدعة القديمة التي تتعلق بالمرأة التي تسأل رجلاً إن كان قوياً، وهي تعلم أنها ستجعله يحمل أمتعتها، ليست بعيدة عما يفعله تجّار الأسلحة ويمارسونه منذ قرون. هل أنت قوي، وطني، أو ربما متدين بما فيه الكفاية كي تقدّم حياتك كتضحية؟ عظيم، اذهب الآن واقتل.

ما الذي يفعلونه في أمريكا ما بعد 9/11؟ للإجابة على هذا السؤال، لننظر ثانية إلى الوراء ونرى ما الذي كان يجري في الحكومة الأمريكية حين كانت تحت الإدارات السابقة التي تضمّنت وجود بوش في البيت الأبيض. خلال تلك الفترة، كُذب على الأمة وضُلّلت عدة مرات فيما يتعلق ببعض النشاطات السرية لوكالة المخابرات المركزية، وأصبح وجه العقيد أوليفر نورث ضيفاً على كل بيت ونكتة جاهزة للكوميديين من ساحل إلى آخر عبر أرجاء أمريكا. وحين انكشفت فضيحة إيران-كونترا، طُلب نورث للشهادة أمام الكونغرس، وعند التمكن من انتزاع إجابة منه، كان يتبيّن في أغلب الأحيان بأن الكثير من الأمور الخاطئة كانت تجري في الإدارة. تلك الممارسات التي ارتُكبت في أواخر الثمانينات كانت مزعجة، وتم بذل الكثير من الجهود للحد من ردة فعل الشعب الأمريكي. وقد يكون ما ظهر على السطح من تلك المحاكمات هو الذي جعل بوش الأب يخسر انتخابات 1992.

نورث لم يكن متورطاً فقط فيما يمكن اعتباره بكل بساطة جهوداً مشتركة بين المافيا ووكالة المخابرات المركزية في مجال الاتجار بالمخدرات، بل ساهم أيضاً في أوائل الثمانينات بصياغة تحضيرات الدفاع المدني للوكالة الفدرالية لحالات الطوارئ[3]. والخطط التي وُضعت كانت تتضمن طلبات تنفيذية تسمح بتعليق الدستور[4]. الحكم العرفي ومعسكرات الاعتقال كانا أيضاً جزءاً من تلك الوثائق، ومن المحتمل أن يكون ذلك ضرورياً في حالة إبلاغ مئات الملايين من الناس بأن الدستور لم يعد سارياً، مع رغبة تلك الملايين في معرفة ما الذي يحدث. الحكومة، بتعليمات من الوكالة الفدرالية لحالات الطوارئ، يمكن أن تُسلّم للرئيس والوكالة الفدرالية لحالات الطوارئ[5].

زعماء الوكالة الفدرالية لحالات الطوارئ ربّما ادّعوا أنهم جاهزون لحماية الشعب الأمريكي من المشاكل الداخلية. أحد المدراء السابقين، لويس غويفريدو، تنبأ ذات مرة بحدوث «إنتفاضة وطنية»[6]. صاغ خطة لاعتقال «ما لا يقل عن واحد وعشرين مليون زنجي أمريكي» في «مراكز الجمعية أو في معسكرات التجميع»[7]. نائبه، جون برينكرهوف، هو الذي تولى معالجة جزء الحكم العرفي من خطة الوكالة الفدرالية لحالات الطوارئ في الثمانينات.

برينكرهوف يتعارك الآن مع «معهد أنسر للأمن الداخلي». في شباط (فبراير) 2002، نشر هذا المعهد ورقة كان برينكرهوف قد كتبها ودافع فيها عن نشر الجنود الأمريكيين في الشوارع الأمريكية، وذكر المعهد أن تلك الوثيقة خُطّط لها وصُدّقت من قبل ريغان[8]. على أية حال، تلك الخطط قد لا ترى النور، باعتبار أنهم ضيّقوا الخناق على أكثرية المواطنين الأمريكان بعد فترة قصيرة من أحداث 9/11 [9].

أمريكا تعرضت لهجوم واضح وشرير، ليس من قبل الإرهابيين العرب، بل من قبل ذوي التغذية الحسنة والتعليم الحسن الموجودين في السلطة والذين كانوا يأملون دائماً بشلّ وتعطيل التركيبة الكاملة لهذا البلد. معسكرات الاعتقال، التي ذُكرت بالعبارة الملطّفة «مراكز الجمعية» خُطّط لها، وربما كان ذلك قمة جبل الجليد فقط. ما هي الحقيقة المرة كاملة؟ النيويورك تايمز قالت في أيار (مايو) 2002: «في الواقع، السّيد آشكروفت، باسم مكافحة الإرهاب، يعطي عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي سلطة غير محدودة تقريباً لانتهاك خصوصية أي شخص في الولايات المتحدة، حتى عند عدم وجود دليل على نشاط غير شرعي[10].

أعتقد أننا يجب أن نمنح جون آشكروفت يداً كبيرة. مباشرة في الفم! ...وبناء على الطريقة التي تجري بها الأمور، من المحتمل أن أزجّ غداً في السجن بسبب قولي هذا، لذلك أتمنى أن تتبرعوا بالكفالة لإخراجي. ميرل هاغارد[11].

في السبعينات، تعرض مكتب التحقيقات الفدرالي للخزي بسبب COINTELPRO، وهو برنامج استخبارات مضادة اعتُبر في حينها خرقاً للائحة حقوق الإنسان. نات هينتوف كتب في صحيفة «فيليج فويس» حول ذلك: «نعتقد بأن المواطنين لهم الحق في السيطرة على حكومتهم ومراقبتها مراقبة شديدة... مكتب التحقيقات الفدرالي خان الثقة الممنوحة له في النظام الديمقراطي، ونحن نتمنّى تقديم الدليل حول هذا الزعم وإخراجه إلى العلن ووضعه أمام مواطنينا لمناقشته»[12].

بعد بضعة أسابيع من تفجّر المعارضة، نشرت النيويورك تايمز مقالة بعنوان «سلطات رئاسية غير محدودة» جاء فيها:

أبلغت وزارة العدل قاضٍ اتحادي هذا الأسبوع أن يأخذ مخاوفه القانونية حول الحريات المدنية ويلقيها في سلة قمامة. يبدو أن إدارة بوش تعتقد، دون الاستناد إلى أسس قانونية ثابتة، أنها إذ تسمي المواطنين مقاتلين في الحرب على الإرهاب، يمكنها أن تسجنهم لفترات غير محددة وتحرمهم من حقهم في الاتصال بالمحامين. أخذت الإدارة هذا الموقف الخاطئ إلى ذروة سخيفة يوم الثلاثاء، مصرّة بأن المحاكم الاتحادية لا تستطيع أن تردعها عن نزعتها هذه.

يعتبر هذا السلوك تحدياً للمحاكم التي تستند إلى قرنين من القانون الدستوري وتقويضاً للحريات ذاتها التي يزعم بوش أنه يدافع عنها في الكفاح ضد الإرهاب. يجب على المحاكم أن تعارض بحزم مزاعم البيت الأبيض حول السلطات غير المحدودة[13].

كان هذا بخصوص عمليات الاعتقال، التي لم يسبق لها مثيل، لمواطنين أمريكيين دون أن اتهامهم بأية جريمة. بناء على هذه القواعد الجديدة، يمكن أن تؤدي تهمة مزعومة وغير مؤكدة إلى اعتقال أي شخص وحجزه لفترة غير محددة (مدى الحياة). بحلول شهر آذار (مارس) 2002 كان «الآلاف من عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي» قد حققوا مع أكثر من 1300 مشبوه في مختلف أنحاء أمريكا منذ 9/11، لكنّهم أخفقوا في إيجاد خلية واحدة لتنظيم القاعدة تعمل من داخل الولايات المتّحدة[14].

ما الذي، حسب التعليمات الجديدة، يجعل من أي شخص مشتبه به؟ هل ينبغي على كل شخص أن يعيش في خوف دائم من عدو هدّام وليس عليه سوى الاتصال بمكتب التحقيقات الفدرالي قائلاً بأن شخصاً ما يتصرّف بشكل مريب؟ بعض النشاطات المعادية لأمريكا، بعض الأصدقاء أو الأنسباء العرب، نسخة القرآن في مكتبتك الشخصية؟ حسناً، قل مرحباً لأصدقائك الجدد عبر هاتفك النقال ولا تتسبب بالمشاكل بسؤالك عن محاميك. إذا تحدّثت عن الدستور، قد تقع في المشكلة.

الحقيقة التي لا شك فيها هي أن كل من يتحدّث عن الدستور يعتبر في الواقع أرضاً خصبة للشكوك. في تشرين الثاني (نوفمبر) 2001 أُرسلت مذكرة من مكتب التحقيقات الفدرالي إلى قسم شرطة فينيكس تنص بشكل واضح على ذلك؛ الأراضي الأخرى كانت مهجورة، ثائرة، أو أن شخص ما تحدّث حول الدفاع عن الدستور[15]. كم من هؤلاء الـــ1300 مشبوه

أُتهم زوراً من قبل حبيب سابق أو جار حاقد؟ هل ارتكبوا خطأ بالتحدث عن الدستور مع عميل سري لمكتب التحقيقات الفدرالي؟ أين سيكون جورج واشنطن اليوم في كل هذا؟ وهو، كمزارع قنّب، يمكن بكل سهولة أن يكون بانتظار عقوبة الموت، باعتبار أن التعليمات الاتحادية تجعل هذه العقوبة قابلة للتطبيق على أولئك الذين يعتنون بزراعة 60 ألف نبتة قنّب؛ إن العدد المتوسط لنمو القنّب في كل هكتار هو 60 ألف نبتة[16]، لذلك، ربما سيكون واشنطن، كما قال جورج بوش الأب، «يعمل في العمق»، لكنّه لن يكون وحيداً. توماس باين، توماس جيفرسون وبينجامين فرانكلين، إلى جانب الملايين من مواطني اليوم جميعهم يمكن أن يعانوا معاً ويشعروا بالضعف تحت وطأة قوانين جورج دبليو وعصابة سكول آند بونز.

المكان الوحيد الذي يمكن مناقشة الدستور فيه هو المكتبة العامّة. وقد لا تكون هذه فكرة صائبة أيضاً، حيث أن «قانون الوطنية» يسمح الآن لعملاء مكتب التحقيقات الفدرالي بتفتيش جميع سجلات المكتبة. في الواقع، تحت هذا القانون الجديد غير مسموح قانونياً للعاملين في المكتبات التحدث حول هذه المسألة. جوديث كروغ، المسؤولة عن الحرية الثقافية في الجمعية الأمريكية للمكتبات العامة، قالت: «هذا سر خطير ومن يحاول أن يتحدّث عمّا يقوم به مكتب التحقيقات الفدرالي في مكتبته قد توجّه إليه الاتهامات. وهذا أمر لا علاقة له بالوطنية»[17].

هل هناك إرهابيون يدخلون المكتبات لمراجعة الكتب المتعلقة بكيفية تحضير المتفجرات؟ هل تعتبر المكتبة المحليّة مصدراً لهذا النوع من المعلومات؟ أم أن القوانين الجديدة ذريعة للتجسّس على ما يقرأه الناس، وطريقة مناسبة لمنع الجمهور من قراءة الكتب التي تتحدث عن الجرائم الفادحة المنتشرة في هذه الإدارة الجديدة؟ أبدى العديد من الأمريكيين خوفاً حتى من الدخول إلى شبكة الإنترنت والاطلاع على المواقع التي تنشر الحقائق. لذلك، فإن الأشقياء يضربون كل من يقرأ، ويفترض بنا جميعاً أن نلعب لعبتهم. مرحباً بكم في «العالم الجديد الشجاع»؛ لا تقرأ لجورج أورويل، فقد يعلم بذلك «الأخ الكبير» عبر أحد النمّامين. إن التخلي عن الحريات المدنية في الولايات المتحدة سيكون غباء كما كان في ألمانيا النازية. قد يؤدي ذلك

بالبعض إلى شعور زائف بالأمن، لكنه في فورة الحماس لن يدرك ماذا يجري. قيصر أدرك هذا، والسياسيون يدركونه اليوم.

الحجز

ربما كانت الدراما هي التي تبرّر الوسائل. الرومان جعلوا المسيحيين طعاماً للأسود، وذلك ما أبقى الجمهور في حالة استمتاع. وحين ثار العبيد، صلبت الحكومة 100 ألف منهم. هذا النهج سرّ وأبهج «العظيم والنبيل» الذي عاش على عرق الآخرين، وموافقتهم على ذلك جعلت العرض يستمر.

عام 1998 أُطلق فيلم سينمائي حمل اسم «الحصار». موضوعه كان الاشتباه بأن العرب الأمريكيين في بروكلن كانوا يخططون لهجوم على الولايات المتحدة، وفي ذلك الفيلم أغرقت هوليود المشاهد في الصور الخيالية لمعسكرات الاعتقال ومشاعر الحقد والتوقيفات المثيرة. الكثيرون وجدوا هذا الفلم مهيناً بشكل إجمالي.

في 12 أيلول (سبتمبر) 2001، كل ذلك الخيال أصبح حقيقة حية، و لم يكن يُعرض في دور السينما فقط، بل وصل إلى الكثيرين في بيوتهم. جيمس ردجيواي من صحيفة فيليج فويس يروي حكاية مخيفة عن رجل أعمال ناجح اسمه سيد علي، وهو مهاجر باكستاني عاش في الولايات المتحدة لأكثر من عشرين سنة. علي كان يحمل تأشيرة صالحة وحديثة، يملك بيتاً في نيويورك، وأطفاله في المدارس الخاصّة. كان يصبو أن يصبح شريكاً في شركة «مانهاتان»، ويصبح مواطناً أمريكياً في المستقبل القريب، لكن الآن أصبح كل ذلك من الماضي. الحكومة اعتقلته واحتجزته لثلاثة أشهر ونصف وأخذوا كل ما كان في بيته. أخيراً، طلب قاضٍ أن يرى بعض المؤشرات من مكتب التحقيقات الفدرالي والتي بناء عليها تم احتجاز علي. لم يقدموا شيئاً، وخرج علي بكفالة قدرها 50 ألف دولار[18].

زميل له باكستاني اسمه قيصر رفيق كان يغادر بيت أخته في كونكتيكت صباح 17 تشرين الأول (أكتوبر) حين اعتقله فجأة ضبّاط الأمن الذين هدّدوه بإطلاق النار عليه إذا رفّت عينه. رفيق، مثل علي، محترف ومتعلّم وكان يحمل تأشيرة صالحة صحيحة عند توقيفه. وظيفته

الأخيرة كانت في وول ستريت، لكنه الآن ملقى في السجن بانتظار من يدفع كفالة الإفراج عنه وقدرها مليون دولار. أقرباء له صرّحوا بأنّ السجّانين كان يجلسون ويراقبون السجناء الآخرين وهم ينهالون عليه ضرباً[19].

محمد أكرم تعرض أيضاً «للحصار»، وهو رجل أعمال محترف آخر من الأصول الباكستانية. في 11 تشرين الثاني (نوفمبر) 2001، انطلق عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي ودائرة الهجرة والجنسية إلى دكانه الواقع في منطقة برايتون بيتش واعتقلوا صديقه. ثم اعتُقل أكرم «لأنه قد يعرف شيئاً». مكتب التحقيقات الفدرالي أخبر عائلته بأنه سيعود خلال بضعة أيام؛ وبدلاً من بضعة أيام، قضى خمسة أشهر في السجن و لم يُسمح لعائلته بزيارته، ثم أُبعد في نيسان (أبريل) 2002[20].

البيان الذي أصدره في تموز (يوليو) 2002 بيتر كيرسانو من اللجنة الأمريكية للحقوق المدنية أوضح بأنك «تستطيع أن تنسى كل ما يتعلق بالحقوق المدنية... ستكون هناك موجة كبيرة في الرأي العام تتغاضى عن انتهاك الحقوق المدنية»[21]. بياناته، التي أصدرها في ديترويت بولاية متشيغان، التي تقطنها جالية عربية أمريكية كبيرة، استُقبلت بالقلق ليس من جانب العرب فقط، بل من قبل الكثير من المسلمين غير العرب الذين شعروا بأنهم مستهدفون أيضاً بهذه الإجراءات، ومن ضمنهم عدد كبير من الأمريكيين الأفارقة. في رسالة نشرت في موقع UQ.org في شهر آب (أغسطس) 2002 جاء الآتي: «ماهي نقلة دبليو (بوش) التالية، ولماذا يحاولون لوم الأمريكيين الأفارقة كما لو أنّهم كانوا جميعاً متواطئين مع الإرهابيين «العرب»؟ هل هذا جزء من الخطة الأصلية بالتسبّب باضطراب مدني، ثم إلقاء اللوم على السود، ثم وضع 21 مليون شخص في معسكرات؟[22].

التخفيضات

قبل أن ينجلي الدخان من مانهاتن في وسط المدينة، كان واضحاً أن الخسائر لم تقتصر على الطابق الأرضي. الخراب الاقتصادي ستكون له آثاره في بعض المناطق لسنوات قادمة، والأسواق حول العالم استجابت لذلك فوراً عبر الانخفاض الحادّ. قُدّر عدد الذين فقدوا وظائفهم بـــ 146 ألف شخص كنتيجة للهجمات، والخسائر الكليّة قُدّرت بأكثر من 95

بليون دولار. الأبراج لوحدها تمثّل 7.6 بليون دولار من تلك الخسائر، ثم تأتي بعد ذلك كلفة إصلاح المباني المحيطة بالبرجين والتي تحطّمت، البنية التحتية، وخسارة الأجور، والضرائب، الخ. مجموعات رئيسية من اللوحات الفنية النادرة دُمّرت، ومن ضمنها عدّة أعمال أصلية للفنان روديتر كانت موجودة في مكاتب كانتور-فيزجيرالد. فقدت الأمة كنزاً هاماً من الصور الفوتوغرافية حيث دمرت الحرارة 40 ألف شريحة صورة سلبية مأخوذ لجون إف. كينيدي التقطها جاك لوي وكانت موضوعة في خزنة في بنك «تشيس مانهاتن». العديد من المستثمرين الدوليين خسروا الكثير من قيمة ممتلكاتهم العقارية، وربما تكون الخسارة المالية الأكبر هي تلك التي أصابت ملكة إنجلترا التي تستثمر كثيراً في عقارات نيويورك.

حين وصل جورج بوش الإبن إلى نيويورك بعد أيام من الهجمات، سبقه في الظهور هناك عمدة نيويورك رودولف غولياني والرئيس السابق بيل كلينتون. ثم اعتلى بوش خشبة المسرح، منفذاً جدول أعماله الخاص الذي تضمّن الكثير من العطف والوعد بالمساعدة الإتحادية. بعد شهور من ذلك تقريباً، كان العطف ما زال يتدفّق، لكن المساعدات انقطعت. في شباط (فبراير) 2002 نشرت صحيفة الدايلي بوست المقالة التالية تحت عنوان «انقطاع المساعدات المالية لنيويورك»:

> السياسيون في نيويورك أغضبهم أمس قطع الرئيس بوش برنامج المساعدات الذي وعد به المدينة ... أدى ذلك التصرف عملياً إلى انقطاع الأموال المخصصة لنيويورك... السيناتور تشوك شومر أبلغ صحيفة نيويورك دايلي نيوز أن: «هذا الأمر يضاهي نقض الإيمان».
>
> عضو الكونغرس جيرولد نادلر، الذي تتضمّن دائرته الانتخابية مركز التجارة العالمي المدمّر، أضاف: «ذلك خطأ شديد، منتهى الغش»[23].

حين خيّم ذلك الجو من الإحباط، تم أيضاً تعليق ميزانيات العديد من الخدمات التي لم تكن على علاقة مباشرة بدعم بوش وجهود الحرب التي ستشن على نطاق العالم. في آب (أغسطس) اندلعت موجات من الاحتجاج على قرارات الإدارة لتخفيض العديد من البرامج، ومن ضمنها الأموال المخصصة لأمن المطارات والسفارات، بالرغم من أنّ الكثير من تلك الموازنات كان مدعوماً من قبل رفاقه الجمهوريين.

كشفت تلك التخفيضات مزيداً من السخرية حين رفض بوش أيضاً الميزانية التي خصّصت 340 مليون دولار لدوائر مكافحة الحرائق. كان من ضمن ذلك الرقم مبلغ 15 مليون دولار منحة أجهزة وتدريب، 90 مليون دولار لمراقبة الصحة على المدى الطويل، وربما كان الأكثر أهمية هو مبلغ 150 مليون دولار لأنظمة الاتصالات[24]. من المستحيل تقريباً إنكار ضرورة المبلغ الأخير، ذلك أن النقص في تلك الأجهزة هو الذي أدى إلى موت العديد من رجال الإطفاء في الهجمات[25]. تم التنبه سابقاً لهذا الخلل وظهر أثناء حادثة تفجيرات 1993، حين لم تعمل أجهزة اتصال مديرية شرطة نيويورك وأجهزة اتصال دائرة مكافحة الحرائق في نيويورك بشكل متزامن ومتكامل[26] .هجمات 2001 أعادت القضية إلى الظهور وأبرزت الحاجة الماسة لتطوير تلك الأجهزة، رغم أن الأمر طوي ثانية تحت السجادة في إدارة التي تضمّنت أشخاصاً مثل إليوت أبرامز، الذي كذب على الكونغرس وفقد مرتين تقريباً المبالغ المالية التي عُهدت إليه ووُضعت تحت مسئوليته[27]. أبرامز وآخرون يمثلون أكثر من مجرد خسارة الأموال، حيث تبيّن الآن بأن ذلك المال الذي «خسروه» ينبغي أن يأتي من مكان ما، وذلك يعني الخدمات الاجتماعية، أجهزة مكافحة الحرائق والرواتب التقاعدية.

بينما كانت أولويات بوش إيجاد الطرق لصرف المال على أبرامز وتشيني وشركائهما، وتمرير المبالغ إلى حسابات مصرفية خارجية في مختلف مناطق العالم، لم يكن كل جمهوري راغباً مسايرة هذا الغباء. ربما كانت لديهم الرغبة، لكنها لم تكن من القوّة بحيث تتسبب في إثارة ضجّة عامّة. حين أعلن بوش خطط موازناته المالية، جعل رجال الإطفاء الأمر صعباً عليه في عموم البلاد، معبّرين عن استيائهم من ذلك الغباء. في مؤتمر اتحاد قادة مكافحي الحرائق الأمريكيين، الذي انعقد في لاس فيجاس، آر. مايكل موهلر من «المركز المحلي لمكافحة الحرائق 774» أشار بيده راسماً حركة مقاطعة أمام 2000 من زعماء الاتحاد وقال، وسط تصفيق وهتافات من رفاقه، أن «الرئيس لا يزال يستغل رجال الإطفاء وعوائلهم كفرصة لالتقاط صورة فوتوغرافية كبيرة واحدة - وسنعمل بكل نشاط كي لا نمنحه فرصة لالتقاط صورة أخرى معنا»[28].

المحاسبة التدميرية

حدثت تلك التخفيضات في أعقاب انتكاسة اقتصادية هائلة؛ ومن الواضح أن زمرة الأولاد الكبار الطيبين والطمّاعين كانوا يزدادون ثراء في حين أن البلاد كانت تُنتهك اقتصادياً. حدث ذلك على خلفية الهبوط الاقتصادي التدريجي الذي كان مستمراً منذ العام 2000، والذي دُفع الآن إلى شفير الهاوية عبر القصص التي لا تزال تتزايد وتنتشر حول شبكات أولئك الأولاد الكبار التي تمارس الغش والاحتيال في العديد من شركات أمريكا الكبرى بينما كان أصدقاؤهم في المناصب الرفيعة يغمزون ويلمزون بالطريقة إياها. أسماء «إنرون»، «وورلد دوت كوم»، «أي أو إل/تايم وارنر»، ليست سوى عيّنة من العديد من أسماء الشركات التي وردت على القائمة؛ الاحتيال والإفلاس و«الخطأ» كانت هي الكلمات الجديدة التي تردد صداها عقل كل شخص، والأمور مستمرة وتزداد سوءاً كل يوم.

وسط كل هذه الفوضى، بدأ بوش يخسر. قانون إصلاح الشركات لقي دعماً من جميع الأطراف في الولايات المتحدة، لكنه كان من وجهة نظر البيت الأبيض «قاسٍ جداً على وول ستريت»[29]. زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ ديك جيفاردت (ديمقراطي–ميسوري) لخّص المسألة كالتالي: «قانون [الديمقراطيين]، الذي مرّ في مجلس الشيوخ بنتيجة تصويت 97-0 قَبِله أخيراً الأعضاء الجمهوريون بعد مماطلة لأسابيع وأسابيع وشهور وشهور»[30].

تعديل واحد أجري على ذلك القانون وهو منع محاسبة المدراء الذين يقترضون أموالاً من شركاتهم. هذا أحد أشكال الفساد والذي لا يساهم في ازدياد الغمّ الراهن فقط، بل كان مستمراً منذ سنين مضت، على الأقل منذ الثمانينات عندما «اقترض» جورج بوش الإبن من شركة هاركين للطاقة (وُضع هذا الشكل من أشكال الاقتراض تحت المجهر، وربما كان جزءاً من خطة مدعي عام نيويورك إليوت سبيتزر لإجبار المقترضين على العمل على تسديد مثل تلك «القروض»). على أية حال، المقاييس التي اعتمدها الإدارة في هذا الخصوص رآها الكثيرون نكتة هائلة على حساب أكثرية المواطنين الأمريكيين؛ كين لاي، الصديق المقرّب لبوش والمدير التنفيذي السابق لشركة «إنرون»، واصل العيش بأسلوب حياته الباذخ وبيرنارد إيبرز من شركة «وورلد دوت كوم» واصل أيضاً حياته، التي تتضمّن تدريس الكتاب المقدّس

في الكنائس. هارفي بيت، الذي اختاره وعيّنه بوش في منصب رئيس لجنة السندات والنقد، وهو التعيين الذي نظر إليه الكثيرون كعملية احتيال؛ صحيفتا الوول ستريت والفاينانشيال تايمس كلاهما دعتا إلى استقالته. أدريانا هوفينغتون في عمودها المعروف على شبكة الإنترنت كتبت: «تعيين هارفي بيت رئيساً للجنة السندات والنقد كان كتعيين أسامة بن لادن رئيساً للأمن الداخلي»[31].

مايلز كنغستون كتب هجاء للحال الراهن في صحيفة الإندبيندنت فيما يلي خلاصته:

> غاضباً بسبب انهيار «إنرون» وشركات أخرى، ومن المعتقد أن هذه الانهيارات قد أضرت بالولايات المتحدة أكثر مما تسببت به أحداث 11 أيلول (سبتمبر) من أضرار، من المنتظر أن يعلن الرئيس بوش حملة شاملة ضد شركات التدقيق والمحاسبة. «الحرب على الخطأ»، كما سمّاها، ستعطي القوى الأمريكية القدرة على القيام بوقفة مراجعة ومساءلة، وعند الضرورة، معاقبة كل مذنب في مجال تدقيق الحسابات. أحد مساعديه يقول: «في مثل هذا الوقت من السنة القادمة، الشخص الأكثر تعرضاً للخطر في العالم سيكون أي عراقي يعمل في مجال تدقيق الحسابات»[32].

كنغستون في الحقيقة طلب من القرّاء أن يقرروا هم ما إذا كانت هذه قصّة حقيقية أم لا. فالحسابات الحقيقية ليس فيها مثل هذه الجانب المضحك. جيمس ردجيواي المحرر في صحيفة «فيليج فويس» يقدّم المسألة بشكل أوضح دون طرح أيّ سؤال، ملخصاً عدّة حقائق مقلقة:

> الجمهوريون في الكونغرس نجحوا في إعاقة الجهود المبذولة لإعطاء المستخدمين فرصة إبداء الرأي في اللجان التي تستثمر أموالهم. بالتأكيد ليست هناك حماية ضمن القوانين المتبعة – في كل الأماكن– من قبل وزارة العمل التي لم تفعل شيئاً، بالرغم من اعترافها بمعرفتها بكارثة «إنرون» قبل أشهر من وقوعها وقبل أن تخرج إلى العلن، لكنها لم تتخذ أي إجراء لحماية 410 آلاف من حملة الأسهم ... الرمز المعبر عن الوضع الراهن هو رئيس لجنة السندات والنقد هارفي بيت... شعر هارفي بيت بأنه وضع حيث أراد ويريد راتباً أعلى... تركيز بوش على سوق الأسهم المالية سيرتفع هذه السنة... السنة ونصف السنة الأولى من ولاية بوش كانت أسوأ ما سجّل... بوش ما زال يريد أن يحوّل كامل نظام الضمان الاجتماعي إلى صندوق يشبه أعمال الجيش الجمهوري الآيرلندي، حيث الأفراد يديرون استثماراتهم الخاصة، مما يعني أن وول ستريت ستضمن بأن كل شخص في البلاد سيفلس في نفس الوقت[33].

وفي حين أن الأولاد الكبار في واشنطن يعتقدون أنه من المناسب السماح لبضعة أخطاء متعلّقة بالشركات أن تمر دون عقاب، إلا أن سبيتزر لا يرى ذلك. وهو لا يقدّم فقط تشريعاً يطال المسئولين عن «القروض» المذكورة أعلاه، بل ينوي استعمال وإصدار القوانين التي سيكون تطبيقها واقعياً في ولايته وفي أنحاء البلاد التي مُنح الثقة لخدمتها. بالنسبة للبعض هو مجرد بخيل ابن عاهرة؛ في حزيران (يونيو) من عام 2002 تمكن من إجبار ميريل لينش، بيت التمويل الأكبر في العالم، على دفع 100 مليون دولار كغرامة على التهم المتعلقة بالادعاءات التي بيّنت أن المحلّلين في ميريل لينش قيّموا بشكل خاطئ شركات كانوا يتعاملون معها[34]. بحلول شهر آب (أغسطس) من تلك السنة حوّل اهتمامه نحو أشخاص مثل جوزف ناكشيو من شركة «كويست كوميونيكاشن» وزميله في البيت الأبيض كين لاي المدير السابق لشركـــة «إنرون». قيّم سبيتزر مبالغ مدفوعاتهم مقارنة بالإجراءات المحاسبية الاحتيالية وقرر بحزم بأنهم يجب أن يعيدوا إلى الجمهور البعض من مئات الملايين التي استولوا عليها بينما كانت البلاد تخسر[35]. غاري وينّينك من شركة «غلوبال كروسينغ»، ربما كان الفائز الأكبر، حيث استولى على 512 مليون دولار، بينما حل كين لاي بعده في المرتبة الثانية بحصوله على ما يقارب 247 مليون دولار[36].

نيويورك، ولاية سبيتزر، لن تُحتقر بعد الآن في عالم المال، فنيويورك هي ثالث أكبر مركز مصرفي في العالم. على أية حال، نيويورك ليست سنده الوحيد في هذه المطاردة؛ عدّة ولايات أخرى تحالفت معه، لكن بعض الولايات لا تزال تؤوي «إرهابيين ماليين». تكساس وفلوريدا تسمحان للناس بالاحتفاظ ببيوتهم بالرغم من إعلان الإفلاس، وربما كان القاسم المشترك، غير الملحوظ، بين العديد من هؤلاء الأشخاص أنهم بنوا قصوراً رائعة في هاتين الولايتين في حين أن بقية سكان البلاد يكدون لتأمين مبالغ الإيجار الشهري والرهن. ديلاوار أيضاً ليست أفضل حليف لسبيتزر، ففيها شركة «دوبونت»، وهي حليف آخر لبوش، وجهاز «دوبونت» السياسي هو الذي قدّم نظاماً يقضي بعدم دفع الشركات للضرائب في تلك الولاية[37]؛ أما البسطاء من الناس فيدفعون.

تضييق الخناق

بينما كانت العديد من قطاعات الأعمال التجارية الأمريكية تكافح كفاح موت أو حياة، كانت بعض الأعمال التجارية تزدهر، مثل شركات الأمن والدفاع. استيقظت أمريكا على عالم جديد شجاع من الحراسة الأمنية المشدّدة بعد الهجمات، مشدد ومتصاعد بشكل مفهوم في المطارات، بالرغم من أنه لم يكن دائماً نحو الأحسن.

بعض تلك الإجراءات الجديدة انتهى إلى مسالك غريبة. في آب (أغسطس) 2002، طُلب من امرأة كانت تحمل بعض الزجاجات من حليبها الخاص لرعاية طفلها أن تشربه على مرأى من رجال الأمن. حاولت أن تتفهم هذا الطلب المتطرّف، فسألتهم: «كم هو، برأيكم، عدد النساء البيض الحبالى الموجودات في قواعد تدريب تنظيم القاعدة؟»[38].

نيقولاس موناهان روى كيف تعرضت زوجته الحبلى، بينما كان في الطريق لحضور حفل زفاف، إلى المعاملة المذلّة في أحد المطارات. انهارت باكية كنتيجة لتلك المعاملة، وشرحت لزوجها بأنه طُلب منها رفع قميصها على مرأى من مئات الغرباء. وعندما سأل رجال الأمن عن سبب هذا الطلب، أحاط به ضبّاط الشرطة، الذين اعتقلوه وقيّدوه على الفور وسحبوه أمام زوجته الحائرة والمذهولة. عندما حاول موناهان لاحقاً أيضاًح الأمور، شارحاً ومبيناً أنه لم يكن لا هو ولا زوجته إرهابيين، قيل له بأنّ أشرطة الفيديو التي سُجل عليها الحادث ليست متوفرة، كما أن أحد ضباط الشرطة، الذي لم يكن موجوداً أثناء الحادثة، أيّد وجهة نظر رجال الشرطة الذين اعتقلوا موناهان[39].

بسبب كل ذلك الانزعاج، دار الجنين داخل الرحم، وأصبح لزاماً إخراجه بعملية قيصرية، بخلاف رغبة والديه الذين كانا يتمنّيان له ولادة طبيعية.

المسافرة الأخرى لحضور حفل زفاف كانت إلين إيفون مارسيل أوغويللوم من فرنسا، والتي مرت بتجربة مماثلة وغير سارة، وقد زعمت أن رجال الأمن لمسوا نهديها، مما جعلها تتراجع بعنف من الصدمة. تم اعتقالها، وهُدّدت بالسّجن لثلاث سنوات في سجن إنديانا[40].

امرأة أخرى أقتُلعت من مقعدها بعد ركوبها إحدى الطائرات في نيو جيرسي حيث اعتقلها رجال الأمن؛ ساره جونسن من المملكة المتحدة صعدت إلى الطائرة بعد أن اتبعت تعليمات

موظفي المطار، الذين ساعدوها على المرور عبر طوابير المسافرين حين اتضح أنها كانت على وشك التخلف عن اللحاق بالطائرة. لكن أمن مطار لم يقبل هذا العذر، وما رآه العديدون هو ردّ فعلهم العنيف ومحاولتهم أن يصبحوا أبطالاً، واحتجازهم لهذه المسافرة غير المسلّحة، التي وُجّه إليها لاحقاً الاتهام وهُدّدت بالسجن لسنتين[41].

في كونكتيكت، المحارب السابق في الحرب العالمية الثانية فريد هابل وجد نفسه موقوفاً أيضاً. هو وزوجته تعرضا لمحنة قاسية حين شرع موظّفو الأمن بتفتيش محفظته. حينئذٍ سألهم: «ما الذي تتوقّعون العثور عليه، بندقية؟» أخضع للتوقيف فوراً أمام زوجته والكثير من المسافرين الآخرين[42].

هابل لم يكن المحارب الأمريكي الوحيد الذي تعرض لسوء المعاملة. رائد متقاعد من الجيش، ثم طبيب ممارس، كان مسافراً في الدرجة الأولى على متن رحلة طيران «دلتا» المتوجهة من أطلانطا إلى فيلادلفيا في آب (أغسطس) من عام 2002 عندما حدث شجار بين الركاب في مؤخرة الطائرة؛ رجال الأمن الجوي جلبوا المتشاجرين إلى مقدمة الطائرة لوضعهم تحت المراقبة فيما تبقى من الرحلة، ثم تسليمهم إلى الشرطة عند الوصول. اعتقلوا أيضاً الضابط المسافر في الدرجة الأولى، الرائد روبرت راجكومار. جريمته؟ «كان ينظر إليهم بطريقة مضحكة». صرّح بتلك الإفادة ضابطا الأمن الجوي شون بي. ماكوللرز وصموئيل مومّا حين استُجوبا حول السبب في توقيفه[43].

أمهات يعتنين بأطفالهن، نساء حبالى وسيّاح ومحاربون قدامى: أولئك هم المشتبه بهم الجدد. إذا كان هؤلاء غير سعداء جداً بالأوامر الأمريكية الجديدة، إذاً فما هو المخبأ لمراهقي الأقليات؟ دونوفان جاكسن، أمريكي أفريقي من لوس أنجلوس قد يكون لديه أفضل جواب من خلال تجربته الخاصة مع أفضل رجال الشرطة في لوس أنجلوس. بتاريخ 9 تموز (يوليو) 2002، حدث لقاء مباشر جداً بين جاكسن وعدد من ضبّاط الشرطة في لوس أنجلوس حيث هوجم ورمى على الأرض. سجّلت تلك الحادثة على شريط فيديو صوّره زميله الكاليفورني ميتشيل كراولس، الذي استخدم شريط الفيديو كدليل في القضية. وفي ذلك الشريط يمكن بوضوح رؤية الضابط جيرمي مورس وهو يضرب جاكسن؛ مورس كان قد أوقف سابقاً عن

الخدمة لضربه أمريكي أفريقي آخر، هو نيلسن وليامز، حيث ضربه بعنف شديد جداً إلى درجة أن وليامز قضى خمسة أيام في غيبوبة تامة في غرفة العناية الفائقة[44][45].

الصحة والثروة

الرعاية الصحية هي إحدى القضايا الملحّة جداً التي تواجه الأمريكيين، وتوارد رسائل الجمرة الخبيثة أكّد على أهمية هذه القضية. ويبدو أن المال، على أية حال، يختفي في حفرة مظلمة سُمّيت الدفاع، وقد صُرف المزيد من المال من أجل المزيد من الدفاع بعد 9/11. ذلك اليوم بالذات هو قرّر بأنّ الأمريكيين ليسوا بحاجة إلى مالٍ للتعليم أو الرعاية الصحية، بل للحاجات الدفاعية فقط. أو أن الجمهوريين الأغنياء يحتاجون إلى المزيد دولارات الضرائب التي تدفعها ليعيدوا توجيهها إلى الشركات التي يملكوها. تحت هذا الضوء، تصبح تلك الكلمات مفهومة. حين تكون لديهم كبسولات السايبرو وشهادة التخرج من جامعة يال، فماذا يريدون أكثر من ذلك؟ بضعة بلايين إضافية من الدولارات في الحسابات المصرفية، قد ترفع معنوياهم فيصبحون أثرياء وأنداداً لعائلة بن لادن في العالم، وليظل الملايين من الأمريكيين عاطلين عن العمل.

عندما أصبح بيل كلينتون رئيسا عام 1992، جلب معه الأمل بتأسيس رعاية صحية وطنية كتلك التي في أوروبا أو كندا أو أستراليا، لكن ذلك الأمل لم يتحقّق. الكثير من الجمهوريين فقط كانوا على ثقة بأن أمريكا لا تحتاج إلى مثل تلك النفقات الطائشة. هل أنت مريض؟ اتصل ببات روبرتسون.

قوة الضغط السياسي للجمهوريين كانت مثل جالوت في الصورة، ورغم أن تلك السياسة لم تواجَه بمظاهرات الشبان الذي يحملون العصي والحجارة، إلا أنها أعيقت، جزئياً على الأقل، من قبل المشرّعين الآخرين الذين رأوا الخدعة التي تنطوي عليها تلك اللعبة. حين كان بوش (الأب) نائباً للرئيس، كان مدافعاً نشطاً جداً عن الصناعات الدوائية، وكان لزاماً على المشرعين إعاقة نشاطاته تلك التي تعتبر غير قانونية[46]. وحين أصبح رئيساً، كانت لنائبه حصة في شركة «إلي ليلي»، وهي الشركة التي كان بوش رئيساً لمجلس إدارتها، وكان والد نائبه دان كوايل قد عيّنه في ذلك المنصب[47].

عام 2001 وصل عبر البريد خطر يهدد للصحة العامة، فأصاب أمة لم تكن مستعدة. الجمرة الخبيثة أودت بحياة خمسة أشخاص وتركت السكان في خوف شديد مما هو أسوأ. ومن حسن الحظ أن الإرهابي لم يكن في خارج ليصيب السكان بشكل عام، وقد توقّفت الرسائل حالما تم تمرير قانون الوطنية (باتريوت آكت). المال صرف على السايبرو، وذلك من حسن الحظ الشديد لشركة ألمانية واحدة، حيث أن براءة اختراعها لذلك الدواء ستنتهي بحلول العام 2004.

بعد أن أنجزت الجمرة الخبيثة تلك الأهداف، بدأ إرهاب بيولوجي محتمل آخر بالظهور على السطح. فيروس النيل الغربي (دبليو إن في) أصبح كلمة بيتية. لوحظ هذا الوباء الغير متوقع أول مرة في مدينة نيويورك عام 1999، عندما قتل بعض الغربان[48]. رُشّت أجواء المدينة حينها بمادة «مالاثيون» المثيرة للجدل، ونسي الناس الأمر لفترة من الزمن. تبيّن لاحقاً أن المزيد من الطيور كانت تموت بهذا الداء، وانتشر الوباء إلى البط وأنواع أخرى من الطيور الداجنة، وفي خريف العام 2002 أصاب حتى الطيور الجارحة. في بادئ الأمر ساد اعتقاد بأن ذلك الوباء ينتقل متبعاً مسار هجرة الطيور، لكن حين تابع توجهه نحو الغرب بشكل ثابت، لم تصمد تلك النظرية؛ فالطيور تهاجر جنوباً في الشتاء، وليس إلى الغرب. الحيوانات الأخرى وجدت مصابة بذلك الفيروس، مثل الخيول في كندا، وبحلول 11 أيلول (سبتمبر) من عام 2002 مات أربعة وخمسون شخصاً بفيروس النيل الغربي، وأصيب به 1295 شخصاً. بحلول شهر كانون الأول (ديسمبر) من ذلك العام ارتفع هذا الرقم إلى 3800 مصاباً[49].

الدكتورة باتريسيا دويل باحثة تتبّعت التقدم المستمر في تفشي هذا الوباء، واستنتجت بأنه نسخة معدّلة جينياً من الفيروس[50]. الآخرون ممن راقبوا هذه الظاهرة لاحظوا توقيت الهجمات، ورأوا احتمالاً شديد الواقعية أن تكون المكاسب المالية هي الدافع من وراءها. الدكتورة دويل أشارت أيضاً إلى احتمال أن يكون تكاثر الحشرات سبباً في انتشار الفيروس نظراً لقلة عدد الطيور التي تلعب دورها في حماية البيئة، وحثّت الناس على تغذية الطيور في الشتاء[51].

السؤال الخفي فيما يتعلق بهذا الوباء هو «كيف وصل هذا الوباء من مصر إلى نيويورك؟» المحقّقون الجدّيون بحثوا عن الجواب بجوار البيت، والاحتمال المعقول هو أن السبب في ذلك قد يكون تجربة فشلت في أحد مختبرات الأبحاث، حيث أن البعض من العلماء، مثل الدكتور جيمس واتسون، يعتقدون بجدية بأن لهم الحق في أن «يلعبوا دور الخالق»(52).

العلاقات العربية

بناية كرايسلر في مانهاتن، مقابل المحطة المركزية الكبيرة (جراند سنترال ستايشن)، هي أحد الأعمال العمرانية الأكثر روعة ضمن مدرسة جنون «فن الزخرفة» التي ازدهرت في العشرينيات والثلاثينيات من القرن المنصرم. سرعة المسافرين المتوجهين من وإلى المحطة قد تكون أكثر من اللازم بحيث لا يتوفر لهم الوقت ليمشوا بترف وتمهل حول هذه التحفة الفريدة، لكن حتى أثناء السرعة البالغة يستطيع المرء أن يرى بسهولة التفاصيل الفريدة التي تطلبت جهداً كثيراً لتصميمها. في بهو المبنى توجد قائمة بأسماء المستأجرين، وبعد معرفة عنوان المستأجر المطلوب في المبنى، تتيح الرحلة في المصاعد للمرء فرصة إلقاء نظرة أدق على التفاصيل الفنية لتلك الحقبة من الزمن — ألواح فريدة مصنوعة من الخشب الأفريقي الصلب.

اسم واحد لا يظهر ضمن القائمة في البهو هو اسم بعثة المملكة العربية السعودية إلى الأمم المتحدة. مقرها في الطابق العلوي، حيث يؤدّي رواق رصين إلى بابين كبيرين، مغلقين في أغلب الأحيان وموصدين في وجه العامة. خلف البابين المذكورين تتم مناقشة مسائل تؤثر على الاقتصاد الأمريكي. المملكة العربية السعودية مستثمر رئيسي، ومورّد رئيسي، ولاعب رئيسي في الولايات المتحدة. وهي أيضاً مسقط رأس أسامة بن لادن، وربما خمسة عشر خاطفاً من بين التسعة عشر الذين شاركوا في أحداث 9/11.

زيارتي لمقر البعثة السعودية كانت قبل سنوات قليلة؛ وربما تكون الآن غير ممكنة حتى، وذلك في ضوء الأحداث الأخيرة. ومع تطوّر وتسارع الأحداث العالمية، أصبحت بعض العناوين على جانب مانهاتن الشرقي مستورة يمنع الإعلان عنها وقد تتلقى حراسة أمنية على مدار الساعة. في الحي المجاور، موراي هيل، تتلقى البعثة الكويتية، على بعد أربعة شوارع فقط، مثل هذه الحراسة بشكل دائم، حيث نُصبت أمامها مقصورة شرطة زرقاء اللون. في

الطريق إلى مقر البعثة الكوبية، يمر المرء، دون أن يلاحظ، بمقر البعثة الأفغانية، الموجودة على الجانب الغربي لدرب ليكسنغتن؛ لا توجد لوحة لتنبيه العابرين إلى وجودها. البعثة العراقية، على مسافة أبعد قليلاً من وسط المدينة، في المبنى 14 في الشارع الشرقي التاسع والسبعين، تتلقى حراسة أمنية مشددة على مدار الساعة، خصوصاً وأنها تقع مقابل مسكن عمدة مدينة نيويورك، الذي اختار السكن في بيته الخاص، في المبنى 17 في الشارع الشرقي التاسع والسبعين، بدلاً من الانتقال إلى قصر «جرايسي» حيث جرت العادة تقليدياً أن يقطن عمدة المدينة في ذلك القصر. هذا التراصف يعتبر نوعاً ما ظاهرة يومية في المدينة التي لا تنام أبداً، والمرء هنا لا يستهجن ذلك ويكتفي بهز كتفيه قائلاً «في نيويورك فقط».

العلاقات تشهد توتراً مع جميع البلدان الإسلامية وممثليها. كلمة واحدة ضد إحدى الدول الإسلامية يمكن أن تثير زوبعة من التوتّر، والتقدم بدعاوى قضائية بتريليون دولار ضد عدد من مواطني تلك الدول ومؤسساتها، من قبل الضحايا الأمريكيين الذين أصيبوا بمأساة 9/11 لم يساعد في التخفيف من هذه التوتّرات.

الرد الوحيد على تلك الدعاوى والمزاعم كان سحب مبالغ تتراوح بين 100 و200 بليون دولار من الأموال السعودية من الاقتصاد الأمريكي المهزوز[53]، مما أدى إلى قلة السيولة في الأسواق وهبوط سعر الدولار مقابل العملات الأخرى. وتم التلويح بسحب المزيد من الاستثمارات السعودية إذا لم تتوقف تلك الدعاوى. السيوف تُسحب وتتقاطع في العديد من العوالم والممالك، راسمة في تقاطعها شعار هذه الدولة الصحراوية.

بالرغم من أن العلاقات مع العربية السعودية تثير في النفس الكثير من العواطف وتستحضر في الذهن صورة المصرفيين والمناظر الطبيعية اللانهائية من الرمل، إلا أن العين تنسحب بطريقة ما بعيداً عن ذلك كله لتتجه نحو ما يعتبر مركز هذه الصورة – العلاقة بين عائلة من كونكتيكت وإحدى القبائل العربية: آل بوش وعائلة بن لادن. وربما كانت هذه إحدى أكثر العلاقات سرّية على وجه الأرض، وهي تتضمّن موت أحد أعضاء العائلة الأخيرة في حادث تحطّم طائرة غامض في تكساس[54]. تقصّي كل هذه المسائل لا يبدو أمراً مستحباً لدى آل بوش أو عائلة بن لادن. هنالك خطّ رسمي، وكل من يتجاوزه إلى البحث في كل هذه

الفوضى يعتبر مسكوناً بنظرية المؤامرة وغير قادر على تقبل الخطّ الرسمي الذي يقول أن أسامة قام، بكل بساطة، بالتفافة خاطئة وخرج من الصورة ليختفي في الكهوف ويستخدم كامل ثروته في الترويج للإرهاب. من المفترض أن وكالة المخابرات المركزية فقدت أثره وقتاً طويلاً وكافياً كي يتمكن من تدبير أسوأ هجوم إرهابي في التاريخ على الإطلاق، وفقدت أثر سماسرته، وفقدت المسار إلى مكان تواجده، وفقدت أثر ذلك الجيش من الناس الذين استخدمهم في تنفيذ هذا الهجوم، ولم تكتشف ذلك كله إلا بعد أن أصبح مركز التجارة العالمي كومة من الأنقاض في شوارع وسط المدينة في منطقة مانهاتن. لا بدّ وأنه انزلق عبر الشقوق، تلك هي القصّة، وذلك ما لن ينكره بوش؛ البعض يؤمن بهذه القصة وكأنها من الإنجيل، والبعض الآخر يصبح متوتّراً عند تقديم الأدلة حول التواطؤ الحكومي الأمريكي في هذه المؤامرة أو في مؤامرة «نورثوودز».

شخص واحد يبحث عن الحقائق حول هذا العربي السيئ السمعة هو سوزان جوفين. حفرت سوزان في البقعة الصحيحة، جامعة يال، المنبع التعليمي لصديق عائلة بن لادن، جورج بوش. كانت تبحث عن المعلومات لاستخدامها في أطروحتها الجامعية، وبعد ذلك اغتيلت مساء الرابع من كانون الأول (ديسمبر) 1998 بينما كانت تسير متوجهة إلى منزلها. طعنت حتى الموت، لكنها لم تتعرض للسرقة ولم يكن الاغتصاب هو السبب في مهاجمتها. دائرة شرطة نيو هافن تجمعت لديها معلومات حول مشتبه به في تلك الجريمة — ذكروا اسم أستاذها، جيمس فان دي فيلدي، المتخرج أيضاً من يال، والذي عُرضت عليه منذ ذلك الحين وظيفة عالية بتزكية من مستويات أمنية عليا في وزارة الدفاع الأمريكية[55][56].

كابيتول الإرهاب

في تشرين الأول (أكتوبر) عادة ما يبتهج الأمريكيون، عيد القدّيسين والاحتفالات المرتبطة بالحصاد يضفيان على فصل الخريف مزاجاً لطيفاً. الاستعراضات والاحتفالات مقررة سلفاً، والقرار الأكبر الذي ينبغي اتخاذه قد يكون اختيار البزة التي سترتديها قبل التوجه إلى الحفل في اليوم الأخير من هذا الشهر. يُحفر القرع على شكل وجوه ويضاء من الداخل بالشموع

فتتراقص الظلال على أسقف البيوت في كافة أنحاء البلاد. في هذا اليوم تُمارس الخدع والحيل، وتقدّم العائلات الحلوى للأطفال الذين يرتدون الملابس جديدة.

مزاج الحصاد السعيد لم يكن هو نفسه هذا العام، حيث أن هذا الشهر بدأ بإطلاق نار عشوائي في محيط العاصمة؛ جيمس مارتن البالغ من العمر اثنان وأربعون عاماً قُتل في 2 تشرين الأول (أكتوبر) مباشرة بعد الساعة 6 مساء في موقف سيارات أحد مخازن البقالة[57]. في الرابع من ذلك الشهر، لقي سبعة أشخاص مصرعهم على يد قنّاص مجهول، أو زوج القنّاصين، وقد ترك القناص ورقة من أوراق اللعب في مسرح الجريمة. بحلول قبل منتصف شهر تشرين الأول (أكتوبر) ارتفع عدد القتلى الخسائر في الأرواح، وموت الضحيّة الحادية عشرة، السّيدة ليندا فرانكلين، التي صودف أنها كانت محلّلة استخبارات في مكتب التحقيقات الفدرالي ومن المعتقد أنها كانت تعمل على الأدلة المتعلقة بأحداث 9/11 دليل، موهما أضاف إلى الغمّ غمّاً[58]. العنف المحلي والقضايا الداخلية الأخرى كانا يزعجان سكان أرهقتهم أصلاً النزاعات الداخلية، وقد أصبح واضحاً بأن إدارة بوش لم تكن قادرة على تنظيف فنائها الخلفي الخاص. معلق النيويورك تايمز الصحفي توماس فريدمان كتب:

> في الحقيقة أن الرئيس يتكلم حول العراق فقط، في حين أن جيرانه أسفل الشارع يتحدثون فقط حول القنّاص، مما يعزّز الإحساس بأن هذه الإدارة مهووسة بصدّام وأنها فقدت التواصل مع المخاوف الحقيقية للكثير من الأمريكيين[59].

مرشّحة الحزب الديمقراطي كاثلين كينيدي تاونسيند من ولاية ميريلاند، حيث قتل القنّاص أول خمسة من ضحاياه، دعت الجمهوريين لتبرير موقفهم نظراً لسجلهم السيئ فيما يتعلق بقوانين تنظيم امتلاك وحمل الأسلحة. وقد تبيّن لاحقا أن السلاح الذي استُخدم في الهجمات كان من نوع «بوشماستر»، مما أثار التساؤلات حول المؤيد الدائم والقديم للحزب الجمهوري ريتشارد دايك وحول احتمال أن يكون قد أخفق في الامتثال لتعليمات قوانين سلامة الأسلحة في عمله، وهو من الذين ساهموا في جعل هذه الأسلحة متوفرة لعامّة الناس[60].

تزامن توقيت حالات القتل تلك بشكل مخيف مع إطلاق فيلم مايكل موور الذي يحمل عنوان «بولنج فور كولومبيين»، وهو فيلم وثائقي حول الموضوع نفسه. فيليب كير، مؤلف

فيلم «الطلقة»، دعم دعوة موور لضبط مسألة حمل الأسلحة، ولاحظ أنه منذ إغتيال جون لينون، قُتل نصف مليون أمريكي بالأسلحة[61].

أحد عشر شخصاً من هؤلاء أرداهم قنّاص واشنطن، أو فريق جون محمد ولي مالفو، وقد اعتُقل هذا الثنائي في 25 تشرين الأول (أكتوبر) 2002. جون محمد، مثل العديد من مواطنيه «الأمريكيين المرضى نفسياً»، محارب شارك في حرب الخليج. ومن ضمن مواطنيه فرانك رونجي، الذي اغتصب وقتل فتاة مراهقة في كوسوفو وتفاخر بأنه يستطيع أن يُفلت بدون عقاب على فعلته تلك التي ارتكبها في بلد من العالم الثالث؛ جيفري جلين هاتشينسون، الذي قتل صديقته وثلاثة أطفال في 11 أيلول (سبتمبر) 1998؛ جوزف لدلام، الذي قتل مديره السابق عام 2000؛ روبرت ستيوارت فلورس، الذي قتل نفسه وثلاثة أساتذة في جامعة أريزونا في تشرين الأول (أكتوبر) 2002؛ ، وأكثرهم شهرة، تيم ماكفاي الذي شارك في تفجير المبنى في مدينة أوكلاهوما في نيسان (أبريل) 1995.

الانتخاب الغير طبيعي

الانتخابات حدثت أيضاً في خريف عام 2002؛ وكان المتسابقان فيها متقاربين جداً، وربما كانت تلك الانتخابات هي أكثر انتخابات راقبها العالم بدقة عبر التاريخ. المراقبون كانوا مهتمين جداً بالانتخابات من خارج الولايات المتحدة، بما في ذلك بعض الجمهوريات الروسية وألبانيا. قبل أحد عشر يوماً من بدء التصويت، جاءت البشارة بالنصر للجمهوريين؛ السّيناتور بول ويلستون (ديمقراطي-مينيسوتا) وزوجته وعدد من مؤيديه قتلوا في حادث تحطّم طائرة غامض بينما كانوا يقومون بجولة في حملته الانتخابية. كان ذلك الشخص يتمتع بالشعبية وكان الأول في السباق، وكان من المتوقّع له الاحتفاظ بمقعده الذي ينافسه عليه كل من نورم كولمان الذي أصبح لاحقاً عمدة سانت بول. كولمان لم ينضمّ إلى الحزب الجمهوري إلا قبل سنوات قليلة، وكان يغيّر ألوانه حسب مصالحه. وبسبب تلك الخسائر المبكرة، وقع الديمقراطيون في اضطراب، وفي النهاية أدى ذلك إلى خسارتهم لمقعد في مجلس الشيوخ مما أدّى بالتالي إلى تنازل السّيناتور تيم داشل (ديمقراطي-داكوتا الجنوبية) عن منصبه كزعيم للأغلبية في مجلس الشيوخ. أثّرت تلك الخسارة على قوّتهم في المطالبة بإجراء تحقيق

جدي في الأكاذيب المتعلقة بهجمات 9/11، وأعطت الجمهوريين مزيداً من القوة في الدعوة لشن الحرب على العراق.

من هذه المأساة اتجهت كل الأنظار إلى سباق مهم في ولاية أخرى، انتخاب الحاكم في فلوريدا. الأمريكيين الأفارقة الذين كانوا قد «مُسحوا» من قوائم الناخبين لا يزالون بانتظار أن يُعاد تدوين أسمائهم مرة أخرى في القوائم[62]، وكان هناك آلات تصويت جديدة بشاشات تعمل باللمس ولم يكن فيها أيّة سجلات يمكن مراجعتها عند حدوث التباس أو نزاع. وربما كان ذلك أمراً حسناً ولا غبار عليه؛ لكن أحد الناخبين اشتكى من النظام الجديد، وصرّح بشكل محدّد بأنه عندما صوّت لصالح جون ماكبرايد كحاكم، سجّل تصويته بدلاً من ذلك كنعم لجب بوش[63]. في الولاية التي استطاع فيها الجبان ألفريد آي. دوبونت أن «يتحول إلى جمهوري» بإستعمال عصابات الكوكلكس كلان[64]، في تلك الولاية لم تكن تلك مشكلة رئيسية. ولم تكن تلك مشكلة أيضاً في براورد كاونتي، حيث أدى «خطأ» برمجي إلى حلق 34 ألف صوت من الأصوات التي تم إحصاؤها، وأكثر من 70 ألف صوت خُصمت بكل بساطة من المجموع.

عندما تنزل الرقاقة

فلوريدا هي موطن شركتي «دوت كوم» و«حلول التطبيقات الرقمية» المكافحتين. سوّقت الشركتان المذكورتان جهازاً ربما يكون جهاز الأمن النهائي، وهو يفوق حتى التوقعات المستقبلية الواردة في رواية جورج أورويل التي تحمل العنوان *1984*، لكنه في الحقيقة بشير، إن لم يكن تحققاً كاملاً، بنبوءة عمرها 2000 سنة تقريباً[65]. ظل «الأخ الأكبر» أصبح أحلك من حياة وينستون سميث المرعبة تحت وطأة «شرطة الفكر»؛ وهو يستعد للآن للتسلل تحت جلودنا، بالمعنى الحرفي للكلمة.

بعد سنوات على أبحاث شركة «آي بي إم» والمزيد من اختبارات السيطرة العقلية المستندة إلى أبحاث النازيين في هذا المجال، تم تطوير رقاقة يمكنها تعقّب كل شخص على سطح الكرة الأرضية. سكوت سيلفرمان، رئيس شركة «حلول التطبيقات الرقمية»، استطاع أن يتحدّث عن «دخول سوق المبيعات بقدرات عالي» بعد 9/11[66].

هل نجحوا في ذلك؟ ليس تماماً. كان هناك بعض الضجة والدعاية، وعلى شاشات التلفزة أصبحت العائلة بكاملها مجهّزة بالرقاقات، لكن في الواقع لم يسرع الناس أن ليصبحوا مجهّزين بتلك الرقاقات. ومع ذلك، بدأ مزيد من الناس بإلقاء نظرة أقرب على هذه الحقيقة التي تنذر بمستقبل متجهم. البعض كان ينظر للأمر باعتباره تحقيق لما جاء في أشعار سفر الرؤيا ويتساءل عما يجري في الأرض، في حين أن آخرين كانوا ينظرون للأمر بجدية باعتباره فرصة لنظام أمني وطني يستند إلى تلك الأجهزة الدقيقة. قد يتم تطبيق ذلك النظام عبر برنامج تلقيح، وكان هناك كلام حول إجبار الناس على تلقي التلقيح الإضافي ضد الجدري.

بعض المصابين بداء الفضول وجدوا الأمر مثيراً للاهتمام، والأفكار الرامية إلى الربط بين التفكير البشري والحاسبات جعلت الدكتور كيفين وارويك يزرع رقاقة في ذراعه ليتمكن من خلالها تشغيل حاسوبه وفتح أبواب مترله[67]. حقيقة تجارب السيطرة العقلية التي يجريها الدكتور جوزيه دلغادو في جامعة يال واجهتها عقبة مزعجة، حيث أن مجموعات الدفاع عن الحقوق المدنية نددت بالخطر الذي تمثله تلك التجارب والأجهزة. وحينما طالت الأزمات، نمت إمكانية مقاومة مشروع الرقاقة والتغلب عليه.

وما يثير السخرية هو أن هذا الجهاز، أو الرقاقة، يجري تطويرها في أمة «مسيحية» لا تخلو من كل أولئك الذين يدركون النبوءة تمام الإدراك. وفي العقود القليلة الماضية ساد الاتجاه لجعل العدد 666 عصرياً جداً. في الجادة الخامسة، إذا نظر المرء إلى مبنى معيّن بين الشارعين الثاني والخمسين والثالث والخمسين، فسيرى ذلك الرقم مضاء بمصابيح النيون في الليل. هذا الرمز الأحمر هو عنوان «مبنى تيشمان»؛ وتلك هي الشركة التي بنت مركز التجارة العالمي. ما هي هذه الأمة التي تعلن العديد من الولايات الأخرى لتكون مراكز للشر ثم تُنتج رقاقة كمبيوترية دقيقة لبقيّة العالم المفترض أنه «وثني»؟ هناك بالتأكيد مقدار من السخرية الكونية في هذا الأمر، والتحرّك لجعل المملكة المتحدة منطقة دولار، وهو تحرك سري نوعاً ما ولم يقدم بلير عنه معلومات وافية للرأي العام البريطاني، يثير الاهتمام باعتبار أن العملة العالمية الواحدة ستساعد وتسهّل عمل الرقاقات التي تسيطر عليها وتتحكم بها الحكومة.

حقّ المركز

بعد انقشاع الغبار المتطاير من البرج الأول، بدت نيويورك مخيفة جداً. أطنان الغبار المتطايرة في الهواء امتصّت الصوت، وكان الصمت مطبقاً على الأنفس والأرواح. وجد الغبار طريقه إلى الأرض، غطى الشوارع على مسافة ميل مربع وبُذلت جهود هائلة لإزالته، وبقي البعض منه متغلغلاً في الزوايا والشقوق لأسابيع عديدة. الجزيئات الدقيقة تناثرت وحطت على مسافة آلاف الأميال؛ و لم تبق أمة في العالم إلا وهبط عليها شيء من حطام البرجين الذي انتشر عبر طبقات الغلاف الجوي. الكميات الضئيلة تصل وجهتها وتكون غير مسموعة وغير مرئية، ولا تسبّب أي أذى. لكن موجات الاهتزاز لم تهبط إلى أسفل بهذا الهدوء والبطء؛ شعر الناس بها على الفور، والأذى الذي سببته لا يزال مستمراً. قليلون هم الذين تمكنوا من الهرب من الاهتزازات التي تشبه الزلزال الأرضي الذي لم يترك غطاء إلا وكشفه. شبهات، بطالة، مسؤولون متعصبون جداً، إجحاف، نقاش لانهائي، أين ذهبت كل الأوقات الطيبة؟

في العديد من البلدان كان هناك تحوّل حاد نحو اليمين. ألمانيا أعادت الاعتبار لهيئة الأركان العامة التي كانت ممنوعة، مما يمهد الطريق لوضع مسئوليات التخطيط العسكري والسلطة العسكرية الكاملة بيد الضبّاط الكبار بدلاً من وزير الدفاع المدني[68]. آخر مرّة بُعثت فيها الروح في هيئة الأركان العامة، فُتحت أبواب الجحيم على مصراعيها.

في أمريكا أرسل الأطفال إلى معسكرات في بنسلفانيا سُميت «معسكرات التدريب على الأمن الداخلي»[69]. أهي عطلة صيفية أم أن هذا كان جزءاً مؤامرة «نورثوودز» التي صاغها سابقاً الجنرال ليمنتز الذي أراد تدبير موجة من الإرهاب المزيّف كي يتسبّب في حالة من الاضطراب لدى الجمهور ويختلق مثل هذا المزاج المتطرف لدى الناس؟

حتى حقّ التصويت، الذي يعتبر حقّاً مكتسباً منذ الولادة للمواطنين الأمريكيين، تم الاستفتاء عليه في استطلاع أجرته شبكة فوكس نيوز[70]، التي طلبت من الناس التصويت على ما إذا كان ينبغي أن يخضع الناس لاختبار معيّن قبل أن «يُسمح» لهم بالتصويت في الانتخابات. من له الحق في تحديد المعايير؟ كاثلين هاريس، جب بوش أو فيليب جيوردانو؟

الحديث المستمر حول «الخير» و«الشر» يصدر من السياسيين الذين أرادوا شن حرب تكون طاحنة بالفعل بعد مرور وقت طويل على آخر الحروب. حتى أن صحيفة نيويورك بوست المحافظة ردّت على ذلك. جون كروديل كتب:

إنس التحذيرات الأسبوعية حول الإرهاب. إذا كنت تواجه تهديداً شرعياً معيّناً، حدثنا عنه. أما ما عدا ذلك، فينبغي على الأولاد الذين يحملون شارات الجواسيس أن يتوقّفوا عن التباكي الكاذب كي نتمكن نحن من التركيز على جمع المال. هل تعتقد حقاً بأننا سنستثمر في سوق الأسهم المالية بينما نحن ننظر إلى الإرهابيين من فوق أكتافنا؟[71]

سنغافورة، التي تعتبر حالياً جنة القانون والنظام، تقدمت خطوة إضافية في مجال القضاء على المخدرات، حيث تم اتخاذ إجراءات صارمة ضدّ بسكويت بذرة الخشخاش، وفرضت غرامات على «ماركس آند سبنسر» للمواد الغذائية بتهمة «تهريب» المخدرات[72]. في الولايات المتحدة، آسا هاتشينسون اليقظ جداً راقب بدقّة استعمال بذور وزيوت القنب[73]، مما سبب مزيداً من الإزعاج لصناعة كانت موضع رعاية وتشجيع من قبل الآباء المؤسسين.

أصبحت مصر مكاناً أكثر صعوبة لعمل جماعات حقوق الإنسان حيث سنّت الحكومة قانوناً يقيّد حركة المنظمات غير حكومية.

هاجم المدّعون العامّون الأتراك حرية التعبير، واتهموا بعض الوزراء بإهانة الدولة بعد أن انتقدوا الخطط الرامية لعزل بعض السجناء في زنازين انفرادية[74].

في ولاية ميسوري، سنّوا قانوناً يجعل تصوير الحيوانات في الحظيرة، أو أي مكان آخر يؤويها لغايات زراعية أو تجارية أو علمية مخالفة إجرامية يعاقب عليها القانون. وهكذا تلقى نشطاء الدفاع عن حقوق الحيوان ضربة سُدّدت لحملاتهم وأصبحوا يواجهون الخطر بدخول السجن إذا التقطوا دليلاً فوتوغرافياً على الوحشيّة في معاملة الحيوان والتي أصبحت منتشرة في بعض الأماكن[75].

النزاع بين إسرائيل وفلسطين جُعل أسوأ مما كان، حيث دُمّرت البيوت الفلسطينيّة وسُمح للأعمال التجارية الإسرائيلية بالاستمرار تحت حماية الحكومة اليمينية في إسرائيل؛ الأطفال

ودعاة السلام قتلوا في انتهاك صارخ للقوانين الدولية، وتم طرد وإجلاء سكان قرى ومدن كاملة ليستولي الإسرائيليون الأغنياء على الأرض بناء على القوانين التي سنّوها لمصلحتهم. وربّما بدا ذلك كله، في الفوضى العارمة التي عمّت العالم بعد 9/11، وكأنه من الأعمال المعتادة.

القوانين والقيود شُدّدت أيضاً في بورما، حيث تمارس شركة «هاليبرتون» أعمالها هناك. قبل بضع سنوات، كان الإنسان هناك يواجه خطر الاعتقال إذا غنى أغنية حول الديمقراطية؛ والجهود الدبلوماسية لإطلاق سراح مثل أولئك السجناء كانت تفشل، لكن في النهاية أفسح المجال قليلاً حين تدخّل مايك جاغر بنكتته حول دخول السجن بتهمة الغناء فأصاب بملاحظته الصحيحة المسؤولين عن ذلك. القليلون يتجاسرون الآن على الغناء، وهذا الإرضاء لن يكون مقبولاً، حتى بالنسبة لأولئك الأبرياء.

في البلدان الغنية، ازدادت أعداد المشردين، حيث أظهرت لندن ارتفاعاً بنسبة 200% منذ أحداث 9/11 [76]. موارد المنظمات الخيرية أصبحت شحيحة أكثر فأكثر، وعلت الصرخة «أين يذهب المال؟»

الأوقات العسيرة تنجم في أغلب الأحيان بسبب مجاعة أو وباء أو ندرة حقيقية في الموارد. لم يكن العالم يعاني من أي من تلك الكوارث، وفي الواقع يوجد مخزون احتياطي من المصادر ووفرة في الغذاء لو تم التوزيع بالعدل والتساوي. وليس هناك أي نقص في توفر الرأسمال، لكن ثانية، مسألة التوزيع هي التي تؤثّر على المجتمع. المال يتناقص من أيدي العمّال، ومزيد منه ينصبّ في أيدي القلّة ممن كدّسوا مكاسب عظيمة ليستعملوها في الحصول على مغانم أكبر باستغلال الحالات الطارئة. البعض يستفيدون بالفعل، ويبنون بيوتاً رائعة في حين أن الملايين من الناس ينامون في العراء.

العالم من حول أمريكا: الأخضر يتحوّل إلى رمادي

الحديث اللانهائي حول الحرب والإرهاب طغى على العديد من الأصوات، وبعض القضايا الرئيسية أهملت، والبيئة قد تكون إحداها. اندلعت النيران في الغابات عدة مرات في الولايات

المتحدة الغربية؛ اثنان من تلك الحرائق أشعلهما رجال الإطفاء[77][78]، وثالث تسببت به طائرة حكومية تبحث عن زراعة القنّب[79]، ورابع حمل إشارات على حدوثه نتيجة لممارسة طقوس شيطانية. على أية حال، رُميت اللائمة في ذلك على عاتق أخصائيي البيئة؛ والجواب، بالنسبة للبعض، كان تجاهل الحقائق وقطع المزيد من الأشجار. وربما كان السبب في ذلك هو كلمات رونالد ريغان، التي صرّح فيها بأن الأشجار سبّبت تلوثاً. لذلك، فإن عدداً أقل من الأشجار سيساعد في الحرب على التلوث، أو الحرب على الأشجار، أو مجرد الحرب على أي شخص لديه حس وفهم، مثل المدافع عن البيئة، الذين يعتبره البعض مرادفاً للإرهابي. هذه هي المسألة. لذلك، قد يصبح المدافعون عن البيئة هدفاً لهجمات فرق مكافحة الإرهاب في المرة القادمة حين يتحدث شخص ما عن ارتفاع درجة الحرارة الأرض أو يكتب مقالة تشير بالإصبع إلى الولايات المتّحدة وتحملها المسؤولية عن التصحر الذي تسببه الإشعاعات المنبعثة من المستهلك الأكبر في العالم. وحيث يبدو أن إدارة بوش لا تستطيع العثور على صديقهم القديم أسامة بن لادن، فربما تستطيع إثارة إعجاب أصدقاء الإدارة من أصحاب الشركات باتخاذ بضعة إجراءات ضد المدافعين عن البيئة. ثلاثة هتافات تحية لأرباح ومصالح الشركات، حتى لو كانت مجرد مجموعة أكاذيب.

لكن هل ستصدق بأن الأمر يقتصر فقط على أولئك الأجانب الجهلة المعترضين على الغيمة الداكنة فوق آسيا أو على خسارة مساحات كبيرة من القطب الجنوبي المتجمد بسبب ارتفاع منسوب البحار والتهديد الذي يمثله ذلك على وجود أممهم ذاتها؟ لا، الأمر ليس كذلك وهناك بعض الأمريكيين الذين يثيرون الضجة. خونة! من هم أولئك الخونة؟

مايكل موور يجب أن يكون في مكان ما من هذا. لماذا لا يحفظ درسه فقط ويذهب ويصوّت لعصابة «سكول آند بونز»؟ في كتابه «رجال بيض أغبياء» كتب عن رفض الولايات المتحدة التوقيع على اتفاقية الحد ارتفاع درجة الحرارة الكونية:

> نعم، مرة أخرى، يكره العالم بأكمله أحشائنا ... نحن البلد الوحيد الذي يحب كل شخص أن يكرهه. ومن يستطيع لومهم؟ من الواضح أننا نكره أنفسنا – وإلا فكيف يمكنك أن تفسر وتبرر «الرئيس» دبليو (بوش)؟ في الأيام الخالية، كان رأسه سيزيّن أحد جسور «بوتوماك».

لكنه بدلاً من ذلك يقفز حول العالم قائلاً للناس أنه «زعيمنا المنتخب»، ونحن نبدو كمجرد جهلة وحمقى. إن العالم يضحك علينا، وليس معنا[80].

في أوائل أيلول (سبتمبر) 2002 أُرسل كولن باول إلى قمّة الأرض في جوهانسبرغ. أنتوني براوني في وصف صحيفة التايمس الترحيب الذي لقيه هناك:

حاولت الولايات المتحدة مرارا وتكرارا أن تمنع انعقاد القمّة التي تتبنّى خطة عمل قوية، وحين صعد إلى المنصّة أثناء الجلسة الختامية، نشر وفد من مجموعات الدفاع عن البيئة راية كتب عليها: «احموا الكوكب، وليس الشركات» و«غدرت بنا الحكومات».

كمية كبيرة من الشهيق الحاد حيّت إصراره على أن «الرئيس بوش والشعب الأمريكي لديهم التزام دائم نحو النمو المستدام».

وعندما استمر بالتأكيد على أن أمريكا لديها «رغبة عميقة في مساعدة الناس على تحسين أوضاع الحياة لأنفسهم ولأطفالهم»، أُجيب باستهزاء مفاده، إن لم يمت هؤلاء تماماً أثناء خطابه الذي استمر خمس دقائق...

ساد القاعة اضطراب حين حاول حرّاس الأمن التابعين للأمم المتحدة إنزال الرايات التي رُفعت. وكان هناك تشويش عليه واستهزاء به. المندوبون الرسميون من الأمم الأخرى شاركوا في ذلك، بضرب المناضد بأيديهم... بينما اشترك مندوبون آخرون بضرب الأرض بأقدامهم، وبدأ الهتاف: «العار على بوش».

أصر على القول أن «الولايات المتحدة تتّخذ إجراءات لمواجهة التحديات البيئية، ومن ضمن ذلك التغيرات المناخية العالمية». «هراء» كانت هي الإجابة في الصالة التي يتصف الكلام فيها بالدبلوماسية عادة...

خارج القاعة سجّلت المنظمات الخيرية الأمريكية احتجاجها الخاص، برفع العلم الأمريكي الذي يحمل عبارة: «شكراً للرئيس بوش لجعله الولايات المتحدة مكروهة جداً».

جاكوب سشير، مدير «مجلس الدفاع عن المصادر الطبيعية»، قال: «خطاب باول أوضح أن إدارة بوش شطبت الكوكب، وأنها تخلّت عن قيادة أمريكا للعالم».

فيل كلاب، رئيس «الهيئة الوطنية للبيئة»، قال: «لم يسبق أن تعرض وزير خارجية أمريكي من قبل لمثل ذلك الاستهزاء. الولايات المتّحدة قالت لبقيّة العالم بأن أولوياتكم لم تعد أولوياتنا. وقد غادرت تلك القمة وهي تشعر بالعزلة[81].

أصبح إهمال القضايا المتعلقة بحالة الكوكب أكثر سهولة ضمن المناخ الذي ساد بعد 9/11. الحرب على العراق هيمنت ليس على القضايا البيئية فقط، بل على العديد من القضايا الأمريكية المحلية أيضاً. في هذا المناخ، أصبح من النادر أن يسمع المرء كلمة تستند إلى الحكمة، وهذه إحدى نتائج الهجمات. وربما جعلوا أعداء الولايات المتحدة مسرورين لرؤية السكان بأكملهم وهم يعانون على أيدي مجموعة من الأغبياء الذين أدين بعضهم كمجرمين، لكن النتائج والفوائد الحقيقية كانت من نصيب بوش وشركاه. براند كارلتون تحدث عن قول بوش لمدير حساباته المالية: «أنا محظوظ — لقد كسبت الرهان»[82]. رجل محظوظ، ماذا عن بقيّة العالم وماذا عن مواطنيه، حتى الذين صوّت بعضهم لصالحه؟ بالطبع ليسوا محظوظين جداً، لأنهم لا يستطيعون تحمّل الاستمرار بشراء المزيد من النفط وتخصيص أموال الضرائب لشراء المزيد من الأسلحة. لا يبدو أن بوش وشريكه تشيني سيرتدعان، هما الفائزان، فلماذا يفسدان الحفلة ما دامت قد بدأت للتو؟

دعونا ننظر إلى بعض الحقائق الثابتة التي لا شك فيها. أولاً وقبل كل شيء، النفط ليس، ولم يكن، ضرورة. فهو يلوّث، يسبب الحروب، ويضع المال في أيدي بضعة أولاد محظوظين أغنياء ويجعل الكثير من الناس فقراء ومغلوبين. والمراجعة النزيهة للسجلات تبيّن أن أندريو ميللون، الولد الغني رقم واحد في أمريكا، والذي ضم إلى إنجازاته تعيينه وزيراً للخزانة من 1921 إلى 1933، أنه عيّن قريبه، هاري أنسلينغر، مسؤولاً عن الدائرة التي شكّلت خصيصاً لتكون تابعة لوزارة الخزانة. وبامتلاك ذلك القدر من السلطات، كانا قادرين على إعاقة إنتاج مادة الإيثانول من نبات القنّب والنفايات الزراعية الأخرى. إذا كانت أمريكا قد اعتقدت في الثلاثينات بأنها ستهزم الشيطان باستعمال القمح والقنب والذرة والمحاصيل الزراعية الأخرى كوقود للسيارات وتدفئة البيوت، فإن الشيطان خطا خطوة واحدة للأمام وهم خسروا. أُنجز هذا الأمر بأسلوب مهذّب قدر الإمكان، وإستمر أندريو ميللون باستخدام أمواله لتمويل شركتي جنرال موتورز ودو بونت. هاتان الشركتان بادرتا تباعاً لمساعدة الشيطان الألماني، أدولف هتلر[83]. في تلك السنوات، عملت مجموعة من الأولاد الأغنياء على تحريض ومساعدة العدو، معنوياً ومادياً. وبالمقابل لم يصبحوا أثرياء فحسب، بل حصلوا على أرفع

المناصب في الحكومة؛ أحد أشهر المساعدين والمحرّضين كان العضو في نادي «سكول آند بونز» بريسكوت بوش.

أهو الحظ، أم خفّة اليد؟ التاريخ يُظهر أن العامل الأخير هو السبب في العديد من الحالات، والعديدون يشعرون أن السيناريو لعب دوراً أكبر من الحظ في أحداث 9/11. يبتسم بوش ابتسامة عريضة، بوش يربح، لكن كيف ربح حقاً؟

هذا هو السؤال الذي يطرحه الكثيرون إثر الهجمات التي تختلف إلى حدّ ما عن تلك التي خطط لها أعضاء في الحزب الجمهوري كي تنفذها الولايات المتحدة في أوائل الستّينات. الأمريكيين لا يريدون أن تستغفلهم مجموعة من الخونة المتسلحين بأدوات تقنية متطورة وميزانيات فلكية للتجسّس على المعارضين وأولئك الذين يتمنّون إجراء مزيد من التحقيقات حول مؤامرة «نورثوودز»، التي يبدو بوضوح تام أنها وُضعت موضع التنفيذ بعد إجراء بضعة تعديلات وتغيير المكان من كوبا إلى مناطق أكثر فائدة في أفغانستان والعراق، اللذان يحويان حوالي ثلث مخزون العالم من النفط.

متآمرو «نورثوودز»، آل بوش، وكالة المخابرات المركزية، فيليب جيوردانو، عصابات الكو كلكس كلان، النازيون الجدد، بات روبرتسون، جيري فالويل، ديك تشيني، إليوت أبرامز، لاري كينغ، بيتر سيترون، ووليام فاريش الثالث: هل هذه هي الوجوه الجديدة لأمريكا التي منحتنا إياها الانتخابات الشاذة جداً وأحداث 9/11؟

دستين هوفمان أعلن في شباط (فبراير) 2003[84] معارضته للتغييرات الجارية، وأعلن اتهامه بأن «إدارة بوش اختطفت مخاوف بلادي». المزيد والمزيد من الأمريكيين بدأ يتملكهم هذا الشعور، ويريدون إعادة بلادهم إليهم. هذه هي المشاعر المتصاعدة، وهي تستند إلى شعور أصيل بالفخر في بلد أُسّس على مبادئ الحرية والمساواة، ومن خلال تلك المشاعر، نما الإدراك لدى الناس بأن الخونة موجودون في وسطهم وأن على كل شخص أن يدافع عن بيته وعن أمته، وعن الدستور.

الوطنيون الأمريكيون الجدد

في الرابع تموز (يوليو) 2002، ظهر إعلان على صفحة كاملة في صحيفة الواشنطن تايمز، المعروفة بـــ«صحيفة أمريكا»، يزعم بأن صن مايونغ موون، مالك الصحيفة، هو المسيح المنتظر، ملك الملوك(85). لا مفاجأة في ذلك، بعد كل الأشياء التي فعلها موون، وفي أغلب الأحيان بدعم من آل بوش. تصريحات موون على مرّ السنين كانت غريبة، وواحدة أتباعه ومريديه التي هربت من نظامه أشارت إلى أن موون يصدر البيانات وينكرها أو يناقضها لاحقاً(86). تحدّث موون عن تعديل الدستور وتعيين أعضاء موالين له في مجلس الشيوخ(87). وفي حين أن تلك التصريحات أثارت غضب بعض الأمريكيين، رحّب بعض البلهاء في المستويات العليا من الحكومة بموون، الذي جال في أمريكا الجنوبية برفقة بوش الأب، وهي الجولة التي نوقشت فيها مواضيع العبث بالأنوف وعادات التبرز. «لست أمزح، هذا أمر جدّي»(88)، قال موون بينما كان جمهور المستمعين ينكمش.

موون لا يحصر مادة بحثه في المسائل المضحكة والغريبة، بل يتحدث كثيراً حول مدى حبه لأمريكا وعن رؤيته لأمريكا. والبعض من نبوءاته ورُآه ربما اختلقها حين كان في السجن. الإدارة الحالية تبدو مغرمة جداً بموون، خصوصاً مع تعيين جون آشكروفت وزيراً للعدل؛ موون ليس قلقاً بشأن احتمال وضعه خلف قضبان حين يكون لديه أصدقاء كهؤلاء؛ وبدلاً من القلق، يبدو أن موون، بالمقارنة مع الاتجاه السائد نحو الهبوط في كل المسائل، يحقق النجاح بعد 9/11. بعد فترة قصيرة من احتلال العراق، ظهر كتيّب يمدح الولايات المتحدة وموون وآل بوش. يبدأ الكتيب بملاحظة منطقيّة وعاطفية، لكنه يصعد بعد ذلك متسلقاً للوصول إلى مسألة غريبة. جاء في الفقرة الثانية منه:

> إذا عدنا إلى الوراء وألقينا نظرة على ما حدث في العراق في الأسابيع القليلة الماضية، فمن يجرؤ على تحدّي القدرة العظيمة للولايات المتحدة؟ تعلّم الناس الدرس الذي لن ينسوه أبداً، والعالم يمكنه أن يهنّئ أمريكا. عاصفة من التصفيق المتتالي، تصفيق شديد جداً، مثل الرعد، هو الأمر الملائم في مثل هذه الساعة من الفخر الوطني(89).

ويتابع على هذا النحو في مكان آخر،

...المؤمنون بنظرية المؤامرة، الذين يقودهم الليبراليون الأشرار الكفرة، موجودون بينكم. على كل حال، لا يزال هناك أمل. الخطوات المناسبة تتخذ للتخلّص من الشر. لأولئك الذين لا يرون عظمة الزعماء، هناك عقاب...

وبالنسبة لزعمائنا، لن يهزأ بهم أحد. ليس برجال مثل جورج بوش، كلاهما الأب والابن، وديك تشيني. هؤلاء، بالإضافة إلى جون آشكروفت، إليوت أبرامز، وجون بويندكستر، سيكونون هم الغالبون. بعض هؤلاء الناس اضطُهد من قبل الليبراليين في مجلس الشيوخ... خلف الكواليس، هناك المزيد منهم، وهؤلاء يكافحون أيضاً من أجل الولايات المتحدة، ويتصدون للاتهامات التي يطلقها الليبراليون. خذوا القس صن مايونغ موون، على سبيل المثال، ألا يمكننا أن نسميه «الأب»؟[90]

بعد ذلك يشجّع الكتيب الناس على قراءة الواشنطن تايمز ودعم «الزعيم العظيم، جورج بوش». ثم يحثّ الناس على اتخاذ القرار «الوطني»، ويحذّرهم بأن «الأعداء موجودون بينكم».

يرد وصف «الأعداء» بأنهم:

الذين يعارضون إدارة بوش.

الذين ليسوا وطنيين حقيقيين، ولا يعيشون الحلم الأمريكي.

الذين يُظهرون العطف على الناس في العراق.

المؤمنين بنظرية المؤامرة[91].

الكتيب المذكور يشجّع الأمريكيين على احتواء هؤلاء «الأعداء»، ويحثّهم:

أكتب قائمة بعاداتهم. لا تدع شيئاً يمكنك اكتشافه، مثل رقم الضمان الاجتماعي، أو أمكنة تواجدهم، سجّل ملاحظاتك حول أعمالهم، مدارسهم أو كنائسهم.

أنقل تلك التفاصيل إلى الأمن الداخلي.

امنع الناس من نشر الرعب بأفكارهم. إذا أردوا التحدّث عن 9/11، أو الدستور، أو سفر الرؤيا، فقد تكون هذه إشارة إلى أنهم ليسوا على المسار الصحيح. أخبرهم، بشكل مؤدّب، بأنهم مجانين وأنك لا تهتمّ بهذا الهراء. كن متيقظاً، لكن استعمل القوة عند الضرورة فقط[92].

لا مايكل آخر

حتى قبل أن يتبيّن ذلك كله، كان «الوطنيون» يضايقون «الأعداء». فريق من العملاء الحكوميين كان يرابط أمام باب مترل أحد هؤلاء الأعداء في شهر شباط (فبراير) 2003.

اعترضوا بريده الإلكتروني ووجدوا أنه أعطى بعض التصريحات حول بوش، وبعض تلك التصريحات ينكر الانطباع السائد بأن بوش مسيحي. دخل العملاء بيته وطرحوا عليه أسئلة شخصية، مثل أسماء وعناوين وأرقام هواتف كل عائلته. «اغتصبوا رأيي، نفسياً»، قال الرجل، وتحدث حول تجوّلهم حول بيته بدون تفويض.

من هو ذلك الرجل؟ مايكل موور. ضابط الصف في البحرية الأمريكية (متقاعد) مايكل موور، الرجل الذي أدى الواجب بانخراطه بجولتين من القتال على ظهر الباخرة الأمريكية «يو أس. أس. بول ريفر» في فيتنام، وشارك في عمليات إزالة الألغام البحرية الخطرة. في مدينته الأصلية معروف بحمله العلم الأمريكي في يوم تكريم المحاربين[93]. هل يمكن لأي شخص أن يكون أكثر وطنية منه؟ ما الذي فعله كي يحق لبوش أو موون معاملته على هذا النحو؟ استيقظ. يجب ألا يمر ذلك مرور الكرام، لا يمكنك أن تسمح باحتقار المحاربين القدامى في وطنك. هذا الرجل لديه سجل أعظم بكثير من سجل الخدمة العسكرية للثنائي بوش، وهو لم يفر بجلده من طائرته الحربية و لم يُكتب في سجله أنه فر من الخدمة، أما بالنسبة لموون، فمن هو بحق الجحيم حتى يُملي شيئاً على الولايات المتحدة؟ إذا لم تنتبه وتتيقظ، فقد تضطر أن تسأل هؤلاء الناس عن الارتفاع الذي ينبغي أن تقفز منه.

بالمناسبة، أنا أشكّ بأن جماعة كنيسة التوحيد (الموونية) أو وكالة المخابرات المركزية سيكتشفون أين يقطن مايكل موور الآخر وما إذا كان موجوداً هناك للاحتجاج، لذلك، حين يتم اعتقالك، لا تتوقّع منه، أو من أي شخص آخر بذلك الاسم، أن يكون ما زال موجوداً وسيهب لمساعدتك.

لا جو آخر

متوسط الدخل في أمريكا هو 20 ألف دولار. هذا الرقم، بمقاييس أحد خريجي «مدرسة رودولف شتاينر العليا»، مثل ماندي إريكسون، يعتبر دخلاً تافهاً جداً ولا يساعد على السكن في مانهاتن. في العام 1993 كتبت ماندي في مجلة The Key، وهي المجلة الأدبية لتلك المدرسة، أن جزيرة مانهاتن كان من المفترض أن تكون مكاناً يقطنه «المجتمع الراقي» ثم تساءلت، من الذي يجب أن يتمتّع بها؟ أولئك الذين حققوا النجاح! أشارت أريكسون إلى

الأمريكيين الأقل ثراء كآفات؛ هل كانت تقرأ في كتب وليام إيرل دودج ستوكس؟ كتابتها إستمرّت بصيغة:

> أناس أخلاقيون مثلنا لا يمكنهم الاكتفاء برفس هؤلاء الأفراد الأقل حظاً إلى الخارج. يجب أن نضع أولاً خطة... كل سكان مانهاتن السابقين الذين ليسوا جزءاً من هذه المجموعة السكانية «النخبوية» سيتم تقسيمهم إلى مجموعتين من حيث القدرة المالية، وكل مجموعة ستُنقل إلى منطقتها الخاصة المعيّنة لها(94).

إقتراح إريكسون يقضي بنقل بعض الناس إلى بروكلن، أما المساكين الأشد فقراً فإلى برونكس، وأصحاب الرفاهية إلى جزيرة ستاتن. مثل هذه الأفكار ليست جديدة، وأنا سمعت أشياء مماثلة تخرج من أفواه أولئك الذين لم يضطروا للعمل من أجل العيش في أمريكا. الأمريكيين الآخرين يُنظر إليهم بطريقة شريرة جداً، وإذا صودف وأن كان أحدهم من أصحاب البشرة الداكنة أو من سكان منطقة معيّنة، فقد يصبح هدفاً لتلك «النخبة»(95). والآن هناك سبب إضافي آخر للتحقيق في الوقائع المتعلقة بأحداث 9/11، فالبعض من هذه النخب موجود في المواقع الرئيسية في الحكومة والمسألة برمتها قد يُنظر إليها من ذلك المستوى كوسيلة وكحافز للشروع في عمليات الإصلاح الاجتماعي الذي أرادوا فرضه.

أتمنّى صادقاً أن يتم اعتقالهم بأسرع ما يمكن، فهذا ما لا ينبغي أن يحدث في أمريكا، أو في أي بلد آخر. تود بيمر وأصحابه راودهم الفكرة الصحيحة حين قرّروا اقتحام قمرة القيادة، ذلك أنهم لم يودوا ترك عملية الاختطاف تستمر. ماذا عنكم أنتم؟

هل أنتم معه؟

---

(1) Zilg, Gerard. *Du Pont: Behind the Nylon Curtain.* Englewood Cliffs, New Jersey, Prentice-Hall, 1974. p. 13
(2) Ib, pp. 15-759
(3) *The Sydney Morning Herald,* 27 July 2002
(4) Ib.
(5) Ib.
(6) Ib
(7) Ib.
(8) Ib.
(9) Ib.
(10) *New York Times,* 31 May 2002
(11) http://www.counterpunch.org/cockburn1114.html
(12) http://www.villagevoice.com/issues/0207/hentoff.php
(13) *New York Times,* 8 August 2002

(14) *The Times,* 11 March 2002
(15) http://www.infowars.com/archives/August/08-28-02.htm
(16) Conrad, Chris, Mikki Norris and Virginia Rasner. *Human Rights and the US Drug War.* El Cerrito, CA, Creative Xpressions, 1999. p. 21
(17) *Washington Post,* 24 June 2001
(18) *Village Voice,* 17-23 April 2002
(19) Ib.
(20) Ib.
(21) Warikov, Niraj. *Arabs in the US could be put in Internment Camps.* Article posted on rense.com, 23 July 2002
(22) http://www.unansweredquestions.org/edit_question.php
(23) *Daily Mail,* 15 February 2002
(24) http://www.truthout.com/docs_02/08.16.bush.5.1B.sec.htm
(25) Ib.
(26) Ib.
(27) أنظر الفصل الثاني
(28) http://www.truthout.com/docs_02/08.16.bush.5.1.B.sec.htm
(29) *New York Daily News,* 25 July 2002
(30) Ib.
(31) *Arianna Online,* 13 May 2002
(32) *Independent,* 19 July 2002
(33) *Village Voice,* 6 August 2002
(34) *Independent,* 2 August 2002
(35) Ib.
(36) *Independent,* 2 August 2002
(37) Zilg, pp. 11-339
(38) http://www.rense.com/general27/preg.htm
(39) http://www.rense.com/general32/wontfly.htm
(40) http://www.rense.com/general31/strip.htm
(41) *The Times,* 6 August 2002
(42) http://www.rense.com/general27/arrsted.htm
(43) *Philadelphia Inquirer,* 19 September 2002
(44) *Metro,* 10 July 2002
(45) *Daily Mail,* 10 July 2002
(46) Herer, Jack. *The Emperor Wears no Clothes.* Van Nuys, CA, AH-HA Publishing, 1999. p. 39
(47) Ib. p. 39
(48) *Dan's Papers,* 13 September 2002
(49) http://ap.tbo.com/op/breaking/MGAG3XMCX9D/.html
(50) http://www.rense.com/general29/polio.htm
(51) http://www.rense.com/general29/wnnv.htm
(52) *Daily Mail,* 17 May 2000
(53) *Financial Times,* 21 August 2002
(54) أنظر الفصل السابق
(55) http://www.stormtronic.co.uk/9-11/riddlemethis.htm
(56) *Yale Daily News,* 8 December 2002
(60) *The Guardian,* 22 October 2002
(61) *The Guardian,* 16 October 2002
(62) Ib.
(63) *New York Times,* 25 October 2002
(64) *Daily Mail,* 21 October 2002
(65) http://miami.com/mld/miami/4460196.htm
(66) *Independent,* 6 November 2002
(67) Zilg, p. 245
(68) *The Book of Revelations,* 13:16-18
(69) http://www.rense.com/general31/chp.htm

(70) http://www.rense.com/general31/magic.htm
(71) *The Times,* 5 September 2002
(72) *Daily Express,* 31 July 2002
(73) Fox News Poll, 6 June 2002
(74) *New York Post* editorial by John Crudele
(75) *The Guardian,* 20 July 2002
(76) pers. Comm.. from John Roulac
(77) *The Guardian,* 19 April 2002
(78) *The Guardian,* 10 June 2002
(79) *The Guardian,* 1 August 2002
(80) Fox News, 18 June 2002
(81) CBS News, 1 July 2002
(82) http://www.rense.com/general28/dudsu.htm
(83) Moore, Michael. *Stupid White Men.* NY, Regan Books, 2001. pp. 163-164
(84) *The Times,* 5 September 2002
(85) *Baltimore Sun,* 16 June 2002
(86) Gibson, Kenyon, Cindy Mackintosh and Nick Mackintosh. *Hemp for Victory.* Manuscript in preparation, the Eryr Press.
(87) *Daily Mail,* 7 February 2003
(88) *Washington Times,* 4 July 2002
(89) http://www.ex-wayworld.com/interviews/Steve%20Hassan%20r.htm
(90) Ib.
(91) http://www.larouchein2004.net/pages/pressreleases/2002/021112moonie.htm
(92) Anon. Pro- Bush/Moon tract, Spring, 2002
(93) Ib.
(94) Ib.
(95) Ib.
(96) http://www.tomflocco.com/secret_service_intercepted_michael_moore's_E-Mail.htm
(97) Erickson, Mandie. *Manhattan, the way it was meant to be.* Pp. 15-19 in *The Key,* 1991-92
(98) Ib.

أفغانستان

الصدمة أو 9/11 غيّرت وجه أمريكا، بشكل من الأشكال غير قابل للنقض. بالنسبة لسكّان نيويورك، حدث ما لا يمكن وصفه، وحوّلت الخسائر مزاج المدينة الحيوية والقويّة التي أصبحت صامتة الآن. قوة الدمار المفاجئ يمكن أن تقاس بعدة طرق، من الندب المرئية إلى الجروح الخفية. بالنسبة لأولئك الذين يعرفون هذه المدينة، الجروح الخفية ربّما كانت أكثر من تلك المرئية، وربما لا تتمكن الأموال الطائلة وجهود البنائين وعرقهم من بلسمة تلك الجراح.

أمة غرقت في الحزن؛ مدينة غرقت في الحزن؛ وكلاهما غاصتا في مدى من المعاناة التي سببتها الأفعال الوحشية المبيّتة التي اقترفها أشرار يعملون كأدوات في أيدي أسياد أشرار يخططون لمصالح ودوافع سرية. صراخ المطالبة بالثأر ارتفع فوراً وكان حاسماً، والمطلب الأول كان العثور على المذنب. قُدّم للناس اسم واحد، وأصبح العثور على ذلك الشخص هو الهدف المشترك بين أطراف وجهات متعددة. المجنون، الثري، والحليف السابق لآل بوش ومجموعة أخرى من تجّار النفط الأغنياء، صنيعة وكالة المخابرات المركزية الذي كان يعرف أحيانا باسم تيم عثمان، أصبحت صورته الآن مطبوعة على ملصق، مطلوب حيّاً أو ميّتاً، واسمه... أسامة بن لادن.

يعتقد بأنه في أفغانستان، أُرسلت قوّات وأسلحة دمار شامل ومشاعر ثأر عظيمة لتصفية الحساب. بعد اثني عشر شهراً من ذلك، وبعد أكبر مطاردة في التاريخ، ظل مكان بن لادن لغزاً، وظل هو وفق معظم التقديرات حراً طليقاً لم يمسسه أذى. عدّة مصادر تزعم بأنه ليس حتى في أفغانستان، لكن تلك البلاد ما زالت تستضيف حشوداً من الضيوف المتطفّلين ذوي السلوك السيئ جداً في بعض الأحيان. أمة تحت الحصار.

لم يذكر اسم مواطن واحد من ذلك البلد كأحد الخاطفين، ومن الحقائق المؤكدة أن الكثيرين من الأفغان استاءوا من وجود بن لادن السيئ السمعة في بلدهم. جاء إلى تلك الأرض وهو لا يعرف الناس ولا لغتهم؛ هو وأتباعه كانوا شبه منبوذين بشكل واضح لأنهم يتحدثون اللغة العربية وليس لغة أهل البلد البشتية. وجود ذلك الواثق بنفسه، صنيعة وكالة المخابرات المركزية كان عبئاً على المواطنين. أتى في البداية، وهذا صحيح، للمساعدة في القتال ضد المحتلين الروس عام 1979، لكنه في العام 2001 كان قد أطال البقاء وتجاوز فترة الضيافة. حتى الآن، عانت أفغانستان أكثر من أي أمة أخرى من نتائج ما حدث في 9/11، وعدد القتلى من المدنيين الأفغان أصبح أكثر من ضعف عدد الذين قتلوا في برجي نيويورك. جرائم الحرب في أفغانستان واضحة للعيان، الأطفال قُتلوا، النساء عوملن معاملة سيئة من قبل الضيوف الجدد، جاعت العائلات، هناك الآن محصول أفيون أكبر من ذي قبل، وهناك حكومة إرهابية نصّبتها في الحكم الدولة الوحيدة على الإطلاق المدانة بجريمة الإرهاب من قبل محكمة دولية.

عام 1888 ذهب الطبيب البريطاني جون ألفريد جراي، من غرب لندن، إلى أفغانستان بناء على طلب الأمير عبد الرحمن ليكون طبيب البلاط. ألّف حول تجربته كتاباً سمّاه «إقامتي في بلاط الأمير»، ونشر ذلك الكتاب عام 1895. في الفصل الثاني عشر من الكتاب يعيد رواية التاريخ كما يلي:

> الأفغان، كبداية، ينقسمون إلى ثلاثة أقسام رئيسية: العرق الدوراني أو الأفغاني الصحيح، وهو العرق الذي ينتمي إليه الأمير؛ الغلزاي؛ والباثان أو أفغان الحدود. وكل عرق من تلك الأعراق ينقسم بدوره إلى العديد من القبائل المختلفة؛ والقبائل إلى عشائر، والعشائر إلى بطون.

جمعنا معلومات ثمينة حول أفغانستان-أريانا والشعب الذي يسكن تلك البلاد، وذلك من خلال مؤلفات الكتاب القدماء؛ لكن الأفغان، كشعب محدد، لم يظهر في التاريخ حتى بداية القرن العاشر؛ ولم يظهروا كأمة مستقلة يحكمها ملك منها إلا في القرن الثامن عشر.

طبقاً لآخر الأبحاث، فإن الأفغان، بالرغم من ادعائهم بأنهم أمـــة يهودية تنحدر من سلالـــة «ساول»، هم جنس مختلط يتألف من بعض القبائل، أو أقسام من قبائل ترجع في أصولها إلى العرق الفارسي، وآخرون ترجع أصولهم إلى الجنس الهندي، أو اليوناني أو الآسيو-أوروبي. بعض القبائل لا تزال حتى الوقت الحاضر تحمل الأسماء ذاتها وتقطن نفس المواقع التي أخبرنا عنها هيرودوس وآخرون، أي أسماء القبائل المقدونية واليونانية التي قدمت إلى هذه البلاد بعد غزو الإسكندر المقدوني. أما البعض الأخر من تلك القبائل، مرة أخرى، خصوصاً في شرق أفغانستان، فيحمل أسماء قبائل راجيبوت المشهورة في التاريخ الهندي.

في القرن العاشر احتلت البلاد حشود التتار بقيادة القائد التركي ساباكتاكين، الذي أسّس لنفسه مملكة في جنوب أفغانستان، وجعل غزني عاصمة لها.

هو وابنه، محمود الغزنوي، أسّسا سلالة حاكمة في أفغانستان، وتحوّلوا مؤخراً إلى الإسلام، مما قضى على الديانة التي كانت سائدة آنذاك في تلك البلاد، البوذية، حيث غطّت عباءة محمود تلك البلاد. هذه الأعراق المختلطة والمتنوعة، سُميت بمجموعها الأفغان، وهم شعب كان في غالب العصور شعباً عنيفاً ويصعب حكمه والسيطرة عليه، ولم تتورع القبائل عن شن الحروب والغزوات كل منها ضد الأخرى. وأوضاعهم مضطربة حالياً، لذلك، يمكن فهمهم بطريقة أفضل إذا أخذنا في الاعتبار أنهم تشكّلوا أصلاً من أصول ومناطق مختلفة ومتنافرة.

سيكون من المضجر سرد وتعداد الأقسام الكثيرة والفروع المتعددة التي تتألف منها الأمة الأفغانية، لذلك جمّعت العديد من القبائل المهمة تحت التعبير الشامل «أفغان الحدود». هذه القبائل، كما هو واضح من الاسم، تحتل الجبال على الحدود الهندية، وهؤلاء سبّبوا الكثير من المشاكل لحكومة الهند بسبب الغارات والنهب والفوضى التي يمارسونها على المناطق المجاورة.

ونظراً لقربهم من الحدود الهندية، كان من السهل على الباحثين والمحققين التابعين لإدارة الحدود الهندية دراسة عادات وقوانين ولغات تلك القبائل بشكل مباشر، وهو أمر لم يكن متاحاً فيما يتعلق بالأفغان الذين يحتلّون الأجزاء الداخلية من البلاد.

أما الآخرون، الدورانيون وقبائل الغلزاي، ونظراً لتفوقهم العددي، فهم الأكثر أهميّة. وبالإضافة إلى ذلك، ينحدر ملوك الأفغان من فرعين من فروع قبيلة الدوراني.

في القرن الماضي، عام 1747، نصّب أحمد خان، وهو ينحدر من فرع «سدوزاي» من قبيلة الدوراني، نفسه شاهاً فصار الشاه أحمد وأسّس سلالة حاكمة. حدثت الأمور على النحو التالي. نظير شاه، وهو زعيم عصابة من اللصوص التركمان، غزا بلاد فارس، ثم توجّه نحو الأفغان، واحتل البلاد لمدة ست أو سبع سنوات. وضع نفسه على العرش، وبعد ذلك مضى في ضمّ أجزاء أفغانستان، استولى أولاً على القلب، وبعد حصار استمر سنتين تقريباً احتل قندهار، وأخيراً كابول.

اتصف حكمه بالشجاعة والكرم، وبهذا الأسلوب استطاع كسب قلوب جميع الناس، ولحماية ملكه، كان قادراً حشد فرق كبيرة من سلاح الفرسان الأفغاني المجنّدين بشكل خاص من الدورانيين والغلزاي. رؤساء القبائل يقودون القوات التي تتألف من رجال قبائلهم. هؤلاء الرجال رافقوا ذلك المحارب التركي في جميع غزواته، وشاركوا في أمجاده وانتصاراته. قدموا له الكثير من المساعدة مما جعله يفضّلهم علناً على قواته الخاصة، مسبباً بذلك غيرة شديدة بين الجنود الفرس. أخيراً، عندما اغتيل نظير شاه عام 1747، استسلم الفرس أمام الأفغان الذين يفوقونهم قوة وعدداً، فطلبوا الأمان لينسحبوا بسلام. وأثناء عودتهم إلى وطنهم الأصلي، اجتمع الوجهاء والنبلاء من القبائل الدورانية وقبائل الغلزاي معاً ليتوصلوا إلى أفضل طريقة لتنظيم حكومة لأفغانستان. منذ البداية، أُعلن أن أي اتحاد مع الفرس هو أمر مستحيل، وصمّموا على انتخاب رئيس من بينهم. بعد مناقشات طويلة، انتُخب أحمد خان، رئيس عشيرة السدوزاي الدورانية ملكاً للأمة والبلاد، بعد أن انسحب لصالحه منافسه الوحيد، رئيس عشيرة الباراكازي الدورانية. تُوّج أحمد خان في المسجد في قندهار عام 1747، وحمل لقب الشاه. أثناء الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة تنصيب أحمد خان، وصلت إلى قندهار قافلة قادمة من البنجاب والسند تحمل هدايا الولاء والتقدير إلى نظير شاه. استولى الشاه أحمد على القافلة حالاً، والتي كانت تتضمن أموالاً طائلة وهدايا نفيسة، فدعّم قوّته بحكمة عبر توزيع ما حملته القافلة على الجنود والضبّاط ووجهاء مملكته المؤسسة حديثاً.

من هنا بدأت سلالة الملوك الأفغان الذين ينتمون إلى القبائل الدورانية، وأحمد، بغزواته المتكررة، وسّع إمبراطوريته من مشهد في بلاد فارس إلى لاهور في الهند. حكم ستّاً وعشرين سنة، وملك من بعد ابنه تيمور شاه، الرجل الضعيف الذي نقل مقر الحكومة من قندهار إلى كابول، وصرف وقته، ليس في تقوية ودعم الإمبراطورية التي ورثها عن أبيه، بل في إرضاء غرائزه. كانت النتيجة هي المتوقعة: أصبح القانون معطلاً؛ لم تعد الطرقات آمنة من شر قطّاع الطرق؛ انتشرت الفوضى وعدم الاستقرار مرة أخرى في البلاد، وأصبح

سقوط الإمبراطورية وشيكاً. ضاعت الولايات الفارسية؛ ثم تلتها السند، ثم البنجاب، وبلوشستان[1].

يروي جراي أنه بعد موت تيمور، في العام 1793، ازدادت الأمور سوءاً، حيث أن أبناءه كانوا في نزاع مستمر وكلّ منهم يكيد للآخر. محمود، أحد هؤلاء الأبناء، أصبح عام 1800 شاهاً، ثمّ خُلع، ثم نُصّب ثانية، وأخيراً أصبح دمية بيد وزيره، فتحي خان. تأثير فتحي خان أعاد الازدهار للبلاد، لكن ابن محمود، قمران، قتله. ثم هرب محمود وابنه فحكم إخوة الوزير البلاد[2].

الأرض المقسمة تُفتح بسهولة؛ روسيا وبلاد فارس، كل منها أراد الاستيلاء على قندهار. حرّضت هاتان الدولتان البريطانيين على القيام بحركة مضادّة كانت نتيجتها ما عرف بالحرب الأفغانية الأولى. وهذه الحرب التي ينبغي على كل المخططين الإستراتيجيين العسكريين أن يدرسوها جيداً عند التخطيط لشن أي هجوم في أفغانستان، خصوصاً وأن نتيجة هذه الحرب كانت هزيمة ساحقة للجيش البريطاني المسلّح والمدرّب جيداً. وبالرغم من أن الجيش البريطاني كان آنذاك قد قاتل في كل أنواع التضاريس الجغرافية، إلا أن الجبال الموجودة في هذه البلاد كانت بمثابة عوائق لم تستطع قوات الملك جورج الرابع قهرها. بقي بضعة أفراد فقط كي يُحدثوا عن الخسارة وإبادة ذلك الجيش.

في العام 1842 شق دوست محمد طريقه عائداً إلى كابول لاستعادة العرش الذي سبق له وأن جلس عليه. عاد الأمن إلى البلاد وتحسنت التجارة إلى حد كبير. فهم هذا الأمير ضرورة استمرار التجارة، وربما كان الأكثر أهميّة من ذلك هو تأمين ولاء زعماء القبائل. وهذه أهداف سهلة الإنجاز في ظل حكم عادل ومعقول، وقد حافظ دوست محمد على هذا الوضع إلى درجة معقولة.

عيّن دوست محمد ابنه شير علي ولياً للعهد، وبدا أن السلام والاستقرار مرشح للاستمرار، حتى خُلع شير علي عام 1868 من قبل إخوته بعد خمسة أشهر فقط من توليه الحكم. مغتصب السلطة، أفضال خان، حكم أيضا خمسة أشهر فقط، كي يخلفه أخوه، عظيم خان. بعد مرور

سنة واحدة على خلعه، استعاد شير علي العرش، الذي انتقل بعد ذلك إلى ابنه يعقوب، لكنه انتهى بعد ذلك إلى الابن الوحيد لأفضال، عبد الرحمن خان[3].

التهديدات الخارجية لأفغانستان في تلك الفترة من الزمن لخّصها كنود بالودان، حيث كتب في الخمسينات:

> بعد بضعة عقود من الحرب الأفغانية الأولى، أصبحت الحالة حرجة مرة أخرى. في الثلاثينات، كان البريطانيون مترددين بسبب التأثير الروسي في بلاد فارس. أما في الستّينات، على أية حال، فقد جاء التهديد من الشمال بعد الاجتياح الروسي لتركستان. في العام 1869 أُجبر حاكم بخارى على الإقرار بالهيمنة الروسية، وهكذا وصل التأثير الروسي إلى الحدود الشمالية لأفغانستان. كان ذلك بمثابة جرس الإنذار بالنسبة لأفغانستان، وكذلك بالنسبة للبريطانيين في الهند، لكن بالرغم من المصالح المشتركة، تم التوصل إلى اتفاقية. وفي الحقيقة، في العام 1878، استُقبلت بعثة دبلوماسية روسية في كابول بينما لم يُسمح للبعثة البريطانية بدخول البلاد، مما أدى إلى نشوب الحرب الأفغانية الثانية (1878-81)[4].

في عهد عبد الرحمن خان، عاد القانون والأمن إلى البلاد وعادت كابول مرة أخرى مركزاً ثقافياً، حيث كان البريطانيون، الهنود، الفرس، الروس، الأرمن وجنسيات أخرى يتعايشون ويتفاعلون بسلام. يروي جراي رؤيته للتجار وصيادي الصقور الذين يزاولون نشاطاتهم في بيئة مرة آمنة ومنضبطة إدارياً، مما جعل تاجراً ورياضياً شديد الحماس للمجيء إلى هذا البلد وليكون جزءاً من هذا العالم.

الكاتب بالودان يرد أسباب النزاع الذي حدث بين العامين 1903-1905 بين أفغانستان وإيران إلى تغيير في مجرى أحد الأنهر، مما أدى إلى خلاف حدودي بينهما. قامت لجنة تحكيم بإعادة رسم الحدود بين البلدين، وأدى ذلك إلى فترة من الهدوء والسلم مع الدول المجاورة. مرة أخرى ومع العودة إلى حالة السلم والاستقرار، كان هناك اهتمام علمي عظيم بهذه البلاد، ويكتب بالودان أن العديد من أنصار الطبيعة البارزين من مختلف الأنحاء جاءوا لدراسة الطبيعة في هذا البلد، ومن ضمن هؤلاء العقيد ريتشارد ماينرتزاغن من البريطانيين، الهندي سالم علي، عالم النبات الأمريكي دبليو. كولز، عالم الطيور تشارلز فاوري من المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي وإس. أي. أكتر من أفغانستان[5]. دوّن هؤلاء وآخرون النتائج التي

توصلوا إليها وتحظى أعمالهم بتقدير كبير في الدوائر الأكاديمية. بالودان نفسه ذهب إلى أفغانستان في الخمسينات وألّف عمله البحثي الخاص الذي سمّاه «حول طيور أفغانستان»، وذلك تحت رعاية متحف كوبنهاكن للحيوانات.

في هذا العمل، يسرد بالودان بعض المعلومات العلمية على النحو التالي: «بمساحتها البالغة 720 ألف كيلومتر مربع، فإن أفغانستان أكبر بمقدار الضعف من مساحة بريطانيا العظمى وإيرلندا مجتمعتين، وتعداد سكانها البالغ 12 مليون شخص فقط يوحي لنا بشيء ما عن طبيعة تلك البلاد. الجزء الأعظم من البلاد، مع بلوشستان، يشكّل الجزء الشرقي من الهضبة الإيرانية المحاطة بالسلاسل الجبلية الهائلة التي تشكّل جزءاً من الجرف المثلث الذي يمتد عبر وسط وجنوب آسيا بالإضافة إلى أوروبا[6]».

يستمر هذا الوصف الغني بالمعلومات الأكثر واقعية حول السلاسل الجبلية الأخرى في البلاد، وهي المعلومات التي قد تقال لوصف شخصية البلاد. يصف بالودان المنطقة الجنوبية الغربية باعتبارها الجزء الوحيد من البلاد الذي يتضمن مساحات كبيرة مستوية. يتألف هذا الجزء من الصحارى وأنصاف الصحارى. وفي العديد من المناطق، النباتات قليلة ومتناثرة، حيث الأمطار قليلة وفصل الصيف شديد الحرارة. لكن الاستثناء في ذلك هو نوريستان وجزء من جبال الحدود الشرقية حيث تساعد الرياح الموسمية على تكوين المناخ المناسب لنمو الأشجار الصنوبرية والغابات الدائمة الخضرة.

ألقى الجيولوجيون والعلماء الآخرون نظرة مختلفة على الأرض في هذا البلد وفي البلدان المجاورة ووجدوا على مرّ السنين كنوزاً لم تظهر لعلماء النبات أو الخبراء الزراعيين. المصادر الواسعة للطاقة والمعادن في أفغانستان وما حولها كانت موضع اهتمام العديد من الجهات، وربما هذا هو الذي شكّل المشهد السياسي في أفغانستان أكثر مما فعلته أي منطقة جبلية أو نوع من النباتات الغريبة. الاقتصاد الذي أسهم في مد خطوط أنابيب النفط عبر التضاريس الوعرة في هذه البلاد هو الذي أتى بالقوى والجيوش إلى هذه البلاد حتى في أيامنا الحاضرة.

من 1979 إلى 1990 حاول السوفييت كسب موطئ قدم في أفغانستان، مبررين ذلك بالأسباب السياسية. قدمت الولايات المتحدة مساعدات جمّة إلى واحد من حلفائهم

الموثوقين، أسامة بن لادن، وذلك لشن الهجمات على القوات السوفييتية، وقد فعل ذلك. تلك المساعدات، بالإضافة إلى التضاريس الجبلية الغادرة وروح المحاربين العشائريين الأفغان، هزمت جيوش الشمال المدججة بأحدث الأسلحة والأنظمة المتطورة جداً. ظلت الحاجة لأسامة بن لادن قائمة هناك، في بادئ الأمر بدعم من الولايات المتحدة. في مرحلة ما يُعتقد بأنه انقلب على أسياده، وحقيقة العلاقة بينهما كانت مسألة تعتمد على التخمين وتم تسريبها إلى الناس من مصادر سرية. الجمهور الأفغاني، سواء أردنا أم لم نرد، التصق بصنيعة وكالة المخابرات المركزية هذا. وحضوره في بلادهم هو الذي استُخدم كذريعة لقتل عدد كبير جداً من المدنيين الأفغان، مما أضاف مزيداً من البؤس إلى الوضع الراهن المثقل بالجوع والبؤس.

هذه الحرب خدعة

تلك الكلمات، المطبوعة بشكل بارز فوق خلفية سوداء قاتمة، أبرزت صور القتلى من الأطفال الأفغان وذويهم المذهولين. الصحفي جون بيلجير الفائز بجوائز تقدير وفرت له صحيفة الدايلي ميرور الغطاء والدعم في 29 تشرين الأول (أكتوبر) 2001 ليكشف للغرب ما هو جارٍ فعلاً هناك. وهذا هو ظهوره الأول في تلك الصحيفة خلال خمس عشرة سنة، وقد كانت عودة مثيرة.

وفي الوقت الذي نُشرت فيه تحقيقاته، كتب كل من مارك داودني، توم نيوتن دون، وغاري جونز تحقيقات مماثلة — داودني أبرز صور وقصص الأطفال الذين قتلوا في القصف المدمر، وسجّل للتاريخ حزن الأرملة التي فقدت زوجها وسبعة أطفال. كلماتها أصابت الهدف بدقة أكبر من دقة القنابل الأمريكية الذكية والباهظة الثمن التي أبادت عائلتها في كابول: «العالم بأكمله مسؤول عن هذه المأساة. لماذا لا يتّخذون أي قرار لوقف ذلك؟ إنهم يستهدفون بيوتنا»[7].

مصوّر غربي كان موجوداً ويقوم بتصوير المشهد قال له واحد من الأفغان الذين كانوا يندبون موتاهم: «تصويرك لا يحدث فرقاً، سيضيع»[8].

توم نيوتن دون وضع لمقالته عنواناً يقول: «لِمَ ضربت القنابل الأمريكية المدنيين». وفي تلك المقالة سرد بعض الحوادث الأكثر شناعة. 9 تشرين الأول (أكتوبر): أربعة مستخدمين أفغان لدى إحدى الوكالات التابعة للأمم المتحدة قتلوا حين أصاب صاروخ أمريكي مكتبهم في شمال كابول. 16 تشرين الأول (أكتوبر): أحد مخازن الصليب الأحمر دُمر ضمن أحد المجمّعات التابعة لطالبان في كابول. جرح شخص واحد. 20 تشرين الأول (أكتوبر): سقطت قنبلتان زنة الواحدة 500 رطل على المناطق السكنية في شمال غرب كابول، قُتل العشرات من المدنيين. 22 تشرين الأول (أكتوبر): طائرة إف 18 أسقطت قنبلة زنتها 1000 رطل على منطقة سكنية في كابول فأصابت دارا للمسنين وقيل أنها قتلت 20 مدنياً. 26 تشرين الأول (أكتوبر): مجمّع الصليب الأحمر في كابول قُصف ثانية، حيث أدى إلقاء 8 أطنان من المتفجرات إلى إشعال النار في ثلاث من البنايات الأربع التي كانت لا تزال سالمة بعد الهجوم الأول (9).

جونز كتب عن المرأة التي ألحّت على زوجها ميرزا ورجته كي يغادروا بيتهم في «أنوكي» القريبة من جبهات القتال وينتقلوا إلى «غاري خال»، وهي بلدة زراعية صغيرة جداً قريبة من الجبال، وذلك طلباً للأمان. ومن سخرية الأقدار المأساوية، أن تلك المرأة قتلت هناك نتيجة القصف بالقنابل الأمريكية؛ آخر أمر فعلته تلك المرأة هو أنها ألقت بنفسها فوق ابنها البالغ من العمر أربع سنوات، وضحّت بنفسها كي تنقذ حياته. كايت رولاندز، وهي منسقة طبية بريطانية تعمل في مستشفى الطوارئ القريب من عنابه، أشارت إلى أن الأمور كان يمكن أن تكون أسوأ بكثير، وتحدثت عن تكرار مثل تلك الحوادث التي استهدفت المدنيين(10).

بيلجير ينتهي بسرعة إلى النتيجة، ملخصاً الحقيقة بطريقة قد يرفض الكثيرون الاعتراف بها:

> إن الحرب ضد الإرهاب خدعة. بعد ثلاثة أسابيع من القصف، لم يُقتل أو يُعتقل في أفغانستان إرهابي واحد من المتورّطين في الهجمات على أمريكا.
>
> بدلاً من ذلك، تعرض أحد أفقر بلدان العالم وأكثرها تعرضاً للنكبات للإرهاب الذي مارسته الدولة الأقوى في العالم، إلى درجة أن الطيارين الأمريكيين استنفدوا الأهداف العسكرية المريبة وشرعوا في تدمير البيوت الطينية، المستشفيات، مخازن الصليب الأحمر، الشاحنات التي تحمل اللاجئين.

على خلاف الصور المتدفقة باستمرار من نيويورك، نحن لا نرى شيئاً من ذلك تقريباً. طوني بلير لم يخبرنا حتى الآن عن العلاقة بين الموت العنيف للأطفال - سبعة من عائلة واحدة - وبين أسامة بن لادن.

هل ثمة مبرر لاستخدام القنابل العنقودية؟ الرأي العام البريطاني يجب أن يعلم بأمر هذه القنابل، التي استخدمها أيضاً سلاح الجو الملكي. يرشّون المئات من القنابل العنقودية التي لها غرض واحد فقط؛ قتل وتعويق الناس. وتلك التي لا تنفجر، تظل ملقاة على الأرض مثل الألغام الأرضية، تنتظر الناس ليمروا فوقها فتنفجر بهم.

إذا كان ثمة سلاح مصمّم خصيصاً للأعمال الإرهابية، فهذا هو. رأيت ضحايا الأسلحة العنقودية الأمريكية في البلدان الأخرى، مثل الطفلة اللاوسية التي مرت فوق إحدى تلك القنابل فطارت ساقها اليمنى وجزءاً من وجهها. كن على ثقة تامة بأن ذلك يحدث في أفغانستان، باسمك وبحجة الدفاع عنك.

لا يوجد أي أفغاني ضمن الذين اشتركوا مباشرة في الأعمال الوحشية التي حدثت في 11 أيلول (سبتمبر). أكثرهم كانوا سعوديين ممن تلقّوا، على ما يبدو، تدريباتهم في ألمانيا والولايات المتحدة. المعسكرات التي سمحت طالبان لبن لادن استخدامها أخليت قبل أسابيع. علاوة على ذلك، حركة طالبان نفسها صناعة أمريكية... في الثمانينات، الجيش العشائري الذي أنجبهم كانت تموّله وكالة المخابرات المركزية...

النفاق لا يتوقّف هناك. حين استولت طالبان على كابول عام 1996، لم تقل واشنطن شيئاً. لماذا؟ لأن زعماء طالبان سيغادرون قريباً إلى هيوستن بولاية تكساس لكي يستمتعوا بما يقدمه لهم المدراء التنفيذيين في شركة النفط «أونوكال»[11].

بعد أشهر، في الرابع من تموز (يوليو) 2002، تابع بيلجير الكتابة على نفس المنوال، إلى حد أزعج أولئك الذين يدعمون الحرب، ومن ضمنهم صحيفة نيويورك بوست التي انتقدت تغطيته.

الغارديان اضطرت أيضاً، في تشرين الأول (أكتوبر) 2002، أن تنشر تغطية معمّقة لهذا الهجوم التخويفي الهائل؛ وقد لاحظ المراسل ريتشارد نورتن تايلور قصف أحد المساجد أثناء إقامة الصّلاة فيه، وروى الكثير من التفاصيل المتعلقة بالأساليب الملتوية التي استُعملت ضد المدنيين، مثل جعل القنيبلات التي تنشرها القنابل العنقودية على شكل علب المشروبات[12].

اللون الأصفر اللامع الذي يبدو جذاباً يغري الأطفال في أغلب الأحيان، كبعض الألعاب المغرية التي صنعها بعض الجبناء في واشنطن بسرور منحرف لإيذاء الأطفال.

معظم هذه الممارسات يتم تجاهلها بشكل تلقائي وروتيني من قبل أولئك الذين يبدون غير متأثّرين بها، لكن حادثة جرت في منتصف شهر نيسان (أبريل) 2002 أعادت طرح المسألة بقوة داخل أمريكا الشمالية، حين قتلت «نيران صديقة» أمريكية أربعة جنود كنديين، وأصيب ثمانية آخرون بإصابات خطرة. أصيب أولئك الرجال بصاروخ موجّه بالليزر، بالرغم من وجودهم في منطقة تدريب معترف بها وبالرغم من أن الطائرات كانت تتبع مسارات محددة بصرامة بالغة.

يقول مسئولو الدفاع الكنديون أن طائرة إف-16 الأمريكية التي أطلقت الصاروخ كانت تطير على ارتفاع عالٍ جداً لا يتيح لها تمييز ما كانت تقصفه[13]. نيران صديقة سابقة قتلت 13 جندياً أمريكياً؛ وفي 5 كانون الأول (ديسمبر) أسقطت قاذفة ب-52 قنبلة قتلت ثلاثة أمريكيين وسبعة أفغان وجرحت الزعيم المؤقت حامد قرضاي، وفي 15 نيسان (أبريل) قُتل أربعة جنود أمريكيين بقنبلة قرب قندهار[14].

في أيار (مايو) من عام 2002 قُتل عشرة مدنيين قرب خوست شرق أفغانستان عندما قصفت المروحيات الأمريكية حفلة زفاف[15]، وفي الأول من تموز (يوليو) تعرضت حفلة زفاف أخرى «لنيران صديقة» في وسط أفغانستان، مما أدى إلى مقتل 40 وجرح 120 شخصاً[16].

صدّيق والي من سكان لندن، كتب في رسالة نشرت بتاريخ 10 تموز (يوليو) 2002 في صحيفة المترو، متسائلاً: «كيف يمكن لبلد مثل أفغانستان سكانه فقراء لا يجدون الطعام ومرضى لا يجدون رعاية طبية، كيف يُهدد الولايات المتحدة؟ من أين تأتي الأسلحة إلى أفغانستان (البلد الذي ليس فيه مصنع ذخيرة)؟ ألم تصنع في الولايات المتحدة... أتمنى أن يُقدّم الرئيس جورج بوش وكل أولئك المسؤولين عن قتل الأطفال الأفغان الأبرياء، أتمنى أن يُقدّموا إلى العدالة»[17].

بعض التقارير لم تعترف بها وزارة الدفاع الأمريكية؛ ربما إذا تجاهلت الإدارة تلك الجرائم بكل بساطة فإن بقيّة البلاد تكلّف نفسها عناء الاهتمام بأمور كهذه. هذا هو رد الفعل المتوقع فيما يتعلق بالهجوم الذي حدث في 1 آب (أغسطس) حين هاجمت مروحية أمريكية قرية على بعد 75 ميلاً جنوب كابول فقتلت مدنياً وجرحت اثنين. السلطات المحلية أكدت عدم وجود أهداف معادية في المنطقة وأن الأمريكيين أخفقوا في استشارتهم قبل إطلاق النار من أسلحتهم[18].

صحيفة البرافدا الروسية تحدثت في 4 آب (أغسطس) 2002 عن الجنود الأمريكيين المفقودين في أفغانستان، وزعمت أن أكثر من مئة منهم فُقدوا هناك. وقد جاء في تلك الصحيفة:

> عضو اللجنة الرئاسية للمعتقلين والأشخاص المفقودين في الاتحاد الروسي ليوند بيريكوف عاد منذ أسبوع من رحلة العمل التي قضاها في كابول. وفي مقابلة معه، ذكر أن أكثر من 100 أمريكي فُقدوا في أفغانستان ويئسوا من إمكانية اهتمام السلطات الأمريكية بمشكلتهم. وبخصوص تلك المشكلة، فوجئ الوزراء الأفغان ليس فقط بالتعتيم المقصود على المعلومات من جانب السلطات الأمريكية، بل بعدم الاهتمام من طرف وزارة الخارجية الأمريكية بمصير الجنود الأمريكيين[19].

صحيفة الإندبندنت أيضاً نشرت تحقيقاً ذلك الشهر تضمن استعراضاً لما هو جارٍ بالنسبة للقوّات المنتشرة في الخارج وسردت بعض الحكايات التي يحسبها المرء من بعض حكايات الاحتلال النازي. روبرت فيسك، مراسل الصحيفة في الشرق الأوسط كتب ما يلي:

> «الحرب على الإرهاب» التي أعلنها الرئيس جورج بوش وصلت إلى القريـــة الصحراويـــة «حاجي بيرجيت» عند منتصف الليل في 22 أيار (مايو). حاجي برجيت خان، زعيم القرية البشتونية، الملتحي والبالغ من العمر 85 عاماً ورئيس وقائد أكثر من 12 ألف عائلة قبلية محلية، كان متمدداً على بقعة من العشب خارج بيته... كان هناك 105 عائلات في «حاجي بيرجيت» في 22 أيار (مايو)، وجميعهم استيقظوا على هدير محركات الطائرات المروحية وأصوات شفرات مراوحها التي تضرب الهواء بقوة مختلطة بصراخ المهاجمين الأمريكيين.
>
> شوهد حاجي برجيت خان وهو يركض بتصنع من بقعته العشبية الصغيرة نحو مسجد القرية ذو الجدران البيضاء، وهو عبارة عن بناء إسمنتي مستطيل الشكل، فوقه مكبر صوت وحيد

وبضعة سجادات رثّة. شوهد عدّة رجال مسلّحين يجرون خلفه. حكيم، أحد الرعاة، رأى رجال المروحيات وهم يطاردون الرجل العجوز إلى المسجد وسمع رشقة رصاص. «حين عثر عليه رجال قريتنا، وجودوه مقتولاً برصاصة في الرأس»، يقول حكيم، مشيراً بيده نحو الأسفل. توجد فتحة أحدثتها رصاصة وحيدة في أرضية المسجد الإسمنتية وبجانبها بقعة دمّ جافة. «وجدنا قطعاً من دماغه على الحائط».

...«الأمريكيون كانوا يرمون علينا قنابل من الغـــاز المخدّر وقنابل دخانية»، يتذكر محي الدين. «كانوا يرمون علينا العشرات من تلك القنابل، وكانوا يصرخون فينا دوت توقف... بدأ عدد منهم بربط نسائنا – نسائنا المحجبات، والأمريكيون كانوا يرفعون براقعهن وأغطيتهن لينظروا إلى وجوههن. حدث ذلك حين كانت تلك البنت الصغيرة تركض هاربة». يقول عبد الستار بأنّها كانت في السنة الثالثة من عمرها، وأنّها كانت تصرخ خوفاً وهي تفر من بيتها، وكان اسمها كان زارغونا، وهي ابنة رجل يدعى عبد الشكور – العديد من الأفغان يحملون اسماً واحداً فقط – وأن أحد الأشخاص رآها تسقط من حافة جرف ارتفاعها 60 قدماً على الجانب الآخر للمسجد. أثناء اللّيل، كانت متروكة وحدها لتغرق في الماء، ويبدو أن ظهرها انكسر أثناء سقوطها. أطفال القرية عثروا على جثتها في الصباح. الأمريكيون لم يعيروا الأمر أدنى اهتمام[20].

إذا كان الجنود لا يستطيعون أن يبذلوا مقداراً قليلاً من الاهتمام بحادث الموت الفظيع والمؤلم بشكل لا يطاق لطفل صغير، فإن مقتل المئات من الرجال قد لا يستوجب رفة عين. كان هذا هو مصير عدد كبير جداً من الأفغان، كما ورد في تقرير الغارديان في 19 آب (أغسطس) 2002:

جمعت الأمم المتّحدة ما يكفي من الأدلة لفتح تحقيق جنائي حول المزاعم التي تقول بأن نحو 1000 من الأسرى من حركة طالبان مدفونون في مقابر جماعية في أفغانستان، وقد اكتُشفت المقبرة ليلة أمس.

مذكرة سرية من الأمم المتحدة سُرّبت إلى مجلة نيوزويك الأمريكية وجاء فيها أن هناك أدلة تثير القلق وتفيد بصحة الإشاعات بشأن القبور الجماعية في منطقة اسمها داش-آي-لايلي. من المعتقد أن الأسرى ماتوا بعد أن حُشروا في حاويات الشحن المعدنية المغلقة لنقلهم من قندز إلى سجن تحالف الشمال في شيبرغان.

ذكرت الغارديان في حزيران (يونيو) أن الرئيس السابق لمنظمة العفو الدولية كان قد دعا إلى إجراء تحقيق مستقل فيما يتعلق بالادعاءات التي تقول أن القوات الأمريكية عذبت السجناء من حركة طالبان وكانت متواطئة في اختفاء الآلاف من المدنيين أثناء الحرب.

النداء الذي أطلقه أندرو ماكينتي، والذي يعمل الآن محامياً للدفاع عن حقوق إنسان، استند على فيلم وثائقي بريطاني تضمن وصفاً لسجن الآلاف من مقاتلي طالبان في قندز، وذلك في تشرين الثاني (نوفمبر).

في ذلك الوقت كان السجن الموجود في شيبرغان، في شمال غرب أفغانستان، موضوعاً تحت السيطرة الأمريكية.

الفيلم الوثائقي، الذي يحمل عنوان «مذبحة في مزار»، يزعم أن عدداً كبيراً من السجناء ماتوا في الطريق أثناء الرحلة[21].

عدد 26 آب (أغسطس) من مجلة نيوزويك تضمن رواية مختلفة، وهي الرواية التي بدت لكثير من الناس وكأنها تمرين على كيفية السيطرة على الأضرار. كايت راندل ألقت نظرة على التقارير ولاحظت ما يلي في مقالتها المنشورة في الرابع من أيلول (سبتمبر):

في تشرين الثاني (نوفمبر)، خنق حلفاء أمريكا الأفغان مئات السجناء من مقاتلي طالبان الذين اعتقلوا في شيبرغان ووضعوا في حاويات الشحن المغلقة. أين كانت القوات الأمريكية؟

التقرير يؤيّد المعلومات التي وردت في الفيلم الوثائقي الذي أذيع مؤخراً، «مذبحة في مزار»، والذي أخرجه المخرج الآيرلندي جيمي دوران... فيلم دوران عتّمت عليه معظم الصحف الأمريكية، لكنه أثار مطالبة دولية بضرورة إجراء تحقيق حول جرائم الحرب الأمريكية من قبل جماعات حقوق الإنسان وبعض السياسيين الأوروبيين.

...استناداً إلى المقابلات الأولية التي أجرتها اللجنة الدولية للصليب الأحمر مع بعض السجناء الناجين من سجن شيبرغان، نشرت النيويورك تايمز وعدة صحف أخرى وصفاً أولياً للأحداث. نشر موقع الاشتراكية الدولية على شبكة الوب مقالة حول العمل الوحشي المرتكب في 13 كانون الأول (ديسمبر) الماضي [«مزيد من الأدلة حول جرائم الحرب الأمريكية في أفغانستان: أسرى الحرب من طالبان خنقوا داخل حاويات الشحن».]

في تقرير نيوزويك، بدا واضحاً أن كتّاب التقرير انطلقوا من وجهة نظر سياسية معيّنة وجدول أعمال سياسي – للإقرار بالأعمال الوحشية مع التقليل، إن لم يكن الإنكار الكليّ، من مسؤولية الولايات المتحدة. يعترف كاتبو التقرير بأن تحقيقهم «أثبت... بأنّ القوات الأمريكية كانت تعمل بشكل وثيق مع «الحلفاء» الذين علمت نيوزويك أنهم اقترحوا بأن القوات

الأمريكية لديها معرفة متقدّمة بعمليات القتل، وشهدوا بأن السجناء حُشروا في الحاويات التي تفتقر إلى التهوئة وأنهم لم يكونوا في وضع يمكنهم من منع ذلك».

لم يقم كتاب ذلك التقرير بأي محاولة لكشف حقيقة الاشتراك المباشر للقوات الأمريكية مع تحالف الشمال في تلك الجريمة، زاعمين أن الأمريكيين أبرياء من حيث الأساس، وهو زعم لا يمكنه الصمود في وجه الحقائق التي وردت في تقريرهم نفسه[22].

في مشهد يشبه مشهد اليهود الأوروبيين وهم يحشرون في سيارات الماشية في طريقهم إلى مخيمات الموت النازية، استمر وصول سجناء طالبان محمّلين بسيارات الشحن طوال الأيام الثلاثة التالية، وكل حاوية كانت تحتوي على 150 إلى 300 سجين. وحيث أن الأبواب أقفلت عليهم، أدركوا بأنّهم لن يعودوا إلى البيت، وكما وُعدوا، تُركوا للموت[23].

تُلخّص راندل مقالتها بأوضح العبارات، داعية إلى إطلاق العملية المناسبة، وبيّنت حقيقة أن تقرير نيوزويك نفسه أثبت أدلة كافية حول ارتكاب جرائم الحرب. ولاحظت أن تصريحات وزير الدفاع الأمريكي دونالد رمسفيلد تبيّن بأن هذا النوع من القتل كان بمثابة سياسة أمريكية معتمدة.

جاء الإرهاب إلى أفغانستان، وعلى خلاف الهجمات على مركز التجارة العالمي، لم ينته الهجوم في غضون ساعات. استمرّ لأكثر من سنة، والأطفال أصبحوا هم الضحايا.

على أية حال، هناك بطانة فضّية في كلّ هذه ربما؛ جنود البحرية البريطانيون لم يجلبوا معهم تجربتهم الحربية السابقة في هذه المنطقة فقط، بل جلبوا معم أيضاً خبرتهم باستخدام إحدى أكثر التطبيقات التقنية إثارة للخوف في التاريخ البشري، مثقاب الأسنان. طبّقوا تلك التقنية على العديد من الأطفال الأفغان، الذين كانوا يصرخون رعباً عند ربطهم إلى الكرسي وانطلاق العمل على سد الفجوات وإزالة الرواسب وجعل الابتسامة مشرقة، حينئذ يتحول الرعب إلى صيحات بهجة[24][25]. مما لاشكّ فيه أن تلك كانت بادرة إيجابية، لكنها لم تكن موضع ترحيب لدى كل الأفغان، كما عبرت عن ذلك إحدى الرسائل التي نشرت في موقع unansweredquestions.org على شبكة الإنترنت، «رؤية مجموعة من البحارة الإنكليز وهم يقدمون العناية الطبية المجّانية لمجموعة من الإرهابيين الذين لم يبلغوا سن الرشد يبدو مثل صفعة

في وجه الديمقراطية العالمية العظيمة. ولو أنهم أمروا بقتل بضعة مواطنين آخرين لكانوا تصرفوا بإحساس أفضل»[26].

يستطيع الإنسان أن يخمّن نوعية الشخص الذي يكتب مثل هذا الحقد، ربّما كان واحداً من أصحاب العقول الساخطة التي تسيطر عليها وكالة المخابرات المركزية والتي تم تدريبها على كراهية وقتل كل من يُطلب منها كراهيته. على أية حال، وكالة المخابرات المركزية أصبح لديها سبب وجيه لإبداء التقدير والشكر لأبناء عمومتهم البريطانيين، حين أدى، في أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) 2001، التفكير السريع لرجال الاستخبارات السرية البريطانية إلى إخماد انتفاضة في سجن مزار الشريف وإنقاذ حياة نظرائهم الأمريكيين. الأمريكي الوحيد الذي قُتل في تلك الانتفاضة كان جوني «مايك» سبام، ومما يثير السخرية أن هذا المحقق المخابراتي هو الذي هدّد الأمريكي المسلم جوني واكر سيند بحكم الموت في أفغانستان وبعدم رؤية وطنه ثانية[27].

مشاجرات الطرق

جنود السبعينات الذين عادوا من فيتنام كانوا مصابين بحالات متنوعة من العجز البدني والعقلي، وفي سيناريوهات أسوأ الحالات، ارتكبوا جرائم عنيفة ضد الناس في وطنهم. وحيث أن الأعمال الوحشية التي ارتكبت بحق الفيتناميين أصبحت معروفة، بدا وكأن نمط العنف الذي ارتكب هناك أخذ يكرّر نفسه على التراب الأمريكي. صيف 2002 كان نقطة استرجاع تلك الظاهرة. في بلدة فايتفيل الفاتنة بولاية كارولينا الشّمالية، توجد قاعدة عسكرية أمريكية باسم فورت براج. أداء الخدمة العسكرية في هذه القاعدة يعتبر نعمة عظيمة، وقد حصلت القاعدة المذكورة على المركز الأول ونالت جائزة أفضل أداء عسكري لعام 2001، حيث لاحظ مانحو الجائزة «مستوى متفوّقاً في نوعية الحياة والروح الجماعية ودعم الجنود وعوائلهم»[28].

السلام الذي تنعم به قاعدة فورت براج تبخّر في 12 حزيران (يونيو) بواسطة مسدس من نوع «غلوك» نصف آلي أودى بحياة العريف من الدرجة الأولى وزوجته تيريزا في عملية قتل وانتحار مذهلة.

في وقت لاحق من ذلك الشهر، وجدت جينيفر، زوجة رئيس العرفاء وليام رايت، مخنوقة في 29 حزيران (يونيو)؛ واتهم الزوج بالقتل.

حدثت عملية قتل وانتحار ثانية بعد عشرين يوماً، حيث أقدم العريف من الدرجة الأولى براندون فلويد بإطلاق النار على زوجته أندريا ثم على نفسه.

في جميع تلك الحالات، عاد هؤلاء الرجال إلى الوطن من أفغانستان. الرائد غاري كولب من قيادة القوات الخاصّة، والذي كان بعض هؤلاء الرجال تحت قيادته، لا يوافق على القول أن أفغانستان هي السبب الرئيس في تلك الهجمات. ذلك الصيف، حدثت جريمتا قتل إضافيتين و لم يكن المتورطون فيهما من الرجال الذين عادوا من تلك البلاد[29].

هنري بيري، مدير برنامج دعم عائلات العسكريين يسمّيهم «مطيّرو العقول»[30]. المجتمع الذي تتواجد فيه القاعدة العسكرية، والذي يشعر بالفخر عادة بهذا التواجد، اضطرب، والعائلات لم تعد تتحمس كثيراً فيما يتعلق بارتباط الفتيات بالجنود العائدين من أفغانستان. وعندما تسأل عن السبب، تسمع قصصاً حول السيطرة العقلية، كما أن الأعمال الوحشية ضد النساء والأطفال الأفغان بدأت بالظهور. أحد التفاصيل المهمة التي ظهرت إلى العلن كان قصة «الثلاثاء النفسي». القصة تتحدث عن عمليات التلقيح التي حدثت والغضب الذي تلى ذلك واستمر بقيّة ذلك اليوم[31].

الكثيرون في الجيش وفي قطاع صناعة الأسلحة لا يرغبون أن تذكر الصحافة هذه الأشياء، والضغط الخفي الذي يُمارَس لاتهام كثير من الناس بارتكاب أعمال غير وطنية أو وصفهم باليساريين المذعورين المؤمنين بنظرية المؤامرة أصبح الآن أشد من أي وقت مضى من أجل تمكين الجيش الحر من الاستفراد بضحاياه. صمت الجمهور يسمح لماكنة الحرب أن تتحول إلى ما يشبه الجمعية السرية، والضرر الذي ينجم عن ذلك قد لا يمكن تداركه.

شمس الكاريبي

أكتب وأنا محاط بالجليد والثلج، مما يجعل أرصفة المدينة وسخة وخطرة في آن معاً. قد يكون المنظر جميلاً في الساعة الأولى، لكنه سيتحوّل قريباً إلى ثلج ذائب وزلق. أمام هذه

الخلفية، ظهر الملصق الأحمر الكبير في وكالة السفر بوضوح شديد، ومشهد المرح تحت أشعة الشمس في مكان ما، كما يبدو في الملصق، جعلني أشعر ببرودة الطقس الرمادي كما لم أشعر بها من قبل. ألا يمكنني التسلل إلى ذلك المشهد هرباً من هذا الجو البارد؟

منذ شتاءين مضيا سافر عدد من الناس إلى إحدى تلك الجزر في المحيط الأطلسي. لكنهم حين وصلوا، أصبحت رغبتهم الوحيدة هي الهرب. ورغم أنهم جاءوا من الثلج البارد في أفغانستان، إلا أنهم لم يأتوا لأنهم شاهدوا ملصقاً سياحياً حيث كانوا. في الواقع، اشتاقوا إلى الثلج والجليد أكثر من شوقنا، نحن الذين نتعثر ونتزلق على الثلوج الذائبة، إلى الشواطئ المشمسة في جزر الهند الغربية.

أحد هؤلاء «السيّاح» كان أفغانياً مسناً يُحصي سنوات عمره، رغم عدم تأكده من تاريخ ميلاده بدقة، بحيث يكون عمره 105 أعوام. لم يكن متجهاً إلى وكلاء السفر حين ألقي القبض عليه، أعتقد أن الخطف هي الكلمة المناسبة، بالفعل هي الكلمة الوحيدة المناسبة لوصف ما حصل له، ذلك أنه كان في طريقه إلى عيادة الطبيب. فايز محمد يتذكر: «في اليوم الذي اعتقلت فيه كنت مريضاً جداً، لذلك ذهبت لرؤية الطبيب في البلدة. ثمّ هبطت بعض المروحيات. اعتقلوا كل شخص وجدوه وبدءوا باستجوابنا. اعتقالي وسجني ظلم وقسوة. أنا لم أرتكب أي أمر خاطئ. قلت لهم الحقّ، ثم عصبوا عيناي... أنا لا أعرف لماذا اعتقلني الأمريكيون، أنا مجرّد رجل عجوز»[32].

فايز محمد ليس المواطن المسن الوحيد الذي اعتُقل ووضع في خلية صغيرة بدون أيّ تفسير، على بعد آلاف الأميال من الوطن. رجل في السبعينات سُحب من فراش مرضه ثم أُرسل إلى «مخيم الاشعة السينية» في ذلك الهجوم نفسه[33].

من هناك، لن يتمكنوا من تقدير جمال خليج غوانتانامو، القاعدة الأمريكية المستأجرة من الحكومة الكوبية؛ لن يشاهدوا شواطئ الرمل الأبيض المزينة بأشجار جوز الهند وحقول الصبّار والقطن التي تنمو على طول الشاطئ الجميل. الكثير منهم سيكونون خاضعين للحرمان الحسّي، محرومون من رؤية الشمس. هل عرفوا حتى اسم الأرض والبلد الذي جُلبوا إليه؟

محمد صغير، الباكستاني الذي أفلس عمله التجاري العائلي بسبب غيابه، روى أن السجناء العرب ضُربوا بشكل سيئ جداً أصبحوا في حالة إغماء[34].

ما مشروعية كل ذلك؟ هل تستطيع أي دولة الآن أن تدخل فقط وتلتقط العجائز وتسحبهم إلى خارج ذلك البلد؟ أم أن بعض الدول فقط تستطيع ذلك؟ أوه، حسناً، الولايات المتّحدة فقط. هدّئ من روعك يا هوميروس، إذا شعرت بالإهانة، فكّر برجل عجوز قبضت عليه حكومتك وسحبته من فراش مرضه في شتاء 2002، أو بالفتاة الصغيرة التي تركت لتموت مكسورة الظهر في الليل الشتوي البارد. هل يشمئز الناس من الأمريكيين بسبب أفعالهم هذه؟ نعم، يشمئزون. يشعرون بالقرف والاشمئزاز من الاغتصاب، النابالم، المواد السامة، التجسّس، الأكاذيب، وخطط اختطاف الطائرات وإلقاء اللوم على الآخرين بحيث تستطيع الولايات المتحدة شنّ الهجمات.

ما يثير مزيداً من السخرية حول المحتجزين على هذه الجزيرة؛ هو أن هذه الجزيرة هي التي خطّطت هيئة الأركان المشتركة لغزوها تحت حجة زائفة في العام 1962، وكان المخطط سيُنفّذ، لو لم يكن هناك رئيس لديه بعض الإحساس كي يوقف العملية برمتها، وربما كان موقفه ذاك هو الذي أودى بحياته. من قتل أفراد عائلة كينيدي؟

ربما لن نعرف الجواب أبداً. وهي، بعد كل شيء، ليست القضية الملحة الآن. ما لدينا هو بلد تعرّض لهجوم، ومواطنو ذلك البلد، بالإضافة إلى تسعة مواطنين بريطانيين، حجزتهم شركة تجني مالاً كثيراً من الحرب، سواء ربحت الولايات المتحدة أم خسرت. هل هذه حرب؟ هل هؤلاء الرجال مجرمو حرب، أم أنهم نظروا إلى شخص ما بطريقة خاطئة؟ هل هناك أي قوانين لم يعبث بها المنحرفون الذي سُمح لهم بقيادة أمريكا إلى حرب لا نهاية لها؟ وبعد أفغانستان، والآن العراق، من هو التالي؟

نصف حياة، موت بطيء

إن استعمال اليورانيوم المنضّب هو أحد أسوأ الأشياء التي اقترفتها أمريكا، وربما أتى في المرتبة الثانية من حيث السوء بعد تدمير فيتنام الشمالية بالعميل البرتقالي (مبيد الديوكسين)،

الذي ترك تلك البلاد تعاني الموت حتى الآن بسبب تشوّهات الولادة والسرطان. حين تبين أن اليورانيوم المنضّب استُعمل في أفغانستان، لم يحظ الأمر بكثير من التغطية الصحفية، هذا إذا ذكر أصلاً. وحيث أن هذه المادة تجعل الناس يموتون ببطء، لم تظهر في أول الأمر ولم ينتبه إليها أحد، والإشارات حول استخدامها مرّت دون أن يلاحظها العديد من المراقبين الذين كانوا مشغولين جداً بمراقبة الدماء التي أريقت بكثرة. التغيير في لون البشرة، الترف الداخلي، الضحايا من البشر والحيوان الذين تُركوا ليموتوا ببطء، موتاً متدهوراً، ربما كان هذا هو الشّيء المفقود في صور الأطفال القتلى. حتى الطيور عانت من ذلك، شوهدت بعض الطيور وهي شبه مخدّرة على أغصان الأشجار والدم يترّ من مناقيرها. بينما كان ذلك يحدث، خُصّص مزيد من الاهتمام والانتباه لحالة أنف مايكل جاكسون والحفلات التي يقيمها مرتدياً ثياب النوم أكثر مما خُصّص للحديث عن استعمال اليورانيوم المنضّب. حين بدأت التغطية الإخبارية لهذا الموضوع، عبر فريق أخبار بريطاني، ظهرت الرسالة التالية في موقع unansweredquestions.org على شبكة الوب وقد كتبها محارب سابق:

كل هذه الشكاوى ضد الولايات المتحدة التي تحاول إبادة القليل من البعوض، هي شكاوى مقرفة. وكمحارب سابق، يمكنني أن أرى قيمة الحملة الصليبية وتأثيرها. على سبيل المثال، الناس ينزعجون من هذه السمة الأخيرة للحرب، لكن أنظر إلى الصورة على المدى البعيد. أفغانستان تتعلّم الدرس الآن، واستعمال اليورانيوم المنضّب، والذي قُصد منه ترك علامة دائمة، يعتبر تحذيراً لكل العالم كي يعتبر البعض الآن ويتوقّف عن لعب دور القرد الشاطر. هذه هي الطريقة المناسبة لتحقيق النصر. لسنوات وسنوات، هذه المادة ستترك الكثيرين من أعداء أمريكا يعانون نزيفاً داخلياً، من النوع الذي يجعل المرء يفكر بأولئك «الليبراليين ذوي القلوب الدامية»! إن استخدام هذا السلاح يضع حجر الأساس الذي لم تستطع العديد من الوسائل الأخرى وضعه. هذه المادة لن تُستخدم ضد أعدائنا في أفغانستان فقط، بل يمكنها أن تكون رادعاً جيداً بالنسبة لأولئك الذين ليسوا معنا؛ وربما ينبغي تلقين القوّات البريطانية، التي تريد تحريض ومساعدة العدو بإهدار الوقت وأموال دافعي الضرائب من خلال تقديم العناية المجّانية بأسنان الأفغان الصغار، درساً مفيداً بهذه المادة، حينئذٍ سيعيشون ويموتون في وطنهم كما عاش ومات رمز السلام والتحضر جون لينون. هكذا ينبغي التعامل مع أولئك الذين ليسوا معنا، سواء كانوا إرهابيين من ذوي البشرة السمراء أم من أولئك الذين يرفعون العلم

البريطاني. يا دعاة الحب والسلام، هذا عالم جديد، نحن لسنا بحاجة إلى ملكة لا يمكن انتقادها. هل استوعبت الصورة؟[35]

من غير المنصف الاقتباس من هذا المتشدّق فقط واعتباره صوت الشعب الأمريكي، وهو ليس كذلك. ومن حسن الحظ أن شخصاً آخر عبّر عن رأي مختلف ومناقض، وفي نفس الموقع:

كمحارب سابق في الجيش الأمريكي، أنا أود أن أشير إلى أن السؤال أعلاه لا يمثّل رأي كل مواطن أمريكي أو كل ضابط في الجيش. في صفوف القيادات العليا هناك بضعة مجانين، ولسوء الحظ، كلنا ننتهي مضطرين إلى التعامل معهم، وفي بعض الأحيان نتلقى الأوامر منهم. الحقيقة المرة والمحزنة هي أن الولايات المتّحدة استعملت اليورانيوم المنضّب في هذه الحرب، ويجب القول بأنّ هذا الأمر مقزز ومثير للاشمئزاز. على أية حال، استخدام هذه المواد تم بناء على أوامر القيادات العليا، والجنود الذين استخدموها تعرضوا لمخاطر صحية، وفي معظم الأحيان لم يتم تنبيههم إلى تلك المخاطر. علّمونا الكلمات التالية: «لا يمكنني أن أؤكد أو أنفي وجود الأسلحة النووية...» معظمنا يظل في جهل تام بالنسبة إلى مقادير وأمكنة استخدام المواد المشعة. بالتأكيد، آل بوش ليسوا مضطرين للتعامل مع هذه المادة، وسجلهم العسكري هو أسوأ سجل يمكنك العثور عليه. البوشين، الأب والابن، سُرّحا من الخدمة، وفي رئاسة بوش فقط استُعمل اليورانيوم المنضّب. من الناحية العسكرية، استعمال اليورانيوم المنضّب يعادل رمي حمض الأسيد في وجه طفل رضيع. أرجو أن تعلموا أن الجنود الأمريكيين ليسوا جميعاً مشحونين بهذا المخيف ضد المدنيين الأفغان، لكن ذلك حدث تلبية لأوامر بعض الأولاد المحظوظين ذوي الامتيازات الأغنياء الذين أعطوا الأوامر الغير قانونية لارتكاب هذا العمل. سؤالي هو أين جميع الضبّاط الذين يفترض بهم أن يعلنوا أن هذا العمل يعتبر خزياً للزي العسكري، ويقفوا دفاعاً عن بلادهم وعن زيّهم العسكري؟[36]

غزو ذلك البلد واحتلاله ترك العديد من الجروح، وإذا كان الوقت هو الدواء الشافي، فكم من الوقت تحتاج المواد المشعّة كي تصبح خامدة. أتمنّى أن يبادر كل بلد في العالم أخذ العبرة وتدوين الملاحظات حول ما يجري بالفعل والعمل على منع المزيد من الكوارث والأضرار. أفغانستان يمكن إعادة بناءها في السنوات القادمة، لكن هناك بعض الأضرار التي لا تستطيع إصلاحها اليد البشرية، ولا يمكن تبريرها أبداً.

أمنيتي لمواطنين هذا البلد هي أن يتمكنوا من العودة إلى حياتهم المعتادة بأسرع ما يمكن، بعد طرد آل بن لادن وآل بوش من بلادهم.

السلام.

---

(1) Grey, John Alfred. *My Residence at the Court of the Amir.* London, 1895. pp. 193-197
(2) Ib.. pp. 197-198
(3) Ib.. pp. 199-202
(4) Paludan, Knud. *On the Birds of Afghanistan.* Copenhagen, 1954.
(5) Ib.
(6) Ib.
(7) *Daily Mirror,* 29 October 2001
(8) Ib.
(9) Ib.
(10) Ib.
(11) Ib.
(12) *The Guardian,* 25 October 2001
(13) *Evening Standard,* 18 April 2002
(14) *The Guardian,* 16 April 2002
(15) *The Times,* 2 July 2002
(16) Ib.
(17) *Metro,* 10 July 2002
(18) *Independent,* 2 August 2002
(19) *Pravda,* 4 August 2002
(20) *Independent,* 6 August 2002
(21) *The Guardian,* 19 August 2002
(22) http://wsws.org/articles/2002/sep2002/news-504.shtml
(23) Ib.
(24) *Daily Telegraph,* 5 June 2002
(25) *Christian Science Monitor,* 6 June 2002
(26) http://www.unansweredquestions.org/topic.php?tid=57
(27) Pers. comm. from George B. Marcheur
(28) *Independent,* 2 August 2002
(29) Ib.
(30) Ib.
(31) *Evening Standard,* 23 August 2002
(32) *The Times,* 30 October 2002
(33) Ib.
(34) http://www.rense.com/general31/orde.htm
(35) http://www.unansweredquestions.org/topic.php?tid=57
(36) Ib.

شرق جنة عدن

اسم «العراق» ربما كان مشتقاً من اسم مدينة قديمة اسمها «إيريك»، والذي يعني «الجذور». العراق الآن دولة غنية بالنفط ومساحته كمساحة ولاية كاليفورنيا، وسكانه يقدّرون بخمس وعشرين مليون نسمة، والبعض يزعم أن العراق هو المكان الذي كانت فيه جنّة عدن. يعتقد البعض أنها كانت قرب بلدة اسمها القرنة، عند ملتقى نهري دجلة والفرات. وفي القرنة توجد شجرة كالبتوس، ويقال أن آدم كلّم ربّه من هذا الموضع عند هذه الشجرة؛ وهذه الشجرة ميتة الآن[1].

في العهد القديم، تكرر ذكر هذه الأرض كثيراً، وفي هذه الأرض قضى اليهود سنوات طويلة من السبي. بابل ونينوى هما المدينتان الأكثر شهرة، والأخيرة هي التي أُرسل إليها النبي يونس. بعثته كانت ناجحة، حيث ارتدع الناس عن ارتكاب الذنوب وتابوا وأصلحوا أمرهم.

العديد من الأجناس والأعراق مرت في العراق وتركت أثرها فيه، ومن ضمنهم الأتراك، العرب والأكراد. بالنسبة للأكراد، يذكر الكاتب سيد محمد المنجلي الذي عاش في القرن العاشر، أن الأكراد سكنوا في بلاد ما بين النهرين. وهم، مثل الأتراك والعرب زاولوا صيد الصقور، ويذكر الكاتب نفسه أن صيد الصقور انتقل من العراق إلى الجنوب. يتحدث

المنجلي عن بغداد التي كانت آنذاك المدينة الرئيسية، ويزعم أن الذي بناها هو داد ابن خسرو. «ابنه هو الذي أعطى اسمه لبغداد، وبغداد مشتقة من الكلمة الفارسية «بغ»، ومعناها حديقة، وألحق بها اسم ابن خسرو «داد». الله ضمن لهذه المدينة الازدهار»[2].

الازدهار حدث، في غالب الأحيان، وقد بنيت هذه المدينة كما بنيت العديد من المدن الرئيسية الأخرى على ضفتي نهر جار. يقال أن مياه هذا النهر، دجلة، تحولت إلى اللون الأحمر لكثرة الدماء التي سفكها المغول يوم دخلوا بغداد عام 1258، ثم أصبحت بعد ذلك سوداء اللون، من حبر الكتب التي ألقوها في النهر. مدينة أخرى، هي الكوفة، بنيت في القرن السابع وكان أول مدينة للمسلمين في العراق؛ وفي هذه المدينة قُتل علي [ر] ابن عم النبي محمد [ص] وصهره. ابناه، حسين وعباس، حاولا الانتقام لمقتله سنة 680 ميلادية، لكنهما لم ينجحا في ذلك. دفنا مع آخرين في كربلاء، وأصبحت قبورهم مقامات مقدسة لدى الطائفة الشيعية. هذه الطائفة هي الغالبة في العراق، لكن الشيعة يشكّلون ما نسبته 10% أو أقل من مجموع المسلمين في العالم.

الأتراك العثمانيون، وهم مسلمون يتبعون المذهب السنّي وهو المذهب الذي يشكّل 90% تقريباً من مجموع المسلمين، استولوا على بغداد عام 1534، وقسّموا العراق إلى ثلاث محافظات هي البصرة وبغداد والموصل. في الحرب العالمية الأولى، تعرّضت البصرة لهجوم من قوات التحالف، والتي وصلت بعد ذلك إلى بغداد عام 1914. بعد قتال عنيف، هُزم الجنرال البريطاني تشارلز تاونزهيند؛ ولا تزال قبور جنوده موجودة هناك حتى اليوم. تلى ذلك هجوم عنيف شنه اللواء السّير ستانلي مود، الذي نجح في احتلال بغداد. جيرترود بيل المشهورة، المرأة الإنجليزية المتعلّمة جيداً والتي تعتبر خلاصة الطبقة الإنجليزية الراقية، ذهبت بنفسها إلى العراق في جولة لإحلال السلام. لم يمض وقت طويل على إعلانها النجاح في مهمتها أمام الجنرال أيلمير هالدن حتى اندلع التمرد عام 1920.

في السنة التالية شجّع البريطانيون على البدء بإجراءات الاستقلال، فاستطاع العراقيون اختيار ملكاً عليهم. فيصل الأول، الرجل اختير ملكاً، كان أحد الذين قادوا التمرد ضد الأتراك، والقرار الذي اتخذه البريطانيون بالسماح له بتولي العرش كان قراراً حكيماً لقي

ترحيباً وتقديراً من قبل السكان. دام الحكم الملكي حتى عام 1958 حين خُلع وقتل ابنه فيصل الثاني وتلا ذلك عقود من الاضطراب.

خلال عهده الذي استمر ستّ سنوات، حدث أمر صغير سيتم بناء عليه تقرير مصير العراق إما إلى الأحسن أو الأسوأ، وكان ذلك هو اكتشاف النفط في كركوك. في ذلك الوقت، لم يكن العالم قد بدأ بالاعتماد كلياً على هذه المادة. كان الديزل مستعملاً على نطاق واسع، بالإضافة إلى الإيثانول وهو مصدر من مصادر الطاقة متوفر بسهولة وهو أنظف بكثير من مشتقات النفط. في أمريكا أنشأ هنري فورد مصنعاً لتقطير الإيثانول من القنب ومن نفايات المزارع، وكان في نيته استعماله في تشغيل السيارات التي يصنعها[3]، وهي رؤية كانت ستُجنّب أمريكا الكآبة والإحباط. على أية حال، أناس مثل أندريو ميللون، الذي كان أغنى رجل في البلد ووزيراً للخزانة في نفس الوقت، حرصوا بشدة على أن تستخدم أمريكا النفط كمصدر للطاقة، والنفط كان هو مصدر أمواله. العامل الآخر في ازدياد الطلب العالمي على النفط كان اكتشاف والاس كاروثرز مادة جديدة، النايلون. هذه المادة وغيرها من المنتجات الصناعية، كانت تصنعها في الغالب شركة «دوبونت»، كثّفت الطلب على النفط الخام.

إن الثروة النفطية في العراق اليوم تُقدّر بثلث الاحتياطي في العالم، وقد أثار ذلك حسد أولئك الذين اعتادوا على امتلاك هذه المادة لتسهيل حياتهم. ثمّ، وكما في الماضي، هناك القوى التي تقوّض وتعيق كل تحرّك يؤدي إلى التحول نحو استخدام الإيثانول وغيره من مصادر الطاقة، وذلك لإجبارنا على استهلاك النفط، الذي يشعل محركات السيارات ويشعل الحروب. في منتصف الخمسينات، سعت كل شركة نفط دولية رئيسية لإثبات وجودها في العراق، والدسائس التي حيكت في هذا السباق المحموم للبحث عن الذهب الأسود ملء ذلك البلد بالجواسيس والعملاء. عام 1959 قال ألن دالاس، الذي أصبح لاحقاً مديراً لوكالة المخابرات المركزية: «العراق هو اليوم البقعة الأكثر خطورة على وجه الأرض»[4].

الصراع للسيطرة على النفط كان بالفعل صراعاً على مستوى العالم. وإدراج العراق ضمن حلبة صراع السيطرة على النفط قد يرجع إلى شخص أرمني، كالوستي غلبنكيان، الذي أنشأ شركة النفط التركية عام 1914، بناء على قناعته بوجود النفط على طول مجرى نهر دجلة.

بعد الحرب العالمية الأولى، نجحت أمريكا، التي كانت تسيطر آنذاك على 82% من إمدادات النفط العالم، بفرض نفسها عنوة في معاهدات السلام والحصول على 20% من شركة النفط التركية[5]. شركات النفط الأمريكية «إسّو»، «غلف»، «تكساكو» و«موبيل»، وبتشجيع من واشنطن، انطلقت نحو العراق. أصرّت أمريكا أيضاً، ضد بنود الاتفاق الأصلي مع غلبنكيان، على تجاوز شركة النفط التركية في البحث والتنقيب ضمن ممتلكات الإمبراطورية العثمانية السابقة. رُسم خط حول ما اتُفق على أن يكون حدود الإمبراطورية العثمانية، وهذا الخطّ، المعروف بـ«الخط الأحمر»، تضمّن العراق؛ ثم أُنشئت شركة نفط العراق، وقد خدمت تلك الشركة حاجات المستثمرين الأجانب بطريقة فعّالة. ثورة 1958 أدت إلى تغيير ذلك الواقع، وفي عام 1961، صدر القانون 80 الذي أدى تأميم النفط. إنتاج النفط في العراق نادراً ما وصل إلى قمّته، وقد ساهم عدم الاستقرار السياسي في هذا الأمر. عندما وصل حزب البعث إلى السلطة عام 1968، عولجت مشاكل إنتاج النفط فزاد الإنتاج وانتظم التصدير.

ولد صدام حسين في 28 نيسان (أبريل) 1937 في قرية العوجة في شمال العراق. ربته أمّه التي تزوّجت من إبراهيم الحسن؛ وهكذا ترعرع الزعيم المستقبلي تحت كنف زوج الأمّ فأصبحت قصص الطفولة البائسة جزءاً من سيرته الذاتية المقدسة. بالنسبة لصدام، كانت تلك النشأة نقطة إيجابية لصالحه، ذلك أنه يميل إلى مقارنة نشأته كيتيم بنشأة النبي محمد [ص].

بالرغم من ادعائه عكس من ذلك، كان لعائلة صدام دور كبير في صعوده إلى قمة السلطة. بعض أقربائه كانوا ضبّاطاً ذوي رتب عالية في الجيش وعملوا في السياسة في بعض الفترات، وبدعمهم استطاع صدام دخول المسرح. لم يخدم صدام في الجيش، وهذه ميزة مشتركة بينه وبين أشخاص مثل دونالد رمسفيلد وطوني بلير.

عام 1957، انضمّ صدام إلى حزب البعث، الذي ينادي بوحدة ومجد القومية العربية. ارتقى سلم المناصب بسرعة فائقة، ربما بسبب اشتراكه في محاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم. وصل قاسم إلى السلطة عام 1958 وخُلع منها بانقلاب عسكري عام 1963، بعد أن ارتكب خطأ التقليل من قدرات وكالة المخابرات المركزية، التي قدمت المساعدة لمعارضيه. جيمس كريتشفيلد، الذي أصبح لاحقاً رئيساً لوكالة المخابرات المركزية في المنطقة، أخبر المؤلفين

أندرو وباتريك كوكبورن حول شعور الأمريكيين حيال تنظيم المفاجأة الدامية لقاسم: «كنا منغمسين فعلاً فيما حدث... وقد اعتبرنا ذلك نصراً عظيماً»[6]. وقد قيل أن ذلك الانقلاب كان الانقلاب العسكري المفضّل لدى وكالة المخابرات المركزية. وضع ذلك الانقلاب حزب البعث في الحكم. ولا تزال الوكالة منذ ذلك الحين تبذل جهوداً فعّالة لإزاحة ذلك الحزب من السلطة.

وصلنا إلى السلطة على قطار وكالة المخابرات المركزية. علي صالح السعدي، من قادة حزب البعث[7].

النظام الجديد، الذي جاء إلى السلطة بمساعدة وكالة المخابرات المركزية، كان نظاماً شديد الطغيان وعديم الرحمة. رئيس الوزراء الأول كان ابن عم صدام، العميد أحمد حسن البكر. شارك صدام في السلطة كنائب للرئيس البكر وساعده بإخلاص حتى العام 1979، عندما استقال البكر واختار صدام خليفة له. حين تولى السلطة وأصبح رئيساً للجمهورية، تخلص من جميع الذين عارضوه أو الذين خشي من معارضتهم له فأعدمهم جميعاً. في تلك السنة نفسها، كانت السياسة في إيران دامية أيضاً حيث عاد آية الله الخميني من المنفى كي يُسقط الشاه عن عرشه، فاندفع المسلمون الشيعة لاحتلال السفارة الأمريكية في طهران.

مع توقّع أحداث مماثلة في العراق، شعر صدام في بادئ الأمر بخطورة الوضع، لكن الأصوليين الذين خشي من هبتهم ضدّه لم يكتسبوا زخماً كافياً. ألقيت بعض القنابل، لكن بشكل عام، لم يرغب العراقيون بتغيير النظام القائم. ذلك النظام الذي هو في الحقيقة نظام صدام وشركاه. كانوا عصبة سيئة، لكنّهم كانوا يحوّلون البلايين لصالح التعليم المجّاني لكل المواطنين حتى مستوى الدكتوراه[8] وأنشئوا بنية تحتية من الدرجة الأولى. لم يكن قادراً على توحيد المسلمين السنّة والشيعة فحسب، بل تمتّع بدعم الطوائف المسيحية أيضاً، وتلك الطوائف كانت ضدّ الغزو العسكري عام 2003[9]، مما سبب حرجاً شديداً لبوش و« الصليبيين الجدد».

في الستّينات، لبست النساء الفساتين القصيرة[10]، بينما كان الطلاب يستمعون إلى موسيقى جون لينون ومايك جاغر. ربما كان صدام هو الذي شجّع نزعة اتباع أسلوب الحياة الغربية،

خصوصاً فيما يتعلّق بالكحول، وهو العامل الذي قد يكون أحد الأسباب التي دفعته لمهاجمة إيران. تحت تأثير زجاجة الخمر وبوجود تجار الأسلحة عن يمينه ويساره، بدا هذا القرار وكأنه أقرب إلى المزحة. غباءه سبّب اشتعال حرب طويلة ودامية، وكانت ممتازة لتجّار الأسلحة، لكنها مدمّرة بالنسبة للعراق. تدنّت مستويات الحياة بشكل مريع، واضطرت الدولة إلى بيع النفط لدفع تكاليف الحرب بدلاً من الإنفاق على الاحتياجات المعيشية للسكان. لم يتصف صدام بالحكمة في تعامله مع وكالة المخابرات المركزية، و«دو بونت» و«براون آند روت». ولو أنه تعلّم بضعة دروس في التاريخ فربّما استطاع تفادي قضية الحرب برمتها، ولو أنه تمعّن في دور شركتي «جنرال موتورز» و«دو بونت» في تسليح هتلر في الثلاثينات، ثم استقرتا بعد ذلك مرتاحتين في أمريكا تجمعان المال بينما الملايين يذبحون. صدام، على أية حال، لم يكن يقرأ الكتب ولم يكن يأخذ بالنصائح، يحب الدراما، ويحب معالجة الأمور على طريقته الخاصة، وهو كان أحمقاً سهل الانخداع بحيث يمكن استغلال نقاط ضعفه.

ربما كانت الولايات المتحدة هي التي أنهت تلك الحرب بحادثة معيّنة، حين قتلت 290 مدنياً عام 1988 بإسقاط طائرة مدنية إيرانية كانت متجهة إلى دبي. رأت إيران بأن اللعبة ذهبت بعيداً جداً وقامت بعمل شريف فوقّعت اتفاق وقف إطلاق نار في 8 آب (أغسطس) 1988. وضع ذلك الاتفاق نهاية لسنوات من القتال المرير، التي تضمّنت استعمال الغازات السامة؛ ورغم أن وقف الحرب كان خبراً ساراً بالنسبة لسكان الخليج، إلا أنه كان ضربة فادحة بالنسبة لتجّار الأسلحة الذين كانوا يجلسون مسترخين يراقبون ثرواتهم التي تزداد تضخماً مع كل يوم من أيام الحرب. استقلوا طائرة وأتوا، وكنت برفقتهم، واجتمعوا مع وزير كويتي لينصحوا بالقيام بعمل عسكري[11]. الاجتماعات السرية التي عقدها وكالة المخابرات المركزية مع أحد البلدين من وراء ظهر البلد الآخر حدثت في الوقت المناسب بالنسبة لحملة أسهم شركات صناعة الأسلحة، وصدام قد يكون لاحظ اليد الخفية التي تحرك الأمور. في العام 1990 قال: «إذا لم يستيقظ سكان الخليج – والعالم العربي بأسره– فستصبح هذه المنطقة تحت حكم الولايات المتحدة إلى الأبد»[12].

اشتد النزاع الحدودي[13] حين حرّك صدام الحرس الجمهوري نحو الجنوب. في تموز (يوليو) 1990، صرحت السفيرة الأمريكية في العراق مؤكدة بأن أمريكا ليس لديها رأي في هذا النزاع. أخذ صدام ذلك القول بمعناه الظاهري وقرر زيادة حماقته بمهاجمة الكويت. حينئذٍ تحركت الولايات المتحدة، ودعت إلى تحالف عالمي ضدّ العراق، وهو التحالف الذي كان من سهل جمعه أمام مشهد البلد الكبير والقوي الذي هاجم بلداً صغيراً وضعيفاً مما زاد في غضب الرأي العام ووقوفه ضد صدام. وإذا كان المشهد يحتاج إلى بعض الهتافات الحماسية وصيحات التشجيع، فيمكن استبدال المشجعين ومثيري الحماسة بشابّتين جذّابتين ترويان القصص عن الجنود العراقيين الذين يسحبون الأطفال من الحاضنات ويدوسون عليهم. واحدة منهما كانت ابنة السفير الكويتي في واشنطن، والتي لم تكن حتى قريبة من الكويت في ذلك الوقت، بل كانت تمتّع نفسها في باريس. الفاتنة الأخرى التي اعتقدت بصواب سرد الأكاذيب على الأمريكيين كانت زوجة وزير الإعلام الكويتي[14]. ربما اعتقدتا بأن ما كانتا تفعلانه هو نكتة جيدة، لكن، ما الذي حصل عليه مئات الآلاف من الجنود الذين عادوا وهم يعانون من مشاكل صحية؟ بالتأكيد لم يحصلوا على الضحكات والابتسامات من هاتين الجميلتين، وأولئك الجنود في الحقيقة أهملتهم وتجاهلتهم حكومتهم. سكوت ريتر، الرائد السابق في سلاح البحرية الأمريكي والذي آلمه ما أصاب أولئك الجنود، وصفهم باعتبارهم «أولئك الذين ارتدوا لباسنا العسكري الرسمي، الذين دافعوا عن بلادنا في أوقات الحرب، فكيف تُهملهم حكومتهم»[15].

بالإضافة إلى ربع مليون محارب ممن شاركوا في حرب الخليج وأصيبوا بأمراض مختلفة، عانى عدد أكبر من الأطفال العراقيين من تأثيرات اليورانيوم المنضّب في وطنهم. استعملت هذه المادة ضد المدنيين من قبل إدارة بوش عام 1991، ولا يزال الكثيرون يموتون بسبب تلك المواد في بلد حُرم من الإمدادات الطبيّة. «هذا ما فعله الأمريكيون بنا. هذا هو تأثير القنابل التي أطلقوها علينا. ها هي النتيجة تظهر الآن. أمريكا تتحمل المسئولية عن موت أطفالنا»[16]، قالت نجاة سالين؛ ابنها البالغ من العمر خمس سنوات يعاني من سرطان المعدة. «بوش يريد إيذاءنا أكثر. ماذا يريد أكثر من ذلك؟ هل بقي لديه شيء لم يفعله؟... كل هذا الدمار

والعقوبات والأمراض ألا تكفي؟ ماذا فعلنا له، نحن لم نؤذه و لم نهاجمه»، كانت تلك هي الحقائق الباردة التي نطقت بها أم عراقية أخرى، غازية رشيد[17].

قاتلونا بكل الوسائل التي تؤذينا. أطفالنا أمّيون وسيئو التغذية ومعاقون. خلال ستّة أسابيع في المستشفى رأيت ثمانية أطفال يموتون. الأمريكيون لا توجد رحمة في قلوبهم. شيرا خليل، أم لطفل عمره أربع سنوات، مصاب باللوكيميا[18].

أُجبر العراق على التنازل وتفكيك برامج أسلحته. الحصار الذي فُرض على العراق منذ ذلك الحين تسبّب في وفاة عدد كبير من السكان، وأضعف هذا البلد بحيث لا يمكنه تكرار حرب الخليج. تزايد الغضب بسبب استعمال اليورانيوم المنضّب في الهجمات مما سبّب مشاكل صحية دائمة، ومورس إذلال آخر على العراق على شكل صدقة، من خلال إلقاء علب الغذاء التي تحتوي على لحم الخنزير فوق المناطق الكردية[19]. أثناء الهجمات، قام وكلاء الاستخبارات الدفاعية الأمريكيين، الذين يضعون شارات تحمل عبارة «الشيطان الأكبر»، باستجواب العراقيين، وكانوا يصافحونهم بالأيدي ليتمكنوا من فصل الضبّاط عن المجنّدين[20]، وبعد ذلك يتم تجنيد الضبّاط وإغرائهم بالمجيء إلى الولايات المتحدة للمساعدة في تقديم المعلومات عن النظام. العديد من هؤلاء الضبّاط السابقين عاشوا حياة ترف في الولايات المتحدة، ولفّقوا بمنتهى المكر حكايات زائفة وأكاذيب تم استغلالها منذ ذلك الحين ضد وطنهم الأصلي.

حين سُمح للأمم المتحدة بإرسال المفتشين إلى العراق، ظل صدام يتظاهر أحياناً بالحماقة ويحاول أن يخفي الأسلحة التي يملكها. فرق التفتيش، بقيادة السويدي رالف إيكيوس والأمريكي سكوت ريتر[21]، كانت يقظة جداً و لم تنطل عليها ألعابه فدمّرت بشكل منظّم جميع الأسلحة المحظورة التي بحوزته. وفي الحقيقة أصبح الأمريكي ريتر لاحقاً أحد أعنف معارضي بوش، إلى درجة أنه نعت رئيسه السابق في لجنة مفتشي الأمم المتحدة بالكذاب[22].

قبل ملايين السنوات من ظهور الإنسان على الأرض، جابت زواحف كبيرة هذه الأرض وتركت بقاياها في باطن الأرض، والتي تحوّلت بمرور الزمن إلى نفط. في الفترة الأخيرة، كان مشغولاً بالحفر والتنقيب عن بقايا تلك الزواحف، أو النفط. وربما كان من الأفضل ترك

الزواحف نائمة بسلام، وأن نستعمل بدلاً من ذلك مصادر الطاقة المتوفرة بين أيدينا. آدم، أبو البشر، حذّرنا كثيراً، لكنّنا، مثله، خُدعنا وكذبت علينا أبرع المخلوقات، السياسيون وحلفائهم.

هل سنصغي إلى الحقيقة هذه المرة، أم أننا سنصدّق أكاذيبهم ونسمح لهم باستغلالنا كما فعلوا مع صدام حسين؟ هذا سؤال صعب، وينبغي علينا العودة إلى ماضينا واستخلاص العبر منه كي نتمكن من الإجابة على هذا السؤال. هناك بعض القيم والمثل التي تمكّننا من وضع الأفعى حيث ينبغي لها أن توضع، وربما أمكننا أيضاً أن ندوس بأعقابنا على رأسها بحزم وقوة، كما فعل آدم. هذا هو التحدي الذي يواجهنا، ليس بالنسبة للأرض التي كانت مرة موطن الجنة فقط، بل في كل مجتمعاتنا المختلفة وفي حياة كل فرد منا.

---

(1) http://www.rense.com/general37/waste.htm
(2) El-Mangali, Sid Mohamed. *Traite de Venerie.* Paris, E. Dento, 1880. p.111
(3) Conrad, Chris. *Hemp: Lifeline to the Future.* LA, Creative Xpressions, 1994. p.9
(4) Sampson, Anthony. *The Seven Sisters.* London, Hodder & Stoughton, 1975. p.65
(5) Cockburn & Cockburn, p. 83
(6) Cockburn, Andrew and Patrick Cockburn. *Saddam Hussein: An American Obsession.* London, Verso, 2002. p. 74
(7) Ib, p. 74
(8) *The Big Issue,* 21-27 April 2002
(9) http://www.lewrockwell.com/orig3/chancy1.htm
(10) *The Big Issue,* 21-27 April 2002
(11) Cockburn & Cockburn, p. 83
(12) Ib. p. 84
(13) Prestowitz, Clyde. *Rogue Nation.* NY, Basic Books, 2003. p. 212
(14) http://www.rense.com/general30/sdee.htm
(15) CNN.com 17 January 2003
(16) Nakhoul, Samia. Essay posted on Reuters/Alternet, 25 October 2002
(17) Ib.
(18) Ib.
(19) Cockburn & Cockburn, p. 118
(20)

استناداً إلى حديث شخصي مع جون فون هويل. جون هذا هو ضابط المخابرات العسكرية الذي كتب «الدليل المعياري لاستجواب السجناء المسلمين». كانت أيدي الضباط ناعمة، على العكس من أيدي المجندين الخشنة. كانت أساليبه في الاستجواب بسيطة وفعّالة، ورغم أن الغايات التي كان يسعى خلفها كانت ملوثة ودنيئة، إلا أنه كان الضابط الأكثر إنسانية الذي أرسل لجمع المعلومات الاستخبارية؛ استطاع كسب ثقة العديد من الضباط الأمريكيين.

(21) Cockburn & Cockburn, pp. 96-238
(22) *The Daily Telegraph,* 17 September 2002



الحرب على السلام

الخبرة والممارسة التي تعود إلى قرون طويلة في قرع طبول الحرب وفّرت للغشّاشين مهارات فائقة في إثارة الجماهير، وتجّار أسلحة تعلّموا بدقة متى يظهرون في الجوقة ويبدءون عزفهم المنفرد. يعرفون أيضاً متى يتراجعون، آخذين معهم أرباح هذه الحفلة ومنسحبين خلف الكواليس للتمتّع بالأرباح الطائلة التي جنوها، بينما يدفن جيل من البشر موتاهم.

لا يحتاج الأمر سوى إلى جمهور حساس لتحريكه والتحكم به عن بعد، ثم يجلس مثل كولن سميث، الشخصية السينمائية في فيلم توني ريتشاردسون الذي يحمل عنوان «وحدة عدّاء المسافات البعيدة»، أمام الشاشة ويضحك مثل القياصرة الصامتين الذين جعلوا من أنفسهم أضحوكة للعالم. بوش وهو يرتدي حذاءه الطويل يبدو كالمهرّج تماماً، جرّب الأمر بنفسك يوما ما وتأكد مما إذا كانت فكرة ريتشاردسون جيدة. القياصرة عبر العصور لم يودّوا أن يحدث ذلك، وكثير منهم كان يسيطر على وسائل الإعلام والصحافة بحيث يسمع الناس أقوالهم مهما كانت. السلطة التي تتيح الحصول على ردّ الفعل التلقائي وغير العقلاني ضرورية لهم ولأصدقائهم ذوي المناصب الدنيا الذين يبيعون أسلحة الدمار الشامل. وليام راندولف هيرست كان ماهراً في هذه الخدعة في أمريكا، وهي الخدعة التي قلّدها هتلر في ألمانيا فاستطاع إقناع المواطنين بتعطيل العمل بدستور ويمار.

في الولايات المتحدة، نذر المشرّعون أنفسهم للدفاع عن الدستور الذي وضعه أسلافهم في أواخر القرن الثامن عشر؛ وهو حجر الزاوية الذي يقوم على أساسه فخر الأمريكيين بوطنهم، وقد كسبت البلاد الكثير من التقدم والنجاح بواسطة هذه الوثيقة. الاستقرار والازدهار الطويل المدى كانا جزءاً من التاريخ الأمريكي، وذلك بسبب المبادئ التي ترسّخت وفُهمت جيداً واعتبرت «ثابتة». ليس هناك سلطة في الولايات المتحدة يُسمح لها بتجاوز الدستور، والمحاكم التي أصدرت أحكاماً تناقضه وجدت من يقف في وجهها، وفي أغلب الأحيان يتم نقض تلك الأحكام من قبل محاكم أعلى. الرئيس كان دائماً خاضعاً للدستور، وعلى عكس أمثلة الحكم الاستبدادي في التاريخ حيث الحاكم يتمتع بسلطة مطلقة، فالرئيس خادم الشعب ويتمتع بسلطات محدودة.

إن تحديد وتعريف السلطة هو الذي يميّز بين الحكومات الديمقراطية والحكومات الدكتاتورية. قلة من الناس تريد العيش في ظل الدكتاتورية، أو حتى تستثمر في بلاد يحكمها نظام ديكتاتوري. والأنظمة الديكتاتورية تتصف عادة بالتعذيب، التعصّب الديني، الغباء، انعدام الرعاية الطبية الوطنية والعديد من المشاكل الأخرى.

في القرون الوسطى، اعتمد النبلاء الإنجليز على العقل والبصيرة وحدّدوا سلطات الملك، مما أدى إلى سنّ قوانين ذات طابع أكثر ديموقراطية وإلى ازدهار أعظم وتقدّم ثقافي والعديد من النتائج الإيجابية الأخرى. من الجدير بالذكر أن هذه القوانين الدستورية التي حددت سلطة العرش خففت المعاناة عن الحكم الملكي ووضعت عبء المسئولية على العديد من الأكتاف ومنعت الملك من التصرف دون استشارة. تلك الضوابط جعلت الأمور تسير بيسر وسهولة لم يسبق لها مثيل، وبعد ألف سنة لاحقة تقريباً، لا تزال سلالة الملك الذي فُرضت عليه تلك القيود، لا تزال تتوارث الجلوس على العرش. الملكة الحالية، رغم منعها من القيام بالعديد من النشاطات بناء على قوانين وضعها البرلمان، إلا أنها تمارس نفوذاً سلمياً، وهي تجتمع أسبوعياً مع آخر عشر رؤساء للوزارة، كما أنها ترى فصول التاريخ البريطاني من منظور لا يمكن لأي رئيس وزراء أن يدّعيه. بالنسبة لأمور الحرب، كانت صاحبة الجلالة قوة خلف الكواليس؛ وهي ليست، كما يفترض الكثيرون، رقماً صامتاً، بل عارضت، في اجتماعاتها المنتظمة مع

رؤساء الوزارات، الحرب مراراً وتكراراً. عام 1982، بعد استعادة جزر الفوكلند من بعد الهجوم الذي شنّه الدكتاتور الأرجنتيني ليوبولد غالتيري، كان هناك كلام حول متابعة النزاع ومهاجمة الأرجنتين، وهو كلام صدر عن تجّار الأسلحة الذين ينتظرون انفجار الوضع كي يأتوا ويبدءوا بجني الأرباح. مرة ثانية أبدى القصر اعتراضه وفي الحقيقة لجم حماقة البعض في الحكومة المنتخبة[1]. لذلك أصبحت الملكة إليزابيث الثانية مكروهة من قبل مجموعات المستفيدين من اندلاع الحرب، رغم ما يقولونه علناً. البعض منهم دسّوا أنفسهم في الحكومة وفي المجتمع الملكي؛ وعلى هذا النحو، يمكنهم أن ينتظروا فرصة أخرى لتقديم كبش فداء على مذبح مصالحهم وإثارة حرب أخرى.

شرقآسيا = باسيفيكا = العراق = إيران = حرب لانهائية = أرباح لانهائية

كلّ يوم منذ 9/11 يُقدّم وجه أسامة بن لادن أو أشباهه إلى الجمهور كما يُقدّم الرداء الأحمر لمصارع الثيران. الحيوان الغاضب والمشحون لا يفكر في قواعد ودوافع اللعبة. يسمع تصفيقاً، لكنه لا يعرف السبب. مصارع الثيران بالكاد يتحرّك في هذا القتال الضاري، خفّة اليد هي المطلوبة فقط للسيطرة على الوضع. وإذا سيطر على الوضع مرّة، فسيتواصل المشهد التمثيلي المحيّر. يُغري الحيوان من جهة، ومن جهة أخرى يمنح المشاهدين الذين يضجون بالهتاف مشهداً أفضل وأشد إثارة. الحيوان يُهيّج ثانية، القرون برزت من مكامنها، وفي هذه الأثناء يكون الرداء قد استُبدل، وهو تحوّل لا يلاحظه سوى القليلون. في بادئ الأمر كان وجه أسامة مطبوعاً على قماش الرداء الذي يثير جنون الحيوان، لكن الوجه أصبح الآن وجه صدام، وهو الذي يثير الآن جنون الحيوان الذي يندفع بجسمه المتهالك نحو خصمه الذكي. آه، إنها إثارة المطاردة؛ ينبض الأدرينالين في الجسم أثناء انتقال الرداء إلى يد خصم آخر.

تخيّل حدوث هذا في ملعب خالٍ من الجمهور؛ ماذا لو اندلعت الحرب ولم يظهر أحد؟ سيكون ذلك سيئاً من ناحية الأرباح، كما هو الحال بالنسبة لأنصار السلام. ألا يهتم هؤلاء بإعالة شخص آخر؟ هل يريدون إعاقة عمل المستثمرين وحرمانهم من الاستفادة؟ مسكين السيد بوش، فبعد كل الوقت الذي قضاه من أجل تحويل أموال الضرائب الأمريكية إلى برامج حرب النجوم ورئاسته لمجلس إدارة مجموعة كارليل، لماذا يصرّ بعض الناس على السلام والحد

من التسلّح؟ شخص ما يجب أن يبدي تعاطفاً هنا، شخص ذو طبيعة مشابهة ورؤية مشتركة ويسرّه أن يرى أموال الناس وهي تنفق على هذه الألعاب أكثر من إنفاقها على جميع البرامج الحكومية الأخرى.

بالتأكيد. العالم، رغم كل شيء، ليس مكاناً بارداً وقاسياً إلى هذا الحد. وبالنسبة لشخص مستعدّ للانخراط في حملة صليبية طويلة وشاقة، سيجد رفيقاً في مكان ما في هذا العالم.

ميلوسوفيتش قد يكون غير متوفر، موغابي قد يكون مشغولاً، لكن هناك طوني بلير. الليبراليون قد يكون اسمهم سيئاً في بعض الأماكن، وربما أصبحوا مرتبطين كثيراً بالحشود من أجل السلام وما شابه، لكن بلير يمكن أن يكون أكثر فائدة حين يتعلق الأمر بجمع الكثير من المال للجمهوريين. لا يخشى الوقوف وحيداً، ويرغب في تجاهل استطلاعات الرأي التي تبيّن أن 92% من الجمهور البريطاني يعارض «الحرب» المقترحة على العراق[2]، كما يرغب بتقديم الدعم والمساندة لبوش، حتى مع الحديث حول مزاعم مقلقة تقول بأن 500 ألف طفل قتلوا في الهجمات التي شنّها الأمريكيون بالقنابل على هذا البلد، ومعظم تلك الهجمات شُنّت في عهد الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون الذي استرعى الانتباه بسبب علاقته الوثيقة مع طبيب مقيم في البيت الأبيض.

هل أضاف بلير إلى تأييده ودعمه لبوش بنداً يحرّم صيد الثعالب في العراق؟ فالرجل الذي لا يؤذي ثعلباً لا يمكن أن يكون سيئاً بالكامل، حتى لو كان أحد شركائه، الكاهن الأبرشي السابق جورج غلوفير، مدان بجرائم ضد الأطفال. يقال لنا أن بلير سيشن الحرب لإنقاذ الأطفال، ولهذا، دعونا فقط نثق به وبشريكه جورج بوش.

أو دعونا لا نثق بهما. تبيّن الإحصاءات أن المملكة المتحدة تقف في معظمها ضد هذا الغباء. التبرعات لحزب العمال انخفضت بنسبة 80% منذ أعلن بلير دعمه للغزو، وكانت هناك الكثير من المظاهرات ضد الحرب. أصوات زعماء الكنيسة كانت عالية جداً في معارضتهم لجورج بوش، وكان موقفهم موحّداً. الدكتور جورج كاري، الذي أصبح لاحقاً رئيس أساقفة كانتربري، تحدّث عن مخاوفه في رسالة خاصّة إلى رئيس الوزراء[3]، بينما نظيره الكاثوليكي، الكاردينال كورماك ميرفي أوكونر رئيس أساقفة ويست مينستر، عبّر أيضاً عن

أفكاره كتابة، وصرّح بأن الحرب يمكن أن «تضع العالم العربي في مواجهة الغرب»[4]. الدكتور روان وليامز، المرشّح لخلافة الدكتور كاري، عبّر أيضاً عن معارضة قوية ضد الحرب.

مع كل هذا القلق الكبير حول جدول أعمال بلير، كان هناك كلام كثير حول دوافعه. البعض طرح الأسئلة بشكل مفتوح على الإنترنت حول ابتزاز يتعرض له بلير، آخرون تحدثوا عن تحالفاته السيئة جداً مع بعض الأشخاص الملتوين، وعن قلة المصداقية في حكومته. أشار منتقدوه أيضاً إلى عدم تأديته للخدمة العسكرية، وانعدام معرفة بالأمور الأساسية المتعلقة بالحرب ذاتها. وربما كان من الأفضل له أن يستمع إلى نصيحة من أمريكي خبير ووطني جداً، هو الجنرال في سلاح البحرية الأمريكي صموئيل بتلر المشهور والذي ألقى نظرة تقييم على سنوات خدمته في الجيش وأعطى مواطنيه النصيحة التالية: «الحرب خديعة. الخديعة هي أفضل وصف، أعتقد أنها ليست كما تبدو بالنسبة إلى أغلبية الناس. مجموعة داخلية صغيرة فقط تعرف ما الذي يجري. الحرب تُشنها أقلية لمنفعتها الخاصة على حساب غالبية الناس... أنا لن أسلك هذا الطريق ثانية لحماية استثمارات بعض المصرفيين الفاسدين»[5].

بينما يتحدث هذا الجندي الذي يحمل الكثير من الأوسمة، والذي رأى الحرب ويتكلّم من خلال التجربة المباشرة، يصر بلير في المملكة المتحدة على العمل بعكس هذه النصيحة وغيرها من النصائح. مايكل جيمس فيسك، يكتب عن برنامج جيف ريتز، قائلاً:

> يوم الثلاثاء أعلن طوني بلير الحرب على الرأي العام البريطاني. أمس أكّد أن بريطانيا يجب أن «تدفع ثمن الدمّ» لعلاقتها الخاصّة بالولايات المتحدة. يوم السبت سيجتمع بالرئيس بوش لتقرير مسار الحرب غير الشرعية والمدانة عالمياً والتي بدأت سراً منذ آذار (مارس) والتي دخلت «المرحلة الساخنة» التمهيدية أمس من خلال 100 غارة جوية على الطرف الجنوبي لبغداد... استطلاع حالي للرأي بيّن أن ثلث المواطنين الأمريكيين فقط ستدعم غزواً أحادي الجانب للعراق. ومع رغبة بوش في الحؤول دون انهيار النظام المالي الأمريكي عبر خطة حرب سيكون تأثيرها جيداً على الناخبين قبل الانتخابات في تشرين الثاني (نوفمبر)، تصبح رغبة طوني بلير القربانية الهادفة إلى «دفع ثمن الدمّ» ضرورية جداً من أجل بقاء نظام بوش، وربما حصلت بطريقة تجعل من طوني بلير الرجل الذي لا يدين بالولاء للتاج البريطاني أو حتى للشعب البريطاني[6].

لا يحتاج المرء سوى إلى النظر إلى الخريطة كي يرى الغاية الفعلية من العمل العسكري في الشرق الأوسط؛ النفط ومصادر الطاقة، التي يمكن أن تكون تحت سيطرة بعض شركات النفط المرتبطة بإدارة بوش. ورغم أن هذا العمل يبدو وكأنه بمثابة اكتساب المزيد من القوة من جانب الولايات المتحدة، إلا أنه من غير العادل اتهام جميع الأمريكيين بارتكاب هذا الفعل. أكثر من ذلك، ليس كل الأمريكيين الذين سيشاركون في هذا المرض سيحصلون على نصيب من الثروة المكتسبة من الغزو. وقد أصبح من المعروف أن المكاسب تحصل عليها نخبة قليلة، ربما القلّة «الأصلح» كما عرّفها خبير علم تحسين النسل وليام إيرل دودج ستوكس عام 1917. الآخرين الذين تبلغ نسبتهم 99.999% من الأمريكيين، والذين وصفهم رجل الأعمال القوي هذا أساساً باعتبارهم «غثاء»، واعتبرهم غير ملائمين للاستنسال[7]، أولئك لا نصيب لهم في أي ثروة. إذا دققنا النظر في «حجّة» ستوكس، فسيتضح لنا أنه إذا سُمح لهؤلاء العامة بالعيش والتناسل، فسيتم وضعهم ضمن تصنيفات متدنية المستوى، في الدرجة بي-إف من الإنسانية[8]. المخيف والمفزع في الأمر هو الإدراك بأن الأقوياء الذين يرتبط بهم ستوكس ما زالوا يديرون العديد من الأشياء بعيداً عن أعين الجمهور. بمثل هذه الأفكار العارية والشديدة الوضوح، العقلانية فقط هي التي تدعو إلى معارضة هذا التوجه الأمريكي نحو السيطرة على مكامن القوة في العالم، والعديد من الأمريكيين يفعلون ذلك بالضبط وبالطرق المشروعة.

السبب الذي أعطي لمهاجمة العراق هو إمكانية تعزيز الحرس الجمهوري بأسلحة دمار شامل. حتى الديمقراطيون يبدو أنهم صامتون حول حقيقة أن العراق يملك 33% من احتياطيات العالم النفطية، وأن الوجود العسكري الأمريكي في المنطقة يمكن أن يكون تهديداً مقنّعاً لكل الأمم الأخرى في العالم. بعد ما حدث ويحدث في أفغانستان، أصبحت الثقة بالولايات المتحدة أقل بكثير، ولم يعد ثمة ما يستثير الحالة العقلية الصحيحة لشن هجوم غير شرعي وغير أخلاقي سوى الإشاعات المتكرّرة غالباً من الإرهاب، أو بالأحرى التلميحات التي تفيد بأن البلد الذي لا يدعم الولايات المتحدة سيصبح بطريقة ما هدفاً للإرهابيين

المسلمين. الجموع البشرية الحاشدة لا تهمها المسائل الأخلاقية حين يتملكها الخوف، حينئذٍ تستبد بها الرغبة بالرد على ما يخيفها ويهددها.

العراق، عبر إعادة رسم بسيطة للخريطة يمكن أن يصبح على شكل مربع تام، وبلدان أخرى، تركيا، إيران، العربية السعودية، الكويت، يمكن أن تصبح هي أيضاً «مربعات»، حيث يمكن أن تصبح اللعبة فيها بين القوى الأجنبية. بوش كان يتحدّث عن أفغانستان، ثمّ بدأ بالتحدّث عن العراق، وهو لا يتوقّف عن الكلام حول هذا الموضوع.

السيل الجارف من الكلمات التي خرجت من فمه، على أية حال، لم يقنع العقلاء، وفي تشرين الأول (أكتوبر) 2002، لاحظ المسؤولون الحكوميون الأمريكيون بأن خطبه وتصريحاته اعتمدت في معظمها على قراءة منحرفة أو خاطئة كليّا أحياناً لتقارير الاستخبارات؛ مسئولو وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفدرالي ووزارة الطاقة تعرّضوا لضغط شديد كي يضعوا التقارير التي تؤيد الخط السياسي الرسمي. فنسنت كانيسترارو، الرئيس السابق لقسم الاستخبارات المضادة في وكالة المخابرات المركزية، قـــال: «أساساً، المعلومات المحرّفة تشقّ طريقها إلى تصريحات المستويات السياسية العليا وهناك الكثير من الأسى حول ذلك في أوساط الاستخبارات، خصوصاً بين المحلّلين»[9].

هناك شكوك في واشنطن حول ما يخرج من فم بوش؛ ديفيد ألبرايت، الفيزيائي والمفتش السابق عن الأسلحة الذي يترأّس معهد العلوم والأمن الدولي، اقتبس قول زميل له في المختبر: «الإدارة يمكن أن تقول ما تريد، ونحن يُتوقّع منا أن نظل صامتين»[10].

دنيس هوليداي، المرشّح لجائزة نوبل والأمين العام المساعد السابق للأمم المتحدة، صرّح لشبكة «سي تي في نيوز» في كانون الثاني (يناير) 2003 بأن التهديد العراقي كان «قصة اخترعتها دعاية واشنطن... الأمر لا يتعلق بأسلحة الدمار الشامل»[11].

في مجلّة «أطلانطا كونستيتيوشن»، يوضح جاي بوكمان الشعور المتزايد بين الكثير من الأمريكيين حول الحقيقة الفعلية للحرب:

> الرواية الرسمية حول العراق لم تكن أبداً مفهومة وواضحة. العلاقة التي حاولت إدارة بوش نسجها بين العراق وتنظيم القاعدة بدو مفتعلة ومصطنعة دائماً. في الحقيقة، كان من الصعب

التّصديق بأن أناساً أذكياء في إدارة بوش سيشنّون حرباً رئيسية بالاستناد إلى مثل تلك الأدلة الضعيفة وغير القاطعة. الأجزاء تبدو غير مترابطة. شيء آخر كان لزاماً عليه أن يستمر؛ شيء ما كان مفقوداً. في الأيام الأخيرة، بدأت تلك الأجزاء المفقودة تتضح وتظهر في مواضعها المناسبة في الصورة. وكما يبدو، الأمر لا يتعلق بالعراق فعلاً. المسألة ليست حول أسلحة الدمار الشامل، أو الإرهاب، أو صدام، أو قرارات الأمم المتحدة.

كان المقصود هو إبراز الظهور الرسمي للولايات المتحدة كإمبراطورية عالمية تامّة، مستولية على المسؤولية والسلطة الوحيدة كشرطي كوني. سيكون ذلك الذروة في خطة وضعت وأعدّت منذ عشر سنوات، ونفّذها أولئك الذين يعتقدون أن الولايات المتحدة يجب أن تغتنم الفرصة للهيمنة على العالم، حتى لو عنى ذلك أن نصبح «الإمبرياليين الأمريكيين» كما كان يتهمنا أعداؤنا على الدوام[12].

روبرت فيسك مراسل الإندبندنت يقدّم مزيداً من التفاصيل:

إلى جانب القلق على المصالح الحيوية في الخليج، أُعدّت هذه الحرب قبل خمس سنوات من قبل تجّار النفط مثل ديك تشيني... في الحقيقة كل عربي ممن اجتمعت بهم خلال الشهور الستّة الماضية يعتقد بأن هذا وهذا وحده يوضّح حماس تشيني لغزو العراق. العديد من الإسرائيليين يعتقدون الأمر نفسه... المخزون النفطي الأمريكي يُستنفذ على نحو متزايد، والعديد من حقول النفط الأخرى خارج الأوبك بدأت تجف. معظم إيرادات النفط المستقبلية يجب أن تأتي من منطقة الخليج. لا عجب في أن سياسة بوش في مجال الطاقة تستند كلياً على الاستهلاك المتزايد للنفط. ما نسبته 70% من احتياطيات العالم النفطية موجود في الشرق الأوسط. وهذه الحرب القادمة، أليست حول النفط؟[13]

إلحاح بوش المستمر على الحرب لم يجلب أي أصدقاء جدّد. بحلول نهاية شهر كانون الثاني (يناير) 2033، كاد أن يفقد الدعم الضعيف الذي كان بحوزته. دومينيك دي فيليبان، وزير الخارجية الفرنسي، قال صراحة بأنه يحشد المعارضة لشن أي حرب مبكّرة ضد العراق؛ وحصل على الدعم من الصين وألمانيا، اللتين جادلتا معه بأنّ مفتشي الأمم المتحدة يحتاجون إلى مزيد من الوقت[14].

طوال تلك الفترة، وبدا وكأن هناك صراعاً على السلطة بين عائلة بوش والأمم المتحدة؛ في آب (أغسطس) 2002، بعد شهور من حديث بوش المستمرّ عن العراق، جابهته الأمم المتحدة بالقول: «نحن لا نتلقى الأوامر منك»[15]. إوين بيوكانان، الناطق باسم لجنة الأمم المتحدة

للمراقبة والتفتيش والتحقّق، قال: «نأخذ أوامر تحرّكنا من مجلس الأمن. إنّ الولايات المتحدة هي عضو واحد فقط من أعضاء مجلس الأمن، وهي ليست المسيطرة سياسياً علينا»[16].

في مرحلة ما بدا وكأن بوش قد تجاهل كل نصيحة، حتى من وزير الخارجية السابق هنري كيسنجر ومن وزير خارجيته الحالي كولن باول. هل كان هناك ثمة دليل على تطوير العراق لترسانة أسلحة سرية؟ طبقاً للسيناتور تشوك هاغل (ديمقرطي-نبراسكا)، فإن وكالة المخابرات المركزية لم يكن لديها «بالتأكيد ولا أي دليل»[17] بأن العراق امتلك، أو سيمتلك قريباً، أسلحة نووية. ملاحظات السيناتور تلتها كلمة من جاك بيتر، السفير الأمريكي السابق في هندوراس، الذي سمّى خطة بوش «أمّ كل الحماقات» وتوقّع بأنّها يمكن أن تثير رداً كيميائياً أو بيولوجياً أو نووياً[18].

وبينما كانت النقاشات محتدمة، بدأت «الحرب» على أية حال، أعلنت رسمياً أم لم تعلن. في الأسبوع الأول من آب (أغسطس) 2002 بيّنت صور الأقمار الصناعية بشكل واضح قاعدة جوية أمريكية في قطر، وقد قُدّرت تكاليف بنائها وتجهيزها ببليون دولار أمريكي. قاعدة «العُديد» هذه، التي تحتوي على ملجأ يتسع لمائة طائرة ومساكن لعشرة آلاف موظف وأطول مهبط طائرات في المنطقة بطول 15 ألف قدم؛ من الواضح أنه كانت هناك تحضيرات للشروع في أمور بالغة الجدية[19]، وقد كانت ملاحظة الجنود الذين وصلوا إلى الخليج مباشرة بعد 9/11 بأن الولايات المتحدة كانت تُعدّ هذه القاعدة لاستقبالهم قبل أيلول (سبتمبر)، مما يشير بشكل واضح إلى المعرفة والنية المسبقة.

«يمكنك أن تأخذ البلاد إلى الحرب بسرعة بالغة، لكنّك لا تستطيع الخروج منها بنفس السرعة، والرأي العام يحتاج إلى معرفة الأخطار المحتملة». السّيناتور تشوك هاغل[20].

في أحد خطاباته، ذكر بوش إمكانية خوض حرب تستمر عشرين سنة. بالنسبة لتجّار وشركات الأسلحة، كانت تلك أخباراً عظيمة. وكما أن الحرب طالت في أفغانستان لأكثر من عام حتى الآن، حتى دون التوقّع بأسر بن لادن قريباً، فقد يكون الحديث عن حرب العشرين سنة صحيحاً. «حرب طويلة ومطوّلة» قد يكون هذا ما أراد أن يقوله لنا؛ هل كانت الكلمات صادرة من قلبه؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن دخول العراق سيجعل قلبه

الصغير راضٍ جداً. النسور والعقبان تحوم في الجو، وكما حامت فوق جثث الأطفال الأفغان الموتى، ستستطيع بالتأكيد التقاط الريح السقيمة التي ستوصلها إلى المسرح التالي لجرائم الحرب التي يرتكبها «تجار الموت».

الزبّالون وكنّاسو القمامة في هذا العيد لن يكونوا وحدهم، ذلك أن مصادر النفط في العراق ليست خافية على الغربان والطيور النهمة الأخرى التي تركب ريح سوء حظ الآخرين. السيطرة على حقول النفط هذه يمكن أن تصبح سيطرة على الاقتصاد العالمي، وبوجود الجيش الأمريكي في المنطقة، من السهل ضمان السيطرة على خطوط الإنتاج والشحن. وفي هذا السيناريو من الصعب أن يتوقع أحد أن يقوم العاملون في حقول النفط بتنظيم وتأسيس أي نوع من النقابات أو الاتحادات، وهم على رقعة الشطرنج هذه أقل البيادق قيمة وتأثيراً، حياتهم مكرّسة لكي يزداد ذوو الثروات الأسطورية قوة وثراء.

إحدى السقطات في حكاية التفتيش عن الأسلحة كانت اختيار هارفي جون «جاك» ماكجورج كمفتش. لم تكن لديه تجربة في هذا المجال مطلقاً، وإذا لم يبدُ هذا الأمر شاذاً بما فيه الكفاية، فقد برز سؤال حول نوعية وطبيعة الخبرة التي يملكها؛ ألعاب الهيمنة والعبودية الجنسية. ماكجورج كان رئيساً لجماعة «الوردة السوداء»، ومقرها في واشنطن العاصمة وكانت تروّج للسادية[21]. آل بوش، آل تشيني، وآخرين كلّهم كانوا مربوطين بحبال مطّاطية؛ هل هذه حرب أم نكتة؟

أم أن ذلك مجرد حلم؟ هل سنستيقظ على حقيقة أفضل حين تُنهضنا الشمس من نومنا وسيسطع الضوء الذي يطرد الظلام وينهي الكابوس؟

الأمل بالتغيير نحو الأفضل لم يُترك للمصادفة؛ الجموع تتظاهر ضد الطمع. هناك حركة عالمية، مكروهة وممقوتة من قبل تجّار الأسلحة وأولئك الذين يكسبون من النفط والحرب. هذه الحركة تتجاوز الأعراق أو التوجهات السياسية، مع وجود العديد من المحافظين الذين عارضوا الحرب إلى درجة الجنون كما فعلت مجموعات الهبيز في سان فرانسيسكو. روبرت نوفاك ذكر في صحيفة شيكاغو صن-تايمز:

الأعضاء الجمهوريون في مجلس الشيوخ الذين تجمّعوا الأربعاء الماضي «لمراجعة» الجلسة الافتتاحية كان من المفترض أن يكونوا سعداء، تباركهم أغلبية مستعادة ورئيس شعبي. لم يكونوا كذلك. بل بدلاً من ذلك، اشتكوا بمرارة من تكبّر إدارة بوش، خصوصاً وزارة الدفاع الأمريكية في مجال التعامل مع الكونجرس على طول الطريق المؤدية إلى الحرب.

سنتان من السخط المتنامي فاضتا أثناء الاجتماع المغلق في مكتبة الكونغرس. كبير موظفي البيت الأبيض أندريو كارد كان هناك ليسمع الشكاوى من قاعدة الرئيس بوش في مجلس الشيوخ التي أهملتها وأهانتها الإدارة، خصوصاً من قبل وزير الدفاع دونالد رمسفيلد، في مجريات الاستعداد للحرب ضد العراق. سرد الشكاوى بدأ بالسيناتور جون وارنر، أحد الأعمدة الأساسية في الحزب الجمهوري... وارنر استرعى انتباه زملائه عندما خاطب كارد قائلاً بحدة: «أنا سوف لن أتحمّل استمرار ما كان يجري خلال السنتين الأخيرتين». استشهد بالمعاملة المتعجرفة التي تنكر الحق بالحصول على المعلومات حتى بالنسبة إلى أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين الكبار والموقّر من أعضاء لجنة القوّات المسلّحة. ولكي يحدد عمّن كان يتحدّث، قال وارنر أنه على موعد لتناول الفطور صباح اليوم التالي مع رمسفيلد وسيُخبر وزير الدفاع بالشيء نفسه.

المتحدث التالي كان السّيناتور بات روبرتس، الضابط البحري السابق الذي قضى الأربعين سنة الأخيرة في مبنى الكابيتول. روبرتس، الذي يتكلم ببساطة سكان الغرب الأمريكي الأوسط والقادم من دودج سيتي بولاية كانساس، وهو رئيس لجنة المخابرات التابعة لمجلس الشيوخ الجديد. قال لكارد أن يضع اسمه في أسفل الورقة التي تتضمن جميع الملاحظات التي أوردها وارنر[22].

سلوك رامسفيلد نحو أعضاء مجلس الشيوخ مرفوض، وهو بالكاد متحضر، قريب من الوقاحة. ليس لديه اهتمام بنا سوى من أجل الحصول على المال، لا اهتمام له بآرائنا[23].

في المملكة المتحدة، الحليف المفترض للولايات المتحدة، جو ويلدنغ، وهي محامية من بريستول، تحدّت الحكومة البريطانية حول شرعية العقوبات ضد العراق؛ شاركت في تسليم الإمدادات الطبيّة إلى المستشفيات العراقية مع مجموعات السلام «أصوات في البريّة»[24]. وبينما كانت تخرق القانون من الناحية التقنية، كانت تحظى بدعم وطني. في اجتماع عقد من أجل السلام في أيلول (سبتمبر) 2002، عبّرت اثنتان من مواطناتها عن وجهتي نظرهما حول الوضع: باربرا كوكروفت من ستافوردشاير قالت: «من المهم جداً، جداً، ألا تنطلق الحرب»،

بينما قالت ماري ستاك من هامبشاير لمراسلي الصحافة: «أنا هنا لأنني لا أريد للناس أن يُقتلوا باسم البلاد التي أنتمي إليها... إلى حد بعيد أغلبية الجمهور البريطاني لا تريد الحرب»[25].

في نفس الوقت احتجّ القبارصة اليونانيون على استخدام القواعد العسكرية في قبرص في الهجوم على العراق[26]. هذا القلق وحّد لاحقاً الجانبين المتنازعين في الجزيرة حين زحفوا معاً واحتشدوا أمام سفارة الولايات المتحدة في شباط (فبراير) 2003.

في واشنطن، اعتقلت امرأة أمريكية، ميديا بنجامين، بتهمة «عرقلة الكونغرس» عندما حملت لافتة تحمل بياناً ضد الحرب[27]. احتجازها قد لا يكون جذب انتباهاً كثيراً، فتوقيفها كان واحداً من مئات الاعتقالات التي جرت في الكابيتول. في 27 أيلول (سبتمبر) 2002، تم أيضاً اعتقال 649 شخصاً من بين 2000 محتشد[28]؛ معظمهم اتّهم بـــ«عدم إطاعة أمر قانوني»، أو «التظاهر بدون رخصة»، وهي مخالفات سلمية جداً؛ مجموعة دينية واحـــدة اعتقلت بتهـــمة «عرقلة السير على الرصيف»[29]. ذكر الشهود أن الشرطة أحاطت بالمحتجّين المسالمين، اقتربت منهم، وبعد ذلك اعتقلت كل من كان موجوداً. في اليوم التالي، تم اعتقال 300 شخص فقط. بالإضافة إلى الاعتقالات، صوّرت وحدات وأجهزة عسكرية الأفراد وجمعت معلومات استخبارية ضد الأمريكيين في داخل وطنهم[30].

إذا كان البيت الأبيض لا يستطيع مهاجمة «محور الشر» فهو يستطيع أن يهاجم «محور السلام»، كما عبّر عن ذلك المحتجّون في ألمانيا. في أواخر شهر أيار (مايو) 2002، وفي زيارة لألمانيا، تسبب بوش باضطرابات شديدة؛ رُسم وجهه كجزء من وجه هتلر، وتم تسليط الضوء على جدول أعمال كل منهما، مع إبراز أوجه التشابه بينهما، واستُخدمت صورة حريق الرايخستاغ كخلفية للمشهد. لم يسبق أن استُقبل أمريكي بمثل هذا الترحيب. الاحتجاجات كانت عاطفية، وكانت تتضمن قلقاً عميقاً حول استغلال السلطة من قبل رجل استفادت عائلته من ألمانيا النازية، وهي العائلة التي كانت، مثل عائلة دوبونت، منخرطة في تجارة الأسلحة وعرف عنها تقديم السلاح والمال لذلك المجنون ثم زيادة ثروتها وسلطتها عبر تلك الأساليب.

«الرئيس بوش تاجر حرب خطر»[31]، قال أحد الألمان. «هذا الرجل بليد ثقافياً، مثير للشفقة، لا يستطيع التفكير أبعد من جمع مال وشنّ الحرب... هذا الرجل هو الدكتور سترانغيلوف الذي يقودنا إلى المعركة هرمجدون الفاصلة. نريد أن ندلّه على طريق الخروج من المدينة»، تلك كانت كلمات يورغان فيشر[32].

قبل فترة قصيرة من انتخابات 2002، لم يكن مزاج المحتجّين والمتظاهرين الأمريكيين مناسباً أكثر؛ زحف عشرات الآلاف بسلام نحو البيت الأبيض، البعض هتف بشعارات تتّهم بوش بالتخطيط لحروب إبادة جماعية. الممثلة سوزان ساروندون اتّهمته بـــ«اختطاف خسائرنا ومخاوفنا»[33]. اللافتات التي حملها المتظاهرون قالت: «لا برهان، لا حرب»، «معاقبة وقائية»، أو بمنتهى البساطة «بوش يمتصّ»[34]. في نفس اليوم كانت الاحتجاجات تعم كافة أنحاء البلاد، وفي سان فرانسيسكو قادت مجموعة من الأطفال موكب المتظاهرين. اللافتات التي رُفعت في الساحل الغربي رددت صدى تلك التي رُفعت في شرق البلاد، حيث حملت عبارات مثل «لا دمّ من أجل النفط» و«تغيير النظام يبدأ في الوطن» [35]. جميع المتظاهرين دعوا بوش لصرف العشرات من بلايين الدولارات التي يريدها من دافعي الضرائب الأمريكيين على المواطنين الأمريكيين بدلاً من إنفاقها على الحرب مع العراق، وهي الحرب التي ستجعل أصدقاءه من أصحاب الثروات الأسطورية.

بعد ثلاثة أسابيع من الانتخابات، خرج طلاب المدارس العليا في أمريكا من صفوفهم الدراسية لإبداء اشمئزازهم من الحرب وشكوكهم حول أكاذيب 9/11. في سانتا روزا بولاية كاليفورنيا، غادر 150 طالباً مدرستهم وساروا إلى وسط المدينة وتجمّعوا في ساحة المحكمة القديمة؛ مبادرات مماثلة أخذها الطلاب في الولايات الأخرى كجزء من «اليوم الوطني للمقاومة الطلابية»[36]. وهذا التحرك هو الأنظف والأكثر معرفة ووطنية الذي تم اتخاذه ضد الحرب، وقد نظّمته مجموعة سُميت «ليس باسمنا»[37]. أولئك الذين لا يريدون أن تُختطف بلادهم من قبل أولئك المرتبطين بالإدارة التي كانت تخطّط لاختطاف الطائرات الأمريكية وقتل المدنيين بحيث يمكنهم استعمال الإرهاب كذريعة لدعم الحرب التي كانوا يخططون

لشنّها، والمؤسسة كانت تصرّ أسنانها وتحاول جاهدة السكوت على مؤامرة «نورثوودز» والمعطيات الموازية لأحداث 9/11.

بعد ذلك بوقت قصير، في كانون الثاني (يناير) 2003، سلّط المؤلف رون كوفيك الضوء على دور كلّ من هؤلاء الأمريكيين مطالباً بإجابات حول المؤامرة والحرب، وذلك حين قال للحشود في واشنطن العاصمة: «أنت مولود لاسترداد هذا البلد. أنت ولدت لاسترجاع هذه البلاد. أنت لن توقف الحرب فقط، بل ستغيّر أولويات هذه الأمة وتعيدها للناس»[38].

بينما كانت الأفواه تتكلم ضد الأكاذيب، اتُخذت إجراءات أخرى على مستوى أعلى للتعامل بالكامل مع هذه المشكلة الكبيرة. على الجانب القانوني من كل ما يجري، وضع أستاذ القانون فرانسيز أي. بويل من جامعة إيلينويز نصوص وفقرات العقوبات[39]. استشهد بالمادة الثّانية من القسم 4 من الدستور: «الرئيس، نائب الرئيس، وكل الموظفين المدنيين في الولايات المتحدة، يُعزلون من مناصبهم إذا اتهموا بالخيانة، أو الرشوة، أو الجرائم والجنح الخطيرة الأخرى».

خط بويل الفكري واضح، والسؤال الذي طرحه هو كيف سمح الكثيرون لهذا المخلوق أن يعدّ العدة لشن حرب عدوانية، وهو سؤال ينبغي على الحكومة الإجابة عنه. شن الحرب العدوانية يعتبر جريمة حرب حسب معاهدة نوريمبيرغ، والولايات المتحدة طرف في هذه المعاهدة. أكثر من ذلك، المادة السادسة من الدستور تشدّد احترام والتقيد بكل هذه المعاهدات، وبوش يضع نفسه فوق الدستور بإهمال أيّ من تلك المعاهدات. المطلب الدستوري الآخر هو التصريح الرسمي بإعلان الحرب؛ وفي تجاوز هذا الشرط، تصبح أفعال بوش غير دستورية، هو ومناصريه ومؤيديه في أعماله تلك. أفعالهم تلك لا تحتاج لفضحها سوى إلى مجموعة من طلاب المدارس العليا، مثل الإمبراطور الغبي الذي أخذ بنصيحة بعض الخياطين ومشى عارياً أمام الناس.

وإذا كان يستطيع أن يخدع ما يكفي من الناس في بلده، إلا أنه يدرك بأن هناك قوانين في بقيّة أنحاء العالم، وأن ميلوسوفيتش يمكن أن يحاكم لاقترافه جرائم حرب. إذاً ليس ثمّة مفاجأة في أن إدارته تريد الحصول على حصانة قضائية في هذا العالم. في تشرين الأول (أكتوبر)

2002 ، توجّهت السفيرة الأمريكية ماريسا لينو إلى أوروبا لكي تحصل على ضمانات بعدم محاكمة الأمريكيين أمام المحكمة الدولية[40]. سابقاً، رُفض هذا الطلب المتكلّف. الاتحاد الأوروبي بدا وكأنه يتعرض لضغوط سياسية، وقد ذُكر علناً بأن الاتحاد يقاوم «ضغطاً سياسياً حول العالم»[41] من جانب الولايات المتحدة لاستغلال المحكمة بغية الحصول على الاستثناءات الواسعة. «الإعفاء بحد ذاته، خصوصاً حين يمنح لقوة عظمى مثل الولايات المتحدة، يقوّض الغاية الأساسية والبديهية من المحكمة»[42]، قالت ساره سيوال، من «مركز كار لحقوق الإنسان» في هارفارد. أحد كبار المسئولين الأوروبيين أضاف: «لن نسمح للضغط الأمريكي بتحويلنا إلى إحدى قضايا التاريخ الخاسرة»[43].

هنا يمكن ملاحظة نغمة القلق الشديد، والسبب في ذلك هو الجرائم الفعلية والجدية التي ارتكبت من قبل الجيش الأمريكي والموظّفين الدبلوماسيين والتي مرّت دون عقاب في أغلب الأحيان في مختلف أنحاء العالم. في تشيلي، على سبيل المثال، أرادوا محاكمة هنري كيسنجر لدوره في الانقلاب العسكري الذي استلم عبره الجنرال بينوشيه السلطة. وفي حالة أحدث، جرت في الوقت الذي كان فيه النقاش حول العراق على أشدّه، وتضمّنت ادعاءات بجريمة اغتصاب ارتكبها الرائد مايكل جي. براون من البحرية الأمريكية. الحادثة وقعت في أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) 2002، لكن بحلول شهر كانون الأول (ديسمبر) 2002 تبخّر الأمل بتقديمه للمحاكمة حين أعلنت الولايات المتحدة بأنها لن تسلّمه إلى السلطات اليابانية[44].

بحلول شهر شباط (فبراير) 2003 احتدم النقاش ووصل إلى درجة الحمّى عندما ادّعى بلير أن أيدي المحتجّين ضده قد تكون ملطخة بالدماء. صرخته تلك بدت مثيرة للشفقة، جاءت من مصدر ملوّث بالكامل بالانتحال وعدم النزاهة، كما اتضح ذلك الشهر بالنسبة لتقرير المخابرات المزيف. وُضع الغزو في الميزان، منظمة حلف شمال الأطلسي كانت تحت تهديد الانهيار حين رفضت كل من ألمانيا وفرنسا دعم الغزو، الأمريكيون كانوا يدعون أولئك الحلفاء المفقودين لتذكّر الحرب العالمية الثانية، والعالم كان يشهد مسيرات الاحتجاج الأكبر في التاريخ.

على كل حال، خرج الكثيرون ليصرخوا طالبين إيقاف الحرب، كانت هناك بطاقة جوكر ينبغي أن يُلعب بها: المجنون صدام، وكان هناك المنفيون العراقيون الذين يفضّلون أن يروا الغزو بدلاً من رؤية الكثير من المتظاهرين. أما بالنسبة لتجّار الأسلحة وتجار النفط، فإن مجرد ذكر اسمه كان بمثابة النداء للتوجّه نحو ساحة المعركة، وقد أرادوا تهدئة أعصابهم بهذا النداء كلما سمعوا صوتاً يدعوا لمناقشة حل المسألة عبر فرض عقوبات الأمم المتحدة. بالنسبة لهم، صورته المريعة بمثابة الضمان ضد شيء واحد، الخوف من أن الحرب مكروهة شعبياً وقد لا يمكن تمريرها.

بعد شهور من المناقشات، بدا العالم وكأنه واقع في شرك الموازنة بين الشخصين المكروهين، بوش وصدام. لم يسبق أن وقعت الكثرة تحت رحمة القلّة القليلة على هذا النحو، ولم يسبق لقلّة قليلة كهذه أن كسبت الحرب.

صلّ من أجل الحرب

حين تصاعدت وتكثّفت عمليات التفتيش ولم تصل إلى نتيجة حاسمة، وحين حاولت الأمم المتحدة تحذير بوش بضرورة الابتعاد عن الوقوع في سلوك كارثي، اشتد قرع الطبول، وتصاعد المزاج الداعي للحرب على جانبي الأطلسي. فرنسا وألمانيا قالتا بأنهما ستستخدمان حق النقض ضد قرار الأمم المتحدة المنوي اتخاذه، حتى لو صوّت مجلس الأمن لصالح ذلك القرار. حاولت إدارة بوش بصعوبة تمرير ذلك القرار، وحتى أنها ضُبطت وهي تشجّع الدبلوماسيين الأمريكيين على التجسّس على البلدان الأخرى المهتمة بتلك المسألة[45]. في النهاية خسروا التصويت، لذلك لم توضع مسألة حق النقض موضع الاختبار. بوش، الذي كانت لديه تجربة سابقة في العمل بدون أغلبية، قرّر أن يفعل ما يريد ومضى في التخطيط لغزو العراق على أية حال. وهو أمر لم يكن مفاجئاً بالنسبة للعالم المتعب من رؤية آل بوش وهم ينفذون غاياتهم ومآربهم. العالم متعب رغم أنه لم يستسلم تاركاً أولئك الصليبيين المقنعين يتابعون حملتهم بدون مزيد من الاحتجاجات. إذا اعتقدت واشنطن بأنها استطاعت التغلّب على تلك المقاومة، فإن الخامس عشر من شباط (فبراير) كان التاريخ الذي رأت فيه عكس ذلك. في لندن، برشلونة، مدريد، روما ومدن أخرى، بلغ عدد المتظاهرين أكثر من

مليون متظاهر في كل مدينة. مظاهرة لندن، التي شاركتُ فيها، كانت أكبر مظاهرة شوهدت في أي مكان؛ صحيفة صنداي ميرور قدّرت عدد المشاركين بمليوني شخص[46]. الأكثر أهمّية من عدد الناس الذين شاركوا في المظاهرة كان المزاج – التحدي السلمي والمنظّم. فيما يلي ملاحظات الصنداي ميرور:

> جاؤوا من اليسار؛ من الوسط واليمين. كانوا شباباً ومن متوسطي العمر وكبار السن. أغنياء وفقراء. اللوردات، السيدات، السادة المحترمين. الطلاب وربّات البيوت والمدراء والعمّال من كافة مجالات الصناعة البريطانية. تكلّموا بصوت واحد. لابد من وقف الحرب[47].

في صحيفة الأوبزرفر ذكّرنا المؤرخ أنتوني سامبسن بالحقائق الصعبة، حيث قال:

> سجلات كل من وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية في التعامل مع صدام حسين تظهر أنهما لا تزالان الأكثر لامبالاة من خلال الوثائق الجديدة التي ظهرت، وتبيّن تلك الوثائق كيف قدّموا له الدعم الهائل في منتصف الثمانينات لمساعدته في كسب الحرب ضد إيران، ثمّ سمحوا له بإعادة التسلّح قبل غزوه للكويت عام 1991.
>
> إنّ سجل دبلوماسية النفط الأمريكية في الشرق الأوسط ليس أفضل حالاً، حيث ساعدت الشركات في إفساد الحكّام المستبدين ثمّ انقلبت عليهم، وأثارت الوطنيين وشجّعت الأصوليين.
>
> المدراء التنفيذيون في شركات النفط الدولية أصبحوا الآن واثقين بمنافع الحرب أقل بكثير من الصقور في واشنطن. جورج بوش وديك تشيني، وكلاهما من تجّار النفط السابقين، يصوّران الحرب وكأنها لضمان تدفق إمدادات النفط...
>
> الشعب البريطاني قد ينظر لاحقاً إلى الحرب على العراق التي وقعت عام 2003 طارحاً نفس الأسئلة المشوّشة التي دارت حول حرب السويس. كيف أمكن تضليل الرأي العام على يد مثل هذا المجموعة الصغيرة من الناس بحيث تحرّكوا ضد غرائزهم ومصالحهم في آن معاً؟[48]

الجواب يكمن في التعاطف الذي أُبدي عقب أحداث 9/11، وهي الأحداث التي فقدت فيها الولايات المتحدة والمملكة المتحدة العدد الأعظم من الضحايا، على التوالي. الأمة الأخيرة، التي ليس لديها تاريخ من صحف هيرست التي تروي الأكاذيب لتبرير شن الحروب، أو أناس مثل الجنرال ليمنتزر الذي يضع الخطط الإرهابية وعمليات الاختطاف المزيّفة لخلق الذرائع بغية شن الحرب، كانت تلك الأمة أكثر عرضة لتقييم الأمور وعدم الاكتفاء بالمعنى الظاهري فيما يتعلق بالتحقق من الأكاذيب حول 9/11 كما هو جارٍ في الولايات المتحدة.

أبعد من ذلك، فكرة التعامل أخيراً مع صدام حسين كانت حافزاً بالنسبة للناس الصادقين الذين أرادوا رؤية استبدال ذلك المجنون بنظام حكيم ومسالم. بعض المنفيين العراقيين في المملكة المتحدة عبّروا عن رغبتهم علناً في أن تساعد المملكة المتحدة في الغزو، لكن بعد الخراب الذي حل ببلادهم أبدى المنفيون أسفهم وندمهم على ذلك. في ذلك الوقت، على أية حال، دفعوا الكثيرين لدعم وتأييد الغزو والاحتلال كوسيلة لتأسيس حكومة أفضل.

على أية حال، بدأت الحقيقة تظهر وتتكشف يومياً. أصوات الخبراء ذوي التجربة حذّرت الجماهير من الحرب. أحد محاربي الحرب العالمية الثانية، فرانك بريندرغاست، يتذكّر: «رأيت تأثير الحرب مباشرة على أرض الواقع وهو سيئ. الأمر يتعلّق بالنفط ونحن مجرد دمى بيد جورج بوش. كنا على حق في دخول الحرب ضد هتلر لكننا الآن على خطأ تام»[49].

بينما قاتل بريندرغاست مع الفرنسيين، كما فعل الأمريكيون، تُعتبر فرنسا والولايات المتّحدة الآن، على نحو اجتماعي، في حالة حرب. قد يكون رمسفيلد هو الذي أطلق الشرارة الأولى في تلك الحرب عندما عبّر عن احتقاره لما سمّاه «أوروبا القديمة». عندما قال بوش للعراقيين أن «اللعبة انتهت»، ذكّر جان بيير رافاران، رئيس الوزراء الفرنسي، ذكّر التكساسي «بأنها ليست لعبة، وهي لم تنته»[50]. المضيّف المشارك في برنامج «كروسفاير» على شبكة «السي إن إن» ذلك اليوم أستثار الهتافات والتصفيق عندما حثّ جمهوره: «دعونا نضرب الفرنسيين»[51]. رقائق البطاطا، التي تسمى في الولايات المتّحدة البطاطا المقلية الفرنسية، بُدّل اسمها إلى «مقالي الحرية» من قبل مشعلي نار الحرب في مبنى الكابيتول هول، مما أثار هيجان وطني لمهاجمة كل ما هو فرنسي؛ حيث أصبح شرب النبيذ الفرنسي مساوياً للخيانة. الحرب البحرية التي لم يُعلن عنها مع فرنسا على تجارة القنب في أوائل القرن التاسع عشر استُحضرت إلى الذاكرة فجأة، فوجد الطلاب أنهم قد نسوا طويلاً تفاصيل قيام الفرنسيين بتدمير ثلاثمائة سفينة أمريكية ضُبطت وهي تنقل القنب للبريطانيين[52]. ومع تذكّر مثل هذه التفاصيل التي بالكاد تكون معروفة، تم تناسي مساعد أمريكا للفرنسيين في الثورة الفرنسية، وشاع النظر إلى تمثال الحريّة كشيء أجنبي وغير شرعي موضوع في مكان غير

ملائم ضمن المشهد الطبيعي لمدينة نيويورك. في مثل تلك البيئة، لم يتسع الوقت لتقديم وعرض الحقائق بموضوعية ومنطق عقلاني.

الكاتبة جوديث موريارتي تستذكر فترة أخرى في التاريخ الأمريكي حيث لم تكن الحقائق موضع ترحيب. تحدثت عن مشاركتها في الزحف في كونكتيكت ضد حرب الخليج عام 1990، عندما حاذتها سيارة من نوع «بي إم دبليو» ومد رجل غاضب رأسه من نافذة السيارة وبصق في وجهها وصرخ «أنت غير جيّدة، أنت حزمة حطب شيوعية عاطلة!» وقد ردت عليه بأنها ليست عاطلة عن العمل وأن لديها وظيفة[53]. هذا الانفجار تردّد عام 2002 عندما هوجم روبرت فيسك من صحيفة الإندبندنت شفهياً من قبل مصوّر في تكساس[54]. في هذا الجو يمكن للمرء أن يتخيّل بسهولة جون لينون معتقلاً من أجل «إعطاء السلام فرصة»، ورغبة إحدى المجموعات اليمينية بإعطاء مارك شابمان، قاتل لينون، وسام تقدير لإطلاقه النار عليه[55]، هذه الرغبة لا تبدو خارجة عن المألوف ضمن هذا الجو المحموم الذي شهد بعض المسيرات المؤيدة للحرب التي نظّمها وأشرف عليها توم هيكس من شركة «القناة المفتوحة للاتصالات». استطاعوا حشد 1000 شخص في ساحة التايمس، ومن ضمنهم شخص كان يحث الجيش على «قصف فرنسا»[56].

مقابل هذا العرض المدعوم من كبريات الشركات والذي يُظهر الوطنية الأمريكية الجديدة والشعور المعادي لفرنسا، احتشد في مانهاتن حوالي 500 ألف شخص مطالبين بالسلام، وهو عدد مدهش بالنسبة لجزيرة بذلك الحجم. وزارة العدل الأمريكية كانت قد أصدرت مذكرة تمنع تنظيم الاحتجاجات[57]، لكن الحريات التي يحميها الدستور ليس من السهل احتقارها وهي قد ترسّخت، كما أراد لها توماس جيفرسون وغيره من الآباء المؤسسين. سلطات المدينة، تحت قيادة العمدة بلومبرغ، حاولت حصر المسيرة فوق الأرصفة[58]، لكن تبيّن أن هذا المطلب غير واقعي. حين اقترب الحشد من مبنى الأمم المتحدة، زاحفاً فوق الشوارع الرئيسية في الجانب الشرقي، انتشر الحشد في الشوارع المجاورة. شوهدت الشرطة وهي تضايق المتظاهرين، وهوجمت إحدى النساء شفهياً من قبل ضابط لأنها دافعت عن نفسها

كأمريكية، قائلة له بأنّها تعرف حقوقها؛ فرد عليها بوقاحة بأنها تملك الحقّ بممارسة الجنس معه[59].

وحيث أن مثل هذا العمل صدر عن شرطي خبيث واحد، فليس من العدل استخدام ذلك السلوك كمثال عن الضبّاط ورجال الشرطة الآخرين البالغ عددهم 30 ألفاً ضمن قوة الشرطة التي واكبت المسيرة، وتصرّف ذلك الشرطي يجب ألا يمثّل صورة قوات الشرطة بأكملها، حيث أن البعض منهم رفض أن يكون أداة بيد بوش ويطالب بالتحقيق في الأكاذيب المتعلّقة بأحداث 9/11. في نيويورك ومدن أخرى كانت هناك توقيفات هائلة العدد، والشعب الأمريكي كانت يشهد شيئاً لم يره منذ حرب فيتنام. في الكابيتول، أحد المراهقين، بيتر ماثيوز، الذي شارك في مظاهرة تالية في آذار (مارس)، قال: «نحن شباب أمريكا، ونحن نقول بأننا لا نريد شن هذه الحرب باسمنا»[60]. المراهقون ومجموعات الهبيز لم يكونوا وحدهم في المظاهرات، ذلك أن أحد الأسماء المفاجئة في تلك الضجة كان اسم ماري تشيني، مديرة العلاقات العامة في شركة كوورز وشركاه للتخمير وابنة نائب الرئيس ديك تشيني؛ وهي لم تتحدث ضد الغزو فقط، بل توجّهت إلى الشرق الأوسط للالتحاق بالآخرين كدروع بشرية في بغداد[61]، كما فعل بيل جراهام، ابن وزير الخارجية الكندي. البليونير جورج سورروس، المشهور كمستثمر ومحسن ومؤيد لاختبارات الطب بالقنّب، كتب في صحيفة ميامي هيرالد: «إزالة صدام حسين شيء جيد؛ رغم ذلك يجب معارضة الطريقة التي ينوي اتباعها بوش لتحقيق ذلك. على المدى البعيد، لا يستطيع المجتمع المفتوح النجاة ما لم يكن الناس الذين يعيشون فيه مؤمنين به»[62]. رئيس الحزب الجمهوري في ميسوري جاك والترز كان ضمن المحتجين، وربما اعتبرت رسالة استقالته إحدى الوثائق الأكثر أهمية في التاريخ الأمريكي. يقول فيها:

> أحزن لأمتنا، وأحزن للمعاناة الهائلة التي ستمر بها. وكما أثبت التاريخ، يمكنك امتلاك أعظم الأسلحة في العالم، لكن إذا لم تكن أسبابك ودوافعك صحيحة، فستكون النتيجة مجرد كارثة...
>
> لقد حققت في كل من دوافع العمل العسكري في هذا الوقت، والتبريرات الغير منطقية المتغيّرة باستمرار التي قدّمت لنا عبر ما يفترض أن يكون إحدى أعظم الدعايات الإعلامية التي أجبر العامة على ابتلاعها...

وزارة الدفاع الأمريكية أعلنت بأنّنا سنضرب بغداد بقوة تساوي تقريباً قوة قصف هيروشيما. من الواضح أن عدة آلاف من المدنيين سيموتون، وأكثر منهم سيصابون بإعاقات. وما هو الهدف؟ لتحريرهم؟ لتقديم الحرية لهم؟ أو الديمقراطية؟ أم أن الأمر بالفعل يتعلّق بتأمين أكبر ثاني احتياطي نفطي في العالم وتأسيس قاعدة يمكن من خلالها إخضاع الأمم الأخرى في الشرق الأوسط؟...

أستقيل لأنني لا أستطيع دعم الموقف الجمهوري من هذه الحرب. أردت منصب الرئيس فقط على أمل التمكن من تجنيد المؤمنين المعارضين للإجهاض والمفكّرين المستقيمين المؤمنين بدستورنا[63].

في المملكة المتحدة، حدثت استقالات أيضاً. وجّه وزير الخارجية السابق روبن كوك ضربة إلى حكومة بلير عندما استقال، داعياً إلى إعادة القوّات إلى الوطن بعد أن تم نشرها. عكس المحتجّون هذا الموقف بحمل اللافتات التي تقول «ادعموا الجنود، أعيدوهم إلى الوطن». كلير شورت، وهي مساعدة مقربة جداً من رئيس الوزراء، هدّدت بالاستقالة، ثمّ بقيت على أمل أن يؤدي ذلك إلى ضمان دخول قوات الأمم المتحدة، ثمّ استقالت بعد الغزو حين نُقض ذلك الوعد؛ استقالت محذّرة بأن بلير رجل يبحث عن مكان في التاريخ، مسبباً المزيد من الضرر لمصداقيته.

واصل رجال الدين معارضتهم، ومن ضمنهم القسّ سيدني هيكس، الذي خدم في القسم السادس المحمول جواً في الحرب العالمية الثانية. «هذه حرب إمبراطورية»، قال، «الولايات المتحدة دولة مارقة، ونحن يجب أن نمنعهم من تولي القيادة العسكرية للعالم»[64]. الذي انضم إليه كان الأب روس، كاهن طوني بلير الخاص. كلا الرجلين تحدّث عن خبرة وتجربة، وكانت لديهما خبرة سنوات من العمل في هذا المجال. هما، ومواطنون آخرون من كبار السن، مثل «الجدّات من أجل السلام»، لم يكونوا من نوع الناس الذين ترغب الشرطة في اعتقالهم.

من ناحية أخرى، كان هناك الكثير من المحتجّين الشباب، وفي الأيام التي سبقت الغزو، نظّم آلاف التلاميذ نشاطاً ومسيرات احتجاج. مؤسسة إتون، على سبيل المثال، سمح لخمسين ولداً بممارسة لعبة «المتغيّب» للتعبير عن وجهات نظرهم[65]. في مدرسة هيلينا رومانيس ومركز

الشكل السادس في دنمو بمقاطعة إسيكس، نظّم مئتا تلميذ احتجاجاً سلمياً. المدير ستيفن سميث رفض منعهم من ذلك، قال: «نحن لا نقبل نشاطاتهم لكن هناك درجة معيّنة من الحسّ العام يجب أن تطبّق»(66).

على أية حال، إحدى المسيرات الشبابية لم تكن سلمية جداً، حيث جرح شرطي واحد على الأقل في ساحة البرلمان، وما يثير السخرية أن أحداً من المتظاهرين لم يصب بأذى. إن صورة الشرطي الجريح هي فقط ما يود أناس مثل بوش استعماله، ومهاجمة رجال الشرطة يعتبر من حيث الأساس عملاً من أعمال الغضب والشغب. أتمنّى أن يتجّه مرتكبو ذلك العمل إلى أشكال أكثر ملائمة من التعبير، وإلا فإنهم سيضيّعون وقتهم وسيستغلّهم الشيطان. الإنجازات العظيمة في التاريخ لم يحققها الفوضويون؛ في الحقيقة، استلم هؤلاء أوضاعاً سيئة وجعلوها أسوأ.

العراق كان هكذا تقريباً؛ غزو القوات الأمريكية لذلك البلد واحتلاله لم يكن الحل للحالة السياسية في العراق، وكان ينبغي ترك رجال الشرطة العراقيين يترفون على أيدي «الحكومة» الجديدة، إذا كان ذلك هو الاسم الذي يطلقه مئات الآلاف من الجنود الشباب على أنفسهم. يجب عليهم هم أيضاً البحث عن أشكال أكثر ملائمة من التعبير، كما سنرى للأسف في الفصل التالي.

---

(1) Pers. com. from Chris Sanders
(2) *Morning Star,* 24 Januarry 2003
(3) *The Times,* 5 September 2002
(4) Ib.
(5) Excerpt from a 1933 speech by USMC Gen. Samuel Smedley Butler
(6) James, Michael. *The 'Blood Price' that could hang Tony Blair.* Essay posted on www.rense.com, June 2002
(7) Stokes, W.E.D. *The Right to be Well-born.* NY, 1917. p. 49
(8) Ib. p. 85
(9) *The Guardian,* 9 October 2002
(10) Ib.
(11) http://www.rense.com/general33/thrhr.htm
(12) *Atlanta Journal Constitution,* 29 September 2002
(13) *Independent,* 18 January 2003
(14) *Independent,* 22 January 2003
(15) http://www.dailyplanet.com/archives/week_2002_08_04.php
(16) Ib.
(17) http://www.mikehersch.comarticle_70.shtml
(18) *The Mirror,* 18 August 2002
(19) *Village Voice,* 13 November 2002

(20) *Daily Mail,* 17 August 2002
(21) *Alert Investor Newsletter,* 9 December 2002
(22) http://www.rense.com/general33/GOPrepsoverarrogance.htm
(23) Ib.
(24) *The Guardian,* 30 September 2002
(25) Ib.
(26) Ib.
(27) *The Guardian,* 22 November 2002
(28) http://rense.com/general30/datk.htm
(29) Ib.
(30) Ib.
(31) *The Times,* 23 May 2003
(32) Ib.
(33) http://www.rense.com/general31.pace.htm
(34) Ib.
(35) Ib.
(36) *The Press Democrat,* 28 November 2002
(37) Ib.
(38) http://onlilareinsrader.com/archives/000629.php
(39) http://www.impeach-bush-now.org/letters.htm
(40) *New York Times,* 8 October 2002
(41) Ib.
(42) Ib.
(43) Ib.
(44) http://www.rense.com/general32/Usrefusestohandover.htm
(45) *The Observer,* 2 March 2003
(46) *Sunday Mirror,* 16 February 2002
(47) Ib.
(48) *The Observer,* 16 February 2002
(49) *Sunday Mirror,* 16 February 2002
(50) *The Observer,* 16 February 2002
(51) Ib.
(52) Crosby, Alfred. *America, Russia, Hemp and Napoleon.* Ohio, OSUP, 1965. p. 72
(53) http://www.rense.com/general34/ngood.htm
(54) *Independent,* 16 February 2003
(55) Herer, Jack. *The Emperor Wears no Clothes.* Van Nuys, CA, AH-HA Publishing, 1999, p. 98
(56) *The Guardian,* 26 March 2003
(57) http://www.rense.com/general34/atop.htm
(58) *Village Voice,* 18-24 February 2003
(59) Ib.
(60) http://www.alert.net.org/thenews/N20212024.htm
(61) http://www.rense.com/general36/chen.htm
(62) *Miami Herald,* 13 March 2003
(63) Resignation letter by Jack Walters, 9 March 2003
(64) *Independent,* 16 February 2003
(65) *Daily Mail,* 21 March 2003
(66) Ib.



الفصل الثالث عشر

الحصار: الجزء الثاني من حرب الخليج

رسمياً، غزو العراق بدأ في 20 آذار (مارس) 2003. على أية حال، ذلك البلد كان قد قصف حتى قبل ذلك التاريخ، والضبط الدقيق لبدء تلك الأعمال الوحشية ليس أمراً سهلاً. بعض تلك الأعمال نُفّذ سراً وإذا لم تتحدث الصحافة عنه، فإن البعض يعتبر بأنه لم يحدث. لذلك، يمكننا اعتماد التاريخ أعلاه كأمر لا خلاف عليه، وهو التاريخ الذي تحركت فيه القوات البرية وعبرت الحدود العراقية من مواقعها في الكويت. القصف الجوي والسنوات الطويلة من العقوبات أضعفت العراق بحيث لم يتوقع أحد أن يواجه الهجوم البري مقاومة تذكر. هناك قصّة تُروى في العراق عن شاب كان يمشي في إحدى القرى أعزلاً من السلاح. وبّخه شيخ القرية، وسأله لم جاء بحثاً عن معركة. احتار الشاب وسأل الشيخ عما يعنيه بقوله، إذ من الواضح أنه أعزل تماماً من السلاح.

«تلك»، أجاب الشيخ، كانت المشكلة بالضبط[1].

والعراق، مثل الشاب الساذج، كان هو الملوم. بالطبع، المثقّفون الرسميون يعكسون المسألة، ويقولون لا، العراق هو الملوم لأنه كان يملك أسلحة دمار شامل، وبالرغم من دحض هذا الإدّعاء من قبل الضابط الأميركي السابق سكوت ريتر، الذي عمل بنشاط على نزع أسلحة العراق لعدّة سنوات وكان في موقع أفضل من أي شخص آخر من حيث معرفته للحقائق.

النتائج التي توصل إليها ريتر دعمها وأيدها عدد من الخبراء الآخرين، ومن ضمنهم الدكتور عماد خدّوري، العالم الفيزيائي الذي أدار وأشرف على البرنامج لمدة ثلاثين عاماً. وربما كانت تلك المزاعم هي التي جعلت من العراق هدفاً جذّاباً لهجوم شرس. في النتيجة النهائية، ربما منع هؤلاء الخبراء تلك الفوضى الكاملة بالقول أن العراق لديه رؤوس حربية نووية موجّهة نحو تكساس؛ حينئذٍ، قد يكون بوش وجد الطرف الأضعف الذي يمكن الاعتداء عليه.

في الحالتين، وقع اللوم على العراق، وهناك قاسم مشترك واحد وسط كل تلك الفوضى الكاملة: صدام حسين. لا يستطيع المرء تبرير أسباب أمريكا لغزو واحتلال العراق، والتي تتعارض بشكل واضح مع اتفاقية جنيف، لكن في الحقيقة، صدام وطاقمه كانوا متغطرسين، وكأن سقوطهم قدر محتوم؛ وأن ذلك السقوط سيتم على يد رجل قد يكون محظوظاً يدعى بوش. الغريب في كل ذلك هو سمة الثأر، والغريب أيضاً كان عدد المدنيين الذين كانوا يقودون الجيوش، والبعض منهم كان يحصل على مبالغ مالية هائلة من تلك الحرب. تشرشل وهتلر كانا هما الأبرز في المعركة، أما صدام حسين وبوش فكانا أقل شهرة بين الأطراف المشاركة في الحرب. الكثير من الجنود كانوا ضد الغزو، كانت أصواتهم ترتفع في أغلب الأحيان وتحرج بلير وبوش. دافعو الضرائب كانت تراودهم الشكوك أيضاً، وبينما كان الفقراء يزدادون فقراً، كان أصدقاء بوش وتشيني يبنون القصور الرائعة ويصوّتون لصالح تخفيض الضرائب على الأغنياء. وهنا تخطر في البال الكلمات التي قالها جندي وقائد مجرّب، وهي الكلمات الأكثر عقلانية التي استحوذت على اهتمام الكثيرين:

> احذر الزعيم الذي يدق طبول الحرب كي يصيب المواطنين بحمى الوطنية المتأججة، والوطنية في الحقيقة سيف ذو حدّين. وكلاهما يشجّع على سفك الدماء، كما يضيّق حدود العقل. وعندما تصل طبول الحرب درجة الحمّى و«ينغلق» العقل، لن يحتاج الزعيم عندئذٍ إلى الاستيلاء على حقوق المواطنين. بل أن المواطنين، المصابين بالخوف وعمى الوطنية، سيقدّمون حقوقهم طواعية للزعيم. كيف أعرف؟ هذا ما كنت أفعله. «وأنا القيصر» – يوليوس قيصر

محاولة تحويل المواطنية إلى حالة من الدعم الأعمى للحرب تمت معالجتها بطريقة أشد ذكاءِ، والمعلق الصحفي كورت نيمو ردّ على ذوي العقب الحديدية الذين يريدون أن يصبحوا قياصرة ببعض من واقعية القرن الحادي والعشرين:

ريدج أبلغ المراسلين قبل أيام أن الإنذارات التي صدرت الأسبوع الماضي حول الأعمال الإرهابية المحتملة «كانت هي الأهم منذ 9/11». «التهديد حقيقي»، قال محذّراً.

نعم، صحيح.

أنا لا استعجل الوصول إلى المخزن. لا أشتري بضاعة الدعاية لحرب بوش. أنا لا أعتقد أن تنظيم القاعدة قادر على شن هجوم كيميائي أو بيولوجي من أي مكان قريب كما يزعم بوش وريدج ووسائل الإعلام المرتبطة بالشركات. المسألة ليست أكثر من إثارة الفزع بالوحش الخيالي الذي يُستخدم في الغالب لإخافة الناس وإجبارهم على الرضوخ. هل هناك مسلمين متطرفين مستعدين لقتل الأمريكيين إذا أتيحت لهم الفرصة؟

لقد أصبت.

هنالك أيضاً إسرائيليين متطرفين يقتلون الفلسطينيين، ومتطرفين هندوس يقتلون المسلمين، وهناك السائقين المتطرفين الذين يدفعونك خارج الطريق كي يستديروا لتغيير اتجاههم. وأنا أشد قلقاً بشأن الصنف الأخير من المتطرفين أكثر من قلقلي من أي شيء قد يفعله (ومن الأرجح ألا يفعله) أسامة بن لادن. أنا أكثر قلقاً بشأن بعض الأشقياء المسلحين بالبنادق الذين قد يطلقون النار حين أخرج لابتياع أغطيتي البلاستيكية وأشرطة الفيديو، أكثر من قلقي من أن أصبح هدفاً «سهلاً» للقاعدة. أنا أكثر قلقاً بشأن توم ريدج ووزارة الأمن الداخلي، جون آشكروفت ووزارة العدل، وما تخبئه الوكالة الفدرالية لحالات الطوارئ لي ولغيري ممن لا يصدقون أن ما يسمّى بالإنذارات الإرهابية هي مجرد كلام فارغ صافي ونقي، ولمن يعتقد أيضاً أن بوش مدّع وأن غزو العراق غير شرعي وهو جريمة كبرى ضد الإنسانية. الآن لا تفهمني خطأ. أعتقد أن هناك فرصة جيدة باحتمال وقوع نوع من الهجوم «الإرهابي» في المستقبل القريب.

بوش يحتاج إلى هجوم إرهابي، إذاً سيحدث هجوم[2].

حين بدأ الجمهور بمساءلة السلطة، أصبحت فكرة ارتكاب جريمة هائلة، بتحريض من مصادر استخباراتية مجهولة، أصبحت مثل ارتكاب جريمة قتل. اعتقال البريطاني البريء، ديريك بوند البالغ من العمر 72 عاماً، أيقظ عدداً من الناس. بوند المذكور، الذي سافر إلى

جنوب أفريقيا في 6 شباط (فبراير) 2003، تم احتجازه من قبل السلطات بطلب من مكتب التحقيقات الفدرالي[3] ووضع في الحجز لمدة عشرين يوماً. وجهه كان مختلفاً بكل وضوح عن وجه المشتبه به المطلوب، ديريك سايكس، الذي كان في الحقيقة يعيش حياة رغدة وهانئة في لاس فيجاس. ناشدت زوجة بوند وعائلته مكتب التحقيقات الفدرالي الإفراج عنه، وبوند نفسه كان راغباً في ترحيله إلى الولايات المتحدة ليثبت براءته. القضية كانت شديدة الغباء، واستضافت هيئة الإذاعة البريطانية غرفة دردشة على شبكة الإنترنت كي يطالب الناس بإطلاق سراحه. التعليقات كانت ملفتة، مثل،

> ...ألقيتم القبض على الرجل الخطأ، أنتم مهرّجون! لكن تخيّل الآن أنّك تواجه حكم الإعدام في تكساس وأنت لم تفعل شيئاً.
>
> اعتقال شخص متقاعد بشكل خاطئ ووضعه في الحجز من قبل مكتب التحقيقات الفدرالي أثناء قضائه لعطلته ليس سوى أمر مخزٍ جداً. ولو أنهم كانوا مهتمين بالفعل بأداء أبسط واجباتهم الأولية، مثل مقارنة صورة المجرم المطلوب مع وجه السّيد بوند، على سبيل المثال، لما احتاجوا إلى أيام ليكتشفوا أنهم اعتقلوا الرجل الخطأ... غرورهم مريع!
>
> ما هو مستوى ثقتنا بأجهزة مخابرات الولايات المتحدة الأمريكية فيما يتعلق بحرب محتملة مع العراق... ماذا يعني برأيهم وضع رجل عجوز في سجن جنوب أفريقي؟ أمر معيب! ماذا بعد؟ حرب عالمية ثالثة؟[4]

الحرب العالمية الثالثة، أو الحرب العالمية الرابعة كما يحب أن يسميها المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية جيمس ولزي، لا تحظى بقبول جماهيري واسع، والجماهير الواسعة، كما لاحظ هيرمان غورنغ، لا تريد عادة دخول الحرب، ما لم توخز؛ الوخز هو المطلوب بالتأكيد إذا أراد مشعلو نار الحرب تنفيذ جدول أعمالهم، وأحد أنواع الوخز كان على شكل مذكرات بعثت بها الولايات المتحدة إلى دبلوماسييها تحثّهم فيها على جمع «السلسلة الكاملة من المعلومات التي يمكن أن تعطي صانعي السياسة الأمريكان إمكانية الحصول على النتائج المناسبة لأهداف الولايات المتحدة أو لصد المفاجئات»[5]. يُفهم من ذلك وضع الخطط لاعتراض المكالمات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني التي يرسلها أو يتلقاها أعضاء مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة.

إحدى البلدان التي ربما أرادوا التجسّس عليها كانت تركيا؛ فبدون مساعدها، اضطرت أمريكا لحشد القوّات البرية في الجبهة الجنوبية. قرّرت تركيا أن لا تكون جزءاً من الأعمال الوحشية، والعربية السعودية لم تكن راغبة في انطلاق الغزو. الانطلاق من الجبهة الجنوبية يعني أن تسير القوات البرية مسافة أربعمائة ميل عبر رمال الصحراء كي تصل إلى بغداد. وحين تجمّعت القوّات في الكويت وأم قصر، كان الجنود العراقيون منهكين وأرادوا الاستسلام، لكنهم أعيدوا وقيل لهم أن ينتظروا البداية الرسمية. بحلول شهر آذار (مارس) كان 300 ألف جندي تقريباً مستعدّين لمواجهة شمس ورمال أرض ليست لهم، وحين شدّوا أعصابهم ليفعلوا ذلك، بدأ الجانب المضحك من المسألة بالظهور. إلى جانب الرجال كان هناك عدد من المجندات، مثل ريتا براون، التي صادف وأنها كانت مواطنة فرنسية تقاتل من أجل الولايات المتّحدة ومتزوّجة من جندي أمريكي سابق[6]. بعد أن انتهت براون من تلميع حذائها العسكري، وأصبحت مستعدة للقتال من أجل البلد الذي أبدى مواطنوه رغبتهم في «قصف فرنسا»، وضعت إحدى رفيقاتها في السلاح أحمر الشفاه وتمتمت «الحرب مثيرة جنسياً»[7].

أعذار للغياب

من المعروف أن جورج دبليو بوش حين أدى خدمته العسكرية القصيرة في تكساس وحولها كضابط في سلاح الجو، لم يكن دائم الحضور لأداء الواجب. ربما كان يسير على خطا مثاله الملهم الضابط في سلاح البحرية ستيفن إيجل فونك، الذي لم يلتحق بالخدمة. فونك، على أية حال، لم يكن مبهماً حول مكان وجوده أو أسباب غيابه عن الخدمة؛ صرّح بأنه يعتقد أن الحرب «لا أخلاقية بسبب المكر الذي يضمره زعماؤنا»[8]. مشاعره تلك كانت مشتركة مع عدد من الجنود البريطانيين الذين نُقل عن أحد ضباطهم، جلبرت بلادز، قوله أنهم لم يريدوا الاشتراك في قتل المدنيين الأبرياء[9]. وربما أدت معرفة ما هو جارٍ بالفعل إلى حدوث حالة غياب أخرى عن الخدمة، حيث فر المدعو تاكوما والبالغ من العمر اثنان وعشرون عاماً. هذه الحادثة كانت ضربة للروح المعنوية، باعتبار أن تاكوما كان مشهوراً على وجه الخصوص بذكائه وقدراته الفريدة؛ تاكوما كان في الحقيقة دولفيناً شماماً من دلافين المحيط الأطلسي، جُلب إلى الخليج ليعمل كاشف ألغام[10]. الدجاج كان من بين الحيوانات الأخرى التي جُلبت

إلى سيرك الدمار، جُلب لاستخدامه كمجسّات حية لاستكشاف الأسلحة الكيميائية. طيور الدجاج، على أية حال، لم تنج وانتهت كطعام للجنود. ثمّ أطلق الحمام، وهذا من تقاليد الجيش الأمريكي الذي استعمل قديماً الحمام الزاجل. أحد الضابط الأمريكيين، ويندل ليفي، اشتهر حتى اليوم بكتابه القيم حول هذا الموضوع والذي يحمل عنوان «الحمامة»[11].

الصديق وراء ظهرك

إحدى العبارات التي استُعملت مرارا وتكرارا أثناء الغزو هي عبارة «قوات التحالف». وهذا مصطلح فضفاض قليلاً، باعتبار أن الكثير من الدول التي شاركت في حرب الخليج الأولى لم تتدخل في هذه الحرب. الكنديون، في اللحظة الأخيرة، قرّروا البقاء خارج اللعبة؛ وربما كانت لديهم بعض التحفظات المتعلقة بعدم إجراء تحقيق جدي في موت أربعة من جنودهم، بالإضافة إلى الأكاذيب التي روجها الحكومة الأمريكية حول الملازم أوّل فريلاند وأحداث 9/11 والتي تركت شكوكاً لدى العديد من الكنديين[12]. وفي الوقت الذي شعرت فيه الولايات المتحدة بالمهانة لخسارتها حليف في غزوها للعراق، لم يخفف من تلك المهانة وضع جنود البحرية الأمريكيين تحت قيادة البحرية الملكية. في الثاني عشر من آذار (مارس) قتل ثمانية جنود بريطانيين، ليس بنيران عراقية، بل نتيجة أخطاء الأمريكيين حين تحطّمت مروحية أمريكية من طراز فارس البحر سي إتش-46[13]. النيران الصديقة كانت المصدر الرئيسي للاحتكاك بين القوات. بعد ثلاثة أيام، أسقط صاروخ باتريوت طائرة تورنادو تابعة لسلاح الجو الملكي، وقد علّق على ذلك ضابط كبير من سلاح الجو الملكي في الكويت،

> الشعور في القاعدة كان مزيجاً من الصدمة وعدم التصديق المطلق. ثم برز ألف سؤال. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟
>
> إن الولايات المتحدة تعتذر بشدّة – سيفيدنا ذلك كثيراً. هؤلاء الرجال كالعائلة. يعيشون ويعملون معاً[14].

قائد المجموعة النقيب سايمون دوب لاحظ أن لا شيء يشير إلى أن طائرة التورنادو كانت في المكان الخطأ أو أنها فعلت أي شئ للتسبّب بانطلاق صاروخ الباتريوت. مصدر آخر في

سلاح الجو الملكي في الكويت قال: «لا يمكن التصديق أبداً بأنك يمكن أن تخطئ في تحديد هوية طائرة بالنسبة للصاروخ»[15].

في الثامن العشرين من ذلك الشهر، كانت طائرة أمريكية «تتصرف كرعاة البقر» في منطقة تحرسها قوات بريطانية، ثم فتحت نيرانها على جنود بريطانيين من سلاح الفرسان فقتلت واحداً وجرحت أربعة[16]. حتى ذلك التاريخ كان قد قُتل ثلاثة وعشرون بريطانياً، أربعة منهم فقط قتلوا في معارك مع العراقيين.

أثناء تنفيذهم لدوريات راجلة، ارتفعت أصوات بعض جنود البحرية منتقدين حلفائهم الأمريكيين. «كانوا يردون على أيّ شيء بقصف من الدبابات أو بجولة من القصف الجوي الشديد»، قال أحد الضابط الكبار الذي طلب عدم ذكر اسمه. «كانوا يستقلون عرباهم التي تنطلق هادرة على الطرقات كلّما سمعوا طلقة. قتلوا الكثير من المدنيين»

السكان المحليون كانوا حذرين جداً حين تسلّم جنود البحرية المهام من القوات الأمريكية، قال الضابط: «لكن عندما خرجنا وبدأنا بالكلام معهم، تصرفوا على نحو مختلف كلياً».

كان جنود البحرية منتشرين في الشوارع ويتعاملون مع الرجال العراقيين ويساعدونهم في البحث عن أبنائهم المفقودين ويواجهون سيلاً من طلبات الغذاء والسجائر والماء. مجموعة من العراقيين كانت تهتز بمشاعر خاصة وهي تشير إلى بيوت أصابها دمار شديد.

«الناس المحليون هنا كانوا يخبروننا فقط عما فعله اليانكيون – قصفوا تلك... كلّ شيء»، قال أحد الجنود.

الجندي في البحرية ليام إيلي، 23 عاماً من كاردف، وصف الأمر بشكل مؤدّب أكثر، حيث قال «اليانكيون يكسّرون البندق بمطرقة ثقيلة».

الرائد دومينيك «ديزي» ماي قال أن الأسلوب البريطاني كان يعتمد على «عرض القدرة الهائلة على ارتكاب أعمال العنف، لكن الثقة بالنفس هي ألا تستعملها». جيمس ليونز[17]

الخلافات لم تنحصر في الخنادق، إذ لا مهرب من ملاحظة أن أمريكا كانت تمنح نفسها كل العقود لإعادة إعمار العراق. القوات البريطانية ألحت على تعيين مدير وموظفين عراقيين لتشغيل ميناء أم قصر، لكن الولايات المتحدة تجاهلت هذه الحكمة الثمينة ومنحت العقد

لشركة «ستيفدورينغ للخدمات في سياتل». كان المدير العراقي السابق للميناء تحت الحراسة، وكان في نية الضبّاط البريطانيين إعادة تنصيبه[18]. القضايا المتعلقة بحكم العراق والمساعدات الإنسانية شكّلت نقطة خلاف أيضاً بين لندن وواشنطن، حيث كافحت الحكومة البريطانية للحصول على التأييد الأمريكي لقرار يصدر عن الأمم المتحدة لتقديم المساعدات وإعادة الإعمار، «اضطررنا للتفاوض مع بعض العناصر الأكثر يمينية في الولايات المتحدة»، كما قال مسؤول حكومي بريطاني[19].

ما لم تفهمه المملكة المتحدة قد يكون الجانب النفسي لتجار الأسلحة الأمريكيين، وفشل الوايتهول في فهم ذلك لا يعتبر ضعفاً في العام 2003 فحسب، بل هو العيب والخلل الرئيسي الذي سمح باندلاع الحرب العالمية الثانية. في تلك الحرب، خان المعتوهون اليمينيون في الولايات المتحدة المملكة المتحدة بتسليح هتلر. عندما بدأ هتلر بشن الحروب، باعت شركات مثل «دوبونت» الأسلحة لكل من هتلر والبريطانيين[20]. لذلك يمكن القول أن صراخ أمريكا حول دعمها ومساندتها لأوروبا في الحرب العالمية الثانية هو مجرد هراء، لا، كسبوا مالاً كثيراً من ذلك، ولو أن الحكومة الأمريكية كانت واعية في التعامل مع «دوبونت»، لكان هتلر مجرد هامش في التاريخ. مرة أخرى تم تجهيز المسرح حيث أصبح الآن البلد الذي سلّحه تجار الأسلحة الأمريكيون هدفاً لهجوم الولايات المتحدة، وبمساعدة من المملكة المتحدة، والغاية الفعلية من ذلك هي زيادة ثروات تجار الأسلحة الأمريكيين. على أية حال، ضمن هذا السياق لم تكن الشخصية البريطانية موضع ترحيب من قبل تجّار الأسلحة، وذلك بعد أن اختلط جنود مشاة البحرية الملكية بالسكان المحليين في الأرض التي عاشت فيها جيرترود بيل وسافر خلال أرجائها المستشرق واللغوي المقدّم دوغلاس كرافن فيلوت.

على خطى فيلوت، الذي طيّر الصقور مع العرب والبنجابيين، سار الجيش البريطاني الذي زحف إلى العراق، واختلط ضبّاط مثل الملازم أوّل تيم كوليتز مع السكان المحليين، وسمح لشفرة حلاق عراقي أن تصل إلى رأسه، فكانت النتيجة حلاقة ناعمة جداً وشعر قصير جداً؛ لم يكن كوليتز يمتلك المهارات اللغوية التي امتلكها فيلوت، لذلك ارتبك كثيراً حين حاول جعل حلاقه، الذي قصّ شعره بحماس ودون مقابل، يفهم متى يتوقّف[21].

في خور الزبير، وضع العراقيون البريطانيين أمام التحدي الذي تجاوز اللغة وطول الشعر أو حتى الحياة أو الموت في معركة؛ أحد عشر شاباً من أفضل شبابهم ظهروا في قمصان فريق الآرسنال الزرقاء والصفراء، فقفز جنود البحرية إلى الملعب، ووضعوا جانباً أسلحتهم وثيابهم العسكرية وارتدوا القمصان والسراويل القصيرة للاشتراك في المباراة[22]، وسط مشاعر رياضية صادقة لا يمكن حتى لوكالة المخابرات المركزية وصدام حسين أن يستخلصاها من الشعب العراقي.

وحين حمي وطيس المعارك، تعاظمت واشتدت قضية المساعدات الإنسانية. بلد أنهكه الحصار والعقوبات يتعرض الآن لهجوم قاس من بلد مدجج بالأسلحة. القنابل كانت جاهزة لإزالة مدن بأكملها عن سطح الأرض، وتأثير الدمار ترك الناس بلا ماء ولا إمدادات غذائية أو طبية وبلا بنية تحتية. لم يكن الناس يموتون نتيجة للقصف فقط، بل كانوا يموتون ببطء وعذاب من الجوع والمرض. في ضوء ذلك، وضعت بريطانيا وفرنسا خلافاتهما جانباً ودعمتا قرار الأمم المتحدة القاضي بتقديم المساعدات الإنسانية للشعب العراقي، والذي سمّاه غونتر بليغر مندوب ألمانيا في الأمم المتحدة «برنامج المساعدات الإنسانية الأكبر في تاريخ الأمم المتحدة»[23]. تضمّن برنامج المساعدات شحن 230 طن من الشحنات، ومن ضمن ذلك الماء، الحليب المجفف والبطانيات والإمدادات الطبيّة، وذلك على متن الباخرة «السّير غالاهاد». حين بدأ توزيع تلك المساعدات من قبل جنود مشاة البحرية الملكية في شوارع أم قصر، تخلّص الناس من خوفهم من صدام حسين وتقدّموا لاستلام رزم المساعدات، التي تحتوي أيضاً الشوكولاتة للأطفال[24].

جرحى الحقيقة

مايكل موور، في مراسم توزيع الجوائز الأكاديمية في هوليود، امتلك الشجاعة لتقييم الغزو بأمانة وسمّاه حرباً كلامية. كان محقاً حول الدوافع من ناحية تجّار الأسلحة الأغنياء والطمّاعين، لكن الوفيّات والإصابات لم تكن مزيّفة. ربما لم ير ذلك الزعماء المسؤولون الجالسون في مكاتبهم الرسمية المريحة، الذين أفسدتهم وأعمتهم الراحة والبيئة الغنية. بلير لم يبد كمن يريد رؤية الحقيقة، ورفضه لحضور جنازة أول جندي بريطاني قتل في الحرب جعل

الكثير من البريطانيين يشعرون بالقرف والاشمئزاز. مراسم الجنازة كانت في عطلة نهاية الأسبوع، وكانت ستأخذ من وقت رئيس الوزراء ساعة أو نحوها إذا انعطف في طريقه وهو متجه إلى المصيف الغني لتشيكرز، المنتجع المعتاد لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. بالنسبة للأمريكيين، تضاعفت صدمتهم بإصاباتهم لأن الكثير منها جاء على أيدي الجنود الأمريكيين. مهندس من معسكر بنسلفانيا في الفرقة 101 اتهم برمي قنابل على إحدى الخيم في أواخر شهر آذار (مارس)، وهو العمل الذي أدّى إلى موت ضابطين وسقوط عدّة جرحى[25]. في الثاني والعشرين من ذلك الشهر، فقد جندي شاب من المارينز حياته في المعركة، فتوجّه أبوه، مايكل وارترز–بي من بالتيمور بولاية ميريلاند، إلى التلفزيون لانتقاد بوش ونعته بالخاسر. رفع صورة ابنه، وقال: «أريد من الرئيس بوش أن يلقي نظرة فاحصة على هذه الصورة، نظرة فاحصة جداً. هذا هو ابني الوحيد، كان عمره 26 عاماً فقط»[26]. ثمّ انصرف باكياً وعائلته تتبعه. بوش قد يكون رئيساً مزيّفاً، لكن الحرب حقيقية. ومن المحزن أن تركّز بعض محطات التلفزيون على ما في الحرب من مشاعر عظيمة وألا يكون لديها جميعاً ما لدى مايكل موور من حس سليم. لا يمكنهم أبداً أن يعوّضوا ذلك الرجل عن ابنه.

وارترز–بي لم يكن الأب الوحيد الذي وجّه كلمات قاسية لبوش؛ الشخص الآخر كان الدكتور جيني بولليز، الذي كان في ألمانيا يعالج الجنود الجرحى. قال: «إنها معقّمة بشكل مقرف على التلفزيون»، ثم أضاف،

> لدينا عدد من الإصابات الشنيعة جداً التي تعطي صورة عن الحرب. بعضهم فقد الأذرع، السيقان، الأيدي، بعضهم احترق، بعضهم كان يعاني من إصابات خطيرة في الدماغ وأضرار في الأطراف العصبية الخارجية. هؤلاء الأولاد الذين لا زالوا في مقتبل العمر سيعانون، بطرق مختلفة، من تلك الإصابات مدى الحياة. أنا لا أشعر أن الناس يدركون ذلك[27].

لم يسر الغزو بالسهولة التي كان يتصورها المخططون، ومزاج الجنود بدأ يصبح عصبياً أكثر، كذلك كانت حالة الرأي العام والأسواق. عندما تسلّق ثلاثة شبان جسر ويليامسبرغ في بروكلن[28]، دفع الشعور بالحيرة والتردد الدولار إلى الأسفل مقابل العملات العالمية. كلمة خاطئة يمكن أن تخلق حالة من الرعب، وحول ذلك المزاج العام علّقت الملازم أوّل في الجيش الأمريكي ساره كريلي: «شعرت بتحسن كبير حين اعتقدت أن الأمر لن يستغرق أكثر من

يوم. الجنود في حالة الاستنفار يخافون من كل شيء، يرتعبون عندما يرون كلباً أو جملاً»[29]. حين أُسقطت مروحية بلاكهوك أمريكية في وسط العراق، ازداد المزاج سوءاً؛ كان ذلك هو صدى الكارثة التي حلت بنا في الصومال.

إذا كانت التقارير المصورة حول الجرحى والإصابات مزعجة، فإن حقيقة استخدام اليورانيوم المنضّب كانت بمثابة الكابوس الذي يُعرض بحركة بطيئة؛ في الحقيقة، كانت تلك الحرب حرباً نووية، من خلال استخدام الأطنان هذه المادّة الرهيبة في العراق. بالطبع، هذه ليست مشكلة، بعض تجار الحرب يصوّرون تلك المادة وكأنها آمنة تماماً كالماء. حسناً، فهم لن يشربوا ذلك الماء، لن يسبحوا فيه، ولن تكون لهم أية علاقة به باستثناء جمع الكثير من المال. الرجال البيض الأغبياء ليسوا بذلك الغباء. في الحقيقة، قد يتأملون بما فيه الكفاية لقراءة التقارير التي يضعها خبراء مثل الدّكتور دوغ روكي، المدير السابق لمشروع اليورانيوم المنضّب في الجيش، والذي يخبرنا «بأن الناس مرضى هناك»[30]. روكي، الذي ليس عضواً، مثل الكثيرين، في نادي «سكول آند بونز»، يقول الحقيقة. وحقيقته ليست جنسية جداً كالحرب، أو بالأحرى المنصة التي أدارت تقارير الحرب التي تظهر دقيقة كالساعة على شاشة التلفزيون، جاهزة لكي يستقبلها الجمهور القلق بهتافات البهجة، ذلك الجمهور السعيد بالتغاضي عن الأعمال الوحشية الواضحة. هذا الجمهور المحتشد يمكن أن يدمّر بحماسته الحقائق، وهو جمهور غير مريح قليلاً بالنسبة لمحاربي جورج بوش الأب البالغ عددهم 209 آلاف والذين يعانون من مضاعفات صحية بسبب استعمال المواد المشعّة. أيمي ورذينغتن من صحيفة «إداهو أوبزرفر» كتبت أن «القوّات الأمريكية والبريطانية التي تم نشرها في المنطقة تمشي وهي ميتة. البشر والحيوانات والأصدقاء والخصوم في محيط منطقة استخدام المواد المشعة سيتزلقون في منحدر لولبي طويل من المرض والعجز المزمن»[31].

قذائف اليورانيوم المنضّب تشتعل عند اصطدامها بهدفها فيتبخّر منها اليورانيوم والبلوتونيوم و«الأمريكيوم» فيتحوّل إلى غبار مشعّ. عند استنشاق ذلك الغبار المشع، تسكن أكسيدات اليورانيوم في الجسم وترسل إشعاعاً غير محدد[32]. الخبير في المجال الإشعاعي روجر كوغهيل قال بأنّ جزيئة وحيدة من اليورانيوم المنضّب إذا سكنت في العقدة اللمفاوية يمكنها أن تدمّر

كامل نظام المناعة[33]. بيانات الجمعية الملكية الإنجليزية تبيّن أن استنشاق اليورانيوم المنضّب يمكن أن يلحق بالجسم أضراراً كلية خلال أيام[34]، ووجد الدّكتور آساف دوراكوفيتش من جامعة جورج تاون أن نسبة 62% من الجنود المرضى ليدهم إشعاعات؛ في بعض الحالات، أدّى التواصل الحميم بينهم وبين أشخاص آخرين إلى شعور الطرف الآخر بأحاسيس محرقة وأمراض منهكة[35].

إنقاذ العريف لنتش

بالنسبة للكثيرين، ليس هذا هو النوع الذي يريدون سماعه من المعلومات. سيستمتع هؤلاء بسماع قصّة ملحمية مضخّمة، والقصّة الرسمية لإنقاذ العريف جيسيكا لنتش تلبي هذه الرغبة بالتحديد. إنها من نوع الحكايات التي قد يحب جيري فالويل الاستماع إليها أثناء أحد برامجه التبشيرية، ربما أثناء المرور فوق جسد أحد الشرق أوسطيين ممن ينتعلون الصنادل والذين يعارضون الشركات العابرة للقارات مثل جنرال موتورز التي دعمت النازيين وسمحت لعصابات الكو كلكس كلان بالعمل في مصانعها. هوليود قد تختار ميل جيبسن للعب دور في فيلم حول هذه الحادثة، وأنا مسرور بكوني غير معجب بهذا الممثل. لذلك، وقبل أن تتم كتابة سيناريو الفيلم، دعوني أضع الحقيقة في نصابها. سائق سيارة إسعاف حاول تسليم العريف لنتش إلى جنود المارينز الأمريكيين، لكنه النار أطلقت عليه من قبل الجنود الذين رفضوا الإقرار بمهمّته[36]. وبالعودة إلى المستشفى، كانت لنتش تحت رعاية الدكتور حارث، الذي كانت تثق برعايته لها بشكل خاص. يروي الدكتور حارث بأنها كانت خائفة جداً حين أفاقت، وكان لا بد له من إعادة طمأنتها بأنها لم تعد في خطر. أثناء إحدى جولات القصف خرج ليجلب لها شرابها المفضّل، عصير البرتقال، وشجّعها على تناول الطعام، فردت عليه ممازحة «أريد المحافظة على رشاقتي». كانت موضوعة تحت حراسة مشددة، وكانت تشعر بالثقة بالدكتور حارث، فحدّثته عن حبيبها، زميلها الجندي روبن[37].

في مرحلة ما، خاطر محام عراقي اسمه محمد، الذي تعمل زوجته في المستشفى، بحياته لإخبار جنود المارينز الأمريكيين عن مكان وجودها. قال لها أن لا تقلق وبعد ذلك سار عدّة أميال إلى القاعدة العسكرية الأمريكية. أخبر الجنود عن مكانها، وفي تقريره ذكر بأنّه رآها تُصفع

من قبل أحد الحرّاس، وهو المشهد الذي أزعجه[38]. نظّم الجنود عملية إنقاذ، وموظّفو المستشفى يتذكّرون بأن عملية الإنقاذ لم تكن فقط فعلاً مبالغاً فيه على نمط أفلام هوليود، بل كانت عملاً خطراً من ناحية استهتاره بالحياة الإنسانية. أربعة أطباء ومريضين، أحدهما كان يتلقى قطرات المصل عبر الوريد، رُبطوا بينما كان الجنود يفتشون المستشفى. وبمنتهى الغرابة شقّ الجنود طريقهم حاملين سريراً خاصاً، مصمّم للمرضى ذوي القروح الجلدية[39]. الدكتور حارث قال: «أشعر بالحزن لأنني لن أرى جيسيكا ثانية، وأشعر بالسعادة لأنها عادت إلى حياتها. ولو أمكنني التحدث إليها لقلت لها... أطيب التهاني»[40].

السجناء والمحتجّون

بالمقارنة مع مشهد العريف لنتش التي كانت قادرة على إجراء دردشة شخصية مع طبيب حنون في الناصرية، هناك مشهد آلاف السجناء العراقيين المحتجزين خلافاً وانتهاكاً لاتفاقية جنيف، بانتظار محاكمتهم على أيدي الأمريكيين. بأية جريمة؟ هل انتقدوا بوش؟ ألم يكن هؤلاء الناس في بيوتهم الخاصة؟ نحصل الآن على القوانين الجديدة كل أسبوع، ومن يدري ما هو الهراء الذي ستقدمه لنا واشنطن حول هذه المسألة. الشيء الجيد أنهم يضعون القوانين على هواهم، ولولا ذلك لكان بوش في السجن منذ زمن طويل، وبناء على ذلك، حين يتم اعتقال هذا الرجل، فإن معتقل غوانتانامو سيكون ملائماً له؛ فهو يقع في نفس البلد الذي خطّطت الولايات المتّحدة سابقاً لغزوه بعد أن تشن على نفسها هجمات إرهابية وتثير مشاعر عدائية لدى الناس ضد الكوبيين[41]. لذلك، كان سيفكّر طويلاً بشأن خليج غوانتانامو، وهو لن يكون قادراً على الاعتراض عليه إذا كان مصيره السجن فيه.

أحد أسرى الحرب في العراق الذي أراد الاعتراض كان لغزاً حديثاً جداً؛ يتكلّم الإنجليزية بطلاقة، وبلهجة مانشستر. استسلم لقوات الحرس الإرلنديين، وعلى ما يبدو بعد أن فقد إرادة القتال بعد وصوله إلى العراق. عندما طلب منه العمل كمترجم، أصبح سيئ المزاج، وكان متهوراً إلى حد إخبار آسريه بأنه كان سيعود إلى المملكة المتحدة ويعيش على المساعدات الحكومية[42]. اتفاقية جنيف تحرّم معاقبته، ومن حسن حظّه أنه كان أسيراً لدى البريطانيين، وليس الأمريكيين. كان قادراً على التخفيف من سوء حالته، لكن الكثيرين لم

يكونوا قادرين على ذلك. على أية حال، العالم لم يكن ضد أولئك المأخوذين أسرى في وطنهم، ومحنتهم كانت من أسباب الاحتجاجات الكثيرة. بعض تلك الاحتجاجات أودت بحياة النشطاء، مثل راشيل كوري التي قتلتها إسرائيل بينما كانت تحاول منع تدمير بيت فلسطيني. في اللحظات الأخيرة من حياتها فعلت ما ينبغي علينا جميعاً أن نفعله، نظرت في عين أحد الجناة[43]. قصّتها هُمّشت في الصحافة، وتم تسريب مذكرة في نيويورك بخصوص التغطية طلبت من الصحفيين التقليل من قيمة القصّة[44]. أين كان جميع هؤلاء «الوطنيين» حين قتلت مواطنة أمريكية أثناء قيامها بعمل نافع؟ أحد زملائها الأمريكيين، جوزف سميث من ميسسوري، سرد القصة كشاهد عيان فقال: «كانت تجلس في طريق الجرافة. سائق الجرافة رآها ومرّ فوقها... كان يعرف بالتأكيد بأنّها كانت موجودة هناك»[45]. غريغ شابيل من إلينويز أيّد ذلك، وقال أنهم صرخوا في السائق كي يتوقّف، والذي لم يتجاهل التحذير فقط، بل تراجع بالجرّافة إلى الخلف ماراً فوق جسدها مرة أخرى[46]. أمريكا تركت هذه الحادثة تمر دون مساءلة، والأمر ليس مفاجئاً بوجود الحكومة اليمينية في إسرائيل التي تدّعي أنّ الله إلى جانبها، تماماً مثل إدارة بوش. لم تبد أي من الحكومتين أدنى اهتمام براشيل كوري.

بعد أيام من هذه الحادثة، أطلقت النار على تيم هورندال من المملكة المتحدة وظل في غيبوبة في إسرائيل، في ظروف مشابهة تقريباً. حين أتى أبواه من شمال لندن لزيارته، تعرضا أيضاً للضرب من قبل الإسرائيليين[47].

مواعظ عيد الفصح في المملكة المتحدة تضمّنت رسائل احتجاج شديد، قادها الدكتور فينلاي ماكدونالد، الذي أشار إلى «كميات فاحشة من المال»[48] صرفت على القنابل والتي كان يمكن الاستفادة منها في تخفيف كثيراً من المعاناة في العالم. عبر الجزر البريطانية، كان الأطفال يرفعون أصواتهم معبّرين عن نفس الأفكار، ونظّموا أنفسهم في عرض لم يسبق له مثيل تعبيراً عن الحسّ العام مما سبب كثيراً من الحرج للسياسيين وتجّار الأسلحة. الكهنة والأطفال، واليساريون، لكن ليس بكل المعاني؛ بيتر هيتشنز، المشهور بوجهة نظره المحافظة، تحدّث أيضاً وتساءل: «لماذا يعتقد الناس تلقائياً أن الحرب وطنية ومحافظة؟»[49].

الروائي باولو كويلهو كتب رسالة «مديح» مفتوحة لبوش، مستعملاً سلاح التهكّم ضد الرجل الذي يستعمل أسلحة الدمار الشامل ضد الأطفال الرضّع مثلما فعل هتلر. «شكراً للسماح لكولن باول بأن يجعل من نفسه أحمقاً تماماً»، يقول كويلهو، «شكراً لقيامكم بما يلزم كي يتوجه طوني بلير إلى البرلمان البريطاني حاملاً ملفاً ملفقاً يتضمن تقريراً كتبه طالب قبل عشر سنوات»[50].

وبينما لا يستطيع التهكّم أن يخترق جدران البيت الأبيض، تتاح لإجراءات المعاقبة الفرصة في ذلك، وقد ظهر إعلان على صفحة كاملة في صحيفة النيويورك تايمز يحث على ذلك بالضبط[51]. في تلك المدينة، تظاهر أكثر من 100 ألف شخص احتجاجاً حين بدأ الغزو. كانت المظاهرة سلمية، وقد لاحظ المؤلف إد مير انسجام الموكب، وقد بدت إمارات الإحساس بالتعاطف على بعض أعضاء مديرية شرطة نيويورك[52]. سكان بوسطن، بعد أسبوع، نظّموا مسيرة فريدة جداً ، حيث مثّل 50 ألفاً منهم مشهد الموت وتمددوا بصمت في الشارع، و لم يكسر ذلك الصمت سوى أجراس كنيسة قريبة كانت تقرع ضد بوش[53]. في أوائل نيسان (أبريل)، ألقى عضو الكونغرس دنيس كوشينيش خطاباً في البيت، مطالباً بوضع نهاية فورية للغزو. قال: «نحن لا ندافع عن أمريكا في العراق. العراق ليس له قدرة على مهاجمة هذه الأمة»[54].

كلمة واحدة إضافية من قبل الأمريكيين عبر التلفزيون حول «المساعدات الإنسانية» ستجعلني أقتل تلفزيوني. عندهم الجرأة على تحويلنا إلى شحاذين بينما نضطر لدفع تكاليف الأبحاث وتطوير الأسلحة التي يجعلوننا حقول تجارب لاختبارها وهم يفعلون ذلك كما لو أنّهم يساعدوننا. ــ سلام باكس، 7 نيسان (أبريل) 2003[55]

على الرغم من صوت المنطق، العديد من الناس في الولايات المتّحدة دعموا الغزو بشدّة؛ ريح باردة كانت تنفخ، وبعض الناس تلقوا التهديدات عبر الهاتف والبريد الإلكتروني، كما أن مقدّم أحد برامج الحوارات كان يدعو إلى قتل الناشطين ضد الحرب[56]. ويل بوتر، الصحفي في صحيفة «كاونتر بنش»، تعرض للضرب على أيدي رجال الشرطة رغم أنه كان يعلّق على صدره بطاقة صحفية صادرة عن الكونغرس في واشنطن[57]. التلفزيون في الكابيتول عرض صوراً لضابط يضرب سجينا مقيّداً[58]. إذا بدا وكأن الحال شبيهاً بما كان يجري في الرايخ الثالث، فالمسألة لم تكن تتعلق فقط برجال شرطة خبثاء ومتحذلقي برامج الحوارات، بل أن السلطات ذاتها التي يفترض بها المحافظة على الحريات الديمقراطية كانت تبتدع بعض الأفكار الغريبة. في أوريغون، قانون مجلس الشيوخ رقم 742، الذي اقترحه السيناتور مينيس (جمهوري-المنطقة 25)، حاول تعريف العرقلة كنوع من أنواع الإرهاب الذي يعرض مرتكبه لعقوبة السجن المؤبّد[59]. في مدينة البوكويرك بولاية نيو مكسيكو، أوقف معلّمان عن العمل لرفضهما نزع رسوم فنية لطالب صوّر فيها الحالة في العراق، وكانت تلك الرسوم في الأصل جزءاً من مشروع حول الحرب[60]. طالب اعتقل في آركانساس لدخوله مركزاً للتسوّق مرتدياً قميصاً يدعوا للسلام[61]، والمنتج الهوليودي إد غورنون طُرد من شبكة «سي بي إس» بسبب أقوال أدلى بها لمجلة «دليل التلفزيون»، حيث ذكر في أقواله تلك: «من المستحسن النظر إلى بيت بوش الأبيض من خلال موشور الإبادة الألماني المضطرب عقلياً»[62]. غورنون كان قد انتهى للتو من إنتاج مسلسل قصير حول هتلر، وتوقيت ملاحظاته كان ملائماً. إحدى سمات ألمانيا النازية التي تجد لها موازياً في الوقت الحاضر في أمريكا هي رد فعل الاتجاه العام نحو المعارضة؛ لذلك، سيكون من بأب الحكمة النظر إلى الماضي وتفادي الأعمال الوحشية التي يمكن أن ترتكبها الأمة وسط هياج قارعي طبول الحرب.

الحقائق الصعبة

حين وصلت الرغبة في سفك الدماء وبعثرة الأحشاء إلى درجتها المحمومة والشرّيرة، كانت تجري عملية إعادة حساب لكلفة كل ذلك. لم يتم حساب الأضرار التي لحقت بالاقتصاد فقط، بل بالدماء التي سفكت، في الغالب من المدنيين. العديد من هؤلاء كانوا أطفالاً، ولدوا بعد فترة طويلة من الطلب السخيف الذي أطلقه روبرت مكنمارا بجعل بريطانيا «تدفع ثمن الدم». ريتشارد برايس كتب في الدايلي مايل «الصور الأولى التي أتت من أرض المعركة تُظهر الأطفال بسيقان مضمّدة ورجل بقميص منقّع بالدم وخرقة مشدودة إلى وجهه»[63]. في اليوم الثالث من الهجمات، قُتل خمسين مدنياً عراقياً في هجمات بالصواريخ على البصرة. «كانت مذبحة» قالت امرأة نجت[64].

صحيفة «الإندبندنت يوم الأحد» أوضحت الأمر: «نحن نقصف. هم يعانون»[65]. روبرت فيسك، الصحفي الذي تجرأ على كتابة الحقيقة دون رقابة أو مواربة، كتب عن الأطفال ذوي الوجوه المشوّهة والأطراف المشلولة. أحدهم كان طفلاً رضيعاً، عمره سنة واحدة، وكان يتغذى من صدر أمه لحظة الصدمة. فيسك يلحّ: «لذلك، دعونا ننسى للحظة الدعاية الرخيصة للنظام وما يقابلها من وعظ رخيص يلقيه علينا السيدان رمسفيلد وبوش»[66].

يوم الإثنين، تحدث تقرير كتبه روس بنسن من بغداد عن الحقيقة غير المرغوبة: «ولد صغير أصيب حبله الشوكي بشظيّة. إذا تعافى، فهو لن يمشي ثانية، حياته انتهت قبل أن تبدأ بشكل صحيح. امرأة فقدت ساقاً، وأخرى فقدت طفلها. كلتاهما كانت تبكي. وكذلك أنا»[67].

من شفتي الرقيب في قيادة القوات البحرية الأمريكية إيريك شرمبف خرجت الكلمات المخيفة «قضينا يوماً عظيماً، قتلنا الكثير من الناس». ثم يتوسّع «أسقطنا بضعة مدنيين»، وحين يصف قتله لإحدى النساء، يتابع الحديث بأسلوب أفلام هوليود الرخيص «أنا آسف، لكن الفرخ وقف في طريق»[68].

الموقف الأكثر برودة حتى الآن هو الموقف من استعمال القنابل العنقودية؛ بعض الجنود تمتّعوا باستعمالهما، وقد أصبح من المستحيل إنكار استخدام تلك القنابل. القوات الأمريكية استخدمتها قرب النجف وكربلاء[69]. هذا النوع من المتفجرات يترك وراءه قنابل غير

منفجرة، وتظل خطرة لسنوات قادمة، وهو الأمر الذي أصبح علامة تجارية للعمليات الأمريكية ما وراء البحار. في بنما رأيتُ القواعد العسكرية الأمريكية المهجورة مغلقة أمام العامّة لأن الولايات المتحدة، بعكس الاتفاقية، لم تقم بإزالة الألغام، وكانت تلك القواعد موجودة على أرض بلد حليف.

في الأسبوع الثاني من الهجمات، قُصف مستشفى في الرطبة. «لماذا؟ لماذا؟»، صرخ طبيب متسائلاً. «لماذا أيها الأمريكيون تقصفون مستشفى أطفالنا؟»[70]. وما يثير السخرية أن بعض المواطنين الأمريكيين الذين جرحوا بسبب أعمال حكومتهم جاءوا إلى ذلك المستشفى بالذات طلباً للمساعدة، لكنهم وجودوه معطّلاً. عند وصولهم أخذهم الطبيب العراقي الناطق بالإنجليزية إلى عيادة قريبة، قال: «سنعتني بكم. مسلمون، مسيحيون، مهما كنتم، كلنا أخوة وأخوات»[71].

يشير المراسل الحربي لهيئة الإذاعة البريطانية مارتن بيل إلى الحقيقة ويسأل «لماذا تورطنا في هذا وما هو الغرض الذي يمكن تحقيقه عبر هذا القدر الهائل من المعاناة الإنسانية؟... متى ينتهي ذلك، نحن نستحق بالفعل الحساب العسير»[72].

في التاسع والعشرين من آذار (مارس)، قُتل عشرون شخصاً، ومن ضمنهم أحد عشر طفلاً، في مزرعة قرب بغداد قُصفت بالصواريخ؛ جرح عشرة أشخاص آخرون، ودمّرت ثلاثة منازل[73].

يوم الأحد الذي تلى نشر تقرير فيسك، نشرت التايمس تحقيقاً كتبه مارك فرانشيتي، وتحدث فيه عن المدنيين الذين كانوا يحاولون الهرب من القصف في الناصرية، والذين انتهوا إلى القتل بنيران جنود المارينز الأمريكيين. ويصف في التقرير مشهد الأطفال القتلى وهم يرتدون ثياباً زاهية الألوان.

حين ابتعدت عن الموقع، ظهر بجانبي الملازم أول مات مارتن، الذي رزق بطفله الثالث، إيزابيلا التي رأت النور بينما كان على متن سفينة حربية متوجهة إلى الخليج.

«هل رأيت كلّ ذلك؟»، سأل وقد امتلأت عيناه بالدموع. «هل رأيت تلك الرضيعة الصغيرة؟ حملت جسمها ودفنته بأفضل ما يمكنني، لكن لم يكن لدي الوقت الكافي. ترهقني بالفعل رؤية الأطفال يقتلون على هذا النحو، لكن لم يكن لدينا خيار».

ضيق مارتن كان مناقضاً للشعور بالرضى الذي أبداه بعض زملائه من جنود المارينز حين تفحّصوا المشهد. «العراقيون أناس مرضى ونحن العلاج الكيميائي»، قال العريف رايان دوبر. «بدأت أكره هذه البلاد. انتظر حتى أعثر على ضحية عراقي. لا، أنا لن أعثر على واحد. أنا سأقتله فقط»[74].

هذا النوع من القتل، إلى جانب تقرير عن عصابة اغتصبت وقتلت امرأة عراقية بعد إطلاق النار على زوجها[75]، استُنكرت بشكل مؤقت. الجنرال ريتشارد مايرز، رئيس هيئة الأركان المشتركة، خرج عن تحفظه ليقول أن قوّاته كانت تتعلّم من البريطانيين. اتفق في الرأي مع الجنرال وليام والاس، قائد القوات البرية الأمريكية في العراق، بأن العدو لم يكن يردّ كما خطّطوا في «المناورات الحربية»[76].

أصوات الاستنكار تعالت فقط في وقت لاحق، عندما قتل عشرة مدنيين قرب كربلاء. أمر النقيب روني جونسن رجاله بإطلاق طلقة تحذيرية حين ظهرت أمامهم عربة، ثمّ، ومع مزيد من الاضطرار، أمر بإطلاق طلقة على المبرد في مقدمة السيارة. حين رأى أن أوامره لا تنفّذ بدقة، صرخ «توقّفوا عن العبث». في تلك اللحظة انطلق وابل من الرصاص. عندئذٍ صرخ جونسن «أوقفوا إطلاق النار!» ومسح المشهد من خلال منظاره، ثمّ انفجر: «لقد قتلتم للتو عائلة لأنكم لم تطلقوا طلقة تحذيرية قريبة بما فيه الكفاية!»[77].

«كان ذلك هو الشيء الأكثر ترويعاً الذي رأيته على الإطلاق، وأتمنى أن لا أراه ثانية أبداً»، علّق العريف ماريو مانزارو. يتذكّر مشهد امرأة جريحة، تحمل الأجساد المشوّهة لاثنين من أطفالها[78].

صاروخ أمريكي قتل اثنان وستّون شخصاً في أحد أسواق بغداد في 28 آذار (مارس). في بادئ الأمر، أنكرت الولايات المتّحدة ذلك. لكن فيسك، على أية حال، قرّر أن لا يدع الكذابين يفلتون من جريمة القتل بدون عقاب، فالتقط قطعة من الصاروخ من بين الأنقاض، وطلب من العالم كلّه أن يرى الرموز المطبوعة على تلك القطعة: [30003-704ASB7492] و [MFR 96214 09]. المجموعة الأخيرة تشير إلى أن الصاروخ مصنوع في مصنع رايثيون في

ماكيني بولاية تكساس، بينما ربطت المجموعة الأولى من الرموز الصاروخ بقيادة الأنظمة الجوية في البحرية الأمريكية[79].

في اليوم التالي تحدث فيسك وجوستن هاغلر عن مذبحة الحلّة التي قتل فيها بحدود ثلاثة وثلاثون مدنياً. الدكتور ناظم العدلي، المتخرج من إدنبرة، لاحظ أن جميع المرضى تقريباً كانوا ضحايا القنابل العنقودية. فقدت إحدى النساء ستّة من أطفالها وزوجها في الهجمات. صور الفيديو التي تتضمن تلك المشاهد كانت مرعبة جداً إلى درجة تمنع بثها، وهي تتضمّن أطفالاً شُطروا نصفين وفُقدت أطرافهم. رفع رجل أجزاء من جسد طفله الرضيع الممزّق وصاح «جبناء، جبناء»[80].

طوال الوقت، كان بعض الأمريكيين يشعرون بالاعتزاز والفخر. الفخر؟ تلك الكلمات بالضبط كانت هي الملاحظة الأولى التي نطق بها نقيب سابق في الجيش الأمريكي. ربما كان السبب هو الأخبار التي يسمعونها؛ وبعض تلك الأخبار، كما اضطرت النيويورك تايمز للاعتراف، مختلق تماماً من قبل أحد مراسليها اللامعين[81]. بعض الأمريكيين كانوا غير قادرين على فهم لماذا كان الرأي العام العالمي ضدّهم. حافلة محمّلة بلاعبي الهوكي الأمريكيين تعرضوا للسخرية والاستهزاء حين توجهوا إلى كندا[82]. وبالنسبة لأولئك الذين استطاعوا نسيان، أو برروا تماماً، حرب فيتنام، قد يكون هذا نوعاً من استعادة ذلك العصر. يشعر الكثيرون بالقرف من رؤية الولايات المتحدة تخوض حرباً كي يزداد تجّار الأسلحة ثراء، وذكرى الأموال التي جُنيت من حرب فيتنام لا تزال حية في الذاكرة. إن التقارير الواردة من العراق هي التي تنعش هذه الذكريات، مثل التقرير حول الجنود الأمريكيين الذين أطلقوا النار على دبلوماسيين غير مسلّحين. السفير السوفيتي فلاديمير تيتورينكو يتحدث عن محنته: «بعد مغادرة بغداد... واجهنا عدداً من العربات الأمريكية المدرّعة والدبابات والأسلحة. كانوا يطلقون النار، وبعض القنابل اليدوية ألقيت من العربات الأخرى. حاولنا تحذيرهم، لكنّهم أطلقوا النّار علينا مباشرة، واستمر إطلاق النار لمدة أربعين دقيقة تقريباً». خمسة دبلوماسيين سوفييت جرحوا في الهجوم في 6 نيسان (أبريل)[83].

ولد عراقي عمره عشر سنوات قتل في اليوم التالي، سقط بنيران رشاش العريف في الجيش الأمريكي نيك بوغز، الذي علّق لاحقا: «فعلتُ ما يتوجب علي فعله. أنا ليس لدي مشكلة كبيرة في ذلك»[84]. بعد أيام قليلة، كان بعض جنود المارينز يحاولون تدمير مستودع ذخيرة فتسبّبوا بحدوث انفجار أدى إلى مقتل العديد من المدنيين وطاقم دبابة وتدمير عشرين منزلاً في بغداد. السكّان المحليّون طلبوا من الجنود إزالة الذخيرة من المناطق السكنية، لكن الجنود رفضوا الاستماع لنصيحة السكان وأطلقوا نيرانهم على مستودع الذخيرة بدلاً من ذلك، فبدأت الكارثة. لم يكن من الممكن السيطرة على الحرائق بسبب قلة فرق الإسعاف[85].

الصحفيون المستقلون كانوا يسجّلون الرعب الحقيقي الناجم عن كل ذلك، لكن كان من الصعب تغطية الحادث بالكامل، كما أن قصصاً وحشية وردت حتى في تقارير المراسلين الملحقين بالوحدات العسكرية، مثل القصة التالية التي أوردها ميتشل غويرين.

> بعيني هاتين رأيت حوالي خمسة عشر مدنياً قتلوا في يومين... بالطريقة التي تحدث فيها الأمور هنا، كان الأمر جنونياً... الجنود المذهولون كانوا يقولون «أنا لم أستعدّ لهذا، أنا لم آت إلى هنا لقتل المدنيين».
>
> في 6 نيسان (أبريل)، كنّا في أطراف بغداد، بمواجهة جسر إستراتيجي وهو الجسر الذي سمّاه الأمريكيون «جسر طريق بغداد السريع». المناطق السكنية أصبحت الآن أكثر عدداً. صدرت الأوامر للقناصين الأمريكيين بقتل أي شئ يأتي في اتجاههم. ذلك الليل قتل مراهق كان يعبر الجسر[86].

يتابع روايته لحكاية حادثة الجسر الأخرى التي حدثت في اليوم التالي:

> الصمت الذي حلّ كان ساحقاً. رجلان وامرأة مزّقت أجسادهم رشقات متتالية من الرصاص. إذاً هذا هو العدو، هذا هو التهديد.
>
> تقدمت سيارة ثانية. تكرر نفس السيناريو. ركابها قتلوا فوراً. رجل مسن كان يسير ببطء على الرصيف متكئاً على عصا. قتلوه أيضاً. وكما حدث مع الرجل العجوز، أطلق جنود المارينز النار على سائق سيارة كان يقود سيارته على ضفّة النهر وكاد أن يصبح قريباً منهم. وبعد أن ثقبها الرصاص المنهمر، انقلبت العربة. حاول ركابها الاحتماء بالحطام. بعد ثوانٍ قليلة، تحولت إلى قطع صغيرة متطايرة حين استهدفتها دبابة بقذيفة.

جنود البحرية مدرّبون للوصول إلى هدفهم مهما كلف الأمر، وذلك بالبقاء على قيد الحياة ومواجهة أيّ نوع من الأعداء. يستعملون القوّة النارية غير المتكافئة بشكل مهين. هؤلاء الجنود الخشنون الذين تتبعهم الأطنان من الأجهزة، والذين تساندهم قوّة مدفعية استثنائية وتحميهم المروحيات المتقدمة والطائرات المقاتلة، كانوا يطلقون النار على السكان المحليّين الذين لم يدركوا أبداً أي شيء مما كان يجري.

...الشخص الأكثر إنسانية بين الجنود اسمه دوغ. أطلق طلقات إنذار حقيقية. من مسافة 800 ياردة يمكنه إصابة إطار السيارة، وإذا لم يكن ذلك كافياً، يمكنه إصابة المحرك. أنقذ عشرة أرواح في ساعتين عبر إجبار المدنيين الذين كانوا يتقدمون نحونا على التراجع.

أبعدتُ طفلة ثُقب عظم عضدها برصاصة. إنريكو كان يحملها بين ذراعيه. في المؤخّرة، كان والد الطفلة يحمي ابنه الشاب، كان مصاباً بجرح في الجذع وبدأ يفقد وعيه. تحدث الرجل بالإشارة إلى الطبيب خلف خطوط النار، وتساءل بالتماس: «أنا لا أفهم، كنت أمشّي ممسكاً بأيدي أطفالي. لماذا لم تطلقوا الرصاص في الهواء؟ أو على الأقل تطلقوه علي؟»[87].

بقدر ما كنت أحبّ سلاح البحرية وأود قتل الناس، ولمدّة بضع ثوانٍ تملكني نوع من الشعور المخيف. ـ العريف في البحرية الأمريكية تيموثي ووكو، في تعليق له بعد إطلاقه النار على بعض العراقيين[88].

أطفالنا سيغنّون أغانٍ عظيمة عنا بعد سنوات من الآن. ـ ريتشارد بيرل، اقتباس في النيو ستايتسمان. 16 كانون الأول (ديسمبر) 2002[89]

ثلاثة أسابيع من المهزلة، دُمّرت إمدادات المياه، تعرّضت حياة الملايين للخطر. أحد السكان قال: «بوش سيئ. بلير سيئ. دمّروا شبكات مياهنا وكهربائنا»[90]. الملك عبد الله ملك الأردن تحرك بدافع قومي وأرسل مستشفيان ميدانيان إلى العراق بالإضافة إلى المساعدات الأخرى المطلوبة بشدّة. كان من الصعب إدخال التجهيزات إلى البلاد، وكانت مجموعات خيرية مسيحية تشتكي بشكل مرير من إدارة بوش[91]. على أية حال، كان من الصعب سماع صوتهم أو أي صوت آخر يقول الحقيقة وسط ضجيج أصوات مشعلي الحرب ومؤيديهم. مزاج الاغتباط كان يسبب الغثيان، كما يعرض ذلك جون سباركس من هيئة الإذاعة البريطانية:

شريط بثّته شبكة «سي أن أن» يُظهر الجنود وهم يدمرون دبابات عراقية وشاحنات وناقلات جنود. وكما لو أن اللقطة مأخوذة من فيلم «المغفّل»، أطلق أحد الجنود قنبلة تعمل بالدفع الصاروخي على دبابة، وأخطأت القذيفة الهدف وأصابت البيت الواقع في الخلف. التقط التسجيل الصوتي ضحكات الجنود بشكل واضح حين انهار البيت الذي يضم عدداً غير معروف من المدنيين وتصاعدت منه سحابة غبار[92].

جبال المكاسب

هذا المزاج من «القتل، الصدم، التدمير» كان قد لوحظ أيضاً في فيتنام؛ تكلّم الجنود عن قتل «الحشرات»، واستخدمت أمريكا، عن سابق تصور وتصميم، مواداً كيميائية خطرة ضد المدنيين، وتركت فيتنام، وجيرانها، وفيها مناطق سكانية واسعة تعرّضت للتلوث بالمواد السامة. المادة الكيميائية الأخرى التي استُخدمت على المدنيين، بالأسلوب النازي، كانت مادة النابالم؛ هذه المادة تحرق الجلد فوق العظام. وبالنسبة للجنود المدججين بالسلاح الذين يحاربون النساء والأطفال على بعد آلاف الأميال من وطنهم، يكافحون من أجل رفع أسعار أسهم شركات الأسلحة وشركات المنتجات الكيميائية في الوطن، النابالم كان مجرد أداة أخرى في اللعبة.

بالنسبة للفتاة كيم فوك، البالغة من العمر تسع سنوات، التي كان المحتلون في بلادها يوزّعون لعب الدمار الشامل، كانت الحياة جحيماً؛ احترق جلدها بكامله. صورتها وهي هاربة، عارية وتبدو عليها المعاناة الشديدة، لا يمكن إخفاؤها والتستر عليها حتى بأوامر من وزارة الدفاع الأمريكية. تلك الصورة التي التقطت في 8 حزيران (يونيو) 1972، ألهبت مشاعر الرأي العام العالمي[93]، والحرب الطويلة والمريرة التي أطلق شرارتها أبله من قرية في تكساس كي تحقق شركة «براون آند روت» مزيداً من الأرباح أصبحت موضع شك ومساءلة، وجعلت الوطنيين الحقيقيين يتصدون للحمقى والسذج الذين أرادوا دعم رئيس غشّاش، ريتشارد نيكسون. من شبه المستحيل التصديق بأن الكنيسة التي يذهب إليها الناس قد دعمت ذلك المهرّج، لكنّها فعلت ذلك، كما دعمت هتلر من قبل. معاناة كيم وغيرها من الأطفال أيقظت الناس وأخرجتهم من حالة الغباء فكان لزاماً عليهم إيقاف الحرب. على أية حال،

يبدو أن الدرس المستفاد من تلك المأساة لم يكن له تأثير دائم، باعتبار أن لدينا الآن تكساسي آخر يقود هتافات الجموع ويؤدي الصلوات. ما هي الغاية؟ ربما من أجل أسعار أسهم شركة «كيلوج براون آند روت» مرة أخرى.

تحصل تلك الشركة على عقود العمل والمقاولات خفية وسط الفوضى التي تعم العراق، لكن ذلك لا يشكل عزاء لعلي إسماعيل عباس البالغ من العمر اثنا عشر عاماً. بالنسبة له، الحالة السائدة جلبت له مأساة غير قابلة للتصديق. الألم، مثل جبل لا يمكن احتماله، هكذا وصف علي محنته على أيدي الأمريكيين[94]. جسمه، أصيب بجروح مريعة وبترت ذراعاه، كان منظره مريعاً إلى درجة أن بعض الصحفيين الأمريكيين قصّوا الجزء الأكبر من صورته، وتركوا وجهه فقط وشفتاه المقوّستان اللتان تعبران عن شعور غريب. بالنسبة للبعض، بدت مثل ابتسامة. نعم، كانت مثل الجحيم.

السيد المسيح قال في الإنجيل: «ما تفعله لأحد أولئك الصغار، تكون قد فعلته لي»[95]. علم السيد المسيح ما كان في قلوب البشر، والحواري جون لاحظ أنه تفادى بعض الناس[96]؛ هل أراد السيد المسيح ضم تجّار الأسلحة وأتباعهم الدينيين السذج إلى دائرته؟ لا.

واحد وعشرون عاماً مرت على محنة الطفلة الفيتنامية كيم فوك، فأتت محنة علي إسماعيل عباس لتوقظ ضمائر بعض اللامبالين في الغرب. الرد فوري حدث في الجزر البريطانية وفي جميع أنحاء أوروبا. صورته كانت أكثر تعبيراً من ألف خطاب من خطب بوش، وبدأت الصحف بنشر نداءات كي تؤمن له أفضل جراحة في أفضل المستشفيات في بريطانيا. علي، وسط ألمه، لا يستطيع أن يتكلّم سوى بضع كلمات، لكنها كانت ملائمة: «لو كان لي يدين، لصافحتك بقوة... أريد يدين»[97]. كان عليه أن يعلم لاحقاً أنه لم يفقد أجزاءً من جسده فقط، بل ستة عشر شخصاً من أفراد عائلته.

وحين قررت عيادة «دورسيت» معالجته، حالت الظروف دون نقله جوياً بالسرعة اللازمة. كان لا بد لعلي أن يعاني من الألم دون تلقي المسكنات ومضادات الألم، مثل أكثرية العراقيين من الجرحى والمصابين. في النهاية تقرّر نقله إلى الكويت فقط، وهذا النقل كان خدمة

للمصالح الأنانية الأمريكية التي أرادت استغلال هذه القصّة. مجيئه إلى المملكة المتحدة كان سيؤدي إلى نشر حكايته وتسريبها إلى مسافات أبعد في العقل الغربي[98].

بالنسبة لكل أولئك الذين عانوا ويعانون مما جرى في العراق، كانوا يتساءلون عن السبب؛ إذا كانوا يسعون حقاً وراء صدام، فهو لم يصب بخدش. حين بدأ بالعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية، ومن غير المستبعد أنه لا زال يعمل، جعلوا منه دميتهم المخلصة دائماً التي تقوم بدور البعبع إذا دعت الضرورة لشن الحروب. وما هو واضح للكثيرين أن الأمر يتعلّق بالنفط. هذه المادة القاتمة اللزجة كانت سبباً جوهرياً في الكثير النزاعات. وحيث أن مخزون النفط الأمريكي يتجه نحو النفاد، فإن المستهلك الأكبر للنفط في العالم يجب أن يجد طريقة ما لتأمين احتياجاته من تلك المادة. المخزون الاحتياطي لا يتضاءل فحسب، بل أن بعض المصدّرين انقلبوا على الولايات المتّحدة؛ فنزويلا، على سبيل المثال، بعد أن وجدت أن وكالة المخابرات المركزية تلعب لعبة قذرة داخل البلاد وتدعم انقلاباً عسكرياً في ذلك البلد، رفعت الرسوم الموضوعة على شحنات النفط المصدّرة إلى الولايات المتّحدة. في الحقيقة أن الإمدادات النفطية لن تكون مشكلة مطلقاً إذا تم تطوير مصادر بديلة للطاقة وقلّل الناس من استهلاك البنزين. ربما توجب على كل الذين يقودون سيارات رياضية سريعة أن يتحوّلوا إلى قيادة سيارات تسير على الطاقة الكهربائية أو غير ذلك من مصادر الطاقة، أو ركوب الدراجات الهوائية بكل بساطة. على أية حال، قد لا تكون هذه فكرة جيدة إذا كان المرء يمتلك أسهماً في شركة جنرال موتورز أو كان مالكاً لشركة نفط. هل مثل هذه الأفكار مخالفة للوطنية؟ بالنسبة لشخص مثل جيري فالويل تعتبر معادية لأمريكا[99]، ومن يدري ما سيقول هذا الرجل حول استعمال نفايات المزارع لاستخلاص مادة الإيثانول التي تعتبر مصدراً بديلاً للطاقة. سيكون استخدام تلك المادة جيداً للاقتصاد عموماً، لكن باعتبار أن فالويل يملك سيارة رياضية فخمة وسريعة، في الحقيقة يملك اثنتان، فقد لا يكون سعيداً جداً بالاستماع إلى العلماء ودعاة المحافظة على البيئة.

استفادت شركة «هاليبرتون» إلى حدّ كبير من الحرب على الإرهاب. – روبرت بريس، مؤلف كتاب «الآمال الكاذبة: الطمع، الأنا، الغيرة وموت إنرون»[100]

شركة جنرال موتورز ليست الشركة الوحيدة المستفيدة من الوضع. شركة «هاليبرتون»، مالكة شركة «كيلوج براون آند روت»، حصلت على العقود من وزارة الدفاع الأمريكية حتى بدون إجراء أي عروض تنافسية[101]. دونالد رمسفيلد يريد إخفاء الصلة الواضحة بين الغزو والنفط، لكنه هو، من بين كلّ الناس، من يتوجب عليه أن يعرف بشكل أفضل. في الثمانينات كان مديراً تنفيذياً لشركة «سيرل درغز»، وتصرف آنذاك أيضاً بالتواطؤ مع البيت الأبيض، فذهب إلى العراق بصفة «مبعوث سلام» محاولاً الحصول على حصة من صفقة قيمتها 2 بليون دولار لتمديد خطوط أنابيب النفط حصلت عليها شركة «بيكتل»[102]. هذه الشركة تحصل حالياً على حصّتها من الغنائم، على الرغم من حقيقة ارتباطاتها الوثيقة بعائلة بن لادن[103]. والنداءات المتكررة لوقف هذه المهزلة ذهبت كلها أدراج الرياح، لذلك سيضطر الأمريكيون للتعايش مع هذه المهزلة حيث تذهب أموال الضرائب التي يدفعونها إلى عائلة بن لادن فتزداد ثراء كلما حصلت شركة «بيكتل» على مزيد من الأموال. ومع وجود جورج شولتز كمستشار كبير لشركة «بيكتل»، فلا مفاجأة في ذلك. جاء في مذكرة تعود للعام 1983 وتتحدث حول اجتماع رمسفيلد بصدام ملاحظة حول الانهيار المستقبلي للعلاقات العراقية الأمريكية، وفيها إشارة للتخطيط لحرب نهائية[104]. لكن من المفترض ألا نعلم بذلك. كما لا يفترض بنا أن نعلم أن الجمهوريين، أثناء مناقشة التخفيضات الضريبية على أرباح أولئك المستفيدين من الحصص في «بيكتل» ومن علاقاتهم مع عائلة بن لادن، صوّتوا في لجنة الموازنة في مجلس الشيوخ في أوائل آذار (مارس) على اقتراح باقتطاع 844 مليون دولار من ميزانية الرعاية الصحية لإدارة شئون المحاربين. الشيوخ الجمهوريون اقترحوا أيضاً تخفيضاً مقداره 463 مليون دولار من تعويضات المحاربين، مع مزيد من التخفيضات خلال السنوات العشر القادمة[105]. المحارب السابق تشارلز ستيوارد الثّالث يسأل «كم عدد أبناء أعضاء اللجنة، أولئك الملوّحين بالأعلام، الذين أدّوا الخدمة العسكرية في الجيش؟ أنت محق. ولا واحد»[106].

ستيوارد أحد الأمريكيين الذين يدافعون عن الجيش؛ أين سيكون القوميون مشعلو الحرب بعد عشر سنوات من الآن حين يحتاج الجنود إلى تعويضاتهم؟ شعبية بوش ارتفعت باجتياح

بغداد، كما حدث لهتلر حين غزا بولندا. جزء من هذا الاندفاع الجنوبي مهّدت له وسهّلته نفس الشركات التي تقف دائماً على أهبة الاستعداد لكسب المال من المآسي والمجازر، والصحافة في أمريكا مرتبطة بتلك الشركات. التغطية التي تقوم بها العديد من الصحف محرجة ثقافياً، حيث يتم التلاعب بالصور وتصدر الأوامر للمحررين والمراسلين بجعل المحتجين والمتظاهرين من أجل السلام يبدون من أسوا الناس. الواشنطن تايمز، التي يملكها شريك وصديق بوش موون عميل المخابرات المركزية الكورية وصاحب نظرية العبث بالأنوف، تتحمّل مسئولية كبيرة في هذا المجال، من خلال المقالات التي تنشرها والتي تعبر عن وجهة نظر اليمين. وفي كتيب نُشر حديثاً ورد مديح لهذه الصحيفة ولموون بسبب دعمه الوطني لبوش، ويزعم الكتيب المذكور أن موون وبوش أعدا أمراً ما في السر سيجعل كل الأمريكيين يشعرون بالفخر[107]. ما يفعلانه يماثل كثيراً ما كان يفعله النازيون. سلوك مثير للقرف.

النفط ليس الجزء الوحيد من الكعكة، فقط كل نوع من أنواع السلع مستهدف بشكل أو بآخر. شجبت منظمة «أوكسفام» الخيرية البريطانية تعيين دان أمستوتز، المدير التنفيذي السابق لشركة «كارغيل»، مديراً لشئوون الزراعة في العراق[108]. شركة «كارغيل» هي المصدّر الأكبر للحبوب في العالم، وهنا يبرز القلق من أن أمستوتز عُيّن في ذلك المنصب لتصريف الحبوب الأمريكية في العراق والعمل على إعاقة أي محاولة لإعادة النهوض بزراعة الحبوب في الهلال الخصب. كيفين واتكيتر، المدير السياسي لمنظمة «أوكسفام»، قال: «تعيين دان أمستوتز مسؤولاً عن إعادة بناء القطاع الزراعي في العراق مثل تعيين صدام حسين عضواً في لجنة حقوق الإنسان»[109].

هذا الرجل مُعيّن بشكل جيد واستثنائي من أجل حماية وترسيخ المصالح التجارية لشركات الحبوب الأمريكية وفتح السوق العراقية أمامها – وهو يفتقد الكفاءة اللازمة لقيادة جهود إعادة البناء في دولة نامية. – كيفين واتكيتر[110].

صناعة الأسلحة وصناعة الترفيه هما من أكبر الصناعات في أمريكا؛ الأولى تستفيد بشكل جيد جداً من النزاع، أما الثانية فقد بدأت تؤكد حضورها في هذا الصراع. مايكل وولف، المعلق الإعلامي في مجلة «نيويورك»، قال:

إنها جزء من هذا الإيمان العارم، هذا الإيمان الثابت الذي لا يتزحزح، بحيث أنه عند تقديم القيم الأمريكية ونمط الحياة الأمريكي إلى الناس في الشرق الأوسط، وبعد أن يتذوقوا ويلمسوا ذلك النمط وتلك القيم، فسيؤخذون بها... أنها أشبه بالتبشير تقريباً[111].

للأسف، ما تقدم يتضمن بعض الحقيقة، بالرغم من أنني لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لأي شخص أن يتابع البرامج الغثة وبرامج الحوارات التلفزيونية الأمريكية. هناك مقدار زائد من الكفر والعنف والغباء في البرامج التلفزيونية الأمريكية حسب ذوقي الخاص، لكن هناك أناس لا يشاهدوها ويستمتعون بها فقط، بل يؤمنون بما فيها. في الحقيقة، بعض البرامج تحوّل الناس إلى خرسان نتيجة لمراقبتهم لتلك البرامج، وربما كانت هذه وسيلة مناسبة لجعل السكان عاجزين عن النطق بحيث يمكن سرقة النفط بسهولة أكثر. أمّي، حين قُدّم لها جهاز تلفزيون في نيويورك، وضعته بشكل معكوس واستخدمته كطاولة صغيرة في بادئ الأمر. لاحقاً، شاهدنا برامج هيئة الإذاعة البريطانية وشبكة «بي بي إس» وبعض البرامج الإخبارية الأخرى. امرأة كانت تحضر معنا إلى الكنيسة كرهت أيضاً ذلك الصندوق الأبله، وفي أحد الأيام، بعد وجدت أن أطفالها يهملون واجباهم المدرسية بسبب البرامج التلفزيونية، أخرجته من بيتها. زوجها، شرطي في مدينة نيويورك، وافق على ذلك، وقد كان قراراً لن يندموا عليه لا هم ولا أولادهم من بعدهم. بعض الناس يهملون دراساهم وحياهم الاجتماعية بسبب هذا الشيء، كما أهم قد يصلون إلى درجة الخلط بين الواقع والتلفزيون.

وهذا، بالمناسبة، قد يكون هو بالضبط ما يحدث في العراق مع الجنود الأمريكيين؛ البعض منهم كان كثير المشاهدة للتلفزيون، وربما تقمّص شخصية «رامبو». وهذه الحقيقة قد توضّح العديد من الحوادث، مثل السيطرة على وزارة النفط العراقية. وجد مستخدمو تلك الوزارة أنفسهم عاطلين عن العمل على أيدي الجنود الأمريكيين الشبان الذين تملكهم الشعور بالسيطرة وتحمل المسئولية[112]. بالطبع، أنا لا أعني أهم تصرّفوا بدون أوامر؛ إن وزارة النفط هي جوهر ولب كل ما يجري هناك، واستعمال بعض أشباه وتلامذة «رامبو» لطرد الموظفين

والمستخدمين الأصيلين وتسليم الوزارة بشكل مثير إلى شركة «هاليبرتون» هو ما يسمّونه الإعلام التفاعلي الحي. أنا مسرور لأن أمّي لم تحب التلفزيون.

مرحباً، مع السّلامة

عندما زحفت دبابات التحالف إلى باريس عام 1945، كان هناك فرح وبهجة حقيقية. عندما زحفت الدبابات إلى بغداد عام 2003، كانت هناك فوضى وفلتان. وصف أمجد سعد عواطفه ومشاعر العديد من مواطنيه فقال «نحن سعداء لتحرّرنا من مستبدّ وحشي، لكننا في نفس الوقت نشعر بالحزن لأن جيشاً أجنبياً يحتلّ بلادنا. أتمّنى أن يرحلوا بأسرع ما يمكن». منذر محمد، رجل أعمال في الثامنة والستين من العمر، قال:

هذا يوم حزين جداً. فقدنا بلادنا. الأمريكيون يريدوننا أن نختفي عن الخريطة. الأمريكيون لن يرحلوا. لم يأتوا بكل هؤلاء الجنود ليقوموا بنزهة. هذا احتلال، واضح وبسيط[113].

أحد جيرانه، الذي طلب عدم ذكر اسمه، وافقه: «عندما نرى اللصوص يفعلون ما يريدون أمام أعين المحتلين، لدي شكوك بأن المحتلين سيُنصّبون حكومة من اللصوص والمجرمين. هذا كل ما سيتغيّر»[114].

البعض في الغرب عرض صوراً لحشود تحتفل؛ البعض من تلك الصور كانت ملفّقة بطريقة فائقة البراعة، وهي في الحقيقة صور مزيّفة بطريقة القصّ واللصق. أبعد من ذلك، هناك صور لغوغاء تبتهج، حشود تملأ إطار الصورة، توحي وكأنها مشهد لميدان مكتظ، لكن حين تتراجع آلة التصوير بضعة أقدام إلى الوراء، سيرى المرء أن هؤلاء مجرد حفنة من الناس. وعن هؤلاء الذين خرجوا للاحتفال، تكتب جوديث موريارتي:

أولئك الناس الذين تراهم في الشوارع هم في الحقيقة سكان مدينة «الثورة» أو كما يسمونها أحياناً، «مدينة صدام». أولئك الناس لا يشبهون الشعب العراقي بأي صورة من الصور. إنهم يمثلون مجتمع المجرمين في العراق. وكما ترى، إنهم لا يرقصون فقط ، بل ينهبون أيضاً، يسرقون المخازن، يسرقون السيارات، يشعلون الحرائق ويحطّمون الشوارع. أولئك الناس الذين تراهم يرقصون هم نفسهم الذين كانوا يُستعملون للظهور على شاشة التلفزيون، يصفقون لصدام كالمجانين، عندما كان غيرهم يعارضه. إنهم الانتهازيون الذين ليس لهم مبادئ مطلقاً. دائماً مع المنتصر... يبيعون أنفسهم بثمن رخيص جداً.

أنا لا أعتقد بأنّها كانت مجرد صدفة أن يقرر الجيش الأمريكي دخول بغداد من هذه المدينة. رجاء... يمكنك أن تعتقد ما تريد، لكن لا تسمّ تلك الزمرة من اللصوص والقتلة «الشعب العراقي»[115].

حين حاول «المحررون العظماء» تقديم الجنرال العراقي السابق نزار الخزرجي والمثقف ماجد الخويل كجزء من إدارة جديدة في العراق، حدثت ضجّة وصخب؛ ضُرب الرجلان حتى الموت من قبل حشد غاضب[116]، والأوراق النقدية من فئة 100 دولار التي تناثرت من جيب قميص الخزرجي لم تهدئ الوضع. يهوذا شُنق لخيانته، وقد أصبح واضحاً الآن أن إرسال أسلافه إلى العراق لم يكن قراراً حكيماً.

المدنيون لا يشعرون بالأمن، والجيش الأمريكي ربما كان مصدر خوفهم الأكبر بسبب إطلاق النار المستمر على الأبرياء. تقدّم معلّم مدرسة ليقول:

لماذا أطلقوا النار على ولدين صغيرين هذا الصباح - كانا بعمر 12 أو 13 عاماً. لماذا لا تقال سوى الأمور السيئة عن العراقيين؟[117].

رجل آخر متواجد في نفس المكان قال،

صدام حسين كان جيداً. الأسبوع الماضي كان لدينا غذاء، ماء، كهرباء. الآن لا شيء من ذلك. لستُ سعيداً. أمريكا وبريطانيا – لماذا فعلتم ذلك؟ الأسبوع الماضي كان أفضل[118].

لحظات التعبير عن الامتنان كانت نادرة، وإحداها حدثت في القرنة، التي يُعتقد أنها كانت موطن جنّة عدن. الرائد مايك مردوخ، الضابط في الجيش الملكي الأيرلندي الذي سيطر على القرنة بعد سقوط نظام صدام مباشرة، قال: «لا مكان هنا للزي العسكري والأسلحة، ما كان يجب أن يكون، ولن يكون الآن»[119].

كلّ الأخبار لا تصلح للنشر

البطانات والحواشي الفضّية كانت تُستعمل دائماً من قبل مشعلي الحروب للإبقاء على شدّة وحرارة قرع الطبول، مهما كانت الحقيقة مرّة وبغيضة. الكثيرون في الغرب يمكنهم يجلسوا بارتياح ويطربوا على وقع الألحان التي تتحدث عن المحررين العظام والمستقيمين الذين يعملون بجدّ لجلب الديمقراطية إلى العراق تحت قيادة توجيه إدارة بوش الصادقة والنزيهة. الأخبار

الصادقة لا تسر الكثيرين ممن يعتقدون أن هذا الغزو كان حملة صليبية أخلاقية. المزعجون بشكل خاص كانوا هم الصحفيين المستقلين، الذين لم يزوّروا الحقيقة. تحقيقاتهم وتقاريرهم أزعجت المواطن الراضي والساذج الذي صدّق بأنّ بوش وتشيني كانا فارسين يقاتلان من أجل الصليب. الكتيّب الذي شجّع الناس على دعم صن مايونغ موون وبوش أفرد بالذكر روبرت فيسك وجون بيلجير حين نُشر بعد فترة قصيرة من سقوط بغداد. جاء في ذلك الكتيّب أن تقاريرهما وكتاباتهما تهدف إلى «تقويض الروح المعنوية للمواطنين الأمريكيين المستقيمين»[120]، وألمح إلى أنّ العراقيين كانوا يزيّفون جراحهم وإصاباتهم، وشجّع الناس على قراءة الواشنطن تايمز، الصحيفة التي تدعم بوش والحرب وموون، الذي ادعى أنه المسيح المنتظر. كما أن الكتيّب المذكور شجّع الناس أيضاً على إبلاغ الأمن الداخلي عن أولئك الذين يقرءون الصحافة البريطانية[121].

إذاً، ما الذي يمكن فعله؟ إذا ألقى المرء نظرة فاحصة على الصورة، فسيتبين له بوضوح أن ثمة أسلحة دمار شامل تستخدمها أمريكا، بينما لم يستعمل العراق أي نوع من تلك الأسلحة. وإذا افترضنا أن البحث عن أسلحة الدمار الشامل كان السبب في الحرب، وإذا لم تظهر تلك الأسلحة، حتى بعد فوات فرصة استخدامها دفاعاً عن النّفس، فإن الأمر، بالنسبة للكثيرين، لا يعدو كونه كذبة لفّقها بوش وأصدقائه. أولئك الصحفيون الأشرار، ربما كانوا من الذين «ليسوا معنا». أولئك الصحفيون الأشرار، والذين حدث وأن كانوا غير مسلّحين، من المحتمل فقط، أن تُطلق عليهم النار. وهذا هو الذي حدث بالضبط.

بدا أنيقاً جداً جداً على شاشة التلفزيون، جنود المارينز الأمريكيين على ضفتي دجلة، أوه، زيارة مضحكة جداً إلى القصر الرئاسي، شريط الفيديو الذي يصوّر مرحاض صدام حسين الذهبي. لكن الأبرياء يترفون ويصرخون ألماً ليقدموا لنا الصور التلفزيونية المثيرة... روبرت فيسك [122]

ربما كان فيسك الرجل الأكثر كراهية في وزارة الدفاع الأمريكية، وقد كانوا على معرفة دقيقة بمكان تواجده، كما يعلم بذلك العالم بأسره؛ فندق فلسطين كان مرادفاً للصحفيين المستقلين. اختاروا ذلك الفندق بالضبط مقراً لهم لأنه كان بعيداً عن أي هدف عسكري، وكان واضحاً وبارزاً في موقعه. في 7 نيسان (أبريل) فتح الجيش الأمريكي النار على هذا

المبنى المشهور وقتل صحفيين مدنيين داخله. المراسلون الفزعون رأوا دبابة أمريكية توجّه ماسورة مدفعها نحو الفندق، ثم أطلقت قذيفة على مكتب وكالة رويتر في الطابق الخامس عشر. مصوّر وكالة رويتر تاراس براتسيوك ومراسل محطة «تيليسنكو» الإسبانية خوزيه كوكو قتلا، وكلّ منهما ترك خلفه عائلة. وكان بين الجرحى سامية نخول من فريق رويتر، والمصور العراقي فالح خيبر والبريطاني بول باسكال[123].

الجيش الأمريكي أتى برواية لُفّقت على عجل تزعم أنه تعرض لإطلاق النار من المبنى، لكن هذه الرواية، مثل العديد من المزاعم الملفقة الأخرى التي نُشرت في الولايات المتحدة، فُنّدت بشكل حاسم. كارولين سايتر، الصحفية التي نجت من الهجوم، دحضت مزاعمهم.

أنا كنت في فندق فلسطين لحظة الهجوم، حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر بتوقيت بغداد، وطاقمي صوّر كلّ شيء. الفيلم الذي صوّرناه يُظهر الدبابة الأمريكية وقد أخذت وقتها في استهداف الطابق الرابع عشر في الفندق، حيث يقطن العديد من الصحفيين، وكانوا يأخذون قسطاً من الراحة[124].

روبرت مينارد، الأمين العام لجمعية «مراسلون بلا حدود»، صرّح بأن كل الأدلة المستقلة المتعلقة بالهجوم الأمريكي على الفندق تبيّن أن إطلاق النار كان متعمّداً:

فيلم صوّرته محطة التلفزيون الفرنسية «فرانس 3»، بالإضافة إلى روايات شهود العيان من الصحفيين، أثبت أن الحيّ حول الفندق كان هادئاً جداً ساعة الهجوم، وأظهر أن طاقم الدبابة الأمريكية أخذوا وقتهم، وانتظروا دقيقتين وعدّلوا اتجاه مدفعهم قبل فتح النار.

هذا الدليل لا يتطابق مع الرواية الأمريكية التي تحدثت عن هجوم دفاعاً عن النفس ونحن نستطيع فقط أن نؤكد أن الجيش الأمريكي استهدف الصحفيين عمداً ودون سابق إنذار[125].

مراسلون آخرون ممن كانوا متواجدين في مسرح الحدث عارضوا رواية الجيش الأمريكي، مثل ديفيد شاتر من تلفزيون «سكاي» البريطاني، الذي قال: «أنا لم أسمع أي طلقة تخرج من أي مكان حول الفندق، وبالتأكيد لم تنطلق من الفندق[126].

الصحفيان اللذان قتلا ذلك اليوم لم يكونا أول صحفيين يقتلهما الأمريكيون. فيسك يشرح:

هل من المحتمل أن يكون هذا مجرد حادث؟ أم أن الكلمة الصحيحة لوصف حالات القتل هذه – الأول قُتل بنيران طائرة نفّاثة، الثاني قتلته دبابة «إم1أ1 أبرامز» – هي القتل العمد؟ بالطبع لم يكن هذان أول صحفيين يقتلان... تيري لويد من محطة «آي تي في» قتل رمياً برصاص القوّات الأمريكية في جنوب العراق، التي أخطأت على ما يبدو فظنّت أن سيارته عربة عراقية. طاقمه لا يزال مفقوداً[127].

ثمّ يهاجم فيسك الجنرال الأمريكي الذي حاول التملّص من أيّ مسؤولية عن حوادث القتل «العرضي»/ المتعمد.

ردّ الأمريكيون بأدلة تثبت كلها بأن ما يقولونه مجرد كذب واضح. الجنرال بوفورد بلونت من فرقة المشاة الأمريكية الثالثة – التي كانت دباباتها مرابطة على الجسر – أعلن أن عرباته تعرضت لصاروخ وإطلاق نار من القنّاصة الموجودين في فندق فلسطين، وأن دبابته أطلقت دفعة قذائف وحيدة على الفندق وأن إطلاق النار توقف على الفور. بيان الجنرال، على أية حال، كان غير صحيح.

أنا كنت أقود سيارتي على الطريق بين الدبابات والفندق لحظة إطلاق القذيفة – ولم أسمع أي إطلاق نار. يستمر عرض شريط الفيديو الفرنسي الذي صوّر الهجوم لأكثر من أربع دقائق ويُسجل صمتاً مطلقاً قبل انطلاق القذيفة من الدبابة. ولم يكن هناك قنّاصين في المبنى. في الحقيقة، العشرات من الصحفيين وطواقم التصوير المقيمين هناك – وأنا نفسي من ضمنهم – راقبوا كالصقور ليتأكدوا من عدم وجود مسلّحين قد يستخدمون الفندق كنقطة هجوم.

وهنا، ينبغي على المرء أن يضيف، أن الجنرال بلونت نفسه هو الذي تفاخر قبل أكثر من شهر مضى بأن جنوده سيستعملون ذخيرة اليورانيوم المنضّب – وهي المواد التي يعتقد الكثيرون أنها المسؤولة عن تفشي أمراض السرطان بين أطقم الدبابات بعد حرب الخليج 1991. وبالنسبة للجنرال بلونت، من الواضح أنه يعتقد أن فريق تصوير رويتر شارك، بطريقة ما، في ضرب الأمريكيين، مما يحوّله إلى مجرد مهرّج لا أكثر...

سامية نخول، البالغة من العمر 42 عاماً، كانت صديقة وزميلة منذ الحرب الأهلية اللبنانية بين عامي 1975 و 1990. وهي متزوّجة من مراسل الفاينانشيال تايمس ديفيد غاردنر.

بعد ظهر أمس، رقدت مغطّاة بالدمّ في مستشفى بغداد. وقد تجرأ الجنرال بلونت على الإشارة ضمناً إلى أنّ هذه المرأة البريئة وزملائها الشجعان كانوا قنّاصين. وهنا أتساءل، ألا يُنبئنا ذلك عن طبيعة الحرب في العراق؟

القوات الأمريكية عرفت بالضبط ما هو هذا الفندق[128].

في اليوم السابق، قُتل صحفي بنيران طائرة أمريكية قصفت مكتب قناة «الجزيرة». وبالنسبة لقناة «الجزيرة»، لم تكن تلك تجربة جديدة؛ فقبل ثمانية عشر شهراً مضت قالت تلك القناة أن «الأمريكيين أطلقوا صاروخ كروز على مكتب «الجزيرة» و لم يعتذروا عن ذلك و لم يقدموا تفسيراً»[129].

الهجوم الآخر الذي لم يُقدّم له تفسير كان حادثة قتل مراسل محطة «آي تي إن» تيري لويد، وهو الحادث الذي جُرح فيه أيضاً صديقه وزميله المراسل دانيال ديموستاير عندما فتح رتل من الدبابات الأمريكية نيران الأسلحة الرشاشة على مجموعة من الصحفيين، وقد علّق على ذلك قائلاً:

> يرفض الجيش الأمريكي حتى الآن أن يتحمّل المسؤولية عن إطلاق النار ويبدو واضحاً أن السبب في ذلك قد يكون التغطية على هجوم متعمّد على عدو أعلن استسلامه، وهو الهجوم الذي سجّله فريقنا الإخباري وقتل بسببه[130].

يلاحظ ديموستاير أنه بعد الوابل الأول من الرصاص، ظل يتعرض لإطلاق النار من قبل الأمريكيين حتى بعد تقدم سيارة إسعاف لجمع القتلى والجرحى.

طاقم تلفزيون «المنار» تقدّم بشكوى أخرى، حيث عمد أحد الأمريكيين إلى تحطيم أجهزتهم ومعداتهم بعد أن صوّروا مشهد معركة في أواخر شهر آذار (مارس)[131].

القتل والعنف هما من أساليب إخافة الشاهد، لكن طرده من العمل يعتبر أسلوباً آخر، وهذا هو المصير الذي آل إليه بيتر آرنيت مراسل شبكة «إن بي سي»[132]، لأنه كان صادقاً ونزيهاً. ربما كان يجب عليه أن يحترم كلمات الضابط العسكري الأمريكي الذي أخبر الواشنطن بوست: «سنكذب حول بعض الأشياء»[133]. أراهن أنهم فعلوا، وذلك الضابط لا يزال يحتفظ بوظيفته.

الكذب، حين يعمل شخص مثل إليوت أبرامز أو جون بويندكستر في وظيفة عامة، قد يكون مطلوباً، لكن الكذب يجعل الشخص، في أغلب الأحيان، يبدو أحمقاً أمام الناس، كما

حدث أثناء الغزو حين عمد العديد من الصحفيين إلى دس الكثير من التفاهات في تقاريرهم؛ إلى حد أن غيرهم من صحفيي العالم الحر اشمأزوا من ذلك وأشاروا إليه. كتب رون ليدل:

العسكريون لم يكونوا يقولون لنا الحقيقة، أليس كذلك؟ كلّ يوم يحدثوننا عن أمر مختلف ـ إمّا مباشرة، عبر المؤتمرات الصحفية والبيانات، أو من خلال التصريحات الخاصّة لمراسلي التلفزيون الأكثر سذاجة ـ وبعد 12 ساعة يتبين لنا عكس ما قالوه لنا.

هنا بضعة أمثلة.

اليوم الأول من الحرب سيبدأ بقصف عشوائي لبغداد، هجوم «الصدمة والرعب» الهائل الذي سيجعل العالم يرتعش وينحني احتراماً.

في الحقيقة، عانت بغداد من قصف خفيف نسبياً في الليلة الأولى. ولم يكن ذلك، باتفاق الجميع صبيحة اليوم التالي، ما كنا نتوقعه.

في اليوم الثاني، قيل لنا أن قوّات التحـــالف سيطرت على ميناء أم قصر المهم من الناحـــية «الاستراتيجية».

لا، في الحقيقة لم يتمكنوا من احتلاله، حيث كانوا محترمين بما فيه الكفاية للاعتراف بذلك بعد يومين. حتى كتابة هذه الكلمات لم يتمكنوا من ذلك. كذلك الأمر بالنسبة لحقول النفط التي ظلوا يتحدثون عنها من وقت لآخر، فجأة توقّف الحديث المستمر عنها[134].

سايمون هوغارت كتب ما يلي:

أخذت أم قصر، ثمّ سقطت ثانية، ثمّ أخذت، ثمّ أخذت، لفترة قصيرة. «الأخبار العاجلة» تتدفق، ثمّ تتدفق مرة أخرى، وتُنسى لاحقاً بشكل غامض. يرتفع عدد العراقيين المأسورين ثم يهبط كالأمواج على الشاطئ. يحلّل الخبراء الأحداث التي قد تكون أو لا تكون حدثت. هنالك نغمة ثابتة من الهستيريا المكبوتة، كما لو أن المذيعين لا يستطيعون الانتظار والابتعاد عن الكاميرا لتناول بعض المشروبات المنعشة[135].

ستيوارت ميلير ومايكل وايت يتفحصان التحريف ويكتبان:

بعد مرور تسعة أيام فقط من المواجهة، كانت هناك على ما يبدو سلسلة من التطوّرات الحرجة، وكلّها شعّت فوراً على شاشات التلفزة وعُرضت باعتبارها حقائق ضمن العناوين البارزة في الصحف، والتي تبيّن بعد ذلك أنها كانت خاطئة. عنوان الصفحة الأولى في صحيفة الديلي تيلغراف يوم الخميس كان الأشد إثارة. «صدام يهاجم بدباباته»، التي تهدر كالرعد. وحسب الصحيفة، فرقتان عراقيتان، تضم كلٍ منهما 1000 عربة من قوات الحرس

الجمهوري، اتجهتا جنوباً لمهاجمة قوّات التحالف في ما يمكن أن يكون المعارك المحورية في الحرب الدائرة. على أية حال، لم يستطع أحد التحقق من وجود أرتال الدبّابات المزعومة.

يبدو أن المصدر هو صحفي ملحق بالقوات العسكرية يستقي معلومات مزوّرة تزوده بها القوات الموجودة على الأرض. في هذا المثال، كان المراسل من شبكة «سي إن إن»، وكان ملحقاً بسلاح الفرسان الأمريكي السابع، وهو جزء من قوات التحالف الرئيسية المتقدمة.

المراسل المذكور، والتر رودجرز، قال أن الوحدات العراقية كانت تتدفق خارجة من بغداد تحت ستار عاصفة رملية للاشتباك مع جنود المارينز الأمريكيين حول النجف. وهو زعم قلّل البنتاغون من قيمته على الفور تقريباً. الجنرال ريتشارد مايرز، رئيس هيئة الأركان المشتركة، أخبر المراسلين أن بضعة «عربات خفيفة» شوهدت تتجه نحو الاتجاه العام للقوات الأمريكية.

لكن ذلك لم يكن كافياً لتهدئة كتّاب العناوين البارزة في الصحف. في اليوم التالي وصفت صحيفة «ميرور» التحرّك العراقي بأنه «هجوم على شكل كمّاشة على القوات الأمريكية»، كما نشرت كل من «الدايلي ميل» و«الإندبندنت» قصصاً مشابهة. «إحدى المشاكل التي واجهتنا هي أن الصحفيين الملحقين بقواتنا كانوا يتحدثون إلى الناس دون انقطاع. لذلك فإن المعلومات العسكرية الحسّاسة يمكن أن تصبح موضوعاً لحديث بين زبائن أحد محلات مسح الأحذية، قال أحد المسؤولين في الوايتهول[136].

استمرا بسرد رواية الدبابات الـــ120 التي من المفترض أنها شوهدت تخرج من البصرة؛ وهذا العدد الكبير الدبابات، على أية حال، تبيّن أنه مكون من ثلاث عربات عراقية. العميد الأمريكي فينس بروكس سمّى ذلك «مثالاً كلاسيكياً عن ضباب الحرب»[137]. في مقالهما فضحا أيضاً زيف القصص حول مصانع الأسلحة الكيميائية، ولم يتم حتى الآن العثور على أسلحة كيميائية، على الرغم من كل «المصادر المطّلعة» التي ما انفكت تخبرنا أن العراق مكتظ بتلك الأسلحة. من هي تلك المصادر المطّلعة؟ هل هم الجواسيس الشبان المتدربين الذين يتناولون المخدّرات في وكالة المخابرات المركزية؟

افتتاحية صحيفة «وول ستريت جورنال» في 25 آذار (مارس) حملت بعض التفاؤل، بعد أن تبين أن «المصادر الرسمية» ليست سوى مهزلة. وقد جاء في تلك الافتتاحية:

على المدى البعيد، الدواء الحقيقي الوحيد لمرض الأخبار الخاطئة أو المضلّلة هو الأخبار الصحيحة. حقيقة الحرب تعني أن التقارير الإخبارية الصادقة ستتضمّن بعض الأحداث القاسية، لكن على المدى البعيد، يعتقد الأمريكيون أن الحقيقة ستحرّرنا[138].

مجانا للجميع

ربما كان من المناسب تعليق الفكرة أعلاه، المستقاة صدفة من الإنجيل، في مكاتب شبكة تلفزيون «فوكس نيوز»، التي ضُبط موظفها، بنجامين جونسن، متلبساً بجريمة تهريب القطع الفنية المسروقة من تراث الشعب العراقي؛ اعتقل في واشنطن، حيث حاول القول في بادئ الأمر بأن اللوحات الفنية أعطيت له، لكنه اعترف لاحقاً بأنه قصد «تحرير تلك الأعمال» في خضم «عملية التحرير» الجارية في العراق[139]. لم يكن هو الصحفي الوحيد الذي زاول أعمال «التجارة الحرة» في الوقت الذي كان العراقيون يؤخذون أسرى في أرضهم وبلادهم. فعلته تلك لم تجد ترحيباً أو تصفيقاً، بل أن غوردن إنجلاند، نائب مدير «الأمن الداخلي»، قال: «هذه المواد ليست تذكارات أو «غنائم حرب»، بل هي سلع مسروقة تعود ملكيتها للشعب العراقي»[140].

عدد من الجنود عثروا على مجموعة من الأسلحة المطلية بالذهب، وهذه أيضاً وجدت طريقها نحو وطن الحرية[141]. بعض أولئك الجنود، على أية حال، لم يتمكنوا من الابتعاد بما سلبوه؛ ستّة من أفضل الجنود ضُبطوا متلبسين بالجريمة مع 13.1 مليون دولار كانوا قد سرقوها[142]. أحد الشهود قال أن القوات الأمريكية كانت تطلب من النـــاس الشـــروع بالنهب[143]، ولا مفاجأة في أن المجرمين البعثيين الذين زعمت الولايات المتّحدة أنها طردتهم كانوا أكثر سعادة الآن من أي وقت مضى، فشرعوا في نهب كلّ شيء على مرأى ومسمع من العالم. سلام باكس قال عن تلك المجزرة: «نفس الحشد الذي كان يقفز إلى الأعلى وإلى الأسفل صارخاً «بالروح بالدم نفديك يا صدام»، هذا الحشد من الغوغاء يقفز الآن ويصرخ أمام عدسات المصورين «شكرا لك سيد بوش» ويحمل أفراده كل ما يمكنهم حمله. شكراً جزيلاً»[144].

إذا فتحت لك الأبواب وراقبتك وأنت تسرق، ألا أكون متواطئاً معك؟ هم فتحوا الأبواب. ليس إلى الحرية، بل إلى الفوضى. سلام باكس[145].

يروي باكس محنة العراقي الذي اقتحم الجنود الأمريكيون بيته:

إم. يقطن قرب أحد الطرق السريعة التي تتصل ببغداد من الغرب. الجيش الأمريكي قرّر وضع نقطة سيطرة في نهاية الشارع الذي يقطن فيه. كان ذلك في السابع من الشهر. بعض الجنود قضوا الليل على سطح بيته المؤلف من طابقين. وبسبب خوفه الشديد من إصدار أي صوت، ظل طوال الليل في الطابق الأرضي دون إبداء أي حركة. في الصباح سمعهم وهم يحطّمون نافذة ويتحرّكون داخل البيت[146].

لم تكن تلك الحادثة هي الوحيدة التي يتم فيها الاستيلاء على بيت بأكمله، و لم يعد مستغرباً أن تجد عائلات كاملة نفسها مشرّدة بعد أن عاشت لأجيال بين نفس الجدران الأربعة. وعلى مستوى أعلى، جميع السفارات والمتاحف نُهبت؛ يتساءل ليام دوغال في صحيفة صنداي هيرالد عما إذا كان الوسطاء والتجّار الأمريكيين قد نظّموا مقدماً عملية نهب المتاحف[147]. مجموعة تسمى «المجلس الأمريكي للسياسة الثقافية» اجتمعت بالمسئولين في وزارتي الدفاع والخارجية قبل الحصار، وضمن تلك المجموعة كان عدد من التجّار الكبار الذين فضّلوا التساهل في القيود الموضوعة على التصدير من العراق. البروفيسور اللّورد رينفرو كيمسشورن، الذي يقود فريق التنقيب عن الآثار من جامعة كامبردج، صرّح: «آخر ما يحتاجه المرء هو مجموعة من الأمريكيين المرتبطين بتجار التحف والقطع الفنية كي يتدخلوا في عمله»[148].

حجم السلب من المتاحف كان رهيباً؛ وقد لوحظ أن: «معظم المجموعات ملقاة ضمن الركام، داسها وحطّمها اللصوص»[149]. على أية حال، كانت هناك مهارة وتخصص في النهب، حيث أن القطع الأصلية أخذت في أغلب الأحيان وتركت النسخ في مواضعها كما هي. وقد رُفض الطلب بوضع دبابة أمام المتحف العراقي.

إحدى المواد المسروقة كانت مزهرية «ورقة» المقدّسة، وهي إناء ذهبي عمره 5000 سنة. الدكتور جون كيرتيس من المتحف البريطاني قال للقناة الرابعة في هيئة الإذاعة البريطانية أن سرقة ذلك الإناء «مثل سرقة لوحة الموناليزا»[150]. ولإيضاح الفكرة لشخص أمريكي، سرقتها

مثل سرقة الديناصور الكبير من «المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي» في سنترال بارك ويست؛ نيويورك لن تكون هي نفسها بدونه، والحقيقة أن عمليات النهب التي تمت في بغداد كانت هائلة، مما يجعل مقارنة الوضع برمته أقرب ليس إلى تدمير «المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي» فحسب، بل أيضاً تدمير متحف المتروبوليتان وسميثسونيان في واشنطن.

رأي آخر حول أسلوب سرقة الكنوز الفنية جاء من مجلة «بيزنس ويك»، التي قالت: «ربّما كانوا يعرفون تماماً ما كانوا يبحثون عنه لأن التجّار طلبوا مقدماً جلب القطع الجيدة والأكثر أهمية»[151].

آن تولبوت كتبت في عمودها على الإنترنت:

> المتحف كان ضحيّة هجوم مخطط بدقة. اللصوص الذين أخذوا القطع الأغلى ثمناً جاءوا مجهزين بالأجهزة المناسبة لرفع الأجسام الثقيلة، التي لا يستطيع الموظفون نقلها وتحريكها داخل المعارض، وكان بحوزتهم مفاتيح المدافن حيث تم تخزين المواد الأغلى ثمناً. لم تُركب مثل هذه الجريمة منذ أن عرّى النازيون متاحف أوروبا بشكل منظّم[152].

السكّان تحمّلوا المخاطر والآلام لمنع النهب، لكن من دون مساعدة القوات الأمريكية التي لم تفعل شيئاً لمنع اللصوص، أو، في أسوأ الأحوال، شاركت في النهب، ومن ضمن ما سرقته لوحة من باب أحد المتاحف، ماذا يستطيع أن يفعل شخص مخلص؟ في إحدى الحالات تطلب الأمر بعض الارتجال، حين وضع اللصوص عينهم على إحدى الكنائس وأرادوا نهبها؛ حينئذٍ اتحد المسيحيون والمسلمون لردعهم، بعد أن شعروا أنهم خدعوا من قبل

الأمريكيين الذين جاءوا ووعدوا كل شخص بالجنة، لكن أين هي؟ هذه جهنم. سهى الحياتي، في تصريح لصحيفة الإندبندنت[153]

فاستنجدوا بأصدقائهم المسلحين ببنادق الكلاشينكوف كي يساندوهم[154].

انزع قميصك

البعض يصر على التأكيد أن العراق ليس فيتنام. نعم، هناك اختلافات، وقد أكّد البعض أن وجود الجنود البريطانيين كان السبب الرئيسي الذي جعل الأمور، ، بشكل من الأشكال، أقل سوءاً. الفارق العصري بين فيتنام والعراق كان وجود المجندات في العراق. وحيث أن هذا

الغزو كان بالنسبة للبعض شكل من أشكال الترفيه، فإن مشهد الشبان العراقيين الذين تمت تعريتهم وإجبارهم على الجري عراة في متنزه عام من قبل الجنود الأمريكيين جعلت الأمر أقرب إلى أفلام هوليود[155]. والحقيقة أن هذه الصور التي انتشرت في جميع أنحاء العالم عبر الإنترنت، كما هي ودون رقابة، جعلت الحرب أشبه بالتلفزيون التفاعلي، وفي الحقيقة جذبت الحشد السيئ الذي أيد الحرب، لأسباب غريبة.

العذر الذي قُدّم لهذا الفعل هو الزعم أنهم كانوا من اللصوص. حتى لو كانوا كذلك، فما هو المتوقّع في بلد دبّت فيه الفوضى؟ هؤلاء الرجال كانوا يعيلون عوائلهم، والخبز الوحيد الذي يمكن جلبه يجب الحصول عليه قبل أن يأخذه شخص آخر، والذي قد يكون أمريكياً. لم يكونوا، مثل «المحررين»، يستولون على ملايين الدولارات، أو مثل رجل «فوكس نيوز» الذي كذب حول الكنوز الفنية. هل فكّر أحد بتعرية الثعالب الأمريكية التي ضُبطت وهي تتسلل حول أرض شخص آخر؟ من الذي أعطى الحق لجماعة بوش كي يرتكبوا تلك الأعمال؟

تعرية المدنيين لم تكن وسيلة جديدة؛ في أفغانستان عُرّي رجل في السبعين من عمره وأجبر على الوقوف أمام الجنود المسلّحين، وبعض أولئك الجنود كانوا من الإناث. أيها الأمريكيون، هل تعيشون جميعاً في عالم أحلام هوليود؟ هذا ليس صحيحاً. قد يكون ذلك المشهد تقليداً لأحد مشاهد الأفلام، في الحقيقة هذا المشهد ظهر في فيلم «الحصار» الذي أنتج عام 1998. في ذلك الفيلم، تتم تعرية رجل شرق أوسطي بريء وتعذيبه من قبل الجنرال ديفيرو، وقام بدوره الممثل بروس ويليس. في ذلك الفلم، على أية حال، مواطنو نيويورك لم يقبلوا ذلك الأبله المنحرف الذي انتهى معتقلاً من قبل وكيل مكتب التحقيقات الفدرالي الذي ذكّره بوجود دستور في تلك البلاد. ربّما توجب على بوش مشاهدة ذلك الجزء من الفيلم، وليس فقط الجزء المتعلق بتعذيب وسجن الناس الأبرياء. في الحياة الواقعية لا تنتهي الأمور بالطريقة التلفزيونية، وفي حالة الأفغاني الذي وقع في أيدي الأمريكيين، تعرّض ذلك الشخص للتعذيب، إن لم يكن جسدياً، فمن الناحية النفسية والعقلية، حين علم بأن حفيدته الشابة

كانت تموت موتاً مؤلماً وبطيئاً، وحيدة في أسفل بئر فُتح لتفتيشه بحثاً عن أسلحة الدمار الشامل[156].

الوحشية والسادية بين صفوف القوات الأمريكية حقيقة محزنة، وهذا جانب واحد فقط من جوانب الشبه بين إدارة بوش المريضة والرايخ الثالث. أحد أوجه تلك الوحشية يمكن ملاحظته فيما يلي:

...مدربو الجنود في مراكز تدريب المارينز يقودون جري الجنود أثناء التدريب بأناشيد مثل «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. كلّ ليلة نصلّي من أجل الحرب. خمسة، ستّة، سبعة، ثمانية. اغتصب، أقتل، مزّق».

...مؤخراً، أكثر من أربع وعشرون امرأة تقدمن للقول أنهن ضويقن أو اغتصبن في مركز تدريب عسكري في ميريلند. عدد من العرفاء اتّهموا بالاعتداء الجنسي واغتصاب المجندات الشابات. أحدهم، اتّهم باغتصاب تسع نساء، وهدّد ضحاياه بقتلهن إذا أخبرن رؤسائهن. بعد انتشار هذه القصّة في نشرات الأخبار، وردت 2000 مكالمة حول شكاوى مماثلة عبر خط هاتفي خاص أعده الجيش لهذه الغاية[157].

أحد جنود المارينز السابقين يروي تفاصيل حول ممارسة الأفعال الجنسية الشاذّة كجزء من شعائر طقوسية[158]. التحقيقات حول خطف الأطفال في الولايات المتحدة تحوّلت إلى تحقيقات مع ضبّاط في الجيش، مثل المقدّم السيئ السمعة مايكل أكوينو[159]. أن تصبح القوات المسلحة فاسدة إلى هذه الدرجة هو أمر يرفض الكثيرون تصديقه، وهكذا يُسمح للمذنبين بالنجاة من العقاب عما اقترفوه من جرائم. حقوق المواطن الأمريكي المخلص رميت من النافذة لصالح حفنة من الفاسدين الذين يقودون البلد نحو نظام حسب الأسلوب النازي الاستبدادي.

من سيئ إلى أسوأ

إزالة صدام وطاقمه لم ينهِ القتل. في إحدى حوادث القتل الغريبة بعض القتلى كانوا من أعضاء فريق أحمد الجلبي[160]، الرجل الذي عيّنه المحتلون مسؤولاً. الجلبي مطلوب للقضاء الأردني في قضايا فساد واختلاس أموال[161]، وربما كان هذا بالضبط هو السبب في ملاءمته للعمل مع إدارة بوش التي أدين بعض أفرادها بجرائم الكذب. الحقيقة أن رجال الجلبي قُتلوا

بنيران القوات ذاتها التي يفترض أنها أتت من أجل تنصيب حكومة ديمقراطية مستقّرة، لكنها لم تفعل سوى القليل لكسب ثقة عامة الناس.

انتهى شهر نيسان (أبريل) بإطلاق نار أشد سوءاً عبر إطلاق النار على مدرسة ثانوية في مدينة الفلوجة، حيث قتلت القوّات الأمريكية ستّة عشر شخصاً وجرحت خمسة وسبعين في حادثة شنيعة إلى درجة إطلاق النار حتى على أطقم الإسعاف الطبي. يوم الإثنين، 28 نيسان (أبريل)، أبدى عموم سكان المدينة رغبتهم في إعادة فتح المدرسة التي احتلها الجنود الأمريكيون. لم تكن تلك هي المادة الوحيدة التي تحتاج إلى بحث ونقاش بين السكان وقوات الاحتلال، حيث كانت هناك أيضاً مسألة الشكاوى من تلصص الجنود الأمريكيين بمناظير الرؤية الليلية إلى داخل بيوت السكان. حين وصل وفد الأباء إلى المدرسة، وكانوا يأملون التحدث مع «محرريهم»، طردوا على الفور[162].

الولايات المتحدة حاولت دحض القصّة واعتبارها مجرد «مزاعم»، لكن العراقيين المساكين كانوا قادرين على تقديم الدليل الثابت؛ الجثث وشهادات الوفاة. ثم أن محاولة الادعاء أن الجنود كانوا في حالة دفاع عن النفس فشلت أيضاً، «هناك شكوك قوية حول الرواية الأمريكية لما حدث – وحول غياب الأدلة»[163]، كتب فل ريفز في الإندبندنت. العراقيون كانوا متفقين وثابتين في قصّتهم. أحمد، الذي يعمل حداداً، قال: «وصلنا إلى مبنى المدرسة وكنا نأمل في التحدث مع الجنود حين بدءوا بإطلاق النار علينا بشكل عشوائي. أعتقد أنهم علموا بأننا عزّل من السلاح لكنهم أرادوا استعراض قوتهم لترهيبنا»[164]. طالب عمره تسعة عشر عاماً اسمه حسن روى الحادثة بطريقة مطابقة تقريباً: «لم نكن مسلّحين و لم يُطلق شي عليهم... أنا لا أعرف لماذا بدأ الأمريكيون بإطلاق النار. حين بدءوا بإطلاق النار، بدأنا بالركض»[165].

صمدت هذه الروايات أمام التدقيق والفحص، لكن الرواية التي قدمها المقدّم إيريك نانتز لم تصمد: «التفسيرات الأمريكية لمأساة يوم الإثنين لم تفلح سوى في إثارة الغضب»[166]، كتب ريفز في أيار (مايو). في عموده السابق لاحظ أن القصة التي رواها المقدّم نانتز والتي يزعم فيها أن السكان أطلقوا النار على الجنود لم تصمد أمام البحث والتدقيق، حيث لم يتم العثور

على آثار مرئية لطلقات رصاص أو أية علامات أخرى تدل على حدوث معركة بالأسلحة النارية[167].

حسب العادات والتقاليد، يتوجب على القاتل دفع ديّة لأهل القتيل؛ لكن الجنود الأمريكيين قدموا تفسيرات فقط، والتفسيرات التي قدموها مثل الأكاذيب التي كان يرويها جون بويندكستر في أغلب الأحيان. الشّيخ خلف عبد الشهيد صرّح: «نطالب الأمريكيين بتعويضات، لكنّنا نطالب أيضاً باستعادة مدينتنا... حتى في إسرائيل لا يطلقون النار على الأطفال بهذه الرعونة»[168].

مرة أخرى، الإحراج الذي تسبب به الأمريكيون بإطلاق النار على المدنيين كانت نتيجته اللوم من البريطانيين والسخرية في مختلف أنحاء العالم. ضابط بريطاني علّق: «يعتمدون كثيراً على التقنية ويختفوا وراء دفاعاتهم. يجب أن يخرجوا ويلتقوا مع الناس ويكتشفوا حقاً ماذا يجري»[169]. ربما جرحت هذه الملاحظة الغرور الأمريكي، لكنها كانت معتدلة بالمقارنة مع العدد الكبير من الملاحظات التي ظهرت على الإنترنت وفي أوساط الناس. كثيرون قالوا أن إطلاق النار في المدارس الثانوية، باعتباره علامة تجارية من ثقافة السلاح الأمريكية، وهو الموضوع الذي صنع حوله مايكل موور فيلماً وثائقياً، وجد مجاله الرحب الآن في العراق؛ فماذا بعد؟

إطلاق النار لم يكن المشكلة الوحيدة التي عانى منها العراقيون، وربما كان القلق الأكبر هو حالة الخدمات التي «تحرر» منها العراق الآن. بسبب انعدام المياه وتدمير شبكات الصرف الصحي بدأت الكوليرا والأمراض الأخرى تحصد السكان. بغض النظر عن النجاح الذي حققته شبكة «فوكس نيوز» والأخبار التي استطاعت ضخها للناس، وبالرغم من مقالات رفع المعنويات التي استطاع كتابتها المراسل النيويوركي المخزي جيسن بلير، كانت تلك الحرب فوضى قبيحة. يمكنك الإنكار، إذا شئت، أن هذه الحادثة هي جريمة حرب، فبعد كل شيء، من حق أي أمريكي أن يقول ما يريد، لكن الكثيرون يرون أن هذه التصرفات أشبه بالنازية المولودة من جديد. فالنازيون، على سبيل المثال، زحفوا إلى البلدان الأخرى تحت الشعار «الله معنا»، وهذا في أغلب الأحيان هو موقف إدارة بوش. هل الله حقاً مع جيسن بلير، بنجامين

جونسن، جون بويندكستر، جورج بوش، دونالد رمسفيلد، صن مايونغ موون، أو أيّ من الزعماء التوّاقين لإطلاق النار في هذه اللعبة؟ اعتقد ما شئت، لكن ليس كل شخص مخدوع.

حين دبّت الفوضى، اندلعت المشاجرات بين «الزعماء» الجدد. باربرة بودين استُدعيت إلى واشنطن، بعد أن أخفقت في «إعادة بغداد إلى الوضع الطبيعي»[170]. بديلها، بول بريمر، سيقدّم تقاريره إلى دونالد رمسفيلد مباشرة. تقارير حول ماذا؟ حول كيفية سرقة النفط؟

إذا أرادت أمريكا مساعدة الناس، فيمكن أن يبدأ ذلك بإبعاد أيدي الجمهوريين عن الميزانية، وصرف الأموال في مجال التدريب على الوظائف والرعاية الصحية في «الوطن». الضحيّة الوحيدة في كل هذا هو المواطن الأمريكي البسيط، فإذا لم يُعتقل بسبب إبداء بعض الملاحظات ضد بوش وموون أو بسبب ارتداء قميص من قمصان دعاة السلام، فهو يخسر اقتصادياً حين يجلس أولئك الناس وأنصارهم، مثل وليام إيرل دودج ستوكس، ويقررون من هو وما هو الوطني. ستوكس طالب بتخصيص حصص وطنية للطلاب، واستبدال بعض الحصص المعيارية بحصص حول الوطنية في المنهاج الدراسي[171]. لماذا؟ ربما لأن الجمهور الأخرس يمكن أن يُخدع بسهولة فيستطيع شخص مثل الجنرال ليمنتز، كما تبيّن السجلات الحكومية الأمريكية، تدبير عمليات إرهابية مزيّفة لإبقاء الأمريكيين في حالة الخوف. يبدو أنهم نجحوا. أمريكا تحت الحصار، وقد حان الوقت لتذكير الجنرال ديفيرو.

العراق وقع ضحيّة أولئك، كما كانت كوبا الضحيّة المقصودة في عملية «نورثوودز»[172]. هذه وقاحة صارخة، كما أن ظهور كتيب يمدح بوش وموون ويطلب من الناس إبلاغ أجهزة الأمن الداخلي عن أولئك «المسكونين بنظرية المؤامرة» لا يعتبر طرفة أو مزحة، لا بالنسبة للأمريكيين الصالحين ولا بالنسبة للبلدان الواقعة الآن تحت الحصار العسكري. إن السؤال الحقيقي هو، ماذا ينبغي علينا أن نفعل؟ تصر الولايات المتّحدة على استبعاد الأمم المتحدة. الولايات المتحدة لم تعثر على أسلحة الدمار الشامل، بالأحرى، وجدت بعض الأسلحة المطلية بالذهب، وهذه سُرقت.

أمريكا حوصرت بالفعل بشيء مما جاء في المخطط الأولي لمؤامرة «نورثوودز»، وهي بالتالي حاصرت هذا البلد، كما كان تنوي أن تفعل بالنسبة لكوبا تحت حجج مزيفة. يجب ألا نقبل

ذلك، من الكفر الاعتقاد أن تفجير الأطفال وسرقة مصادر عيشهم هو من الأعمال التي يرضاها الله. الأغبياء يعتقدون ذلك، الأمريكيون الطمّاعون يعتقدون ذلك، وحججي واحتجاجاتي ضد هذا النوع من الناس لن تُسمع كما ينبغي، لكن العقلاء يتذكّرون احتلال بولندا عام 1939؛ لم يتوقّف المحتل هناك، وهو لن يتوقّف في العراق، ما لم نتحرك بدلاً من الاسترخاء ونتخلى عن الأدب الشديد فنتكلّم.

للشعب العراقي أعبر عن تعاطفي وأملي بأن يتمكن من إعادة بناء نفسه وبلده، وأن يتحرر من أمثال جورج بوش وصدام حسين.

سلام.

---

(1) Cockburn, Andrew and Patrick Cockburn. *Saddam Hussein: An American Obsession.* London, Verso, 2002.
(2) Nimmo, Kurt. Essay posted on www.rense.com
(3) *The Guardian,* 6 February 2003
(4) http://news.bbc.co.uk/1/hi/england/2799791.stm
(5) http://www.rense.com/general35/tricks.htm
(6) *New York Times,* 23 February 2003
(7) *The Observer,* 1 March 2003
(8) *The Guardian,* 1 April 2003
(9) http://www.rense.com/general36/bsrit.htm
(10) *The Times,* 29 March 2003
(11) Levi, Wendell. *The Pigeon.* Colombia, SC, 1940.
(12) أنظر الفصل الثامن
(13) *Daily Mail,* 21 March 2003
(14) *Daily Mail,* 24 March 2003
(15) Ib.
(16) Ib.
(17) *Mail on Sunday,* 30 March 2003
(18) *Independent,* 28 March 2003
(19) *Independent,* 19 February 2003
(20) Gibson, Kenyon, Cindy Mackintosh and Nick Mackintosh. *Hemp for Victory.* Manuscript in preparation, The Eryr Press.
(21) *Evening Standard,* 1 April 2003
(22) *Evening Standard,* 3 April 2003
(23) *The Guardian,* 29 March 2003
(24) *Daily Mail,* 27 March 2003
(25) http://www.rense.com/general36/suo.htm
(26) http://www.rense.com/general36/ssw.htm
(27) *The Daily Camera,* 5 April 2003
(28) *New York Times,* 29 March 2003
(29) *BusinessWeekOnline,* 8 March 2003
(30) http://www.rense.com/general37/sick.htm
(31) *The Idaho Observer,* 16 April 2003
(32) Ib.
(33) Ib.
(34) Ib.
(35) Ib.
(36) http://www.iraqwar.ru/iraq-read_article.php

(37) Ib.
(38) *The Guardian,* 5 April 2003
(39) http://www.iraqwar.ru/iraq-read_article.php
(40) Ib.
(41) Bamford, James. *Body of Secrets.* NY, Doubleday, 2001. pp. 82-92
(42) *Daily Mail,* 27 March 2003
(43) *Independent,* 18 March 2003
(44) http://www.rense.com/general37/memos.htm
(45) *The Times,* 17 March 2003
(46) Ib.
(47) http://www.commondreams.org/headlines03/0506-02.htm
(48) *Independent,* 21 April 2003
(49) *Mail on Sunday,* 30 March 2003
(50) http://www.wagingpeace.org/articles/03.03/0311coelho_thanksbush.htm
(51) *New York Times,* 19 March 2003
(52) http://www.rense.com/general36/hh.htm
(53) http://www.rense.com/general36/fasb.htm
(54) http://www.rense.com/general36/stops.htm
(55) Pax, Salaam. Internet letter posted from Baghdad, Spring 2003
(56) http://www.rense.com/general37/chill.htm
(57) http://www.rense.com/general37/attck.htm
(58) Ib.
(59) http://www.rense.com/general36/pce.htm
(60) http://www.rense.com/general36/susp.htm
(61) http://www.rense.com/general37/anti.htm
(62) *TV Guide,* 12 April 2003
(63) *Daily Mail,* 21 March 2003
(64) Ib.
(65) *Independent on Sunday,* 23 March 2003
(66) *Mail on Sunday,* 30 March 2003
(67) *The Guardian,* 1 April 2003
(68) *New York Times,* 29 March 2003
(69) *The Guardian,* 29 March 2003
(70) http://electroniciraq.net/news/490.shtml
(71) Ib.
(72) *Mail on Sunday,* 30 March 2003
(73) http://www.rense.com/general36/execution.htm
(74) *The Sunday Times,* 31 March 2003
(75) Soviet military intelligence update, forwarded by Dr. Imad Khaddouri
(76) *The Guardian,* 1 April 2003
(77) *Evening Standard,* 1 April 2003
(78) Ib.
(79) *Independent,* 1 April 2003
(80) http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/2909589.htm
(81) *New York Times,* 11 May 2003
(82) *The Globe & Mail,* 2 April 2003
(83) http://www.rense.com/general36/convoy.htm
(84) http://smh.com.au/articles/2003/04/08/104956766-897.html
(85) http://www.rense.com/general37/die.htm
(86) http://www.rense.com/general37/cvii.htm
(87) Ib.
(88) Ib.
(89) *New Statesman,* 16 December 2002
(90) *The Guardian,* 14 April 2003
(91) *Daily Mail,* 29 March 2003.

(92) *Independent,* 8 April 2003
(93)
مجلة لايف نشرت القصّة وقد استرعت تفاصيلها اهتمام الناس في مختلف أنحاء العالم وأحرجت الولايات المتحدة واضطرتها للتوقف. نُشرت الصورة على الصفحة الأولى ليراها الجميع، والبلهاء فقط يستطيعون الاستمرار بالتلويح بالأعلام وإلقاء المحاضرات على الآخرين حول الوطنيين والشيوعيين؛ من الواضح أن مجموعة من المنحرفين المخادعين المرضى الذين يلعبون ألعاباً سادية ضد الأطفال العزّل ويضحكون ويجمعون الكثير من المال.
(94) http://www.rense.com/general37/phuc.htm
(95) *Matthew* 25:40
(96) *John* 2:25
(97) *Independent,* 12 April 2003
(98) http://www.rense.com/general37/phuc.htm
(99) Corn, David. *Falwell to Jesus: Get a Hummer.* Essay posted on Alternet.net, 22 November 2002
(100) *The Guardian,* 12 March 2003
(101) *Counterpunch,* 9 March 2003
(102) Ib.
(103) Ib.
(104) Ib.
(105) *Intervention Magazine,* April 2003
(106) Ib.
(107) Anonymous. Pro Bush/Moon tract, Spring 2003
(108) *The Guardian,* 28 April 2003
(109) Ib.
(110) Ib.
(111) *The Guardian,* 24 March 2003
(112) http://www.rense.com/general37/brus.htm;
(113) http://www.rense.com/general37/steal.htm
(114) Ib.
(115) http://www.rense.com/general37/nat.htm
(116) http://www.rense.com/general37/stoo.htm
(117) http://www.rense.com/general37/not.htm
(118) Ib.
(119) http://www.rense.com/general37/waste.htm
(120) Anon.
(121) Ib.
(122) *The Rational Enquirer,* 8 April 2003
(123) http://www.rense.com/general37/killing.htm
(124) http://www.rense.com/general37/accu.htm
(125) Ib.
(126) Ib.
(127) *Independent,* 9 April 2003
(128) Ib.
(129) *Independent,* 31 March 2003
(130) *The Mail on Sunday,* 30 March 2003
(131) http://www.rense.com/general36/40.htm
(132) *Daily Mail,* 21 March 2003
(133) *The Guardian,* 26 March 2003
(134) *The Guardian,* 29 March 2003
(135) Ib.
(136) Ib.
(137) Ib.
(138) *Wall Street Journal,* 25 March 2003
(139) http://www.rense.com/general37/Uscustomsboots.htm
(140) Ib.
(141) Ib.
(142) *Los Angeles Times,* 24 April 2003

(143) http://www.rense.com/general37/eyewitnesscharges.htm
(144) Pax, Salaam
(145) Ib.
(146) Ib.
(147) *Sunday Herald,* 14 April 2003
(148) Ib.
(149) *The Guardian,* 14 March 2003
(150) http://www.rense.com/general37/impl.htm
(151) *Business Week,* 17 March 2003
(152) http://www.rense.com/general37/impl.htm
(153) *Independent,* 9 May 2003
(154) http://www.islamonline.net/English/News.2003-04/12/article/2.shtml
(155) *Dagbladet,* 25 April 2003
(156) *Independent,* 6 August 2003
(157) http://rwor.org/a/firstuol/886/rape.htm
(158) http://www.counterpunch.org/white1023.html
(159) De Camp, John. *The Franklin Cover-up: Child Abuse, Satanism and Murder in Nebraska.* Lincoln, Nebraska, AWT Inc., 1992. pp. 320-329
(160) http://www.rense.com/general35/chalabismenshot.htm
(161) *The Guardian,* 1 April 2003
(162) *Independent,* 30 March 2003
(163) Ib.
(164) *Independent,* 2 April 2003
(165) *Independent,* 30 March 2003
(166) *Independent,* 2 April 2003
(167) *Independent,* 30 March 2003
(168) http://www.rense.com/general37/hatred.htm
(169) Ib.
(170) *Independent,* 12 May 2003
(171) Stokes, W.E.D. *The Right to be Well-born.* NY, 1917. p. 72
(172) Bamford, pp. 82-92

قابل الصحافة

في أوائل التسعينيات جاء مراسل شاب إلى مدينة نيويورك كي يفني عمره في الصحافة. جوستن براون، المتخرج حديثاً من الجامعة، وجد وظيفة له في مجلة «أور تاون» الأسبوعية التي يقع مقرها في الجانب الشرقي من المدينة وتملكها «شركة الاتصالات الإخبارية». مكاتب المجلة كانت في الشارع الثلاثين الغربي، وشقته كانت في بروكلن. الرحلة من المكتب إلى البيت تقوده إلى الشارع الثالث والعشرين الشرقي، وقد كان في طريقه إلى البيت في إحدى الأمسيات حين رأى قصّة تنتظر من يكتبها. على الجانب الشمالي من هذا الشارع، بين ليكسنغتن آند ثيرد، يقع فندق «كينمور». في السنوات الماضية، كان هذا الفندق مزاراً للأغنياء والمشاهير، وهو معروف بأنه المكان الذي كتب فيه داشيل هاميت روايته الكلاسيكية «الصقر المالطي» في العشرينيات من القرن الماضي.

المبنى الذي كان براون يمر به أثناء رحلته باتجاه البيت كان قد تغيّر منذئذٍ؛ انطفأ بريقه وغار مجده فأصبح مستودعاً لقاذورات الحيّ واشتهر كمكان لتعاطي المخدّرات. جعله مشروع تحقيق صحفي لكشف القصص التي يمكن العثور عليها خلف واجهة ذلك الفندق المهجور، وفي سلسلة من المقالات، كشف عن جرائم القتل والتعامل بالمخدّرات التي هزّت نيويورك في منتصف التسعينيات.

عمله كان أكثر من مجرد سرد الحقائق والتفاصيل القذرة، نادى بإحداث تغيير، وفي الحقيقة نجح في إحداث التغيير المطلوب، سكّان حي «تورتل باي» كانوا أكثر المرحبين بكتاباته، هم وجيرانهم في متنزه «جراميرسي» الذين كانوا يعثرون على قوارير وأدوات تعاطي المخدرات في متنزههم. ذروة الأمر كله حدثت في 8 حزيران (يونيو) 1994 حين شنت عدّة جهات أمنية هجوماً على الفندق وحاصرته وفتّشت طوابقه الثلاثة وعشرين والتي تضم ستّمائة غرفة. احتل الحدث الصفحات الأولى في صحيفة النيويورك تايمز ليومين متتاليين، وقد حضر الحملة رئيس البلدية، الحاكم، والمدعي العام الأمريكي. سكّان المنطقة شعروا بالنشوة، ذلك أن حملة التنظيف جعلت البيئة أكثر أماناً.

براون، على أية حال، لم يحظ بالتقدير الذي يستحقه. جاء إلى المدينة الكبيرة ليتعلّم، لكن الدرس الوحيد الذي تعلّمه هو الخروج من كل ذلك. في مقالاته، التي التي كانت موثّقة ودقيقة وصريحة، ذكر اسم سيناتور أمريكي، واستكشف الدوافع الحقيقية وراء تورّط عضو مجلس الشيوخ. انتهى عمل براون في مجلة «أور تاون»، وانتقل إلى صربيا ليواصل عمله كصحفي.

تقبّل الأمر بصبر، وحين راقبته وهو يحزم أدواته الشخصية من مكتبه قبل أن يغادره، شعرتُ بالعجز عن الكلام. قد يكون الاقتباس التالي غير ملائم في هذا الموضع، لكنه يبدو وكأنه كتب لوصف الظروف الحالية:

> لا أحد منكم يجرؤ على كتابة رأيه بصراحة، ومن يفعل يدرك مقدماً أن ما يكتبه لن يُنشر. أنا كنت أتلقى راتباً أسبوعياً كي لا أعبر عن آرائي الصادقة والصريحة في الصحيفة التي أعمل فيها. آخرون مثلي يتلقون رواتب مماثلة ليفعلوا الشيء نفسه، وأيّ واحد منكم سيكون أحمقاً جداً إذا عبّر عن رأيه بصراحة وصدق وسيجد نفسه ملقى في الشارع يبحث عن عمل جديد. وإذا سمحت لآرائي الحقيقية بالظهور في المطبوعة التي أعمل فيها، فسأفقد وظيفتي قبل مرور أربع وعشرين ساعة.
>
> عمل الصحفي هو تشويه الحقيقة، الكذب المطلق، الإفساد، الذمّ، التودّد والتذلل عند أقدام الأثرياء، وبيع البلاد للحصول على قوته اليومي. أنت تعلم ذلك وأنا أعلمه، ومنتهى الحماقة أن ندعي شرب نخب الصحافة الحرة والمستقلة. نحن مجرد أدوات وتوابع للأغنياء القابعين

خلف الكواليس. نحن الدمى التي تتقافز، يسحبون الخيوط فنرقص. مواهبنا، إمكاناتنا، وحياتنا ملك لغيرنا. نحن مومسات ثقافيات.

جون سوينتون، محرّر النيويورك تايمز،

خطاب نادي صحافة نيويورك، 1953

سوينتون كان يعمل في صحف وليام راندولف هيرست، وكلماته تلك كانت مقبولة وتعبّر عن حاله وحال كثير من نظرائه في المؤسسات الصحفية الأخرى. الصحافة الصفراء تعبير اشتق خصيصاً لوصف نوعية صحافة هيرست، حيث أن صحفه كانت مجرد أدوات غايتها خدمة شخصيته الملتوية، والتحقيقات الصحفية التي كان ينشرها أدّت إلى إرسال الجنود إلى كوبا لخوض حرب غايتها منفعته الخاصة، على حساب حياة الجنود الأمريكيين. في تلك الفترة، إستغل انفجار الباخرة الأمريكية «يو أس أس مين» كأساس لقصّة مزعومة حول الإرهابيين الإسبان الذين فجّروا السفينة. وقوله المشهور «أنت جهّز الصور وأنا سأجهّز الحرب» يختصر الأمر ويبيّنه، ويصلح كنموذج لفهم الحروب اللاحقة. الأمريكيون اللاتينيون عانوا من ذلك، حيث عملت إمبراطورية هيرست الصحفية على نشر صورة نمطية عنهم كأشرار، مما نشر بين الجمهور شعوراً بالكراهية ضدهم.

ومع توسّع امبراطوريته وازدياد سطوتها باستغلال الدعاية والخوف الذي غُرس في أذهان الناس عبر وسائله الدعائية، دفع عامّة الناس الثمن. في مرحلة لاحقة شنّ هيرست حملة ضد زراعة القنب، ونشر كثيراً من الأكاذيب مما أدى إلى منع زراعته، مما أدى بالتالي إلى قطع كميات هائلة من الأشجار من أجل الصناعة الورقية. ربح كثيراً من كل ذلك، وعندما وصل أدولف هتلر إلى السلطة، حصل على مكاسب أخرى حيث كان هتلر يدفع له بشكل منتظم لينشر، أو بالأحرى لكي لا ينشر، بعض المواضيع والوقائع[1]. هتلر أفاد شركات أمريكية أخرى، مثل «دوبونت»، التي كانت تبيع الأسلحة لهتلر واستغلت أوضاع الحرب لتبيع الأسلحة لكلا الجانبين. هذه الشركة التي يقع مقرها في «ديلوار» كانت مملوكة آنذاك من قبل عدد من الصحف على الساحل الشرقي، وبين هاتين الشركتين العملاقتين، كان يتقرر مصير الأمريكي المتوسط. زراعة القنب أصبحت غير شرعية، وأُرسل الشباب إلى مختلف أنحاء العالم ليَقتلوا أو يُقتلوا. على أية حال، ربما كانت مشاعر أولئك الشبان نبيلة، لكن التلاعب

الذي كانت تمارسه الصحافة سراً كان بدافع الطمع والجبن من قبل المجموعات التي كانت تحظى بأكبر قدر من الاحترام، لذلك من غير المحتمل الإمساك بهؤلاء وتحميلهم المسؤولية.

حرية الكلام

هيرست و«دوبونت» ليسا سوى اثنين من بين العديد من اللاعبين في عالم الصحافة الأمريكية. كلاهما، بعد دعمهما للأنظمة الفاشية، أبعد ما يكونان عن المساهمة فيما يعتبر أحد أعمدة الوجود الأمريكي، حرية الكلام والتعبير. أظهرت «دوبونت» موقفها بوضوح تام فيما يتعلق بحق المواطنين الأمريكيين عندما حاولوا عام 1974 منع نشر كتاب جيرارد كولبي زيلغ: «وراء ستارة النايلون». قاضاهم هذا المؤلف، ومثل ديفيد في العهد القديم، انتصر عليهم في المعركة[2].

الاسم الآخر المنخرط في مجال «حرية الكلام» الدّكتور إيرل براين. شركته التي تحمل اسم «إنفوتكنولوجي» اشترت عام 1988 «يونايتد برس إنترناشيونال»؛ وفي ذلك الوقت كان جو روسو شريكاً في «يونايتد برس إنترناشيونال»[3]. براين وروسو كلاهما يتمتع بعلاقات حسنة مع البيت الأبيض؛ براين كان رئيس لجنة العمل من أجل الرعاية الصحية في عهد ريغان، وروسو صديق شخصي لبوش (الأب). براين امتلك أيضاً شبكة الأخبار المالية «فايننشال نيوز نتوورك»، وهو من طبقة المجرمين، حيث كان قد أدين بجريمة الاحتيال[4].

بتي بريوتن، الصحفي الفائز بعدد من جوائز التقدير جمع أبحاثه حول وكالة المخابرات المركزية وآل بوش والمافيا ونشر عمله عام 1992 من قبل دار النشر «شيبوسكاي ببليشر». في الأصل، كان قد اتفق مع دار النشر «سايمون آند شوستر»، التي أفادت في رسالة بعثتها إليه أن عمله «مادّة مهمّة جداً»[5]. حاول بريوتن الإسراع في نشر الكتاب بحيث يتوفر في الأسواق في الوقت المناسب لانتخابات تشرين الثاني (نوفمبر) الرئاسية، لكن دار «سايمون آند شوستر» بدّلت موقفها بخصوص النشر، وصرّح مديرها «بأن جورج بوش كان سيفوز على أية حال»[6].

ربما كان هذا الموقف نابعاً من تقدير ظروف النشر، وربما كانت هناك قوى وأطراف أخرى وراء ذلك القرار. أحد الأشخاص الذين ورد ذكرهم في الكتاب، هيو ليدتكه، كان في ذلك الوقت أحد أقرب أصدقاء بوش (الأب)، وكان أيضاً عضواً في مجلس إدارة شركة الاتصالات «باراماونت كوميونيكاشن» التي تملكها شركة النشر «سايمون آند شوستر»[7]. وبدلاً من كتاب بريوتن المليء بالمفاجئات الواقعية، خرج كتاب آخر من دار «سايمون آند شوستر»: «الزحف في المكان: الوضع الراهن لرئاسة جورج بوش»، كتبه اثنان من المراسلين المعتمدين في البيت الأبيض هما مايكل دوفي ودان جوودغام.

حين كان بوش الابن يُعدّ نفسه للسباق نحو المكتب البيضوي، كان مراسل ومؤلف استقصائي آخر يخوض معركته مع السلطات الخفية في عالم النشر. جيمس هاتفيلد، مؤلف الكتاب الذي يُسلّط الضوء على بوش الابن والذي يحمل عنوان «الابن المحظوظ»، نشر كتابه أولاً في دار النشر «سانت مارتن» في نيويورك عام 1999. بداية، طُبع من الكتاب 100 ألف نسخة، لكنّها لم توزّع. في خضم الاستعجال لنشر الكتاب، ضاعت بعض الأشياء، مثل الفهرس الذي حذف والتدقيق في التفاصيل. كانت لدى هاتفيلد نقطة محورية هي أن بوش الإبن كان قد أدين بجريمة تعاطي الكوكايين، وحصل على مقابلة سرية مع شريك بوش في التهمة الذي زوّد هاتفيلد ببعض التفاصيل حول القضية. بالرغم من أن تلك الاعترافات والوقائع كانت حقيقية لا شك فيها آنذاك، إلا أنها تحوّلت لاحقاً بجهود خفية إلى مجرد معلومات مغلوطة تفتقر إلى الدقة والموضوعية. هاتفيلد أصبح ضحيّة هذا النظام، والطبعة الأولى من الكتاب اختفت.

عام 2001، نشرت دار «سوفت سكول» طبعة ثانية تتضمن التفاصيل المفقودة وأضيف إليها الفهرس والمقدّمات. هذه الطبعة واجهت مشكلة أيضاً في النشر، وبعض الأطراف التي ذُكرت في الطبعة الثانية قاضت المؤلف ودار النشر وتوصّلت إلى تسوية خارج المحكمة، بالرغم من أن المدّعين لم يحصلوا على تراجع من هاتفيلد. عام 2002، نشرت دار «فيجين بوكس» اللندنية الطبعة الثالثة من الكتاب، في الوقت الذي كان هاتفيلد قد رحل عن هذه الحياة بشكل نهائي. مات هاتفيلد في 18 حزيران (يونيو) 2001 واعتبر موته انتحاراً.

التجارب التي مر بها كانت قاسية و لم يكن فيها ما يُشجّع أي صحفي طموح ممن يعملون في مجال الكتابة التحقيقية كي يعيد الكرة ويلقي نظرة فاحصة على سجل آل بوش.

بالإضافة إلى الصعوبات التي يواجهها المراسل والمحقق الصحفي الذي يعمل مراسلاً صحفياً عن بعد، بدأت المؤسسات الصحفية بعمليات اندماج واسعة، تماماً مثل البنوك والشركات الأخرى في العقدين الأخيرين. بعض الشركات سيطرت على قطاعات واسعة من الصحافة الأمريكية. يلخّص أندي دوتينغا مصير العديد من محطات الإذاعة في مقالة له نشرت في آب (أغسطس) 2000:

من هونولولو (سبع محطات) إلى ديز مونيز بولاية آيوا (ستّة)، وفورينت مايرز بولاية فلوريدا (ثمانية)، تسيطر شركة «القناة المفتوحة للاتصالات» على البث في كافة أنحاء البلاد. لكن هيمنتها لا تظهر بوضوح في أي مكان كما هي في سان دياغو. تسيطر الشركة الإذاعية الأكبر في العالم على 14 محطة هناك – أكثر بست محطات من أي مكان آخر في الولايات المتّحدة – ولا تزال لديها القدرة والرغبة للتوسع والنمو نحو الجنوب.

تصميم «القناة المفتوحة للاتصالات» العدواني على التوسع وضعها على مسافة بعيدة جداً من منافسيها المعتدلين في هذا المجال.

«لا أعتقد أن تلك المحطات ترتبط بالمستمعين كما تعودت أن تكون»، قالت تريسي جونسن، مدير عام محطة «كي إف إم بي–إف إم». «إنهم عقيمون وينقصهم الإبداع. هناك بريق مفقود فيما يقدمون».

إذا كان ذلك صحيحاً، فالسبب في ذلك هو النار الداخلية في «القناة المفتوحة للاتصالات» التي وجّهت نحو شراء كل ما تقع عليه العين. لم يمض على وجود الشركة سوى خمس سنوات تقريباً، لكنها اندفعت كالعاصفة في القطاع الإذاعي وبدأت بابتلاع المحطات الإذاعية بعد أن أرخى الكونغرس حبال قوانين الملكية.

بعد عاصفة من الشراء والبيع والاندماج، انتهت «القناة المفتوحة للاتصالات» إلى امتلاك أو تشغيل 1165 محطة إذاعية في الولايات المتّحدة. وهي تسيطر على حوالي 80 محطة أخرى بوسائل وطرق مختلفة[8].

عملت هذه الشركة عام 2003 بجهد لتنظيم المسيرات المؤيدة للحرب، وبعض تلك المسيرات تحوّل إلى موضوع للسخرية حين شارك فيها حفنة من المتظاهرين، وبعضهم في الحقيقة يحمل لافتات لا تطالب فقط بقصف العراق، بل فرنسا أيضاً.

إحدى الصحف التي ربما كانت تُدار لعدّة سنوات من داخل البيت الأبيض، «هانتينجتن هيرالد برس»؛ والتي تملكها عائلة دان كوايل، نائب الرئيس من 1988 إلى 1992. أثناء إنتخابات العام 2000، تبيّن أن الامتداد العائلي في الصحافة أثبت فعاليته حين عمل جون أليس، ابن عم جون أليس بوش وجورج بوش الابن، في محطة «فوكس نيوز» التلفزيونية وكانت مهمته تغطية الانتخابات.

المحطة الأخرى التي ربّما كان لها بعض الولاء الداخلي هي محطة «أي بي سي-تي في»، المملوكة جزئياً من قبل وارن بوفيه. هذه الحقائق تسلّط الضوء على التغطية الإخبارية لمسائل أخرى، والمرء يتساءل هنا حول الاستجابة والاهتمام المحدود الذي أبدته الشبكات التلفزيونية الرئيسية فيما يتعلق بفضائح الاعتداء على الأطفال في أوماها، وهي القضية التي تعرض فيها المدّعي العام الحكومي للتهديد ومات في النهاية في ظروف غامضة. أوماها هي المدينة التي ينتمي إليها بوفيه، وهناك بعض الممارسات الغريبة جداً التي تجري هناك والتي يتوجب على الأمة أن تسجّل الملاحظات حولها.

حتى في لندن، يمكن لمس التأثير الأمريكي، إذ أن الديلي تيلغراف أصبحت مملوكة جزئيا من قبل ريتشارد بيرل، مستشار وزارة الدفاع الأمريكية ومالك شركة «هولينغر المحدودة». هذه الصحيفة هي التي زعمت بأن النائب العمالي البريطاني جورج غالاوي تلقى رشاوى من صدام حسين، استناداً على وثائق تم العثور عليها في الوقت الملائم حين كان غالاوي يتحدث ويتحرك ضد الحرب. منذ ذلك الحين، بيّن التدقيق في تلك المستندات كثيراً من التناقضات وتقدم غالاوي بشكوى ضد الصحيفة بتهمة الافتراء[9].

رئيس بلدية نيويورك مرتبط بشركة «بلومبرغ للخدمات المالية»؛ وآل بوش مقربون منه، ولا يسع المرء إلا أن يتساءل لماذا لم تخضع هذه الشركة لتحقيقات معمّقة فيما يتعلق بالعمليات التجارية المريبة جداً التي حدثت مباشرة قبل الهجمات.

تحت القمر

تجب الإشارة بشكل خاص إلى صحيفة بعينها، الواشنطن تايمز، «المعروفة بصحيفة أمريكا». هذه الصحيفة التي يملكها الشرير صن مايونغ موون، ينصب خلفها سيل ثابت التدفق من المال كي يتمكن موون من زرع آرائه ومعتقداته في عقول الناس. سيطر موون على هذه الصحيفة عام 1982، ومنذ ذلك الحين أصبحت معقلاً للفكر اليميني الأمريكي. موون اشترى لاحقاً مؤسسة النشر «يو بي آي» وفي العام 1996 أطلق موون صحيفة «تيمبوس ديل موندو» الناطقة بالإسبانية والتي روّج لها في أمريكا اللاتينية بمساعدة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الأب. بالإضافة إلى هذه الملكيات، تنشر مجموعات موون الدينية موادها الدعائية ومنشوراتها الخاصة، من الكتب إلى النشرات الدعائية، وبعض تلك المنشورات تتضمن آراء تؤيد وتساند الحزب الجمهوري وجدول أعماله. بعد غزو العراق واحتلاله في ربيع عام 2003، ظهر كتيّب دعائي مؤيد لبوش/موون حثّ الناس على تفادي اليسار واليساريين وتجنب الصحافة البريطانية، وأفرد بالذكر والانتقاد الصحفيين روبرت فيسك وجون بيلجير. ومما جاء في ذلك الكتب حول موون:

> لقد سمح بكل لطف لصحيفته، الواشنطن تايمز، أن تنشر وتقول الحقيقة. الصحف الأخرى، للأسف، واقعة في أيدي الليبراليين، وهؤلاء بدءوا بالتلميح إلى نظريات المؤامرة الشرّيرة... الواشنطن تايمز، على سبيل المثال، نشرت الحقيقة. ألم تخبركم جميعاً حول مدى عظمة الزعيم جورج بوش، أنتم الذين كنتم ضحية التضليل قبل 9/11؟
>
> هذه الصحيفة، رغم أنها ربحت المعركة في العديد من الأماكن، لا تستطيع وحدها الاستمرار في التصدي، والآن، أنتم أيها المواطنون الأمريكيون يجب أن تتصرّفوا...
>
> في المستقبل القريب، جورج بوش وفريقه سيقودون أمريكا إلى ذرى جديدة، والأبّ [إشارة إلى موون] سيباركهم. العالم بأكمله سيسجّل ملاحظة حول ما تم إنجازه، وأنت، أيها الوطني الأمريكي الجديد، ستعيش الحلم الذي تحقق...
>
> وهناك أولئك الذين اختاروا التشتت والابتعاد عن الإعلان العظيم، الذي خُصص للمخلصين، والذي سيُعلن في اليوم الوطني، الرابع من تموز (يوليو)...

أنت ستكون الأول بين الأمم، وزعمائك سيكونون موضع احترام العالم بأكمله. ليتقدّس الوطن![10].

إذا بدا هذا كله غريباً، فذلك لأنه غريب بالفعل، أغرب من الخيال. «الإعلان العظيم» تلميح إلى الإعلان الذي ظهر على صفحة كاملة في الواشنطن تايمز عام 2002 وفيه أن موون هو المسيح المنتظر، ملك الملوك[11]. جولة 1996 الترويجية مع بوش الأب كانت غريبة أيضاً، حيث انشغل موون في تلك الجولة بمناقشة وشرح مواضيع غريبة مثل التغوّط ودس الأصابع في الأنوف[12]. بالتأكيد يمتلك هذان الشخصان الحق في التحدّث عما يريدان، وأمريكا الشمالية والجنوبية مشهورة بحرية الكلام وهو أمر تنبغي المحافظة عليه، لكن المرء يتوقّع من رجلين بسنهما وموقعهما أن تكون لديهما مواضيع أكثر أهمية ليتحدثا عنها، خصوصاً في المناسبات العلنية. لذلك، هل يستطيع أحد أن يتوقّع ما يخطط له هذان الرجلان، رغم أن المسألة الثابتة الوحيدة قد تكون الطموحات والأطماع المالية، والتي تؤدّي إلى الحرب وإشعال الفتن، وهي تجارة تعتمد على الصحافة لاستثارة مشاعر الرأي العام وكسب تأييد العامة والتغلّب على العقلاء الذين يدققون في الأكاذيب. الإضافة الجديدة لطاقم موظّفي الواشنطن تايمز هي انضمام بيل غيرتز، وهو شاب في أوائل العشرينات من العمر لا يحمل إجازة في الصحافة، لكنه ارتقى السلم المهني بسرعة فائقة، بطريقة تشبه نوعاً ما أسلوب جيسن بلير السيئ السمعة في صحيفة النيويورك تايمز.

موون وموظّفيه ليسوا الوحيدين الذين لا ينشرون كلّ الأخبار. وبعض هذه الممارسات يرتكب عمداً، كما بيّنت مذكرة داخلية تم تسريبها في أوائل 2003. ومن بين التوجيهات التي تضمنتها تلك المذكرة ما يلي:

... يمكن عرض وإظهار تحرير العراقيين السعداء والمتحمسين بطريقة أفضل من خلال تصوير حشود المواطنين الذين يهتفون ويلوّحون بالأعلام الأمريكية...

... إذا عُرضت صور المظاهرات المعادية للحكومة، ينبغي التشديد أمّا على قلة عدد المحتجين وتصويرهم على أنهم من غريبي الأطوار أو إبراز الهتافات والمظاهر غير اللائقة اجتماعياً.

... الأعداد المتصاعدة من العاطلين عن العمل تجب مواجهتها بتكثيف المقابلات مع المسئولين الرسميين والتأكيد على أن حالة البطالة بدأت بالتراجع ويُتوقع انحسارها قريباً.

... غزو العراق يجب ألا يقارن بغزو هتلر لبولندا.

... التعليقات التي تظهر في صحيفة الغارديان البريطانية اليسارية حول الاحتلال وإدارة المناطق المحتلة (التي تنبغي الإشارة إليها بتعبير العراق المحرر والمتحوّل حديثاً إلى الديمقراطية على أيدي أفراد الجيش الأمريكي) ينبغي إهمالها وتجاهلها.

إذا أمكن، نقترح نشر صور الرئيس ممسكاً بكتاب، أو وهو يقرأ، وهذا أفضل.

من المستحسن أن يتم عمل شيء ما، على عكس ما حدث أيام حرب فيتنام، يُظهر الدعم الكامل من طلبة الجامعات في أمريكا للرئيس وعدم مشاركتهم في التحركات ضد الحرب[13].

إن هذا النوع من الاقتراحات موجود في التقاليد الأمريكية التي تعود إلى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، والتي ساهمت في التعتيم على الحقائق حول الفاشية. جورج سيلدز، أحد أعظم الصحفيين في القرن العشرين، صرّح بأنّ النيويورك تايمز[14] نشرت أكاذيب شنيعة عبر الترويج لموسوليني وتبييض صفحته. المقالات والتحقيقات النزيهة والصادقة حول النازيين سُحبت في الثلاثينات من الصحف الأمريكية الرئيسية، وهذا الأمر ظهر بجلاء مجدداً من خلال إلغاء التحقيقات الصحفية التي تُسلّط الضوء على جمعية «سكول آند بونز» والتي كان من المقرر أن تُعرض في 4 أيلول (سبتمبر) 2002، والتي أعدها كوني شونغ.

استطلاعات الرأي التي تلت 9/11 أظهرت علامات عبثية، كما حدث في آب (أغسطس) 2002، حيث جاء في مقالة نُشرت في موقع rense.com وصفٌ لكيفية حذف التعليقات التي تتضمن تساؤلات من استطلاع الرأي الذي أجراه موقع AOL حول ما إذا كان ينبغي مهاجمة العراق[15].

المحامي ألن بيسبرت من مكتب هارتفورد للمحاماة أجرى استطلاعا يتضمن السؤال عمن يعتقده الناس المسئول عن الهجمات على واشنطن ونيويورك، وقد كانت النتيجة على النحو التالي: أسامة بن لادن 4.4% (250 صوتاً)؛ الميليشيات الأمريكية 0.3% (18 صوت)؛ البيت الأبيض 21.9% (1243 صوتاً)؛ وزارة الدفاع الأمريكية 1.1% (65 صوتاً)؛ حركة طالبان

والقاعدة 18.2% (1035 صوتاً)؛ العراق 3.9% (224 صوتاً)؛ النظام العــالمي الجديد 48% (2728 صوتاً)؛ غير ذلك 2.1% (119 صوتاً).

استغرق استفتاء هذه الأصوات البالغ عددها 5683 صوتاً عدة أسابيع، لكن في خلال ساعتين فقط استطاع موقع جالية الكومنولث الإكليروسية (www.ecclesia.org) استفتاء آلاف الأصوات – 2600 صوتاً منها تحمّل حركة طالبان مسئولية الهجمات. تبيّن لاحقاً أن الموقع كان قد تعرض لقرصنة أتته من ملقم شبكة AOL يقع بالقرب من مقر وكالة المخابرات المركزية في لانغلي بولاية فرجينيا، وقد تمت عملية القرصنة والاستيلاء على الموقع باستخدام نوع من لغة البرمجة جافا لم يسبق للمسئول عن الموقع أن رآها من قبل[16].

مايكل رٌبيرت لاحظ حدوث أمر مماثل في موقع «جريدة الدستور – أطلانطا» على شبكة الوب. في منتصف شهر نيسان (أبريل) من عام 2002 نشر الموقع المذكور استطلاعاً يطلب من مستخدمي الموقع التصويت بنعم أو لا حول ما إذا كانوا يعتقدون أن البيت الأبيض كانت لديه معرفة مسبقة بوقوع الهجمات. الأغلبية أيدت الاعتقاد القائل بوجود المعرفة المسبقة، لكن الاستطلاع اختفى تماماً. في 21 نيسان (أبريل) أوضح مايك كينغ، متحدثاً باسم «جريدة الدستور – أطلانطا»، «بأنّ الاستجابة حطّمت منظم الجداول»[17]. التصويت عملية صعبة في بعض المناطق...

عندما دعت عضو الكونغرس سينثيا ماكيني (ديمقراطية–جورجيا) إلى التحقيق في الهجمات، «جريدة الدستور – أطلانطا» هي التي بادرت أولاً بفتح النار عليها، ولّمحت إلى احتمال أن عضو الكونغرس المذكورة نفسها ربما تكون قد دعمت الإرهاب[18]. وقد نشرت الجريدة بعض الوقائع التي تفيد أن عضو الكونغرس ماكيني استلمت تبرّعات من المسلمين في أمريكا، لكن الجريدة أهملت الحقيقة التي تقول أن الحزب الجمهوري قبل تبرعات مالية من جمعية «صفاء ترست» الخيرية الإسلامية، وأن مكتب التحقيقات الفدرالي وصف تلك العملية كما لو أنها عملية غسل أموال للإرهابيين.

المعارض الآخر لماكيني كانت المؤسسة القانونية الجنوبية الشرقية (إس إل إف)، وهي منظمة أسّست عام 1976 بمساعدة من ريتشارد ميللون سكايفي. موقف المنظمة الداعم والموالي

لليمين يبدو سخيفاً بعض الشيء في ضوء الحقائق، إذ أن الحادثة التالية قد تلخّص بعض النفاق.

في 4 تشرين الأول (أكتوبر) 2000، اعتقل ماثيو غالفن، رئيس منظمة «إس إل أف» ومديرها التنفيذي، بسبب قيامه بملاطفة نفسه بطريقة معيبة وعلنية من قبل ضابط اتحادي سريّ في متنزه تشاتاهوتشي الوطني النهري في أطلانطا. البقعة التي اعتقل فيها كانت بقعة معروفة يرتادها الشاذّون جنسياً، وقد أظهر غالفن طبيعته الشخصية الشاذة بمحاولته ملاطفة الضابط الذي اعتقله في وقت لاحق من ذلك الشهر[19][20]. غالفن ليس المنحرف الوحيد في الجسم الصحفي الأمريكي، فهناك آخرون أمثال بيتر سيترون[21]، المعروف في أوساط الشاذين جنسياً في أوماها. ومما يؤسف له أن هذا النوع من الناس هم الذين يقرّرون ما ينبغي أن يسمعه أو يقرأه الجمهور، وهم يظهرون على المسرح كأشخاص موثوقين ومحترمين، وفي الحقيقة، كل من يختلف معهم قد يتعرض للتجاهل والإهمال، بما في ذلك أفراد عائلات ضحايا 9/11 الذين لم يكونوا على استعداد لمسايرة الخطّ الرسمي ولم يعبروا عن دعمهم للحرب. وصل هؤلاء الناس إلى درجة شن حملة تطهير عبر موجات الأثير، والحادثة الأخيرة بخصوص المغنية ديكسي تشكس تستدعي الاهتمام والملاحظة. نظّمت «كمولوس ميديا»، وهي شبكة إذاعية أمريكية، حملة استخدمت فيها «جرّاراً لسحق أقراص ديكسي تشكس المدمجة وأشرطة الكاسيت والفيديو في حادثة أعادت إلى الأذهان الأصداء التاريخية المزعجة لحملات التطهير الثقافي وحرق الكتب وغيرها من المواد الثقافية»[22]. المغنّية الرئيسية في هذه المجموعة هي التي أخبرت جمهور لندن بأنها تشعر بالخجل لكونها من تكساس، ومنذ تلك الحادثة، إزدهرت مبيعاتهم في الحقيقة، على الرغم من منع موسيقاهم وخطبهم. صحيفة الإندبندنت لاحظت أيضاً ارتفاعاً في مبيعات منتجات تلك المجموعة في الفترة التي تلت أحداث 9/11، وذلك بالرغم من الهبوط الشديد والملحوظ في أرقام التوزيع في كافة مجالات هذه الصناعة [23]، كما أن مايكل موور لاحظ أيضاً تحسناً في مبيعاته بعد ردّ فعل هوليود المناهض له. لذلك، قد يؤدي التلاعب الإعلامي إلى تأثير عكسي يقع على رؤوس أولئك الذين انضمّوا إلى الحشود المزدحمة في الطّريق إلى الجحيم.

زيّفها

الحقائق قد لا تمنع من النشر فقط، بل يمكن اختلاقها وتزييفها أيضاً. في أيار (مايو) من عام 2003 نشرت النيويورك تايمز مقالة تتألف من 7500 كلمة أوضحت فيها لقرّائها حقيقة تلك العشرات من المقالات المختلقة التي سبق لها وأن نشرتها، ومن ضمنها تلك المقالة العاطفية جداً حول إنقاذ العريف جيسيكا لنتش. حسناً، ربّما كنا قد توقعنا زيف تلك المقالة بالذات. ومما جاء في مقال الاعتراف والاعتذار الذي نشرته النيويورك تايمز، أن المراسل جيسن بلير ارتكب «أفعالاً متكرّرة تندرج ضمن الاحتيال الصحفي»، ووصفت ما فعله بأنه «خيانة عميقة للثقة ونقطة دنيئة في تاريخ الصحيفة الذي يمتد إلى 152 عاماً»[24].

ذلك الكذاب ذهب بعيداً في الترويج للحرب؛ فماذا اختلق أيضاً غير ما أعلن عنه من أكاذيب؟ إحدى القصص التي كتبها والتي تبدو وكأنها كُتبت على شكل سيناريو مسلسل تلفزيوني هي حكاية نيك روبرتسون، الذي ادعى بأنّه اخترق أفغانستان من الداخل واستولى على أربعة وستّين شريطاً مصوراً تُدين القاعدة[25]. أوه؟ هل ينبغي أن نصدق أن ذلك البطل المزعوم وصل إلى أفغانستان، بعد رحلته التي استغرقت سبع عشرة ساعة، فوجد أمامه عناصر طالبان والقاعدة وهم نيام، أو ربما طارد الرجال السيئين واصطادهم مثل رامبو فأجبرهم على الاستسلام؟ هل كانت برفقته شقراء جذابة تجيد الركل الجانبي كما في الأفلام، أو أنه، مثل بلير، لفّق ذلك كله بما يناسب المزاج العامّ؟

اللمسات الفنية طريقة أخرى لتضليل الجمهور وإثارته ضمن مزاج الحرب، وقد مورس ذلك مراراً وتكراراً. في حالة واحدة، كان لا بدّ لصحيفة لوس أنجلوس تايمز من أن تطرد الصحفي الفائز بجوائز تقدير براين والسكي بعد أن ثبت أنه دمج صورتين مختلفتين لجندي بريطاني[26]، وفي المملكة المتحدة، تسببت الصفحة الأولى من صحيفة «إيفننغ ستاندارد» في تشويه سمعة تلك الصحيفة حين تبين أن مشهد الحشد الجماهيري، الذي عولج بحيث يبدو كما لو أن هناك دعم هائل للاحتلال في العراق، وقد ظهرت في الصورة العديد من الوجوه المكررة أكثر من مرة من أجل تضليل وغش الجمهور البريطاني[27].

الحقيقة التي تجرح

إذاً، هل نحصل على الأخبار الصحيحة، أم أن ما نحصل عليه ليس سوى آخر دعاية عن جلسات آخر الليل بين موون/بوش؟

قد أرغب بالسماح لبصيص من الأمل بالإشراق وسط كل هذا الظلام، وهذه رغبة ملائمة، ذلك أن هناك العديد من الصحفيين الذين يعملون بجهد وإخلاص والذين لولاهم لما تمكنت من إنجاز هذا العمل وإخراجه إلى حيز الوجود. أولئك يُقتلون أحياناً، يتعرضون للتهديد أو التعذيب، وهم يشعرون بالحزن والأسى لأنهم مضطرون لمنافسة القصص والتحقيقات التي تُكتب حول حفلات مايكل جاكسون المنزلية التي يُقيمها مرتدياً ثياب النوم، وذلك كي يتمكنوا من نشر وإظهار الحقائق. المواضيع التي يكتبونها يمكن أن تساهم في تعليم وتثقيف الناس وتجعل هذا العالم أكثر أماناً وسعادة وتقدماً، لكن للأسف، وليام راندولف هيرست يعرف جيّداً جداً كيف يدفعهم جانباً ويختلق الأكاذيب التي تبدو أشبه بالحقائق.

لأولئك الصحفيين الصادقين أدين بالامتنان والتقدير، وأتمنّى أن يأتي قريباً الوقت المناسب لتسديد ذلك الدين. بالنسبة للجبناء الذين حصلوا على جائزة الثروة، أنتم تعرفون أنفسكم، وربما كان هذا هو أسوأ عقاب. وليس العقاب المستقبلي هو ما ينتظركم فقط، فحين تكتشف الجماهير أنها خُدعت وضُلّلت، عندما تكتشف أنها استُغلّت وكُذب عليها، فستنقلب بسرعة على أولئك الذين خانوها.

ليس هناك أحد مهما بلغت أهميته في أجهزة الإعلام لا تسيطر عليه وكالة المخابرات المركزية.
ـ وليام كولبي، مدير وكالة المخابرات المركزية تحت الإدارة الجمهورية في السبعينات[28]

يجب، مهما كلّف الأمر، أن نرسل فرق الاقتحام إلى بيوت الصحفيين لإيقاف هذه التسريبات.
– جيمس بي . بروس، نائب رئيس لجنة التنكر والتخفي في الدول الأجنبية في وكالة المخابرات المركزية[29]

---

(1) *Daily Mail,* 18 August 2001
(2) Zilg, Gerald. *Behind the Nylon Curtain.* Secaucus, New Jersey, Lyle-Stuart, 1984. Introduction.
(3) Brewton, Peter. *The Mafia, the CIA & George Bush.* NY, S.P.I. Books, 1992. p.22
(4) Ib. p.223
(5) Ib. p. 377
(6) Ib. p. 379
(7) Ib. p. 378
(8) http://www.rense.com/general27/cann.htm
(9) *The Mirror,* 13 May 2003
(10) Anonymous. Tract in support of Moon/Bush. Spring, 2003
(11) *Washington Times,* 4 July 2002
(12) أنظر الفصل الحادي عشر
(13) http://www.rense.com/general37/memos.htm
(14) http://www.rense.com/general29/blackmail.htm
(15) http://www.rense.com/general27/fixingthepolls.htm
(16) Ib.
(17) http://www.rense.com/general27/smear.htm
(18) Ib.
(19) http://conwebwatch.tripod.com/stories/2000/glavin.htm
(20) http://content.gay.com/channels/news/heads/001006_exodus.html
(21) De Camp, John. *The Franklin Cover-Up: Child Abuse, Satanism and Murder in Nebraska.* Lincoln, Nebraska, AWT Inc., 1996 (2nd ed.) pp. 71-234
(22) *Independent,* 21 April 2003
(23) *Independent,* 24 April 2003
(24) *New York Times,* 11 May 2003
(25) http://www.rense.com/general28/64.htm
(26) *Independent,* 3 April 2003
(27) *Evening Standard,* 9 April 2003
(28) *Common Dreams News Center,* 16 October 2002
(29) http://www.rense.com/general27/devour.htm



ما العمل؟

لن يكون أمراً عادلاً بالنسبة للقارئ إذا لم أنهِ هذا الكتاب بملاحظة متفائلة. لا بدّ وأن قراءة هذا الكتاب، كما أتخيّل، تطلبت بعض الجهد، ولا يعوّض ذلك الجهد سوى الشعور بوجود اتجاه إيجابي يمكن الحديث عنه ومناقشته. إن دراسة أسوأ جوانب السلوك البشري، كما تم في هذا العمل، لم تكن أبداً مهمّة سهلة ومرغوبة؛ أحياناً، شعرت بحاجة ملحّة وقاهرة للكتابة، شعرت بضرورة الصراخ لتحذير أولئك الذين لم يتمكنوا من التدقيق في بعض الوقائع المؤسفة في الوضع الراهن. وأنا، على أية حال، لم أتعب بلا مقابل. وبقدر ما هو واضح أن أولئك المنخرطين في العمل على إثارة المشاكل بحيث يمكنهم كسب المال من الحروب، من الواضح أيضاً أن أناس محترمين يعملون بكد من أجل المحافظة على عالمهم وتحسينه. النوع الأول يستفيد من الأمور الخفية والسرية، وحين يبدءون بتنفيذ مؤامراتهم، يبرز عنصر المفاجأة الذي يعمل بشكل جيّد جداً ضدّ الناس.

القصص المتعلقة بمؤامرة «نورثوودز» وجرائم الرايخ الثالث يجب أن تظل حيّة كأمثلة دائمة وكافية. «لن يحدث ذلك مرة أخرى مطلقاً» كان هذا هو الوعد الذي قُطع بعد الحادثة الأخيرة التي أدت إلى سيادة أقصى اليمين وتوليه مقاليد الأمور. يتمنّى المرء أن يرى نهاية لمثل هذا العدوان، لكن زمرة الأغنياء الجشعين وأتباعهم السذج يتمنّون عكس ذلك. هذه

المجموعة من تجّار الأسلحة وصانعي الرأي العام يقفون على أهبة الاستعداد لانتهاز الفرص وتحقيق المكاسب؛ شهيتهم شديدة للمال وشهيتهم أشد للمديح واحترام جمهور الناس. ما هو نوع الحماية الذي يمكن للمرء اتخاذها ضد هذا النوع من الناس، هؤلاء الذين استطاعوا التغلغل في الأوساط الدينية وربطوا أنفسهم بها فضمنوا لأنفسهم مواقع بارزة في المجتمع؟

الحسّ العام، كما أردت عنونة هذا الكتاب في بداية الأمر، يعني المعيشة اليومية البسيطة، تأدية المرء لوظيفته، العيش في الحياة بأمانة، تعلّم تجارة ما، العزف على آلة موسيقية، التجوال، قراءة كتاب. في مثل هذا العالم، يمكن رؤية المنحرفين بمنتهى السهولة، وهم مثل الجراثيم في الجسم الصحيح والنشيط، لا يستطيعون الاستمرار والعيش كما يحلو لهم. إن إيقاع الحياة وسرعة حركة المجتمع وحيويته وقيمه النبيلة تعني الموت بالنسبة لهم. هذا المجتمع يفضحهم، يشعرهم بالخجل والعزلة.

حين يتزايد الشعور بالغرور والتكبّر والكسل وغير ذلك من المشاعر المَرَضيّة التي تعيق الإيقاع الطبيعي للحياة السليمة، تزداد سطوة الشيطان، وهذه الحالة تشبه الإصابة بجرثومة مرض خطير. الأشرار ينجحون ثمّ يسنّون القوانين، ثمّ يُشعلون الحروب لتحقيق المكاسب، يلوّحون بأعلام الأمة التي كانوا يخونونها ويدّعون الوطنية؛ هؤلاء جراثيم قاتلة، تسيطر على الروح وتتكاثر بسرعة وتنمو كالأعشاب الضارة. أحياناً يُستهان بقوّتهم، وهي مثل الأعشاب الضارة، أهميتها أكبر من أفضل أنواع النباتات في الحديقة. يمكنهم أن يفرضوا الأفكار على الجمهور، كما اقترحت ذلك شركة «دوبونت»، ثمّ تتدفق الطاقات والأموال الهائلة إلى خزائنهم وجيوبهم. المحاولات التي بُذلت للتصدي لهذا الاتجاه فشلت، أحياناً تحت غطاء برنامج حكومي «لتطوير» أسباب جديدة للاستقرار أو تأمين مصادر للتجارة والاستثمار. ما يحدث حقاً هو أن البحث يُدفن في مقبرة اللجان.

جزء من الحلّ يعتمد على الجهد الفردي. هل نريد مجتمعاً يقوده ويتحكّم به البلهاء؟ بالطبع كلا. لكن الأمر يتطلب أكثر من مجرد الشكوى والتحليل. العلم أحد مفاتيح السعي إلى السعادة، ومن الواضح أن الأشرار الأقوياء مثل وليام إيرل دودج ستوكس يطالبون بالحد من

مقدار المواد العلمية في نظام التعليم الأمريكي وتعليم منهج «الوطنية» المعياري بدلاً من تلك المواد

الوطنية شيء جيد، لكن من هو الوطني؟ هل هو الأبله الذي يحمل علماً كبيراً جداً وعاطفة تتدفق في مسيرات الحقد؟ هذه تفاهة. هل تريد أن تكون وطنياً؟ إذاً، تجاهل أولئك الحمقى. الذين يؤدون وظائفهم وطنيون؛ الذين يعارضون الحرب وطنيون، والذين يحققون ويسألون عن مؤامرة «نورثوودز» و9/11 وطنيون. هناك الكثير من المتعصبين القوميين في العالم، وأنا أعتقد أننا لو استمعنا إليهم جميعاً بعناية، فسنكتشف أنهم جميعاً متشابهون. على سبيل المثال، إذا قارنت بين متطرّف وهابي وبين يميني أمريكي من أولئك الذين يكرهون المسلمين، فستجد ببساطة أن أحدهما صورة طبق الأصل عن الآخر. لا توجد فروقات تذكر بين هؤلاء، وكلا النوعين يستعمل كبيادق في اللعبة كما فعلت ذلك بأمثالهم المنظمات النازية.

اجمع بين المواطنين الطبيعيين من البلدان المختلفة ولن تكون هناك مشكلة. سينجم عن ذلك الاجتماع استنباط للحلول، وليس صعباً أبداً إيجاد تلك الحلول. وحيث أن العالم خرج عن السيطرة تقريباً، فإن تطبيق تلك الحلول قد لا يكون مهمّة سهلة، خصوصاً مع اكتساب الحكومات اليمينية مزيداً من السلطة والقوة للتجسّس على مواطنيها الطبيعيين، كما كان الحال أيام هتلر.

الأمر يعود للعقلاء من الناس كي يختطفوا النصر من فك الشيطان. إلى هؤلاء، أتمنّى أن يكون في هذا الكتاب نفع وفائدة، وليباركك الله ويعينك في استرداد السلام في وطنك وعلى الأرض.

الفهرس

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و





هذا الكتاب

وسط هذا الكم الكبير من الكتب والدراسات والتحليلات التي تناولت ما يراه البعض شكوكاً حول هجمات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، ينفرد كينيون غيبسون بكتابه هذا بميزة البحث شبه التاريخي عن الجذور التي أنبتت هذا الجنون الأمريكي، الذي نسميه أحياناً باليمين المتطرف أو تيار المحافظين الجدد أو المسيحية المتصهينة، والذي يستنبت نقيضه التام الذي يبرر له تنفيذ مخططاته الموضوعة منذ أمد بعيد.

في الستينات وضعت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية خطة لغزو كوبا سمتها عملية نورثوودز Northwoods. ولكي يبدو الغزو مبرراً، كان لا بد لعملية نورثوودز أن تتضمن سقوط الكثير من الضحايا الأمريكيين الأبرياء على أيدي قتلة ومهاجمين إرهابيين كوبيين. لكن الرئيس الأمريكي جون كينيدي اعترض على الخطة فوضعت في الأدراج.

هل ما حدث في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) هو نسخة أخرى من عملية نورثوودز، مع تعديل في الأسماء والأهداف؟

حول ذلك، وفي محاولة للإجابة على هذا السؤال الذي تتفرع منه الكثير من الأسئلة، وانطلاقاً من خبرته السابقة في دوائر الاستخبارات الأمريكية، يدخل كينيون غيبسون إلى أوكار الشر ويبحث بعمق في البنية التحتية التي تصنع السياسة والحرب والرأي العام في أمريكا، والتي تتألف من الاتحاد غير المقدس بين الشركات العملاقة، خاصة شركات النفط والسلاح، والاستخبارات واليمين السياسي الذي تمثله بعض دوائر الحزب الجمهوري.

الناشر

